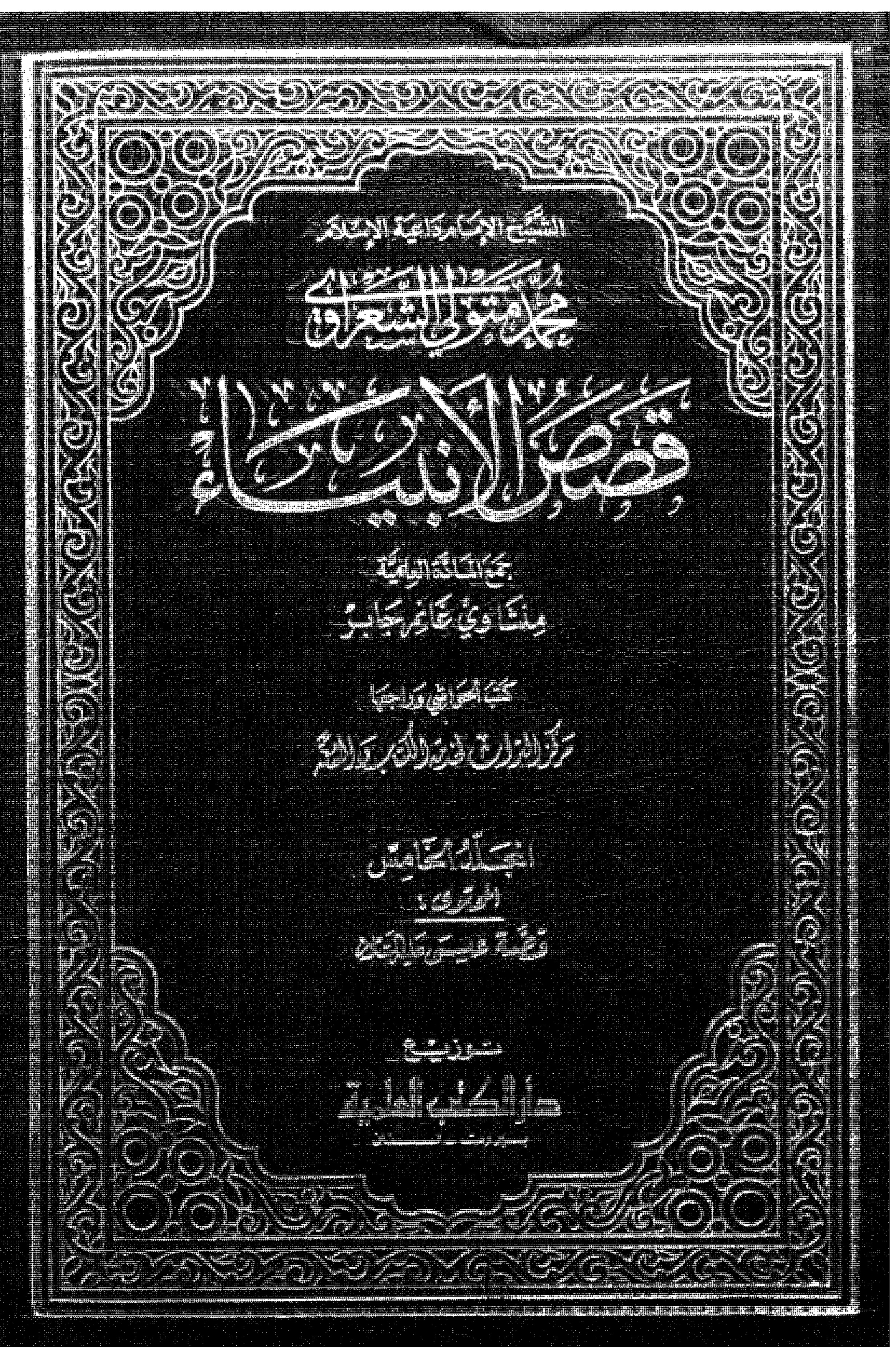
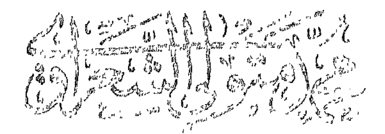
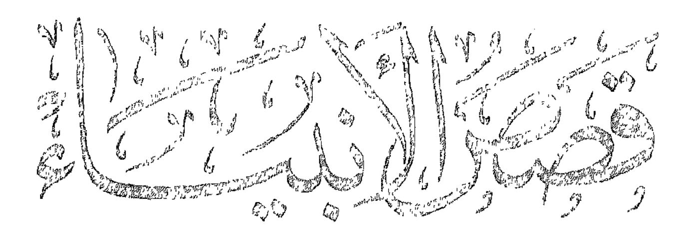

الشيخ الإمام داعية الإسلام
محمد متولي الشعراوي
قصص الأنبياء
جمع المادة العلمية
منشاوي غانم جابر
كتب الحواشي وراجعها
مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة
المجلد الخامس
الجزء ١
قصة عيسى عليه السلام
توزيع
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الشيخ الإمام داعية الإسلام





جمع المادة العلمية

منشاوي غانم جابر

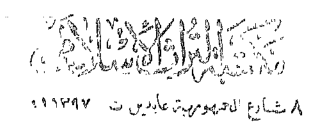
خرج أحاديثه وراجعها

مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة

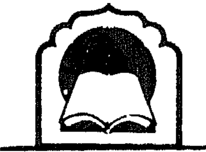
الجزء الخامس

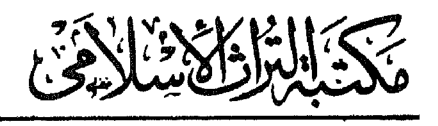
المحتوى:

قصة عيسى عليه السلام



٨ شارع الجمهورية عابدين ت ٩١٢٣٩٧





٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

* تحريم بعض الأطعمة على بنى إسرائيل *

يقول الحق جل وعلا: ﴿قُل لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾ [الأنعام] ،إن الحق جل وعلا يبلغ نبيه محمداً ﷺ أن تحريم بنى إسرائيل لبعض ألوان الطعام على أنفسهم ليس عليه دليل من الوحى؛لقد حرموا على أنفسهم إناث بعض الأنعام، وحرموا فى أوقات أخرى ذكور بعض الأنعام، وهم يتقلبون بين التحليل والتحريم دون سند من الوحى،ولا يوجد من الطعام ما هو محرم الآن إلا ما تم ذبحه بطريقة غير شرعية،أو كان حيوانا ميتاً،أو دما سائلاً،أو لحم خنزير،أو تم ذبحه تقربا لغير الله (١).

(١) روى عن طاوس: أن أهل الجاهلية كانوا يستحلون أشياء، ويحرمون أشياء، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقد ذكر الله قبل هذه الآية ما كانوا يحرمون من الأنعام ، وذمهم على تحريم ما أحله، وعنّفهم، وأبان عن جهلهم؛ لأنهم حرموا بغير وحى من الله،ثم أتبع ذلك البيان الصحيح فقال: ﴿قُل لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ...﴾ الآية؛فبين بذلك أن التحليل والتحريم لا يثبت كل منهما إلا بالوحى . وإذ ليس فى الوحى محرم غير =

= أربعة أشياء: الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، والفسق الذى أهل لغير الله به؛ ثبت أنه لا يحرم إلا هذه الأربعة.

واستشكلت هذه الآية بأنها حصرت المحرمات فى هذه الأربعة، ولا شك أنها أكثر من ذلك. وأجيب عن ذلك بأجوبة:

الأول: أن المعنى لا أجد محرمًا مما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب كما يشير إلى ذلك سبب النزول والآيات السابقة على هذه الآية.

وعلى هذا المعنى يكون الاستثناء منقطعًا، أى: لا أجد ما حرموه، لكن أجد الأربعة محرمة، والاستثناء المنقطع ليس كالمتصل فى إفادة الحصر، كما نبهوا على ذلك.

والجواب الثانى: أن المعنى لا أجد إلى الآن محرماً على طاعم يطعمه إلا الأربعة، ولم يرتض الإمام الرازى هذين الجوابين؛ لأنه ورد فى القرآن الكريم غير هذه الآية ثلاث آيات كلها تفيد حصر المحرمات فى هذه الأربعة؛ ففى سورة النحل قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾ [النحل: ١١٥].

وفى سورة البقرة قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٧٣] وإنما تفيد الحصر، فالآيتان تفيدان الحصر.

وفى سورة المائدة قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ [المائدة: ١] وهذه جملة حاصرة، وأجمع المفسرون على أن مراد الله بما يتلى هو قوله: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ...**﴾ الآية [المائدة: ٣]. وليس فيه إلا الأربعة، وأما المنخنقة وما معها، فإنما هى من أقسام الميتة، وخصت بالذكر؛ لأنهم كانوا يستحلونها، وإذ كانت الآيات الثلاث تدل على حصر المحرم فى الأربعة وجب القول بدلالة الآية التى معنا على الحصر، لتطابق الآيات التى ذكرنا؛ لأنها كلها فى موضوع واحد، وإن من هذه الآيات ما نزل بعد استقرار الشريعة، فآية البقرة مدنية، وليس قبلها ذكر ما كانوا يحرمون من البحائر والسوائب، وكذلك آية المائدة مدنية، وهى من آخر القرآن نزولاً، ولا شىء قبلها يقتضى تقييدها، والأصل عدم التقييد، فيدل ذلك على أن الحكم الثابت فى الشريعة من أولها إلى آخرها ليس إلا حصر المحرمات فى هذه الأشياء. =

. . . .

= والجواب الثالث ، وهو المَرْضِى: أن الآية وإن دلت على الحصر مخصوصة بالآيات والأخبار الدالة على تحريم ما حرم من غير الأربعة، مثل قوله تعالى : ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ فذلك يقتضى تحريم كل الخبائث المستقذرة، كالنجاسات وهوام الأرض، ومثل ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن جابر رضى الله عنه قال: « نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية» (١) .

وما روياه عن أبى ثعلبة الخشنى: « أن النبى ﷺ نهى عن أكل كل ذى ناب من السباع»(٢). وفى رواية ابن عباس : «وأكل كل ذى مخلب من الطير» (٣).

وما روياه عن عائشة وحفصة وابن عمر من قوله ﷺ «خمس من الدواب كلهن فاسق يقتلهن فى الحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأر، والكلب العقور» (٤).

ففى الأمر بقتلهن دلالة على تحريم أكلهن؛ لأنها لو كانت مما يؤكل لأمر بالتوصل إلى دفع أذاها بذكاتها، فلما أمر بقتلها، والقتل إنما يكون لا على وجه الذكاة؛ ثبت أنها غير مأكولة.

وكذلك ما نهى رسول الله ﷺ عن قتله؛ لأن ما يؤكل لا ينهى عن قتله. والشافعية يخصصونها أيضا بما روى عنه ﷺ أنه قال : «ما استخبثته العرب فهو حرام».

وشنع عليهم الإمام الرازى (٥) فى ذلك، ولكن كلامه لا يخلو عن وهن، ورأى الشافعية فى ذلك أن الحيوان الذى لم يرد فيه بخصوصه نص بالتحليل أو بالتحريم، ولم يؤمر بقتله، ولم ينه عن قتله، فإن استطابته العرب فهو حلال، وإن استخبثته فهو حرام . ومعتمدهم فى ذلك قوله تعالى : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة:٤] قالوا : وليس المراد بالطيب هنا الحلال؛ لأنه لو كان المراد الحلال لكان تقديره أحل لكم الحلال، وليس فيه بيان، وإنما المراد بالطيبات ما يستطيبه=

(١) أخرجه البخارى [٥٥٢٤] ، ومسلم [١٩٤١].

(٢) أخرجه البخارى [٥٥٣٠] ، ومسلم [١٩٣٣].

(٣) أخرجه مسلم [١٩٣٤].

(٤) أخرجه البخارى [١٨٢٩].

(٥) أحكام القرآن للجصاص[٣/ ٢٦].

. . . .

= العرب، وبالخبائث ما يستخبثونه، قالوا: ولا يرجع فى ذلك إلى طبقات الناس، وينزل كل قوم على عادتهم فى الاستطياب والاستخباث؛ لأنه يؤدى إلى اختلاف الأحكام فى الحلال والحرام واضطرابها، وذلك يخالف قواعد الشرع فيجب اعتبار العرب؛ فهم أولى الأمم بأن يؤخذ باستطيابهم واستخباثهم؛ لأنهم المخاطبون أولا، وهم جيل معتدل لا يغلب فيهم الانهماك على المستقذرات، ولا العفافة المتولدة من التنعم.

قالوا: وإنما يرجع إلى العرب الذين هم سكان القرى والريف، دون سكان البوادى الذين يأكلون ما دب ودرج من غير تمييز، وتعتبر عادة أهل اليسار والثروة، وحال الخصب والرفاهية.

وبعد.. فقد احتج بظاهر الآية: ﴿قُل لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ...﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥] كثير من السلف فأباحوا ما عدا المذكور فيها:

فقد أخرج أبو داود عن ابن عمر- رضى الله عنهما- أنه سئل عن أكل القنفذ فقرأ الآية (١).

وأخرج ابن أبى حاتم وغيره بسند صحيح عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير، قالت: ﴿قُل لا أَجِدُ ...﴾ (٢) الآية.

وعن ابن عباس أنه قال: ليس من الدواب شيء حرام إلا ما حرم الله تعالى فى كتابه: ﴿قُل لا أَجِدُ ...﴾ (٣) الآية. =

---

(١) أخرجه أبو داود [٣٧٩٩] عن عيسى بن نميلة، عن أبيه، قال: كنت عند ابن عمر فسُئل عن أكل القنفذ، فتلا: ﴿قُل لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا...﴾. قال: قال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند النبى ﷺ فقال: «خبيثة من الخبائث». فقال ابن عمر: إن كان قال رسول الله ﷺ هذا فهو كما قال مالم نَدْرِ.

وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [٨١٤]

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور [٣/ ٣٧٣] وعزاه لابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن مردويه.

(٣) أخرجه أبو داود [٣٨٠٠] عن ابن عباس بلفظ: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذُّرًا، فبعث الله تعالى نبيه، وأنزل كتابه، وأحلّ حلاله وحرَّم حرامه، فما أحلّ فهو حلال، وما حرَّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وتلا: ﴿قُل لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ...﴾ إلى آخر الآية، وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٢٢٥]: صحيح الإسناد.

إن تحريم أكل الميتة - وهو الحيوان الذى فارقته الروح من غير ذبح شرعى- كان حماية للإنسان من الأمراض؛ فقد يكون ذلك الحيوان قد مات بسبب مرض ما قد ينتقل للإنسان، أو يكون ذلك الحيوان قد مات نتيجة للتسمم فيصاب الإنسان بهذا السم.

وتحريم الدم إنما لهدف لم يكن يعرفه أهل ذلك الزمان، إنما اكتشفه العلماء مؤخرًا فى هذا العصر. إذن كان تحريم الدم لمصلحة الإنسان؛ فالدم يحمل عناصر متضادة فيها المفيد والضار، وفيه سموم أيضًا تفرزها الطفيليات

= هذا واستدل بقوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، على أنه إنما حرم من الميتة ما يتأتى فيه الأكل منها، فلم يتناول الجلد المدبوغ والشعر ونحوه، وقد فهم النبى ﷺ من النظم الكريم ذلك.

أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة - وفى بعض الروايات أنها كانت لميمونة- فقال رسول الله ﷺ: «لو أخذتم مسكها». فقالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت! فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما قال الله تعالى: ﴿قُل لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ وإنكم لاتطعمونه، إن تدبغوه تنتفعوا به»(١).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ يدل على أن المحرم من الدم ما كان سائلاً. قال ابن عباس: يريد ما خرج من الأنعام وهى أحياء، وما يخرج من الأوداج عند الذبح، فلا يدخل فيه الكبد والطحال لجمودهما، ولا الدم المختلط باللحم فى المذبح، ولا ما يبقى فى العروق من أجزاء الدم، فإن ذلك كله ليس بسائل.

واستدل الشافعية بقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] على نجاسة الخنزير بناءً على عود الضمير على خنزير؛ لأنه أقرب مذكور.

[تفسير آيات الأحكام للسايس: ٢/ ٦٤٤-٦٤٨]

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند [٦/ ٣٢٩] عن ابن عباس عن ميمونة أن النبى ﷺ مرّ بشاة لمولاة ميمونة ميته، فقال: «ألا أخذوا إهابها فدبغوه فانتفعوا به». فقالوا: يا رسول الله إنها ميتة، فقال رسول الله ﷺ: «إنما حرم أكلها».

الموجودة بجسم الحيوان؛ لذلك كان تحريم الدم ضرورة تقتضيها مصلحة الإنسان.

وفى هذا المجال لابد من لفت نظر الذين يقومون بالذبح؛ أن يتقوا الله، ويقوموا بالعملية بالطريقة الشرعية، وأن يتركوا المذبوح حتى ينتهى دمه تمامًا؛ ثم بعد ذلك يباشرون عملهم فى تهيئة اللحم للبيع.

وتحريم لحم الخنزير له أكثر من سبب.. إنه حيوان يأكل أى شىء حتى القاذورات، ولجسمه قابلية شديدة لحمل أنواع من الأمراض إذا انتقلت إلى الإنسان كانت شديدة الفتك به، بل إن بعض الأمراض التى يمكن أن ينقلها تناول لحم الخنزير تتسرب إلى العضلات، وإلى المفاصل، وإلى الأسنان وإلى الرئتين، وإلى الأمعاء، وإلى أعصاب العين، وتؤدى إلى التهاب بالمخ والخلايا العصبية. ورغم كل محاولات العلم لتطهير لحم الخنزير إلا أن كل تلك المحاولات فشلت ولم تأت بفائدة. والولايات المتحدة بكل تقدمها العلمى لم تستطع التوصل إلى أسلوب محدد لتربية الخنزير؛ حتى لا يحمل تلك الأمراض، ولكن الكشف الدورى على الخنازير يكشف دائمًا عن إصابتها بأمراض مختلفة، على الرغم من كل وسائل العناية التى يحيطون تربية الخنازير بها.

ويكفى أن نعلم أن دهون الخنزير تزيد من الإصابة بأمراض الحصى فى المرارة وانسداد قنواتها، وتضاعف من تصلب الشرايين، وبعض أمراض القلب(1).

(1) يقول الأستاذ الدكتور كارم السيد غنيم الاستاذ بجامعة الأزهرالشريف: أبرز ما كشفه العلم من أضرار صحية وأخطار طبية لأكل لحم الخنزير، فى فروع علمية عديدة، نلخص كل هذا فى النقاط التالية:

١- تقوم الخنازير بنقل أكثر من ٦٦ مرضا من الأمراض الطفيلية، منها ٣٠ مرضا - على الأقل - يصيب الإنسان، وهى أمراض مشتركة بين الحيوان والإنسان =

. . . .

= «Zoonosis»، منها ما تسببه الطفيليات الأولية «Parasitic Proto209 »، كالزحار الأميبى ، ومرض النوم ، والتوكسوبلازما ؛ ومنها ما تسببه الديدان المفلطحة « أىْ : المثقوبات أو الوشائع » كداء المحنزات الخصيوية ، والبلهارسيا اليابانية ، وداء ذوات الأفواه المشوكة ؛ ومنها ما تسببه الديدان الاسطوانية «الخيطيات » ، كداء الشعريات الشوكية ذات الفكين ، ومرض التركينا ، ودودة الرئة الخنزيرية ، ودودة المرىء الخنزيرية، دردة الكلى الخنزيرية ، ومنها ما تسببه الديدان الشريطية ، كالحويصلات الخنزيرية ، ودودة الخنزير الشريطية ؛ ومنها ماتسببه الطفيليات الخارجية كالجرب .

كما أن هناك أنواعا خطيرة من الأمراض الفيروسية تنقلها الخنازير للإنسان ، كمرض الكَلَب الكاذب « أوچيسكى» ، والحمى القُلاعية ، والحمى الصفراء ، والأنفلونزا الخنزيرية، والحمى الدماغية اليابانية ، والتهاب السحايا الليمفاوى ، والسعار . . وأنواع خطيرة من الأمراض البكتيرية ، مثل الجمرة الخبيثة ، والتسمم الوشيقى، والحمى المتموجة، والجمرة العرضية، والراعوم، وداء السل، والكزّاز، وأمراض فُطْرية ، مثل داء المبيّضات الفطرية « المونيلا»، والقراع ، ... .

٢- التأثر بسلوكيات الخنازير : يقال فى الأثر : « قل لى ماذا تأكل ، أقل لك من أنت»، كما يعلم قدامى العلماء من المسلمين المتضلعين بضروب مختلفة من العلم، بأن الطعام الذى يتناوله الشخص يؤثّر فى تكوينه الجسمانى وصفاته الشخصية وأنماطه السلوكية . ولنضرب على هذا مثالين اثنين فقط للاختصار ، هما: الإمام الفخر الرازى، والإمام ابن قيم الجوزية . فالأول يقول فى : مفاتيح الغيب ، وهو المسمى أيضًا : التفسير الكبير : أفاد أهل العلم بأن الغذاء يصير جزءًا من جوهر المتغذى؛ والثانى يقول فى زاد المعاد : . . . فإنه يكسب الطبيعة - أىْ : طبيعة البدن- والروح صفة الخبث ؛ لأن الطبيعة تنفعل عن كيفية الدواء انفعالا بيّنًا ، فإذا كانت كيفيته خبيثة ، أكسب الطبيعة منه خبثًا ، فكيف إذا كان خبيثًا فى ذاته !!

وإذا كانت دائرة المعارف البريطانية الصغيرة تصف الخنزير بأوصاف نطلق عليها فى اللغة العربية « الدياثة » ، إذ لا غيرة لديه ولا حمية ولا شجاعة فى الدفاع عن وطنه أو أهله وعشيرته ، بل إنه يترك حتى إناثه لمن يريد الاستمتاع الجنسى معها ،بل يزيد على هذا وذاك « اللواط » الذى ينتشر بين ذكور الخنازير . =

. . . .

= وإذا كان الطعام بكل أصنافه يتحول إلى المواد الحيوية المختلفة، إلا أن هناك خصيصة لدهن الخنزير ، فهو لا يتحول بعد الهضم والامتصاص إلى دهن بشرى، كما يحدث لأنواع الدهون الأخرى، سواء كانت من الحيوانات أم من النباتات ، بل الغريب أن يبقى كما هو « دهن خنزيرى » ، ويترسب فى خلايا جسم الإنسان على هيئته الخنزيرية !!

وليس بِخَافٍ على من عاش، أو زار، أو قرأ أو سمع عن حياة الناس فى المجتمعات الغربية ، الأوروبية والأمريكية ، وبعض الشعوب الآسيوية التى يأكل أفرادها ومواطنوها لحوم الخنازير - ليس بخاف على أحد- ما ينتشر فى هذه المجتمعات من إباحية جنسية، تتمثل فى انعدام العفة والطهارة ، وفى المعاشرة الجنسية بدون زواج ، وفى السفور والتعرى ، وفى الشذوذ والسحاق ونكاح المثل « Homosexuality» والدياثة والدعارة المتفشية ، وقد شاع بين بعض الأسر فى تلك المجتمعات نكاح المحارم «Incest» ، بل ونكاح الأطفال واغتصاب الصغار.

ونعود إلى القول المأثور الذى أوردناه آنفا ، وهو: « قل لى ماذا تأكل ، أقل لك من أنت»، فأكلة الخنازير هذا هو حالهم ؛ لأن الوجبة الغذائية الصحيحة من المصادر الصحيحة، تصلح كيميائية الجسم وتصحح وضع الجهاز العصبى ، بل والسلوكيات والأخلاق، ولن يفيد تعليم الأخلاقيات لأناس يأكلون طعاما يؤصِّل فى أنسجة أجسامهم عدم الأخلاق ، فالخنازير - بصفاتها التى أوردناها - تؤثر فى آكلى لحومها وشحومها !!

٣- التأثرات الضارة فى وظائف الأعضاء « فسيولوجيا الجسم »: كتب الدكتور : فردريك فيناس « Frederic Vinas » مقالة فى مجلة « Integral » سنة ١٩٧٨ م ، ومنها نسوق هذه اللقطات : وإضافة إلى بحوث الدكتور هانس هنرش ديكيفنج على الفئران ، هناك بحوث أجريت على الكلاب وعلى حيوانات السيرك كالأسود والنمور ، ووجدت أنها أصيبت بالسمنة بعد تغذيتها بلحم الخنزير ، ومنها من أصيب بالنزيف الأنفى ، بسبب ارتفاع ضغط الدم ، ومنها من مات . . . وحتى الأسماك ، من نوع السمك النهرى « Trucha »، كانت تموت بعد أيام من تغذيتها بلحم الخنزير. . . ويذكر أن الدكتور : ديكيفنج معروف فى ألمانيا ، بل وفى العالم ، بأنه مؤسس نظرية : التسمم البشرى =

أما تحريم ما ذبح لغير الله؛ فهذا لأن الإنسان يجب ألا ينسب فضل إطعامه إلى أحد غير الله[1].

= « Homotoxicologica » ، وهو يعتقد فى وجود مواد سامة بشرية فى لحم الخنزير ، ذكرتها عدة بحوث باسم « Sutoxine » .وختامًا ، فهناك بحوث عديدة تؤكد الأضرار الصحية لدهن الخنزير ، وتغلغله فى ألياف اللحم ، مما يعنى عدم القدرة على الهرب منه ، وتؤكد ارتفاع نسبة الكوليسترول المرتبط دائما مع الدهون الحيوانية ، وكذلك مركب يُدعى « متعدد السكر المخاطى »، وهو مركب خطير على صحة الإنسان؛لأنه يؤدى إلى حدوث أضرار كثيرة مثل انتفاخ الأنسجة الضامة « Connective Tissues » وتحولها إلى ما يشبه الأسفنجة المتصة للماء ، ومع كميات الدهن الكبير المتغلغلة فى لحم الخنزير ، يترهل الجسم ويتضخم . كما أن دهن الخنزير يحتوى كمية كبيرة من الكبريت ، وكذلك فإن دخول كميات بروتينية زائدة إلى الجسم يسبب حدوث أمراض فى الدورة الدموية . وإضافة إلى هذا كله ، فإن لحم الخنزير غنى جدا بهرمونات النمو « Growth hormones » التى تساعد على النمو وتعجّله ، ومن ناحية أخرى تساعد على زيادة القابلية للإصابة بالأمراض الورمية ، وخصوصًا الأورام الخبيثة ... وكل من الكوليسترول وهرمون النمو يساعد على الإصابة بمرض السرطان . وهناك مادة ثالثة فى لحم الخنزير تساعد على الإصابة به أيضًا هى: بينزوبيرونور « Benzopirenos » كما يحتوى لحم الخنزير مادة الهستامين « Histamine» والمركبات الأميدازولية ، وهما المسئولان عن ظهور أعراض الشرى« الطفح» والتهابات المرارة وأعضاء التناسل والأوردة والجلد. وهناك العديد من الأضرار والأخطار الصحية يضيق المقام هنا بعرضها ، وموضعها هناك فى الكتب والموسوعات .أ.هـ.

(١) عن أبى الطفيل قال : قلنا لعلىٍّ بن أبى طالب :
أخبرنا بشىء أسرّه إليك رسول الله ﷺ. فقال : ما أسَّر إلىَّ شيئًا كتمه الناس ، ولكنى سمعته يقول: « لعن الله من ذبح لغير الله. ولعن الله ،من آوى محدثًا ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من غيّر المنار » أخرجه مسلم [١٩٧٨/ ٤٤]
وقال النووى : وأما الذبح لغير الله فالمراد به: أن يذبح باسم غير الله تعالى، كمن ذبح للصنم أو الصليب أولموسى أو لعيسى صلى الله عليهما وسلم،أو للكعبة ونحو=

هذه هى المحرمات التى حرمها الله من الطعام على الإنسان،ولكن اليهود يحرمون على أنفسهم لحوم الإبل ،وشحوم البقر والأغنام،ولقد كان تحريم بعض ألوان الطعام على بنى إسرائيل هو عقاب لهم على ظلمهم، وتدريب لهم على عفة النفس وعدم اندفاعها إلى الشهوات(1).

= ذلك، فكل هذا حرام ، ولا تحل هذه الذبيحة ، سواء كان الذابح مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا ، نصَّ عليه الشافعى ، واتفق عليه أصحابنا . فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة له كان ذلك كفرًا ، فإن كان الذابح مسلمًا قبل ذلك صار بالذبح مرتدًا . وذكر الشيخ إبراهيم المروزى من أصحابنا : أن ما يذبح عند استقبال السلطان تقربًا إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه ؛ لأنه مما أُهلَّ به لغير الله تعالى . قال الرافعى : هذا إنما يذبحونه استبشارًا بقدومه، فهو كذبح العقيقة لولادة المولود ، ومثل هذا لا يوجب التحريم، والله أعلم .

[شرح النووى على مسلم : ٧/١٥٦ ، ١٥٧]

(١) قال تعالى: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣].

قال العلامة الشوكانى: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ ﴾ أى: المطعوم ، والحلّ: مصدر يستوى فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث وهو الحلال، و﴿ إِسْرَائِيلَ ﴾ هو يعقوب كما تقدم .

ومعنى الآية : أن كل المطعومات كانت حلالا لبنى يعقوب لم يحرّم عليهم شىء منها إلا ما حرم إسرائيل على نفسه،وهذا الاستثناء متصل من اسم ﴿ كَانَ ﴾. وقوله : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ كَانَ حِلاًّ ﴾ أى: أن كل المطعومات كانت حلال، ﴿ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ مشتملة على تحريم ما حرمه عليهم لظلمهم، وفيه رد على اليهود لما أنكروا ما قصَّه الله سبحانه على رسوله ﷺ من أن سبب ما حرمه الله عليهم هو ظلمهم وبغيهم، كما فى قوله : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠] .

وقوله: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٦] .

=

وإن كذّب أحد الرسول فى ذلك فليأت بنص من التوراة مخالف لما جاء به رسول الله ﷺ؛ ولأن التوراة من عند الله؛ وهو سبحانه الذى أنزل القرآن ، فحاشا لله أن يتضارب ما نزل فى التوراة على موسى مع ما نزل فى القرآن الكريم على محمد ﷺ .

إذن . . فلابد أن هناك تحريفاً قد تم فى التوراة بواسطة من استحفظهم الله عليها.

= وقالوا: إنها محرمة على من قبلهم من الأنبياء ، يريدون بذلك تكذيب ما قصّه الله على نبينا ﷺ فى كتابه العزيز، ثم أمره الله سبحانه بأن يحاجهم بكتابهم، ويجعل بينه وبينهم حكماً ما أنزله الله عليهم، لا ما أنزله عليه، فقال : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] حتى تعلموا صدق ما قصه الله فى القرآن، من أنه لم يحرم على بنى إسرائيل شىء من قبل نزول التوراة ، إلا ما حرمه يعقوب على نفسه . وفى هذا من الإنصاف للخصوم ما لا يُقادَر قدره ولا يبلغ مداه.
[فتح القدير : ١/ ٤٤١]

وعن ابن عباس قال : أقبلت يهود إلى النبى ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو ؟ قال : « ملك من الملائكة موكّل بالسحاب ، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله » . فقالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : «زَجْره بالسحاب إذا زَجَره حتى ينتهى إلى حيث أُمر ». قالوا : صدقت . فأخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه ؟ قال : « اشتكى عرق النَّسا فلم يجد شيئًا يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها ، فلذلك حرَّمها » . قالوا : صدقت .
أخرجه الترمذى [٣١١٧] وقال : حديث حسن غريب واللفظ له ، وأحمد فى المسند [١/ ٢٧٤] ، والنسائى فى الكبرى [٩٠٧٢] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤٩٢] ، وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٤٨٣].

* لماذا حرم الله بعض الطيبات على بنى إسرائيل *

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠].

إذن.. تحريم بعض الطيبات على بنى إسرائيل، إنما هو نتيجة لظلمهم؛ ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء:١٦١].

وقد يتساءل البعض، فيقول: أى ظلم ارتكبوه ليُعاقبوا بتحريم بعض الطيبات عليهم ؟

وقبل أن نجيب على هذا التساؤل يجب أن نعرف معنى الظلم، فالظلم معناه: أن تحكم لغير ذى حق بحق، وقمة الظلم أن تجعل لله ندًا أو شريكًا؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(١) [لقمان: ١٣].

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾». أخرجه البخارى [٤٧٧٦].

وعن عبد الله بن مسعود قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك». قلت: إن ذلك لعظيم. قلت: ثم أى ؟ قال: «ثم أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك». قلت: ثم أى ؟ قال: ثم أن تزانى حليلة جارك». أخرجه البخارى [٧٥٢٠] واللفظ له، ومسلم [٨٦]. =

وبنو إسرائيل لم يكتفوا باتخاذهم آلهة وأندادا من دون الله، بل كانوا يصدون عن سبيل الله كثيرًا. وهذه طبيعة الكافرين فى كل زمان ومكان - فهم لا يكتفون بكفرهم وظلمهم، بل يريدون أن يوقعوا الناس فيما وقعوا فيه. ولكن كيف كان صدهم عن سبيل الله، وبأى الوسائل صدوا؟ بأخذهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وادعائهم أن لله ابنًا هو العزير، وقتلهم الأنبياء، وخاتمة ذلك كله عدم إيمانهم برسول الله ﷺ، وهم أهل كتاب، ولو آمنوا لسارع عدد كبير فى اتباعهم.

ثم بمحاولاتهم الوقيعة بين المؤمنين فى المدينة، ونقضهم للمعاهدات والاتفاقات.

وهذا قليل من كثير، من صدهم عن سبيل الله ، وجزاؤهم: أن حملوا أوزار مَن أضلوهم وخدعوهم علاوة على أوزارهم، والجزاء من جنس العمل. قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] .

لقد ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم. إن أوزارهم التى حملوها هى نتيجة ضلالهم، وأوزار غيرهم إنما يحملونها نتيجة إضلالهم لهذا الغير، وهذا لا يتعارض مع قول الله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] إن لكل وزر طريقا وحسابا، فالإنسان يحمل وزر ضلاله وحده إن لم يضل

= وعن معاذ رضى الله عنه قال: كنت رِدْف النبى ﷺ على حمار يقال له : عُفَيرُ فقال: « يا معاذ هل تدرى حق الله على عباده وما حق العباد على الله ؟» قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يُعذِّب من لا يشرك به شيئًا » . فقلت : يا رسول الله أفلا أبشِّر به الناس ؟ قال : « لا تُبشِّرهم فيتَّكلوا» . أخرجه البخارى [٢٨٥٦] .

به أحدا غيره ، ولكن إن حاول إضلال غيره ، فهو يتحمل وزر هذا الإضلال (١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١] ؛ إن أخذ الرشوة هو أكل لمال الناس بالباطل، وكذلك السرقة، والغش في السلع، إنه أخذ للمال من الناس بغير حق ، وما أخذ بغير الحق فهو باطل. والحق سبحانه قد أعد لهم - مسبقا - عذابا أليما. فكل إنسان له مقعدان: مقعد من الجنة إن قدر إيمانه، ومقعد من النار إن قدر كفره. فقد خلق الله مقاعد الجنة على أساس أن كل الناس مؤمنون، وكذلك مقاعد النار على أساس أن كل الناس كافرون (٢).

---

(١) قال القرطبي : وروى أبو داود عن أبي رِمْثة قال : انطلقت مع أبي نحو النبي ﷺ، ثم إن النبي ﷺ قال لأبي : «ابنك هذا؟» قال : إي ورب الكعبة. قال : «حقا ؟ » قال : أشهد به . قال : فتبسم النبي ﷺ ضاحكا من ثبت شبهي في أبي ، ومن حلف أبي علي. ثم قال: «أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه». وقرأ رسول الله ﷺ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (١). ولا يعارض ما قلناه أولا بقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] ؛ فإن هذا مبين في الآية الأخرى قوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] . فمن كان إماما في الضلالة ودعا إليها واتبع عليها، فإنه يحمل وزر من أضله من غير أن ينقص من وزر المضل شيء. [تفسير القرطبي : ١٥٨/٧]

(٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه - وإنه ليسمع قرع نعالهم - أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ - لمحمد ﷺ - فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة، فيراهما جميعًا». قال قتادة : وذُكر لنا أنه يُفسح في قبره . =

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٤٩٥] ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٧٧٣]

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١] إن المؤمن بعد أن يتبوأ مقعده فى الجنة، يورثه الله المقعد الذى أعده للكافر، فقد كان للكافر قبل أن يكفر مقعد فى الجنة لو كان قد اختار الإيمان.

ولكن هل يستوى فى ذلك كل أهل الكتاب؟بالطبع لا.. لقد كان هناك من ينتظر البعثة ليؤمن بالنبى المنتظر،وهناك من يأتى من أقاصى الأرض إلى مكة تحسبًا لظهور النبى فيها، ومنهم من يعرف العلامات والأمارات الدالة عليه ﷺ فى التوراة والإنجيل.

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يستثنى من أهل الكتاب الراسخين فى العلم فيقول: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢] . إذن.. لم يعمم الله الحكم على كل أهل الكتاب،هذا الحكم الذى سبق بكفرهم،وظلمهم لأنفسهم، وأخذهم الربا وغير ذلك.

ومثال ذلك: جاء إلى الرسول ﷺ عبد الله بن سلام، الذى كان يعلم أن اليهود قوم بهت، وقال: يا رسول الله، إنى لمؤمن بك رسولا من عند الله، ووالله لقد عرفتك حين رأيتك كمعرفتى لابنى، بل إن معرفتى لك أشد (١).

= ثم رجع إلى حديث أنس قال: «وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى،كنت أقول ما يقوله الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين». أخرجه البخارى [١٣٧٤]

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: «أقبل نبى الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يُعرف ونبى الله ﷺ شاب لا يُعرف. =

= قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : يا أبا بكر من هذا الرجل الذى بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهدينى السبيل.

قال : فيحسب الحاسب أنه إنما يعنى الطريق ، وإنما يعنى سبيل الخير. فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال: يا رسول الله ، هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت نبى الله ﷺ فقال : «اللهم اصرعه». فصرعه الفرس، ثم قامت تحمحم، فقال: يا نبى الله، مرنى بم شئت. قال : «فقف مكانك، لا تتركن أحدًا يلحق بنا».

قال : فكان أول النهار جاهدًا على نبى الله ، وكان آخر النهار مسلحة له. فنزل رسول الله ﷺ جانب الحرة، ثم بعث إلى الأنصار فجاءوا إلى نبى الله ﷺ وأبى بكر فسلموا عليهما وقالوا : اركبا آمنين مطاعين . فركب نبى الله ﷺ وأبو بكر وحفوا دونهما بالسلاح، فقيل فى المدينة: جاء نبى الله ، جاء نبى الله ، فأشرفوا ينظرون ويقولون : جاء نبى الله .

فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبى أيوب، فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله ابن سلام وهو فى نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع الذى يخترف لهم فيها، فجاء وهى معه، فسمع من نبى الله ﷺ ثم رجع إلى أهله، فقال نبى الله ﷺ : «أى بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب : أنا يا نبى الله. هذه دارى وهذا بابى.

قال : «فانطلق فهيئ لنا مقيلا». قال : قوما على بركة الله تعالى .

فلما جاء نبى الله جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسملت، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىَّ ما ليس فىَّ .

فأرسل نبى الله ﷺ، فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ :

«يا معشر اليهود ، ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقًا، وأنى جئتكم بحق، فأسلموا». قالوا: ما نعلمه - قالوا للنبى ﷺ قالها ثلاث مرار - قال : «فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام؟»

قالوا: ذاك سيدنا، وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم. قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم. قال : « أفرأيتم إن أسلم؟ » قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم . قال: «يا ابن سلام اخرج عليهم». فخرج، فقال : يا معشر اليهود، اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق . فقالوا : كذبت. فأخرجهم رسول الله ﷺ . اخرجه البخارى [٣٩١١]

وذلك قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [الأنعام: ٢٠] ولا أحد يعجز عن معرفة ابنه، كذلك الراسخون فى العلم يعرفون محمدا رسولا من الله ومبلغاً عنه.

وكان عبد الله بن سلام رضى الله عنه من الراسخين فى العلم(١) . والراسخ فى العلم هو الثابت على إيمانه، لا يتزحزح عنه، ولا تأخذه الأهواء والنزوات .

(١) عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ ...﴾ الآية، قال: «نزلت فى عبد الله بن سلام وأسيد بن سعية وثعلبة بن سعية، حين فارقوا يهود وأسلموا». [الدر المنثور : ٢/ ٧٤٤]

* الحكمة من اختيار اثنى عشر نقيبا *

قال الله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾(١) لقد اختار الحق اثنى عشر نقيبا على عدد الأسباط ؛حتى لا يقولن سبط: كيف لا يكون لى نقيب؟ لقد حسم الحق الأمر، ولم يجعله محلا للنزاع؛لذلك جعل لكل سبط نقيبا منهم، والنقيب(٢) هو الذى يدبر حركتهم العقدية والدينية .

إن كلمة نقيب تتكون من مادة «النون،والقاف،والباء» ، و«النقب» هو إحداث فجوة لها عمق فى أى جسم صلب، والكلمة تدل على أن النقيب الصدق صاحب عينين فى منتهى اليقظة؛ حتى يختار لكل فرد المهمة التى تناسبه،ويركز على كل فرد بما يجعله يؤدى عمله بما ينفع الحركة الكاملة، وبذلك يكون كل فرد فى السبط له عمله ومكانه المناسب، وهذه العملية لاتأتى إلا بالتنقيب؛ أى: معرفة حالة كل واحد وميوله، فيضعه فى المكان المناسب،فالنقيب: هو المنقب الذى لا يكتفى بظواهر الأمر،بل ينقب ليعرف ظروف وأسباب كل واحد؛لذلك اختار الحق من كل سبط نقيبا،ولم يجعل

(١) قال السيوطى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ يعنى بذلك: وبعثنا منهم اثنى عشر كفيلا، فكفلوا عليهم بالوفاء لله بما وثقوا عليه من العهود فيما أمرهم عنه.

وعن قتادة فى قوله : ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ قال: شهيدا؛ من كل سبط رجل شاهد على قومه. [الدر المنثور: ٣/ ٣٩]

(٢) النقيب: عريف القوم، والجمع نقباء،وهو شاهد القوم وضمينهم،ونقب عليهم ينقب نقابة : عرف ؛ وفى التنزيل العزيز :﴿اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ . قال أبو إسحاق: النقيب فى اللغة كالأمين والكفيل. [لسان العرب: ١/ ٧٦٩]

لسبط نقيبا من سبط آخر؛ حتى يمنع السيطرة من سبط على سبط، ويمنع أن يأخذ الإنسان بجهالة من الأسباط الآخرين.

ونحن نسمع فى حياتنا العادية وصفاً لإنسان «فلان له مناقب كثيرة» (١)، أى أن له فضائل يذكرها الناس، كأنه على صاحب الفضائل ألا يتباهى بها بنفسه، بل يجب أن يترك الناس لينقبوا عن فضائله.

ولذلك كانت كنوز الأرض، وكنوز الحضارات مدفونة ننقب عنها، أما الذى كان على سطح الأرض؛ فتذروره الرياح وعوامل التعرية، ولم يبق منه شىء.

ولما بعث الله الاثنى عشر نقيبًا ، قال لهم : ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ [المائدة: ١٢]؛ وذلك يعطيهم خصلة إيمانية؛ والمعنى: إياكم أن تظنوا أنكم تواجهون أعداء منهج الله بذواتكم أنتم ،لا.. إنكم تواجهونهم بمعونة الله لكم، فإياكم أن تضعفوا أو تهنوا ؛وكما قال الحق: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وبعد أن يُعِدَّ المؤمنون ما استطاعوا ويأخذوا بالأسباب، فليسلموا الأمر لرب الأساب وليتوكلوا عليه سبحانه(٢).

---

(١) النَّقْب: الثَّقْب فى أى شىء كان، نَقَبَه يقبه نقبًا. ونقَّب عن الأخبار وغيرها: بحث، وقيل: نقَّب عن الأخبار: أخبر بها. وقولهم: فى فلان مناقب جميله، أى: أخلاق. وهو حسن النقيبة؛ أى: جميل الخليقة. وإنما قيل للنقيب: نقيب؛ لأنه يعلم دخيلة أمر القوم، ويعرف مناقبهم. وهو الطريق إلى معرفة أمورهم [لسان العرب: ١/ ٧٧٠]

(٢) عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرَّمى ، ألا إن القوة الرَّمى ، ألا إن القوة الرَّمى». أخرجه مسلم [١٩١٧].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «من احتبس فرسا فى سبيل الله، إيمانا بالله وتصديقا بوعده، فإن شِبَعَه وريَّه ورَوثَه وبوله فى ميزانه يوم القيامة». أخرجه البخارى [٢٨٥٣]

وأيضا قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾؛ أى: أن كل نقيب على سبط ليس له مطلق التصرف؛ ولكن الله يقول: أنا معكم، وسأنظر كيف يدير كل نقيب هذه المسائل. أى أنه سبحانه وتعالى مطلع عليهم، فليست الولاية أن يكون للوالى مطلق التصرف فى جماعته؛ لأن الله رقيب عليه. ويستفاد من ذلك أن من ولَّى أى إنسان أمرا لابد أن يتابعه ويراقبه ؛ كما يجب على من ولِىَ أمرًا من أمور المسلمين ، أن يتقى الله فى هذه الأمانه؛ فإن الله محاسبه عليها (١). ولنا فى رسول الله ﷺ وخلفائه من بعده الأسوة الحسنة.

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢] كلمة: ﴿لَئِنْ﴾ تضم شرطا وقسما، كأن الحق يقول: وعزتى لئن أقمتم الصلاة وفعلتم كذا وكذا، ليكونن الجزاء أن أكفر عنكم السيئات. «اللام» دلت على القسم، و«إن» تدل على الشرط، فهى إذن «إن الشرطية».

إن القسم يحتاج إلى جواب، والشرط يحتاج إلى جواب أيضاً، فالواحد منا يقول للطالب: «إن تذاكر تنجح». يقول أيضًا: «والله لأفعلن كذا». إن «الله» هو المُقْسَم به، ولأفعلن هى جواب القسم المؤكد باللام. والقسم حين

---

(١) وفى الحديث عن عبد الرحمن بن شماسة. قال: أتيت عائشة اسألها عن شيء. فقالت: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر. فقالت: كيف كان صاحبكم لكم فى غزاتكم هذه ؟ فقال: ما نقمنا منه شيئاً. إن كان ليموت للرجل منا البعير، فيعطيه البعير، والعبد، فيعطيه العبد. ويحتاج إلى النفقة، فيعطيه النفقة. فقالت: أما إنه لا يمنعنى الذى فعل فى محمد بن أبى بكر، أخى، أن اخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ، يقول فى بيتى هذا: «اللهم امن ولى من أمر أمتى شيئاً فشقَّ عليهم، فاشقق عليه. ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم، فارفق به».

أخرجه مسلم [١٨٢٨]

يأتى بمفرده فى جملة يكون له جواب، وحين يأتى الشرط بمفرده فى جملة يكون له جواب أيضًا، ولكن ماذا عندما يأتى القسم مع الشرط؟ هل يأتى جوابان للشرط والقسم ؟

إننا عندما نجد هذه الحالة فلننظر إلى المتقدم منهما: هل هو القسم أم الشرط؟ إن المتقدم منهما هو الأهم، ويأتى جوابه، ويغنى هذا الجواب عن جواب الثانى. إن المتقدم هنا هو القسم. . تماما مثل قولنا: لئن قام زيد لأقومن. إن الجواب هنا يكون جواب القسم، أما إذا قلنا: إن قام زيد والله لأقومن. فالجواب هنا جواب الشرط؛ لأن الشرط تقدم على القسم، هذا إن لم يكن قد تقدم بالخبر، فإن جاء بالخبر فالشرط هو الراجح؛ لأن الشرط تأكيد مستمر، والقسم توكيد لحظة - أى لحظة القسم:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم   جواب ما أخّرت فهو مُلْتَزَم

وإن تواليا وقبل ذو خبر   فالشرط رَجِّح مطلقا بلا حذر(١)

ولأن القسم تقدم فى هذه الآية . . فالجواب هنا هو جواب القسم وهو: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ .

عندما نتأمل قول الحق: ﴿أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ﴾ فالإقامة تحتاج إلى أمرين؛ الأول: أركان تؤتى. الثانى : كل ركن فيها يأخذ حقه فى القيام به.

ويأتى من بعد ذلك ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ ، . فى كتب الفقه نضع الصلاة والزكاة فى باب العبادات. وعلينا أن نلحظ أن التقسيم الفقهى هو لتسهيل

(١) هذان البيتان من ألفية ابن مالك المشهورة . وهى ألف بيت فى النحو ، وضعها إمام النحاة أبو عبد الله جمال الدين محمد بن مالك الأندلسى، المولود بَحيَّان سنة ستمائة من الهجرة ، والمتوفى فى دمشق سنة اثنين وسبعين وستمائة من الهجرة .

وتسمية الألفية مأخوذة من قوله فى أولها :

وأستعين الله فى ألْفِيَّهْ   مقاصد النحو بها مَحْوِيَّهْ

إيضاح الواجبات، لكن علينا أن نعرف أن كل ما نؤمر به من الله عبادة؛ لأن العبادة هى أن تطيع من تعبد فى كل ما أمر به، وأن تجتنب ما نهى عنه. فكل أمر إلهى هو عبادة ،وقلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ [الجمعة: ٩]، وقوله: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠] ؛إننا هنا أمام أمرين،الأول: وهو أن نترك البيع ونذهب إلى الصلاة . والثانى:هو أن ننتشر فى الأرض؛ابتغاءً لفضل الله بعد انقضاء الصلاة. وأى إخلال بالأمرين هو إخلال بأمر تعبدى، فأنت مأمور بأن تتحرك فى الأرض على قدر قوتك حركة تكفيك، وتفيض عن حاجتك ليعم هذا الفائض على غيرك.

وقوله :﴿ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾[1] أى: أن ينعقد الإيمان فى القلب فلايطفو الأمر بعد ذلك لمناقشة،وتعزير الرسل:توقيرهم ونصرتهم؛ ولأن العزر فى اللغة معناه المنع[2]، ولكن المنع هنا بمعنى أن يمنع المؤمنون الأذى عن رسل الله؛ فإذا أراد أحد من الأعداء السوء برسول من رسل

---

(١) قال البقاعى: : ﴿ وَآمَنتُم بِرُسُلِي ﴾. اى: ادمتم الإيمان بموسى عليه السلام وجددتم الإيمان بمن يأتى بعده، فصدقتموهم فى جميع ما يأمرونكم به : ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾. اى ذببتم عنهم، ونصرتموهم ومنعتوهم أشد المنع. والتعزير والتأزير من باب واحد. [نظم الدرر: ٦/ ٤٩]

(٢) يقال: عَزَرْتُه وعَزَّرته، فهو من الأضداد، وعزره: فخَّمه وعظَّمه، فهو نحو الضد. والعَزْرُ: النصر بالسيف. وعَزَرَه عزراً وعزَّره: أعانه وقوّاه ونصره. قال الله تعالى: ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ ، وقال الله تعالى: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾؛ جاء فى التفسير أى: لتنصروه بالسيف،ومن نصر النبى ﷺ،فقد نصر الله عز وجل.﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ : عظَّمتموهم،وقيل: نصرتموهم؛قال إبراهيم بن السَّرِىّ: وهذا هو الحق، والله تعالى=

الله، فعلى المؤمنين أن يمنعوا هذا العدو عن الوصول للرسول؛فمثلا إن كان لك صديق أراده إنسان بسوء، وأنت لا تدرك هذا العدو؛ لأنه بعيد عنك ماذا تصنع؟ إنك تأخذ صاحبك وتحميه من أن يناله العدو،لكن إن كان العدو أمامك فأنت تصده عن صديقك.

إذن. . فالعزر هو المنع،أى أن تمنعه من عدوه،أو تمنع عدوه من الوصول إليه. والرسول بالنسبة للمؤمنين به تكون حياته أغلى من حياتهم، ذلك أنه أثناء المنع قد يصاب أحد المؤمنين،وفى ذلك تعظيم للرسول، ونصرة له وتوقير له،نقول ذلك حتى نرد على الذين يتصيدون لنا ويقولون:إن علماء المسلمين لا يتفقون على شيء،فمرة يقولون:﴿عَزَّرْتُمُوهُم﴾ معناها: نصرتموهم،ومرة أخرى يقولون:﴿عَزَّرْتُمُوهُم﴾ معناها:منعتموهم، ولهؤلاء نقول: إن كل المعانى هنا ملتقية ،فالعزر هو الرد والمنع، إما بمنع العدو عن الرسول،أو أن يمنع المؤمنون الرسول من أن يناله العدو، أو الاثنان معا. .فإن قلنا:إن معنى ﴿عَزَّرْتُمُوهُم﴾ هو نصرتموهم فهذا جائز، وإن قلنا: إن معناها :وقرتموهم فهذا جائز ؛ لأن التعظيم والتوقير هما السبب فى نصرة الإنسان للرسول .

= أعلم؛ وذلك أن العزر فى اللغة الرد والمنع، وتأويل: عَزَرْت فلاناً ،أى: أدبته إنما تأويله: فعلت به ما يردعه عن القبيح، كما أن: نكّلت به تأويله: فعلت به ما يجب أن يَنْكل معه عن المعاودة؛ فتأويل: ﴿عَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ نصرتموهم، بأن تردوا عنهم أعداءهم، ولو كان التعزير هو التوقير لكان الأجود فى اللغة الاستغناء به، والنصْرة إذا وجبت فالتعظيم داخل فيها؛ لأن نصرة الأنبياء هى المدافعة عنهم، والذب عن دينهم ، وتعظيمهم وتوقيرهم؛ قال: ويجوز تَعْزِرُوه، من عَزَرْته عَزْراً بمعنى: عَزَّرته تعزيراً. والتعزير فى كلام العرب: التوقير. والتَّعزير: النصر باللسان والسيف. [لسان العرب: ٤/ ٥٦٢]

ومن بعد ذلك يقول: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(1) [المائدة: ١٢] هنا نجد أن الحق سبحانه وتعالى يدبر لنا سياسة المال ،سواء للقادر أو غير

(١) قال ابن الجوزى: قال الزجاج: أصل القرض ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه وأصله فى اللغة القطع، ومنه أخذ المقراض. فمعنى أقرضته: قطعت له قطعة يجازينى عليها. فإن قيل: فما وجه تسمية الصدقة قرضاً؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:
أحدها: لأن القرض يبدل بالجزاء.
والثانى: لأنه يتأخر قضاؤه إلى يوم القيامة.
والثالث: لتأكيد استحقاق الثواب به؛ إذ لا يكون قرض إلا والعوض مستحق به.
فأما اليهود فإنهم جهلوا هذا، فقالوا: أيستقرض الله منا؟ وأما المسلمون فوثقوا بوعد الله، وبادروا إلى معاملته.
قال ابن مسعود: لما نزلت هذه الآية، قال أبو الدحداح: وإن الله تعالى ليريد منا القرض؟ فقال النبى ﷺ: «نعم». قال: أرنى يدك. قال: إنى أقرضت ربى حائطى. قال: وحائطه فيه ستمائه نخلة. ثم جاء إلى الحائط، فقال: يا أم الدحداح اخرجى من الحائط، فقد أقرضته ربى. وفى بعض الألفاظ : فعمدت إلى صبيانها تخرج ما فى أفواههم، وتنفض ما فى أكمامهم، فقال النبى ﷺ: «كم من عذق رداح فى الجنة لأبى الدحداح»(1).
وفى معنى القرض الحسن ستة أقوال:
أحدها: أنه الخالص لله، قاله الضحاك.
والثانى: أن يخرج عن طيب نفس، قاله مقاتل.
والثالث: أن يكون حلالاً. قاله ابن المبارك.
والرابع: أن يحتسب عند الله ثوابه.
والخامس: أن لا يتبعه مناً ولا أذى.
والسادس: أن يكون من خيار المال. [زاد المسير: ١/ ٢٥٤ ، ٢٥٥]

(١) أخرجه مسلم [٨٩/٩٦٥ ما بعده] بدون ذكر القصة، عن جابر بن سَمُرة بلفظ : « كم من عذق معلّق - أو مدلّى - فى الجنة لابن الدَّحداح» . أو قال شعبة : «لأبى الدحداح ».
وأخرجه الطبرانى فى الكبير [٧٦٣/٢٢] عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وذكر القصة بلفظ : « كم عذق رداح لأبى الدحداح » مراراً .

القادر، فالقادر يقول له الحق: لا تجعل حركة حياتك على قدر حاجتك؛ بل اجعل حركة حياتك على قدر طاقتك، وخذ منها ما يكفيك ويكفى من تعول، والباقى رُدَّه على غير القادر. ذلك أنه لو جعل كل إنسان حركة حياته على قدر حاجته، فالذى لا يقدر على الحركة من الذى يعوله أو يتصدق عليه؟!

إن الله تبارك وتعالى امتدح المؤمنين فقال عز من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾ [المؤمنون] .

وليس معنى قول الحق: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ مجرد أداء الزكاة فقط، إنما معناه أنهم يتحركون فى الحياة بغرض أن يتحقق لهم فائض يخرجون منه الزكاة، وإلا فما الفارق بين المؤمن والكافر؟! إن الكافر يعمل ليقوت نفسه ، ويقوت من يعول ، وهو غافل عن الله.

أما مزية المؤمن فإنه يعمل ليقوت نفسه ويقوت من يعول، ويبقى لديه فائض يعطيه لغير القادر، فكأن إعطاء غير القادر يجعله المؤمن نُصْب عينيه، وهذا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ،

(١) عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن قال : « إنك تقدم على قوم أهل كتاب . فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل . فإذا عرفوا الله ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم . فإذا فعلوا ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم . فإذا أطاعوا بها ، فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم » . أخرجه البخارى [١٣٩٥، ١٤٥٨، ١٤٩٦، ٤٣٤٧، ٧٣٧١ ، ٧٣٧٢] ، ومسلم [١٩/ ٣١] واللفظ له .

وعن أبى أيوب رضى الله عنه : أن رجلا قال للنبى ﷺ: أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة. قال : ماله ماله . وقال النبى ﷺ : « أرب ماله ، تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصل الرحم » . أخرجه البخارى [١٣٩٦].

أى يجب أن تكون كل حركة للمؤمن يُقصدُ منها أن تكفيه هو ومن يعول، وتفيض عن حاجته؛ ليؤدى الزكاة لغير القادر،أو يتصدق منها على الفقراء والمساكين.

والزكاة(١): هى إخراج المال على نحو مخصوص.

أما الصدقة(٢) فهى غير محسوبة من الزكاة، لكنها فوق الزكاة.

---

(١) الزكاة اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء ؛ وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة ، وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات ؛ فإنها مأخوذة من الزكاة ، وهو النماء والطهارة والبركة . قال الله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] .

وهى أحد أركان الإسلام الخمسة ،وقُرنت بالصلاة فى اثنتين وثمانين آية وقد فرضها الله تعالى بكتابه ، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع أمته . [فقه السنة : ١/٣١٨]

وفى اللسان : الزكاة: الصلاح. وزكاة المال معروفة وهو تطهيره، وقيل لما يخرج من المال للمساكين من حقوقهم: زكاة؛ لأنه تطهير للمال وتثمير وإصلاح ونماء. وأصل الزكاة فى اللغة: الطهارة والنماء والبركة. [لسان العرب: ١٤/٣٥٨]

(٢) دعا الإسلام إلى البذل ، وحضَّ عليه فى أسلوب يستهوى الأفئدة ، ويبعث فى النفس الأريحية ، ويثير فيها معانى الخير والبر والإحسان .

١- قال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

٢- وقال : ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢] .

٣- وقال : ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧] .

١- وقال رسول الله ﷺ : « إن الصدقة تطفىء غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء » (١) رواه الترمذى وحسنه . =

---

(١) أخرجه الترمذى [٦٦٤] عن أنس بن مالك ، وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه، وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [١٠٥] . وقوله «ميتة السوء» : أى سوء العاقبة .

وأما القرض[1]. وهو المال الذى تتعلق به النفس، يقدمه الإنسان لغيره

= ٢- وروى كذلك : أن رسول الله ﷺ قال : « إن صدقة المسلم تزيد فى العمر وتمنع ميتة السوء ويذهب الله بها الكبر والفخر » [1].

٣- وقال ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»[2]رواه مسلم .

٤- وقال ﷺ : « صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، والصدقة خفيًا تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر ، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف فى الدنيا ، هم أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا ، هم أهل المنكر فى الآخرة ،وأول من يدخل الجنة أهل المعروف»[3].رواه الطبرانى فى الأوسط، وسكت عليه المنذرى . [فقه السنة : ١/ ٣٩٢]

وفى اللسان : الصدقة: ما تصدقت به على الفقراء وما أعطيته فى ذات الله للفقراء. [لسان العرب: ١٠/ ١٩٦]

(١) القرض هو المال الذى يعطيه المقرض للمقترض ليرد مثله إليه عند قدرته عليه . وهو فى أصل اللغة: القطع . وسمى المال الذى يأخذه المقترض بالقرض؛ لأن المقرض يقطعه من ماله .

مشروعيته: وهو قربة يتقرب بها إلى الله سبحانه لما فيه من الرفق بالناس والرحمة بهم، وتيسير أمورهم وتفريج كربهم. وإذا كان الإسلام ندب إليه وحبب فيه بالنسبة للمقرض، فإنه أباحه للمقترض ولم يجعله من باب المسألة المكروهة؛ لأنه يأخذ المال لينتفع به فى قضاء حوائجه ثم يرد مثله .

١- روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : « من نفَّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه =

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير [١٧/ ٣١] عن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده ، وذكره الهيثمى فى المجمع [٣/ ١١٣] وقال : رواه الطبرانى فى الكبير وفيه كثير بن عبد الله المزى وهو ضعيف . وذكره الألبانى فى ضعيف الجامع [٣٤٧١] وقال : ضعيف جدًا .

(٢) أخرجه مسلم [١٠١٠] عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط [٦٠٨٦] عن أم سلمة رضى الله عنها ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع [٣٤٩٤]

شرط أن يرده؛ ولذلك قيل: إن القرض أحسن من الصدقة ، ذلك أن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة، أما الذى تتصدق عليه فقد يكون غير محتاج. إنه قد يسأل وهو غير محتاج! وأيضا لأن نفس المتصدّق تخرج من الشىء المتصدق به ولا تتعلق به، أما الذى يقدم القرض فنفسه متعلقة بالقرض، وكلما صبر عليه نال حسنة، وكلما قدم ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ فله أجر كبير(١) .

= فى الدنيا والآخرة. والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه»(١). رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

٢- وعن ابن مسعود : أن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم يُقرِضُ مسلمًا قرضًا مرتين إلا كان كصدقتها مرة »(٢) رواه ابن ماجة وابن حبان .

٣- وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوبًا: الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر . فقلت : يا جبريل ، ما بال القرض أفضل من الصدقة؛ قال: لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة»(٣). [فقه السنة : ٣/ ١٩١]

وفى اللسان: القرض: ما يتجازى به الناس بينهم ويتقاضونه، وجمعه قروض، وهو ما أسلفه من إحسان ومن إساءة. [لسان العرب: ٧/ ٢١٦]

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « كان تاجر يداين الناس ، فإذا رأى معسرًا قال لفتيانه : تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، فتجاوز الله عنه » . أخرجه البخارى [٢٠٧٨] واللفظ له ، ومسلم [١٥٦٢]

وعن عبد الله بن أبى قتادة: أن أبا قتادة طلب غريمًا له فتوارى عنه ، ثم وجده فقال : إنى مُعْسر ، فقال : الله ؟ قال : الله ، قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :=

(١) أخرجه مسلم [٢٦٩٩] ، وأبو داود [٤٩٤٦] واللفظ له ، والترمذى [١٤٢٥]، وابن ماجة [٢٢٥].

(٢) أخرجه ابن ماجة [٢٤٣٠] واللفظ له ، وابن حبان [٥٠٤٠] ، وقال الألبانى فى ضعيف ابن ماجة [٥٢٧] : ضعيف إلا المرفوع منه فحسن .

(٣) أخرجه ابن ماجة [٢٤٣١] بلفظ : « أريت ليلة أسرى .... » الحديث . وقال الألبانى فى ضعيف ابن ماجة [٥٢٨] : ضعيف جدًا .

وهكذا يكون القرض الحسن أعظم ثوابا من الصدقة، والله سبحانه وتعالى يريد أن تفيض حركة الحياة بالكثير.

ولنتأمل قول الحق سبحانه: ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾. وهو الولى الواهب لكل النعم، فكيف يهب الحق النعم ثم يقول للإنسان: أقرضنى؟(١) إن الحق سبحانه وتعالى قدَّر حركة الإنسان وسعيه .

وما دام قد ضرب فى الأرض وسعى فيها أوجب عليه الزكاة، وندبه الصدقة للفقير، والقرض للمحتاج .

إنه سبحانه وهب كلا منا ثمرة عمله، وجعل تلك الثمرة ملكا لصاحبها. وأما القرض للمحتاج فيعتبره الحق إقراضا له. ويذكره الله سبحانه وتعالى ويصفه بأنه قرض حسن. . لماذا؟ حتى لا يكون فيه مَنّ أو منفعة تعود على المقرض، وإلا صار القرض ربا.

ولنا فى سير الصالحين الأسوة الحسنة، فهذا أبو حنيفة عندما كان يجلس فى ظل بيت صاحب له، فلما اقترض صاحب هذا البيت من أبى حنيفة بعض المال، جلس أبو حنيفة فى اليوم التالى لإقراضه صاحب البيت بعيدا عن ظل بيته ، فسأله صاحب البيت لماذا؟ فأجاب أبو حنيفة: خشيت أن يكون ذلك لونا من الربا(٢) . فقال صاحب البيت: لقد كنت تجلس قبل

= « من سرَّه أن يُنجِّيه الله من كُرَب يوم القيامة فلْيُنفِّس عن معسر ، أو يضع عنه » . أخرجه مسلم [١٥٦٣/٣٢].

(١) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: استقرضت عبدى فلم يقرضنى، ويشتمنى عبدى وهو لا يدرى، يقول: وادهراه، وادهراه، وأنا الدهر». أخرجه أحمد فى المسند [٢/ ٣٠٠]، والحاكم فى المستدرك [١/ ٤١٨] وصححه ، ووافقه الذهبى. وصححه الشيخ شاكر برقم [٧٩٧٥].

(٢) ذكر الألبانى فى الإرواء [١٣٩٨] يُروى: « كل قرض جر منفعة فهو ربا ». ص ٣٤٩ وقال ضعيف : أخرجه البغوى فى حديث العلاء بن مسلم [ق ١٠/ ٢] : ثنا سوار =

. . . .

= يعنى ابن مصعب - عن عمارة عن على بن أبى طالب مرفوعًا .

قلت : وهذا إسناد ضعيف جدًا .وقال ابن عبد الهادى فى التنقيح [٣/ ١٩٢] :هذا إسناد ساقط ، وسوار متروك الحديث.

قلت: وقد روى عن فضالة بن عبيد موقوفًا عليه ، وقد ذكرته تحت الحديث المتقدم.

وفى معناه ما روى عن أنس ، من طريق يحيى بن أبى يحيى الهنائى قال : سألت أنس بن مالك : الرجل منا يقرض أخاه المال فيهدى له ؟ قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا أقرض أحدكم قرضا ، فأهدى له،أو حمله على الدابة، فلا يركبها ولا يقبله ، إلا أن يكون جرى بينه وبينه قبل ذلك » .وإسناده ضعيف كما يأتى بيانه بعد حديث .

وذكر أيضًا [١٣٩٩] حديث أنه استسلف بكرًا ورد خيرًا منه،وقال: « خيركم أحسنكم قضاء» متفق عليه . ص ٣٤٩ .

وقال : صحيح، وتقدم برقم [١٣٧١]،وعزوه للمتفق عليه وهم كما سبق التنبيه عليه هناك.

ويذكر أيضا [١٤٠٠] حديث أنس مرفوعًا : «إذا أقرض أحدكم قرضًا فأهدى إليه أو حمله على الدابة، فلا يركبها ولا يقبله، إلا أن يكون جرى بينه وبينه قبل ذلك»رواه ابن ماجة.

وقال : ضعيف؛ أخرجه ابن ماجة [٢٤٣٢]، والبيهقى [٥/ ٣٥٠]، وابن الجوزى فى التحقيق [٣/ ٢٦/ ٢-٢٧] ، عن إسماعيل بن عياش : حدثنى عتبة بن حميد الضبى عن يحيى ابن أبى إسحاق الهُنائى قال : « سألت أنس بن مالك : الرجل منا يقرض أخاه المال ، فيهدى له ؟ قال . . . » فذكره .

قلت- أى الألبانى -وهذا إسناد ضعيف ؛ وفيه ثلاثة علل :

الأولى : جهالة يحيى بن أبى يحيى الهُنائى ؛ قال الحافظ فى التقريب : مجهول .

الثانية : ضعف عتبة الضبى ، قال الحافظ : صدوق له أوهام . وبذلك أعله البوصيرى فى الزوائد [ق ١٥٠/ ٢] هذا إسناد فيه مقال ، عتبة بن حميد ضعفه أحمد ، وقال أبو حاتم :صالح،وذكره ابن حبان فى الثقات،ويحيى بن أبى إسحاق الهنائى: لا يعرف حالة .

الثالثة : إسماعيل بن عياش ضعيف فى غير الشاميين ، وهذا منه ، فإن شيخه الضبى كوفى. وبه أعله ابن عبد الهادى فى التنقيح [٣/ ١٩١] فقال : وهذا الحديث غير قوى ، فإن ابن عياش متكلم فيه . =

أن تقرضنى؟ فقال أبو حنيفة: كنت أجلس وأنت المتفضل علىَّ بظل بيتك، فأخاف أن أجلس وأنا المتفضل عليك بالمال.

إذن.. القرض الحسن هو الذى لا تشوبه زيادة أو منّ أو أذى أو منفعة.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن الناس أنفسهم فى مسألة القرض، فوضع له قواعد: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾(١) إن الحق يحمى المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدَّين مكتوب عليه، سيحاول جاهدا أن يتحرك فى الحياة لقضاء هذا الدين، فيكون المجتمع قد استفاد من حركته، واستفاد المقترض بأن تخلص من دينه .

إن كتابة القرض تكون دافعًا للسداد ،لكن إن لم يكتب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض،ولو حدث ذلك من إنسان فلن يمد أحد يده إلى هذا الإنسان أو غيره.

إن الحق يريد أن يديم الأسباب التى تستمر بها حركة الحياة؛ لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ﴾(٢) إن ذلك حماية للنفس من التغيير، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾(٣).

= وخفى هذا كله على الحافظ عبد الحق الأشبيلى فقال فى أحكامه : إسناده صالح .
[إرواء الغليل : ٥/ ٢٣٥-٢٣٧]

(١) قال ابن كثير: هذا إرشاد من الله تعالى، لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها؛ ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها.
[تفسير ابن كثير: ١/ ٣١٦]

(٢) قال البقاعى: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾ من السآمة. قال الحرالى: بناء مبالغة: وهو أشد الملالة ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ اى: لا تفعلوا فعل السئيم فتتركوا كتابته. [نظم الدرر: ٤/ ١٥٥]

(٣) قال البقاعى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ﴾ ولما كان الائتمان تارة يكون من الدائن، وتارة يكون من الراهن، قال: ﴿بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ اى فلم تفعلوا شيئا من ذلك ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾ اى يعط، =

إذن . . فالحق يريد أن يحمى الحركة الاقتصادية؛ لذلك فرسول الله ﷺ - وهو الرحيم بالمؤمنين - أُخبر أن واحدا من المسلمين قد مات وعليه دين، فقال للصحابة: «صلوا على صاحبكم»(١). فتساءل الناس لماذا لم يصل رسول الله على هذا الميت وما ذنبه ؟

لقد أراد ﷺ أن يعلم المؤمنين، فلم يمنع الصلاة على الميت الذى عليه دين، ولكنه لم يصل عليه، حتى تعهد أحد الصحابة بقضاء دين المتوفى.

وقال ﷺ فى موقف آخر محذرًا المؤمنين: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله » (٢).

وإذا مات رجل وهو مدين، وليس عنده ما يسد الدين، فكأنه لم يكن ينوى رد الدين، وربما قد حدثته نفسه بألا يرد الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (٣)، قد يقول قائل: كان

= من الأداء وهو الإتيان بالشيء لميقاته. ولما كان المراد التذكير بالإحسان بالائتمان ليشكر، ولم يتعلق غرض بكونه من محسن معين، بُنى للمفعول قوله: ﴿ الَّذِى اؤْتُمِنَ﴾ من الائتمان وهو طلب الأمانة، وهو إيداع الشيء لحفيظته حتى يعاد إلى المؤتمن، قاله الحرالى، ﴿أَمَانَتَهُ ﴾ وهو الدَّين الذى ترك المؤتمن التوثق به من المدين؛ إحسانا إليه وحسن ظن به. [نظم الدرر: ٤/ ١٦١]

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يُؤتى بالرجل الميت عليه الدَّين فيسأل : « هل ترك لدينه من قضاء ؟ »، فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلَّى عليه . وإلا قال : « صلُّوا على صاحبكم » . فلما فتح الله عليه الفتوح قال : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفى وعليه دين فعلىَّ قضاؤه ومن ترك مالاً فهو لورثته » . أخرجه البخارى [٦٧٣١] ، ومسلم [١٦١٩/ ١٤] واللفظ له .

(٢) أخرجه البخارى [٢٣٨٧] ، عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) قال أبو حيان: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: إيتاء الزكاة هو فى الواجب، وهذا القرض هو فى المندوب ، ونبه على الصدقات المندوبة بذكرها فيما يترتب على المجموع؛ تشريفا وتعظيما لموقعها من النفع المتعدى. قال الفراء: ولو جاء إقراضا =

السياق اللفظى يقتضى أن يقول: «أقرضتم الله إقراضا»، لكن الحق جاء بالقرض الحسن؛ لأن الإقراض هو العملية الحادثة بين الطالب للقرض والذى يُقرِض. إن الله يضع القرض الحسن فى يده ، ولنا أن نتصور ما فى يد الله من قدرة على العطاء.

ومثل ذلك قول الحق سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾(1). إن قوله: ﴿أَنْبَتَكُم﴾ يعبر عن عملية الإنبات، ولكن الأرض تخرج نباتا لا إنباتا، فيأتى الله بالفعل ويأتى بعده بالمصدر؛ لأنه يريد تأكيد الفعل، و«أنبت» يدل على معنى ينشئ عنها نباتا، وهكذا قال الله عن القرض: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢]، وفى ذلك جواب القسم.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(2) [المائدة: ١٢]؛ نعم إنه قد ضل فعلا، ولكن الذى ضل بعد أن جاء ذكر تلك النعم والثواب فيها فالضلال أكثر، وكلمة ﴿سَوَاءً﴾ عندما تقرأها فى القرآن، وتراها فى الاستعمالات اللغوية، كمثل قول الحق

= لكان صوابا، أقيم الاسم هنا مقام المصدر. وقد فسر هذا الإقراض بالنفقة فى سبيل الله، وبالنفقة على الأهل، ووصف بأنه حسن؛ إما لأنه لا يتبع بمن ولا أذى، وإما لأنه عن طيب نفس. [البحر المحيط: ٤/ ٢٠٣ ، ٢٠٤]

(1) قال ابن الجوزى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ يعنى: أن مبتدأ خلقكم من الأرض وهو آدم، ﴿نَبَاتًا﴾ قال الخليل: معناه فنبتم نباتا. وقال الزجاج: ﴿نَبَاتًا﴾ محمول فى المصدر على المعنى؛ لأن معنى ﴿أَنْبَتَكُم﴾: جعلكم تنبتون نباتا . قال ابن قتيبة: هذا مما جاء فيه المصدر على غير المصدر؛ لأنه جاء على نبت [زاد المسير: ٨/ ٩٩]

(2) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى : فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشدّه ، وجحده وعامله معاملة من لا يعرفه؛ فقد أخطأ الطريق الواضح ، وعدل عن الهدى إلى الضلال.

[تفسير ابن كثير : ٢/ ٣٢]

سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾[1] [آل عمران:١١٣] وسواء معناها: وسط ومتساوون، والمعنى واحد؛ لأنه عندما يكون هناك وسط فمعنى ذلك أن هناك طرفين، ومادام الشىء فى الوسط فالطرفان متساويان؛ ولهذا فعندما نقول: ﴿سَوَاءً﴾ فالمعنى صحيح وعندما نقول: وسط، فالوسط يقتضى أن نجعل المسافة بين كل طرف متساوية. ولذلك يجب أن ننتبه إلى أن كثيرا من الألفاظ تستعمل فى معانٍ كثيرة، ولكنها تشتمل على معنى عام، مثال ذلك قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٥٠] والشطر هو الجهة، والشطر النصف .

والقرآن قد نزل على أمة العرب، وكانت طرقها بين جبال ، وقد يكون الطريق معبدا من ناحية، وقد يكون الطريق بين هاديتين[2] ، وقد يكون الطريق بين جبلين، ومن يأخذ بالأحوط فهو يمشى فى الوسط ، ولذلك قال الإمام على رضى الله عنه: «اليمين والشمال مضلة وخير الأمور الوسط» . . لماذا ؟

لأن الإنسان قد يتجه يمينا فيقع، أو يتجه شمالا فيقع أو تقع عليه صخرة، ولذلك نجد الوالد حينما ينصح ابنه يقول له: «امش ولا تلتفت يمينا أو يسارا، واتجه إلى مقصدك».

---

(١) عن ابن عباس قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم. فآمنوا وصدقوا ورغبوا فى الإسلام قالت: أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد وتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره. فأنزل الله فى ذلك: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. [الدر المنثور: ٢/٢٩٦]

(٢) الهادية : الصخرة الملساء . والهادية : الصخرة النابتة فى الماء .

[لسان العرب : ١٥/ ٣٦٠]

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾(١) [الصافات: ٥٥]

(١) قال ابن كثير : ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] قال ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير وخليد العصرى وقتادة والسدى وعطاء الخراسانى : يعنى فى وسط الجحيم .وقال الحسن البصرى : فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد .
[تفسير ابن كثير : ٤/٩]

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى رضى الله عنه فى الآية قال: كانا شريكين فى بنى إسرائيل، أحدهما مؤمن، والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار. ثم افترقا فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالك، أضربت به شيئاً اتجرت به فى شىء؟ قال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ قال: اشتريت به نخلا، وأرضا، وثمارا، وأنهارا، بألف دينار. فقال له المؤمن: أوَ فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل، فصلى ما شاء الله أن يصلى فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا - يعنى شريكه الكافر- اشترى أرضا، ونخلا، وثمارا، وأنهارا، بألف دينار، ثم يموت ويتركها غدا. اللهم وإنى أشترى منك بهذه الألف دينار أرضا، ونخلا، وثمارا، وأنهارا، فى الجنة. ثم أصبح فقسمها للمساكين.
ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت، أضربت به فى شىء، اتجرت به؟ قال: لا . قال: فما صنعت أنت؟ قال: كانت ضيعتى قد اشتد على مؤنتها، فاشتريت رقيقا بألف دينار، يقومون لى، ويعملون لى فيها. فقال المؤمن: أوَ فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل،صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ ألف دينار، فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا اشترى رقيقا من رقيق الدنيا بألف دينار، يموت غدا فيتركهم، أو يموتون فيتركونه، اللهم وإنى أشترى منك بهذه الألف دينار رقيقا فى الجنة. ثم أصبح فقسمها بين المساكين.
ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالك، أضربت به فى شىء، اتجرت به فى شىء ؟ قال: لا،فما صنعت أنت؟ قال: كان أمرى كله قد تم إلا شيئاً واحدا، فلانة مات عنها زوجها فأصدقتها ألف دينار، فجاءتنى بها وبمثلها معها فقال له المؤمن: أوَ فعلت؟ قال له: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ الألف دينار الباقية، فوضعها بين يديه، وقال: اللهم إن فلانا تزوج زوجة من أزواج الدنيا بألف دينار ويموت =

= عنها فيتركها أو تموت فتتركه، اللهم وإنى أخطب إليك بهذه الألف دينار حوراء عيناء فى الجنة. ثم أصبح فقسمها بين المساكين، فبقى المؤمن ليس عنده شىء.

فلبس قميصا من قطن، وكساء من صوف، ثم جعل يعمل ويحفر بقوته، فقال رجل: يا عبد الله أتؤجر نفسك مشاهرة، شهرا بشهر، تقوم على دواب لى؟ قال: نعم. فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه، فاذا رأى منها دابة ضامرة أخذ برأسه فوجأ عنقه، ثم يقول له: سرقت شعير هذه البارحة. فلما رأى المؤمن الشدة قال: لآتين شريكى الكافر، فلأعملن فى أرضه، يطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم، ويكسينى هذين الثوبين إذا بليا.

فانطلق يريده، فانتهى إلى بابه، وهو مُمْسٍ، فإذا قصر فى السماء، وإذا حوله البوابون فقال لهم: استأذنوا لى صاحب هذا القصر، فإنكم إن فعلتم ذلك سره. فقالوا له: انطلق فإن كنت صادقا فنم فى ناحية، فإذا أصبحت فتعرض له. فانطلق المؤمن فالقى نصف كسائه تحته ونصفه فوقه ثم نام، فلما أصبح أتى شريكه، فتعرض له، فخرج شريكه وهو راكب، فلما رآه عرفه، فوقف فسلم عليه وصافحه، ثم قال له: الم تأخذ من المال مثل ما أخذت فأين مالك ؟ قال: لا تسألنى عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئت أعمل فى أرضك هذه، تطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم، وتكسونى هذين الثوبين إذا بليا. قال: لا ترى منى خيراً حتى تخبرنى ما صنعت فى مالك. قال: أقرضته من الملا الوفى قال: من؟ قال: الله ربى. وهو مصافحه، فانتزع يده، ثم قال: ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الصافات]. وتركه، فلما رآه المؤمن لا يلوى عليه رجع وتركه؛ يعيش المؤمن فى شدة من الزمان، ويعيش الكافر فى رخاء من الزمان.

فإذا كان يوم القيامة، وأدخل الله المؤمن الجنة، يمر فإذا هو بأرض، ونخل، وأنهار، وثمار، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هذا لك. فيقول: أوَ بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟ ثم يمر فإذا هو برقيق لا يحصى عددهم فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟ ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة، فيها حوراء عيناء فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك. فيقول: أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟ ثم يذكر شريكه الكافر، فيقول: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الصافات]. =

و﴿سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ هو نقطة المنتصف فى النار، أى أنه لا يستطيع الذهاب يميناً أو شمالا .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلا قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(1) [المائدة: ١٣]

= فالجنة عالية، والنار هاوية، فيريه الله شريكه فى وسط الجحيم، من بين أهل النار، فإذا رآه عرفه المؤمن فيقول: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۝٦١﴾ [الصافات]. بمثل ماقدمتَ عليه: قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه فى الدنيا من الشدة، فلا يذكر أشد عليه من الموت. [الدر المنثور: ٧/ ٩١ - ٩٤]

(١) قال الخازن فى قوله تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ أى : بسبب نقضهم الميثاق؛ وذلك أن بنى إسرائيل نقضوا ميثاق الله وعهده ؛ بأن كذبوا الرسل الذين جاءوا من بعد موسى؛ وقتلوا أنبياء الله، ونبذوا كتابه، وضيعوا فرائضه . ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ يعنى : جازيناهم على ذلك بأن أبعدناهم وطردناهم عن رحمتنا . وأصل اللعنة : الإبعاد عن الرحمة . ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ يعنى : غليظة يابسة لا تلين ؛ لأن القسوة خلاف اللين والرقة . وقيل : معناه أن قلوبهم ليست خالصة للإيمان ؛ بل إيمانهم مشوب بالكفر والنفاق . ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ يعنى : يغيرون حدود التوراة وأحكامها . وقيل : هو تبديلهم صفة محمد ﷺ ونعته من التوراة . وقيل : هو تحريفهم معانى الألفاظ بسوء التأويل . ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعنى : وتركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان ، يعنى : على معصية منهم ، وكانت خيانتهم نقض العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب محمد ﷺ ، وهمهم بقتله وسمه ونحوها من خيانتهم التى ظهرت . ﴿إِلا قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ يعنى : أنهم لم يخونوا ولم ينقضوا العهد، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من أهل=

. . . .

= الكتاب . ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ أى : فاعف عن زلاتهم يا محمد ، واصفح عن جرمهم ومؤاخذتهم ، وهذا الأمر بالعفو والصفح عن أهل الكتاب منسوخ بقوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] الآية التى نزلت فى سورة براءة ، قاله قتادة . وقيل : إنها غير منسوخة ؛ بل نزلت فى قوم كان بينهم وبين النبى ﷺ عهد، فغدروا ونقضوا ذلك العهد ، فأظهر الله تعالى نبيه ﷺ على ذلك ، وأنزل هذه الآية ولم تنسخ .

وذلك أن يجوز أن يعفو عن غدرة فعلوها ما لم ينصبوا حربا ، ولم يمنعوا من أداء الجزية والصغار ، وعلى هذا القول بأنها غير منسوخة يكون معنى الآية : فاعفُ عن مؤمنهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم قبل ذلك . وقيل : معناه : فاعف عن صغائر زلاتهم ما داموا باقين على العهد. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعنى: إذا عفوت عنهم ، فإنك تحسن والله يحب المحسنين . [تفسير الخازن : ٢/٢٣٨، ٢٣٩]

* عداوة بنى إسرائيل لجبريل عليه السلام *

سأل اليهود رسول الله ﷺ : من الذى يأتيك بالوحى؟ فقال الرسول ﷺ: جبريل عليه السلام، فقالوا لو كان غيره لآمنا بك، فإن جبريل عدونا (١).

---

(١) قال ابن عباس : حضرت عصابة من اليهود نبىَّ الله ﷺ يومًا فقالوا :
يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبى.
قال : «سلونى عما شئتم ، ولكن اجعلوا لى ذمة الله وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه: لئن حدثتكم شيئًا فعرفتموه لتتابعنّى على الإسلام».
قالوا : فذلك لك.
قال : «فسلونى عما شئتم».
قالوا : أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن :
أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنَزَّل التوراة ؟
وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، كيف يكون الذكر منه؟
وأخبرنا كيف هذا النبى الأمى فى النوم؟ ومن وليُّه من الملائكة ؟
قال : «فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعنى؟»
قال : فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق .
قال : «فأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى ﷺ، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب عليه السلام مرض مرضًا شديدًا وطال سقمه، فنذر لله نذرًا، لئن شفاه الله تعالى من سقمه ليحرِّمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟»
قالوا: اللهم نعم.
قال : «اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما=

= علا كان له الولد والشبه بإذن الله ، إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكرًا بإذن الله ، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله ؟»

قالوا: اللهم نعم.

قال: «اللهم اشهد عليهم ، فأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه، ولا ينام قلبه؟»

قالوا : اللهم نعم.

قال : «اللهم اشهد».

قالوا: وأنت الآن فحدثنا مَنْ وليك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك.

قال : «فإن وليى جبريل عليه السلام، ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه».

قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك!!

قال : «فما يمنعكم من أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا!، قال : فعند ذلك قال الله عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلى قوله عز وجلّ :﴿كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ فعند ذلك: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ...﴾ الآية . أخرجه أحمد فى المسند [١/٢٧٨]، وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٥١٤].

وفى البخارى ،عن أنس قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو فى أرض يخترف، فأتى النبى ﷺ فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى:

فما أول أشراط الساعة؟

وما أول طعام أهل الجنة ؟

وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟

قال : «أخبرنى بهن جبريل آنفًا».

قال : جبريل ؟

قال: نعم.

قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة.

فقرأ هذه الآية : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

« أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب.

وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد حوت.

وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة نزعت». =

وسبب تلك العدواة لجبريل فى زعمهم، رؤيا لأحد أحبارهم أن بيت المقدس سيخربه واحد اسمه بختنصر،وأرسل اليهود من يقتل بختنصر هذا،لكن المكلف بالقتل وجد بختنصر شابًا ضعيفًا، وسأله سائل: ماذا تريد؟ قال المكلف من قبل اليهود بقتل بختنصر:أريد أن أقتل بختنصر؛ لأنه هو الذى سوف يخرب بيت المقدس ، فقال السائل: إن يكن هو الذى اختاره الله ليدمر بيت المقدس فلن يمكنك منه؛لأن أحدا لا يقدر أن يغير من قدر الله، وإن لم يكن هو فلا خير لك فى قتله. فامتنع الرجل المكلف بالقتل عن أداء مهمته التى من أجلها أرسلته اليهود .

وقيل: إن الذى تمثل لذلك الرجل هو جبريل عليه السلام، وكان ذلك سبب عداوة اليهود وكراهيتهم لجبريل عليه السلام[1].

= قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتونى، فجاءت اليهود.

فقال النبى ﷺ : «أى رجل عبد الله فيكم ؟ »

قالوا : خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا .

قال : «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ » فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: فهذا الذى كنت أخاف يا رسول الله. أخرجه البخارى [٤٤٨٠]

(١) قال ابن حجر العسقلانى : قوله : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧] قيل : سبب عداوة اليهود لجبريل أنه أمر باستمرار النبوة فيهم فنقلها لغيرهم ، وقيل : لكونه يطلع على أسرارهم . وحكى الثعلبى عن ابن عباس أن سبب عداوة اليهود لجبريل أن نبيهم أخبرهم أن بختنصر سيخرب بيت المقدس، فبعثوا رجلاً ليقتله فوجده شابًا ضعيفًا فمنعه جبريل من قتله وقال له : إن كان الله أراد هلاككم على يده فلن تسلط عليه، وإن كان غيره فعلى أى حق تقتله؟ فتركه ، فكبر بختنصر وغزا بيت المقدس فقتلهم وخربه، فصاروا يكرهون جبريل لذلك .

[فتح البارى : ٩/١٦، ١٨]

ويُروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانت له أرض بعوالى المدينة، وكلما ذهب إليها مر بمجالس اليهود، وكان أحيانًا يكلمهم ، فقالوا له: من صاحب صاحبك الذى يأتيه بالوحى ؟

قال عمر: جبريل.

فقالـــوا: إنه عدونا.

قال عمر: كيف وهو ملك ينزل بالوحى بأمر الله على من يشاء من عباده؟!

قالـوا: إنه يجلس على يمين الله، وينزل بالعذاب والنقمة، وميكائيل فى الجهة الأخرى وينزل بالغيث والرحمة.

قال عمر: مادام الأمر كما قلتم، فليس أحدهما عدوا للآخر، ولا أحد منهما عدو لأحد من البشر، ومن كان عدوا لأحدهما فهو عدو لله(١).

ولما عاد عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ قرأ عليه النبى ﷺ : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى

---

(١) عن عكرمة قال: «كان عمر يأتى يهود يكلمهم فقالوا: إنه ليس من أصحابك أحد أكثر إتيانا إلينا منك، أخبرنا : مَن صاحب صاحبك الذى يأتيه بالوحى؟ فقال : جبريل . قالوا: ذاك عدونا من الملائكة ، ولو أن صاحبه صاحب صاحبنا لاتبعناه، فقال عمر: من صاحب صاحبكم ؟ قالوا: ميكائيل . قال : وما هما؟ قالوا: أما جبريل فينزل بالعذاب والنقمة ، وأما ميكائيل فينزل بالغيث والرحمة ، وأحدهما عدو لصاحبه . فقال عمر: وما منزلتهما؟ قالوا: إنهما من أقرب الملائكة منه أحدهما عن يمينه وكلتا يديه يمين والآخر على الشق الآخر. فقال عمر : لئن كانا كما تقولون ما هما بعدوين، ثم خرج من عندهم فمر بالنبى ﷺ فدعاه فقرأ عليه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ...﴾ الآية. فقال عمر: والذى بعثك بالحق إنه الذى خاصمتهم به آنفا. اهـ. [الدر المنثور : ١/ ٢٢٣]

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ،فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، والذى بعثك بالحق إنه الذى خاصمتهم فيه منذ قليل؛ والله إنى بعد ذلك فى دين الله لأصلب من الحجر(1).

---

(1) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ فإنه نزله على قلبك بإذن الله ، أى : من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك ، فهو رسول من رسل الله ملكى ، ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل ، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل ، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل ؛ كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ ...﴾ [لنساء :١٥٠] الآيتين .فحكم عليهم بالكفر المحقق إذا آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم ، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله ؛ لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه ؛ كما قال : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾ [الشعراء] . وقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من عادى لى وليًا فقد بارزنى بالحرب» (1) . ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه ؛ فقال تعالى : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المتقدمة ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة وليس ذلك إلا للمؤمنين؛ كما قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] الآية .وقال تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] ، ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٩٧] .

يقول تعالى : من عادانى وملائكتى ورسلى - ورسله تشمل رسله من الملائكة- كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] وجبريل =

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٥٠٢] بلفظ : « إن الله قال : من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب. . .».

إذن . . لقد عادوا جبريل بغباء وجهل، وهو الملك المنزل بأمر الله وبكتاب الله؛ هدى للمؤمنين وبشرى لهم!

والله تعالى يقول: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾، إنه القول الفصل، إن العداوة لرسول من رسل الله ، أو عداوة أحد من الملائكة إنما هى عداوة لله، فليس هناك انقسام فى التبليغ بمنهج الله.

إذن. . فهذه الآية الكريمة تثبت وحدة الدين، ومصدر هذه الوحدة هو التلقى عن الله تعالى، ورسل الله من الملائكة أو من البشر ، إنما هم مبلغون عن الله ، فهو سبحانه يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالاته؛ يحكم ولا معقب لحكمه، فإذا اصطفى سبحانه ما شاء من خلقه للبلاغ ، فما علينا إلا الانقياد والسمع والطاعة.

= وميكال ، وهذا من باب عطف الخاص على العام؛ فإنهما دخلا فى الملائكة فى عموم الرسل ، ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق فى الانتصار لجبرائيل وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل فى اللفظ ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليّهم ، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر . وعادى الله أيضًا ، ولأنه أيضا ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان ، كما قرن برسول الله ﷺ فى ابتداء الأمر، ولكن جبرائيل أكثر وهى وظيفته ، وميكائيل موكل بالنبات والقطر هذا بالهدى وهذا بالرزق ، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ فى الصور للبعث يوم القيامة . [تفسير ابن كثير : ١/ ١٢٦]

وقال البغوى حاكيًا عن عمر بعد نزول الوحى بالآية : «لقد رأيتنى بعد ذلك ، فى دين الله أصلب من الحجر»(١). [معالم التنزيل : ١/ ١٢٥]

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول [١٦] ، والطبرى فى تفسيره [١/ ٤٣٤].

* لماذا سلط الله فرعون على بنى إسرائيل ثم أنجاهم منه *

يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] إن اضطهاد آل فرعون لبنى إسرائيل لم يكن بلا سبب ؛ فالله لا يعاقب قومًا أو يُسَلِّط عليهم عذابا بدون سبب ، بل كان ذلك العذاب بسبب تواطؤ بنى إسرائيل مع الهكسوس ضد المصريين، كما كانت النجاة من العذاب بسبب إيمان بنى إسرائيل بموسى نبيا من عند الله .

أقول ذلك لنعرف أن أحكام الله لا يجريها على العباد إلا رحمة بهم، وأن السوء يأتى من سلوك العباد أنفسهم، فإن الله لا يقهر أحدًا على فعل خير أو ارتكاب إثم، بل الاختيار هو الذى يقود إلى طاعة الرحمن، فَيُنَجِّى الإنسان من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، والاختيار أيضا هو الذى يقود العباد إلى العصيان، فَيُجْرِى الله عليهم العذاب فى الدنيا وفى الآخرة.

إذن.. لا يوجد قهر على الخير أو الشر ولكن هناك اختيارا ، وإذا اختار بنو إسرائيل لأنفسهم العصيان، فهذا اختيارهم الذى يَتَلَقَّوْنَ عليه عقاب الملك الديان، ولا نقاء لجنس دون جنس؛ ذلك أن انتشار بنى آدم فى الأرض لا يحفظ لجماعة دون أخرى تمايزا عرقيا، إنما مرد ذلك العقيدة الفاسدة فهى التى توهم البعض أن لهم جنسا نقيا أرقى من بقية الأجناس، وكان ذلك اختيار الذين زعموا اتباع شريعة موسى عليه

السلام، بعد أن غيروا وبدلوا فيها وحرفوا كلمات الله رغبة منهم فى عَرَض الدنيا، ولو عقلوا لاتبعوا ما أنزل الله ففيه سعادة الدنيا والآخرة.

وقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فمعنى ذلك أن هناك ظرفا لهذا الحادث، والظرف -كما هو معلوم- نوعان: ظرف زمان يحدث فيه الحدث، وظرف مكان يحدث فيه ذلك الحدث.

وعندما يقول الحق ذلك لبنى إسرائيل، فإنه يذكرهم بالظرف الذى أنجاهم فيه من آل فرعون، وتلك دعوة للاستفادة من التاريخ الماضى.

وهذه الآية قد وردت فى القرآن الكريم فى ثلاث مواضع:

الأول: فى سورة البقرة وهى الآية التى نحن نتناولها الآن بالتأمل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

والثانى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١].

والثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

وكأن الله حين يَمْتَنُّ بنعمة على عباده إنما يمتن بالنعم الكبرى؛ فمرة

يقول الحق فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أى أن الحق رفع عنهم العذاب وقت حدوث العذاب نفسه.

ومرة يقول سبحانه : ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ،والمقصود هنا أن الله منع عنهم العذاب مرة أخرى قبل أن يقع بالفعل.

وفى المرة الثالثة عندما يُذَكِّرُ موسى عليه السلام قومه بأن يذكروا نعمة الله عليهم إذ أنجاهم من آل فرعون، الذين يسومونهم سوء العذاب، فذلك تذكير بالنعم الكبيرة عليهم .

وفى اللغة: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ مأخوذة من سَوْم الماشية «سام» الماشية أى: تركها ترعى،ولذلك سَمَّوْها «السائمة» أى المتروكة؛ فكأن آل فرعون قد عاملوا بنى إسرائيل على أساس جَعْل كل الظروف المحيطة بهم هى ذل وعذاب وإهانة. كأن الله يريد أن تكون حركة حياتهم فى ذلك الزمان مشابهة لِسَوْمِ الماشية بالعذاب وكل عذاب بسبب؛ فعذابهم الأول سببه: أنه عندما جاء يوسف إلى مصر ثم تبعه آل يعقوب ظَلُّوا يتكاثرون، ولم يكُنْ قدومهم لمصر أيام حكم الفراعنة، إنما كان أثناء حكم الهكسوس، ومن المعلوم أن الهكسوس جاءوا إلى مصر غُزَاة . ونلحظ من قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] ونحن لم نكتشف الفرق بين «الفراعنة» الذين حكموا مصر وبين «الملوك» ، إلا بعد اكتشاف حجر رشيد.

إن القرآن الكريم الذى هو كلام الحق الحكيم يُؤرِّخُ لكل حاكم باللفظ الذى يدل عليه؛فعندما يتحدث عن حكام مصر قبل عهد الهكسوس يتحدث عنهم كفراعنة، وعندما يتحدث عن حاكم مصر أثناء حياة يوسف عليه السلام فيسميه ملكا ؛ذلك أن الهكسوس عندما غَزَوْا مصر جعلوا

لقب الحاكم ملكا، وعندما يذكر الحق حكام مصر بعد الهكسوس يقول عنهم «فراعنة» مرة أخرى؛ إنها دقة البيان فى الذكر الحكيم.

إن لكل أمة حاكما، وفى كل زمان يختلف مسمى الحاكم، فحاكم الروم يُطْلَق عليه «قيصر»، وحاكم الفرس يطلق عليه «كسرى»، وحاكم الترك يُسَمُّونه «خاقان» .

إن الحق سبحانه عندما ذكر ملوك مصر فى فترة ما قبل مجيء يوسف عليه السلام إليها يقول عنهم فراعنة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر] ؛ إن الحق هنا يتحدث عن الحضارات القديمة:

أهل إرم قوم هود الذين أقاموا البناء الرفيع.

وأهل ثمود قوم نبى الله صالح الذين قطعوا الصخر من الجبال وبنوا بهذه الصخور قصورا فى الوادى .

والفراعنة حكام مصر الذين كان لهم من الجنود ما يجعلون الممالك المحكومة بواسطتهم كأنها مشدودة مترابطة بالأوتاد.

كل هؤلاء أنزل الله عليهم العذاب ؛ لأنهم حادوا عن العدل فكفروا بالله الواحد وحكموا البلاد بالفساد والظلم؛ هكذا نرى أن الله تعالى سمى حكام مصر من قبل يوسف: «فرعون» ، وأثناء حياة يوسف : «الملك».

وعندما ذكر حاكم مصر أثناء رسالة موسى عليه السلام سماه «فرعون»، أى أن الحق سبحانه يخبرنا أن حكم مصر قد عاد للفراعنة مرة أخرى؛

وتلك هى الدقة فى الإخبار عن الغيب الذى لم يكن معلوما، ثم صار مشهودا معلوما. إن فرعون أراد أن يعاقب بنى إسرائيل على انحيازهم إلى الهكسوس الذين ملكوا مصر واحتلوها فترة طويلة؛لذلك وبعد خروج الهكسوس من مصر كان من الضرورى عقاب شيعتهم والمتعاونين معهم، وهم بنو إسرائيل ؛لذلك كان فرعون يذبح أبناءهم، والذبح لابد أن يكون بتفجير الدم من الرقاب، والقتل قد يكون بغير ذلك؛ لقد عاقب فرعون أعداءه بنوعين من العقاب: قتل وذبح، وكان الأعداء كما ذكرنا هم كل من تَشَيَّعَ للهكسوس متضمنين بنى إسرائيل ،وغيرهم.

وتذكر كتب التاريخ أن فرعون رأى رؤيا فى أثناء نومه، رأى: أن نارا هبَّت من بيت المقدس وأحرقت كل المصريين، ولم ينج منهم إلا بعض من بنى إسرائيل، وعندما طلب فرعون تأويل هذه الرؤيا عند الكهنة، قالوا له: سوف يخرج من ذرية بنى إسرائيل ولد يكون زوال ملكك على يديه ؛ فأمر فرعون بقتل كل ذكر يولد فى بنى إسرائيل، ولما زاد القتل فيهم مع فناء كبار السن، شعر بذلك عِلْيَة القوم الذين ألفوا السيادة وألفوا أن يكون لهم خدم، فتدخلوا عند فرعون لِيُبْقِى من بنى إسرائيل الأطفال الذكور لمدة عام، وأن يذبحهم فى عام آخر، وبذلك يعيش من بنى إسرائيل أطفال مولودون فى عام، ويموت أطفال مولودون فى العام التالى .

فكان هارون قد وُلِدَ فى عام لم يكن فيه ذبح، أما موسى عليه السلام فقد ولد فى عام الذبح؛ فأنقذه الله بأن أوحى إلى أمه أن ترضعه وتلقيه فى اليمِّ الذى يلقيه إلى الساحل .

كانت عِلَّةُ التقتيل لبنى إسرائيل ومن تشَيَّع معهم للهكسوس، هى ولاؤهم للمستعمرين ، وكانت عِلَّة الذبح هى ما ساد ذلك الزمان من أفكار مُشَوَّشَة عن الأحلام وتأويل الرؤيا،وهكذا تَلَقَّى بنو إسرائيل عقابا

على ولائهم لمن استعمروا مصر ؛ وظلمهم فرعون بعقاب آخر لرؤيا رآها.

وكان من المؤلم للرجل من بنى إسرائيل أن يُذَبَّحَ أبناؤهم وأن تُستحى نساؤهم للخدمة المهينة فى البيوت، وكان ذلك بلاء من الله عظيم.

والبلاء العظيم ليس المقصود به الشر؛ إن المقصود بالبلاء هو الامتحان، نلحظ ذلك فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٧] إن هذه الآية الكريمة تذكر المؤمنين بأنهم لم يقتلوا الكافرين بقوتهم الذاتية، ولكن بأن ألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين، وكان القتال مع الكافرين ابتلاءً من الله أى امتحان ليظهر به إخلاص المؤمنين(١).

---

(١) قال السمرقندى فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ وذلك أن المسلمين كانوا يقولون : قتلنا فلانًا وقتلنا فلانًا . فأراد الله تعالى أن لا يعجبوا بأنفسهم فقال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ يقول فما قتلتموهم، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ يعنى: الله تعالى نصركم عليهم، وامدكم بالملائكة ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ يعنى الله تعالى تولى ذلك ، وذلك حين رمى النبى عليه السلام قبضة من التراب فملأ الله تعالى أعينهم بها فانهزموا، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ يعنى: لم تصب رميتك ولم تبلغ ذلك المبلغ ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ تعالى تولى ذلك، ويقال: رمى النبى ﷺ يوم أحد بالحربة فأصاب أبى بن خلف الجمحى، فقتله .

ثم قال: ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ يعنى: لينصرهم نصرًا جميلاً ويختبرهم بالتى هى أحسن ، ويقال: ولينعم المؤمنين نعمة بينة، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يعنى سميعٌ لدعاء النبى ﷺ ، وعليم بإجابته . [بحر العلوم : ٢/ ١١]

وعن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : « أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ ، وأحلّت لى الغنائم ، ولم تحلّ لأحد قبلى ، واعطيت=

وفى معنى الابتلاء أيضا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر] .

إذن . . الابتلاء امتحان واختبار؛ فإذا ابتلى الله الإنسان بالنعمة فشكر الله عليها وأحسن التصرف فيها فذلك نجاح له، وإذا كان ابتلاء الله للإنسان بالحدث المؤلم، فصبر عليه وحمد الله ورضى بقضاءه وقدره، فهذا أيضا نجاح للمؤمن .

وكأن الله يُذَكِّر بنى إسرائيل بأن الذى ابتلاهم به من قتل وسَوْمٍ للعذاب إنَّما هو امتحان منه، فإن استقبلوه بالصبر نجحوا ونجوا؛ لأنهم استقبلوا بلاء الله بالشكر .

وكذلك «الفتنة»، إن الناس تظن أن الفتنة أمر سيئ ، لكن «الفتنة» كلمة معناها عَرْض الذهب على النار ليصفى الذهب من الأشياء الغريبة عنه والمختلطة به، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ [العنكبوت] ؛إن الحق تبارك وتعالى يوضح أن الفتنة هى اختبار للعباد بألوان النعم والمحن؛ ليميز الصادقين فى إيمانهم من الكاذبين.

وهكذا كان البلاء العظيم لبنى إسرائيل؛ أراد الله أن يطهرهم من ذنوبهم ومعاصيهم فسلط آل فرعون عليهم.

= الشفاعة ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة » .
أخرجه البخارى [٣٣٥، ٤٣٨] واللفظ له ، ومسلم [٥٢١ / ٣] .

* ضلال بنى إسرائيل بعد النجاة *

ولكن كيف استقبل بنو إسرائيل نعم الله، الذى أهلك عدوهم وأنجاهم من العذاب، كل هذا دون جَهْد منهم؟ يقول سبحانه: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وهكذا وبنو إسرائيل مغمورون فى نِعم الله، رأوا قوما يعبدون أصنامًا لهم من دون الله ؛ فقالوا لموسى: ابحث لنا عن صنم نعبده.

قولهُ تعالى : ﴿ يَعْكُفُونَ ﴾ أى :يقيمون إقامةً ملازمة، فالإنسانُ حين يعتكف فى المسجد ينقطع عن حركة الحياة فى خارجه، فكأن هؤلاء النّاس الذين قابلهم موسى وقومُهُ، قد اتخذوا لهم أصنامًا وعاشوا بجوارها يعبدونها .

وقول بنى إسرائيل لموسى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾[الأعراف: ١٣٨]، إنكار منهم لكل النعم التى أعطاها لهم الله، بعد أن نجوا من الخطر الذى كان يتهددهم سواء من فرعون وقومه أو من عبورهم البحر؛ إن قولهم لموسى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا ﴾ غباء منهم؛ فإن الإله لا يكون مجعولا، ولكن يكون جاعلا، فالناس لا تأتى بالإله وتنحته وتجعله إلها، ولكن الإله هو الذى يخلق وهو الذى يأمر وينهى ؛ ولا يأتى الناس بأى شىء ثم يجعلونه إلها؛ لأن هذا هو الباطل،ولذلك كان رد موسى عليهم؟ قوله: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾لم يقل: لا تعلمون،ولكن قال: ﴿ تَجْهَلُونَ ﴾ لأن هناك فرقاً بين عدم العلم بالشىء والجهل به؛ عدم العلم بالشىء أن

يكون ذهنك خاليا منه، أما الجهل[1] فهو: أن تعلم قضية غير حقيقة، باطلة وتدافع عنها؛ الذى لا يعلم ليس عنده قضية فى فكره، فإذا طُرحت أمامه قضية كانت عملية عقلية واحدة.. أن تخرج أمامه القضية فيفهمها ويعلمها، أما الذى يجهل، ففى ذهنه قضية باطلة يؤمن بها، فهو يحتاج لعمليتين عقليتين: أن تُخْرِج ما فى نفسه من باطل، ثم تعطيه الحق. ولذلك فإن الذى يتعب فى الدنيا الجهلاء وليس الأميون؛ لأنك إذا أعطيت الأمى المعلومة الصحيحة علمها وصدّق بها، أما إذا أعطيت الجاهل الحقيقة، فيظل يجادل ويرفض أن يصدق حتى تطرد الجهل من عقله ثم تعطيه العلم.

وبنو إسرائيل هنا جهلاء لأنهم وهم يعلمون أنه لا إله إلا الله، وقد رأوا المعجزات تحدث أمامهم معجزة وراء معجزة، يريدون أن يجعلوا مع الله إلهًا آخر؛ فيعبدوا صنما وهذا جهل كبير وظلم عظيم.

أراد موسى عليه السلام أن يفهمهم، فقال لهم قولاً بليغًا وردَّ عليهم ردًا حاسمًا ليلفتهم إلى أن هؤلاء القائمين على عبادة الأصنام: ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿مُتَبَّرٌ﴾ معناها: هالك ومدمر، ﴿وَبَاطِلٌ﴾

(١) الجهل على ثلاثة أضرب، الأول: وهو خلو النفس من العلم، هذا هو الأصل. وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنًى مقتضيًا للأفعال الجارية على غير النظام. والثانى: اعتقاد الشىء بخلاف ما هو عليه. والثالث: فعل الشىء بخلاف ما حقه أن يفعل سواءٌ اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا، كمن يترك الصلاة مُتَعمِّدًا، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فجعل فعل «الهزو» جهلاً، وقال عز وجل: ﴿فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: ٦] تارة يذكر على سبيل الذم وهو الأكثر وتارة لا على سبيل الذم نحو: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] أى من لا يعرف حالهم وليس يعنى المتخصص بالجهل المذموم. والمجْهَلُ الأمر والأرض والخصلة التى تحمل الإنسان على الاعتقاد بالشىء خلاف ما هو عليه.

[المفردات فى غريب القرآن: ١٠٠]

معناها: أنه لا دليل عليه، فالحق له دليل ثابت لا يتغير أبدا؛ لأن له واقعا، فإذا وقعت حادثة أمامنا، وطُلب منا أن نقص على انفراد ما شاهدناه، فإننا لا نختلف لأننا نقص من واقع حادث، أما إذا كانت القضية مكذوبة وباطلة، فإن كل واحد منا يرويها بشكل يختلف عن الآخر. ولذلك فإن القاضى عندما يريد الوصول إلى الحقيقة يظل يناقش الشهود، فإن لم يختلفوا، كانت القضية حقا، وإن تضاربت أقوالهم كانت القضية كذبا. ولذلك يقول المثل العربى: إذا كنت كذوبا فكن ذَكورا؛ لأن الإنسان حين يكذب ينسى؛ لأنه يتحدث عن شىء لم يحدث ولا واقع له، أما الذى يتحدث عن واقع وحقيقة، فإنه يثبت على كلامه ولا يتضارب.

والله سبحانه وتعالى شبّه المنهج فى نزوله للأرض، بالمطر الذى ينزل من السماء فيجرف معه التراب؛ وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، و«الزَّبَدُ»: هو التراب الذى يطفو على سطح الماء(١)، وهو الخبث الذى يخرج من المعدن، فأنت حين تريد أن تنقى الذهب مثلا تضعه فى النار، فينفصل الذهب عن المعادن الأخرى المخلوطة به. كذلك الحق والباطل، دائما: ينمحى الباطل ويزول ويبقى الحق الذى ينفع الناس(٢).

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا

(١) قال الخازن: الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة، كالحبب، وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها. والمعنى: فاحتمل السيل الذى حدث من ذلك الماء زبدًا.
[تفسير الخازن: ٣/٤٤٢]

(٢) قال أبو الحسن النيسابورى وهذان مثلان ضربهما الله للحق والباطل، يقول: الباطل=

﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ يدلنا على أن هناك عملا، وأن هناك فعلا، ويجب أن نعى أن الفعل غير العمل، فالفعل يقابله القول، القول: عمل اللسان، والفعل: عمل الجوارح، والقول والفعل معا هما العمل، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢] . إذن . . فالمقابل للقول هو الفعل، والعمل يشمل الاثنين معا.

لكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ ؟

لأن هؤلاء الكفار كانوا يجمعون فى عبادتهم للأصنام القول والفعل معا، فهم يدعونها ويطلبون منها أن تحقق لهم كذا وكذا بأفواههم، هذا هو القول.

أما الفعل: فإنهم يسجدون لها صاغرين أذلاء.

فكأنهم جمعوا فى عبادة الأصنام بين القول والفعل، وهذا يكون عملا.

وبعد ذلك نعود إلى حوار موسى معهم، وهو يعلم أن ما يطلبونه باطل وعن جهل، فقال لهم سبحانه وتعالى: ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٠] ومعنى: ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ ﴾ أى: أتتخذون

= وإن ظهر على الحق فى بعض الأحوال وعلاه، فإن الله سيمحقه ويبطله، ويجعل العاقبة للحق، وأهله كالزبد الذى يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل، وكخبث هذه الجواهر يقذفه الكير، وهذا مثل الباطل. وأما الماء الذى ينفع الناس وينبت المرعى، فيمكث فى الأرض، وكذلك الصفو من الجواهر يبقى خالصًا لا شوب وهو مثل الحق. قال الزجاج: فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان، كمثل هذا الماء المستنفع به من نبات الأرض وحياة كل شيء، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر؛ لأنها كلها تبقى منتفعًا بها. ومثل الكافر وكفره، كمثل هذا الزبد الذى يذهب جفاء، وكمثل خبث الحديد وما يخرجه الناس من وسخ الفضة والذهب الذى لا ينتفع به.
[الوسيط فى تفسير القرآن: ٣/ ١٢، ١٣]

إلها غير الله، وهو الذى خلقكم وفضلكم على خلقه وأهلك عدوكم الذى كان يعذبكم، وأورثكم الأرض وأنجاكم من آل فرعون وشق لكم البحر، أغير الله الذى فعل لكم كل هذا تتخذون إلها ؟!

يذكرهم موسى بقمة النعم التى امتن بها الله عليهم، ويلفتهم إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١] إذا سمعت: ﴿وَإِذْ﴾ [الأعراف: ١٤١] فافهم أنه ظرف زمان يريد الحق أن تتذكر ما حدث فيه، ﴿وَإِذْ﴾ معناها: اذكروا؛ ولا يغيب عن ذاكرتكم إذ أنجاكم الله من عذاب آل فرعون، ثم ذكر الحق قمة العذاب وهو قتل الأبناء، واستحياء النساء، ولم يذكر سبحانه وتعالى واو العطف ؛ فلم يقل: «ويقتلون أبناءكم» كما استخدمها بعد ذلك فى قوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ مما يدل على أنه قد جاء بقمة العذاب، فقد يعذب آل فرعون قوم إسرائيل بتحقيرهم أو بتسخيرهم؛ ليعملوا لهم ما يشاءون، أما قمة العذاب فهى: قتل الأبناء واستحياء النساء.

وفى آية أخرى يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] .

إذن. . فهناك ذبح وهناك تقتيل.

وفى آية ثالثة يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] هنا جاء «بالواو» نقول: لأن المتكلم مختلف؛ مرة يكون المتكلم الله، فالله يمتن بقمة النعم، فإذا جاء الكلام من موسى، فإنه يمتن بكل النعم التى أنعمها الله عليهم ؛ صغيرة كانت أو كبيرة.

وفى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ؛ البلاء هنا: قتل الأبناء ، واللوعة التى يحدثها هذا القتل فى قلوب بنى إسرائيل، والبلاء أيضا فى استبقاء النساء[1]؛ لأن استبقاء النساء معناه أنهن يصرن متاعا وخدمًا لقوم فرعون.

إذن . . فالبلاء فى المقتول والمستبقى.

---

(١) قال السمرقندى فى قوله تعالى : ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أى : الإنجاء نعمة من ربكم عظيمة ، ويقال : فى قتل الأبناء واستخدام النساء بلية من ربكم عظيمة . [بحر العلوم : ١/٥٦٦]

* مخالفتهم أمر الله، وتحريف كلامه *



قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦١] وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى لم يذكر من الذى قال؛ لأن طبيعة الأمر فى أسباط اليهود، جعل الخلاف بينهم معروفاً ومشهوداً؛ لذلك عندما سُقوا ،جعل الحق سبحانه وتعالى لكل سبط منهم عيناً يشرب منها، وكل سبط له نقيب ، وهذا دليل على أنهم لا يأتلفون؛ ولذلك فإن القول يصدر من المشرع الأعلى- وهو الحق جل وعلا - إلى رسوله، والرسول يبلغه إلى نقباء الأسباط، وكل نقيب يبلغه إلى سبطه. وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾(1) [البقرة: ٥٨] ؛بينت أن القائل هو الله،وتلقى موسى القول فأبلغه

---

(١) قال السمرقندى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ قال الكلبى : يعنى أريحا . وقال مقاتل : إيليا . ويقال هذا : كان بعد موت موسى عليه السلام ، وبعد مضى أربعين سنة حيث أمر الله تعالى يوشع بن نون - وكان خليفة موسى عليهما السلام - بأن يدخل مع قومه المدينة ، فقال لهم يوشع بن نون : ادخلوا الباب سجداً ، يعنى : إذا دخلتم من باب المدينة فادخلوا ركعًا ، منحنين ، ناكسى رؤوسكم ، متواضعين ، فيقوم ذلك منكم مقام السجود ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ يعنى : أريحا أو إيليا ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ موسعًا عليكم ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ اى : ركعًا منحنين ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾.

وروى عن قتادة أنه قال : تفسير ﴿ حِطَّةٌ ﴾ يعنى :حط عنا خطايانا . وقال بعضهم: معناه لا إله إلا الله . وقال بعضهم : بسم الله . وقال بعضهم: أمروا بأن يقولوا =

للنقباء الذين أبلغوه للأسباط، وكذلك ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ [الأعراف: ١٦١] ؛ لأن الذى قال فى الأولى هو الذى قال فى الثانية، واللقطة الأولى قد أعطتنا المصدر الأصيل فى القول وهو الله .

إذن. . الله قال لموسى؛ لأنه هو القائل سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ ثم قام موسى بالتبليغ، لكنك ساعة تسمع ﴿إِذْ﴾ فإنها تذكر بفضل قد حدث تريد أن تذكر به السامع؛ ولذلك فأنت تقول له: اذكر إذ فعلت فيك كذا وكذا وكذا، إذن. . قوله: ﴿وَإِذْ﴾ هنا بمعنى: واذكر إذ قيل، أى وتذكر إذ قيل لهم: اسكنوا هذه القرية. ما هى هذه القرية؟ قيل: هى بيت المقدس. وقيل: أريحا. ويأتى فى لقطة ثانية أنهم قالوا: إنهم لن يدخلوها؛ لأن فيها قوما جبارين، وفى

= يقولوا بهذا اللفظ ولا ندرى ما معناه . ثم قال : ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ ومعناه : نغفر لكم خطايا الذين عبدوا العجل : ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى : سنزيد فى إحسان من لم يعبد العجل . ويقال : نغفر خطايا من رفع المن والسلوى للغد، وسنزيد فى إحسان من لم يرفع إلى الغد . ويقال : نرفع خطايا من هو عاصٍ، وسنزيد فى إحسان من هو محسن. فلما دخلوا الباب خالفوا أمره . وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ: « أنهم دخلوا الباب يزحفون »(١) وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: « دخلوا على أستاههم » (٢) ويقال : دخلوا منحرفين على شق وجوههم . وقالوا : « احنطا سمفانا » يعنى: حنطة حمراء . بلغة القبط استهزاء وتبديلاً . وإنما قال ذلك سفهاؤهم ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أى: غيروا ذلك القول وقالوا : بخلاف ما قيل لهم .

[بحر العلوم : ١/ ١٢١، ١٢٢]

(١) أخرجه البخارى [٤٦٤١] ، ومسلم [٣٠١٥] بلفظ : « قيل لبنى إسرائيل : ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا : حبة فى شعرة » .

وقال النووى : وقوله : « يزحفون على أستاههم » جمع است وهى الدبر .

[شرح النووى على مسلم : ٩/ ٣٨٤]

(٢) جزء من حديث أخرجه الحاكم في المستدرك [٢/ ٢٦٢] وصححه ، ووافقه الذهبى .

لقطة أخرى يقولون: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ولكن فى كل اللقطات لا يذكر الله لنا اسم القرية ولا مكانها، ولا يقولون مثلا: هل هى: بيت المقدس، أو أريحا.

نقول: إننا نفهم فى هذه الحالة أنه ليس المقصود اسم القرية، وأن اسمها لا يغير شيئاً، ولا يضيف شيئا ،وإنما المقصود هنا سلوك بنى إسرائيل تجاه أوامر الله ، المهم هنا رفضهم لتنفيذ الأمر، وليس المهم على أى مكان ينطبق هذا الأمر .

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ فكأنه قد تكفل برزقهم الذى ليس لهم فيه أسباب، ولا يقومون فيه بأى عمل، مثل تفجير الماء من الصخر ليشربوا ، أو إنزال المن والسلوى عليهم ليأكلوا، فإذا كان الله قد فعل لهم ذلك وضمن لهم رزقهم فيما لا عمل لهم فيه، بل إن الرزق يأتى من السماء هكذا بلا أسباب، فهل إذا قال لهم الله: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ فهل يتخلى عنهم فى هذا الشىء الذى للأسباب فيه طريق، وهو الذى لم يتخل عنهم فيما ليس فيه أسباب؟ ! بالطبع لا. . ولكن عصيانهم كان بسبب أنهم لم يعقلوا عن الله.

وقوله تعالى : ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ ما معنى ﴿حِطَّةٌ﴾؟ معناها: حُطَّ يارب عنا ذنوبنا؛ لأننا دخلنا القرية التى أمرتنا بأن نسكنها.

وقوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ معناه: أن القرية لها باب ليدخلوا منه، وقد كانت كل القرى فى الماضى لها أبواب. و﴿سُجَّدًا﴾ يعنى: ساجدين شكرًا لله؛ لأن الله قد أنجاكم بعد أن حكم عليكم بالتيه فى الأرض أربعين سنة، فهو قد أنعم عليكم وجاء بكم إلى مكان لتستقروا فيه؛ ولذلك وجب عليكم أن تسجدوا شاكرين، وإذا سجدتم فإنكم عندها لن تشكروا الله فقط على أنه تاب

عليكم، بل سيغفر الله لكم ذنوبكم بهذه السجدة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ﴾ أى: أنكم عندما تسجدون لله شكرًا ساعة تدخلون هذه القرية، وتقولون: يارب، حُطَّ عنا ذنوبنا؛ فإن الله سيغفر لكم هذه الذنوب، ثم يزيدكم من فضله حسنات؛ ولذلك قال: ﴿ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإذا غفر الله سبحانه وتعالى لهم فقد سلب عنهم الضر، ثم إذا زادهم حسنات فقد جلب لهم النفع.

لكن هذه الآية وردت فى سورة البقرة بشىء من الاختلاف؛ الكيان العام واحد، وأول خلاف فى سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ ، وفى سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ قِيلَ ﴾ والسبب فى ذلك أن هناك لقطة ثانية لنفس القصة، وبما أن الحق سبحانه وتعالى هو القائل، فلا يتكرر ذلك؛ لأنه أصبح معروفاً فيقول: ﴿ وَإِذْ قِيلَ ﴾ ونحن نعرف من القائل، والحق سبحانه وتعالى قال فى سورة البقرة: ﴿ ادْخُلُوا ﴾ ، وفى سورة الأعراف: ﴿ اسْكُنُوا ﴾ والدخول ليس هو الغاية المراد بها الأمر، فلم يطلب منهم أن يدخلوا هذه القرية، ويمروا بها مرورا، ولكنهم يدخلونها ليسكنوها، ففى الآية الأولى يريد أن يعطينا بداية ما يحدث وهو الدخول، وفى هذه الآية فى قوله : ﴿ اسْكُنُوا ﴾ يريد أن يعطينا الغاية ولكن الغاية تشمل المعنى الأول؛ لأنه لا يمكن أن يسكنوا القرية إلا إذا دخلوها، وفى نفس الوقت يبين لنا الحق سبحانه وتعالى أن أمر الدخول الذى جاء فى سورة البقرة لا يقصد منه دخول عابر، وإنما هو دخول للسكن والإقامة.

وهكذا نرى أن كل آية من الآيات قد جاءت بلقطة أضافت إلى المعنى وشرحته، وأنه لا يوجد أى نوع من التكرار؛ لأن كل آية تعطينا لقطة، فآية أعطتنا أن القائل هو الله، وآية أعطتنا أنه صدر لهم أمر بالدخول، وآية أعطتنا أن الدخول لم يكن لأمر عابر ، ولكنه كان للإقامة والسكن.

إذن.. فلا تكرار بل استكمال للمعانى، وهكذا القرآن الكريم إذا جمعت كل الآيات حول قصة أى رسول أو نبى، ووضعتها مع بعضها؛ تجد أنها تعطيك القصة كاملةً بكل تفاصيلها، وأن كل آية فيها إضافة جديدة ليست فى الآية الأخرى.

الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الأعراف : ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، وفى سورة البقرة يقول : ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ ،والذى نفهمه من الآيتين أنه ساعة أمرهم الله بدخول هذه القرية كانوا جائعين. فى الآية الأولى،﴿فَكُلُوا﴾ معناها: أقبلوا على الأكل؛ لتقضوا على الجوع الذى ينتابكم، ولكن إذا دخل الإنسان مكاناً جديداً فما هو أول شىء يبحث عنه؟ إنه السكن بالطبع؛ يريد أولاً أن يطمئن إلى المكان الذى سيقيم فيه، ثم يبحث عن الطعام بعد ذلك، ومهما كان خائفا فإنه لا يطمئن قلبه إلا إذا اطمأن إلى مكان الإقامة أولاً ؛ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا﴾ أى: اطمئنوا أولا إلى المكان الذى ستقيمون فيه ، ثم بعد ذلك كلوا حتى تشبعوا .

على أن هناك ملاحظة أخرى فى الفرق بين الآيات فى سورة البقرة وفى سورة الأعراف؛ ففى سورة الأعراف يقول الحق سبحانه وتعالى:﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ هنا قدَّم دعاءهم بأن يحط الله عنهم خطاياهم ويغفرها لهم، وأخَّر الأمر بالسجود. ولكن فى الآية التى فى سورة البقرة يقول: الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ نقول: إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبيح لبنى إسرائيل أن يؤدوا الأمر حسب انفعالهم، ودون أن يكون الترتيب فيه معصية لله ؛ الموقف موقف توبة، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يتوب عليهم، فهو لا يريد أن يعطيهم أمراً إذا انفعلوا فى تنفيذه ارتكبوا

معصية، والأمر حين يصدر من الله بأن يقولوا حط عنا ذنوبنا ويسجدوا، فإن الانفعال للأمر سيختلف؛ فبعض الناس سيسجد أولاً، والبعض الآخر سيقول: حط يارب عنا ذنوبنا ثم يسجد؛ والثالث يقول: حط عنا ذنوبنا - وهو ساجد- كل حسب انفعاله.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا - رحمة منه - أن كل أنواع الانفعال فى هذا الموقف لا تعتبر مخالفة لأمر الله، فالذين سجدوا أولا وقالوا: حط عنا ذنوبنا مطيعون، والذين طلبوا حَطَّ الذنوب، ثم سجدوا مطيعون، والذين فعلوا الاثنين معاً مطيعون .

إذن. . فكل صور الطاعة هذه مقبولة عند الله؛ وبذلك يرينا الحق سبحانه وتعالى سعة رحمته ومقدار جحود بنى إسرائيل؛ فهو سبحانه قد منح المغفرة لبنى إسرائيل إذا سجدوا وطلبوا غفران الذنوب ، ولم يقيد هذا الأمر بترتيب محدد، ومع ذلك فقد عصوا.

على أن قول الحق تعالى فى سورة الأعراف: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ وفى سورة البقرة: ﴿خَطَايَاكُمَ﴾ ما هو الاختلاف بين الخطايا والخطيئات؟ الجمع فى ذلك يختلف؛ فالخطايا: جمع خطيئة، وهو جمع تكسير. والخطيئات: جمع مؤنث سالم، وجمع المؤنث السالم يضاف إليه ألف وتاء فى آخره مثل «بنت» جمعها : «بنات». وجمع التكسير يكون بتغيير بنية الكلمة، مثل: «قفل» جمعها: «أقفال». وجمع المؤنث السالم البنية فيه لاتتغير مثل: «زينب» «زنيبات»، و«أكلة» «أكلات»، ولكن هذا الجمع يدل على القلة ، بينما جمع التكسير يدل على الكثرة.

وقوله تعالى :﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ شمل أصحاب الذنوب القليلة، وقوله تعالى: ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ شمل أصحاب الذنوب الكثيرة؛ ولأن المخاطبين ليسوا متساوين فى الخطايا، فمنهم قليل الخطايا ومنهم كثيرها، فكأن تغيير اللفظ فى الآيتين،

دليل على أن المغفرة ستشمل الجميع، أصحاب الذنوب القليلة وأصحاب الذنوب الكثيرة.

وعلينا أن نلحظ الفرق بين قوله تعالى: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، يريد الحق أن يبين لهم أنه لن يكتفى بأن يغفر لهم، وأن يرفع عنهم الخطايا، بل إنه أيضاً سيزيدهم حسنات، وحينما نزل هذا القول انشغل بنو إسرائيل بأن الزيادة للمحسنين قد تكون لأصحاب الذنوب القليلة فقط؛ فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضحها فقال: ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ وقال فى الآية الأخرى: ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ لتشمل أصحاب الذنوب قليلها وكثيرها. وجاء بقوله: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ تأكيداً على أن هذه الزيادة لقليل الخطايا وكثير الخطايا.

وهكذا نرى أن الآيتين تتكاملان؛ فإذا قيل لهم: ﴿اسْكُنُوا﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا﴾ تبين لنا أن القائل هو الله، وأن الدخول المقصود به السكن، وليس المرور العابر، وكلمة هذه القرية موجودة فى الآيتين دون تغيير.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا﴾؛ يبين لنا أنهم لابد أن يطمئنوا إلى السكن أولا، ثم يأكلوا.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، وقوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أنه لا مخالفة، ولا ذنب على من يسجد أولاً ثم يقول حطة، أو من يقول حطة أولاً ثم يسجد، أو يسجد ويقول حطة معاً؛ رحمة من الله ببنى إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿سَنَزِيدُ﴾ يبين أن هذه الزيادة تشمل كل المخطئين دون تمييز بين كثرة الخطايا وقلتها، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ماذا كان موقف بنى إسرائيل عندما صدر لهم هذا الأمر من الله ؟

قال الله تعالى : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢] ؛وبهـذا يتبين أن بنـى إسرائيل انقسموا إلى قسمين:

القسم الأول : قال المطلوب منهم.

والقسم الثانى- وهم الذين ظلموا - بدلوا القول.

الله سبحانه وتعالى طلب منهم قولاً وفعلاً.

أما القول فهو : ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾(1) [الأعراف: ١٦١] .

والفعل ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ [الأعراف: ١٦١] لو تأملنا هذا لعلمنا أن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذى قِيلَ لَهُمْ﴾ ، يلفتنا إلى أن التغيير جاء فى القول؛لأن القول قد يكون بين الإنسان ونفسه، بحيث لا يسمعه أحد، ولكن الفعل مرئى، وقد يحدث الفعل أيضاً عن مراءاة، وليس عن إيمان؛ فعندما جاء قول الله ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ : أرادوا أن

---

(1) قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله : ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال الحسن : أى احطط عنا خطايانا ، وهذا يليق بقراءة من قرأ: ﴿حِطَّةٌ﴾ بالنصب ، وهى قراءة إبراهيم ابن أبى عبلة، وقرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى: مسألتنا حطة، وقيل : أمروا أن يقولوا على هذه الكيفية . فالرفع على الحكاية ، وهى فى محل نصب بالقول ، وإنما منع النصب حركة الحكاية ، وقيل : رفعت لتعطى معنى الثبات كقوله: سلام . واختلف فى معنى هذه الكلمة ، فقيل : هى اسم للهيئة من الحط كالجلسة. وقيل : هى التوبة ، كما قال الشاعر :

فاز بالحطة التى صير اللـ ـه بها ذنب عبده مغفورا

وقيل : لا يدرى معناها ، وإنما تعبدوا بها . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس وغيره قال : قيل لهم : قولوا مغفرة . [فتح البارى : ٩/ ١٩٤]

يخالفوه فقالوا: «حنطة» وعندما جاء الفعل: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ راءى بعضهم البعض؛ فسجدوا مراءاة وليس عبادة .

إذن . . فالتبديل جاء فى القول.

وقيل أيضاً :إنهم بدلوا فى الفعل، فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين أرادوا أن يدخلوا زاحفين على صدورهم.

ربما لم يذكر الحق سبحانه وتعالى المخالفة فى الفعل؛ لأنه قد يكون منهم من لا قدرة له على السجود ، ولكن لا عُذر لهم فى مخالفة القول.

وعلى كلٍّ . .فهم فى هذه الحالة قد واجهوا نعم الله بالمعصية؛فهو سبحانه نجاهم من التيه فى الأرض،وظلل عليهم الغمام،وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وعندما استسقوا جاءهم بالماء، ومع ذلك لم يتوبوا عن المعصية؛ فبدلوا قول الله تعالى وحرفوه؛ لذا: أرسل الله عليهم رجزًا - أى :عذاباً - من السماء(1)، وهنا نلحظ ثمة فرق بين قوله تعالى فى سورة الأعراف [١٦١] : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وقوله تعالى فى سورة البقرة [٥٩] : ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فما الفرق بين الإنزال والإرسال؟

الإنزال: يأتى مرة واحدة.

والإرسال: يكون مستمرًا .أى : مسترسلاً .

مصداق ذلك قول الله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [لقمان:١٠]؛ لأن المطر ينزل لكنه لا يستمر طول الوقت، أما الرياح فهى مستمرة لا تنقطع أبدًا؛ يقول تعالى: ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [الروم: ٤٨] .

---

(١) قال الخازن فى قوله تعالى : ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يعنى : عذابًا من السماء ، قيل: أرسل الله عليهم طاعونًا فهلك منهم فى ساعة واحدة سبعون ألفًا . [تفسير الخازن : ١/ ٨٥]

إذن . . الفرق جاء لأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنا أن الرجز أو العذاب الذى أرسله سبحانه عليهم من السماء،لم يكن عذابًا متساويًا لكل بنى إسرائيل؛ فكل واحد منهم له خطايا تختلف عن الآخر؛ ولذلك عندما نزل الرجز من السماء كان مرة واحدة بالنسبة لمن هو قليل الخطايا، واستمر بالنسبة لمن كثرت ذنوبهم وخطاياهم، بمعنى : أن الذين كانت ذنوبهم بسيطة نزل عليهم عذاب من السماء مرة واحدة وتوقف، والذين تمادوا فى الذنوب أرسل الله عليهم عذابًا مستمرًا .

وهكذا بلاغة القرآن ترينا الصورة دقيقة بكل محتوياتها.

وثمة فرق آخر نلحظه فى قول الله تعالى فى سورة الأعراف [١٦٢]: ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾،وقوله تعالى فى سورة البقرة [٥٩] :﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ويتبين هذا الفرق من السؤال الآتى: هل الفسق سابق للظلم؟ أم الظلم سابق للفسق؟ نقول : الفسق يسبق الظلم؛ فلا يمكن لإنسان أن يظلم نفسه بمخالفة منهج الله إلا إذا فسق أولاً، فإذا فسق يصبح ظالما.

إذن . . فالحق سبحانه وتعالى فى اللفظين جاء بالمسبب وهو الفسق، وجاء بالسبب وهو الظلم؛ حتى نعرف أنهم فسقوا أولاً بخروجهم عن منهج الله وأمره،فظلموا أنفسهم بذلك الخروج. وهكذا نعرف أن كل كلمة فى القرآن جاءت لمعنى أساسى تؤديه وتكمل الصورة تمامًا.

* تفضيل بنى إسرائيل فى زمانهم *

قال تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة] ،إن تذكير الحق هنا لبنى إسرائيل بنعمه يختلف فى معناه عن التذكير السابق، فالتذكير السابق الذى قال فيه الحق: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة] ،هذه الآيات السبع المقصود بها فى جملتها تذكير بنى إسرائيل برسالة رسول الله ﷺ، والذى جاء وصفه وصفته فى التوراة، وإذا كان الله قد فضَّل بنى إسرائيل بأن أرسل إليهم الرسل، فليس معنى ذلك أن ينكروا نعمة الله عليهم بالرسول الجديد.

إن الله قد بيَّن فضله عليهم؛ حتى لا يظن أحد أن عذابه لهم فيما بعد نوع من القسوة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيرًا- إنما هو عذاب نتيجة لعمل سابق، قدم الله لهم الخير فاستقبلوا الخير بالشر، أرسل الله لهم الرسل فاستقبلوا الرسل بالإنكار، ونكثوا عهودهم مع الله، ولم يجيبوا داعى الله بالإيمان،

وبتصديق منهجه، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلّفه فكان يجب أن يفهم يهود المدينة أن رسول الله ﷺ هو نعمة من نعم الله عليهم؛ لذلك يقول لهم الحق ما معناه :إذا كنت قد فضلتكم من قبل على البشر برسالاتى ورسلى إليكم ،ولم تأتوا إلى طائعين، فلسوف تأتون مقهورين؛ لذلك عليكم أن تتقوا ذلك اليوم ، يوم البعث، يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً، ولن تقبل منها شفاعة، ولن يجدى أى عرض من الدنيا ليفتدى به أحد نفسه، ولن يدفع أحد عن نفسه العذاب .

لقد أنقذهم الله من قبل من ظلم فرعون، ووهبهم العلم بآياته، لكنهم أنكروا أكبر نعمة لله عليهم وهى رسالة رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام. كما تمردوا على موسى والرسل من بعده. وقد يظن ظان أن هناك اختلافاً بين آيتين موجهتين إلى بنى إسرائيل. الآية الأولى هى:﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

والآية الثانية هى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(1) [البقرة:١٢٣] .

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة] .

وقد تقدم نظير هذه الآية فى صدر السورة؛ وكَررت ههنا؛ للتأكيد، والحث على اتباع الرسول النبى الأمى، الذى يجدون صفته فى كتبهم، ونعته، واسمه، وأمره، وأمته، فحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بنى عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم؛ ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه، والحيد عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين.

[تفسير ابن كثير١/ ١٥٦]

الاختلاف المزعوم أن الله فى الآية الأولى يقول: ﴿لا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] ، وبقية الآية فى أولها وآخرها متطابقة مع الآية الأخرى .

والآية الثانية الاختلاف فى قوله تعالى: ﴿لا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ وبقية الآية فى أولها وآخرها متطابقة مع الآية الأولى؛ الملاحظ هنا أن الشفاعة مقدمة على العدل فى الآية الأولى، والعدل مقدم على الشفاعة فى الآية الثانية، فهل فى هذا تعارض؟ حاشا وكلا أن يتعارض كلام الله تعالى. وقد يظن بعض الناس أن ذلك تفنن فى الأسلوب!!

الصواب لا مع هذا ولا ذاك؛ إنما كل آية مناسبة لسياقها، إن بداية الآيتين هى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ والمقصود بالتقوى : أن نجعل بيننا وبين ما يضرنا وقاية، فعندما يقول الحق: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، فالمقصود هى أن نتبع المنهج الذى جاء به رسول الله ﷺ، نفعل ما يأمرنا به، وننتهى عما ينهانا عنه؛ لأن الإنسان إذا ما خالف أمر الله ورسوله ولم يتب من هذه المخالفة؛ فلابد أن تكون النار مصيره، إما جزاءً على المخالفة ثم يعفو الله عنه، أو يخلد فيها إذا كانت المخالفة كفراً بالله تعالى؛ لهذا فعلى الإنسان أن يجعل بينه وبين النار وقاية(1)، بألا يفعل

(1) الوقاية: حفظ الشىء مما يؤذيه ويضره، يقال: وقيت الشىء أقيه وقاية ووقاء، قال: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ﴾ ، ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾، ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ﴾، ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.
والتقوى: جعل النفس فى وقاية مما يخاف، هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفاً؛ حسب تسمية مقتضى الشىء بمقتضيه والمقتضى بمقتضاه.
وصار التقوى فى تعارف الشرع: حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات. قال الله تعالى: ﴿اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾. [المفردات فى غريب القرآن: ٥٦٨]=

ما يستوجب غضب الله عليه، وعندما يقول الحق: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحديد: ٢٨] فالمقصود أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية، وصفات الجلال هى: القهار، والجبار، والمنتقم. إن الإنسان المؤمن هو الذى يجعل لنفسه وقاية من متعلق صفات الجلال، وهى: كما قلنا القهار، والجبار، المنتقم، وذو البطش والجبروت.

إذن.. فقول الحق: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ معناه أن الله يحذرنا وينذرنا بضرورة اتباع التكاليف الإيمانية؛ حتى إذا جاء يوم القيامة وجدنا أنفسنا أمام العمل الصالح الذى قمنا به.

ومن لا يتبع التكاليف الإيمانية سوف يجد نفسه أمام عمله السئ؛ ذلك أن يوم القيامة هو يوم الفصل، يوم الحساب على التكاليف الإيمانية، يوم لا تملك أى نفس لنفس أخرى شيئا.

وقول الحق: ﴿لا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾؛ ذلك أن الحق يعلمنا أن كل نفس مسئولة عما فعلت، فلا تستطيع نفس أن تعطى من عملها لنفس أخرى. إذن.. فهناك نفسان: نفس مؤمنة تريد أن تجزى عن نفس أخرى كافرة، وهناك نفس ثانية تأتى ذليلة يوم القيامة وفقيرة من العمل الصالح، وترغب أن يقبل الله بعضاً من عمل النفس المؤمنة، التى تتمنى هى الأخرى أن تجزى عن النفس الكافرة ،ففى يوم القيامة ستحاسب كل نفس على قدر عملها، فلو جاء يوم القيامة وقال واحد من الناس: «يا ربى أنا سوف أجزى

= وأخرج ابن أبى الدنيا عن أبى هريرة أن رجلا قال له: ما التقوى؟ قال: هل وَجَدْتَ طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه، أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى.

وأخرج أحمد فى الزهد عن أبى الدرداء قال: تمام التقوى أن يتقى الله العبد، حتى يتقيه من مثقال ذرة حين يترك بعض ما يرى أنه حلال؛ خشية أن يكون حراماً، يكون حجاباً بينه وبين الحرام. وقد روُى نحو ما قاله أبو الدرداء عن جماعة من التابعين. [فتح القدير: ١/ ٨٨]

عن فلان، أو أنا سوف أكون مكان فلان، أو أنا سوف أقضى الحق عن فلان»، هذا القول سوف يسمعه الإنسان الذى يطلب له الإنسان المؤمن أن يجزى عنه، وسيكون موقفه موقف الذلة، لكن الله لا يقبل جزاء نفس عن نفس أخرى.

وكأن للنفس الجارية التى تريد أن تعطى من عملها الصالح مرحلتان:

المرحلة الأولى: هى التى تذهب فيها إلى الله تطلب الشفاعة، فلا يأذن قبل الله لها بالشفاعة عن نفسٍ عملها طالح.

المرحلة الثانية: هى أن ترغب النفس الجارية، وتطلب من الله أن تفتدى بعملها الصالح نفساً أخرى عملها طالح، هنا لا يقبل الله الفدية أو العدل.

والمقصود بالعدل هنا : أن النفس المؤمنة ترجو الله أن يأخذ من عملها فدية؛ تفتدى بها النفس ذات العمل الطالح.

فكأن الآية الأولى: تشرح بوضوح لا يقبل الجدل أن النفس المؤمنة لا تستطيع الشفاعة،ولا يؤخذ من عمل النفس المؤمنة؛ ليعوض النقص فى عمل النفس الكافرة.

وكأن الآية الثانية تشرح موقف النفس الكافرة، التى قد تظن أنها فى يوم القيامة قادرة على أن تتوسل للنفس المؤمنة؛ حتى تشفع لها عند الله، أو أن تعطيها بعضا من العمل الصالح؛ لتعوض به أو تفتدى به عملها الطالح.

إذن.. الشفاعة مستحيلة من نفس لنفس أخرى، والصفقة المادية - أى: الافتداء - أيضاً مستحيلة ، والافتداء المقصود هو «العدل».

وهكذا نجد أن كل آية جاءت بسياقها الواضح الذى قد يظنه المرء تشابهاً أو اختلافاً، لكنه ليس كذلك،فالقرآن الكريم أُحكمت آياته وفُصِّلت من لدن عزيز حميد.

ومثال آخر يوضح ذلك الأمر فى القرآن الكريم : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1] [الأنعام: ١٥١]. إن الحق تبارك وتعالى يأمر رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام أن يبلغ الناس بالتكاليف الإيمانية، وهى ألا يشرك أحد بالله، وألا يسىء أحد معاملة الوالدين، إلا إن الأمر الواضح هو: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ﴾ أى أن الفقر رغم وجوده فى زمن نزول تلك الآية ليس مبرراً لقتل الأبناء، ويستمر تحريم قتل الأبناء لما بعد ذلك؛ لأن الرزق بيد الرزاق، يرزق الآباء والأبناء، وألا يقرب الإنسان الفواحش مثل الزنا؛ لأنه من الأمور البالغة القبح، سواء ما ظهر منه للناس، أو ما لم يعرفه أحد غير الله، وألا يقتل إنسان إنسانا آخر إلا إذا كان القتل بحكم قاض ينوب عن المجتمع فى إقرار العدل.

هذه هى الوصايا التى يوصى الله رسوله ﷺ بأن يبلغها للمؤمنين.

ولنا أن نلحظ -كما قلت- قول الحق: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]. إن البعض قد يظن أن فى الآيتين تكراراً، لكن العين الفاحصة العارفة بأسرار اللغة تعرف

---

(١) عن سعد بن عبادة قال: لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «تعجبون من غيرة سعد ؟! والله لأنا أغير منه، والله أغير منى ومن أجل غيرة الله؛ حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة». أخرجه البخارى[٧٤١٦]

أن هناك ضرورة لوجود هذين القولين الكريمين؛ إن القول الأول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ يعنى: أن قتل الأبناء محرم رغم وجود الفقر؛ ذلك أن الفقر قد يشغل الإنسان برزق نفسه، قبل أن ينشغل برزق ولده؛ لذلك قال الحق: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، أى: قدم الرزق للآباء؛ حتى لا يلهيهم طلب رزقهم عن طلب رزق أبنائهم، ذلك فى حالة وجود الفقر، وعندما يقول الحق: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ هنا نجد أن الفقر غير موجود كواقع معاشى، لكن الناس قد تقتل أولادها خشية من الفقر القادم؛ لذلك قدم الله الرزق للأبناء قبل رزق الآباء؛ وذلك حتى لا يقتل أحد أبناءه خشية فقر قادم، هكذا يكون كلام الله المعجز كل كلمة فى مكانها، وكل حرف فى نسقه، وكل معنى فى محله، وكل آية بغايات لا يستنبطها إلا أولو العلم .

وقد يقول قائل: إن هناك آيتين كل منهما تحتوى على نفس المعنى، وإن كان النصف الثانى من كل آية يختلف عن الآخرى، الآية الأولى هى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]. والآية الثانية هى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤] إن الخالق عز وجل وهب الإنسان كل ما يحتاجه فى حياته، سواء طلبه أم لم يطلبه، وإن نعمة الله شاملة كل النعم التى لا يستطيع الإنسان حصرها، إن الإنسان قد يعد شيئاً يغلب الظن أنه قادر على إحصائه، لكن الشيء الذى لا يمكن أن يحصيه الإنسان، فإنه لا يُقبل على عَدِّه؛ فليس هناك أحد يقبل على حساب عدد حبات الرمال أو عدد الجبال؛ كذلك لا أحد قادر على أن يحسب نعم الله؛ ولهذا جاءت كلمة ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ شاملة لكل ما نطلبه وما لا نطلبه، فى آية نعرف أن المنعم غفور ورحيم؛ لأنه لا يمنع النعمة عن الإنسان بمجرد المعصية، وفى آية آخرى نعرف أن الإنسان

الذى يتلقى النعم، منه الظالم ومنه الذى يكفر بنعم الله، والله لا يعامل البشر بظلمهم، ولا بكفر بعضهم بآياته ونعمه، إن نعمة الله تشمل المؤمن والكافر معا.

لذلك فعندما نقرأ الآيتين مجال المقارنة، فلنا أن نلحظ أن الآية الأولى هى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، فإن هذه الآية تتقدم فيها الشفاعة على العدل لماذا؟ لأن النفس المؤمنة التى تشفع، أو تحاول أن تعطى من خير إيمانها للنفس الكافرة، هذه النفس لا يقبل الله منها ذلك، إنما هى تنال حساب ما قدمت من خير، والنفس الأخرى تنال حساب ما قدمت من شر، والآية الثانية يتقدم فيها العدل على الشفاعة وهى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، لماذا يتقدم العدل هنا على الشفاعة؟ لأن الخالق العادل لا يرضى أن تظلم النفس المؤمنة نفسها بالشفـاعة أو بالتنازل عن حسناتها، إن يوم الحساب هو يوم الفصل لا يستطيع أحد أن يجزى عن آخر، ومن ذلك قول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

إن الدعوة موجهة لكل إنسان ليحذر يوم القيامة، وليفعل كل إنسان ما أمر الله به، وليبتعد عما نهى عنه سبحانه؛ ذلك أن عذاب يوم القيامة - لمن عمل عملاً غير صالح- شديد، ولا والد يستطيع أن يغنى عن ولده، أو أن يطلب له الرحمة، ولا مولود يمكنه الشفاعة لوالده؛ ذلك أن وعد الله حق وعدل، ولهذا فعلى الإنسان أن يحذر وسوسة الشيطان، ولا تلهيه الدنيا عن الآخرة، إن أحدا لا يستطيع يوم القيامة أن يدفع العذاب عن أحد آخر.

ولنا أن نقف قليلاً عند معنى: ﴿عَدْلٌ﴾، إننا ننطقها مرة: «عِدْل» بكسر العين، وننطقها مرة: «عَدْل» بفتح العين، فإذا نطقناها بكسر العين، فمعنى

ذلك: الشىء المساوى لنفس النوع، بمعنى أن واحداً يستبدل نوعاً من القماش بنوع آخر من القماش، فيقال عن ذلك: «عِدْل» بكسر العين. وإذا نطقناها بفتح العين، فمعنى ذلك: الشىء المساوى لقيمة أخرى، بمعنى أن واحداً يستبدل نوعاً من السلع أو الأشياء بما يساويه من سلعة أخرى، أو شىء مختلف عنه، كأن يشترى واحد قماشاً فيدفع ثمنه ذهبًا[1].

ومثال ذلك أيضا من القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥]

إن الله يحرم هنا قتل الصيد إذا انتوى الإنسان الحج أو العمرة؛ ومن قتل الصيد عامدا فلابد أن يدفع ما يوازى الصيد الذى قتله، ويكون الدفع من الإبل أو الأنعام، ويهديه إلى الفقراء عند الكعبة المشرفة، وأن يقدر قيمة الصيد رجلان يتصفان بالعدل، أو يحكم هذان العادلان عليه بإطعام عدد من المساكين بقيمة ما قتل من الصيد ، أو أن يصوم عدداً من الأيام بعدد الفقراء، الذى كان يجب أن يطعمهم؛ وذلك حتى يشعر المعتدى بعمق ما ارتكب من جريمة، والله يعفو عمن قام بذلك العمل قبل تحريمه، ويعاقب من ارتكب ذلك الفعل، والله شديد العقاب لمن يعصى أوامره؛ هكذا يتضح لنا معنى كلمة ﴿عَدْلٌ﴾.

ولنا أن نعرف أن هناك ثلاث كلمات كل منها تصلح أن تكون معنى

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] أى فداء. والعدل بفتح العين: الفداء، وبكسرها: المثل؛ يقال: عِدْل وعَدِيل للذى يماثلك فى الوزن والقدر. ويقال: عَدْلُ الشئ هو الذى يساويه قيمة وقدراً، وإن لم يكن من جنسه. والعِدل بالكسر: هو الذى ساوى الشىء من جنسه وفى جرمه. وحكى الطبرى: أن من العرب من يكسر العين من معنى الفدية. فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير.
[تفسير القرطبى: ١/ ٣٨٠]

للأخرى، وهى: «الحق» و«العدل» و«الإنصاف»؛ إن العدل معناه الحق، والحق نطلق عليه الإنصاف، والعدل لا يكون إلا بين خصمين، ومرة نقول: «العدل» ونريد به الحق، ومرة أخرى نقول: «العدل» ونقصد الإنصاف، ومعنى الحق بشكل محدد: هو الشىء الثابت الذى لا يتغير؛ لأنه مرتبط بواقع، ومعنى العدل بشكل محدد: ألا يحكم الإنسان بميزان مائل لجهة دون أخرى، ومعنى الإنصاف بشكل محدد: أن ينظر القاضى إلى الخصمين نظرة متساوية، وكأن نصف القاضى يقف مع الخصم الأول، ونصفه الثانى يقف مع الخصم الثانى؛ إن الإنصاف يقتضى ألا يذهب القاضى بكليته إلى خصم ولو بميلة الجسم، أو بميل البصر أو بتكرمة من اللسان، إن الإنصاف يقتضى أن يكون «نصفك» لهذه الجهة، و«نصفك» الآخر للجهة الأخرى، أى: أنه لا توجد جهة فى الخصومة أولى من جهة، بل للجهتين حق متساوٍ عليك. ولنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة؛ حيث كان يعدل فى كل شىء ، حتى فى الجلوس بين الأصحاب، كان يوزع نظره على كل جلسائه، لماذا؟ حتى لا يحسب جليس أن واحدًا من بقية الصحابة أعز على رسول الله منه؛ وكان الرسول ﷺ يستمع لكل منهم، لم يكن هناك واحد أولى بمحمد ﷺ من غيره.

ولهذا نقول لمن يجلس من الناس منزلة القاضى: عليك بالحكم بالحق والإنصاف؛ ولنا فى الإمام علىّ رضى الله تعالى عنه أسوة؛ فعندما اختصمه واحد من الناس على درْع للإمام علىّ، ماذا حدث؟ ذهب الاثنان إلى القاضى، فقال القاضى للإمام على: تكلم يا أبا الحسن. فامتنع الإمام على عن الكلام، وقال للقاضى ما معناه: كيف تنطق اسمى بكنيتى، ولا تنطق اسم خصمى بكنيته؟ إنك بذلك تأخذ جانبى، وقد تحكم لى فى هذه القضية بغير حق؛ قال ذلك بالرغم من أنه صاحب حق!

(١) النَّصف والنَّصَفة والإنصاف: إعطاء الحق. ابن الأعرابى: أنصف إذا أخذ الحق، وأعطى الحق. وأنصف الرجل أى: عدل. [لسان العرب: ٩/ ٣٣٢]

مثال آخر من التاريخ العربى، تلك الحكاية التى ترويها الكتب عن القاضى الذى عرف الناس عنه أنه يحب البلح الرطب، وعرف أحد المتقاضين أمام القاضى عنه ذلك، ولم يكن قد وقف أمامه بعد، وبعث هذا المتقاضى بهديه من بواكير الرطب، حيث أن البلح لم يكن قد ظهر وغمر الأسواق بعد، وظن هذا المتقاضى أنه عندما قدم تلك الهدية للقاضى، قد عرف مفتاح شخصيته ونقطة ضعفه، ولكن الذى حدث عندما أخذ الخادم هدية الرجل وقدمها للقاضى،سأل القاضى الخادم: من أحضر هذا؟ قال الخادم: إنه فلان،وعرف القاضى أن فلانا هذا سوف يقف أمامه كمتقاض، فرد إليه هديته، وعندما جاء المتقاضى أمام القاضى ووقف الخصمان أمامه، لم ينطق القاضى بكلمة، وفضَّ الجلسة وذهب إلى الوالى يطلب أن يستقيل من القضاء .

هنا قال الوالى: ولمن تدع العدل بين الناس، أنت تعرف أنك أكثر القضاة عدلا؟! ورد القاضى: اسمع منى قصتى: لقد عرف أُناس عنى حبى للرطب، وجاء خادمى بهدية من بواكير الرطب؛ فلما رأيته قلت لخادمى: ممن؟ قال: من فلان، وعرفت أن فلانا هذا له عندى قضية، فرددت الهدية، لكن عندما دخلت مجلس القضاء، وجاء أمامى من أرسل الرطب وخصمه نظرت إليهما، فوالله لقد استويا فى نظرى مع أننى رددت الطبق. هكذا استقال القاضى؛ لأنه عرف معنى العدل الحقيقى، ومعنى الإنصاف.

* وبعد ذلك كله عفا الله عنهم فلم يشكروه *

قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ العفو يعنى إزالة كل أثر سابق، كأن الحق تبارك وتعالى بعد أن ظلم بنو إسرائيل أنفسهم باتخاذهم العجل إلهًا؛ غفر تعالى لهم؛ والعفو مأخوذ من الريح عندما تعفو الأثر(١).

مثال ذلك: السائر فى الصحراء يترك آثاراً لأقدامه، وبعد ذلك تأتى

(١) فى أسماء الله تعالى: العَفُوُّ، وهو فَعُولٌ من العَفْوِ، وهو التَّجاوُزُ عن الذنب وترك العقاب عليه وأصله المحو والطَّمْس، وهو من أبنية المبالغة. يقال: عَفَا يَعْفُو عَفْواً، فهو عافٍ وعَفُو، قال الليث: العفو عفو الله عز وجل، عن خلقه، والله تعالى العفوُّ الغفور. وكل من استحق عقوبة فتركتها فقد عفوت عنه. قال ابن الأنبارى فى قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] محا الله عنك، مأخوذ من قولهم عفت الرياح الآثار إذا دَرَسَتْها ومحتها، وقد عفت الآثار تعفو عفواً، لفظ اللازم والمتعدى سواء. قال الأزهرى: قرأت بخط شمر لأبى زيد: عفا الله تعالى عن العبد عفواً، وعفت الريح الأثر عفاءً فعَفَا الأثرُ عُفُوًا. وفى حديث أبى بكر رضى الله عنه: «سَلُوا الله العفو والعافية والمُعافاة» (١)، فأما العفو فهو ما وصفناه من محو الله تعالى ذنوب عبده عنه، وأما العافية فهو أن يعافيه الله تعالى من سقمٍ أو بَلية، وهى الصحة ضد المرض. يقال: عافاه الله وأعفاه أى وهب له العافية من العلل، والبلايا. وأما المعافاة فأن يعافيك الله من الناس ويعافيهم منك، أى: يغنيك عنهم ويغنيهم عنك، ويصرف أذاهم عنك وأذاك عنهم، وقيل: هى مفاعلة من العفو، وهو أن يعفو عن الناس ويعفوا هم عنه. وقال الليث: العافية دفاع الله تعالى عن العبد يقال: عافاه =

(١) جزء من حديث أخرجه ابن ماجة [٣٨٤٩] بلفظ: «... وسلوا الله المعافاة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين، خيراً من المعافاة...»، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [٣١٠٤].

الريح فتمحو أثر هذه الأقدام؛ ولهذا يقال فى اللغة: «عفت الريح الأثر» أى: محته وأذهبته ، وهكذا يضرب الله المثل- المحس - المادى أمام بنى إسرائيل.

إذن. . العفو هو محو لأثر الذنب، والعفو يطلق أيضًا على المعروف، ويطلق العفو على الطيب من المال الحلال. وتطلق العافية على دفاع الله الأذى والشر عن خلقه؛ لذلك فعندما يدعو العبد الطائع ربه: «اللهم إنى أسألك العفو والعافية»(١) فمعنى ذلك أن العبد يسأل الرب أن يدفع عنه كل شيء فيه أذى؛ لأن العبد لا حول له ولا قوة إلا بالله.

وقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

فإنه سبحانه يذكّر بنى إسرائيل أنه عفا عنهم بعدأن أرتكبوا أبشع ما يمكن لبشر أن يرتكبه، وهو الشرك بالله، باتخاذهم العجل إلهًا من دون الله، ولعل هذا العفو يدعوهم إلى شكر نعمة الله، وأول مظاهر الشكر ألا يخفى العبد أثر المُنعم عليه، أى يجب ألا يخفى الإنسان النعمة، وهى

= الله عافية، وهو اسم يوضع موضع المصدر الحقيقى، وهو المعافاة قال ابن سيده: وأعفاه الله وعافاه معافاة وعافية مصدر، كالعاقبة والخاتمة، أصحه وأبرأه، وعفا عن ذنبه عفواً: صفح، وعفا الله عنه وأعفاه .

[لسان العرب: ١٥/ ٧٢، ٧٣]

(١) عن ابن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسى وحين يصبح: «اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى، اللهم استر عورتى وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدىَّ ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى». أخرجه أبو داود [٥٠٧٤] واللفظ له، وابن ماجة [٣٨٧١]، وأحمد فى المسند [٢/ ٢٥]، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٤٢٣٩]. وصححه الشيخ شاكر برقم [٤٧٨٥].

مقرونة بواهبها وهو الله، وفى ذلك دعوة لكل عبد مؤمن، عندما يهبه الله النعمة ألا يعيش فى ظل هذه النعمة وينسى أن يشكر المُنعم عليها. يقول الحق تعالى: ﴿كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨)﴾ إن الخالق يحذِّر الإنسان من الطغيان، - أى: مجاوزة الحدود - وأن ينسى فيعيش مع النعمة دون أن يتذكر من أنعم عليه بها، هذه أول مظاهر الشكر، فلا يكفى أن يقول الإنسان: الحمد لله، إنما عليه أيضًا أن يعيش دائما غير غافل عن المنعم.

ويضرب الله تعالى المثل على ذلك بأصحاب الجنتين يقول تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)﴾ [الكهف] تلك الآيات توضح قصة رجلين: أحدهما

كافر، والآخر مؤمن؛ وللكافر حديقتان من أعناب يحيط بهما النخيل ليزينهما، وزرع كلتا الجنتين نضر ومثمر، وكان بينهما نهر، وكان ذلك الكافر مزهواً بالنعم، ولم يتذكر أن الذى وهبها له هو الله ، فقال لصاحبه المؤمن بغرور: أنا أكثر منك مالاً وولدًا، ولا أظن أن تفنى جنتى هذه أبدًا، ولا أصدق أن يوم القيامة سوف يأتى، وحتى لو جاء يوم القيامة، فلسوف أجد خيراً من هذه الجنة؛ ذلك أننى من أهل النعيم.

كان ذلك الأحمق يقيس عطاء الدنيا على عطاء الآخرة، ولا يعرف أن عطاء الدنيا اختبار يجتازه الإنسان لينال عطاء الآخرة.

هنا رد المؤمن على الكافر قائلاً له: كيف تكفر بربك الذى خلقك من تراب ووهبك الحياة، وتزهو بالنعمة، وتنسى أن الذى وهبها لك هو الله؟! وهو ربى الذى لا أشرك به أحدًا، إنه خلق الكون كله بما فيه، ومن فيه، وهو سبحانه وحده المستحق للعبادة، ولو أنك دخلت جنتك فتذكرت أن كل هذه النعم موهوبة لك من الله المنعم على عباده، وشكرته سبحانه على عطاياه، فإن ذلك الشكر يديم النعمة عليك ويحفظها، وأضاف: وإن كنت ترى أننى أقل منك مالاً وولدًا ؛فلعل ربى أن يرزقنى خيراً من جنتك فى الدنيا والآخرة، أو يرسل على جنتك عذاباً إما برد، أو حجارة، أو صاعقة فتصبح جنتك بعد ذلك أرضًا جرداء لا نبات فيها، أو يجف ماؤها. وقد حدث وأهلك الله جنة الكافر، فأصبح يقلب كفيه ندما وحسرة على ماجرى له، جزاء ما أشرك بالله، ولم يكن له لحظة الندم والخسران من ينصره؛ ذلك أن النُصرة من عند الله ينصر عبده الشاكر الحامد، ويزيده من فضله.

ولقد عفا الله عن بنى إسرائيل بعد اتخاذهم العجل إلهًا، وكان الواجب عليهم أن يشكروه بعد أن منحهم العفو، لكن أحدا منهم لم يفعل، ولم يعظموا المنعم على ما وهبهم من نعم.

ومن نعم الله عليهم؛ أن أتاهم التوراة مع موسى، يقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٥٣]. إن الله سبحانه يذكّر بنى إسرائيل أنه وهبهم الكتاب الذى يفرقون به بين الحق والباطل، وفيه المنهج الذى يعيد انسجام الإنسان مع الكون، وتلك نعمة كبرى.

وعندما يذكر الله بنى إسرائيل، فهو لا يخصهم وحدهم بالتذكير، ولكن يخص كل إنسان جاءته شريعة من الله، فعليه أن يستقبلها بالعمل بها وشكر الله عليها.

كما يجب علينا أن ننظر فى التكاليف الإيمانية على عطاء الله لنا، لا إلى ما يطلبه الرحمن منا بقيد التكاليف الإيمانية؛ لأننا إذا عقدنا مقارنة فلسوف نجد أن عطاء التكاليف الإيمانية أرحب بكثير من قيودها، فإذا أمرنا الحق ألا يسرق أحد مال أحد، فإن الحق هنا لا يقيد حركة فرد واحد، ولكن يقيد حركة كل فرد؛ ليحيا فى أمان من السرقة؛ وحين يأمر الحق كل عبد مؤمن أن يغض الطرف عن محارم الآخرين؛ فإن ذلك الأمر يقيد حرية الأعين جميعًا من أن تنظر إلى محارم العبد المؤمن.

* الله يذكرهم بنعمه عليهم *

يناديهم ربنا تعالى بذلك تذكرة لهم وتقريعًا؛ لأن سلوكهم يختلف وسلوك أبيهم العبد الصالح، تمامًا كما يحاول أحد أن يذكّر ابنَ رجلٍ صالح بألا يفسد فى الأرض، وألا يسرف على نفسه، فيقول لذلك الابن: استحِ، إنك ابن فلان الرجل الصالح؛ فلا يصح لك أن تشرب الخمر أو تلعب الميسر أو تستهر فى معاملة خلق الله، هكذا أراد الله لأبناء إسرائيل، أن يستحى الواحد منهم، وأن يتذكر أنه ابن ليعقوب. ويعقوب كما نعرف هو ابن لإسحاق أخى إسماعيل، والاثنان إسحاق وإسماعيل ابنان لإبراهيم خليل الرحمن، أى أن أبناء يعقوب فى التسلسل الأسرى هم أبناء عمومة محمد رسول الله ﷺ ، ولنا أن نرى دقة الأداء القرآنى حين يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (1)[البقرة: 40] .

إن الحق يخاطب المسلمين من أبناء آدم بـ ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: 26] ،

---

(1) قال ابن كثير: يقول تعالى آمراً بنى إسرائيل بالدخول فى الإسلام؛ ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهيجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبى الله يعقوب عليه السلام، وتقديره: يا بنى العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم، فى متابعة الحق كما تقول يا ابن الكريم افعل كذا؛ يا ابن الشجاع بارز الأبطال؛ يا ابن العالم اطلب العلم؛ ونحو ذلك. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3] فإسرائيل هو يعقوب؛ بدليل ما رواه أبو داود الطيالسى بسنده عن عبد الله بن عباس: قال حضرت عصابة من اليهود=

ذلك أن الله يعلم تمام العلم أن المسلم ينتمى إلى أمة لا تفرق بين عرق وعرق، إن المعيار الإيمانى مرتبط بالعمل الصالح، وإن العمل الصالح لا يستظل بنعمته فى الإسلام فرد واحد فقط، ولكن الأمة الإسلامية - بنص القرآن- عليها أن تتكافل فيما بينها؛ ليستظل الضعيف بعمل القوى، ولا يستأثر القوى بنعم الله ويحرم منها الضعيف ، إن الله علَّم محمداً ﷺ ومن معه أن معيار الإيمان هو التكافل والتآزر والأخوة الإيمانية؛ لذلك علمنا الله ألا نكون قصار النظر فى الاستمتاع الفردى بالنعم، إنما علينا أن ننفق نعمه التى وهبها لنا على العباد، إن الله قد علم محمداً ﷺ وأمته أن يكونوا غير ماديين، بمعنى ألا تستغرقهم حياة النعمة؛ فتستأثر بها قلة وتجوع كثرة ، وعلم الله محمدا ﷺ وأمته أن يعيشوا فيما وهبهم الله بنعم الله، وأن يعملوا فيما وهبهم الله من إمكانات لتطوير حياتهم إلى الأفضل فى رضا الله.

لكن الله حين خاطب بنى إسرائيل، فهو سبحانه يعرف عنهم قصر النظر والمادية الشديدة؛ لذلك يذكرهم الله بنعمه عليهم. إن المسلم المعتنق لعقيدة الإسلام يحيا مع المنعم، بينما المادى قصير النظر يظن أن الحياة مع النعمة هى كل حياة. إن المسلم المعتنق الإسلام يحيا فى محبة الله، حتى ولو حدث له قدر من السوء، إنه سوء من وجهة نظر العبد، ولكنه إحسان من

= نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال لهم: «هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟» قالوا: اللهم نعم، فقال النبى ﷺ: «اللهم اشهد» وقال الأعمش عن إسماعيل ابن رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن عبد الله ابن عباس: أن إسرائيل كقولك عبد الله، وقوله تعالى: ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ قال مجاهد: نعمة الله التى أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك أن فجر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، ونجاهم من عبودية آل فرعون، وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، أو نزل عليهم الكتب قلت: وهذا كقول موسى عليه =

الرب، والعبد لا يلتفت إلى ذلك ، لكن المؤمن الحق يعرف أنه حتى القدر المرهق له هو إحسان من الله؛ ليلتفت الإنسان إلى خالقه، وإلى الأسباب التى يمكن أن يتخذها العبد لقبول ذلك القدر، ثم أن يعمل جاهدًا لتطوير حياته؛ لذلك حين يقول الحق للمؤمنين: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾، فذلك تنبيه لأن يحيا المؤمن مع واهب النعم حتى وإن قبض نعمته، لماذا؟ لأن المنعم إذا قبض نعمته عن عبده؛ فإن ذلك اختيار وابتلاء له، يعقبه نعمة أكبر وجزاء أوفى.

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يبتلى بعض العباد ابتلاءات شتى؛ واحد يبتليه الله فى صحته، فيسلب منه نعمة الصحة، والجاهل ينظر إلى ذلك الحدث وكأنه كارثة، أما المؤمن الواثق برحمة ربه فينظر إلى ذلك وهو يردد كلمات الله فى حديث قدسى: «إن الله عز وجل يقول : يا بن آدم مرضت فلم تعدنى. قال: يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدى فلانًا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لوعدته لوجدتنى

= السلام لهم: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] يعنى فى زمانهم. وروى محمد ابن إسحق بسنده عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: بلائى عندكم وعند آبائكم، لما كان نجاهم من فرعون وقومه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: بعهدى الذى أخذت فى أعناقكم للنبى ﷺ، إذا جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التى كانت فى أعناقكم؛ بذنوبكم التى كانت من أحداثكم. وقال الحسن البصرى: هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢] وقال آخرون: هو الذى أخذ الله عليهم فى التوراة أنه سيبعث من بنى إسماعيل نبياً عظيما يطيعه جميع الشعوب ، والمراد =

عنده»(١)؟ إن ذلك القول الربانى؛ ليأنس من فَقَد العافية أنه فى معية الله، إن بعض أصحاب المرض يستحيون من أن يعلنوا آلامهم، ويروى أن أحد الصالحين من أهل الابتلاء قال: إنى والله لأستحيى أن أطلب من الله الشفاء؛ حتى لا يظن أن ذلك زهد منى فى صحبته.

لكن ليس معنى ذلك ألا يبحث الإنسان عن دواء؛ لأن النبى أمرنا أن نتداوى، فقال ﷺ: «تداووا عباد الله، فإن الله عز وجل لم ينزل داء إلا

= به محمد ﷺ، فمن اتَّبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين. وقد أورد الرازى بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمحمد ﷺ، وقال أبو العالية: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى﴾ قال: عهده إلى عباده دين الإسلام وأن يتبعوه، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: أرض عنكم وأدخلكم الجنة، وكذا قال السدى، والضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقوله تعالى: ﴿وإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾ أى: فاخشون، قاله أبو العالية، والسدى والربيع ابن أنس، وقتادة. وقال ابن عباس وفى قوله تعالى: ﴿وإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾ أى: إن نزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التى قد عرفتم من المسخ وغيره، وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول ﷺ، والاتِّعاظ بالقرآن وزواجره، وامتثال أوامره وتصديق أخباره، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. [تفسير ابن كثير: ١/ ٧٩، ٨٠]

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٥٦٩] عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى. قال: يا رب! كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده؟ يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمنى. قال: يا رب! وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى؟ يا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقنى. قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى».

أنزل معه شفاء دواء إلا الموت والهرم»[1]، لكن إذا طال الابتلاء فلا ييأس من رحمة الله؛ لأن العبد يكون بصحبة الله ومعيته.

ولنا أن نقف عند قول الله: ﴿اذْكُرُوا﴾؛ إن الذكر هو الحفظ من النسيان، ومن عادة الإنسان أن ينسى كل ما له رتابة، فالرتابة تنسى أصل ما يمتلكه الإنسان من النعم، فالشمس تشرق كل يوم، والقمر يأتى كل يوم بالليل، والمطر ينزل فى أوقات معلومة كل عام.

لكن لا أحد يتوجع من فقدان النعم إلا إذا فقدها فعلاً، وفى الحديث: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله»[2]، وفائدة جريان الذكر على اللسان هو أن ينال الإنسان رحمة من ربه دائمًا، يقول الله تعالى فى الحديث القدسى: «أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم»[3] إن ذكر الله يخرج الناس من غفلتهم. إن قول الحق تعالى لبنى إسرائيل: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، إنه يذكّرهم بالنعمة؛ لأنها الأمر المباشر، ويطلب من المؤمنين أن يذكروه، والذكر كما تقدم ألا ينسى الواحد منا فضل الله فى بواعث القدرة أو آثار النعم، إن

---

(١) أخرجه الترمذى [٢٠٣٨] وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة [٣٤٣٦]، وأحمد فى المسند [٤/٢٧٨] واللفظ له، وابن حبان [٦٠٦٤] عن أسامة بن شريك رضى الله عنه. وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٦٦٠].

(٢) أخرجه الترمذى [٣٣٧٥]، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجة [٣٧٩٣] عن عبد الله بن بسر رضى الله عنه. وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٦٨٧].

(٣) جزء من حديث أخرجه البخارى [٧٤٠٥]، ومسلم [٢٦٧٥/٢] عن أبى هريرة رضى الله عنه.

الحق يعلم عن الإنسان الغفلة، ولذلك أمرنا أن نذكره إن غفلنا، بل وفى كل حين؛ حتى ننال رضاه. فاللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحُسْن عبادتك، إنك ولى ذلك والقادر عليه.

* من صفات اليهود : نقضهم للعهود والمواثيق *

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴾ [البقرة: ٩٩] لقد كانت البينات هى القرآن الكريم المعجز، الداعى لتصديق الرسول ﷺ فى تطبيق منهج الله. لقد جاء الرسول ﷺ بالآيات الواضحة التى لايختلف فيها المؤمن، أما الذى كفر بها فهو الفاسق الخارج عن طاعة الله. و«الفسق»(١) كما قلنا: مأخوذ من فسق الرطبة؛ إن البلح عندما يتحول إلى رطب تخرج الثمرة بسهولة من القشرة، ويقال عندئذ: فسقت الرطبة.

إذن.. فالذى يخرج عن حدود الله ومنهجه يقال له: فاسق، ولا يكفر بمنهج الله إلا الفاسق الذى لا يسير على منهج الله وشرعه.

وبعد ذلك يقول الحق جل وعلا: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٠]، لقد سبق لهم أن قطعوا أكثر من عهد على أنفسهم ونقضوا كل هذه العهود(٢).

(١) الفسق : العصيان والترك لأمر الله عز وجل، والخروج عن طريق الحق . فسق يفسِقُ ويفسُق فِسقًا وفسوقًا وفَسُق؛ الضم عن اللحيانى ، أى فَجَرَ. والعرب تقول إذا خرجت الرُطبة من قشرها: قد فسقت الرطبة من قشرها ، وكأن الفأرة إنما سميت فويسقة لخروجها من جحرها على الناس ، والفسق: الخروج عن الأمر . وفسق عن أمر ربه أى: خرج. [لسان العرب : ٣٠٨/١٠]

(٢) يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى متحدثًا عن رذائلهم : وهذه بعض رذائلهم نعرضها إجمالا، ثم نفسر الآيات الكريمة التى تحدثت عن ذلك تفصيلا :
أولا: نقضهم للعهود والمواثيق .
ثانيًا : سوء أدبهم مع الله تعالى وعداوتهم لملائكته ، وقتلهم لأنبيائه. =

= ثالثًا : جحودهم الحق ، وكراهتهم الخير لغيرهم بدافع الأنانية والحسد .
رابعًا : تحايلهم على استحلال محارم الله تعالى .
خامسًا : نبذهم لكتاب الله، واتباعهم للسحر والأوهام الشيطانية .
سادسًا : تحريفهم للكلم عن مواضعه ، ونسيانهم حظًا مما ذُكروا به .
سابعًا : حرصهم على الحياة ، وجبنهم عن الجهاد فى سبيل الله .
ثامنًا : طلبهم من نبيهم موسى أن يجعل لهم إلها كما لغيرهم آلهة .
تاسعًا : عكوفهم على عبادة العجل .
عاشرًا : تنطعهم فى الدين وإلحافهم فى المسألة .

وصفة نقض العهود من الصفات التى دمغ القرآن الكريم بها اليهود فى كثير من آياته، والمتتبع لتاريخهم قديما وحديثًا يرى أن هذه الرذيلة تكاد تكون طبيعة فيهم ، فقد أخذ الله عليهم كثيرا من المواثيق على لسان أنبيائه ورسله،ولكنهم نقضوها، وعاهدهم النبى ﷺ غير مرة ، فكانوا ينقضون عهدهم فى كل مرة .

وفى سورة البقرة آيات كريمة صرّحت بأن اليهود قد نقضوا - إلا قليلا منهم - العهود التى أخذها الله عليهم بأن يعبدوه ويعملوا صالحا، وهذه الآيات منها قوله تعالى :

أولا :﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣] .

ومعنى الآية إجمالا : واذكروا يا بنى إسرائيل ؛ لتعتبروا وتستجيبوا للحق - وليذكر معكم كل من ينتفع بالذكرى - وقت أن أخذنا عليكم العهد ، وأمرناكم بالعمل به على لسان رسلنا عليهم السلام، وأمرناكم فيه بألا تعبدوا سوى الله ، وأمرناكم فيه كذلك ، بأن تحسنوا إلى آبائكم وتقوموا بأداء ما أوجبه الله لهما من حقوق ، وأن تصلوا أقرباءكم وتعطفوا على اليتامى الذين فقدوا آباءهم ، وعلى المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم فى حياتهم ، وأمرناكم فيه - أيضًا - بأن تقولوا للناس قولا حسنا فيه صلاحهم ونفعهم ، وأن تحافظوا على فريضة الصلاة ، وتؤدوا بإخلاص ما أوجبه الله عليكم من زكاة ، ولكنكم نقضتم أنتم وأسلافكم الميثاق، وأعرضتم عنه، إلا قليلا منكم استمروا على رعايته والعمل بموجبه.

والمراد ببنى إسرائيل فى الآية الكريمة ، سلفهم وخلفهم ؛ لأن هذه الأوامر والنواهى التى تناولها الآيات الكريمة ، والتى هى مضمون العهد المأخوذ عليهم ، قد أخذت عليهم جميعا على لسان أنبيائهم ورسلهم . =

العهد الأول: وهو عهد الفطرة الأولى التى يكتشفها الإنسان - أى انسان - فى نفسه.

= ثانيا: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) ﴾ [البقرة] وملخص هذا العهد الذى ذكرته الآيات الكريمة، أن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق ألا يقتل بعضهم بعضاً، وألا يخرج بعضهم بعضا من داره، وأنهم إذا وجدوا أسيرا منهم فى يد غيرهم فإن عليهم أن يبذلوا أموالهم لفدائه من الأسر، وتخليصه من أيدى أعدائهم، ثم لما نشبت الحرب بين قبيلتى الأوس والخزرج، انضمت قبيلة بنى قريظة إلى الأوس، وانضمت قبيلة بنى قينقاع وبنى النضير إلى الخزرج، وصارت كل طائفة من طوائف اليهود تقاتل بجانب حلفائها أبناء ملتهم المنضمون إلى حلفائهم الآخرين، فإذا وضعت الحرب أوزارها، بذل جميع اليهود أموالهم لتخليص الأسرى من أعدائهم كما أمرهم الله تعالى، وبهذا يكونون قد آمنوا ببعض الكتاب وهو بذل الفداء لتخليص الأسرى، وكفروا ببعضه وهو تحريم سفك دماء إخوانهم وإخراجهم من ديارهم. ويحكى التاريخ أن العرب كانوا يعيرونهم فيقولون لهم: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم؟ فكان اليهود يقولون: قد حرم علينا قتالهم، ولكنا نستحى أن نخذل حلفاءنا، وقد أمرنا أن نفتدى أسرانا.

ثالثاً: وفى سورة المائدة آيتان كريمتان صرحتا بأن الله تعالى أخذ على بنى إسرائيل الميثاق بأن يقوموا بما أمرهم به من تكليف، ولكنهم نقضوه وخالفوه، وهاتان الآيتان هما قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) ﴾ =

العهد الثانى: هو عهد الذر حيث أخرج الله الذرية البشرية كلها من ظهر آدم، وأشهدهم أن لا إله إلا هو، وأنه الوحيد المستحق للعبادة، ولاتصح الغفلة عن ذلك ، وهو عهد على كل البشر من أبناء آدم.

العهد الثالث: هو العهد الذى أخذوه على أنفسهم عندما نزلت إليهم التوارة مبشرة بقدوم الرسول ﷺ، وحاملة لمنهج الله، لكنهم نقضوا العهد وحرفوا فى التوراة على هواهم، وكتموا البشارة برسول الله.

العهد الرابع: الذى أعطوه لرسول الله ساعة أن هاجر إلى المدينة، لكنهم نقضوا العهد، وأعانوا الكفار على رسول الله ﷺ فى غزوة الأحزاب، وأعانوا الكفار فى كل أمر أرادوا به سوءًا برسالة رسول الله ﷺ، رغم أنه كان من الأولى بهم أن يعينوه؛ لأنه الرسول القادم برسالة منزلة من

= الميثاق: العهد الموثق الذى أخذه الله على بنى إسرائيل؛ لكى يؤدوا ما كلّفوا به، وليعملوا بما تضمنته التوراة التى أنزلها الله تعالى على نبيهم موسى. والمعنى: ولقد أخذ الله العهود الموثقة على بنى إسرائيل، ليعملن بما فى التوراة، وليحافظن على ما كلفهم به من صلاة وزكاة وطاعة للرسل فى المنشط والمكره، واختار منهم زعماءهم الاثنى عشر؛ ليراقبوا أحوالهم الدينية، وليطلعوا على أحوال الجبارين الذين كانوا يسكنون الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم، وأمرهم بدخولها.

رابعاً: وفى القرآن الكريم آيات متعددة صرّحت بأن اليهود أخذ الله عليهم العهد فى كتبهم، بأن يؤمنوا بالنبى ﷺ الذى يجدونه مكتوباً فى التواراة والإنجيل، وأن يتّبعوا ما أُنزلَ عليهم، وهو القرآن الكريم؛ فلما ظهر النبى ﷺ جحدوا نُبُوَّته، وتركوا ماأمرتهم به كتبهم، ونقضوا العهود التى أُخذت عليهم بتصديقه، وكفروا بالقرآن الكريم، وقالوا: ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

ومن هذه الآيات قول الله تعالى في سورة آل عمران: (أ) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

(ب) ومن هذه الآيات أيضا قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾. =

الله، وهم القوم الذين ألفوا إنزال كتب من الله، وعرفوا الرسل. ورغم تلك العهود التى قطعها بعضهم على نفسه أعانوا الكفار؛ ولهذا السبب حارب الرسول ﷺ بنى قريظة.

إن دقة الأداء القرآنى توضح لنا أن الذين نكثوا العهد ونقضوه هم بعض من اليهود. إن الحق يقول: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠] إن الحق عندما يحدد لنا أن فريقا منهم هم الذين ينبذون العهد، فمعنى ذلك أن هناك فريقا آخر يتمسك بعهوده مع الله، ويوضح لنا أيضًا أن الفريق الأكبر منهم هو الذى ينبذ العهد؛ وذلك دليل عدم الإيمان.

= (جـ) ومن هذه الآيات كذلك قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾

خامساً: والآن فلننتقل إلى لون آخر من ألوان نقضهم لعهودهم فنقول:

بعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة، عقد مع اليهود الذين كانوا يسكنونها معاهدة ضمن لهم فيها الحرية والاستقرار، وكان من أهم نصوص هذه المعاهدة: «أنه إذا حصل اعتداء على المدينة فعلى اليهود أن يدافعوا مع المسلمين عنها، وأن على اليهود أن ينفقوا مع المسلمين ماداموا محاربين». ونكتفى هنا ببيان أن اليهود بطوائفهم المختلفة قد نقضوا عهودهم بالنسبة لهذا النص الذى يحتم عليهم الدفاع عن المدينة مع المسلمين. [بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ٢/ ٣-٥] بتصرف

* نقضوا العهد حتى مع الله *

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ [البقرة] لقد ذكَّرهم الله بأنهم من نسل رجل له مكانة عند الله، وذكرهم الخالق بنعمه الكثيرة التى وهبها لهم، ويطالبهم الخالق الأكرم بالوفاء بالعهد، وهو إما العهد الذى أشهد فيه الخالق ذرية آدم أنه الخالق الأكرم(١)، وإما العهد الذى أخذه الله على الأنبياء بالإيمان برسول الله محمد ﷺ، وإما العهد الذى أخذه موسى على من حفظوا التوراة أن يبشروا برسالة محمد ﷺ، وأن يؤمنوا بما يجىء به، ومن يوفِّ بعهد الله، فإن الله يقابل هذا الوفاء بالأجر العظيم. إن الله قد أعطى الإنسان الاختيار، وأعطاه القدرة على التمييز، فمن يؤمن فله من الله حسن الثواب فى الدنيا والآخرة، ومن يكفر فإن الله لا يبخل عليه بالعطاء فى الدنيا على قدر ما يبذل من جهد؛ ذلك أن الله أكرم من أن يبخس حتى الكافر حقه فى الحياة، وإن كان العذاب الأليم مصيره فى الآخرة.

إن من يقبل على الله، فإن الله بجليل فضائله، يقبل على هذا العبد الطائع، ومن يتقرب إلى الله شبرًا يتقرب الله منه ذراعًا، ومن يتقرب إلى

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ .

الله ذراعا يتقرب الله منه باعًا، ومن يأت إلى الله ماشيًا، يأت الله إليه هرولة(١). ولا يزال العبد يتقرب إلى الله بالحب والنوافل، حتى يصير الخالق هو سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، وعندما يصبح العبد ربانيًا أى متفانيًا فى حب الله(٢) ، فإن الله يخلع عليه عطاء الربوبية بما لا يتخيله أحد، هذا هو عطاء الرحمن، وهو بالقطع يختلف عن عطاء البشر بعضهم البعض، إن الله رب الكون كله، وهكذا يعامل من يقبل عليه، لكننا فى هذه الدنيا نرى عبادًا يقبلون على عباد مثلهم، يتولى العبد منصبًا أومكانة فيقبل عليه الناس ! فما الذى يحدث؟ إن المسئول إذا أقبل عليه أحد، فلابد أن يمر المقبل على السكرتير أو هيئة المكتب، ولابد من إعداد بيان واضح عن سبب اللقاء ، ويحدد المسئول وقت اللقاء ومدته ومكانه.

يحدث ذلك عندما يلتقى الإنسان بإنسان آخر له من السلطان فى بعض المسائل التى تسير بها حركة الحياة، إن صاحب السلطان الدنيوى قد يوافق على تيسير تلك المسألة التى طلبت أن تقابله فيها أو لا يوافق، وصاحب

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة».

أخرجه البخارى [٧٤٠٥] واللفظ له، ومسلم [٢/٢٦٧٥]

(٢) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولَئِن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته». أخرجه البخارى [٦٥٠٢]

السلطان الدنيوى هو الذى يحدد كل شىء فى اللقاء، وينهى المقابلة متى أراد، يحدث ذلك فى أمور الدنيا، لكن الموقف يختلف تمامًا بين الإنسان وخالقه، إنْ الإنسان المؤمن يتصل بربه متى أراد أن يتصل به فى البيت أو المسجد، أو فى أى مكان.

لذلك فليس على المؤمن أن يرى فى ربوبية الله مجرد التبعية؛ لأنها تبعية الكريم الذى يعطى، لا تبعية من يأخذ من العبد، إن الإنسان قصير النظر قليل الحكمة قد يكره كلمة «العبودية»؛ لأن البشر دنسوا الكلمة عندما أخذ بعضهم فى استغلال بعض واستعبادهم، وعندما احترف بعضهم التجارة ببعض، وتاجروا فيهم كرقيق، والسيد من البشر يمتص دم العبد، لكن العبودية لله تختلف ؛ إن العبد لله يأخذ من خير السيد المطلق وهو الله جل وعلا، وهذه هى عظمة العبودية لله، وكأن الحق حينما يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ كأنه يذكرنا أن المسألة فى أيدينا وأن مفتاح اللقاء برحمته فى يد الإنسان المؤمن .

وعندما يقول الحق: ﴿وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾ فهو يعلم أن الناس تترواح بين صنفين: صنف من البشر يوفى حق الجميع، وعندما يعبد هذا الصنف خالقه الأكرم؛ فهو يعبد الله بإيمان مطلق بأن الله هو الذى يجزى الخير لعباده ، حتى ولو رأى الواحد منهم أن الجزاء فيه نوع من الألم، فهو يعلم أن الله قد أراد به الرحمة، إنه إيمان بأن كل قادم من عند الله هو الخير، والصنف الثانى من البشر ينطبق عليه قول الشاعر:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَه   وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

لذلك أراد الله أن يوضح لنا أنه يقف من الظالم موقفًا غير الذى يقفه من الطائع، إن الله يحذر الظالم أو المنكر لله من نفسه لذلك يرسل الله

الرسل؛ لينذروا العباد الذين يستمرئون الجهل بالله، وكأن الحق يعلمنا بما يجب أن تكون عليه الأمور فى حياتنا، إن الصبر يجب أن يسبق الوعيد، فلابد أن نعطى مَنْ أمامنا فرصة وحلمًا، لكن يجب ألا نسمح لأحد أن يستضعفنا، إن الشاعر العربى يقول:

صَفَحْنَا عَن بَنى ذُهْلٍ ... وقلْنَا القومُ إخوانُ
عسى الأيامُ أَنْ يُرْجِعْنَ ... قَوما كالذى كانوا
فَلمَّا صرَّحَ الشرُّ ... وأمسَى وهْوَ عريانُ
مَشَيْنا مِشْيَةَ الليث ... غَدا والليثُ غضبانُ
بضربٍ فيه توهينٌ ... وتَضعيفٌ وإقرانُ
وطَعْنٍ كفم الزِّق(١) ... غَدَا والزِّق ملآنُ
وبَعْضُ الحِلْمِ عندَ الجَهْلِ ... للذلـــــــة إذعان
وفى الشرِّ نجاةٌ حيـــ ... ـــن لا يُنْجيك إِحْسَانُ

هكذا نتعلم أن نصبر ونمتلك الحلم على أهل الجهل ، لكن على ألا نستسلم للذلة إذعانًا.

وكأن الخالق الأكرم يحذر بنى إسرائيل، أو من يسلك مسلكهم من عقابه. إن الله لن يمنع عن الكافر به النعم التى ينعم بها على جميع المخلوقات، لكن الله يحذر الجاهلين به، ويوضح أن أحدًا لن يفلت من الحساب ، فالذى يفى بالعهد، فإن الله يقابل الوفاء بوفاء أكبر منه.

إن على الإنسان الذى تعرَّف على قدرة الله التى لا حدود لها فى العطاء، لابد له أن يعرف أيضًا أن قدرة الله لا حدود لها فى العقاب،

---

(١) الزِّق: السِّقاء. والزِّق من الأُهب: كل وعاء اتُّخذَ لشراب ونحوه.

[لسان العرب: ١/ ١٤٣]

فمن لم يجئ إلى الله رغبة فى الإيمان، فعليه أن يفكر فى الإيمان مخافة العذاب؛ ذلك هو معنى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(١) وإذا سألنا ما الرهبة؟ فإننا نعرف أن الرهبة هى خوف من شىء مفزع، وكل أمر مفزع له مصدر، وتتناسب درجة الفزع مع قوة مصدر الفزع فما بالنا إذا كان الله هو المالك لأحداث الفزع؟ هل لأحد جَلَدَ على غضب الله، أو تلقى فزعه؟ هكذا تكون رهبة الله، ليس فوقها رهبة، وهناك من يسمى هذا النوع من الرهبة «رهبوت»، ويسمون الذهاب إلى الله رغبة وإيمانا «رغبوت»؛ لذلك كان بعض العرب يضربون لقوتهم مثلا يقولون: «رهبوت خير من رحموت»(٢)، ومعنى ذلك أن الناس عليها أن ترهب القوى أفضل من أن يرحموه، الأفضل فى نظر هؤلاء القوم أنه عندما يرهبهم غيرهم فهذا دليل قوة، أما أن يرحمهم غيرهم، فهذا دليل ضعف، ولذلك قال الشاعر العربى:

وحَسبُك بِحَادثٍ مِنَ امْرِئٍ ... تَرَى حَاسِدِيِنَه لَهُ رَاحِمِين

أى أن هناك إنسانًا كان يحسده الناس من فرط قوته، فأصابه حادث فأصبح بعده الحاسدون له راحمين من فرط ضعفه، كأن يكون الإنسان قويًا فى الجسد ويصاب بمرض عضال يضعف من قوته، وفى ذلك يقول أبو الطيب المتنبى:

كَفَى بِكَ دَاء أَنْ ترى الموتَ شَافِيًا ... وحَسْبُ المَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا(٣)

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿وإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أى: خافون، والرُّهْب والرَّهْب والرَّهْبة: الخوف ويتضمن الأمر به معنى التهديد. وسقطت الياء بعد النون؛ لأنها رأس آية. [تفسير القرطبى: ١/ ٣٣٢]

(٢) ذكر هذا المثل الميدانى وقال: أى لأن تُرهِب خير من أن تُرحم. قال المبرد: رهبوتى خير من رحموتى، ومثله فى الكلام: جبروت وجبروتى. [مجمع الأمثال: ٢/ ٢٥]

(٣) المتنبى هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفى. ولد بالكوفة فى محلة يقال لها: =

وكأن الحق سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ إنما يحذرنا نفسه، فمن لم يجئ إلى الإيمان رغبًا وحبًا فى النعم التى ينعم الله بها عليه، فليأت رهبًا من صفات القهر التى لا قهر بعدها؛ لأنه قهر من الله.

أخذ الخالق على الأنبياء العهد لرسول الإسلام محمد ﷺ للإيمان به، وإبلاغ أممهم الإيمان به إن أدركهم زمان بعثته ﷺ، لكن رسول الله لم يؤخذ عليه العهد لأحد من الأنبياء؛ لأنه هو الخاتم فهو المأخوذ له، ولم يكن المأخوذ منه ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وأيضًا هناك عهد أخذه الله بواسطة موسى عليه السلام على علماء بنى إسرائيل، الذين تلقوا التوراة وكتبوها وحفظوها عهدًا بألا يكتموا ما فيها: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[آل عمران: ١٨٧]، والغرض من هذا البيان ألا يكتموا ما ورد عن الإسلام فى التوراة، وألا يخفوا صفات رسول الله ﷺ التى جاءت فى التوراة؛ ذلك أن القرآن الكريم قد نبه الخلق أجمعين أن الله قد أعطى صفات رسول الله ﷺ فى التوراة؛ يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

= كندة، وسُمى بالمتنبى؛ لأنه ادّعى النبوة فى بادية السماوة من أعمال الكوفة. فلما ذاع أمره خرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيد فأسره ولم يحل عقاله حتى استتابه. وتوفى مقتولاً فى ٢٨ رمضان سنة ٣٥٤ هـ - ٩٦٥م.

والبيت مطلع قصيدة بعنوان: كفى بك داءً، وذكرها عندما فارق سيف الدولة ورحل إلى دمشق، وكاتبه الأستاذ كافور بالمسير إليه، فلما ورد مصر أخلى له كافور دارًا، وحمل إليه آلافًا من الدراهم، فقالها يمدحه. [ديوان المتنبى/ المقدمة]

لقد جاء القرآن الكريم مصدقًا لما أنزل على موسى من التوراة، وعرف علماء بنى إسرائيل أنفسهم صدق ما جاء به القرآن ورسول الله ﷺ، ولكنهم كفروا به وبرسالته عنادًا وحسدا ؛لأن رسول الله لم يكن من قومهم، رغم أنهم كانوا يتفاخرون ويتجادلون مع أهل المدينة من قبل بأن الله سوف ينصرهم بإرسال خاتم الأنبياء الذى بشرت به التوراة، والذى تتفق صفاته كل الاتفاق مع صفات محمد عليه الصلاة والسلام ، لذلك يلعن الله أمثال هؤلاء المعاندين المكابرين المخادعين الجاحدين. ويقول الحق الكريم فى آية اخرى مذكرًا كل أهل الكتاب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] .

الحق تبارك وتعالى قد أخذ من كل نبى العهد، أنه إذا أدركته دعوة الرسول محمد ﷺ فلابد أن يؤمن قوم كل نبى بها، وأن ينصروه، وأقر الأنبياء بذلك العهد، وأبلغوه إلى أقوامهم وأممهم؛ إن ذلك العهد يوجب على كافة الرسل والأمم الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، والنصرة له إن أدركوه، وإن لم يدركوه فالمسئولية على أقوامهم وأهليهم أن يؤمنوا به، وأن ينصروه، طبقًا لما ذكره الله فى كتبه المنزلة على رسله، وبلاغ الرسل لأممهم واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾ [الأعراف] إن الحق جل وعلا يوضح فى تلك الآيتين صفة النبى ﷺ فى التوراة والإنجيل، وأنه يأمرهم بكل خير، وينهاهم عن كل شر، ويجعل لهم الحلال الطيب حلالاً، ويحرم عليهم ما جعله الله حرامًا، ويفك القيود التى اخترعوها لأنفسهم، وهى ليست من الإيمان فى شىء.

والذين يصدقون رسول الله ﷺ هم الذين فازوا باتباع النور الذى جاء به رسول الله ﷺ، إنه نور القرآن الكريم ؛ إن محمدًا رسول الله إلى الناس كافة، لا فرق بين أبيض وأسود، أو عربى أو عجمى، أو يهودى أو نصرانى، أو مجوسى أو عابد وثن. إن الله أرسل محمدًا هداية للكون كله؛ ليزيل عن الناس الغفلة، ويهديهم إلى الفطرة الأولى، وإلى الالتفات إلى أن الله هو واهب النعم وخالق الكون كله، وقد اختار الله رسوله أميًا لا يقرأ ولا يكتب؛ ليكون معجزة بكل معنى. وإن أى استعراض أمين للتوراة قبل تحريفها نجد أن رسول الله ﷺ موصوف فيها وفى الإنجيل، ولنا أن نعرف أن البشارة برسالة رسول الله ﷺ فور أن نزل عليه الوحى الكريم، كانت من ورقة بن نوفل، الراهب الذى أتقن العبرية وقرأ التوراة والإنجيل، ولقد سبق قول ابن سلام وهو الحبر اليهودى، من يهود المدينة: لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد.

إذن. . هناك عهود كثيرة أخذها الله على بنى إسرائيل: عهد الإيمان بالله، وعهد التذكير بالنبى الكريم، الذى كانوا يتفاخرون بأنه قادم إلى الناس كافة، وعهد عدم كتمان صفات رسول الله ﷺ؛ لذلك فحين يذكِّر الحق بنى إسرائيل بقوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ حين يذكرهم

الله ذلك، فهو يذكر بالمبدأ الإيمانى أن الوفاء بالعهد أساس إيمانى.

إن نعم الله يستظل بها المؤمن والكافر؛ لأن هذه النعم تستبقى الإنسان فى الوجود، لكن المؤمن يستمتع بنعم الله مقدراً لهـا قدرهـا، والكـافر لا يستمتع بها على الحقيقة؛ لأنه لا يشكر الله عز وجل عليها. والإنسان حر ابتداء فى أن يؤمن بالله أو لا يؤمن، لكن حين يؤمن، فعليه أن يعرف أنه قد أدخل نفسه من باب الالتزام الإيمانى، وبذلك يدخل المؤمن فى عهد جديد مع الله، عهد يعترف به الإنسان أن الله هو صاحب الفضل وصاحب النعم، عهد يعترف فيه الإنسان للخالق الأكرم أنه يستقبل كل أمر من الخالق طائعاً مستسلماً، وأن يتقبل كل ما يأمره به الله، وأن يبتعد عن كل ما ينهى عنه الله، اعتراف واضح بيِّن؛ بأن الله هو الذى خلقنا من عدم، وأمدنا من عدم، ولا يصح للمؤمن بعد ذلك العهد أن يخون نفسه فى الائتمان على حركة حياته التى وهبها له الله .

لذلك لا يكلف الله من لا يؤمن به بأن يصلى؛ ولا يكلف الله من لا يؤمن به بأن يزكى، ولا يكلف الله من لا يؤمن به بأن يصوم؛ ولا يكلف الله من لا يؤمن به بأن يحج إلى البيت الحرام، إنما يكلف الله من آمن بكل ذلك.

إذن.. فالله جل وعلا لم يجبر الإنسان على الاختيار الذى وهبه له. لقد وهب الله الإنسان اختياراً ، ولا يتراجع الله فيما وهبه للإنسان، لقد أبقى الله للإنسان الاختيار حتى فى الإيمان به سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له، ولا توجد حرية أكثر من هذه، فالحرية إذن مسئولية الإنسان، إنها الأمانة المطلقة مع النفس، إن الخالق لا يتراجع فى عطاء الإنسان النعم أو حق الاختيار؛ ولكنه يهدى من اختار طريق الهدى، ويعاقب من اختار طريق الضلال والكفر.

* حكم الله عليهم لما نقضوا عهوده *

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلا قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] الميثاق يتطلب الوفاء به، فهل وفوا بهذا الميثاق؟

لا .. لقد نقضوا المواثيق فلعنهم الله، واللعن هو: الطرد والإبعاد، وفى ذلك قال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾(١)

أى بسبب نقضهم الميثاق لعنهم الله. إن «ما» بوجودها هنا أثارت بعض التفسيرات، فهناك من العلماء من قال: إنها زائدة، وهناك آخرون قالوا: إنها «صلة». ولكن الزيادة تكون عند البشر لا عند الله، والقرآن لا يمكن أن يكون به شيء زائد ، إن كل كلمة فى القرآن جاءت لمتقضى حال يحتم أن تكون فى موضعها .

الحق يقول فيما أوصى به لقمان ابنه: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

---

(١) قال أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ أى: طردناهم وأبعدناهم من الرحمة، قاله عطاء والزجاج. أو عذبناهم بالمسخ قردة وخنازير، كما قال: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧] أى: نمسخهم كما مسخناهم، قاله الحسن، ومقاتل. أو عذبناهم بأخذ الجزية قاله ابن عباس. وقال قتادة: نقضوا الميثاق بتكذيب الرسل الذين جاءوا بعد موسى وقتلهم الأنبياء بغير حق وتضييع الفرائض.

[البحر المحيط: ٤/ ٢٠٤]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

فى الآية الأولى لم يورد «اللام» لتسبق «من».

وفى الآية الثانية أورد اللام لتسبق «من»، وذلك ليس من قبيل التفنن فى العبارات .

إن قول الحق: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ هذه دعوة للصبر على مصيبة ليس للإنسان غريم فيها ، كالمرض أو موت أحد الأقارب، وهذه الدعوة للصبر تأتى هنا كعزاء وتسلية.

أما قول الحق: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ فالدعوة للصبر هنا مع الغفران تقتضى وجود غريم تسبب للإنسان فى كارثة، والله يطلب من المؤمن هنا أن يغفر لمن أصابه وأن يصبر .

وما دام هناك غريم فالنفس تكون متعلقة بالانتقام، وهذا موقف يحتاج إلى جرعة تأكيدية أكثر من الأولى ، فليس فى الموقف الأول غريم واضح تطلب منه الانتقام، إن وجود غريم يحرك فى النفس شهوة الانتقام؛ ولذلك يذكرها الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] وعندما يقوم النحاة بإعراب قوله ﴿بَشِيرٍ﴾ فهم يقولون: ﴿مِن﴾: حرف جر زائد، و﴿بَشِيرٍ﴾: فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره، منع من ظهور حركة الرفع حركةُ الحرف الزائد. .إنه التفاف طويل، ولا يوجد حرف زائد، فالإنسان يقول مثلاً: «ما عندى مال» . وهذا القائل قد يقصد أنه لا يملك إلا قليل من المال لا يعتد به، والإنسان يقول: «ما عندى من مال»، و «من» هنا تعنى أن القائل لا يملك أى مال. إن «من» هنا ليست زائدة، ولكنها جاءت لمعنى . إذن . . قوله: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ﴾ أى لم يأت لنا بداية مَنْ يقال له بشير.

وها هو قول الحق : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. إن البعض يظن أن «ما» هنا حرف زائد ، ولكننا نقول :ما الأصل فى الاشتقاق؟ إن الأصل الذى نشتق منه هو المصدر . ومرة يأتى المصدر ويراد به الفعل كقول القائل: «ضربا زيدا» أى: «اضرب زيدا»، إن مجئ المصدر هنا قول مقصود به الفعل . وكذلك قول الحق سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ .وما دام النقض مصدرًا، فمن الممكن أن يقوم مقام الفعل ،وما دام المصدر قد قام مقام الفعل، فمن الجائز أن يأتى فعل آخر، فيصبح معنى القول: «فبما نقضوا لعناهم».

إذن. . «ما» هنا دلت على أن المصدر قد جاء هنا نيابة عن فعل ، وبقيت «ما» لتدل على أن المصدر من الفعل المحذوف .

وقول الحق:﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾،النقض ضد الإبرام، فالإبرام هو: إحكام الحكم بالأدلة ، والنقض هو: حل عناصر القضية، فالنقض ضد الإبرام، كأن العهد الموثق الذى أخذه الله عليهم قد نقضوه، ونحن نسمى العقيدة الإيمانية «عقيدة » لماذا؟

لأنها مأخوذة من عقد الشىء، بحيث لا يطفو ليناقش من جديد فى الذهن. كذلك الميثاق . . إنه عهد ثابت،وعندما ينقضونه فهم يقومون بحله ، أى أنهم أخرجوا أنفسهم عن متطلبات ذلك العقد ، إن اللعن إنما جاء لأنهم نقضوا الميثاق.

وقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أجَعْلُ القلوب قاسية بداية من الله ؟! إنهم عندما نقضوا المواثيق طبع الله على قلوبهم؛ إنه لم يطبع على قلوبهم بداية؛ولكن لأنهم نقضوا المواثيق وكفروا،لذلك طبع الله على قلوبهم،لقد كفروا أولا،ثم بعد ذلك تركهم الله فى غيهم وضلالهم، وطبع على القلوب ، فما فيها من كفر لا يخرج،والخارج عنها لا يدخل إليها.

وقاسية تعنى صلبة، والصلابة فيها شدة، وهل الصلابة والقسوة مذمومة؟ إنها مذمومة فى القلوب، وليست مذمومة فى الدفاع عن الحق ، وعلينا دائما أن نقيس كل موجود على مهمته ، فعندما يؤدى كل موجود مهمته، يكون كل الكون جميلا، مثال ذلك: نحن لا نقول عن الخُطاف ذَما فيه إنه أعوج؛ ذلك أن الخُطاف لابد له من العوج(1)؛ لأن ذلك العوج مناسب لمهتمه، إذن فعوج الخطاف استقامة له. وكذلك القسوة غير مذمومة على إطلاقها، إن القسوة فى محلها لائقة، وفى غير محلها مذمومة؛ إن القلوب القاسية مذمومة ؛ لأن الحق يريد للقلوب أن تكون لينة ؛﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

والقسوة مأخوذة من القسية وهى الدراهم التى خالطها غش فى صكها، فعندما تكون صلبة يقال لها: «دارهم قسية» لأن الذهب الخالص لين، والفضة الخالصة لينة، ونحن عندما. نقول: «إن هذا ذهب عيار أربعة وعشرين» فهو ذهب بالفعل؛ ولكنه لو كان ذهبا صافيا على إطلاقة، فلن يستطيع الصائغ أن يصوغ منه الحلى، إلا إذا خلطه بمعدن صلب؛ وذلك حتى يعطيه ذلك المعدن الصلب القدرة على التشكيل، وتختلف نسبة الصلابة من عيار إلى عيار فى الذهب؛ ولذلك نجد أن المصوغات المصنوعة من عيار مرتفع من الذهب تكون مصوغات ليست عرضة للتداول، كالسبائك الذهبية. وإذا ما دخل المعدن الصلب إلى الذهب والفضة جعلها قسية، أى صلبة(2).

---

(1) الخُطَّاف: الخاطوف وهو كل حديدة معوجَّة. [المعجم الوسيط: ٢٤٥]

(2) قال أبو حيان: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ قال ابن عباس: جافية جافة. وقيل: غليظة لا تلين. وقيل: منكرة لا تقبل الوعظ، وكل هذا متقارب. وقسوة القلب: غلظة وصلابته حتى لا ينفعل لخير. وقرأ الجمهور من السبعة : « قاسية» اسم فاعل من =

إذن . . الصلابة تكون مذمومة فى القلوب، أما إن كانت الصلابة فيما يناسبها فهى محمودة.

وقول الحق : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: ١٣]، كقولهم لما أمرهم الحق سبحانه أن يقولوا: ﴿ حِطَّةٌ ﴾ فقالوا: «حنطة». ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ١٣] .

نحن نعرف أن وسائل النسخ فى الكتب التى سبقت القرآن هى :

أولا: نسيان حظًا مما ذكروا به، والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب، ولكنه أيضًا دليل على أن المنهج لم يكن على بالهم ، فلو كان المنهج على بالهم لظلوا على ذكر الله .

ثانيا : كتمهم ما لم ينس.

ثالثا : أما الذى لم ينس ولم يكتم فحرفوه ، ولوّوْا ألسنتهم به .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، ولكنهم جاءوا بأحكام وأقاويل، وقالوا إنها من عند الله، وهى ليست من عند الله ؛ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٩].

= قسا يقسو. وقرأ عبد الله وحمزة والكسائى: «قسية» بغير ألف وبتشديد الياء، وهى فعيل للمبالغة كشاهد وشهيد. وقال قوم: هذه القراءة ليست من معنى القسوة، وإنما هى كالقسية من الدراهم، وهى التى خالطها غش وتدليس، وكذلك القلوب لم يصل الإيمان بل خالطها الكفر والفساد. قال الفارسى: هذه اللفظة معربة وليست بأصل فى كلام العرب. وقال الزمخشرى وقرأ عبد الله: «قسية» أى: رديئة مغشوشة من قولهم: درهم قسى، وهو من القسوة؛ لأن الذهب والفضة الخالصتين فيهما لين، والمغشوش فيه يبس وصلابة. وقال المبرد: سمى الدرهم الزائف قسياً؛ لشدته بالغش الذى فيه. وقول المبرد مخالف لقول الفارسى؛ لأن المعهود جعله عربياً من القسوة، والفارسى جعله معرباً دخيلا فى كلام العرب وليس من ألفاظها.

[البحر المحيط: ٤/ ٢٠٤، ٢٠٥] بتصرف.

إذن . . هى أربعة ألوان من التغيير : النسيان، والكتم، والتحريف، ودس أقوال من عندهم على أنها من عند الله، وهى ليست من عند الله .

ولو تأملنا قول الله تعالى: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣] لعلمنا أنهم على قدر من السوء بدرجة أنستهم الشىء الذى يأتى لهم بالحظ الكبير؛ذلك أنهم نسوا البشارات بمحمد عليه الصلاة والسلام وكتموها، ولو كانوا قد آمنوا بها لكان حظهم كبيرا؛ ذلك أنهم نسوا أمرا كان يعطيهم حظا جميلاً وجزاء حسنا، فهم الذين جنوا على أنفسهم .

إن الله لن يستفيد لو كانوا مهتدين مؤمنين أو غير ذلك، ولكن الخسران عليهم هم، لم يدع الله نسيانهم ليكون حجة عليهم؛ بل أراد سبحانه أن يذكرهم بما نسوه، وكان مقتضى الإنصاف أن يعودوا إلى الإيمان؛ لأن الحق ذكرهم بما نسوا؛ . سبحانه وتعالى ما أرحمه وأعدله .

* استحقاقهم لعنة الله *

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)﴾ [المائدة] ؛ إن الله يذكر بنى إسرائيل أنه أخذ عليهم العهد وأقام عليهم اثنى عشر رئيسا منهم؛ لتنفيذ ذلك العهد ووعدهم بالعون والنصر إذا هم أقاموا الصلاة المكتوبة عليهم، وأخرجوا الزكاة المفروضة عليهم، وصدقوا بالرسل الذين أرسلهم الله جميعاً، وخاتمهم محمد رسول الله ﷺ. ووعدهم سبحانه إن فعلوا ذلك فلسوف يتجاوز عن ذنوبهم، ويغفر لهم ويدخلهم الجنة. لكن بنى إسرائيل نقضوا العهد، فاستحقوا لعنة الله، وجعل الله قلوبهم قاسية؛ ذلك أنهم يحرفون نصوص التوراة حسب أهوائهم، وإن بعضًا منهم نسى ما ذكره الله فى التوراة، إلا عددًا قليلاً منهم آمنوا برسالة رسول الله ﷺ ،ومن يؤمن منهم فله العفو والمغفرة،ومن يكفر برسالة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فليعلم أن له عقابا ضعفين من المولى عز وجلّ،عقاب نقض الميثاق، وعقاب الكفر برسالة رسول الله محمد ﷺ.

لما نسى بعض الذين استحفظوا التوراة بعضا من نصوصها وأحكامها، كان لابد لهم أن يؤمنوا بالكتاب الذى جاء به رسول الله ﷺ؛ إن النسيان أمر يغفره الله لهم لو أنهم آمنوا برسوله الخاتم وكتابه المنزل عليه؛ أما المماراة ومحاولة تكذيب ما جاء به الرسول ﷺ، فذلك غير مغفور، لقد طلب منهم الحق أن يحفظوا كتاب التوراة وفى ذلك يقول الحق جل وعلا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] إن الذى أنزل التوراة يعرف ما جاء بها، لقد أرادها الله هداية إلى بنى إسرائيل؛ فأنزلها على موسى عليه السلام، وضمنها نصوصا تنير الطريق أمام من يخلصون الإيمان لله، واستحفظهم الله عليها فماذا حدث؟ لقد غيروا وبدَّلوا، وكان من الأجدر أن يخشوا الله، فلا يشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً، وعرضاً زائلاً، فلا يبدلوا فى تعاليمه ولا يغيروا منهجه.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

* لهم الخزى فى الدنيا والآخرة *

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣] تلك هى الأوامر الإلهيـة التى أعـرض عنها بنو إسرائيل إلا قلة منهم، ثم جاءت بعد ذلك النواهى وهى التى وردت فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، فما الذى حدث بعد ذلك ؟ لقد سفكوا دماء بعضهم البعض عندما عاونوا الأوس والخزرج على الخلاف ثم الاقتتال ، فنالهم نصيب من ذلك الاقتتال.

لقد أخرجوا بعضهم من ديارهم، وأخذوا الأبناء أسرى، والنساء سبايا، لم يسيروا على منهج الله، إنما أرادو أن يخضعوا منهج الله لمصالح وقتية، فآمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعض، فكان جزاؤهم: ﴿خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾(١). لقد حدد الحق الحيثيات

---

(١) قال الشيخ المراغى فى قوله تعالى : ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾: فقد دلت المشاهدة على أن كل أمة تفسق عن أمر ربها وتطرح أوامر دينها وراءها ظهريًا يتفرق شملها ، وينزل بها عذاب الهون جزاء فساد أخلاقها وكثرة شرورها . [تفسير المراغى : ١/ ١٦٣]
وقال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ =

الواضحة للحكم بالخزى، لقد حدد لهم الحق مطلوبات هى الأوامر، ومخالفات هى النواهى؛ ولذلك كان لابد من تجريم من يخالف.

إذن..لم يأخذهم الله على غرة، بل أبان لهم عن مطلوبه منهم، وبعث فيهم النبيين مذكرين ومعلمين؛ لئلا يكون لهم حجة، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فجزى الله المؤمنين بأوامره ونواهيه الاطمئنان والهداية إلى الإيمان برسالة رسوله محمد ﷺ.

أما الذين كفروا فقد كان لهم الجزاء العادل، لقد أرادوا بمخالفة النصوص وتحريفها عرض الدنيا، فكان العقاب فى الدنيا والآخرة،لقد كان جزاء من خالف وكفر فى الدنيا الخزى، والخزى هو الذلة والضِّعة [1] . ولقد حدث لهم ذلك على يد رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لقد أخرجوا بنى قينقاع من ديارهم،وكذلك بنى قريظة،بنى النضير[2]، لقد خرج هؤلاء من المدينة، وصودرت أموالهم وطردوا؛ هكذا كان خزيهم فى

= ﴿الدُّنْيَا﴾ ابتداء وخبر ،والخزى: الهوان. قال الجوهرى: وخزى بالكسر يخزى خزيًا إذا ذل وهان. قال ابن السكيت: وقع فى بلية.وأخزاه الله،وخزى أيضًا يخزى خزاية: إذا استحيا فهو خزيان. [تفسير القرطبى : ٢/ ٢٣]

(١) الخزى : السوء. خزى الرجل يخزى خزيًا وخزى ؛ الأخيرة عن سيبويه: وقع فى بلية وشر وشهرة؛ فذل بذلك وهان.وقال أبو إسحاق فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٤] ؛المخزَى فى اللغة : المُذل المحقور بأمرٍ قد لزمه بحجة، وكذلك أخزيته وألزمته حجة إذا أذللته بها. والخزى : الهوان، وقد أخزاه الله: أى أهانه الله ، وأخزاه الله وأقامه على خزيه ومخزاه ، وقال أبو العباس فى الفصيح : خزى الرجل خزيًا من الهوان، وخزى يخزى خزاية من الاستحياء، وامرأة خزيا . [لسان العرب :١٤/٢٢٦]

(٢) بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير هم قبائل اليهود التى كانت تسكن بالمدينة ، ونقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ فأجلاهم عن المدينة.

وعن إجلاء بنى قينقاع يقول ابن الأثير : =

= لما عاد رسول الله ﷺ من بدر، أظهرت يهود له الحسد بما فتح الله عليه، وبغوا ونقضوا العهد ، وكان قد وادعهم حين قدم المدينة مهاجرًا . فلما بلغه حسدهم جمعهم بسوق بنى قينقاع، فقال لهم : «احذروا ما نزل بقريش وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل» . فقالوا : يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة .

فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبينه ، فبينما هم على مجاهرتهم وكفرهم إذ جاءت امرأة مسلمة إلى سوق بنى قينقاع، فجلست عند صائغ لأجل حلى لها ، فجاء رجل منهم فخل درعها إلى ظهرها ، وهى لا تشعر ، فلما قامت بدت عورتها ، فضحكوا منها، فقام إليه رجل من المسلمين فقتله ، ونبذوا العهد إلى رسول الله ﷺ، وتحصنوا فى حصونهم ، فغزاهم رسول الله ﷺ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة، فنزلوا على حكمه، فكُتفوا ، وهو يريد قتلهم ، وكانوا حلفاء الخزرج، فقام إليه عبد الله بن أبى بن سلول فكلمه فيهم ، فلم يجبه ، فأدخل يده فى جيب رسول الله ﷺ ، فغضب رسول الله، وقال : «ويحك أرسلنى» . فقال : لا أرسلك حتى تحسن إلى موالى ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، وإنى والله لأخشى الدوائر .فقال النبى ﷺ : «هم لك ، خلّوهم لعنهم الله ولعنه معهم» .

وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ما كان لهم من مال ، ولم يكن لهم أرضون؛ إنما كانوا صاغة ، وكان الذى أخرجهم عبادة بن الصامت الأنصارى ، فبلغ بهم ذباب، ثم ساروا إلى أذرعات من أرض الشام ، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى هلكوا .

[الكامل فى التاريخ: ٢/١٣٧، ١٣٨]

وعن إجلاء بنى النضير يقول :

وكان سبب ذلك أن عامر بن الطفيل أرسل إلى النبى ﷺ يطلب دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية .

فخرج النبى ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فيها، ومعه جماعة من أصحابه فيهم أبوبكر وعمر وعلى ، فقالوا : نعم نعينك على ما أحببت ، ثم خلا بعضهم ببعض وتآمروا على قتله ، وهو جالس إلى جنب جدار ، فقالوا : من يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيقتله ويريحنا منه ؟ فانتدب له عمرو بن جحاش ، فنهاهم =

= عـن ذلـك سـلام ابن مشكم، وقال : هو يعـلـم ، فلم يقبـلوا منه ، وصعـد عمـرو ابن جحاش، فأتى الخبر من السماء إلى رسول الله ﷺ بما عزموا عليه ، فقام وقال لأصحابه : «لا تبرحوا حتى آتيكم» ، وخرج راجعًا إلى المدينة ، فلما أبطأ قام أصحابه فى طلبه ، فأخبرهم الخبر وأمر المسلمين بحربهم ، ونزل بهم ، فتحصنوا منه فى الحصـــون ، فقـطع النخـل وأحرق، وأرسـل إليهـم عبد الله ابن أبىّ وجماعة معه: أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم وإن خرجتم خرجنا معكم ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا النبى ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ماحملت الإبل من الأموال إلا السلاح ، فأجابهم إلى ذلك ، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام ، فكان ممن سار إلى خيبر كنانة بن الربيع وحيى بن أخطب ، وكان فيهم يومئذ أم عمرو صاحبة عروة بن الورد التى ابتاعوا منه ، وكانت غفارية .

فكانت أموال النضير لرسول الله ﷺ ، وحده يضعها حيث شاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة ذكرا فقراً فأعطاهما، ولم يسلم من بنى النضير إلا يامين بن عمير بن كعب ، وهو ابن عمّ عمرو ابن جحاش ، وأبو سعيد بن وهب ، وأحرزوا أموالهما .

[الكامل فى التاريخ: ٢/ ١٧٣، ١٧٤]

ويقول عن غزو الرسول لبنى قريظة :

لما أصبح رسول الله ﷺ ، عاد إلى المدينة ووضع المسلمون السلاح وضرب على سعد بن معاذ قبة فى المسجد ليعوده من قريب ، فلما كان الظهر أتى جبرائيل النبى ﷺ فقال : أقد وضعت السلاح ؟ قال : «نعم» . قال جبرائيل : ما وضعت الملائكة السلاح ، إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم . فأمر رسول الله ﷺ، مناديًا فنادى : «من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة»، وقدم عليًا إليهم برايته وتلاحق الناس ، ونزل رسول الله ﷺ ، وأتاه رجال بعد العشاء الأخيرة فصلوا العصر بها ، وما عابهم رسول الله ﷺ (١).

(١) أخرج البخارى [٤١١٩،٩٤٦] عن ابن عمر قال: قال النبى ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب «لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة» فأدرك بعضهم العصر فى الطريق، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بلى نصلى،لم يُرَدْ منا ذلك، فذُكر للنبى ﷺ فلم يُعنِّف واحداً منهم.

الدنيا. ولكن لماذا لا يؤخر الحق سبحانه وتعالى جزاء بعض الذنوب إلى الآخرة؟حتى لا يشقى العالم بهؤلاء المحرفين لمنهج الله، المبدلين لكماته

= وحاصر بنى قريظة شهراً أو خمساً وعشرين ليلة ، فلما اشتد عليهم الحصار أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن تبعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر ، وهو أنصارى من الأوس ، نستشيره ، فأرسله ، فلما رأوه قام إليه الرجال وبكى النساء والصبيان ، فرقّ لهم ، فقالوا : ننزل على حكم رسول الله ، فقال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح. قال أبو لبابة : فما زالت قدماى حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله، وقلت: والله لا أقمت بمكان عصيت الله فيه . وانطلق على وجهه حتى ارتبط فى المسجد وقال : لا أبرح حتى يتوب الله على . فتاب الله عليه وأطلقه رسول الله ﷺ .

ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فقال الأوس : يا رسول الله افعل فى موالينا مثل ما فعلت فى موالى الخزرج ، يعنى بنى قينقاع ، وقد تقدم ذكرهم . فقال : «ألا ترضون أن يحكم فيهم سعد بن معاذ ؟» قالوا : بلى . فأتاه قومه فاحتملوه على حمار، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ ، وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسن إلى مواليك. فلما كثروا عليه قال : قد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فعلم كثير منهم أنه يقتلهم ، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ ، قال : قوموا إلى سيدكم ، أو قال: خيركم ، فقاموا إليه وأنزلوه وقالوا : يا أبا عمرو أحسن إلى مواليك؛ فقد ردّ رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليك . فقال سعد : عليكم عهد الله وميثاقه ، إنّ الحكم فيهم إلىّ ؟ قالوا: نعم ، فالتفت إلى الناحية الأخرى التى فيها النبى ﷺ وغض بصره عن رسول الله إجلالاً، وقال:وعلى من ههنا العهد أيضًا ؟ فقالوا نعم . وقال رسول الله ﷺ : «نعم». قال : فإنى أحكم أن تُقتل المقاتلة، وتسبى الذرية والنساء، وتقسم الأموال، فقال له رسول الله ﷺ : «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة» .

ثم استنزلوا فحبسوا فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار . ثم خرج رسول الله ﷺ، إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم فيها ، وفيهم حيىّ بن أخطب وكعب بن أسد سيدهم ، وكانوا ستمائة أو سبعمائة ، وقيل: ما بين سبعمائة وثمانمائة ، وأتى بحُيَىّ بن أخطب وهو مكتوف ، فلما رأى النبى ﷺ ، قال : والله ما لمت نفسى فى عداوتك ولكن من يخذلِ الله يُخْذَل . ثم قال للناس : إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبت على بنى إسرائيل،=

وليكونوا عبرة أمام من لا يؤمن بمنهج الله، كدليل صدق على منهج الحق سبحانه.

إذن.. لم يكن عذابهم وتشردهم وطردهم دون أسباب(١)، لا.. لقد كانت هناك أسباب:

أرسل الحق رسولا هو موسى عليه السلام، وأرسل الحق أوامر هى ميثاق واضح المعالم والتفاصيل.

وحدد الحق نواهى وهى الأمور التى يجب أن يمتنعوا عنها.

فمن التزم منهم بمنهج الله أنجاه من العذاب، وهداه إلى الإيمان بالرسول الذى بشرت به التوراة وجاءت بأوصافه ونعوته، لكن الذين

= فأجلس وضربت عنقه. ولم تقتل منهم إلا امرأة واحدة قتلت بحدث أحدثته، وقتلت أرفة بنت عارضة منهم.

وأسلم منهم ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد.

ثم قسم رسول الله ﷺ، أموالهم، فكان للفارس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان ولفارسه سهم، وللراجل ممن ليس له فرس سهم، وكانت الخيل ستة وثلاثين فرسًا، وأخرج منها الخمس، وكان أول فىء وقع فيه السهمان والخمس. واصطفى رسول الله ﷺ، لنفسه ريحانة بنت عمرو بن خناقة من بنى قريظة، فأراد أن يتزوجها فقالت: اتركنى فى ملكك فهو أخف على وعليك. فلما انقضى أمر قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ واستجاب الله دعاءه، وكان فى خيمته التى فى المسجد، فحضره رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر، وقالت عائشة: سمعت بكاء أبى بكر وعمر عليه وأنا فى حجرتى، وأما النبى ﷺ فكان لا يبكى على أحد، كان إذا اشتد وجده أخذ بلحيته.

وكان فتح قريظة فى ذى القعدة وصدر ذى الحجة، وقتل من المسلمين فى الخندق ستة نفر، وفى قريظة ثلاثة نفر. [الكامل فى التاريخ: ٢/١٨٥-١٨٧]

(١) فالله سبحانه تعالى يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

حرفوا منهج الله وأرادوا به عرض الدنيا كان جزاؤهم الخزى. أراد الله من عباده أن يأتوا إلى منهجه راغبين طاعين لا مقهورين(١)على أن يكون الجزاء من جنس العمل، فمن أتى ربه طائعاً فله الحسنى، ومن أبى وخالف المنهج والميثاق فله فى الدنيا عقاب الخزى، وسيأتى ربه يوم القيامة مقهوراً؛ لينال جزاء كفره وعصيانه. أما لماذا شرع الله العقاب فى الدنيا؟ ليرى المظلومون مصرع الظالمين؛ وليعلم المؤمنون بالمنهج أن الله لا يترك من يعصاه ويعاقبه فى الدنيا والآخرة، وحتى يهتدى الخارج عن المنهج إليه،

---

(١) قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقال القاسمى فى قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ قال ابن كثير: أى لا تكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام؛ فإنه بَيِّنٌ واضح جليّ دلائله وبراهينه. لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه. بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوّر بصيرته دخل فيه على بينة. وَمَنْ عمى قلبه فإنه لا يفيده الدخول فيه مكرهًا مقسورًا(١). فالنفى بمعنى النهى. وهو ما ذهب إليه فى تأويل الآية كثير. وذهب آخرون إلى أنه خبر محض. أى إنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر، وإنما بناه على التمكين والاختيار. قال القفال - موضحاً له - لما بين تعالى دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للعذر، أخبر بعد ذلك أنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر فى الإقامة على الكفر. إلا أن يُقسر على الإيمان ويجبر عليه. وذلك مما لا يجوز فى دار الدنيا التى هى دار الابتلاء. إذ فى القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ . وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④﴾ [الشعراء].

[تفسير القاسمى: ٣/ ٦٦٤، ٦٦٥]

---

(١) انظر تفسير ابن كثير [١/ ٢٩٤].

حتى يكون الظالمون عظة لمن ظلموهم، ويكون الظالمون عظة لمن لا يتبعون منهج الله[1]، وبعد ذلك.. ما الذى يحدث؟ ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ إن من يقام عليه الحد فى الدنيا فقد أعفى من عذاب الآخرة؛ فالذى سرق مثلاً وقطعت يده، ذلك خزى فى الدنيا قد ناله السارق، وينال بتوبته عنه العفو من عذاب الآخرة، والذى زنى ورجم إن كان محصنا، أو جلد إن كان غير محصن ذلك نال خزيا فى الدنيا، ولكنه بإقامة الحد عليه تطهر وتاب إلى الله وبذلك يعفى من عذاب الآخرة.

إن كل حد للزنا أقيم فى الإسلام أقيم بعد الإقرار، ما معنى ذلك ؟ معناه أن ذلك الإنسان قد اتضحت أمامه مخالفته لدينه ومعصيته لربه التى

---

(١) ولذلك عقَّب الله تعالى بعد ذكر مصارع المكذبين للرسل من الأمم السابقة من قوم عاد وثمود ، وفرعون والمؤتفكات -وهى قرى قوم لوط، وقوم نوح وغيرهم- بقوله: ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة الحاقة : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ④ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ⑤ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ⑥ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ⑦ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ⑧ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ⑨ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ⑩ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ⑪ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ⑫ ﴾.

قال الشيخ محمد على الصابونى: ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ أى: لنجعل تلك الحادثة عظة للناس وعبرة تدل على انتقام الله ممن كذب رسله ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ أى: وتحفظها وتذكرها أذن واعية للمواعظ ، تنتفع بما تسمع .

قال القرطبى: والمقصود من قصص هذه الأمم وذكر ما حلَّ بها من العذاب، زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم فى معصية الرسول ﷺ [1] ؛ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ قال قتادة : الواعية هى التى عقلت عن الله ، وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عز وجل [2]. [صفوة التفاسير : ٣/ ٤٣٥، ٤٣٦]

---

(١) تفسير القرطبى [١٨/ ٢٦٣].

(٢) البحر المحيط [٨/ ٣٢٢].

يستحق عليها عذاب الآخرة الأليم،فطلب عقاب الدنيا لينجو بنفسه من عذاب الآخرة، أما الذين لم يقم عليهم الحد فى الدنيا، فقد ينالون بعض الخزى ولهم فى الآخرة عذاب أليم إن لم يتوبوا إلى الله ويقلعوا عن الذنب ويستغفروه تعالى؛ فإنه هو الغفور الرحيم[1].

(١) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قام بعد أن رجم الأسلمى فقال: «اجتنبوا هذه القاذورة التى نهى الله عنها، فمن ألمَّ فليستتر بستر الله تعالى، وليتب إلى الله، فإنه من يُبدِ لنا صفحته نُقِمْ عليه كتاب الله». أخرجه البيهقى فى الكبرى [١٧٦٠١]، والطحاوى فى المشكل [٩١]، والحاكم فى المستدرك [٤/ ٢٤٤] وصححه، ووافقه الذهبى. وذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة [٦٦٣].

* ومن صفاتهم أنهم: يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض *

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(1) [البقرة:٨٥] هذه الآية نزلت فى بنى إسرائيل الموجودين

---

(١) يقول الشيخ المراغى فى قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وذلك أن الله أخذ على بنى إسرائيل العهد فى التوراة ألا يقتل بعضهم بعضا، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم، وقال: أيما عبدٍ أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل فاشتروه وأعتقوه، لكنهم قتلوا وأخرجوا من الديار مخالفين العهد، وافتدوا الأسرى على مقتضى العهد، أفليس هذا إلا إيمانًا ببعض الكتاب، وكفراً ببعضه الآخر؟ وذلك منتهى ما يكون من الحماقة؛ فإن الإيمان لا يتجزأ، فالكفر ببعضه كالكفر بكله.

قال الأستاذ الإمام: فى التعبير عن المخالفة والمعصية بالكفر دليل على أن من يقدم على الذنب لا يتألم ولا يندم بعد وقوعه، بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهى الله عنه وتحريمه له فهو كافر به، وهذا هو الوجه فى الأحاديث الصحيحة، نحو: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن»(1). اهـ.

ثم توعدهم على نقضهم الميثاق الذى جعلهم أمة واحدة، ذات شريعة هى رباط =

---

(١) أخرجه مسلم [٥٧/ ١٠٠] عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ: «... ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» بدلاً من: «ولا يشرب الخمر وهو مؤمن».

بالمدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله ﷺ، وكان اليهود قد قسموا أنفسهم طوائف، كل طائفة منهم تحتمى بحليف لها من قبائل المدينة، وكانت القبيلتان الكبيرتان المتنازعتان هما الأوس والخزرج، وكانت الطائفة المنتصرة تُخرج الفريق المغلوب من الديار ، وتأخذ أموالهم وتسبى نساءهم وتجعل أبناءهم عبيدا، وبعد أن تضع الحرب أوزارها؛ يجتمع أحبار اليهود ويقومون بالفدية للأسرى.

إذن. .كان الخاسر فى تلك المسألة هم القبائل العربية المتقاتلة،أما

= وحدتهم بخزى عاجل فى هذه الحياة ، وعذاب آجل فى الآخرة فقال :﴿ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ فقد دلت المشاهدة على أن كل أمة تفسق عن أمر ربها وتطرح أوامر دينها وراءها ظهريًا يتفرق شملها ، وينزل بها عذاب الهون جزاء فساد أخلاقها وكثرة شرورها .

أما من استقاموا على الطريقة ، وزكت نفوسهم وصلحت أحوالهم، فلهم عند ربهم نعيم مقيم، يرشد إلى ذلك قوله:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا⑩ ﴾ [الشمس] .

ثم زاد فى الوعيد والتهديد والزجر الشديد فقال : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، فهو مجازيكم على ما اجترحتم من السيئات .

ثم أكد عظيم حماقتهم وسيىء إجرامهم ، ثم شديد نكالهم على ما اجترحوا فقال : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ [البقرة: ٨٦] ، أى: أولئك الذين آثروا الحياة الدنيا واستبدلوها بالآخرة ، فقدّموا حظوظهم فى هذه الحياة على حظوظهم فى الحياة الأخرى ، بما أهملوا من الشرائع ، وتركوا من أوامرها التى يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ؛ كالأنصار للحليف المشرك ، ومظاهرته على قومه الذين تجمعهم وإياه رابطة الدين والنسب ، وإخراج أهله من دياره ابتغاء مرضاته .

﴿ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾[البقرة: ٨٦] يوم القيامة ﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ لأن أعمالهم قد سجلت عليهم الشقاء ، وأحاطت بهم الخطايا من كل جانب فسدّت عليهم باب الرحمة ، وقطعت عنهم الفيض الإلهى ، فلا يجدون شافعا ينصرهم، =

اليهود فكانوا يقيمون لأنفسهم نظاما يقوى من شوكتهم، وإن بدا أنه يضعفهم أثناء القتال (١).

إذن.. كانت المسألة «تقسيمة مصلحية» وليست من الإيمان فى شىء، إن اليهود هم أهل كتاب، وكانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول سيأتى، ويتوعدون العرب بأن النبى القادم سيؤمنون به، ثم يقتلون به العرب قتل عاد وإرم.

إذن.. كيف يتأتى ذلك، ويقسم اليهود أنفسهم قسمٌ مع هؤلاء، وقسم مع الجانب الآخر، ويتظاهرون عليهم، ثم بعد ذلك يتركون العداء للعرب

= ولا وليًا يدفع عنهم ما حل بهم من النكال والويال فى جهنم وبئس القرار.
[تفسير المراغى : ١/ ١٦٢، ١٦٣]

(١) يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : كان الأوس والخزرج مشركين ، وكان الحيان أشد ما يكون حيان من العرب عداء. وكان اليهود فى المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحى وذاك من المشركين. كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس . فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه؛ فيقتل اليهودى أعداءه ، وقد يقتل اليهودى اليهودى من الفريق الآخر - وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم - وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم - وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم - ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى ، وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك ، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء، وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها : إنك لا تجد مملوكًا من بنى إسرائيل إلا أخذته فأعتقته .
هذا التناقض هو الذى يواجههم به القرآن ، وهو يسألهم فى استنكار : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهذا هو نقض الميثاق الذى يتهددهم عليه بالخزى فى الحياة الدنيا ، والعذاب الأشد فى الآخرة ، مع التهديد الخفى بأن الله ليس غافلاً عنه ولا متجاوزًا؛ ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.
[فى ظلال القرآن : ١/ ٧٨، ٨٨]

فيما بينهم، ويصنعون لأنفسهم نظاما يقتدون به الأسرى، ومن عظيم حكمة الإسلام وعلو تشريع الخالق الحق أنه لم يمنع التظاهر فى ذاته، وهو التعاون، بل أمر بالتعاون على البر والتقوى، ونهى عن التعاون على الإثم والعدوان فقال عز من قائل: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢] .

إذن. . فالتعاون على البر والتقوى ليس مقصورا على فئة دون فئة، إنه حق أوجبه الله على المؤمنين به سبحانه، بل هو مبدأ إيمانى هام، أما الإثم والعدوان فأمران منهى عنهما فى الإيمان، ولنا أن نسأل: ما البر، وما الإثم؟ والإجابة هى: البر[١] هو التعاون على أمر مفيد يشيع الاطمئنان. والإثم هو الشىء القبيح، أو كما حدده الرسول ﷺ حينما سُئل كما جاء فى الحديث: ما البر وما الأثم ؟ فقال رسول الله ﷺ: «البر هو ما اطمأنت إليه نفسك، والإثم ما حاك[٢] فى صدرك، وخشيت أن يطلع عليه أحد»[٣].

هذا هو المقياس الذى يقيس به المؤمن البر، أو الإثم ، وإذا سألنا: وما العدوان؟ فإن اللغة تشرح لنا المعنى بأنه: التعدى بشراسة، إن مصدر الكلمة هو الذى يحدد معانيها المختلفة، فمصدر العدوان هو «عدا»،

(١) البر : قال العلماء : البر يكون بمعنى الصلة ، وبمعنى اللطف، والمبرَّة ، وحسن الصحبة والعشرة ، وبمعنى الطاعة ، وهذه الأمور هى مجامع حسن الخلق .

(٢) حاك : أى تحرك فيه وتردد ، ولم ينشرح له الصدر ، وحصل فى القلب منه الشك، وخوف كونه ذنبًا .

(٣) عن النواس بن سمعان الأنصارى قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال : « البرُّ حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس» أخرجه مسلم [٢٥٥٣/ ١٤]

ويقال: عدا عدوانًا، وهناك عدا عَدْواً أى: جرى، أما عدا عدوانا فهو اعتدى.

إن لغتنا دقيقة، يحدد المصدر فيها معنى الكلمة، والأفعال المستخرجة من المصدر تزيد المعنى إيضاحًا.

وفى مجال الآية الكريمة نجد أن اليهود - وهم أصحاب كتاب منزل من الله- كان عليهم أن يحكموا بما أنزل الله من شريعة، لا على أنفسهم فقط؛ ولكن على كل الناس وكان عليهم أن ينصحوا غيرهم ليفيدوا الآخرين بما أنزل الله من خير، لكن المسألة لم تكن عند يهود المدينة مسألة إيمان، بل كانت مسألة مصلحة لا تهدف خيرًا بين البشر؛ لأنه لو كانت المسألةُ مسألةَ إيمان لالتزم هؤلاء القوم حدود الإيمان فى كل شىء، ولكنهم قسموا أنفسهم: قسم منهم مع الأوس، وقسم آخر مع الخزرج، وكانت القبيلتان العربيتان مشركتين بالله، لاتعرفان طريقا إلى الإيمان، لذلك كانت القبيلتان تعيشان فى الحياة بحركة الهوى والأهواء.

وما كان يجب أن يكون ذلك هو نفس الأمر بالنسبة إلى اليهود، الذين يفترض فيهم أنهم مؤمنون بإله، ولهم كتاب منزل هو التوراة، جاء به نبى من أولى العزم من الرسل، هو موسى عليه السلام، ولذلك ما كان يجب أن يقسم اليهود أنفسهم بين المعسكرين المتقاتلين، إنما كان عليهم إذا كانوا مقتنعين بوجهة نظر معسكر ما، وبأن ذلك المعسكر أقرب إلى منهج الله، أن ينضموا إلى ذلك المعسكر؛ ذلك أن المؤمن بإله وبرسول وكتاب لابد له أن يخرج من هوى نفسه فى حركة الحياة لينفذ مراد ربه منه، لكن تقسيم اليهود لأنفسهم بين المعسكرين كان نوعا من الإيمان ببعض من الكتاب -وهو التوراة- والكفر بالبعض الآخر، رغم أن الإيمان يقتضى إيمانا بالكل، ولا تقسيم فى الإيمان.

إن من يؤمن بالله فهو يأخذ كل المنهج الذى جاء من عند الله دفعه واحدة، لا يختار منه ما يوافق هواه ويترك ما يُلزمه ويقيد حركته لصالح المجتمع، وهذا ما لم يحدث من بنى إسرائيل؛ ولذلك نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

* ويحرفون الكلم عن مواضعه *

قال تعالى : ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾(١) [البقرة: ٤١] ؛إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى أنزل التوراة، والحق سبحانه وتعالى هو الذى أنزل القرآن الكريم، ولو ظلت التوراة كما أنزلها الله، ولم يحرفها علماء بنى إسرائيل لوجد

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ : يعنى به القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ النبى الأمى العربى بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا ، مشتملاً على الحق من الله تعالى ، مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل . قال أبو العالية: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يقول : يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم ،يقول: لأنهم يجدون محمدًا ﷺ مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل.

وقوله : ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ قال ابن عباس : ولا تكونوا أول كافر به، وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم ، قال أبو العالية : ولا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ بعد سماعكم بمبعثه . واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله: ﴿بِهِ﴾ عائد على القرآن الذى تقدم ذكره فى قوله : ﴿بِمَا أَنزَلْتُ﴾ ، وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان؛ لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن ، وأما قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بنى إسرائيل مباشرة. فإن يهود المدينة أول بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم. =

. . . .

= وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشواتها فإنها قليلة فانية ، سئل الحسن البصرى عن قوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال : الثمن القليل الدنيا بحذافيرها وعن سعيد بن جبير : إن آياته : كتابه الذى أنزله إليهم ، وإن الثمن القليل: الدنيا وشهواتها ؛ وقيل : معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع فى الناس بالكتمان واللبس؛ لتستمروا على رياستكم فى الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب ، وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا؛ لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة » (١) . فأما تعليم العلم بأجرة فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجره ، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله ، فإن لم يحصل له منه شىء وقطعه التعليم عن التكسب فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء، كما فى قصة اللديغ : « إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله » (٢) .وقوله فى قصة المخطوبة : « زوجتكها بما معك من القرآن » (٣) .

[مختصر تفسير ابن كثير : ١/٥٧، ٥٨]

وقال الطبرى : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك :

عن أبى العالية:﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول : لا تأخذوا عليه أجرًا، قال: هو مكتوب عندهم فى الكتاب الأول : يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا

عن السدى يقول : لا تأخذوا طمعا قليلا، وتكتموا اسم الله ، فذلك الطمع هو الثمن ، فتأويل الآية إذًا : لا تبيعوا ما آتيتكم من العلم بكتابى وآياته بثمن خسيس =

(١) أخرجه أبو داود [٣٦٦٤] ، وابن ماجه [٢٥٢] عن أبى هريرة بلفظ: « ... لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة » بدلاً من : « ... لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة ». وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣١١٢] .

(٢) أخرجه البخارى [٥٧٣٧] عن ابن عباس رضى الله عنه.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخارى [٥٠٢٩، ٥١٣٢] عن سهل بن سعد رضى الله عنه.

بنو إسرائيل أنها لا تتضارب ولا تتعارض مع القرآن الكريم، وكأن الحق تبارك وتعالى حين يقول : ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ إنما ليذكر بنى إسرائيل أن الخالق لا يمكن أن يرسل رسولا بكتاب يحمل منهجا، ويتضارب هذا الكتاب والمنهج، مع كتاب سابق عليه فى النزول من عند الله يحمل منهجه. إن الحق تبارك وتعالى يوضح لبنى إسرائيل أن بعضا منهم قد حرفوا التوراة، ولم يحفظوا لها نصاعتها الربانية [1]. لذلك فالقرآن قد جاء كتابا موثقا لا يستطيع أحد أن يحرف فيه؛ لأن الله سبحانه هو الذى تولى حفظه بعد أن فشل البشر فى الحفاظ على الكتب السابقة.

والحق تبارك وتعالى يأمر اليهود بألا يكونوا أول كافر بما جاء من عند الله منزلا على رسوله محمد ﷺ. لماذا؟ لأن بنى إسرائيل يعرفون أن هناك صلة بين السماء والأرض، وهى كتب الله المنزلة على رسله عليهم السلام.

وإذا كانت قريش لم تؤمن برسالة رسول الله ﷺ فذلك لأن قريشا كانت تجهل الصلة بين السماء والأرض ،وأصابتهم الغفلة ومرت فترة طويلة لم يرسل الله لهم رسولاً.

= خسيس وعرض من الدنيا قليل ، وبيعهم إياه - تركهم إبانة ما فى كتابهم من أمر محمد ﷺ للناس ، وأنه مكتوب فيه أنه النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل - بثمن قليل ، وهو رضاهم بالرياسة على أتباعهم من أهل ملتهم ودينهم ، وأخذهم الأجر ممن بينوا له ذلك على ما بينوا له منه .

وإنما قلنا معنى ذلك : لا تبيعوا لأن مشترى الثمن القليل بآيات الله بائع الآيات بالثمن، فكل واحد من الثمن والمثمن مبيع لصاحبه ، وصاحبه به مشترى . وإنما معناه على ما تأوّله أبو العالية : بينوا للناس أمر محمد ﷺ ، ولا تبتغوا عليه منهم أجرًا، فيكون حينئذ نهيه عن أخذ الأجر على تبينه هو النهى عن شراء الثمن القليل بآياته . [تفسير الطبرى : ١/٢٥٣، ٢٥٤] بتصرف.

(١) قال الله سبحانه وتعالى مخبرًا المؤمنين عن تحريف اليهود للتوراة : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥] . =

= قال ابن كثير يقول تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أى: ينقا لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود ، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ أى: يتأولونه على غير تأويله، ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أى: فهموه على الجلية، ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: ١٣] وليس كلهم قد سمعها ، ولكن هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها،

قال السدى: هى التوراة حرّفوها . وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ هم اليهود ،كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه. وقال أبو العالية : عمدوا إلى ما أنزل الله فى كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضع. وقال السدى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أى: أنهم أذنبوا، وقال ابن وهب فى قوله :﴿ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ قال : التوراة التى أنزلها الله عليهم ، يحرفونها يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالاً ، والحق فيها باطلاً ، والباطل فيها حقًا . [مختصر تفسير ابن كثير : ١/ ٨٠]

وروى الطبرى عن ابن زيد فى قوله: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ قال : التوراة التى أنزلها عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراما ، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلا ، والباطل فيها حقا ، إذا جاءهم المحقُّ برشوة أخرجوا له كتاب الله ، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محقّ ، وإن جاء أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حقّ ولا رشوة ولا شىء أمروه بالحقّ ، فقال لهم: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤) ﴾ [البقرة].

وقال آخرون فى ذلك عن الربيع فى قوله: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، فكانوا يسمعون من ذلك كما يسمع أهل النبوة ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

[تفسير الطبرى : ١/ ٣٦٧] بتصرف =

وكان اليهود يستفتحون على قريش والعرب، بأن هناك رسولا قادما من عند الله ليهديهم، وأن مجيء ذلك الرسول الهادى قد بشرت به التوراة.

إذن. كان اليهود على علم بمقدم الرسول الكريم ﷺ، لكنهم كفروا به حسداً وعنادا؛ ذلك لأن الرسول لم يكن من بنى إسرائيل، قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

إن الله أرسل رسوله محمدا ﷺ بكل الصفات التى جاءت البشارة بها فى التوراة، لكن بنى إسرائيل أنكروا الرسول والقرآن، لذلك فالحق تبارك وتعالى ينبه اليهود ألا يكونوا أول كافر بما جاء به رسول الله؛ لأن ما معه من القرآن مصدق لما جاءت به التوراة قبل أن يحرفوها، ويشتروا بآيات الله ثمنا قليلا. ولكن كيف يكون الشراء بثمن قليل؟

إن الإيمان صفقة أكثر ربحا من أى صفقة أخرى. كيف؟ نحن نعرف أن التجارة بين منتج ومستهلك، فالفلاح يستنبط رزقه من الأرض فى شهور، والصانع يأخذ أسابيع أو شهورا أو ساعات، لينتج ما يصنع، لكن التجارة يختلف فيها الأمر، إن الحركة التجارية تتم فيها عملية الربح بسرعة، فبمجرد أن يبيع التاجر الصفقة فإنه يحصل على الربح.

= وقال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾: قال مجاهد والسدى: هم علماء اليهود الذين يحرفون التوراة فيجعلون الحرام حلالا، والحلال حراما اتباعًا لأهوائهم.
﴿ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أى عرفوه وعلموه. وهذا توبيخ لهم؛ أى أن هؤلاء اليهود قد سلفت لآبائهم أفاعيل سوء وعناد، فهؤلاء على تلك السنن، فكيف تطمعون فى إيمانهم!.
ودلّ هذا الكلام أيضًا على أن العالم بالحق المعاند فيه بعيد من الرشد؛ لأنه علم الوعد والوعيد ولم ينهه ذلك عن عناده. [تفسير القرطبى: ٢/٣]

ولذلك يقول الله سبحانه عن صلاة الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩] لقد اختص الله ضرورة ترك جانب البيع فى التجارة عند النداء للصلاة يوم الجمعة؛ لأنه أحب جانب إلى الإنسان بسبب سرعة عائد ربحه ، ولم يقل الله ذروا الشراء، لماذا؟ لأن المشترى قد يذهب للشراء وهو كاره، ولم يقل الله ذروا الزراعة لماذا؟ لأن الزارع يعلم أن فى الوقت متسعا للصلاة، فهو لا يضن على رازقه بالتعبد، ولم يقل الله: ذروا الصناعة، لماذا؟ لأن الصانع يعلم أن التوفيق والمهارة إنما هى عطاء من الله .. أما التاجر فهو يحب البيع وربحه السريع، وقد تلهيه تجارته عن ميعاد الصلاة؛ لذلك جاءت الآية بإيضاح وجوب ترك قمة النفعية فى أقصر طرقها ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾(١) [الجمعة: ٩] إن الله يأخذ جزءا من وقت الإنسان باختيار الإنسان؛ ليعطيه ما هو أوفر ربحا، ربح الدنيا والآخرة معا.

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ منع الله عز وجل منه عند صلاة الجمعة، وحرّمه فى وقتها على من كان مخاطبًا بفرضها . والبيع لا يخلو عن شراء فاكتفى بذكر أحدهما ؛ كقوله تعالى : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾. وخص البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق ، ومن لا يجب عليه حضور الجمعة فلا يُنهى عن البيع والشراء .

وفى وقت التحريم قولان : إنه من بعد الزوال إلى الفراغ منها ، قاله الضحاك وعطاء . الثانى : من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة ، قاله الشافعى. ومذهب مالك أن يترك البيع إذا نُودى للصلاة ، ويفسخ عنده ما وقع من ذلك من البيع فى ذلك الوقت ، ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره ، إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع . قالوا : وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ . [تفسير القرطبى : ١٨/١٠٧، ١٠٨]

وقد يقول قائل: نحن لا نكسب بالإيمان وبوجوب الفرائض، وذلك قياس محدود الذكاء؛ لأن أوجه الرزق لا تقتصر على المال، ولكنها تمتد إلى الصحة، وإلى راحة البال، وإلى الثراء بالتعاطف الإنسانى والإحساس بالمسئولية الاجتماعية، ذلك فى الدنيا، أما فى الآخرة فهو الخلود؛ إن المؤمن لا يقيس الدنيا بعمرها، ولكنه يقيس الدنيا بعمره فيها، إن الدنيا لا تطول لأحد؛ إنها محدودة بالنسبة لكل إنسان فى حدود عمره الذى قدره الله سبحانه وتعالى، وعلى ذلك فالدنيا لابد وأن تفنى فى يوم ما، يختلف ذلك اليوم من إنسان لآخر، فإذا ضحى الإنسان فى الدنيا المنتهية، ليأخذ عطاء الجد فى الآخرة الباقية الخالدة، أليس ذلك ربحا فوق الحدود والتصور؟ هذه هى الصفقة الرابحة؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] .

إن هناك مبايعة بين العبد والرب، المشترى هو الحق والبائع هو العبد، ومكسب العبد فوق كل تصور، إنها الجنة التى وعد الله المؤمنين بها، إذا ما جاهدوا فى سبيله بالنفس والمال، وقاتلوا فى سبيل نصرة الحق.

والله تعالى يوضح صفات هؤلاء الذين يبيعون أنفسهم لله ليأخذوا الجنة بأنهم: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] أولئك هم الذين باعوا أنفسهم لله، فهم التوابون المبالغون فى التوبة، الحمادون كثيروا الحمد فى السراء والضراء، المقيمون الصلاة فى خشوع وخضوع، الآمرون بالخير الناهون على كل ما

يغضب الله عز وجل، هؤلاء هم المؤمنون حقًا الذين لا يتعدون حدود الله، لهم البشرى فى الدنيا والآخرة. لهم فى الدنيا راحة البال والسكينة والهدوء والإستقرار، وفى الأخرى جنة النعيم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

إذن.. فصفقة الإيمان أكثر ربحا من أى صفقة أخر، لكن بعض من لا يريدون أن يحملوا أنفسهم على منهج الله يستعجلون مكاسب الصفقات استعجال الحمقى، إنهم يظنون أن عاجل اللذة وعاجل الكسب المادى هو الجوهر، وينسون أن كلا منهما مجرد حادث له ميلاد وله موت، وبعد الموت حساب، ويا له من حساب.

إن المؤمن الحق يدخله الله الجنة، والمؤمن العاصى أيضاً مآله الجنة المؤمن بعد أن يستوفى الله منه حساب ما عصى الله فيه، وقد يدخل فى شفاعة المؤمنين، أو شفاعة الحبيب ﷺ أو أن يتكرم الله عليه ويعفو عنه، سبحانه فهو العفو الكريم أما غير المؤمن فالنار مثواه، تنتظره مشتاقة إليه فهو صاحبها الذى خلقت من أجله.

إن من الحمق هو أن نظن أن ما يجب أن نبيعه إلى الله علينا أن نأخذ عليه عاجل الفائدة أولاً، لا.. فالآخرة خيراً وأبقى.

وكان من حمق بنى إسرائيل أنهم قلبوا الآيات الحاملة لمنهج الله، وأعماهم الغرور والجهل عن رؤية حق الله عليهم فى إبلاغ الناس بمنهج الله، والبشارات الصادقة المنزلة فى التوراة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، لذلك حذرهم الحق سبحانه وقال لهم: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ ما معنى ذلك القول؟معناه أنكم تدفعون آيات الله ثمنًا لِقاءَ شراء ما هو قليل، وهو العناد والكبر وحب التسلط على الناس، فهذا كله إلى زوال وفناء.

لقد قلبوا الصفقة الإيمانية، إن الإنسان عادة يعطى الأقل ليأخذ الأكثر، أما هم فقد أعطوا الأكثر وأخذوا الأقل. حرفوا آيات الله وزيفوها، ليأخذوا من وراء ذلك عرض الدنيا الزائل، وذلك ثمن قليل، وليت الأمر يقف عند ذلك الحد، لا.. لقد جعلوا الثمن نفسه سلعة، فالذى كان يجب أن يضحوا به، وهو عرض الدنيا، جعلوا آيات الله ثمنا له، وهكذا جعلوا من الثمن سلعة، وهل يمكن أن يصير الثمن سلعة؟ أبدا إن الثمن دائما لابد أن يكون أمام السلعة ومساويا لها، ونحن نعرف أن الأثمان تكون دائما من الأعيان، والأعيان هى الذهب والفضة، هذه هى الأثمان، والأثمان ليست سلعا؛ لأن السلعة هى ما يمكن الانتفاع بها انتفاعا مباشرا؛ كرغيف الخبز أو قنينة الدواء أو الثوب الجديد، كل ذلك سلع يمكن الانتفاع بها مباشرة، أما الذهب أو الفضة فهما أثمان، وفى بعض الأحيان تكون كل الأثمان بلا قيمة؛ هب أنك تمتلك كنوز الأرض فى مكان ليس فيه رغيف خبز أو كوب ماء، بماذا ينفعك مالك؟ إن رغيف الخبز أو كوب الماء يساوى ما هو أغلى من الذهب والفضة فى تلك الحالة. إذن.. فالأثمان لا تنفع مباشرة وإنما تنفع بواسطة.

كأن بنى إسرائيل ارتكبوا حماقات ثلاثة :

الحماقة الأولى: قلبوا الصفقة الإيمانية؛ لأن الصفقة الإيمانية تطلب أن يضحوا بالشيء القليل ليأخذوا الشيء الكثير .

الحماقة الثانية : أنهم صيروا المشترى ثمنا، بينما الثمن لا ينفع إلا بانتقاله إلى واسطة تنفع، لذلك يجب ألا يكون المال غاية أو سلعة؛ لأنه إذا صار غاية فإنه يستعبد صاحبه، وفى ذلك يقول المثل العربى: المال عبد مخلص ولكنه سيد ردىء. فعندما يحسن الإنسان استخدام المال، فإن المال يكون عبدا مطيعا، أما إذا عبد الإنسان المال، فقد باع نفسه لسيد ردىء، يتعبه ويجعله جائعاً عاريا متسولا .

الحماقة الثالثة: أنهم أخفوا الآيات الدالة على صدق نبوءة محمد ﷺ.

وكأن الحق تبارك وتعالى يخبرنا أن كل من يقتفى أثر بنى إسرائيل، يكون المال هو محور حركته، وليس ما ينفع الناس؛ ولذلك نجد أن كثيرا من بنى إسرائيل يعملون فى المال كسلعة يأخذونها بسعر بخس، ثم يبيعونها بسعر أغلى، وهذا هو الربا الذى حرمه الله؛ لأن المال ليس سلعة إنما هو ثمن السلعة، لذلك نجد أن الدول تعادل أوراق نقدها بما تساويه من ذهب أو نقد متعارف عليه، أو صكوك مضمونة.

والثمن لا يعنى أن يكون مساويا لقيمة السلعة. مثال ذلك: لو قلنا : إننا ندفع فى رغيف الخبز فى مصرخمسة قروش، بينما الدولة تقول أنه يكلفها سبعة قروش، ولكنها تدعمه لصالح المشترى العادى.

إذن. . إذا قيل إن ثمن الرغيف خمسة قروش صحيح، لكن ليس الخمسة قروش هى قيمة الخبز الفعلية، إن القيمة يشترط فيها أن تتساوى مع المقيم.

إذن. . سعر الرغيف هنا سعر خاص، ولذلك نسميه ثمنا ولا نسميه قيمة.

وهناك أسلوب قديم فى تبادل السلع اسمه «عوض»، كأن يأخذ الفلاح من زميله «قمحا» ويعطيه بدلا منه «أرزاً»، وهذا التبادل المباشر اسمه «العوض»، وكان العوض أسلوبا ساريا وسائرا قبل اختراع النقد، لكن بعد اختراع النقد أصبحت السلع تلتقى عند ما يساويها من مال، والمال يتساوى فى قيمته مع الذهب أو الفضة.

إذن. . القيمة يشترط أن تكون مساوية للنقد كيف؟ يشرح العلماء ذلك بأن قيمة سلعة ما يدخل فى تقديرها أجر العامل الذى صنعها، وأجر المادة الخام التى صنعت منها، وربح من ينتج هذه السلعة، وربح من يبيعها وهكذا.

وهكذا نكتشف أن بنى إسرائيل ارتكبوا الحماقات الثلاث؛ قلبوا الصفقة الإيمانية، جعلوا الثمن سلعة، حرفوا وأخفوا آيات الله التى أنزلها فى التوراة التى تبشر برسول الله ﷺ ورسالته.

ويحذرهم الله تعالى نفسه، فيقول: ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ [البقرة:٤١] ولنا أن نلحظ أن الحق تبارك وتعالى قال فى الآية السابقة: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أى: أنه ينذر بالوعيد فى الآخرة، ولكن فى هذه الآية يقول: ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ ما الفارق إذن بين: ﴿ فَارْهَبُونِ ﴾ و﴿ فَاتَّقُونِ ﴾؟ لقد جاء قول الحق: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ فى آية تقول: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠] إن الله يُذكِّر بنى إسرائيل بنعمة عليهم فى الدنيا، ويطالبهم بالوفاء بالعهد، وإلا فهناك الوعيد .

أما الآية: ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ فتأتى بعد قوله تعالى: ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١]؛ الآية هنا تتحدث عن منهج الله الذى أنزله فى كتابه القرآن الكريم، والذى هو مصدق لما سبق وأنزله تعالى على موسى لبنى إسرائيل وطلب منهم أن يؤمنوا به، ولا يستبدلوه بقانون آخر، أو هوى نفس.

أما إذا استبدل أحد بمنهج الله الذى أراده أىَّ منهج آخر، أو أراد أحد أن يشترى بآيات الله أى شيء آخر، فإن العقاب واقع فى الدنيا لامحالة، وفى الآخرة لامفر من العذاب أيضا. إن التقوى هنا لتتفادى غضب الله، الذى إن لم نتجنبه ونتقه يوردنا النار ساءت مستقراً وسبيلاً.

* ويلبسون الحق بالباطل *

قال تعالى : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] مادة تلبس مأخوذة من اللباس، واللبس هو التغطية أو التعمية بأن تخفى الحق ولا تظهره، فاللباس يعنى تغليف للجسم بشئ يستره إذا كان ذلك كذلك فما وكذلك الحقائق هناك من يلبسها بكلمات أو سلوك؛ ليغطيها ويعميها عن عيون وأفهام الناس، إذا كان ذلك كذلك فما هو الحق إذن الذى أراد بنو إسرائيل فى زمان رسول الله أن يلبسوه بالباطل ؟

إن الحق هنا هو منهج الله تعالى المنزل على رسوله محمد ﷺ، والحق فى معناه اللغوى هو القضية الثابتة المقررة التى لا تنقضها الأغيار. على سبيل المثال لنفترض أن حدثا وقع أمامنا وسئلنا عنه هل تختلف رواية واحد منا عن الآخر؟ لا، لماذا؟ لأن الحق قضية واقعة بالفعل تحكم قولنا ما دمنا صادقين، لكن متى يحدث التغير والاختلاف بين قول وآخر؟ إن الاختلاف بين قول وآخر يأتى عندما يريد واحد أن يلوى الحقيقة ليلبسها ثوبا آخر فتتغير، كأن ذلك الواحد جاء بالباطل ليستر به الحق، لكن ما الحق فى تلك الآية الذى أراد بنو إسرائيل فى زمان رسول الله ﷺ أن يلبسوه بالباطل؟ لقد حرفوا آيات فى التوراة، تركوا بعض الآيات كما هى، وكتموا البعض الثالث من آياتها ، ولم يتركوها على نصاعتها الربانية .

هذا هو الخلط واللبس للحق بالباطل، كانوا من قبل يستفتحون على

العرب بأن هناك رسولاً قادماً، وعندما جاء الرسول أنكروا صفاته الواردة بالتوراة، وعندما عرفوا قوة الرسول الكريم قالوا: إنه رسول من الله، ولكن ليس مرسلا إلينا، وأرادوا بذلك التعمية والتجارة بآيات الله سبحانه، ذلك هو الباطل. والباطل ألوان تتعدد، أما الحق فهو واحد لا يتعدد؛ لذلك كان «الحق» اسما من أسماء الله الحسنى. بنو إسرائيل في زمان رسول الله كتموا بعض آيات الله، وألبسوا البعض الآخر ألوانا من التحريف، فعندما يقول الحق لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨] إن تلك الآية تروى قصتهم مع نبيهم موسى عندما دخل بهم مدينة كبيرة وأمرهم أن يدخلوها بخشوع وخضوع، وأن يدعو الله تعالى بقولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾ وهى كلمة علمها الله معناها: حط عنا يارب ذنوبنا.

لكنهم لم يقولو ذلك، بل قلبوا الكلمة واستبدلوها بكلمة (حطة) من عندهم هى: «حنطة».

وقد حدث ذلك مع رسول الله محمد أن تلتوى الكلمات حتى لا تعبر عن معانيها، وقد كان أصحاب الرسول يقولون حين يتلو عليهم الوحى: راعِنا يا رسول الله، وكان الصحابة ينطقونها (بكسر العين) ومعناها أن الصحابة يطلبون رعاية الرسول، وأن يتمهل فى تلاوة القرآن حتى يحفظوه، لكن بعضا من اليهود كانوا ينطقون الكلمة بأسلوب آخر لتؤدى إلى معنى آخر، فيقول: راعَنا وينطقونها بفتح العين لتؤدى معنى الرعونة، وهو معنى قبيح بعيد كل البعد عما طلبه أصحاب النبى ﷺ لذلك أمر الله رسوله ﷺ بأن ينبه الصحابة ألا ينطقوا الكلمة مثلما ينطقها الخبثاء من بنى إسرائيل، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] نعلم منه أن يلبس

الحق بالباطل أو يكتم الحق إنما هو يعلم ما هو حق ،ولكن ليس له قدرة على مواجهته.

والمخاطبون بذلك القول هو بنى إسرائيل وهو يعنى أن الحق قد أنزل إليهم التوراة من قبل وفيها العلم بآيات الله وصفات رسول الله محمد ﷺ، فحرفوها وهم بذلك ألبسوا الحق بالباطل، وتوعد الله الذين يصنعون ذلك فى الدنيا : إما بالصاعقة وإما بالعذاب وإما بالضنك ، هذا هو عقاب الدنيا، وهم يعلمون ذلك العقاب، ويزيد عليه العذاب العظيم فى الآخرة.

* ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم *

وينتقل الحق جل وعلا بعد ذلك إلى القول: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(1)[البقرة: ٤٤] إن الحق سبحانه وتعالى يخاطب بنى إسرائيل متسائلا: كيف تأمرون الناس بالبر والتقوى والإيمان وبذل المال وتنسون أنفسكم؟ لقد كنتم أمة لها كتاب ورسول، وكنتم تستعلون بذلك على العرب الذين لا إيمان لهم؛ لأنه لم يكن لهم كتاب ولا رسول، وكنتم تدعوهم لترك عبادة الأوثان والإيمان بالله .

إذن.. كيف تكفرون الآن بالرسالة الخاتمة، والتى جاءتكم من عند الله، والمنزلّة على رسوله محمد ﷺ ؟

وأنا أريد أن أنبه هنا إلى أن الله سبحانه وتعالى حين يعطينا صورة من الصور التى كانت عند اليهود، ويأمرهم بأوامر محددة، فإن العبرة هنا ليست بخصوص السبب، ولكن العبرة تكن بعموم اللفظ ،فحين يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا

---

(١) عن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء برجل فيُطرح فى النار فيطحن فيها، كما يُطحن الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: أى فلان ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: إنى كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وأفعله». أخرجه البخارى [٧٠٩٨] واللفظ له، ومسلم [٥١/٢٩٨٩].

الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة].

إن هذه الآيات لاتخص فقط بنى إسرائيل، لكن ما فيها من أوامر ينطبق على كل إنسان مؤمن من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، فلا نشترى بآيات الله ثمنا قليلاً ،ولا نكفر بآيات الله التى جاءت فى القرآن ولا نحرف معنى الآيات لتبرير أى فعل أو عمل يضاد شريعة الله؛ وذلك حتى لا نقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل أعاذنا الله من ذلك، ولا نكون كخطباء الفتنة، نقول ولا نفعل، أو نقول، ونفعل ما يضاد القول.

وخطباء الفتنة هؤلاء هم القوم الذين رآهم رسول الله ﷺ ليلة أن أسرى به، وقال عنهم: «أناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار» (١). وسأل رسول الله ﷺ الملَك جبريل عليه السلام: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال جبريل: هؤلاء هم خطباء الفتنة ، الذين يبررون لكل ظالم ظلمه.

إن خطباء الفتنة هم صنف من الناس يقولون ما لا يفعلون،أى أن فعلهم لا يوافق قولهم، فهم يأمرون الناس بالبر والإيمان بالله وفعل الطاعات، ثم هم أنفسهم لا يفعلون ذلك. وكان من المفروض أن يوافق قولهم فعلهم؛ حتى يكونوا قدوة طيبة يقتدى بها الناس. فعلى كل من

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند [٣/ ١٢٠ ، ١٨٠، ٢٣١، ٢٣٩، ٢٤٠] عن أنس ابن مالك رضى الله عنه بلفظ: «رأيت ليلة أُسرى بى رجالاً تُقرض شفاههم بمقاريض من نار. فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟» وأخرجه ابن حبان [٥٣]، وأبو نعيم فى الحلية [٨/ ٤٣، ٤٤ ، ١٧٢]. وقال الأرناؤوط: الحديث صحيح بالمتابعات.

والمقاريض جمع مقراض: وهو المقص. [المعجم الوسيط: ٧٢٧]

يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن ينظر لنفسه أولاً، ويحاول أن يفعل هو المعروف قبل أن يطالب به الآخرين؛ حتى لا يفتتن الناس به.

ذلك أن منهج الله فى أن يطبق كل إنسان ما أمر به الله، .وأن ينهى كل إنسان نفسه عما نهى عنه الله، وبذلك يكون التطبيق الوافى لمنهج الله.

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد يُخرجان قوما عما ألفوه من حركة الباطل؛ وذلك أمر شاق على النفس؛ لذلك فالناس تنظر بعيون مفتوحة لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، هل يطبق ذلك الأمر على نفسه أم لا؟ إن الناس عندما ترى من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يطبق ذلك الأمر على نفسه، عندئذ يعلمون أنه لم يطلب من النـاس إلا ما رضيه لنفسه منهجا، ويعرفون أنه صـادق فى دعـوته، لكن حينـما لا يطبق داعيةٌ المنهجَ الذى يدعو إليه على نفسه؛ عندئذ تنفصل الكلمة عن السلوك وتكون الطامة الكبرى؛ ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن انفصال الكلمة عن السلوك : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف].

إن الإيمان يقتضى أن يرتبط القول بالسلوك، وأن ترتبط الكلمة بالفعل، ذلك أن الإنسان إذا دعا إلى أمر صالح ولم يلزم نفسه به، فإن الناس تكتشف المسافة بين قوله وفعله، وعندئذ يتهمه الناس بأنه غشاش؛ لذلك أراد الله أن ينزل القرآن منهجا، وأن يكون سلوك رسول الله ﷺ قدوة سلوكية لنا، ذلك أن جمال الحديث عن المنهج لا يكفى، إنما جمال المنهج يتحقق بالتطبيق، وكان رسول الله ﷺ أول من يطبق التشريع على نفسه، ورحم الله الفاروق عمر ابن الخطاب، حين تولى الحكم أتى بأقاربه وقال: إن الله أمرنى بتطبيق منهج الإسلام، فوالذى نفسى بيده من خالف منكم أى شىء من ذلك لأجعلنه نكالا للمسلمين.

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلم من أين تأتى الفتنة، إنما تأتى من الأقارب، الذين يظنون أنهم بقرباتهم لأولى الأمر بمقدورهم أن يتمادوا فى الخروج عن منهج الله وحكمه.

إن ولى أمر المسلمين مسئول عن تطبيق أوامر الله على نفسه وعلى أهله وكل من حوله. ولنا فى موقف طارق بن زياد حينما غزا الأندلس مَثَلٌ حين قال لجنوده: اعلموا أنه حين يلتقى الفريقان فإنى سوف أحمل على طاغية القوم« لزريق»، وإنى لقاتله إن شاء الله، فإن قتلته فقد كفيتم أمره، وإن قُتلت أنا فلن يعوزكم أحد تسندون إليه أمركم، فأنا لم آمركم بأمر أنا بمنجى منه.

هذا هو فن القيادة، كل أمر بمعروف أو نهى عن منكر يكون القائد أو الحاكم أسوة لرعيته، وكذلك العالم أو الداعية، ذلك أن خروج أى داعية للإسلام عن منهج الله لا يلحق السوء به وحده، ولكن السوء يلحق بالدعوة نفسها، وعندئذ يتهم الناس الدعوة نفسها بأنها نفاق أو خداع، أو يتحول الداعى إلى الله بقوله إلى صاد عن سبيل الله بسلوكه، لذلك انتشر الإسلام فى أول أمره بالأسوة السلوكية فى كثير من بلدان العالم وبخاصة الأفريقية منها، والآن فى أوربا وأمريكا المد الإسلامى يكبر وينتشر على الرغم من عداء تلك البلدان للإسلام وأهله، ولذلك ينبهنا الحق تبارك وتعالى إلى هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

كأن الحق تبارك وتعالى يأمرنا بثلاثة أوامر مترابطة:

أولها: القول الحسن ونحن ندعو إلى الله.

الثانى: أن نربط القول الحسن بالعمل الصالح.

الثالث: أن نقول بعد ذلك: إننا مسلمون.

إن كل سلوك للإنسان المسلم يجب أن يتصف بهذه الصفات الثلاثة التى ينتسب بها الإنسان إلى الإسلام، ولهذا فعلينا أن ننتبه إلى أن كل الأمور التى تحسن من وضع الإنسان فى الدنيا لها أصل فى الإسلام، لذلك يجب ألا ننسبها إلى غير الإسلام، مثال ذلك: التأمين الاجتماعى، البعض يقول عنه: إنه نظام اشتراكى، والحقيقة إنه نظام إسلامى أخذه الاشتراكيون من الإسلام، إن أى أمر جميل له أصل فى الإسلام؛ لذلك يجب ألا ننسب أى جمال فى الحياة لغير الإسلام، لماذا ننسب جمال مبادئ الإسلام إلى مذاهب أخرى؟ وهذا فى قول شوقى أمير الشعراء حين يتحدث عن رسول الله ﷺ - مع عدم التسليم بهذا القول - فيقول:

الاشتراكيون أنت إمامهم ... لولا دعاوى القوم والغلــواء

داويت مُتَّئِدًا وداووا طَفْرة ... وأخفُّ من بعض الدواءِ الداءُ(١)

هذا قول أمير الشعراء فى هؤلاء الذين أرادوا أن ينسبوا العدل الاجتماعى لغير الإسلام؛ أو ارادوا أن ينسبوا الإسلام ورسوله للاشتراكية، وكلاهما مخطئ.

فإن محمدا ﷺ جاء بالعدل بين الناس سابقاً لأى منهج آخر يدَّعى لنفسه العدل الاجتماعى، بل إن منهج محمد عليه الصلاة والسلام كان يداوى بالجرعات المناسبة، حتى يشفى الناس من داء الاستغلال، بينما المذاهب غير الإسلامية لا تعرف الجرعة المناسبة لذلك الداء.

إن الدواء الذى جاء به رسول الله هو من عند الله الخالق العليم

---

(١) البيتان من القصيدة الهمزية النبوية للشاعر أحمد شوقى، ومطلعها:

وُلد الهدى فالكائنات ضياءُ ... وفَمُ الزمان تبسُّمٌ وثناءُ

[الشوقيات : ١/٣٢]

بخلقه وما ينفعهم، والشافى بمنهجه كل أمراض المجتمعات وعلل الناس؛ ولذلك يخاطب الله كل الخلق بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] ويجب أن نفهم من هذه الآية أن الأمر ليس صادرا إلى بنى إسرائيل وحدهم، ولكن لكل المؤمنين برسالة رسول الله ﷺ؛ ذلك أن العقل السليم يفترض أن يُطبق الإنسان المنهج على نفسه قبل أن يطالب غيره بتطبيقه.

* ويؤمنون بالجبت والطاغوت *

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] .

قوله: ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ أى: اليهود فقد علموا بصفة النبى ﷺ ومبعثه من التوراة ، فلم يتبعوه بل كفروا به، وآمنوا بالجبت وهو كل ما يُعبد من دون الله، وقيل: هو الشرك، والطاغوت: هو الشيطان، وتركوا الإيمان بالله تعالى، وتحالفوا مع الكفار والمشركين ضده، وقالوا عنهم إنهم أهدى دينا وطريقاً من الذين آمنوا بمحمدﷺ، وفضلوهم عليهم بجهلهم. حدث منهم ذلك رغم أن أول مهام الكتب السماوية أن توصل المخلوق بالخالق، ووصل المخلوق بالخالق تنمية لقدرات المخلوق، وإذا سألنا كيف؟ تكون الإجابة: إن أسباب الله فى الكون قد تعزُّ على المخلوق، وقد تعقر يد المخلوق منها؛ فإذا لم يكن هناك إله يلجأ إليه المخلوق عند عزوف الأسباب، فإن المخلوق ينهار، وربما فارق المخلوق الحياة منتحراً.

لكن المؤمن بالله يعرف يقيناً أن هناك مسبباً وراء الأسباب، فإذا ماعزّت عليه الأسباب، يلجأ لرب الأسباب، وهذا ما يعطى المؤمن قوة. إن الإيمان يعطى المؤمنين أرضاً صلبةليقفوا عليها ويكونوا أقوياء، فمهما عزّت الأسباب أمام المؤمن، فإنه يذكر رب الأسباب، وحين يذكر العبد المؤمن ربَّ الأسباب، فإن آفاق حياته تصبح رحبة متسعة.

أما غير المؤمن؛ إن لم تدركه أسبابه فقد يلجأ إلى الانتحار، والذى ينتحر هو من ضاقت عليه الأسباب وعلم أنه لاحيلة له، فإما العيش فى هم وغم وكرب، أو التخلص من حياته، لكن المؤمن إن عزت عليه الأسباب فهو يقول: يارب؛وما أن يقول المؤمن: يارب،فهذا القول يريحه، حتى قبل أن تجاب له الدعوة، لماذا؟ لأن كلمة «يارب» تعنى أن المؤمن قد التفت إلى مسبب الأسباب حين عزت عليه الأسباب، وساعة مايلتفت المؤمن إلى مسبب الأسباب عند امتناع الأسباب، فإن هذا الالتفات يعصيه قوة، من أين تأتى هذه القوة؟

إنهـــا تأتى للمؤمن؛ لأنه عرف أن الرازق قادر على أن يرزقه من حيث لا يحتسب، إن العبد المؤمن حين يقول: «يارب» إنما يكون قد وصل كيانه كله بالخالق سبحانه وتعالى.

والكيان -كما تعلم- منه ما هو مقهور للعبد ، ومنه ما هو غير مقهور للعبد، إن الكيان نفسه بأبعاضه المختلفة سيأتى عليه وقت يشهد على العبد، سيأتى وقت تشهد فيه الأرجل والجلود والحواس والجوارح على العبد، ذلك أن الجوارح فى الدنيا كانت مقهورة لإرادة العبد؛ فالعبد يقول فى الدنيا ليده : افعلى كذا. والعبد قد يقول للسانه: سب فلاناً ؛ولكن الحق حين جعل الجوارح خاضعة لإرادة العبد فى الدنيا؛ فإنه سبحانه يحرر هذه الجوارح يوم القيامة، دليل ذلك قوله الحق : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] .

إن الجوارح تشهد ضد مَنْ عمل المعاصى، وارتكب بها السيئات، وقت أن كانت مسخرة له، إن الجوارح تحكى عن انفعالاتها من غيظ وقهر على فعل ما تكرهه؛لذلك تأتى الجوارح يوم القيامة لتشهد على صاحبها وتخرج من أسارها، ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

إذن . . فالذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم الذين عرفوا أن هناك منهجاً

يوثق علاقتهم بالخالق، وإن توطدت علاقة المخلوق بالخالق فأسباب المخلوق تزداد قوة ، ويستقبل الأحداث بثبات وشجاعة ولا يهتز لها؛ لأنه فى كنف خالقه القوى العزيز

فالنصيب من الكتاب يعطى المؤمن صلابة، المفروض فيها أنها راقية على قدر إيمانه بهذا النصيب . فما الذى جعل الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت؟

لقد قال الحق سبحانه وتعالى هذا القول؛ ليبين لنا حال بعض من أهل الكتاب، فحينما انتهت موقعة أحد ذهب حيى بن أحطب، وكعب بن الأشرف، وابن أبى الحقيق، وغيرهم - وكانوا من كبار زعماء اليهود- وأخذوا معهم بعضاً من اليهود، ذهب كل أولئك إلى مكة ، ونقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ .

قال كعب لأبى سفيان: نحن نريد أن نتعاهد أن نقف أمام محمد.

فقال له زعماء قريش: أنت صاحب كتاب، وكانوا يقصدون أن كعب من الذين يعرفون صلة السماء بالأرض، وأنه مؤمن برسول من رسل الله، ومؤمن بالكتاب الذى نزل على هذا الرسول وفيه منهج الله، بينما هم -أشراف قريش -لا يعرفون ذلك[1].

(١) ذكر البيهقى عن ابن إسحاق، قال: حدثنا يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: وحدثنا يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظى ، وعثمان بن يهوذا ، أحد بنى عمرو بن قريظة، عن رجال من قومه، قالوا: كان الذين حزبوا الأحزاب نفراً من بنى وائل، وكان من بنى النضير حيى بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وأبو عمار، ومن بنى وائل حى من الأنصار من أوس الله، وَحوْح بن عمرو، ورجال منهم لا أحفظهم، وخرجوا حتى قدموا على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ فنشطوا لذلك، فقالوا لهم: إنا سنكون معكم عليه، فقالت لهم قريش: أنتم أحبار يهود وأهل الكتاب الأول والعلم بما اختلفنا فيه نحن ومحمد، فديننا خير =

أضاف زعماء قريش لكعب: أن بينكم وبين محمد علاقة الاتصال بالسماء، فما الذى يدرينا أنكم ومحمد تتفقون علينا فى هذه الناحية، ونحن لا نصدق قولك إلا إذا جئت إلى آلهتنا، وأقمت صلواتك لهذه الآلهة.

من هنا يمكن أن نفهم أن الجبت والطاغوت: هما صنمان من أصنام قريش، ذهب إليهما اليهود، و خضعوا لهما.

الجبت: هو كل من يدعى من دون الله، سواء أكان شيطاناً أو كاهناً أو ساحراً (١).

أما الطاغوت: فهو اسم مبالغة من «طغى». والطاغوت: هو الذى كلما

= أم دينه؟ فقالوا: بل دينكم خير من دينه، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥] وإنما قالوا ذلك حسداً للعرب أن جعل الله عز وجل محمداً ﷺ منهم، فلما قالوا ذلك لقريش أجابوهم إلى مادعوهم إليه، ثم خرجوا حتى جاءوا غطفان فاستصرخوهم على حرب رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى أن يجاهدوه معهم، وأخبروهم أن قريشاً تابعوهم على ذلك فواعدوهم.

[دلائل النبوة: ٣/٤٠٨ ، ٤٠٩]، وانظر[السيرة لابن هشام: ٣/١٩٧ ، ١٩٨]، و[تفسير ابن كثير: ١/٤٨٦]

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] فيه خمسة أقاويل:

أحدها: أنهما صنمان كان المشركون يعبدونهما، وهذا قول عكرمة.

والثانى: أن الجبت: الأصنام، والطاغوت: تراجمة الأصنام، وهذاقول ابن عباس.

والثالث: أن الجبت السحر، والطاغوت: الشيطان، وهذا قول عمر ومجاهد.

والرابع: أن الجبت السحر، والطاغوت الكاهن، وهذا قول سعيد بن جبير.

والخامس: أن الجبت حُيى بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف، وهو قول الضحاك.

[تفسير الماوردى: ١/٤٩٥]

وعن ابن عباس، وأبى العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والشعبى، الحسن، وعطية: الجبت: الشيطان، وزاد ابن عباس: بالحبشية. وعن ابن عباس أيضاً: الجبت: الشرك، وعنه: الجبت: الأصنام. وعن الشعبى الجبت: الكاهن.

[تفسير ابن كثير :١/٤٨٥]

أطعته فى ظلم ارتقى إلى ظلم أكثر (1).

وسواء أكان الجبت والطاغوت صنمين، أو آلهة فى زعم كفار قريش، فالذى يعنينا أن كفار قريش دعوا نفراً من أهل الكتاب للسجود لهما تعبيراً عن مشاركتهم العداوة لمحمد ودينه .

يقول كعب بن الأشرف لأبى سفيان: نحن نريد أن نقف صفاً واحداً ضد دعوة محمد.

فقال أبو سفيان: لا أصدقك إلا إذا جئت معنا وآمنت بالجبت والطاغوت وهنا نفذ كعب مهمته، وسجد للجبت والطاغوت، وسأل كعب أبا سفيان : ماذا فعل محمد معكم ؟

فقال أبو سفيان: لقد فارق محمد دين آبائه، وقطع رحمه، وتركهم وهاجر إلى المدينة، أما نحن فغير ذلك، إننا نسقى الحجيج، ونقرى الضيف، ونفك العانى، ونصل الرحم، ونعمر البيت، ونطوف به .

لقد أراد أبو سفيان أن يضخم من شان بقاء قريش على عبادة الأصنام .

عندئذ قال زعماء اليهود: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ من أجل عداوتهم لمحمد بغياً وحسداً : إنكم ياأهل قريش أهدى سبيلاً من محمد.
هنا ينزل قول الحق سبحانه مبيناً لرسوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الآية، أى:

---

(1) الطاغوت: يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. وزنه: فَعَلُوت إنما هو طغيوت، قدمت الياء قبل الغين، وهى مفتوحة وقبلها فتحة؛ فقُلبت ألفاً. وطاغوت وإن جاء على وزن لاهوت، فهو مقلوب لأنه من طغى.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ قال الليث: الطاغوت تاؤها زائدة وهى مشتقة من طغى. وقال أبو إسحاق: كل معبود من دون الله عز وجل جبت وطاغوت. [لسان العرب : ١٥/ ٩]

وعن قطن بن قبيصة عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العيافة، والطيّرة، والطرق من الجبت». أخرجه أبو داود [٣٩٠٧]، وأحمد فى المسند [٣/ ١٧٧]، والنسائى فى الكبرى [١١١٠٨]. وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [٨٤٢].

يامحمد، انظر إلى موقف هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، ومع ذلك فعداوتهم لك، ووقوفهم أمام دينك وأمام النور الذى جئت به، جعلهم ينسون نصيبهم الذى جاءهم من الكتاب، وذهبوا للإيمان بالجبت والطاغوت.

لقد فعلوا ذلك رغم أن اليهود قالوا للعرب: أطل زمان نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم.

هؤلاء اليهود يقولون لكفار قريش: أنتم أهدى من محمد سبيلاً، متنكرين لصلتهم بكتابهم ودينهم وما قالوه للعرب من اتباعهم للنبى المنتظر.

إن الحق يريد أن يطمئن رسول الله ﷺ والمؤمنين أن هؤلاء القوم قد انعزلوا عن مدد الله، فإن نشبت بينكم وبينهم حرب أو خلاف فاعلموا أن الله قد تركهم؛ لأنهم تركوا النصيب الذى أوتوه من الكتاب.

إن فحوى البلاغ عن الله فى هذا الموقف أن الله سبحانه يبلغ رسوله: أنه قد تركهم، فلا يغرنك يا محمد أنهم أصحاب مال أو جاه أو أصحاب علم، فكل ذلك قد زال عنهم؛ بسبب مخالفتهم لأمر الله وتحريف كلامه، وكان الأجدر بهم أن يتبعوا الرسول والكتاب الذى أنزل معه، ولا يوالون أعداءه ويسيروا فى ركابهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ (١) هؤلاء- أهل النصيب من الكتاب- كفروا بالله؛ بغية قهر

---

(١) وكذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعنى اليهود، ﴿كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعنى من التوراة، وقوله: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: وقد كانوا قبل مجئ هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبى فى آخر الزمان، نقتلكم به قتل عاد وإرم، فلما بعث رسول الله من قريش كفروا بـه. قال مجاهد: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هم اليهود.

[مختصرتفسير ابن كثير: ١/ ٨٧، ٨٨]

رسالة رسول الله ﷺ وحاولوا التقرب مــن الكفار، فماذا كــان حكم الله فيهم؟ قال الله ســبحانه وتعــالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ [النساء: ٥٢] .

«أولئك» اسم إشارة للجمع، «الكاف» خطاب لرسول الله ﷺ. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ موجـه لمن؟هـل هـو يشير إلى اليهود الذين أوتوا نصيباً مــن الكتاب، ومــع ذلــك أنكروا هذا النصيب، وذهبوا ليتحالفوا مع الكفار، ونقضوا عهدهم مع رسول الله؟ أم يشير إلى الكفار؟ ولماذا لايشير إلى الاثنين معاً؛ الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، والكفار؟ وهم الذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ (١) .

واللعن: إما أن يكون الطرد أو الخزى، أو الإهلاك. والخزى إنما نشأ من أن المــد الإســلامى يزيــد كــل يوم فَيُنقص أعداء الإســلام الأرض، قــال تعــالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١] إن المــد الإسلامى يزيــد فتقــل بذلــك بلاد الكفــر بلدة بعد بلدة (٢)؛ :

(١) قال ابن كثير: وهذا لعن لهم، وإخبار بأنهم لاناصر لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة، لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك؛ ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم. [تفسير ابن كثير: ١/ ٤٨٦]

(٢) قال ابن عباس: أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض، وقال فــى روايــة: أولم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران فى ناحية. وقال مجاهد، وعكرمة: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: خرابها ، وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين، وقال العوفى عن ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها. وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض. وقال الشعبى: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك، ولكن تنقص الأنفس والثمرات، وكذا قال عكرمة: لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكاناً تقعد فيه، ولكــن هــو الموت، وقال ابن عباس فى رواية: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها، وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت=

﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ إن الطارد هنا هو الله، والطارد هنا ليس مساويا للمطرود؛ بل هو خالق كل شيء، وله سبحانه الأمر والنهى، فساعة يكون الطارد مساويًا للمطرود فربما صادف من يعينه ؛ لكن إذا كان الطارد هو الله فلا مناص من حكم الله ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ لماذا؟ لأن الحق سبحانه وتعالى ما دام قد طرد عبداً فهو قادر على أن يدخل فى روع الناس كلهم أن يتخلوا عنه لأى سبب من الأسباب، والحق سبحانه هو مالك كل الأسباب .

العلماء. وفى هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبى القاسم المصرى الواعظ سكن أصبهان حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المرى بدمشق أنشدنا أبو بكر الآجرى بمكة قال أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها متى يمت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها وإن أبى عاد فى أكنافها التلف

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى﴾ [الأحقاف: ٢٧] وهذا اختيار ابن جرير.

[تفسير ابن كثير: ٢/٥٠٢]

* ويقتلون النبيين بغير حق *

قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]؛الحق تبارك وتعالى يبين لنا أحوال هؤلاء القوم مع الرسل الذين أرسلهم سبحانه إليهم، فيذكرهم باستكبارهم على منهجه الذى يرسل به الرسل، ومعلوم أن الرسل لا تأتى بما يناسب هوى البشر، ولكن يرسلهم الحق بالمنهج الذى يعيد الهداية للبشر ويصوِّب سلوكهم وفق ما يحبه الله منهم ويرتضيه.

ورغم كثرة الرسل إلى بنى إسرائيل إلا أن الاستكبار كان حال معظمهم دائما، وعندما نفهم معنى كلمة: ﴿اسْتَكْبَر﴾ فإننا نلحظ أن الحق يريد بها أن يوضح أن مَنْ يستكبر هو من يدَّعِي أنه كبير وحقيقته غير ذلك؛ لأن الكبير حقا من يعرف قدره وسط الخلق فلا يتكبر ولا يهن، والكبير حقا لن يدَّعِيَ الكبر على تشريع ربه. ومادة «الكاف والباء والراء» هى التى تكوّن الاستكبار، إنها «كِبَر»، «وكِبْر» تنطق مرة فتؤدى معنى التقدم فى السن، وتنطق مرة أخرى فتؤدى معنى العظمة، أما الاستكبار فهو موقف من يدعى أنه فوق أن يشرع له رسول(١)، وهؤلاء المستكبرون ينسون أن

---

(١) الكِبر: فى السِّن، كَبِرَ الرجل والدابة تكبر كِبَراً ومكْبِراً بكسر الباء - فهو كبير: طعن فى السن. والكِبَر: مصدر الكبير في السِّن من الناس والدواب.

وأكبرت الشيء: أى استعظمته. وكبَّر الأمر: جعله كبيراً، واستكبَره: رآه كبيراً. واستكبار الكفار: أن لايقولوا لا إله إلا الله، ومنه قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥] وهذا هو الكِبْر. =

الذى يشرع ليس هو الرسول، ولكن الرسول هو بشر اصطفاه الله ليبلغ المنهج، وحكمة الحق فى أنه يختار الرسل بشرا حكمة عالية الرقى، والمعنى أن الرسول البشر يكون أسوة للناس، فيتبعون سلوكه للمنهج الذى أنزله الله .

لكن لو كان الرسول من طبيعة أخرى غير البشر، لقال الناس: إن الرسول المبلغ لمنهج الله له طبيعة أخرى غير طبيعتنا، إن أى رسول مبلغ لمنهج الله إن كان من طبيعة غير طبيعة المرسل إليهم، فإن حجة الأسوة فيه تسقط عنه، ولنذكر جيدا أن الإنسان العادى إذا ما رأى على سبيل المثال فارساً يمسك سيفاً ويصول ويجول أمام الأعداء على متن فرسه، فإن نفسه تشتهى أن يكون مثله، أي: أن يجعله أسوة له، كما يحب أن يعرف عنه الناس كيف وصل إلى هذه المهارة والدقة والفروسية، لكن هذا الإنسان لو رأى أسدا فى غابة يصول ويجول فلن تحدثه نفسه أن يتخذ الأسد أُسوة سلوكية.

إذن. . فالأسوة السلوكية يكون الشرط فيها اتحاد المتأسى بالمُتَأَسَّى به، ولو كان المتأسى به فوق الإنسان نوعًا، أو أقل منه نوعا لفسدت مسألة الأسوة، لذلك لابد أن يكون الرسول المبلغ لمنهج الله إنسانا؛ ليتخذه البشر أسوة لهم؛ يقول سبحانه وتعالى فى تقرير وتأكيد بشرية النبى محمد ﷺ وارتقاء معجزته الباهرة القرآن الكريم وأنه ﷺ مبلغ عنه سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ

= والاستكبار: الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبُّراً.

ابن سيده: الكِبْر بالكسر، والكبرياء: العظمة والتجبر. وقد تكبَّر واستكبر وتكابر، وقيل: تكبَّر، من الكِبْر، وتكابر من السِّن. والتَّكبُّر والاستكبار: التَّعظُّم. وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال الزجاج: أى اجعل جزاءهم الإضلال عن هداية آياتى، قال: ومعنى ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ أى: أنهم يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ماليس لغيرهم، وهذه الصفة لاتكون إلا لله خاصة؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى له القدرة والفضل الذى ليس لأحد مثله. [لسان العرب: ٥/ ١٢٦-١٣٠] بتصرف.

اجْتَمَعَت الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦)﴾ [الاسراء]

لقد طلب نفر من بنى إسرائيل من الرسول ﷺ معجزة أخرى غير القرآن، وادعوا أنهم يستطيعون أن يأتوا بمثله(١)؛ فكان قول الحق بأن القرآن الكريم معجزة خالدة تتحدى الإنس والجن، ولو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لما استطاعوا.

والقرآن منهج شامل كامل يبين فيه الحق الحكمة من خلق الكون، والحكمة من خلق الإنسان، والمنهج الذى يمكن أن يهتدى به الإنسان فى

(١) قال ابن كثير: وقد روى ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى نفر من اليهود جاءوا رسول الله ﷺ فقالوا له: إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به، فأنزل الله هذه الآية. وفى هذا نظر؛ لأن هذه السورة مكية وسياقها كله مع قريش، واليهود إنما اجتمعوا به فى المدينة فالله أعلم. وقوله. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ الآية. أى: بيَّنَّا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ أى: جحوداً للحق ورداً للصواب. [تفسير ابن كثير: ٣/ ٦١]

الانسجام مع الكون، وعندما عجزوا عن الإتيان ولو بآية من القرآن؛ جاء التلكؤ والتعلل، وقال الكفار بإيزاع(١) من اليهود: نحن لن نؤمن برسالتك يا محمد إلا بعد أن تأتى لنا بمعجزات نراها بأعيننا؛ كأن تفجر لنا ينبوعا من الماء، أو يكون لك بمكة بستان من نخيل وأعناب. كأنهم يريدون أن يكون مظهر النبوة الثراء المادى، وجهلوا أن الرسالة أرادت لهم الارتقاء الروحى؛ ليحققوا الإشباع المكتمل لكل حاجات الإنسان، مادية كانت أو روحية. ومن فرط جهلهم أنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يسقط عليهم السماء قطعا، أو أن يأتى لهم بالله والملائكة!! وجعلوا هذا شرطاً لإيمانهم.

إن المشركين يجادلون بنفس الدعاوى المادية التى جادل بها بنو إسرائيل أنبياءهم من قبل، إنهم يشترطون للإيمان أن يمتلك رسول الله ﷺ بيتا من الذهب، أو أن يعرج إلى السماء أمامهم ويعود إليهم بكتاب من الله.

ويردُّ الرسول محمد ﷺ منزِّها خالقه ومرسله عن أن يتحكم فيه أحد، إن الحق هو الذى يحكم الكون كله بما فيه ومن فيه، وهو سبحانه الذى يرسل الرسل من نفس النوع الذى يُرسَلون إليه، ولو كان فى الأرض ملائكة لأرسل الله لهم ملكاً رسولا.

إن من ينكر رسالة الحق التى جاءت بها رسله؛ إنما يكون إنكاره من فساد طبعه، وهى سمة أساسية فى بنى إسرائيل؛ لقد استكبروا على منهج الله، وكذبوا رسله، وحرّفوا التوراة لأنها جاءت بما لا تشتهى أنفسهم، وقتلوا من الرسل نبى الله زكريا ونبى الله يحيى؛ وحاولوا مع عيسى عليهم السلام، ولكن الله نجَّاه منهم ورفعه إليه.

---

(١) يقال: قد أَوْزَعته بالشىء إيزاعًا: إذا أغريته، وإنه لموزَع بكذا وكذا، أى: مُغْرىً به. [لسان العرب: ٨/ ٣٩١]

ولنا أن نعلم أن تخلص بنى إسرائيل من رسلهم المرسلة إليهم بالتكذيب أو القتل هو منتهى الضعف؛ لأننا ساعة نرى إنسانًا لا يتخلص من خصمه إلا بقتله، فلنعلم أن ذلك ليس شهادة لقوة ذلك الإنسان على الخصم، ولكنها شهادة ضعف أمام الخصم، كأن طاقة وحياة من يقتل خصمه لا تطيق وجود حياة الخصم، ولو أن ذلك القاتل كان مكتمل النضج العقلى والوجدانى لرفض أن يقتل الخصم، ولقبل أن يواجه خصمه بالحجة، وبأن يجادله بالتى هى أحسن؛ أما الانتصار بالقتل والتآمر فذلك منتهى الضعف، وهذا ما فعله بعض بنى إسرائيل مع رسلهم؛ قتلوا فريقا وكذبوا فريقا آخر.

وعندما جاء محمد عليه الصلاة والسلام بالهداية للكون كله، دعاهم إلى الإسلام، فكذبوا دعوته وهو الصادق الأمين، كل ذلك نتيجة الاستكبار الذى هو ادعاء للنضج على غير حقيقة ذلك، إن هؤلاء القوم لو كانوا كبارا بالفعل لالتمسوا المنهج الصحيح الذى أنزله رب العالمين، لكنهم أبوا واستكبروا، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (1) [البقرة:٨٨].

---

(1) قال القرطبى في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعنى اليهود ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بسكون اللام جمع أغلف؛ أى عليها أغطية. وهو مثل قوله: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ أى فى أوعية. قال مجاهد: ﴿غُلْفٌ﴾ عليها غشاوة. وقال عكرمة: عليها طابع. وحكى أهل اللغة: غَلّفت السيف جعلت له غلافا؛ فَقلْبٌ أغلف، أى: مستور عن الفهم والتمييز. وقرأ ابن عباس والأعرج وابن محيصن: «غُلُف» بضم اللام. قال ابن عباس: أى قلوبنا ممتلئة علماً لا تحتاج إلى علم محمد ﷺ ولا غيره. وقيل: هو جمع غلاف؛ مثل خِمار وخُمُر؛ أى: قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لا تفهم عنك وقد وعينا علما كثيرا؛ وقيل: المعنى فكيف يعزب عنها علم محمد ﷺ.
فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ثم بين أن السبب فى نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لُعِنوا بما تقدم من كفرهم واجترائهم؛ =

ونحن نعرف أن كلمة ﴿غُلْفٌ﴾ مأخوذة من مادة «غلف»، وتُقرأ مرة والفتحة على حرف الغين، وتقرأ مرة أخرى والضمة على حرف الغين، وكلتا القراءتين صحيحة وتؤدى إلى معنى مقصود؛ هو أن قلوبهم مغلفة وعندها من العلم ما لا تريد زيادة عنه، أو أنها قلوب غُلف فلا تستمع إلى شيء، ولنا أن نسأل هل طبع الله على قلوبهم هذه الغفلة، وجعل هذه القلوب مغلفة لا ينفذ إليها شعاع الهداية؟ الإجابة هي: لا؛ إن أصحاب هذه القلوب هم السبب فى عدم هدايتهم إلى الإيمان، إننا نعلم أن الإيمان بالمنهج الإيمانى وقبول تكليف الحق هو أمر يدخل فى دائرة اختيار الإنسان؛ ولذلك نجد القول الحق فى نفس الآية يؤكد هذا المعنى﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ .

إذن: فكلامهم عن قلوبهم غير القابلة للهداية لا صحة له، ولا صحة أيضا لتصورهم أن عندهم المنهج الصحيح الكفيل بقيادتهم إلى الإيمان الصحيح. إنهم أصروا على الضلال والكفر وتحريف كلام الله، فران على قلوبهم كل هذا، فأصبحت مغلفة لا تنفذ إليها إشعاعات الهداية، لقد أصروا على الكفر فلعنهم الله بكفرهم.

= وهذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه. وأصل اللعن فى كلام العرب الطرد والإبعاد. ويقال للذئب: لعين. وللرجل الطريد: لعين؛ فالمعنى أبعدهم الله من رحمته. وقيل: من توفيقه وهدايته. وقيل: من كل خير؛ وهذا عام. ﴿فَقَلِيلاً﴾ نعت لمصدر محذوف؛ تقديره فإيماناً قليلا ما يؤمنون. وقال مَعْمَر: المعنى لا يؤمنون إلا بقليل مما فى أيديهم ويكفرون بأكثره؛ ويكون: ﴿فَقَلِيلاً﴾ منصوب بنزع حرف الصفة. و﴿مَّا﴾ صلة، أى: فقليلا يؤمنون. وقال الواقدى: معناه لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا؛ كما تقول: ما أقل ما يفعل كذا؛ أى لا يفعله ألبتة. وقال الكسائى: تقول العرب مررنا بأرض قل ما تنبت الكراث والبصل، أى: لا تنبت شيئا.

[تفسير القرطبى: ٢/ ٢٥، ٢٦].

أقول ذلك لأن البعض يحلو له أن يفسر قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بأن الهداية من الله وأن الضلال من الله، ويتخذون من مثل هذا التفسير حجة للضال أو للضلال. لهؤلاء نقول: اعقلوا عن الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾ [فاطر].

إن الحق تعالى بعث الرسل إلى الناس؛ لتذكرهم بنعم الخالق عليهم، ومنها الرزق، فكيف ينصرف بعض الناس إلى الشرك أو الكفر بالله. ويبلغ الحق تبارك وتعالى رسوله محمدا ﷺ بألا يحزن ولا يذهب نفسه عليهم حسرات، فهم كسلفهم من المكذبين لرسل الله على مر الزمن والعصور، وكانت العاقبة دائما لرسل الله والذين آمنوا بهم ونصروهم، فتلك سنة الله فى خلقه.

إن الكافرين أو المشركين أو الضالين قد يكذبون الرسول ﷺ كما فعلوا مع الرسل الذين أرسلهم الله من قبل، وقد نصر الله رسله جميعا، والمرجع دائما إلى الإله الحق. والمرجع إليه سبحانه قهراً أو اختياراً، فلا تغرنَّ الدنيا أحداً، فهى إلى زوال.

والشيطان عدو قديم للإنسان فيجب ألا ينخدع أحدٌ بوسوسته وتزيينه

للمعصية؛ذلك أن الشيطان يدعو أتباعه إلى النار؛ليكونوا أصحابها الخالدين فيها.

إن من يتبع الشيطان ويكفر بمنهج الله له عذاب شديد، أما الذين آمنوا فلهم عند ربهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير على أعمالهم؛ لأن من فقدوا التمييز وزيّن لهم الشيطان العمل السيئ فظنوه عملا حسنا، هؤلاء لا يمكن أن يتساووا بالذين امتلكوا البصيرة الإيمانية، فعرفوا الحسن حسنا فأقاموه وعرفوا السيئ سيئاً فابتعدوا عنه. ومن يرتضى لنفسه الضلال، فإن الله سبحانه يمد له فى أسباب الضلال، أما من اختار سبيل الهداية فإنه سبحانه يمد له أسباب الهداية.

إذن. فالضلال من اختيار العبد، لم يقهره الله عليه، كما لم يقهر من اختار الإيمان طواعية.

إن أمر الإيمان،أو أمر الكفر مسألة من اختيار الإنسان نفسه،والله لا يريد قلوباً مرغمة، إنما يريد قلوباً طائعة محبة. إن الحق قادر على أن يقهر كل العباد على الإيمان، لكنه جل وعلا أثبت لنا طلاقة قدرته وقهره فى ميعاد ميلادنا، وميعاد موت كل منا، وفى الأحداث التى تدور حولنا، وترك مسألة الإيمان به سبحانه اختيارا.

إذن. فالحق جل وعلا لا يبدأ العباد بالعقاب أو اللعنة، إنما الإنسان هو الذى يختار الإيمان أو الضلال، لذلك فاللعنة والعقاب اللذين قدرهما الله على بعض بنى إسرائيل؛ إنما هما نتيجه لإصرارهم على الضلال،لقد قدموا الكفر ولم يستجيبوا لرسل الله؛ فاستحقوا بذلك عقاب الله والطرد من رحمته تعالى.

جاء فى الحديث القدسى:«قال الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء عن الشرك،فمن عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى، فأنا منه برئ وهو للذى

أشرك»(1). إن من يشرك بالله فالله غنى عنه، وليذهب إلى ما أشرك.

لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو وشهدت الملائكة، وشهد أولو العلم.

إذن.. فمن جاءه بلاغ عن الله ورفضه ولم يستجب لداعى الله وأنكره، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]

ولنا أن نفهم من قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أمرين:

الأول: هو أن نأخذ بها الإحالة.

الثانى: صيانة الاحتمال.

فقد تأتى نفس لصاحبها بالإيمان وتهفو إلى الهداية، فتوبّخ صاحبها لحظة استيقاظ الضمير، ونحن نلاحظ ذلك على الذين أسرفوا على أنفسهم طويلاً فى أيام شبابهم وغمروها بأسباب اللذة، ثم يأتون فى أيام الكهولة يريدون التوبة ويكثرون من الندم على مافرطوا فى جنب الله؛ نرى هؤلاء جميعاً يلجون باب التوبة طمعا فى رحمة الله متعلقين بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، هم الذين يكفرون بآيات الله على إطلاقها، وهناك فرق بين الكفر بآيات الله وبين الكفر بالله، لماذا؟ لأن الإيمان بالله يطلب البينات التى تدل

(١) أخرجه مسلم [٢٩٨٥]، وابن ماجه [٤٢٠٢] واللفظ له. عن أبى هريرة رضى الله عنه.

على الله، والبينات الدالة على وجود الله موجودة فى الكون ؛ إن البينات واضحة، فالذى يكفر بالله يكون كافرا بالأدلة على وجود الله الخالق، إن الحق لم يقل هنا: «إن الذين يكفرون بالله» ؛ وذلك حتى يوضح لنا أنه إذا كان الله غيب عنا، فآياته البينات ظاهرة فى الكون؛ لذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾. ولنا أن نلاحظ هنا أن كلمة القتل تأتى دائما للنبيين، أى أنها لا تأتى للذين اتخذوا صفة لمهمة تزيد من مهمة نبى كالرسول مثلا، فليس من المعقول أن يرسل الله رسولا ليبلغ منهجا لله. فيمكّن الله خلقه أن يقتلوا الرسول. فالنبى لا يأتى بتشريعات جديدة، إنما الأنبياء يرسلهم الله؛ ليكونوا أسوة سلوكية للمؤمنين، أما الرسول فإن الله يبعثه بمنهج ليدعو الناس إلى التزامه والعمل به، وليس من المعقول أن يصطفى الله عبدا من عباده ويستخلصه ليبلغ منهجه، ثم يمكّن بعد ذلك نفراً من خلقه ليقتلوا هذا الرسول.

إن الخلق لا يقدرون على رسول أرسله الله، لكنهم قد يقدرون على نبى، وكل واحد من الأنبياء هو أسوة سلوكية؛ ولذلك نجد أن كل نبى يعبد الله على دين الرســول السابق عليه، فلماذا يقتل الخلق الأسوة السلوكية ما دام النبى قد جاء ليكون أسوة ولم يأت بدين جديد؟! فلو أن النبى يجيء بدين جديد لقلنا: إن التعصب للدين السابق عليه هو الذى جعلهم يقتلونه. لكن النبى من هؤلاء هو أسوة فى السلوك، فلماذا القتل ؟

إن النبى يصنع من العبادة ما يجعل القوم ينتهون إلى أن السلوك الذى يصنعه النبى لا يأتى وفق أهوائهم، كما أن القوم الذين يقتلون النبيين هم القوم الذين لا يوافقون على أن يسلكوا السلوك القويم، الذى يعنى إخضاع الجوارح والحركة لمنهج الله، لماذا؟ لأن النبى ملتزم بشرع الرسول السابق عليه؛ يمارس التزامه بدين الله وسط جماعة من غير الملتزمين، وبذلك يكون سلوكه قد طعن غير الملتزمين. إن وجود النبى الذى يلتزم بشرع

الله، ويخضع جوارحه وسلوكه لمنهجه تعالى وسط جماعة تدعى أنها تدين بدين الله، ولكنها لا تتبع منهجه تعالى، يثير الغيظ والحقد والحسد على النبى وسط هذه الجماعة الغير ملتزمة بدين الله، وإن زعمت فى ظاهر الأمر التزامها.

إن سلوك النبى بمنهج الله يكون أسوة واضحة جلية، يظهر منها الفارق بين مجرد إعلان الإيمان بمنهج الله، وبين الالتزام السلوكى بمنهج الله، وتكون أسوة النبى محقرة لفعلهم.

ولذلك حين نجد إنسانا ملتزما بدين الله ومنهجه، فإننا نجد غير الملتزم يسخر ويهزأ بالملتزم، لماذا؟ لأن غير الملتزم يمتلىء غيظاً وحقداً على الملتزم؛ لقدرته على نفسه، وخضوعه لمنهج الله، ويسأل غير الملتزم نفسه: لماذا يكون هذا الإنسان قادر على نفسه، يخضعها لمنهج الله، وأنا غير قادر على ذلك؟! إن غير الملتزم يتضاءل أمام نفسه وأمام الآخرين إذا ما قارن نفسه بالملتزم بمنهج الله، أو قارنه الآخرون، إن غير الملتزم يشعر بالصغار النفسى؛ لذلك يحاول أن يزيح الملتزم من طريقه.

إن غير الملتزمين بمنهج الله يسخرون من الملتزمين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢)﴾ [المطففين] ؛ ذلك فى الدنيا القصيرة الفانية، أما فى الآخرة التى هي خير وأبقى، فيجزى الله كلاً بعمله، وهنالك يضحك المؤمنون من الكفار؛ ذلك قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين] ؛ هكذا ينال غير الملتزمين عقابهم.

فماذا عن الذين يقتلون النبيين بغير حق؟ ولماذا وصف الله قتل النبيين بأنه

﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هل هناك قتل لنبى بحق؟ لايمكن أن يكون هناك قتل لنبى بحق، ولكن الله تعالى قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[آل عمران: ٢١]. ليس هذا فقط بل: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾[آل عمران: ٢١]. إنهم لم يكتفوا بقتل النبيين، بل يقتلون أيضًا من ينهج نهج النبى ويكون معه، لماذا؟ لأنه ساعة يقتل النبى فالذين آمنوا معه، لابد لهم أن يغضبوا ويثأروا لنبيهم إن استطاعوا، وإلا فهم ورثة علمه وطريقته؛ يأمرون الناس بالمعروف وينهون عن المنكر ويبلغون منهج الله، فيكونوا بذلك امتدادا للنبى فى القدوة والسلوك، والبلاغ عن الله، الأمر الذى يقلق مضاجع الكافرين ويجعلهم يتخلصون منهم بالقتل كما فعلوا مع نبيهم.

وبالنسبة لرسولنا محمد ﷺ نحن نعرف أن أعداءه قد صنعوا معه أشياء أرادوا بها اغتياله؛ وذلك يدل على غباء الذين مكروا فى ذلك الاغتيال، لماذا؟ لأنهم لم ينظروا إلى وضعه ﷺ. إنه لم يكن نبيًا فقط، ولكنه رسول أيضا، وما دام رسولا فهو أسوة حامل لمنهج، والرسالة تتضمن أن يحملها نبى، فإن كان محمد ﷺ نبيا فقط لكان فى استطاعتهم أن يقتلوه، كما قتلوا النبيين من قبل، لكنه رسول من عند الله، ولقد رأوه يحمل منهجا جديدا، وهذا المنهج يسفه أحلامهم، ويوضح أكاذيبهم، وكيفية تبديلهم للكتب المنزلة عليهم.

إذا كان رسول الله ﷺ نبيا ورسولا، يحمل رسالة ومنهجاً، إذن فحينما أرادوا أن يقتلوه كنبى غفلوا عن كونه رسولا؛ ولذلك قال الحق محدثا رسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

الرسول إذن حامل رسالة، ومعصوم بأمر الله من أعدائه(١)، والحق سبحانه وتعالى قد قص علينا خبر قتلهم للأنبياء؛ حتى يطمئن الرسول والذين آمنوا معه أن الله عاصمه من الكافرين فلن يصلوا إليه، ويخيب ظن الكافرين ويعلمون أنه لاسبيل إلى النيل من رسول الله؛ لأن كافيه هو الله سبحانه وتعالى. وقوله الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١]. كلمة﴿مِن قَبْلُ﴾ هنا تعنى: أن مسألة قتل الأنبياء كان من الممكن حدوثها قبل رسول الله ﷺ، لكن هذه المسألة انتهت، ولا يستطيع كائن من كان أن ينال من رسوله ﷺ، وبذلك طمأن الحق المؤمنين، وطمأن رسول الله بأن أحدا لن يناله بأذى؛ وأخزى الكافرين وأيأس الذين يريدون قتل رسول الله ﷺ.

يروى أن بنى إسرائيل قد قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا دفعة واحدة، فقام مائة وعشرون من أتباع الأنبياء لينكروا عليهم ذلك فقتلوهم، وهذا هو معنى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢) ولكن لماذا يبشرهم الحق بعذاب أليم؟ أليس

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ فى واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها. قال: وتفرق الناس فى الوادى يستظلون بالشجر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن رجلا أتانى وأنا نائم. فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسى. فلم أشعر إلا والسيف صلْتاً فى يده.
فقال لى: من يمنعك منى؟
قال: قلت: الله. ثم قال فى الثانية: من يمنعك منى؟ قال قلت: الله. قال: فشام السيف. فها هو ذا جالس»
ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ.
أخرجه البخارى [٤١٣٥]، ومسلم [٨٤٣/ ١٣] واللفظ له.

(٢) قال ابن كثير: هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم فى تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً، التى بلغتهم إياها الرسل؛ استكباراً عليهم وعنادا =

معنى التبشير هو إخبار بما يَسُرُّ فى أمر يمكن أن يؤتى فيه الفعل الذى يسر؟ إن التبشير دائما يكون للفعل الذى يسر كتبشير الحق للمؤمنين بالجنة، ومعنى التبشير بالجنة أن الله يخبر المؤمن بأمر يُسَرُّ له المؤمن، ويعطى الحق الفرصة للمؤمن لينفذ منهج الله ليأخذ الجائزة، ونحن نعلم أن هناك خبرا، وهناك بشارة، وهناك إنذارا، وهناك إعلاما، فلماذا إذن يبشر الحق بالنار والعذاب الذين قتلوا الأنبياء وقتلوا الذين أمروا بالقسط من الناس؟ ولماذا يكون الحديث بالبشارة موجها لأبناء الذين فعلوا ذلك؟ لأننا نعرف أن الذين قتلوا النبيين وقتلوا الذين أمروا بالقسط بين الناس لم يكونوا معاصرين لنزول هذه الآية.

إن المعاصرين من أهل الكتاب لنزول هذه الآية هم أبناء الذين قتلوا

= لهم وتعاظما على الحق واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم. إلا لكونهم دعوهم إلى الحق: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبى ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس» (١).

وروى ابن أبى حاتم بسنده: عن أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية. ثم قال رسول الله ﷺ: «يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة، فقام مائة وسبعون رجلاً من بنى إسرائيل، فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فقتلوهم جميعًا من آخر النهار من ذلك اليوم. فهم الذين ذكر الله عز وجل». وهكذا رواه ابن جرير عن مكحول. وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبى من أول النهار، وأقاموا سوق بقلهم من آخره». رواه أبو حاتم. ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار فى الدنيا، والعذاب المهين فى الآخرة؛ فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: موجع مهين.

[تفسير كثير: ١/ ٣٣٥، ٣٣٦] بتصرف.

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [١٤٧/٩١]

لأنبياء، وربما رأوا أن ما فعله آباؤهم صوابا ،فإن كانوا قد رأوا أن ما فعله الآباء صوابا، فلهم أيضًا البشارة بالعذاب، ولكن لماذا تكون المسألة بشارة، رغم أن البشارة غالبا ما تكون إخبارا بالخير؟ وعملية العذاب الأليم ليست خيرا؟

علينا أن نعرف أنه ساعة نسمع كلمه «أبشر» فإن النفس تستعد لاستقبال خبر يسر، وعندها تستعد النفس بالسرور والانبساط. وعندما يقول الحق: أبشر لعذاب، فالذى يحدث هو انقباض مفاجئ بعد انبساط مؤمل، وتكون المصيبه أشد؛ لأن الحق لو قال المسألة السيئة من أول الأمر بدون أن يقول :«أبشر» ؛لكان وقوع الخبر المؤلم هينا، لكن الحق يريد للخبر أن يقع وقوعا صاعقا، فيقول لهم:أبشروا ثم يأتى الخبر بالعذاب فيكون الابتداء مطمعاً والانتهاء مؤلما؛ وهذا من قبيل السخرية، كقوله تعالى:﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ إنهم يستغيثون فى الآخرة، ويغاثون بالفعل، ولكن بماذا يغيثهم الله ؟ إنه يغيثهم بماء كالمهل يشوى الوجوه،إننا ساعة أن نسمع «يغاثوا» قد نظن أن هناك فرجا قادما، ولكن الذى يأتى هو ماء كالمهل يشوى الوجوه.

وهكذا تكون البشارة بالنسبة لمن قتلوا الأنبياء،أو أبناء هؤلاء القتلة والذين اتبعوهم:﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. وكلمة: «عذاب» هى إيلام؛ والعذاب هو للحى حتى يظل متألما،أما القتل: فهو يزهق النفس الواعية.

وقول الحق: ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يوضحه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦] كأن الله يديم عليهم الحياة ليديم عليهم التعذيب.

ويقول تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢] أى: إن الذين كفروا بآيات الله، وقتلوا النبيين بغير حق، وقتلوا الذين أمروا بالقسط، هؤلاء لهم العذاب الأليم، ويحبط عملهم فى الدنيا والآخرة، و«حبط العمل» أى: لا ثمرة مرجوة من هذا العمل، ومعنى ذلك: أن كل عمل يعمله العاقل، لابد أن يكون لهدف، وأى عمل لا يكون له هدف، يكون كضربة المجنون ليس لها هدف، إن العاقل قبل أن يعمل أى عمل يعرف ما الغاية منه، وما الذى يحققه من النفع؟ وهل هذا النفع الذى سوف يحققه هو خير النفع وأدومه، أم هو أقل من ذلك؟ وعلى ضوء هذه المقاييس يحدد العاقل عمله .

إذن قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ يعنى أن الإنسان قد يعمل عملا ظاهره خير، ولكن باطنه غير ذلك فلا يحسب له أجره لماذا؟ لأن عمل الخير لا يحسب للإنسان إلا إذا كان على هدى رسول الله ﷺ وكانت نيته خالصة لله تعالى(١)؛ لذلك فعمل هؤلاء حابطا فى الدنيا وفى الآخرة؛ إنه حابط بموازين الإيمان؛ لأن العمل يكون حابط إذا لم يصدر من مؤمن يرجو به وجه ربه الأعلى، وبعض الجهال من الناس فى عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازى الجزاء الحسن للكافرين الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية، فتجد الواحد منهم يقول: هل يعقل أحد أن «باسيتر» الذى اكتشف الميكروبات، والعالم الآخر الذى اكتشف الأشعة، وكل هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار؟

---

(١) قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

أخرجه البخارى [١] واللفظ له، ومسلم [١٩٠٧/ ١٥٥].

نسى هؤلاء ومن سار فى ركابهم أن هؤلاء العلماء عملوا فى معاملهم ليقال عملوا، وقد أعطتهم البشرية الكثير، والكثيرجدا، ولم يكن الله فى بالهم ساعة قرروا أن يعملوا. وقد يأتى متنطع ليقول: وما أدراك أن الله لم يكن فى بالهم؟ نقول له: لو كان الله فى بالهم لأسلموا له وشهدوا له بالوحدانية ولرسوله بالرسالة؛ ولو فعلوا لوقع أجرهم على الله، وهؤلاء ينطبق عليهم قول رسول الله ﷺ: فعل ليقال، وقد قيل(١).

هؤلاء أرادوا الدنيا وعملوا لها، فوفاهم الله أجرهم فى الدنيا؛ قال تعالى فى ذلك: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

---

(١) عن سليمان بن يسار. قال: تفرق الناس عن أبى هريرة فقال له ناتل أهل الشام(١) أيها الشيخ! حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل، استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء. فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأُتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت. ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم. وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل. ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار. ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله. فأتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ولكنك فعلت؛ ليقال هو جواد. فقد قيل. ثم أُمر به فسُحب على وجهه. ثم أُلقى فى النار». [أخرجه مسلم [١٩٠٥]

---

(١) ناتل أهل الشام: هو بالنون فى أوله وبعد الألف تاء مثناة فوق، وهو ناتل بن قيس الحزامى الشامى من أهل فلسطين، وهو تابعى، وكان أبوه صحابياً، وكان ناتل كبير قومه. [شرح النووى على مسلم: ٧/ ٥٩]

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢] عندما نتأمل قول الحق: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ نجد أن الحق قال إنه كتب على بنى إسرائيل مما جاء بهذه الآية قانوناً واضحاً، إن معنى كلمة: ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ هو سبب، وأجل فى اللغة: أجل شرا يأجله أجلا: أى جنى جناية [١]، أى: من جرَّاء ذلك أو من هذه الجناية شرعنا هذا التشريع ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ .

إذن.. فساعة تسمع ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ فاعرف أنها تعنى: بسبب ذلك، أو بجريرة ذلك، أو بهذه الجناية كان ذلك. ولكن هل ذلك خاص ببنى إسرائيل؟

إن بعض العلماء قال: إن ابنى آدم ليسا من صلبه، ولكنهما من ذريته، وهما من بنى إسرائيل.

ونقول ردا على هؤلاء العلماء: من هو إسرائيل أولا الذى نسب إليه أبناء إسرائيل؟ إنه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وإبراهيم يصل إلى نوح بأحد عشر أبا، ويصل نوح إلى شيث، وبعد ذلك يصل إلى آدم، فهل كانت كل هذه السلسلة لا تعرف كيف تدفن الميت إلى أن جاء بنو إسرائيل؟ بالطبع لا.. ذلك أنه ما دام الحق قد قال: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١] فهذا دليل على

(١) قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ أى: من جراء ذلك القاتل وجريرته. وقال الزجاج: أى من جنايته. يقال: أجل الرجل على أهله شرًا يأجل أجْلا: إذا جنى. [تفسير القرطبى: ٦/ ١٤٥]

أنه أول إنسان تم دفنه. ولا داعي لفهم المسـألة علـى أن الإنسان ظل لا يعرف كيف يوارى جثمان الميت المقتول، إلى أن وصلت البشرية حتى بنى إسرائيل.

إذن.. لماذا خص الحق هنا ذكر بنى إسرائيل؟ ونقول: إن سبب ذلك أن بنى إسرائيل اجترأوا لا على قتل النفس فقط، ولكن اجترءُوا على قتل النفس الهادية، وهى النفس التى تحمل رسالة النبوة، ولذلك كان التخصيص؛ لقد قتلوا أنبياءهم. وكان من الممكن أن يحدث القتل، ولكن بنى إسرائيل قتلوا أنبياءهم الذين حملوا لهم المنهج التطبيقى، فالأنبياء يأتون نموذجا تطبيقيًا لمنهج الله؛ حتى يلفتوا الناس إلى أن من الممكن للبشر أن ينفذوا منهج الله، صحيح أن الأنبياء لا يأتون بشرع جديد، ولكنهم يسيروا على شرع من قبلهم؛ لذلك كانوا هم النموذج التطبيقى والسلوكى، فلم إذن يقتلونهم؟!

لأن الشرير الذى لا يقدر على صنع الخير يتولد فى نفسه حقد على فاعل الخير؛ فكأن فاعل الخير كلما فعل خيرا فهو يلدغ الشرير، ولذلك يحاول الشرير أن يزيح فاعل الخير من أمامه، والأنبياء لأنهم القدوة السلوكية بأفعالهم وأقوالهم كأنهم شوكة فى حلق بنى إسرائيل، فقتلوا من قتلوا منهم وعصوا من عصوا، وآذوا من آذوا؛ فبسبب تلك الجريمة البشعة، بل الجرائم، كتب الله على بنى إسرائيل: ﴿**أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**﴾.

إنها إرادة الحق فى تأسيس الوحدة الإيمانية؛ ليجعل من المجتمع الإيمانى رابطةواحدة يوضحها قول رسول الله ﷺ، فيما رواه أبو موسى الأشعرى عنه: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا» (١).

وإياك أن تنظر إلى مجترئ على غيرك بالباطل، وتقف مكتوف الأيدى،

(١) أخرجه البخارى [٤٨١]، ومسلم [٢٥٨٥] واللفظ له.

لماذا؟ لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى[1]. فإياكم أن يقتل إنسان إنسانا آخر ويقف المجتمع الإيمانى موقف العاجز، إنما يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفسًا دون سبب أو أنه أفسد فى الأرض، بل كأنه قتل الناس جميعاً .

وفي مقابل ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

فمن يعتدى على نفس واحدة بريئة، كمن يعتدى على كل الناس، والذى يسعف إنسانا فى مهلكة كأنه أنقذ الناس جميعا. فالذى يقتل بريئا عليه لعنة الله وغضبه، ويعذبه الله، وكأنه قتل الناس أجمعين . فإن نظرنا إليها من ناحية الجزاء، فالجزاء واحد؛ ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد ألا يقبل المجتمع الإيمانى مجترئا بباطل على حق، إلا أن يقف كل المجتمع أمامه، فلا يقف المعتدى عليه بمفرده، فالذى يجرّئ أصحاب الشر هو ترك صاحب الحق المعتدى عليه يواجه بمفرده الباطل وجبروته وظلمه.

وفى المثل: «أكلت يوم أكل الثور الأسود»، فقد كان هناك ثوران: ثور أسود وثور أبيض، وقد احتال أسد على الثور الأبيض، فسمح له بأكل الثور

(١) عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثل المؤمنين فى توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». [أخرجه مسلم [٢٥٨٦/ ٦٦]

الأسود، وجاء الدور على الثور الأبيض، فقال له الأسد هذه المقولة (١) .

كأن الثور التفت يمنةً ويسرةً فلم يجد حوله نصيراً من أقرانه، فعرف أنه يوم فرط فيهم للأسد، ضيعهم وأُكل معهم؛ فلو اجتمع الثوران على الأسد لقتلوه.

وفى الحديث يضرب رسول الله ﷺ المثل للقائم على حدود الله والواقع فيها بقوله: « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم يؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» (٢) .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : لا تنظروا إلى أن نفسا قتلت نفسا بغير حق، ولكن انظروا إليه كأن القاتل قتل الناس جميعاً لماذا؟

لأن الناس جميعا مستوون فى حق الحياة ومادام القاتل قد اجترأ على واحد، فمن الممكن أن يجترئ على الباقين، أو أن يكون فعله أسوة لغيره،

---

(١) قال أبو هلال العسكرى: قولهم: أُكلت يوم أُكل الثور الأسود:
يُضرب مثلا للرجل فَقَدَ ناصره، فلحقه الضيم من عدوه. وهو من أمثال كليلة، وتمثل به علىّ عليه السلام حين أُختلف عليه، وعنى قتل عثمان رضى الله عنه.
وأصله فيما ذكر صاحب كليلة أن ثورين: أسود وأبيض، كانا فى بعض المروج، فكان الأسد إذا قصدهما تعاونا عليه فردَّاه، فخلا يوماً بالأبيض، وقال له: إن خلَّيتنى فأكلت الأسود خلا لك مرعاك، وأعطيك عهداً ألا أطور بك، فخلاه والأسود، فأكله، ثم عطف عليه فافترسه، فقال: «إنما أكلت يوم أكل الثور الأسود».
[جمهرة الأمثال: ١/ ٧٠]

(٢) أخرجه البخارى [٢٤٩٣] عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما.

وما دام قد استن مثل هذه السنة، فإن كل واحد يغضب من آخر يقتله حتى يقتل الناس جميعا، والحديث النبوى يقول: «من سنَّ فى الإسلام سنة حسنة فَعُمِلَ بها بعده، كُتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شىء ومن سنَّ فى الإسلام سنة سيئة فعُمل بها بعده، كُتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزاهم شىء »(١). إنه الاحتياط والدقة والقيد ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ﴾. فلو أن التشريع تشريع بشرى لمرت عليه هذه المسألة، ويمكن أن يستدركها بعد ذلك بشرح أو تعديل، ولكن المشرع الأعلى لا يستدرك: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ .

فكأن من قتل نفسا بنفس أو بفساد فى الأرض لا يقال عنه إنه قتل الناس جميعا، بل أحيا الناس جميعا ، لماذا؟ لأن التجريم لأى فعل معناه: أن يأتى النص بأن هذا الفعل جريمة، وبعد ذلك تكون لهذه الجريمة عقوبة، ولا يمكن أن تأتى لواحد ارتكب فعلا وتقول له: أنا إذن آخذك به وأعاقبك عليه، بغير أن يكون هناك نص بأن هذا العمل جريمة، ولذلك توجد قاعدة شرعية قانونية هى « لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم»، أى أننا نرتب العقوبة بعد أن نحدد الجرائم، وساعة ترتب العقوبة على الجريمة، أو ساعة يرتب تجريم فعل ويذكر بجانبه العقوبة، فما مقصود المشرع من هذا ؟

هل القصد هو عقاب مرتكب الجرم؟ لا، إن القصد هو تفظيع العقاب حتى يراه كل إنسان قبل أن يرتكب الجريمة.

إذن. . فالهدف هو منع الجريمة، ولذلك نجد الحكمة البشرية: القتل أنفى للقتل، وهذا القول لا يمكن أن يرقى إلى قول الحق سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

(١) أخرجه مسلم [١٠١٧/ ١٥].

ذلك أننا يمكن أن نتساءل: أى قتل أنفى للقتل؟إنه ليس القتل الابتدائى، ولكن قتل الاقتصاص؛ وذلك يوضح لنا أن المشرع البشرى قد فاتته اللمحة الفعاله فى منع القتل .

إن القتل الذى ينفى القتل هو قتل القصاص ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

إن كلمة ﴿ أَحْيَاهَا ﴾ لها معنيين:

المعنى الأول: أنــه أبقــى فيــها الروح الإيمانيــه؛ مصداقا لقول الحق: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والمعنى الثانى: هو إبقاؤها حية. الحق سبحانه قد نهانا جميعا عن الفساد فى الأرض، والفساد هو إخراج الصالح عن صالحيته، إن المطلوب منا إيمانيا أن الصالح يجب أن نبقيه صالحا، وإن استطعنا أن نزيده صلاحا فلنفعل، وإن لم نستطع فلا أقل من أن نتركه على صلاحه .

وقد ضربنا المثل قديما بالبئر الذى نأتى منه بالماء، فإننا لا نردمه ولا نلقى فيه قاذورات، وإن استطعنا أن نحيطه بسور حتى لا يُردم فذلك أمر طيب، وإن استطعنا أن نرفع منه الماء إلى خزان عال يوزع الماء على البيوت فهذه زيادة الصلاح.

ولماذا جاء الحق بعقاب للفساد فى الأرض؟ إن لنا أن نعرف أولا مدلول الأرض. إنها المنطقة التى استخلف الحق فيها بنى آدم، وساعة يقول الحق: ﴿ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ ﴾. فمعنى ذلك أن كل فساد عائد على كل مظروف فى الأرض، وأول مظروف فى الأرض هو الإنسان. وعندما يفسد هذا المظروف، فهذا معناه قتل الإنسان. إذن .. لابد أن يكون الفساد شمل أشياء أخرى

فى الكون أو الأجناس الأخرى مثل الحيوانات والنباتات والجمادات؛ فكيف يكون الإفساد فى تلك الكائنات؟

إن الفساد فى هذه الكائنات يكون بإخراجها عن مستحوذها بالملكية، كأن تسطو جماعة على مخازن إنسان آخر، أو أن يأخذ واحد من أرض آخر، أو أن يأخذ بعضا من إنتاج مصنع آخر . . إلخ .

إذن . . فالفساد نوعان : فساد فى الأرض، وهو متعلق بالمظروف فى الأرض ـ المظروف فى الأرض وهو الإنسان ـ والفساد فيه قتله. والنوع الثانى: أن تسبب له اختلالاً فى أمنه النفسى، كالقلق والاضطراب والخوف.

ولنا أن نلحظ أن الحق سبحانه قد امتنَّ على قريش بأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؛ إذن من الفساد تفزيع الناس وترويعهم، وهو قسمان: قسم تفزع فيه من لك عنده ثأر أو بينك وبينه خصومة. والقسم الثانى: أن تفزع قوما ليس بينك وبينهم خصومة، ولم يصنعوا معك شيئا، تلك هى الجريمة، لماذا ؟ لأنه حينما يخرج ليقطع الطريق على الناس، ويخيف كل من يلقاه ويسبب له القلق والرعب والخوف على نفسه وماله ـ والمال قد يكون من الحيوان أو النبات أو العقار ـ فذلك ما يسميه الشرع: حرابة؛ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

إذن . . فالفساد فى الأرض معناه: إخراج الصالح عن صلاحه. والإفساد فى المظروف على الأرض ـ وهو الإنسان ـ إما بقتله أو إهاجته وإشاعة الرعب فى نفسه، أو فى شىء مملوك له من الأشياء التى دونه فى الجنس، مثل الزروع أو النباتات أو الحيوانات، فكأن الفساد فى الأرض أيضا يؤهل

لقتل النفس؛ ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أى أن القتل بغير إفساد فى الأرض هو القتل الذى يستحق العقاب، أما القتل بإفساد فى الأرض فذلك أمر آخر؛ ذلك أن هناك فارقا بين أن يقتل قصاصا أو يقتل حدا من المشرع. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢] والمسرف هو المتجاوز للحد، أى لا يؤخذ قدر تكوينه وموقعه فى الوجود، بل يحاول أن يكون مسرفا ليخرج بذلك عن قدر إمكانياته فى الوجود .

مثال ذلك: رجل يحاول أن يسطو على حق غيره فى الوجود ؛ كقُطّاع الطريق أو النهابين يأخذون جهد غيرهم، وتعودوا أن يعيشوا كذلك بدون تعب.

وأيضا يحيا الإنسان الذى يملك مالا فى رعب . وعندما يجد أن ماله زائد يزداد حرصا عليه ، عندئذ لا يرغب فى أن يتحرك فى الحياة حركة زائدة، ذلك أنه لا يشعر بالأمن على حاجته ،وهنا يصبح عاجزا عن التحرك فيما يريده ، بعد أن كان يتحرك بحرية وانطلاق .

إذن . . من رحمة الله أن فتح أمام البشر أبواب الأمل فى التملك، مادام الإنسان يتملك بطريق مشروع ، ولنضرب هذا المثال.

إن الرجل المرابى مثلا عندما يقرض إنسانا مائه جنيه، فإنه يأخذهم منه بعد فترة بزيادة عما أعطاه. إذن فالمقترض محتاج،والمرابى عنده مائه جنيه زيادة، فكيف يطلب تلك الزيادة ممن لا يجد أن يُعطِى أكثر مما أخذ؟! ذلك هو عين الإسراف، لقد كان يكفى المقرض أن يأخذ حقه فقط.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ

﴿يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾،

ما هى الحرب إذن ؟ أول شىء فى الحرب هو الاستيلاء ، فمعناه أن قوما يحاربون قوما غيرهم. إذن . . فكيف يحارب الإنسان الله وهو غيب؟ أول حرب لله هى محاولة الاستيلاء على سلطانه. . كيف؟ إن سلطان الله هو تشريعه، فإن حاولت أيها الإنسان أن تشرع لنفسك أو لغيرك من دون منهج الله، فأنت تريد أن تستولى على حق الله فى التشريع. وهذه أول حرب لله. إذن. .فالذين يجحدون حكم الله ويستبدلونه بقوانين من عند أنفسهم ظناً منهم أن شرع الله لايصلح لهذا العصر فى التشريع والحكم، وهذا مخالف لإسلام ورسالته، فإن الله هو المطاع وحده وهو المشرع وحده؛ لأن التشريع كما قلنا قانون صيانة للصنعة.

إن الذى يضع قواعد الصيانة هو مبدعها وصانعها، وهل رأيتم صنعة وضعت قانون صيانتها؟! إن الذى يضع قانون صيانة كل صنعة هو المهندس أو الصانع الذى صنعها، فهل ادعى أحد أنه خلق الإنسان؟ بالطبع لم يدع أحد ذلك. إذن. . لماذا لا تأخذ من خالق الإنسان القواعد التى تصون هـذا الإنسـان؟ إن أول افتئات يفعلـه النـاس أنهم يشرعون لأنفسهم.

إننا فى حياتنا العادية لانذهب إلى الجزار ليضع لنا قانون صيانة التليفزيون، إن قانون صيانة الإنسان ينشأه خالق الإنسان، فإذا ماجاء شخص وأراد أن يضع للإنسان الذى هو منه قانون صيانة فنقول له: إنك تستولى على حق الله، وهذه أول حرب لله.

إذن. . وكيف يحاربون الرسول؟ إن الرسول له وضعان، فالله غيب لكن الرسول كان مشهدا من مشاهدنا فى يوم من الأيام، وقد حورب بالسيف، إذن. . عرفنا أن الحرب مع الله غيب وهى محاولة الاستيلاء على خاصيته فى التشريع وخاصيته فى المنهج، أما الرسول ﷺ فقد كان

له أمران؛ أمر هو مشهد فيه وكثيرا ما حاربوه بالسيف، وعندما انتقل إلى جوار ربه أصبحت حربه كحرب الله. فنأخذ سلطته فى التشريع، وهى السلطة الثانية، ونقول لها: «لا» نحن سنشرع لأنفسنا، ولا ضرورة لهذا الرسول، أو أن يقول نظام ما: «سنأخذ من كلام الله فقط»، وذلك ماينتشر فـى بعـض البلدان [1]، ونقـول لكـل واحـد فيـهم: أتؤدى الصــلاة؟ فيقول: نعم.

نسأله : كم ركعه صليت المغرب؟ فيجيب : ثلاث ركعات .

نسأله : من أين أتيت بذلك ؟ ومن أين عرفت أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وهى لم تذكر فى القرآن الكريم ؟ هنا يصمت.

نسأله: كم تخرج الزكاة وبأى حساب تحسبها؟

فيقول : أخرج الزكاة بقدر اثنين ونصف فى المائة.

نقول له : كيف إذن عرفت ذلك ، وأيضا كيف عرفت الحج .

إذن. . فللرسول ﷺ مهمة، فإن حارب أحد الله فهو يحارب الرسول، وحرب الرسول تكون بتجاهل سنته وعدم الأخذ بها، ومن المعلوم أن السنة: قول، أو فعل، أو إقرار.

ومثال ذلك: هؤلاء الذين يقولون إن أحاديث رسول الله كثيرة، فمن أين لنا أن نحصيها ثم إن فيها الضعيف والموضوع وما إلى ذلك.

هنا نقول لهم : لقد كانت مدة رسالة رسول الله ثلاثة وعشرين عاما ، وكل كلمة خرجت من فمه الشريف حديث، وكلامه كله تشريع ، وكل

---

(١)عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «الا هل عسى رجل يبلغه الحديث عنى وهو متكىء على أريكته، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله». أخرجه الترمذى [٢٦٦٤] واللفظ له، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجة [١٢]. وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢١٤٦].

فعله سنة ، وكل كلام سمعه وأقره عن غيره حديث ، وكل فعل فعله غيره أمامه وأقره ولم يعترض عليه فهو سنة. ولقد وصلتنا هذه الأحاديث مصفاة من كل ماهو غريب عنها ودس فيها، ولقد قيض الله لسنة نبيه ﷺ رجال نافحوا عنها ونقلوها من صادق إلى صادق حتى وصلت بين أيدينا، ومن المعلوم أن علم الجرح والتعديل عند المسلمين لايوجد له نظير فى الأمم كلها.

ولقد حذر رسول الله ﷺ من الكذب عليه أو نسبة كلام له لم يقله، قال ﷺ: «من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» (١) ؛ وبين أيدينا كتب السنة النبوية المطهرة وعلى رأسها صحيحى الإمامين الجليلين البخارى ومسلم اللذين هما أصح كتابين بعد كتاب الله تعالى، وغيرهما من كتب السنة النبوية؛ منها المطبوع، ومنها المخطوط. نسأل الله تعالى أن يقيض لها من ينشرها على المسلمين ليعم النفع بها. إنه سبحانه ولى ذلك والقادر عليه.

إن الاجتراءات تبدأ على الأئمة والعلماء رضى الله عنهم ، ثم يجترئون على النبى ﷺ ،ثم يأتون على الدين كله.

إن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ أى: يخرجون الصالح بذاته عن صلاحه ليكون فاسداً ، وعرفنا كيفية ذلك: ﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ ؛ إن كل ذلك على التفعيل، أى الشدة والتقوية؛ وذلك حتى يقف منهم المجتمع الإيمانى وهو القائم على هذا الأمر، فكأن التقتيل يقوم به كل واحد من المجتمع، ولكن

(١) أخرجه البخارى [١٠٧]، ومسلم [٣] عن الزبير بن العوام، وأبى هريرة رضى الله عنهما. وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تكذبوا علىَّ فإنه من يكذب علىَّ يَلج النار». أخرجه مسلم [١/١].

السلطة الشرعية قامت عن المجتمع فى هـذا الأمر، كمـا يقال: أن النائب العام نائب عن الشعب فى أن يرفع الدعوى .

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ﴾ ، ﴿ أَوْ ﴾ هنـا تخييرية، وفيهـا -كما يقـال- طيّ ونشـر. مـا الطى وما النشر؟ (١) مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قلبى وجنتى واللسان وخالقى

لقد ذكر متعددا ، ولكن الأحكام غير مذكورة ،هذا هو الطى، لقد جمع المبتدءات دون أن يذكر لكل واحد خبره ، ثم جاء بالأحكام على وفق المحكوم عليه، فقال :

راض وباك وشاكر وغفور

ولنقرأ البيت كاملا:

قلبى وجنتى واللسان وخالقى راض وباك وشاكر وغفور

---

(١) قال الأستاذ أحمد الهاشمى: الطى والنشر أن يذكر متعدد، ثم يذكر ما لكل من أفراده شائعاً من غير تعيين، اعتماداً على تصرف السامع فى تمييز ما لكل واحد منها، ورده إلى ما هو له وهو نوعان:

(أ) إما أن يكون النشر فيه على ترتيب الطى، نحو قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ [القصص: ٧٣] فقد جمع بين الليل والنهار، ثم ذكر السكون لليل، وابتغاء الرزق للنهار، على الترتيب.

(ب) وإما أن يكون النشر على خلاف ترتيب الطى نحو: ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾

ذكر ابتغاء الفضل للثانى، وعلم الحساب للأول، على خلاف الترتيب.

[جواهر البلاغة: ٣٧٦، ٣٧٧]

الحق يقول : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] لقد جاء بالطى ثم جاء بالنشر. والفساد - كما نعلم- له صور متعددة: فالفساد فى الإنسان قد يعنى قتله، أو يقتله ويأخذ ماله، أو يأخذ ماله ولا يقتله، أو يثير فى نفسه الرعب ولا يأخذ ماله أو يقتله، فكأن كلمة الفساد طوى فيها ألوان الفساد: نفس تقتل، مال يؤخذ دون نفس تقتل، تخويف وتفزيع، أو جمع بين القتل والأخذ.

إن الحق سبحانه وتعالى جمع فى كلمة: «الفساد فى الأرض» الإنسان قتلا وما يحويه من ملك له ومال سلبا ونهبا، وإما أن ينفرد السلب والنهب دون القتل، وإما أن يقتصر الفساد على مجرد الإضافة والترويع والإفزاع.

فكلمة فساد إذن كلمة مجملة، وقلنا : إن الله قد طوى فيها كل ألوان الفساد. ثم جاء فى العقوبات المشروعة أو الحدود التى شرعها الله ، ففصَّل العقوبات تفصيلا يتناسب مع الفساد، وقلنا: إن هذه المسألة اسمها طريقة الطى والنشر، وعلى هذه الطريقة وقفنا عند قوله سبحانه: ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ والنفى: معناه الطرد والإبعاد، والطرد لا يتأتى إلا لثابت مستقر، والإبعاد لا يتأتى إلا لمتمكن. إذن . . فقبل أن ينفى لابد أن يكون له ثبوت وتمكن فى موضع ما، هذا الثبوت والتمكن فى الموضع هو ما نسميه اصطلاحا: السكن: أو الموطن ، أو المكان الذى يقيم فيه الإنسان؛ لأنه ثابت فيه، ومعنى ثابت فيه: أى له حركة فى دائرته، إلا أنه يأوى فيه إلى مكان مستقر ثابت، ولذلك سمى سكن، أى يسكن فيه من بعد تحركه فى مجالاته المختلفة.

ومعنى النفى على هذا هو إخراجه من مسكنه، ومن وطنه الذى اتخذه موطنا له، وكان مجالا للإفساد فيه، ولكن إلى أى مكان نخرج إليه هذا الذى نحكم عليه بالنفى؟

أنت إن أخرجته من المكان الذى أفسد فيه، وذهبت به إلى مكان آخر، فقد يشيع فساده ؛لا إن النفى لا يتيح له ذلك الإفساد؛ ذلك أن التوطن الأول يجعل له إلْفًا بجغرافية المكان،إلْفًا بمن يخيفهم، فهو يعرف سلوك جيرانه، ويعرف كيف يخيف ذلك، وكيف يغتصب بضاعة آخر وهكذا، ولكنه إن خرج إلى مكان غير مستوطن فيه فهو يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف على جغرافية المكان، ومواقع الناس فيه، وأين تقع مواطن الضعف فيهم،وعلى ذلك يكون النفى هو منع لإفساد الفاسد .

والحق سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾، فإننا نعرف أن كلمة الأرض لها مدلول، فنحن نسمى الأرض الكرة الأرضية التى نحيا عليها، وكانوا قديما يفهمونها على أنها اليابسة وما فيها من مياه، وبعد أن عرفنا أن جوَّ الأرض منها، صار جوُّ الأرض جزءا من الأرض، ولذلك قلنا فى المقدسات المكانية: إن كل جوٍ يأخذ التقديس من مكانه؛ فجوُّ الكعبة كعبة، بدليل أن الذى يصلى فى الدور الثالث من الحرم فهو يتجه إلى الكعبة وهو يصلى فى جو الكعبة، وهناك إنسان يستقل طائرة ويرغب فى إقامة الصلاة، فهو يتجه إلى الكعبة، وعلى ذلك عندما ازدحم الحجيج وصار المسعى لا يتسع لكل الحجيج؛ أقاموا دوراً ثانياً حتى يسعى الناس فيه، إذن. . المسعى ليس هو المكان المحدد فقط؛ ولكن جوه أيضا له قدسية ،، فإن صنعنا أكثر من طابق فهى تصلح أيضا كمسعى .

إذن. . فجو الأرض ينطبق عليه ما ينطبق على الأرض؛ ولذلك كانوا يحرمون قبل أن يوجد طيارون مسلمون أن يحوم فى جو الحرم طيار غير مسلم؛ لأن الطيار غير المسلم محرم عليه أن يدخل الكعبة، وما دام هناك إنسان ممنوع من دخول الكعبة فهو أيضاً ممنوع من الطيران فى جو الكعبة، إذن فجو المكان يأخذ قدسية المكان أو حكمه، إذن فالجو من الأرض.

ونحن نعرف أن القرآن كلام الله خالق الكون. إذن لا يوجد تضارب

بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية، وإنما يوجد التضارب من أحد أمرين: إما أن تعتبر الحقيقة الكونية أمراً مسلماً به، وهى فى طور النظرية ولم تصبح حقيقة، أو أن تعتبر مفهومًا ما هــو حقيقــة قرآنية، رغم أن هذا اللون من الفهــم ليس حقيقة قرآنية.

أمـا إذا كـان الأمـر هــو حـقيقة كونية بحـق، وحقيقة قرآنية بحق. فلا تضارب على الإطلاق.

ودليل ذلك على سبيل المثال، حين يقول الحق سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، يقول بعض ذوى الفهم السقيم إن العلم الحديث يعرف الذى فى الرحم: ذكرًا كان أم أنثى، ونقول لمثل هذا القائل: نحن لا نناقش ذلك؛ لأنها حقيقة كونية، وهى لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية، ولكننا نسأل: «متى يعرف العلماء ذلك»؟ إنهم لا يعرفون ذلك الأمر إلا بعد مضى مدة زمينة، ولكن الحق يعرف ذلك حتى قبل مرور أى مدة زمنية .

ثم من قال: إن معنى قولــه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ ذكــر أو أنثى؟ أمدلولها شيء واحد؟ إن مدلولها عام، فلن يعرف أحد مثلاً أن ما فى الرحم سيكون من بعد إنساناً طويلاً أم قصيراً، ذكياً أم غبياً؛ شقياً أم سعيداً، طويل العمر أم قصير العمر، حليماً أم غضوباً، غنياً أم فقيراً.

إذن.. لماذا نحصر ما فى الأرحام فى مسألة الذكر والأنثى فقط ؟ إنه سبحانه يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون، يعلم ذلك من قبل أن يُخلق العالم وأدواته ومعمله(١).

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الله وكل فى الرحم ملكاً فيقول: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة. فإذا أراد أن يخلقها قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ يا رب أشقى أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه». أخرجه البخارى [٣٣٣٣] واللفظ له، ومسلم [٢٦٤٦].

إذن . . فالحقيقة القرآنية لم تصطدم بأى حقيقة كونية، لكن الصدام يحدث عندما نفهم فهما خطأ أن الحقيقة القرآنية فى قوله الحق: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ أن هذا القول مقصود به العلم بالذكر والأنثى فقط.

مثال آخر: الحق يقول: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [الحجر: ١٩] ويخطئ البعض الفهم عن الله، فيظن أن المقصود هو أن يقول الحق: إن الأرض بساط أمام الإنسان، وثبت للبشر أن الأرض كروية. لقد ثبتت تلك الحقيقة الكونيه أولا بالأدلة: برحلات «ماجلان»، وبالقواعد الخاصة: بوضع الأعمدة وظهور أعالى الأشياء قبل أسافلها وغير ذلك، وصارت فى عصرنا حيثية مشاهدة من الأقمار الصناعية.

إذن . . هذه الحقيقة الكونية ثابتة لاشيء فيها، وكان الخطأ فى فهم مدلول الحقيقة القرآنيه الخاصة بـ ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ هى أننا كلما وقفنا فى مكان نجد أرضاً ، أى: إن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة، وكلما سار الإنسان لا يجد إلا الأرض؟!

إذن . . فالحق قد مد الأرض أمام الإنسان، بحيث إذا سار الإنسان فى أى اتجاه يجد أرضاً، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية.

إذن . . فالتضارب إنما ينشأ من فهم الحقيقة الكونية وهى ليست كذلك، أو فهم حقيقة قرآنية على نحو خاطئ .

فالحقيقة القرآنية والحقيقة الكونية لا تتعارضان ، فالقائل هو الخالق عز وجل؛ ولهذا عرفنا متأخراً أن الجو من الأرض، وأن الغلاف الجوى يحيط بالأرض، ونحن كنا نقول: سرنا على الأرض، ولكن الحق قال وهو العليم: ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام ١١] إنه سبحانه قد علم أزلاً أن الجو جزء من الأرض، فمهما سار الإنسان على الأرض فإن فوقه الغلاف الجوى.

إذن. . فالإنسان إنما يمشى فى الأرض وليس على الأرض، ولكن إن وصل الإنسان الغلاف الجوى فإنه بذلك يسير فوق الأرض.

ونعود إلى قول الحق: ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ﴾ وقد عرفنا أن النفى هو الطرد والإبعاد، فأى أرض ينفون منها؟ وإلى أى أرض؟ ولا يكون الطرد إلا لمستقر وكذا الإبعاد لايكون إلا لثابت، وحتى فى اللغة نحن نعرف ما يسمى النفى والإثبات، وكل ذلك مأخوذ من شىء حسى، فنحن عندما نأخذ الماء من البئر نُنْزِل إلى قاع البئر دلواً ،كل دلو ينزل إلى البئر له رشاء، وهو الحبل الذى ينزل بواسطته الدلو، وساعة نُنزل الدلو إلى البئر ونخرجه من البئر، فالدلو يكون قد أخذ من الماء على قدر سعته وحجمه، ولحظة نُخْرِج الدلو من البئر فهل لدينا حركة ثابتة بحيث نستطيع المحافظة على ثبات الماء إلى تمام حافة الدلو ؟

بالطبع هذا أمر غير ممكن؛ ذلك أن قليلا من الماء يتساقط من حواف الدلو، وهذا الماء المتساقط يسمى «النفى»، ذلك أننا لا نستطيع استخراج الدلو وهو ملآن تماما بحركة ثابتة مستقرة، بحيث نحافظ على ثبات الماء.

ومن «النفى» تؤخذ معانٍ كثيرة فهناك «النِفَاية» وهى الشىء الزائد، ومقابل النفاية الوقاية.

إذن. . فكيف يكون النفى من الأرض، هل نأخذ الأرض بمفهومها العام أم بمعناها الخاص؟ أى الأرض التى حدث فيها قطع الطريق؟ إن أخذناها بالمعنى الخاص فإن النفى يكون لأى أرض أخرى بمعناها الخاص، أى الأرض التى حدث فيها قطع الطريق. أما إذا أخذنا الأرض بالمعنى العام، فكيف يكون النفى ؟

إن الحق سبحانه وتعالى قال فى موضع آخر من القرآن: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ [الإسراء: ١٠٤] وكيف يقول الحق لهم ذلك وبأى معنى؟ إنهم - بلا جدال- يسكنون فى الأرض، ونقول: إن

هذا القول جاء لمعنى مقصود، إننا لا نذكر السكن إلا ويكون المقصود تحييز مكان من الأرض، كأن يقول قائل: أسكن القاهرة، أو أسكن الإسكندرية، أو أسكن أسوان؛ إنه تحديد لموقع من الأرض للاستقرار، فكيف يكون السكن فى كل الأرض كأن الله يريد: سنقطعهم فى الأرض تقطيعاً، بحيث لا يستقرون فى مكان أبدا؛ وذلك ليصدق قول الله سبحانه: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا ﴾ [الأعراف: ١٦٨] فليس لهم وطن خاص، ولكن يجب أن يُبَعْثَروا فى كل الأرض، وهذا هو الواقع الذى حدث فى الكون، هل وُجِدَ لبنى إسرائيل استقرار فى أى وطن ؟ لا . . وحتى الوطن الذى أقاموه كان تنفيذاً لوعد «بلفور»، وحتى هذه لم يتركها الله، بل أعطى الحقُّ وعدَه للمؤمنين أن يدخلوا المسجد، إذا ما أحسنوا العمل لاسترداده .

ونحن نرى أن اليهود بطبيعتهم ما زالوا شتاتاً فى أنحاء الأرض، مازال لهم فى كل وطن حى خاص بهم، وتحتفظ كل جماعة منهم فى أى بلد بذاتيتهم، ولا يذوبون فى غيرهم.

ويقول تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء: ١٠٤] إن الحق سبحانه يجئ بهم لفيفاً أى مجتمعين. لماذا؟؛ لأن الأمة المؤمنة حين يأذن الله لها فى هزيمة هؤلاء، فلابد أن يكونوا مجتمعين، وكأن الله أراد أن يكون هذا الوطن القومى الذى يتجمعون فيه مقبرة جماعية لهم.

إذن . . فنحن لا نحزن لأنه قد صار لهم وطن؛ لأن هذا الأمر هو الذى جاء بهم لفيفا.

ونعود إلى حديثنا وكيف يكون النفى من الأرض نقول: حين يريد الله تحييز مكان فهو يقول على سبيل المثال: ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾

إذن؛ فقد نفى غيرها، وهو يقول أيضًا: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف: ١١٠] وكان المقصود بها مصر، فإن أخذنا الأرض بالمعنى العام فحكمها حكم ﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ ونعرف أن النفى هو صورة من صور العقوبات على فساد فى الأرض.

والإفساد فى الأرض ينقسم إلى أربعة أقسام: قتل، قتل وأخذ مال، وأخذ مال فقط ، وترويع .

والرسول ﷺ قد زاد لنا شيئا وفعله فى سيرته، وقد جاء لنا بأمر جديد فى أمر الإفساد ، وكان يجب أن يتنبه العلماء لذلك، فأول نفى حصل فى الإسلام هو الذى فعله رسول الله ﷺ ، فقد نفى الحكم بن أبى العاص من المدينة إلى الطائف لماذا؟ لأن الحكم كان يقلد مشية النبى باستهزاء، وكان النبى ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤًا كأنما يتحدر من صبب، فقد كانت مشية النبى مشية خاصة .

وعلم رسول الله ﷺ أن الحكم يقلد مشيته فى استهزاء، والتفت النبى فجأة، فوجد الحكم يقلده فى مشيته، فنفاه من المدينة إلى الطائف طوال حياة رسول الله ﷺ ، فلما جاءت خلافة أبى بكر الصديق ذهب أهل الحكم إلى أبى بكر فقال: ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ، ثم فى خلافة عمر ذهبوا إليه، فلم يوافق، وعندما جاءت خلافه عثمان وكان - رضى الله عنه - حييا خجولا، فقال: لقد أخذت كلمة من رسول الله ﷺ تحمل شبهة الإفراج عنه، وأفرج عنه عثمان بن عفان، وعندما عاش الحكم فى الطائف عاش يربى بعض شويهات وبعض غنيمات، وكان يرعاها عند جبيلات فى الطائف، وهذه المسألة كان لها آثار من بعد ذلك، فأنتم تعلمون أن معاوية رضى الله عنه أنجب يزيد الذى تولى الخلافة من بعده، وانتقلت الخلافة بعد يزيد لآل مروان بن الحكم، وكان

خالد بن يزيد الذى ترك الخلافة لمروان، عالما كبيرا فى الكيمياء، وله أخ اسمه عبد الله، وكـان لعبد الله جياد يتسابق بها، وكان لولد من أولاد عبد الملك بن مروان جياد أيضاً، وجرت جياد عبد الله مع جيـاد ابن عبد الملك فى مضمار سباق، فلما جاءت خيل عبد الله لتسبق حدث خلاف بين عبد الله وبين ابن عبد الملك، فنهر ابن عبد الملك عبدَ الله، فذهب عبد الله واشتكى لأخيه خالد ،فذهب خالد لعبد الملك بن مروان، وقال له: لقد حدث من ابنك لأخى كذا وكذا، وكان عبد الملك واضحاً فصيحاً فى العرب، وما جَرَّبوا عليه لحناً أبداً ، وكان يربى أولاده على ألا يلحنوا فى اللغة، وكان له ولد اسمه الوليد غير قادر على استيعاب النطق الصحيح للُّغة دون لحن،كان الوليد لا يفهم النحو، فلما دخل خالد إلى عبد الملك أراد أن يجد فيه شيئا يعيبه به،قال عبد الملك لخالد:أتكلمنى فى عبد الله، وقد دخل على آنفا فلم يخل لسانه من اللحن ؟ فماذا قال خالد؟

قال : والله يا عبد الملك لقد أعجبتنى فصاحة الوليد .

فقال عبد الملك:إن يكن الوليد، فإن أخاه سليمان لا يلحن. فقال خالد: وإن كان عبد الله يلحن، فإن أخاه خالدًا لا يلحن.فقال الولد: اسكت يا هذا، فلست فى العير ولا فى النفير.

وأظن أن قصة العير والنفير معروفة، فالعير هى التى كانت مع أبى سفيان وعليها البضائع من الشام، وتَعَرَّض لها رسول الله ﷺ، ثم نجا بها أبو سفيان، والنفير هم الجماعة التى استنفرها أبو سفيان؛ لأنه خاف من المسلمين، فاستنفرهم من مكة،وكانت زعامتهم لعتبة.فالعير كانت زعامته لأبى سفيان،والنفير كانت زعامته لعتبة بن ربيعة،وكان عتبة هو جد خالد لأمه،وأبو سفيان هو جده لأبيه.

فقال خالد: ومن أولى بالعير والنفير منى؟ جدى أبو سفيان صاحب

العير، وجدى عتبة صاحب النفير، ولكن لو قلت: غنيمات، وشويهات وجبيلات، وذكرت الطائف، ورحم الله عثمان - لكان أولى. وأسكته.

إذن.. فالنفى كان أول عقاب أنزله الرسول ﷺ، فهل كان ما فعله الحكم يعتبر فساداً؟ ونقول: إن كل فساد إنما يترتب على الفساد الذى يمس رسول الله ﷺ، لقد كان يستهزئ بمشية رسول الله ﷺ، وقد يقول مُشَرِّع ما: إن السجن يقوم مقام النفى، ولا يجب أن ننظر إلى السجن الآن؛ حيث فيه الكثير من الرفاهية.

فقد كان السجن قديماً أكثر قسوة، والسجن هدفه الإبعاد بهدف تخفيف شرور المفسد، ولكن السجن لا يبعده عن مستقره ووطنه، وذلك أمر متروك للحاكم يفعله كيف يشاء، وخاصة إذا لم تكن هناك أراض إسلامية متعددة، بحيث يستطيع أن ينفيه من أرض، ثم ينفيه من أرض أخرى؛ ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ﴾.

ويتبع الحق هذا بقوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إن هذا القول لاحق لعقاب محدد للمفسدين فى الأرض، المحاربين لله ورسوله، وهو ﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ﴾.

والعقوبات لهؤلاء خزى، وكلمة خزى ترد فى اللغة بمعنيين: مرة نجد كلمة خزى بمعنى «خزيان»، ومرة بمعنى «استحيا»، والمعنيان يلتقيان، فما دام قد افتضح أمر عبد؛ فهو يستحيى مما فعل، وتلك الأفعال خزى، كالذى قطع طريقاً على أناس آمنين؛ ولذلك نقول لمثل صاحب هذا الفعل: إن قوتك ليست ذاتية؛ إنها قوة اختلاسية؛ فلو كانت قوتك ذاتية لاستطعت أن تأتى بها لحظة أن يأخذوك؛ ليقتلوك، أو يصلبوك، أو أن يقطعوا يدك ورجلك.

إذن . . أنت اجترأت على العُزَّل الذين ليست لهم استطاعة الدفاع عن أنفسهم، وفى ذلك العقاب خزى لك، وبعد ذلك أنت ترى من كانوا يخافونك ، وأنت تنال العقاب، وفى ذلك خزى كمقدمات فى الدنيا، أما فى الآخرة فلك عذاب عظيم؛ ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

فكل جزاء فى الدنيا إنما يأتى على قدر طاقات البشر فى العقاب، ولكن ماذا إذا وكلوا إلى قوة الجبار سبحانه؟ ها هى عدالة الحق تتجلى، فهو سبحانه وتعالى يفسح المجال للمسرفين على أنفسهم أولاً بالتوبة، لماذا؟

لأن الله الرحيم بعباده لو أخذ كل إنسان بجريرة فَعَلَها، أو عاقب كل صاحب ذنب بذنبه؛ لاستشرى فى الأرض فسادُ كل من ارتكب ذنباً، ولكن الله سبحانه ـ رحمة منه بعباده ـ فتح باب التوبة لمن أسرف على نفسه؛ ليتوب. لكن إن لم توجد التوبة لاستشرى الفساد فى الأرض.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]

إنهم يدَّعون الإيمان بالتوراة، والتوراة تدعو للإيمان بالقرآن وبرسول الله محمدا ﷺ، وفى ذات الوقت يعلنون الكفر بالقرآن؛ وبمحمد الرسول، المرسل من عند الله إنه الكذب والعنت؛ فلا يوجد فى التوراة ما يتناقض مع القرآن.

ويعجب الله من قولهم وفعلهم فيقول لهم: إذا كنتم مؤمنين حقاً بالتوراة فلم قتلتم الرسل التى جاءت تنبهكم إلى منهج التوراة؟ إذن هم

ليسوا مؤمنين بالتوراة؛ ولا بالمنهج، إنما يتخذون الهوى عقيدة ويتسترون وراء الإيمان، ثم باسم ذلك يقتلون الأنبياء، والحق يقول هنا: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ وذلك ليُطمئن المؤمنين أن بنى إسرائيل قد فقدوا القدرة على قتل الأنبياء ،إن رسول الله معصوم ومحروس من قبل الحق .

لقد حاولوا قتله بالرمى بالحجارة، وحاولوا دس السم له، لكن الحق يعلم رسوله أنه فى حمايته، وكأن كلمة ﴿مِن قَبْلُ﴾ قد جاءت هنا لتفسد عليهم المؤامرات التى أرادوها للتخلص من رسول الله، ولتثبت قلب الرسول والصحابة فى مواجهتهم، ويصفعهم الحق بالآيات البينات التى تثبت استمراءهم للكفر، وتوضح أن إيمانهم منسوخ بسلوكهم، كما قال الله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)﴾ [البقرة٩٢:٩٣] لقد جاءهم موسى بالبينات بعد أن تجاوز بهم البحر، واتخذوا العجل إلهًا

إذن.. لقد نقضوا الإيمان من قبل مع موسى، ثم عادوا مرة أخرى يتشككون، ورفع الله فوقهم الجبل، وأحيا أمامهم الميت، وأخرج لهم الماء من الصخر ، ورزقهم المن والسلوى؛ كل هذه آيات حسية، ولكن إيمانهم ظل بلا تطبيق لمنهج الله، لقد أرسل الله لهم الرسل تباعاً؛ فقتلوا فريقاً وكذبوا فريقاً، وظلموا أنفسهم قمة الظلم عندما اتخذوا العجل إلهاً، وظلموا أنفسهم ظلماً فى القمة أيضاً عندما قتلوا الأنبياء، ويذكرهم الحق بالميثاق الذى أخذه عليهم بعد أن رفع عليهم جبل الطور، وأمرهم أن يطبقوا التوراة ،لكنهم بعد أن آمنوا خشية أن يقع الجبل فوقهم، عادوا إلى الاستكبار، وابتعدوا عن منهج الله.

❋ ويفرون من الموت ❋

وكان من دعواهم زعمهم أن الله اختصهم بالجنة فى الآخرة، وأنها لهم وحدهم، فأنزل الله على رسوله ﷺ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤] ، وكان ذلك ردًا على قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فقال لهم الرسول ﷺ بلاغا عن الله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) .

لأنه لو كانت لهم الجنة بزعمهم، فما الذى يشقيهم بتعب الحياة ؟ إذن فليتعجلوا الموت الذى هو طريقهم إلى الدار الآخرة التى يظنون أنها لهم خالصة؛ ذلك أن الذى يحب شيئا ويعتقد أن هذا الشيء له وحده دون الناس، فلابد أن يعمل ليصل إليه؛ لذلك يدعوهم رسوله ﷺ بلاغاً عن

---

(١) قال السمرقندى: قال الزجاج: فى هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة رسالته ﷺ؛ لأنه قال لهم: فتمنوا الموت وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً، فلم يتمنه واحد منهم. وفى هذه الآية دليل أن «لن» لا تدل على التأبيد؛ لأنهم يتمنون الموت فى الآخرة، خلافاً لقول المعتزلة فى قولهم: ﴿لَن تَرَانِي﴾ ويقال: إن قوله: ﴿لَن﴾ إنما يقع على الحياة الدنيا خاصة، ولم يقع على الآخرة؛ لأنهم يتمنون الموت فى النار إذا كانوا فى جهنم، ولو أنهم سألوا الموت فى الدنيا ولم يموتوا، وكان فى ذلك تكذيباً لقول النبى ﷺ، وكان فى ذلك أيضاً ذهاب معجزته. فلما لم يتمنوا الموت ثبت بذلك عندهم أنه رسول الله وظهر عندهم معجزته، وظهر أن الأمر كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو عليم بهم وبغيرهم من الظالمين، وإنما الفائدة ههنا أنه عليم بمجازاتهم. [بحر العلوم: ١/ ١٣٨، ١٣٩]

رب العزة سبحانه: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، لكنهم لم يتمنونه أبدا، لم نجد واحدا منهم يتجرأ ويقول: ليتنا نموت، ولكنهم أحرص الناس على الحياة، أى حياة، ولذلك صدق عليهم قول الحق سبحانه ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾. ولكن لماذا لايتمنوه أبداً؟

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥] فهم يعرفون أن الجنة لا تكون لمن ارتكب المعاصى وخرج عن منهج الله، إنما الجنة لمن أطاع الله واتبع منهجه.

إن واحدا منهم لم يمتلك شجاعة طلب الموت أو حتى تمنيه، وفى المقابل تجد عمار بن ياسر فى حربه فى صفين يقول: «غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه»، إنه فرح بالموت، ويرى الجنة رأى العين، إنه واثق من النتيجة التى بشره بها رسول الله ﷺ.

والإمام على رضى الله عنه يدخل معركة صفين وهو يرتدى غلالة ـ أى ثوبا رقيقا ـ لا ثوبا من الجلد ليرد به السيوف، فيقول ابنه الحسن رضى الله عنهم له: «يا أبى، ليست هذه لباس حرب»، فيرد على رضى الله عنه: «يا بنى إن أباك لا يبالى علا الموت فوقه أو سقط الموت عليه»؛ إن عليا لايهاب الموت؛ لأنه يعرف الوعد الصدق ويشتاق له.

وحذيفة بن اليمان رضى الله عنه ساعة الاحتضار يقول: «حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم» إنه يثق بأمر الآخرة وبحب الجنة، ويعلن عدم فلاح من يندم؛ لأنه يموت مؤمنا.

وعمير فى بدر يقول: يا رسول الله، أليس بينى وبين الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونى فأدخل الجنة؟ فيقول رسول الله ﷺ: «نعم» فيستبطئ الرجل

أن يمضغ التمرة ويخرجها من فمه ، ويلقيها ويدخل القتال مشتاقا إلى الجنة (١).

إذن . . هؤلاء هم الذين يثقون بما عند الله فى الآخرة، أما الذين لا يثقون بما عند الله ويعرفون ما اقترفوا من آثام، فينطبق عليهم قول الحق: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ؛ إن بنى إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ عرفوا جيدا ما أنكروه من منهج الحق، وعرفوا أن محمدا هو رسول الله ، لكنهم أداروا ظهورهم للحق، وبدأوا فى التلفيق، وكان ضمن ما لفقوه هو الادعاء بأن الجنة لهم وحدهم؛ لذلك لم يتمنوا الموت أبدا، وفى الحديث: «لو تمنوا الموت لغص كل واحد بريقه فمات لحينه»(٢). وهذا دليل مؤكد على أن أيا منهم لم يتمن الموت.

---

(١) عن أنس بن مالك قال: بعث رسول الله ﷺ بُسَيْسَة، عينا ينظر ما صنعت عير أبى سفيان فجاء وما فى البيت أحد غيرى وغير رسول الله ﷺ- قال: لا أدرى ما استثنى بعض نسائه - قال: فحدثه الحديث. قال: فخرج رسول الله ﷺ فتكلّم فقال: «إن لنا طلبة. فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا» فجعل رجال يستأذنونه فى ظهرانهم فى علو المدينة. فقال: «لا. إلا من كان ظهره حاضرا» فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون. فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه» فدنا المشركون. فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» قال: يقول عمير بن الحمام الأنصارى: يا رسول الله! جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بخ بخ. فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخ بخ» قال: لا. والله! يا رسول الله! إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه. فجعل يأكل منهن. ثم قال: لإن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه، إنها لحياة طويلة. قال فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل. أخرجه مسلم [١٩٠١].

(٢) أخرجه البيهقى فى الدلائل [٦/ ٢٧٤، ٢٧٥] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « إن كنتم فى مقالتكم صادقين فقولوا: اللهم أمتنا. فوالذى نفسى فى يده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فمات مكانه»، فأبوا أن يفعلوا وكرهوا ما قال لهم فنزل: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى: عملته أيديهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أنهم لن يتمنوا. فقال النبى ﷺ عند نزول هذه الآية: «والله لا يتمنونه أبداً والذى نفسى بيده لو تمنوا الموت لماتوا، فكره أعداء الله الموت، فلم يتمنوا الموت جزعاً أن ينزل بهم الموت». وذكره السيوطى فى [الدر المنثور: ١/ ٢٢٠].

وقد يقول قائل: هل التمنى يكون باللسان فقط، ألا يكفى أن يكون التمنى بالقلب؟ ألا تظن أن أحدا منهم قد تمنى الموت بقلبه ؟ هنا نقول: ما التمنى الذى يتمنوه؟ إن التمنى هو أن تقول لشىء محبوب: ليت ذلك يكون؛ إن التمنى لابد له من قول، وحتى لو افترضنا أنه عمل قلبى، فما دام أنهم سمعوا قول الحق: ﴿لَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ ألم يكن من الأجدر بهم عندما سمعوا ذلك القول أن يعلن أحدهم أنه تمنى الموت؟

إذن.. سقط قولهم فى أن الدار الآخرة لهم وحدهم خالصة؛ لقد سبق أن قالوا: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠] لقد ادعوا قبل ذلك أن النار لن تمسهم، فسألهم الرسول ﷺ هل يوجد بينهم وبين الخالق الأكرم عهد بذلك!! لأن الله لا يخلف عهده، أم أنهم يقولون على الله ما لا يعلمون؟! وأجاب الرسول عن ذلك ببلاغ عن الحق جل وعلا: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١] إنهم يعرفون ماذا فعلوا، وكيف زيفوا التوراة؛ لذلك يتوقعون العقاب فى الآخرة ويخافون الموت .

فى القرية المصرية يتداول أهلها فيما بينهم القول عن الرجل الصالح عندما يموت، فيقولون: مات فلان ووجهه مثل البدر؛ ذلك أن الموت عندما يجىء تأتى لحظة الغرغرة، ولا يشك واحد لحظتها فى حتمية الموت، ويستعرض شريطا عاجلا لحياته، فإن كان عمله طيبا تنبسط أساريره؛ لأنه سوف يلقى ربه الذى آمن به وأطاعه، فتصعد روحه إلى السماء وهو مستبشر مسرور، أما عندما تأتى لحظة الغرغرة لصاحب العمل السيىء فهو يستعرض شريط حياته فيجده مليئا بالسوء، فيعلم أنه عصى ربه، ويرى منكراته أمامه، فيخاف الموت وتنقبض أساريره، وتقبض روحه وهو على هذا الانقباض، فيقولون: فلان مات ميتة سيئة، ويسمون ذلك بالخاتمة، فيقولون فلان خاتمته حسنه، وفلان خاتمته سيئة .

ولنا أن نعرف أن الرسول قد نهى عن تمنى الموت، وقال فى ذلك: « اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى » [1].

إذن.. الرسول ﷺ نهى المؤمنين عن تمنى الموت يأساً وقنوطاً أو كأن يدعو الإنسان وهو فى حالة من الغضب أو الجزع من قدر الله وقضائه، فيقول: يارب خذنى. هذا القول من التمنى للموت نهى عنه رسول الله ﷺ واقرأ قول الحق جل وعلا: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]؛ إن قافلة إخوة يوسف عليه السلام وأبويه يدخلان عليه، ويعطى يوسف الصديق المكانة لأبويه، ويجلسهما على سرير المُلك، ويقول يوسف: هذا يا أبى تفسير ما قصصت عليك من قبل من رؤيا، حين رأيت فى المنام أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين لى، قد حقق ربى الحلم وأكرمنى، وأظهر براءتى

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٣٥١]، ومسلم [١٠/٢٦٨٠] عن أنس بن مالك رضى الله عنه بلفظ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرٌ نزل به، فإن كان لابد متمنياً للموت فليقل: ......» الحديث.

وعن قيس بن أبى حازم قال: دخلنا على خبَّاب وقد اكتوى سبع كيَّات فى بطنه فقال: «لو ما أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به».

أخرجه البخارى [٦٣٤٩، ٦٣٥٠]، ومسلم [٢٦٨١] واللفظ له.

عن أبى هريرة عن رسول الله إن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنى أحدكم الموت، ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله. وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا». أخرجه مسلم [٢٦٨٢].

وخلصنى من السجن، وجاء بكم من البادية لنلتقى من بعد ما أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى، وأغراهم بى، وما كان كل ذلك ليتم بغير صنع الله وتدبيره.

ويتجه يوسف من بعد ذلك إلى الله ليشكره على نعمه التى أنعم بها عليه، ويرجوه المزيد من الفضل بأن يجعل حياته فى الإيمان، وأن يجعل موته على دين الإسلام، وأن يلحقه بالصالحين من النبيين والصديقين.

إذن.. فالذى يحسن عمله فى الدنيا يحب أن يلقى ربه، أما تمنى الموت جزعا مما يصيبه من قدر الله فذلك نقول له اصبر، وما صبرك إلا بالله، إن الله بالغ أمره، قد جعل لكل شىء سبباً، وقل: اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف علىّ خير منها.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥]. كان بنو إسرائيل يعرفون ما ارتكبوا من عمل، لذلك لا يحبون أن يقابلوا الله أبداً (١)، كانوا كما قال عنهم رب العزة الخبير بهم العليم بأحوالهم وهم بهذه السلسلة من الأعمال السيئة: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

إن حرص بنى إسرائيل على الحياة ـ أى حياة ـ حرص يبلغ مرتبة عالية، بل هم أشد حرصا على الحياة من مشركى مكة فى زمان

(١) عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، قالت عائشة ـ أو بعض أزواجه ـ إنا لنكره الموت، قال: «ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شىء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِر بُشِّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شىء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه».
أخرجه البخارى [٦٥٠٧] واللفظ له، ومسلم [٢٦٨٤].

رسول الله ﷺ، هؤلاء الذين لا يعرفون أن هناك دار آخرة ولا ثواب ولا عقاب، الله أبلغنا حرص بنى إسرائيل﴿ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ ولم يقل«الحياة»؛ ذلك أنهم لايبالون فى الحرص على حياتهم أن يعيشوا فى ذلة،أو مسكنة، أو مفرقين مقطعين فى الأرض،إن الحق قد أورد حرصهم على حياتهم بصيغة النكرة، ولم يقل:«الحياة»؛ذلك أن حرصهم على حياتهم لا يتطلب منهم حرصاً على كرامة الحياة،ولكنهم يقبلون أى نوع من الحياة مهما ضيعوا من كرامة أو عاشوا فى مهانة،هم فى ذلك يختلفون عن المؤمنين؛ ذلك أن كل مؤمن يعرف أنه يحيا فى الدنيا حياة راقية بالإيمان بمنهج الحق، ويستقبل حياة أخرى بعد الموت فى جنة الرضوان، أما بنو إسرائيل الذين كانوا فى المدينة؛ فقد كانوا حريصين على حياتهم بضراوة وتكالب على الحياة، وفاقوا فى ذلك المشركين الذين لم ينزل إليهم منهج سماوى ،بل يود كل واحد منهم أن يعمر ألف سنة.

لكن هل منع طول العمر الموت؟ هل منع طول العمر الحساب بعد الموت؟ ورغم عشق كل واحد منهم للحياة والبقاء فيها، فهل يملك أحدهم إطالة عمره؟ لا؛ إن العمر ليس للإنسان يد فيه،وقوله:﴿ يُعَمَّرَ ﴾ جاء بصيغة الفعل المبنى للمجهول الذى لا يملكه الإنسان. والعمر كما نعرف هو الزمن من الميلاد إلى الوفاة ومأخوذ من العمار؛ ذلك أن البدن تعمره الروح بالحياة، والروح أمر لا يعرف سره أحد، إن الروح هى من أمر الله،وساعة تخرج الروح يموت الإنسان.

وقوله: ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ تلك التى تمناها الإسرائيلى؛ إنما هى حدود معرفة أهل ذلك الزمان، فقد كانت عادة العرب أن الألف هى نهاية ما كانوا يعرفون من أعداد، ولم يكن معروفا لديهم المليون مثلا، بل كانوا يقولون: ألف ألف، والمعنى: أن طول العمر لن يمنع من الحساب؛ ذلك أن الله يحصى كل شيء وهو بصير بكل عمل يقوم به الإنسان.

* بنو إسرائيل والسحر *

من رحمة الله تعالى أن الملكين اللذين كانا يعلمان الناس السحر يحذران كل من يرغب فى تعلمه بقولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ ، ولكن الإنسان الظلوم الجهول يُقبل على ذلك الأمر ظنا منه أنه بتعلمه ذلك السحر يكسب منه المال، وهو لا يدرى أنه قد باع نفسه فى تلك الصفقة؛ يقول العليم الخبير: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] إن تعلم السحر مضيعة للحياة الآخرة، وقد يظن من يرغب فى تعلمه أنه سيزيد فرصته فى الحياة الدنيا، لكن حقيقة الأمر أن تعلم السحر يؤدى بمتعلمه إلى الكفر، وإلى فقدان صفقة الدنيا وحسنة الآخرة، ويُتْبع الرحمن ذلك بقوله الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣] إن الحق ينبه الخلق إلى أنه قد سبق تحذير كل راغب فى تعلم السحر أنه فتنه ومدعاة للكفر، ولو أن أىَّ راغب فى تعلم السحر أن السحر آمن بذلك، واتقى الله، ونهى نفسه عن ذلك الطريق لأثابه الله على ذلك أحسن الجزاء.

والمثوبة: هى الثواب على العمل الصالح، وتقابلها العقوبة على العمل الطالح، «وثاب» تعنى: «رجع»، ولذلك نسمى المبلغ عن الإمام أثناء الصلاة «مُثَوِّب»؛ لأنه يقول بصوت مرتفع «الله أكبر» بعد أن يقولها الإمام؛ لتزداد فرصة السماع لمن لم يسمع، إنه يعيد ما يقوله الإمام.

ومنه قول القائل: «هُزِم القوم ولكنهم ثابوا إلى مواضعهم». وذلك

يعنى أن القوم هُزِمُوا ولكنهم عادوا إلى أماكنهم التى هُزموا فيها (١).

ويوجد فى فرنسا وسام يسمونه: «وسام الذبابة»، وهو من أعلى الأوسمة العسكرية هناك، وأخذوا اسمه من الذبابة؛ لأنها إذا أزيحت عن مكان عادت إليه، ويمنح هذا الوسام للمقاتل الذى قد تضطره ظروف القتال إلى أن ينسحب عن موقع ما؛ ثم يعاود الكَرَّة ليصل إلى هذا الموقع ويهزم العدو.

ومن مادة «ثاب» نجد أن اللغة قد أخذت من الكلمة معنى آخر، وهو الثوب؛ فقد كان الناس قديماً يأخذون ملابسهم من أصواف الأغنام، يأتى الرجل ليجز صوف الأغنام، ثم يرسله إلى رجل صناعتُه غزل الصوف، ثم يصنع من الصوف خيوطاً وينسجها، أى يصير الصوف المجزوز ثوباً، أى أن الصوف يعود من حالة بدائية إلى حالة أرقى وأكثر نفعاً، وقد علَّمنا الحق سبحانه وتعالى أن الثوب لستر العورة، وكذلك العمل الصالح، إنه للستر أيضاً؛ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٦]. إن من نعم الحق على عباده أن جعل لهم ملابس تستر عوراتهم، ومواد يتزينون بها، وكذلك الطاعة هى خير لباس يقى الإنسان من العذاب.

(١) ثاب الرجل يثوب ثَوْبًا وثوَبانًا: رجع بعد ذهابه، ويقال: فلان ثاب إلى الله، وتاب، بالثاء والتاء، أى: عاد ورجع إلى طاعته.

وثاب: أى عاد ورجع إلى موضعه الذى كان أفضى إليه. ويقال: ثاب ماء البئر إذا عادت جُمَّتها.

والثواب: جزاء الطاعة، وكذلك المثوبة؛ قال الله تعالى: ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ ويقال: ثوَّب الداعى تَثْويبًا: إذا عاد مرة بعد أخرى. ومنه تثويب المؤذن إذا نادى بالأذان للناس إلى الصلاة، ثم نادى بعد التأذين، فقال: الصلاة رحمكم الله، الصلاة، يدعو إليها عَوْداً بعد بَدْء. [لسان العرب: ١/ ٢٤٣]

وكأن الحق يذكِرنا بأن ثواب العمل الصالح يكون على لونين:

الأول: ستر العورة. **والثاني:** زينة وفخامة.

إن «ثواب» مأخوذة من ثوب، وتلتقى مع ما أنزله الحق من لباس لستر العورة وريش للزينة، وكأن الحق ينبه الخلق أن لباس التقوى أكثر ستراً من اللباس العادى الذى يستر العورة، هكذا يوجز الحق المثوبة فى قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٣] إن الثوب فى الدنيا، والذى يبحث فيه الإنسان عن ستر عورته وأناقته من صنع المخلوق الإنسان، أما الثواب فهو من صنع الله، فأى جمال يمكن أن يناله الإنسان عندما يثيبه الحق ؟!

إن العبد المؤمن الذى يجعل عمله الصالح وقاية بينه وبين صفات الجلال لله مثل القهار، الجبار ؛ هذا العبد الصالح الذى يجعل عمله الصالح وقاية له من النار هو الذى يجد الثواب عند الحق.

إذن. . فلو أن من يتعلمون السحر فطنوا إلى ذلك، وقبلوا تحذير الملكين بأن هذا الأمر فيه فتنة، وعرفوا أن مثل هذا النوع من المعرفة لن يمنحهم فرصة أكبر من بقية البشر، بل سينالون به الضرر فى الدنيا والآخرة، لو عرف هذا الصنف من البشر ضرر السحر لما تعلموه؛ لأنه سيزيل عنهم خيراً كان يمكن أن ينالوه لو آمنوا، وعندما ننظر فى معنى كلمة: ﴿خَيْرٌ﴾ نجد أن المقابل لها «شر»، لكن كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ هى الكلمة الوحيدة فى اللغة التى يكون فيها الاسم مساويا لأفعل التفضيل؛ إذا أضيفت لها ﴿مِّنْ﴾ لتصبح «خير من» كأن الله يجازى الذين يرفضون تعلم السحر بما هو أكثر وأفضل وأرقى، أى أن المقابل الذى يناله متعلم السحر هو «شر»، لكنّ الإيمانَ بأن السحر عمل فيه فتنة وضرر للإنسان والامتناع عن ذلك يقابله الله بخير كثير.

والخير هو ما يأتى بالنفع، ولكن مقياس النفع يختلف باختلاف الناس، فواحد ينظر إلى النفع العاجل، وواحد ينظر إلى نفع آجل. فمثلا : واحدٌ يستيقظ مبكراً ،ويذهب إلى مدرسته ويستمع إلى أساتذته، ويواظب على قراءة دروسه واستيعابها؛ والآخر يوقظونه من النوم بمنتهى الصعوبة، فإذا استيقظ فاستيقاظه قهر، ويخرج من المنزل لا إلى المدرسة، ولكن ليتجول فى الشارع، أو يلعب مع هذا وذاك، إن كلا من الاثنين يحب الخير لنفسه، ولكن الخلاف بينهما يكون فى تقييم الخير، واحد يفضل الخير الآجل، وآخر يفضل الخير العاجل، ولو كان فيه دمار للمستقبل.

والفلاح الذى يفلح الأرض ويحسن رعايتها، ويعتبرها فضلا من الله، فيرى حق الخالق فيما وهب، ويروى الأرض ويسمدها، ويرجو الحق أن يبارك له فى الرزق، ويمر الوقت فينضج الزرع ويحصده، ويملأ الرجل مخازنه برزق الله الوفير، ويزكى عن ماله وزرعه، ويظل طول العام يأكل هو وأهله مما رزقه الله نتيجة لتعبه وكَدِّه؛ وآخر لا يرعى حق الله فيما وهبه من أرض، ويهملها ، ولا يرهق نفسه، ويستسلم للكسل، ويأخذ رزقه من السرقة أو التسول؛ هذا أحب نفع نفسه، والآخر كذلك، ولكن كل على قدر فهمه وتقييمه للخير.

إذن. . فهناك معايير مختلفة لحب الخير، إن الحق هو الذى أنزل الشريعة الغراء،وبها كل معايير الخير،إن معايير الخير التى من وضع الخلق قد تختل،لكن معايير الخير التى وضعها الحق لا تختل أبدًا ولنا أن نسأل: لماذا قال الحق عن الذين يتعلمون السحر أنهم لو رفضوا ذلك لوجدوا خيرا؟

هنا نقول: إن الحق يعلمنا أن كل علم لا نبتغى به وجه الله وتقواه ليس علما نافعا، إنه علم يزيد من أعباء الإنسان، ولا يهدف إلى انسجامه مع

الكون الذى خلقه الله وسخره له، وفى مثل ذلك يقول الشاعر العربى :

رُزِقُوا وما رُزِقوا سَمَاحَ يَدٍ فكَأنَّهم رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا
خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا لمكْـرُمَةٍ فكَأنَّهم خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا

إذن . . فالفعل قد يُثبت مرة، وقد يُنفى مرة أخرى؛ لأنك لم تنتفع به إن من يرغبون فى تعلم السحر لم ينتفعوا بتحذير الملكين لهم؛ لذلك لم يعلموا الخير الذى يثيبه الله لمن يتقيه، وفى ذلك يقول الحق : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم: ٧] لقد نفى الله عنهم العلم الحقيقى، إن ما يعلمونه هو ظاهر العلم، لكنه ليس حقيقته، ولقد عرفنا أن بعضا من بنى إسرائيل هم الذين سعوا إلى تعلم السحر، وأرادوا أن ينسبوا ذلك العلم لنبى الله سليمان، فرد الله عنه ذلك، لقد كانوا حَمَلَة للتوراة لكنهم لم يفهموا مضامينها، ولم يحافظوا عليها، لذلك أصبحوا كأنهم لم يحملوها؛ ذلك أنهم لم يطبقوها منهجاً وعملا .

لكن عندما ينبذ الإنسان شيئا من العقيدة فلابد له أن يعتنق شيئًا آخر، فما الذى اعتنقه هؤلاء؟الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[1] [البقرة: ١٠٢]. لقد استحضر هؤلاء القوم

---

(١) قال ابن حجر: وفى هذه الآية بيان أصل السحر الذى يعمل به اليهود، ثم هو مما وضعته الشياطين على سليمان بن داود عليه السلام، ومما أنزل على هاروت وماروت بأرض بابل، والثانى متقدم العهد على الأول؛ لأن قصة هاروت وماروت كانت من =

ما كانت تتلوه الشياطين أيام ملك سليمان، إنهم يستعيدون ما تلته الشياطين وكأنه شيء جديد. والشياطين هم مردة الجن المتمردون على منهج الله، وهم العصاة من الجن، وكل متمرد على منهج الله يسمى شيطانا، وفى الذكر الحكيم أن من الجن قوما صالحين، ومنهم الفاسقون؛ وفى ذلك يقول العليم الخبير: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

= قبل زمن نوح عليه السلام على ما ذكر ابن إسحاق وغيره، وكان السحر موجوداً فى زمن نوح؛ إذ أخبر الله عن قوم نوح أنهم زعموا أنه ساحر، وكان السحر أيضاً فاشياً فى قوم فرعون وكل ذلك قبل سليمان.

واختلف فى المراد بالآية فقيل: إن سليمان كان جمع كتب السحر والكهانة، فدفنها تحت كرسيه، فلم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى، فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين يعرفون الأمر، جاءهم شيطان فى صورة إنسان فقال. لليهود: هل أدلكم على كنز لا نظير له؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسى، فحفروا هو متنح عنهم-فوجدوا تلك الكتب، فقال لهم: إن سليمان كان يضبط الأنس والجن بهذا، ففشا فيهم أن سليمان كان ساحراً، فلما نزل القرآن بذكر سليمان فى الأنبياء أنكرت اليهود ذلك، وقالوا: إنما كان ساحراً، فنزلت هذه الآية. أخرجه الطبرى وغيره عن السدى، ومن طريق سعيد بن جبير بسند صحيح نحوه. ومن طريق عمران بن الحارث عن ابن عباس موصولاً بمعناه. وأخرج من طريق الربيع بن أنس نحوه.

وأخرجه من طريق محمد بن إسحق وزاد: أنهم نقشوا خاتماً على نقش خاتم سليمان، وختموا بـه الكتاب وكتبوا به الكتاب وكتبوا عنوانه: «هذا ما كتب آصف ابن برخياء الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم» ثم دفنوه فذكر نحو ما تقدم. وأخرج من طريق العوفى عن ابن عباس نحو ما تقدم عن السدى. وأخرج بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «انطلقت الشياطين فى الأيام التى ابتلى فيها سليمان، فكتبت كتباً فيها سحر وكفر، ثم دفنتها تحت كرسيه ثم أخرجوها بعده فقرأوها على الناس» وملخص ما ذكر فى تفسير هذه الآية: أن المحكى عنهم أنهم اتبعوا ما تتلو الشياطين هم أهل الكتاب.

[فتح البارى: ١١/ ٣٨٦] بتصرف.

وكانت الجن تسترق السـمع وتنقل ماتتناقله الملائكة بعـد أن يزيدوا عليها الخرافات والأكاذيب، فيكون بعض من الأوامر حقا، والبعض الآخر باطلاً، وفى ذلك يقول الحق: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١] .

إذن . . فالشياطين توحى إلى العتاة من المشركين، والشياطين كانت تسترق السمع قبل نزول رسالة رسول الله ﷺ، ولذلك كان الملك جبريل ينزل من قبل الحق؛ ليحفظ الحقُّ منهجَه من إضلال الشياطين، وبذلك أصبح مستحيلا على الشياطين أن تتدخل فى منهج الحق، وأراد الحق أن يحمى المنهج الهادى للبشر، لذلك تعترف الجن بما يقوله القرآن الكريم عنهم: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾. إن الجن يعترفون بعجزهم أمام قدرة الحق على حماية منهجه؛ لأنهم وجدوا السماء قـد مُلئت بالشـهب؛ ترصـد مـن يحـاول اسـتراق السمع؛ وفى الذكر الحكيم قولـه تعـالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [الجن: ٨] .

لقد كانوا من قبل يتحسسون لسماع الأخبار القادمة من السماء لينقلوها للكهنة، بعد أن مزجوا صدقها ببعض الأكاذيب، فتصبح فتنة، وتصبح الفتنة ابتلاء لمن يصطدم بها، فمن ثبت قلبه على الإيمان نجا بإذن الله، ومن زاغ قلبه وافتتن بالفتنة فقد ضل وغوى ومن ثم فيعاقبه الله تعالى، وقد كانت الشياطين أيام ملك سليمان تستخدم السحر، فعرف سليمان بالأمر وجمع الكتب التى تُعلِّم الناس تسخير الجن إلى ما هو فاسد، ويقال: إنه وضعها فى الأرض من أجل أن يمنع ذلك الأمر عن الناس، ولما مات سليمان دلت الشياطين بعض الناس على المكان الموجود به هذه الكتب، وادعت الشياطين أن سليمان سخر الجن والإنس والريح بواسطة هذه الكتب، وسليمان برىء

من ذلك؛ فقد برأه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، لذلك يعلمنا الله أن من اتبع هذا الطريق فهو كافر بالله، والشياطين تعلم الناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، لكن الذى يتعلم يتلقى الدرس أيضًا، إنه يعرف أن ذلك الأمر فتنة، وأن سوء استخدامه كفر.

ولنا أن نعلم الآن إجابة لسؤال ما السحر؟ (١) إن السحر مأخوذ من مادة «السين» و«الحاء» و«الراء».

والسَّحَر: هو وقت آخر الليل قبل الفجر(٢).

إذن.. فالسحْر هو شىء يخيل إليك أنه واقع وهو ليس بواقع، وهو جامع بين شيئين ظاهره واقع وباطنه غير واقع، ونحن نعلم أن السحرة

---

(١) قال الراغب الأصفهانى: والسحر يقال على معان:

الأول: الخداع وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يد، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ﴾ [طه:٦٦] وبهذا النظر سموا موسى عليه السلام ساحرا فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف:٤٩] .

والثانى: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء:٢٢٢] وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[البقرة: ١٠٢].

والثالث: مايذهب إليه الأغتام وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع؛ فيجعل الإنسان حمارا ولا حقيقة لذلك عند المحصلين.

[المفردات فى غريب القرآن: ٢٣١]

(٢) السَّحْر والسَّحَر: آخر الليل قبيل الصبح. والجمع: أسحار. وقيل: هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر. [لسان العرب: ٣/ ٣٥٠]

عندما التقوا بموسى فى الاجتماع العظيم الذى دعا إليه فرعون سحروا أعين الناس، حتى خيل إلى الناس أن ما ألقاه السحرة هو أشياء حقيقية.

إذن . .لم يكن التغير فى الأشياء التى ألقاها السحرة، ولكن التغير كان فى أعين الناس، وهذا أمر مختلف عن عصا موسى التى أرادها الله أن تكون حية فصارت حية بقدرة الله.

إذن . . فالمسحور هو من يحدث له التغير،أما معجزة موسى عليه السلام لم تكن سحرا ،بل كانت معجزة حقيقية بالفعل، ولو كانت عصا موسى عليه السلام عصا، لكان السحرة أولى الناس بمعرفة أنها عصا، لكنهم عرفوا أنها حية؛ لذلك خروا سجدا معلنين الإيمان.

إذن . .السحر هو تخيل حقيقة، وليس بحقيقة، كيف؟ لقد خلق الحق الشياطين ولهم قدرة على التشكل، إن الشيطان من الجن يستطيع أن يتشكل بأى شيء،ولكن الإنسان لا يستطيع أن يدرك الشيطان على صورته الحقيقية،والشيطان من الجن يتشكل للإنسان بما يمكن لبصر الإنسان أن يدركه،والشيطان عندما يتشكل،فإن الصورة التى يتشكل عليها تحكمه، فإن تشكل بإنسان أو حمار أو قط أو كلب فإن هذه الصورة تحكمه،بحيث إذا تشكل الشيطان فى شكل ما،وأطلق الإنسان عليه الرصاص، فإن هذا الشيطان من الجن يموت فورا،وهذا هو السبب فى أن الشيطان يتشكل فى لمحة خاطفة يختفى بعدها؛ لأنه ربما يظن أن من رآه على هذه الصورة يمكنه أن يقتله، ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال:«إن عفريتاً من الجن تفلَّت عليَّ البارحة ليقطع عليَّ الصلاة، فأمكننى الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخى سليمان:﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] (١) .

(١) أخرجه البخارى [٤٦١] واللفظ له،ومسلم [٥٤١]عن أبى هريرة رضى الله عنه.

إذن . . ففى قدرة الإنسان أن يمسك بالشيطان من الجن لو تمثل ذلك الشيطان فى شكل ما؛ لذلك فالشياطين من الجن لا تصبر على التمثل؛ لأنها تخاف، وذلك من رحمة الله بنا، وإلا كانت مردة الجن قد أفزعتنا، إنه ابتلاء مقدور عليه.

والحق يحفظ الكون بتكافؤ الفرص، وتكافؤ الفرص هو الذى يحفظ أمن المجتمع، وتكافؤ الفرص هو الذى يجعل الإنسان أو الشيطان من الجن يلزم حده.

إن تكافؤ الفرص - على سبيل المثال- هو الذى يجعل كلا من روسيا وأمريكا فى حالة توازن، فلا تعتدى اعتداء مباشراً على الدول الأخرى.

وقد شرحت من قبل مبدأ تكافؤ الفرص بأسلوب بسيط أكرره مرة أخرى: لنفترض أن رجلا من قرية ما ذهب إلى الجيش، وتدرب على حمل البندقية بشكل متميز، وأنهى مدة التجنيد، وحصل على بندقية وراح يفرض الإتاوات على الناس، ويجعل سادة البلدة تخدمه وهو جالس فى مكانه، هذا الرجل بوجوده هو الذى يتجبر ويجعل مبدأ تكافؤ الفرص غير موجود ،لكن لنفترض أن رجلاً فى الطرف الآخر من القرية نال نفس الفرصة، هنا ستضيع هيبة الذى فرض الإتاوات، ويحسب حساب البندقية الأخرى، هنا يحدث تكافؤ الفرص.

إذن . . فالذى يجعل الأمن فى العالم يختل هو عدم تكافؤ الفرص، والله يريد أن يحفظ للإنسان تكافؤ الفرص؛ حتى يحفظ أمن المجتمع وسلامته، ولكن الله يريد أيضاً أن يختبر الإنسان بالابتلاءات المختلفة؛ لذلك فلا يظن إنسان أن الشيطان من الجن بحكم عنصريته، وقانون خلقه- الذى هو بطبيعته أخف من قانون خلق الإنسان-أنه قادر على التحكم فيه، أو السيطرة عليه. بل إن الحق جلت قدرته قد يعلم الإنسان ما يستطيع أن يقهر به الجن. وقد علمها

سبحانه وتعالى لملائكته، والملائكة بإمكانهم أن يعلموها للناس، ولكن الملائكة تحذر من يتعلمها: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ لماذا يكون ذلك الأمر فتنة؟ لأنه إذا استخدم الإنسانُ الجنَّ؛ فمعنى ذلك أنه أخذ فرصة أكثر من إنسان آخر، وقد يطغى عليه، ومن يطغى فقد ظلم ، ومن يظلم يستحق العقاب .

إن الحق جل وعلا يريد أن يعطينا هنا قضيتين:

القضية الأولى: أى أن الشيطان من الجن، وإن كان تصرفه أقوى من تصرف الإنس، فذلك بقدرة الحق الذى جعله على هذا العنصر من التكوين.

والقضية الثانية: أن الحق جل وعلا يستطيع بقدرته أن يعطى الإنسان أشياء يسخر بها الجن، ولذلك تحذر الملائكة من يتعلمه بأن ذلك الأمر فتنة فلا داعى أن يكفر بها الإنسان. والفتنة فى حد ذاتها ليست مذمومة؛ إنها اختبار، الناجح فيه يسعد بتوفيق الله له ، والراسب فيه هو من لم يستفد بما وهبه الله من إمكانيات؛ إن الملائكة تحذر من تعلم السحر حتى لا يختل مبدأ تكافؤ الفرص، وهناك من يرفض تعلم أساليب تسخير الجن؛ حتى لا يفتن فى أمر دينه، وهناك من يقول سأتعلمه لأستعمله فى الخير، وفى دروس الحياة وعبرها.

إن الذى يتعلم هذه الأشياء لا يستطيع أن يفيد بها نفسه، إن رزقه يأتيه ممن لا يعلمه، ومعيشته تكون على حساب من لا يعرفهم، وحياة من يتعلم هذا الأمر غير مستقرة، وأموره مختلة، واقرأ قول الحق تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] إن الرجال الذين يستجيرون بالجن ويستعينون بهم، تنقلب حياتهم إلى إرهاق، مع أن الذى يستجير بالجن كان يرغب لنفسه الاستقرار، فإذا به غارق فى عدم الراحة، إن الحق يستطيع أن يعطى الأدنى فى القوة وهو الإنسان القدرة

التى يسخر بها الأعلى وهو الجن؛ وذلك حتى لا تكون عنصرية التكوين هى الحاكمة.

إننى أنصح من كان فى جنس أن يظل بقانون جنسه؛ ليظل تكافؤ الفرص عاصمًا له من الطغيان، ولا يطلب لنفسه سلاحا قويا، ويدعى أنه سوف يستعمله فى الخير، إننا لم نجد أحدا قد اشتغل بمثل هذا الأمر إلا ومات على فقر و هناك دجالون يدعون ذلك العلم، وليس لهم منه شىء، لكنهم يعانون أيضا من إرهاق الحياة، ولذلك كل من يتعلمه يصبح كافرًا، لماذا؟ لأن الإنسان لحظة التحمس للتعلم قد يكون مؤمنا لكن لحظة الأداء فغالبا ما تغره القوة، فيستخدمها فيما يضر نفسه ومن حوله، وفى هذا كفر بالخالق سبحانه، إن تعلم السحر كفر؛ لأنه يخل بتكافؤ الفرص، وقد يتعلمه أحد بدعوى الخير، ولكن لا يعلم أى شرور قد تصيب الآخرين من جَرَّاء ذلك[1].

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». أخرجه البخارى [٢٧٦٦] واللفظ له، ومسلم [٨٩].

قال ابن حجر: وقد استدل بهذه الآية [1] على أن السحر كفر ومتعلمه كافر، وهو واضح فى بعض أنواعه التى قدمتها وهو التعبد للشياطين أو للكواكب، وأما النوع الآخر الذى هو من باب الشعوذة فلا يكفر به من تعلمه أصلا. =

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]

إن الإنسان لا يضمن نفسه ، لذلك لا نجـد واحدًا ممن اشتغلوا بالسحر إلا وعاش فى بأس من الحال ، ويحكم عليه الحق بأن يظل أضعف من غيره فى رزقه وطعامه ومشربه، لماذا؟ إن الله أراد ذلك الأمر؛ ليوضح لنا أن أحدا لا يستطيع أن يحتال على قدر الله .

= **قال النووى:** عمل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبى ﷺ من السبع الموبقات، ومنه ما يكون كفراً، ومنه لا يكون كفراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضى الكفر فهو كفر وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام، فإن كان فيه ما يقتضى الكفر كفر واستتيب منه ولا يقتل، فإن تاب قبلت توبته، وإن لم يكن فيه ما يقتضى الكفر عُزِّرَ .

وعن مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب، بل يتحتم قتله كالزنديق. قال عياض: وبقول مالك قال أحمد وجماعة من الصحابة والتابعين اهـ. وفى المسألة اختلاف كثير وتفاصيل ليس هذا موضع بسطها.

وقد أجاز بعض العلماء تعلم السحر لأحد أمرين: إما لتمييز ما فيه كفر من غيره، وإما لإزالته عمن وقع فيه.

فأما الأول: فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد، فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشىء بمجرده لا تستلزم منعاً، كمن يعرف كيفية عبادة أهل الأوثان للأوثان ؛ لأن كيفية ما يعمله الساحر إنما هى حكاية قول أو فعل، بخلاف تعاطيه والعمل به.

وأما الثانى: فإن كان لا يتم كما زعم بعضهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق فلا يحل أصلا وإلا جاز للمعنى المذكور. وذا فصل الخطاب فى هذه المسألة. وفى إيراد المصنف هذه الآية إشارة إلى اختيار الحكم بكفر الساحر؛ لقوله فيها: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ فإن ظاهرها أنهم كفروا بذلك، ولا يكفر بتعليم الشىء إلا وذلك الشىء كفر، وكذا قوله فى الآية على لسان الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فإن فيه إشارة إلى أن تعلم السحر كفر، فيكون العمل به كفراً، وهذا كله واضح على ما قررته من العمل ببعض أنواعه. وقد زعم بعضهم أن السحر لا يصح إلا بذلك، وعلى هذا فتسمية ما عدا ذلك سحراً مجاز كإطلاق السحر على القول البليغ.

[فتح البارى: ١١/ ٣٨٧، ٣٨٨]

* قدموا الكفر على طاعة الله *

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣] ونفهم من هذه الآية الكريمة أن الحق جل وعلا قد أخذ منهم الميثاق، وأصبحوا طرفا فى التعاقد الإيمانى إن الحق جل وعلا لم يفرض عليهم الإيمان، وإذا كان قد رفع فوقهم جبل الطور، فلم يكن ذلك لإجبارهم على الإيمان، إنما ليثبت لهم قدرته المعجزة، هؤلاء الذين طلبوا من قبل أن يروا الله جهرة.

إذن. . رفع الجبل لم يكن للجبر، إنما لإثبات طلاقة قدرة الحق، أما الميثاق فإنهم لما اتبعوا موسى عليه السلام، كان لابد أن يكون لهم منهج من الله يسيرون عليه .

إذن. . المنهج ضرورى، أما اتباعهم للمنهج أو عصيانه فهو أمر اختيارى. لقد أراد الله أن يلفتهم بقوة إلى طلاقة قدرته، فرفع الجبل من فوقهم، وأنزل لهم المنهج، وأمرهم أن يأخذوا المنهج بقوة، لماذا؟ لأن الذى يأخذ بقوة يراد منه أن يعطى بقوة؛ لأن الأخذ بالقوة يدل على العشق للشيء المأخوذ، ومعنى ذلك أن أمر الله بأخذ المنهج بقوة إنما كان المراد منه أن يطبق بنو إسرائيل ما جاء بالمنهج بحب وطواعية، لم يكن الأمر جبرا إذن، ولكنه كان إلزاما من الخالق أن يكون لهم منهج، وأمر باتباع المنهج بحب وطواعية، لكن ماذا فعل بنو إسرائيل؟ لقد أخذوا المنهج خوفا، ولم يطبقوه عصيانا.

لقد كان أمر الحق ساعة أخذ الميثاق ورفع الجبل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، ومعلوم أن القول هو عمل اللسان، والعمل قسمان: قول وفعل، لقد قالوا: ﴿سَمِعْنَا﴾، وهذا دليل على أنهم عرفوا المنهج، لكن ماذا كان فعلهم؟ ماذا كان من أمر تطبيقهم للمنهج؟ لقد عصوا منهج الحق تعالى، لقد كان مقابل سماعهم للمنهج هو فعل العصيان[١]. إن البعض ممن يريد أن يستشكل فى كتاب الله قد يقول: لقد أعلنوا رأيهم عن المنهج، وقالوا: إنهم سمعوا وإنهم عصوا المنهج .

إننا عندما نقرأ القرآن يجب أن نحسن الفهم عن الله، لقد سمعوا المنهج لكنهم فى التطبيق لم ينفذوه بل عصوه، لقد كان المقابل لسماع المنهج هو فعل العصيان، وقد كان المراد أن يسمعوا المنهج سماع طاعة لا مجرد سماع

---

(١) قال الشوكانى: والأمر بالسماع معناه: الطاعة والقبول، وليس المراد مجرد الإدراك بحاسة السمع، ومنه قولهم: «سمع الله لمن حمده»[١] أى: قبل وأجاب، ومنه قول الشاعر:

دعوت الله حتى خفت أن لا يكون الله يسمع ما أقول

أى: يقبل، وقولهم فى الجواب: ﴿سَمِعْنَا﴾ هو على بابه وفى معناه؛ أى: سمعنا قولك بحاسة السمع، وعصيناك، أى: لا نقبل ما تأمرنا به. ويجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم: ﴿سَمِعْنَا﴾ ما هو معهود من تلاعبهم واستعمالهم المغالطة فى مخاطبة أنبيائهم؛ وذلك بأن يحملوا قوله تعالى: ﴿اسمعوا﴾ على معناه الحقيقى، أى السماع بالحاسَّة، ثم أجابوا بقولهم: ﴿سَمِعْنَا﴾ أى أدركنا ذلك بأسماعنا، عملا بموجب ما تأمر به، ولكنهم لما كانوا يعلمون أن هذا غير مراد الله عز وجل، بل مراده بالأمر بالطاعة والقبول، لم يقتصروا على هذه المغالطة بل ضموا إلى ذلك ما هو الجواب عندهم، فقالوا: ﴿وعَصَيْنَا﴾. فتح القدير: ١/ ١٧٨].

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٢٢٨]، ومسلم [٤٠٩] عن أبى هريرة بلفظ: «إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنالك الحمد، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غُفِرَ له ماتقدم من ذنبه».

فقط، لكنهم قابلوا المنهج بفعل العصيان، لماذا؟ الإجابة فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾.

هذه هى حالتهم المعنوية لحظة تلقى المنهج، ويجب أن نعى جيدًا معنى قول الله تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ لقد اتخذوا العجل إلها، وصار معبودهم وملأ قلوبهم هواه فعموا، وصُمُّوا (١).

إن الحب الذى يدخل القلب أمر معنوى وليس أمرا مادياً، وقول الله جل وعلا يصور مدى ماديتهم؛ لقد تمكن حب العجل من قلوبهم، كأنها تشربه، وفى هذا تعبير عن تشبعهم بحب عبادة العجل.

إذن.. قوله تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ كأنهم شربوا العجل كما يشرب الإنسان الماء، فيشيع فى جسمه، هكذا كانت علاقتهم بالعجل، كأنه تغلغل فى كل جزء من أجسامهم، بل ويجرى فى دمائهم، وكأن الحق قد أعطانا صورة تقرب المادية التى غرقوا فيها (٢)، أما لماذا أشربوا العجل؟ إن الذى سقاهم العجل هو الكفر، وليس فى الأمر قهر من الحق سبحانه، ولكنه اختيارهم للكفر، وبعد ذلك جاء الطبع على قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٣] فى ذلك أمر للرسول ﷺ أن يوضح لهم أنهم لم يؤمنوا بالحق، ولا بالدين

---

(١) عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال: «حبك الشىء يعمى ويصم»، أخرجه أبو داود [٥١٣٠]، وأحمد فى المسند [٥/ ١٩٤] وضعَّفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [١٠٩٧]

(٢) قال الصابونى: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ فيه استعارة مكنية، شبه حب عبادة العجل بمشروب لذيذ سائغ الشراب، وطوى ذكر المشبه به ورمز بشىء من لوازمه وهو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية. قال فى تلخيص البيان: وهذه استعارة والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة فى حب العجل فكأنها تشربت حبه فمازجها ممازجة المشروب، وخالطها مخالطة الشىء الملذوذ. [صفوة التفاسير: ١/ ٨١]

الخالص، ولا بالمنهج المنزل عليهم، وإذا كان ذلك هو إيمانكم فبئس ذلك الإيمان، وفى ذلك تهكُّم على هذا الضلال الذى يسمونه كذبا: إيمان.

وذلك إيضاح لكذبهم على الله والرسول ، والمنهج الذى أُنزل إليهم، فلم يكن من المنهج قط أن يعبدوا العجل، ولم يكن من المنهج قطٌّ أن يخفوا ويحرفوا الآيات والبشارات برسالة رسول الله محمد ﷺ (١).

وهذا الموقف منهم شبيه بموقف قوم لوط، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (٢) [النمل] . إن لوطا علية السلام ينبه قومه إلى ضلال مسلكهم من ارتكابهم لذلك الذنب العظيم ، أنهم يأتون الرجال شهوة من دون النساء، رغم أن مسار الرغبة التى خلقها الله فى الرجل يجب أن توجه إلى النساء بالزواج.

فماذا كان جواب قوم لوط ؟ غلبت عليهم طبيعتهم النجسة فقالوا :

---

(١) قال الزمخشرى : ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ بالتوراة ؛ لأنه ليس فى التوراة فى عبادة العجاجيل، وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكّم كما قال قوم شعيب: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧] وكذلك إضافة الإيمان إليهم، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تشكيك فى إيمانهم وقدح فى صحة دعواهم له. [الكشاف : ١/ ٨٢]

(٢) قال البقاعى : ولما كان قوله: ﴿شَهْوَةً﴾ ربما أوهم أنهم لا غنى بهم عن إتيانهم للشهوة الغالبة لكون النساء لا تكفيهم، لذلك نفى هذا بقوله: ﴿بَلْ﴾ أى: أنكم لا تأتونهم لشهوة محوجة بل ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ﴾ ولما كان مقصود السورة إظهار العلم والحكمة، وكانوا قد خالفوا ذلك إما بالفعل، وإما لكونهم يفعلون من الإسراف وغيره عمل الجهلة، قال: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ أى تفعلون ذلك؛ إظهارا للتزين بالشهوات، فعل المبالغين فى الجهل، الذين ليس لهم نوع علم فى التجاهر بالقبائح خبثا وتغليبا لأخلاق البهائم، مع ما رزقكم الله من العقول التى أهملتموها حتى غلبت عليها الشهوة.

[نظم الدرر : ١٤/ ١٨٢]

أخرجوا آل لوط من قريتنا فإنهم أُناس يحبون الطهر والعفاف، وفى هذا خطر على مذهبكم ومسلككم، تماماً كما يحاول المرتشى فى أى مجال من المجالات أن يبعد عن دائرته أهل الأمانة والطهارة، وقد يتهمهم بالتَّزَمُّت، وكأن الأمانة والطهارة ذنب.

إذن.. كان إيمان بنى إسرائيل هو ادعاء كاذب؛ لأن حب العجل جرى فى عروقهم وامتزج بدمائهم، وقتلوا الأنبياء، ولم يصدقوا فى الدعوة إلى منهج الحق.

* رفع الجبل على بنى إسرائيل *

الحق سبحانه وتعالى يذكّر بنى إسرائيل بنعمه عليهم، النعم التى قابلوها بالجحود والنكران فيقول: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾(١) [الأعراف: ١٧١]؛ حين نسمع كلمة «إذ» نعرف أنها ظرف لحدث، مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾ [المائدة: ٢٠] أى اذكر وقت أن قال موسى لقومه كذا وكذا، وقوله: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ [البقرة: ٦٠]

(١) أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ يقول: رفعناه. وهو قوله: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ فقال: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ وإلا أرسلته عليكم.

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ ﴾، قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم فقيل لهم: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾. فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا: سمعنا وأطعنا، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا: سمعنا وعصينا.

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: إنى لأعلم لم تسجد اليهود على حرف، قال الله: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾. قال: لتأخذن أمرى أو لأرمينكم به. فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم، فكانت سجدة رضيها الله تعالى فاتخذوها سنة.

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال: أتى ابن عباس يهودى ونصرانى فقال لليهودى: ما دعاكم أن تسجدوا بجباهكم؟ فلم يدر ما يجيبه، فقال: سجدتم بجباهكم لقول الله: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾. فخررتم لجباهكم تنظرون إليه، وقال للنصراني سجدتم إلى الشرق لقول الله: ﴿ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾

وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال: إن هذا الجبل، جبل الطور، هو الذى رفع على بنى إسرائيل. =

= وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ قال: كما تنتق الزبدة أخرجنا الجبل.

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ثابت بن الحجاج قال: جاءتهم التوراة جملة واحدة، فكبرعليهم، فأبوا أن يأخذوه حتى ظلل الله عليهم الجبل، فأخذوه عند ذلك.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ قال: انتزعه الله من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، ثم قال: لتأخذن أمرى أو لأرمينكم به.

وأخرج الزبير بن بكار فى الموفقيات عن الكلبى قال: كتب هرقل ملك الروم إلى معاوية يسأله عن: الشىء ولا شىء، وعن دين لا يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنة، وعن صلاة كل شىء، وعن أربعة فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال ولا أرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا قوم له، وعن قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة لم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظاعن ظعن مرة لم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت بغير ماء، وعن شىء يتنفس لا روح له، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد ما أجزاؤها فى الكلام، وعن الرعد والبرق وصوته، وعن المجرة، وعن المحو الذى فى القمر؟

فقيل له: لست هناك وإنك متى تخطئ شيئاً فى كتابك إليه يغتمزه فيك، فاكتب إلى ابن عباس. فكتب إليه فأجابه ابن عباس:

أما الشىء: فالماء، قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وأما لا شىء: فالدنيا تبيد وتفنى، وأما الدين الذى لا يقبل الله غيره: فلا إله إلا الله. وأما مفتاح الصلاة: فالله أكبر، وأما غرس الجنة: فلا حول ولا قوة إلا بالله، وأما صلاة كل شىء: فسبحان الله وبحمده، وأما الأربعة التى فيها الروح ولم يرتكضوا فى أصلاب الرجال ولا أرحام النساء: فآدم، وحواء، وعصا موسى، والكبش الذى فدى الله به إسحق، وأما الرجل الذى لا أب له: فعيسى ابن مريم، وأما الرجل الذى لا قوم له: فآدم، وأما القبر الذى جرى بصاحبه: فالحوت حيث سار بيونس فى البحر، واما قوس قزح: فأمان الله لعباده من الغرق، وأما البقعة التى طلعت عليها الشمس ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها: فالبحر حيث انفلق لبنى إسرائيل، وأما الظاعن الذى ظعن مرة لم يظعن قبلها ولا بعدها: فجبل طور سيناء؛ كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله بجناحين =

أى اذكر وقت أن طلب موسى السقاية لقومه، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أى اذكروا دائما النعم التى أعطاها الله لكم، والخطاب هنا لبنى إسرائيل، والحديث عن نعم الله الكثيرة عليهم، ومدى جحودهم وكفرهم بها أكثر، أما الجبل فهو معروف ، فهو: الأحجار المندمجة مع بعضها مكونة جرما عاليا قد يصل ارتفاعه إلى آلاف الأمتار ، ونحن نتعجب فى بعض الأحيان من أحجار الهرم، وكيف وضعت فوق بعضها، وكان الأجدر بنا أن نتدبر إعجاز الله فى الجبال، وكيف أن الجبل يرتفع آلاف الأمتار ومكون من حجر واحد، والحق سبحانه وتعالى قال عن الجبال: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢] ، ولا يقال: أرساها(١) إلا إذا كان الشىء له ثقل ؛ لا تقول: أرسيت الورقة على المكتب؛ لأن الورقة لا ثقل لها، ولكن تقول: أرسيت قطعة البلور على المكتب؛ لأن لها وزنا وثقلا، والجبال

= من نور فيه ألوان العذاب، فأظله الله عليهم وناداهم مناد: إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيته عليكم، فأخذوا التوراة معذورين فرده الله إلى موضعه، فذلك قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ...﴾ الآية ، وأما الشجرة التى تنبت من غير ماء: فاليقطينة التى أنبتت على يونس، وأما الذى تنفس بلا روح فالصبح؛ قال الله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨] ، وأما اليوم: فعمل، وأما أمس: فمثل، وأما غد: فأجل وبعد غد فأمل، وأما البرق: فمخاريق بأيدى الملائكة تضرب بها السحاب، وأما الرعد: فاسم الملك الذى يسوق السحاب وصوته زجره، وأما المجرة فأبواب السماء ومنها تفتح الأبواب، وأما المحو الذى فى القمر فقول الله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾. ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل.

فبعث بها معاوية إلى قيصر، وكتب إليه جواب مسائله. فقال قيصر: ما يعلم هذا إلا نبى أو رجل من أهل بيت نبى. والله تعالى أعلم. [الدر المنثور: ٣/ ٥٩٥ـ ٥٩٧]

(١) رسا الشىء: يرسو رسوا وأرسى: ثبت. ورسا الجبل يرسو: إذا ثبت فى الأرض. وجبال راسيات: الثوابت الرواسخ. [لسان العرب: ١٤/ ٣٢١]

والجبال أرساها الله، وجعلها أوتاداً، والوتد ممسوك بالموتود فيه، بدليل أنه إذا كان هناك وتد ثم مال لابد أن تسنده لتعيد تماسكه مع الموتود فيه.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ (١) ونتقناه أى رفعناه، وفى آية ثانية يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾(٢)، فى الآية الأولى ذكر الله تعالى كلمة «نتق»، وفى الآية الثانية ذكر كلمة «رفع»، فما هو الاختلاف؟ أليست نتق بمعنى رفع؟ نقول: لا؛ لأنه ما دام الجبل راسيا فى الأرض وممسوكا بها؛ فقبل أن أرفعه لابد أن أقلعه من الأرض، أما إذا كان الشيء غير ممسوك، فأنت ترفعه بسهولة ويكون الرفع كافيا، ولكن رفع الجبل بالذات يحتاج إلى عمليتين:

الأولى: نزع الجبل من الأرض لتخلصه من إمساكها به.

---

(١) النتق: الزعزعة والهز والجذب والنفض. ونتق الشيء: جذبه واقتلعه؛ ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أى: زعزعناه ورفعناه. [لسان العرب: ١٠/ ٣٥١]

(٢) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾: سبب رفعه: امتناعهم من دخول الأرض المقدسة، أو من السجود، أو من أخذ التوراة والتزامها. أقوال ثلاثة.

روى أن موسى لما جاء إلى بنى إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة، قال لهم: خذوها والتزموها، فقالوا: لا، إلا أن يكلمنا الله بها، كما كلمك، فصعقوا ثم أحيوا. فقال لهم: خذوها، فقالوا: لا. فأمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ فى مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، وأخرج الله تعالى البحر من ورائهم، وأضرم ناراً بين أيديهم، فاحتاط بهم غضبه، فقيل لهم: خذوها وعليكم الميثاق أن لا تضيعوها، وإلا سقط عليكم الجبل، وغرقكم البحر، وأحرقتكم النار، فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق، وسجدوا على شق؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً. فلما رحمهم الله قالوا: لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها، فأمروا سجودهم على شق واحد. وذكر الثعلبى أن ارتفاع الجبل فوق رؤوسهم كان مقدار قامة الرجل، ولم تدل الآية على هذا السجود الذى ذكر فى هذه القصة. والواو فى قوله: ﴿وَرَفَعْنَا﴾ ، واو العطف: على تفسير ابن عباس؛ لأن أخذ الميثاق كان متقدماً، فلما نقضوه =

الثانية : هى رفعه. وعملية أخرى تمت: هى أن هذا الجبل كان ظلا على بنى إسرائيل، يظلهم من الشمس المحرقة فى الصحراء.

فكأن هناك عمليتين قد حدثتا: نتق الجبل، ثم رفعه وجعله ظلا. والظلة تستلزم أن يكون اتجاه الجبل المرفوع فى اتجاه أشعة الشمس، حتى يحجبها عمن يستظلون منها. الله تعالى يقول: واذكروا يا بنى إسرائيل ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ أى نزعناه وخلعناه من الأرض، ثم رفعناه وكان ذلك لمهمة أخرى غير مجرد النزع أو الرفع، وهى أن يكون ظلة لكم. والغمام يكون ظلا. فى آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾[البقرة: ٥٧].

فما الفرق بين ظلّ الغمام وظلة الجبل؟ إن ظلّ الغمام رحمة، وظلة الجبل عذاب؛ وذلك لأن بنى إسرائيل حين جاءتهم التوراة قالوا: لا نقدر عليها فأحكامها شديدة.

ولكن الحق سبحانه وتعالى جاء بهذه التوراة ؛ لأنها الوسيلة الوحيدة لإصلاح بنى إسرائيل وصلاحهم، فعندما يقولون إن هذه التوراة شديدة

= بالامتناع من قبول الكتاب رفع عليهم الطور. وأما على تفسير أبى مسلم: فإنها واو الحال، أى أن أخذ الميثاق كان فى حال رفع الطور فوقهم، نحو قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ [هود: ٤٢] أى وقد كان فى معزل ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ هو على إضمار القول، أى: وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم. وقال بعض الكوفيين: لا يحتاج إلى إضمار قول؛ لأن أخذ الميثاق هو قول، والمعنى: وإذ أخذنا ميثاقكم بأن خذوا ما آتيناكم، وما موصول، والعائد عليه محذوف، أى: ما آتيناكموه، ويعنى به الكتاب. يدل على ذلك قوله: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، وقرئ: «ما آتيتكم»، وهو شبه التفات؛ لأنه خرج من ضمير المعظم نفسه إلى غيره. ومعنى قوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾. بجد واجتهاد، قاله ابن عباس وقتادة والسدى، أو بعمل، قاله مجاهد؛ أو بصدق وحق، قاله ابن زيد؛ أو بقبول، قاله ابن بحر؛ أو بطاعة، قاله أبو العالية والربيع؛ أو بنية وإخلاص، أو بكثرة درس ودراية؛ أو بجد وعزيمة ورغبة وعمل؛ أو بقدرة. والقوة: القدرة والاستطاعة. وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، والباء للحال أو الاستعانة.

[البحر المحيط: ١/ ٣٩٢ ، ٣٩٣]

الأحكام، إذن.. فهم لايريدون أن يطبقوها ولا يعملوا بما فيها، حينئذ جاء الحق سبحانه وتعالى بالجبل بعد أن نزعه من مكانه وجعله فوقهم؛ فماذا فعل بنو إسرائيل؟ أصابهم الذعر والهلع، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ي: أنهم حسبوا أن الله مهلكهم بهذا الجبل، ولذلك عندما ترى يهوديا يصلى أو يسجد، تجده يسجد على حاجبه الأيسر لماذا؟ لأنهم حين رأوا الجبل فوقهم ملأهم الخوف خشية أن يسقط فوقهم، وفى الوقت نفسه أرادوا طاعة الله؛ حتى لا يهلكهم بالجبل، فسجدوا على حاجبهم الأيسر[1]؛ لتبقى أعينهم اليمنى مفتوحة؛ لترى الجبل فوقهم، حتى إذا ماشعروا أنه سيسقط عليهم انطلقوا هاربين لينجوا، وتوارث بنو إسرائيل هذه الطريقة فى الصلاة حتى الآن؛ ولذلك فهم لا يسجدون بالجبهة كلها على الأرض، بل لابد أن تكون هناك فرصة ليروا ما فوقهم.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ والظلة هى السقف؛ أو ما يحجب عنك حرارة الشمس[2]، فحينما تجلس فى ظل جدار؛ يكون الجدار ظلة لك، ولكن الظلة لا تأتى إلا من فوق؛ لأنها لابد أن تحجب أشعة الشمس، والأشعة تأتى من أعلى، فلابد أن يكون الجدار من العلو الكافى، بحيث يظل الإنسان، أى يأتى بالظلة من

(١) قال البقاعى: ﴿وَظَنُّوا﴾ ؛ هو على حقيقته ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ﴾، ولما كان ما تقدم قد حقق العلو، لم يحتج إلى حرف الاستعلاء، فقال مشيرا إلى السرعة واللصوق: ﴿بِهِمْ﴾ أى: إن لم يأخذوا عهود التوراة، قالوا: ولما رأوا ذلك خر كل منهم ساجدا على حاجبه الأيسر، وصار ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فزعا من سقوطه، وهى سنة لهم فى سجودهم إلى الآن، يقولون: هذه السجدة التى رفعت عنا بها العقوبة. [نظم الدرر: ٨/ ١٥٠]

(٢) الظُّلة: الشيء يستتر به من الحر والبرد. والجمع: ظُلَل وظِلال. والظلة: ما سترك من فوق، وكل ما أطبق عليك فهو ظلة. [لسان العرب: ١١/ ٤١٧]

فوق رأسه، ولو أنك نمت تحت الجدار، لرأيت الظل يأتى من فوقك. الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ،والظن هو رجحان قضية على أخرى، وهو هنا فى حالة شك، وقد يأتى فى درجة اليقين مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] ؛هذه حالة يقينية وقد يأتى فى حالة شك(١) .

إذن. . فمعنى قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أى: خافوا أن يقع الجبل فوقهم، ولم يكونوا على يقين أبدا من أن الجبل سيبقى فوقهم ليظلهم، ولن يسقط عليهم، ماذا حدث عندما ملأ الذعر قلوب بنى إسرائيل؟ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لهم لماذا أمسك الجبل عن السقوط فوقهم، وما الذى ينجيهم؛ فقال جل جلاله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ (٢)، قوله: ﴿خُذُواْ﴾ أى أن هناك أمرا، والأمر يقتضى شيئاً يؤمر به، فكأن ما آتيناكم بقوة هو الشىء المطلوب تنفيذه، والقوة: هى الطاقة الفعَّالة لأى حدث من الأحداث، وعندما قال الحق سبحانه وتعالى لبنى إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ أى بجد واجتهاد، والجد والاجتهاد لابد لهما من قوة ، أى : اذكروا القوة الدافعة فى المنهج التى تدفعكم إلى الخير ، وهى ما ينتظركم من ثواب ومن بركة ، واذكروا

---

(١) الظن: شك ويقين ، إلا أنه ليس بيقين عيان، إنما هو يقين تدبر، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم. [لسان العرب: ١٣/ ٢٧٢]

(٢) قال البقاعى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ أى: بعظمتنا، فهو جدير بالإقبال عليه وأن يعتقد فيه الكمال، وأكد ذلك بقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى عزم عظيم على احتمال مشاقه؛ ولما كان الأخذ للشئ بقوة ربما نسيه فى وقت، قال: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيه﴾ أى: من الأوامر والنواهى وغيرهما فلا تنسوه؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى: ليكون حالكم حال من يرجى تقواه، فدل سبحانه بهذا على تأكيد المواثيق عليهم، فى أخذ جميع ما فى الكتاب =

القوة التى فى المنهج التى توقف حركة الشر فيكم ، فتمنع عنكم مآسٍ كثيرة، ومعاناةً واضطراباً فى الحياة، ولابد أن ننتبه جيداً لكلمة «قوة» ، ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى يسخر غير المؤمنين؛ ليكشفوا لنا عن أشياء قد تغيب عنا، أو أن ينصر الله بهم هذا الدين فى موطن أو آخر.

= الذى من جملته: ألا تقولوا على الله إلا الحق ولا تكتموا شيئا منه ، قالوا: ولما قرأ موسى عليه السلام الألواح وفيهاـ كتاب الله، لم يبق على الأرض شجر ولا جبل ولا حجر إلا اهتز، فلذلك لا ترى يهوديا يسمع التوراة إلا اهتز وانفض رأسه. [نظم الدرر: ٨/ ١٥٠ ، ١٥١]

* لماذا أخذهم الله بالرجفة ؟ *

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] الحق سبحانه وتعالى أراد أنْ ينبهَ قوم موسى لخطورة ما فعلوه، فأخذهم بالرجفة. والرجفة هي: الزلزال الشديد الذى يهز الإنسان هزاً عنيفاً، بحيث يحس أن روحه تكاد تغادر جسده[1]؛ وكانت هذه الرجفة؛ لأن هؤلاء الرجال لم يقاوموا الذين عبدوا العجل مقاومةً جدية ، ولم يأمروهم بعبادة الله وحده وترك ماسولت لهم أنفسهم[2].

حين حدثت الرجفة سأل موسى ربه ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ أى: أن موسى أخذ هؤلاء الرجال من أقوامهم لميقات الله، ولو هلكوا الآن لاعتقد اليهود أنَّ موسى قد أخذ الرجال ليموتوا، فإذا شئت يارب أهلكتنا من قبل أن نخرج إلى الميقات؛ حتى لايقول بنو إسرائيل ولكأننى أهلكت خيارهم، وأنت أرحم من أنْ تهلكنا بما فعل السفهاء منا. والفعل هو: عبادة العجل.

إذن . . فالميقات الأول حين كلّم الله موسى لم يكن هنالك فعل، أى:

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أى: ماتوا. والرجفة فى اللغة: الزلزلة الشديدة. ويُروى أنهم زلزلوا حتى ماتوا. [تفسير القرطبى ٧/ ٢٩٤]

(٢) قال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جرير: أنهم أخذتهم الرجفة؛ لأنهم لم يزايلوا قومهم فى عبادتهم العجل، ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾. [تفسير ابن كثير :/ ٢٤٠]

أنَّ بنى إسرائيل لم يكونوا قد فعلوا شيئاً يغضب الله ساعة تحديد موعد الميقات، أمَّا فى هذا الميقات فقد حدث فعل من اليهود وهو عبادتهم العجل.

وقول موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ الفتنة هى اختبار، والاختبار نفسه ليس مذمومًا لذاته؛ لأنه مجرد امتحان، ولكن هو مذموم لمن يرسب فيه، أمَّا الذى ينجح فيه فهو يفرح به.

ولكن لماذا يقدِّر الله سبحانه الابتلاء والاختبار على خلقه؟ بينما هو يعلم مقدمًا ما سيصنعه الناس وما سيفعلونه؟ ولذلك لا يمكن أنْ يكون هذا الاختبار ليعلم الله من سيبقى على إيمانه ومن سيكفر؛ لأن الله يعلم، ولكنَّ الله يريد أن يكون الإنسان شهيداً على نفسه؛حتى لا يأتى يوم القيامة ويقول: لو اختبرتنى يارب لوجدتنى مؤمنًا طائعًا؛ لذلك يحدث الاختبار ويكون الإنسان شهيداً على نفسه؛ فلا يستطيع أن يأتى مجادلاً يوم القيامة ويقول لو حدث كذا، لفعلت كذا، تماماً كما يدعى كل طالب فى الفصل أنَّه هو أكثرُ الطلاب مذاكرة وتحصيلاً، ولكنَّ الأستاذ يعرف من هم أكثر الطلاب اجتهاداً، ولو نجحهم بغير اختبار لادّعى الجميع أنَّهم يستحقون النجاح ولكن الاختبار يجرى؛ حتى لا يأخذهم الأستاذ بعلمه ولكن يأخذهم بواقعهم، والأخذ بالواقع يذهب حجة أى إنسان ومكابرته بالباطل.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فِتْنَتُكَ﴾ معناه أنَّ هذه الفتنة والاختبار جاءهم من الله؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى ما دام قد خلقهم مختارين فقد وضعهم فى امتحان مستمر بالتكليف الذى أرسله إليهم، وجعل لهم الصلاحية فى أن يطيعوا أو يعصوا، وما دامت حرية الطاعة وحرية المعصية

قد أعطيت للإنسان، فحرية الاختيار هى هبة من الله للبشر، وليست حقاً للبشر ،لا بذاتيتهم ولا بتكوينهم ولا يحصلون عليها إلا فى الحياة الدنيا، أمَّا فى حياة البرزخ ويوم القيامة فلا يوجد اختيار.

ولابد أن نتوقف قليلاً عند قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ نقول: إنَّ الله سبحانه وتعالى ما دام قد خلق الإنسان مختاراً، فلا حُجَّة له؛ لأنه إنما يُجازى حسب عمله؛ إن خيراً فخير وإن شرًا فشر.

إذن.. فالذى يُصرِّف القلوب كيفما شاء هو الذى خلقك مختاراً [1]، والله سبحانه وتعالى قد بيَّن لنا فى آيات كثيرة من يشاء هدايته ومن يشاء إضلاله فقال: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧] ، وقال ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقال: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وهكذا بين الله لنا من لا يهديهم، وهم الظالمون والكافرون والفاسقون، فإذا أردت أن تكون ممن شملهم الله بهدايته فابتعد عن الكفر والظلم والفسق. إذن.. فأنت هنا تختار طريق الهداية أو طريق الضلال وحرية الاختيار من الله الذى خلقك قادرًا على ذلك، بينما المخلوقات الأخرى، مقهورة ولو لم يخلقك الله مختارًا ما استطعت أن تعصى، ومادام الله قد خلقك مختارا فقد أعطاك القدرة على أن تختار الهداية أو الضلال [2].

---

(١) عن عمرو بن العاص، قال: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء». ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم مصرِّف القلوب ! صرِّف قلوبنا على طاعتك».

أخرجه مسلم [٢٦٥٤]

(٢) قال الله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس]. =

نرجع الآن إلى حديث موسى ودعائه ربه، يقول: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، والولى هو القريب منك المرتبط بودك له، وعادة أنت لا تقرب إنساناً إلا إذا كانت فيه ميزات تعجبك، كأن يكون قوياً يحميك، أو أميناً يحافظ على مالك.

إذن.. فالولى هو القريب وقربك منه لأن فيه خصالاً تنفعك، وقول موسى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أى: ناصرنا، ومادمت أنت ناصرنا فإنك أقرب إلينا من أنفسنا، وما دمت أنت أقرب إلينا، فإذا فعلنا ذنباً فأنت أولى بأن تغفره

= قال الشوكانى: ومعنى ﴿سَوَّاهَا﴾: خلقها وأنشأها، وسوى أعضاءها. قال عطاء: يرد جميع ماخلق من الجن والإنس. والتنكير للتفخيم. وقيل: المراد: نفس آدم. ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أى: عرَّفها وأفهمها حالها، وما فيها من الحسن والقبح. قال مجاهد: عرفها طريق الفجور والتقوى والطاعة والمعصية. قال الفراء: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ عرفها طريق الخير، وطريق الشر، كما قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ أى: قد فاز من زكي نفسه وأنماها، وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب، وظفر بكل محبوب. وأصل الزكاة النمو والزيادة. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أى: خسر من أضلها وأغواها. قال أهل اللغة: دساها أصله دسسها من التدسيس، وهو إخفاء الشىء فى الشىء. فمعنى: ﴿دَسَّاهَا﴾ فى الآية: أخفاها وأخملها، ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح. [فتح القدير: ٥/٤٤٦، ٤٤٧]

وعن أبى الأسود الدِّئلى، قال: قال لى عمران بن الحصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشىءٌ قضى عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شىءٌ قضى عليهم، ومضى عليهم. قال فقال: أفلا يكون ظلماً؟ قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً. وقلت: كل شىء خَلْقُ الله وَمِلْكُ يده. فلا يُسألُ عما يفعل وهم يُسألون. فقال لى: يرحمك الله! إنى لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك. إن رجلين من مُزينةَ أتيا رسول الله ﷺ، فقالا: يارسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشىءٌ قضى عليهم ومضى فيهم من قَدَرٍ قد سبق، أو فيما يُستقبَلونَ به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «لا. بل شىءٌ قُضى عليهم ومضى فيهم. وتصديقُ ذلك فى كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ »[الشمس]. أخرجه مسلم [٢٦٥٠]

لنا؛ لأنك ناصرنا وحامينا وملاذنا؛لذلك جاء بعد قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾.

وقول موسى: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ ،نعلم منه أن درء المفسدة مقد م على جلب المنفعة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ وهذا درء لمفسدة النار: ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهذا جلب لمنفعة الجنة ونعيمها.لذلك طلب موسى الغفران أولاً ليدرأ عذاب الله، ثم طلب الرحمة، والرحمة هـى ألا يعودوا فى الكفر وعبادتهم العجل مرة أخرى؛ ومصداق ذلك قـول الحـق سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء:٨٢]،والشفاء يعنى وجود داء أو مرض فى المجتمع، ومن الرحمة ألا يعود هذا الداء مرة أخرى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾]، مثل قوله: ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وقوله: ﴿خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾؛ لأن المغفرة قد تكون من إنسان لإنسان، ولكن مغفرة الله فوق مغفرة الخلق؛ ولأن الغافر من الناس قد يغفر رياء أو سمعة أو خوفاً أو دفعا لأذى، ولكن الله فوق هذا كله؛ ولذلك إذا غفر فهو فضل منه ورحمة بعباده.

ويمضى دعاء موسى عليه السلام ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ وبذلك يكون موسى قد طلب أولاً المغفرة لرفع عذاب الله، وطلب الرحمة حتى لا يعود الداء مرة أخرى، وجاء قوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ لتعود على قوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾، وبقيت الرحمة فجاء قوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ليعود على الرحمة، أى اكتب لنا برحمتك فى هذه الدنيا حسنة،ثم قال: ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾، أى: واكتب لنا أيضا فى الآخرة حسنة.

والحسنة لها معنيان: معنى لغوى، ومعنى شرعى، المعنى اللغوى: كل ما يستحسنه الناس فهو حسنة. والمعنى الشرعى: هو كل ما استحسنه الشرع حسنة. فإذا أخذنا المعنى اللغوى فقد يستحسن الإنسان المعصية، ولكن المعنى الشرعى أن مايستحسنه منهج الله هو الحسنة.

ودعاء موسى عليه السلام: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ﴾ المراد به الحسنة الشرعية؛ لأنها لو كانت الحسنة اللغوية لما قال وفى الآخرة، ففى الآخرة لا توجد إلا الحسنة الشرعية والحسنة فى عرف الذين يتبعون منهج الله هى الحسنة الشرعية؛ أما أولئك الذين يريدون الدنيا فهى الحسنة اللغوية؛ لأنها تنظر إلى عاجل النفع ولا تنظر إلى استمرار النفع أو قيمته، فالنفع فى الدنيا على قدر تصورك للنفع، والنفع فى الآخرة على قدر التزامك بمنهج الله. والحسنة الشرعية لا تختلف فى الدنيا عن الآخرة، فهدفهما واحد هو رضا الله فى الدنيا عملاً، وفى الآخرة جزاء، والحسنة فى الدنيا قد تكون للمؤمن وغير المؤمن، فكلاهما يعطيه الله المال والعلم.. إلخ، ولكنها فى الآخرة خالصة للمؤمنين، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

معناه: أن غير المؤمنين ينتفعون بها فى الدنيا، وكل أجناس الأرض من جماد ونبات وحيوان، ومؤمن وغير مؤمن منتفعين برحمة الله فى الدنيا، ولكن فى الآخرة يختص الله برحمته المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، هاد معناها: رجع، و﴿هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أى: رجعنا إليك، وهنا يريد موسى أن يقول: ما دمنا

يارب قــد رجعنا إليك؛ فأنت أكرم مــن أن تردنا خائبين.

قال الله تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ...﴾ [الأعراف]، الحق سبحانه وتعالى يلفت موسى ويلفتنا جميعاً إلــى طلاقة قدرته؛ فطلاقة قــدرة الله بلا قيــود وبلا حدود؛ ولذلك فعذابه يصيب به من يشاء، فليس الذنب موجبا للعذاب إذا تاب المذنب وقبل الله توبته وغفر له؛ ولذلك فإن الله يتوب على المذنبين والعاصين الذين تابوا ورجعوا إلى الطريق المستقيم.

وقوله تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى: رحمتى فى الدنيا أعطيها للطائع والعاصى، والمؤمن وغير المؤمن، ولكنها خالصة يوم القيامة للمؤمنين، وهنا قال بعض أحبار اليهود: ما دامت رحمة الله قد وسعت كل شىء فإنها تسعنا. نقول: نعم رحمة الدنيا التى وسعت كل شئ تسعكم، ولكنها فى الآخرة خالصة للمؤمنين.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، كلمة: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أثارت جدلاً كثيراً، فالسين هنا دلت على زمن قادم، وإذا كانت رحمة الله وسعت كل شىء فى الدنيا، وسيكتبها دليل على أن ذلك فى الآخرة، وبالطبع فإن الحق كتبها بالفعل وانتهى، فقد جفت الأقلام ورفعت الصحف[1]، ولكنها ما زالت غيباً بالنسبة لنا.

---

(١) عن جابر قال: جاء سُراقةُ بنُ مالك بن جُعشُمٍ قال: يارسول الله بيِّن لنا ديننا كأنَّا خُلقنا الآن. فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام. وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: «لا. بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير» قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشىء لم أفهمه. فسألت: ماقال؟ فقال: «اعملوا فكل مُيَسَّر». أخرجه مسلم [٢٦٤٨].

نعود إلى أحبار اليهود وقولهم مادامت رحمة الله وسعت كل شئ وسيكبتها للذين يتقون. فنحن متقون، إذن.. فعندنا الحالة الأولى: أنهم قالوا: نحن شيء فالرحمة تسعنا. والرد: الرحمة تسعكم فى الدنيا، فالكل فيها.

وفى الحالة الثانية قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ قالوا: نحن متقون فى منهج موسى. نقول لهم: لو كنتم متقين فى منهج موسى؛ لآمنتم بالنبى محمد ﷺ الذى تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة؛ لأنه من تعاليم موسى والتوراة أن تؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام.

* خَلْفٌ لا خير فيهم *

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(١) [الأعراف: ١٦٩] .

الله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى أن القلة الصالحة من بنى إسرائيل تختفى بالتدريج، مقابل زيادة بالتدريج فى الكثرة الفاسدة، وإن هؤلاء الكثرة ازدادوا مع توالى الأيام فيقول الله سبحانه وتعالى:

---

(١) قال ابن كثير: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة. وقال مجاهد: هم النصارى، وقد يكون أعم من ذلك. ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ ﴾ أى: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوِّفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾. قال مجاهد : لا يشرف لهم شىء من الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حرامًا ويتمنون المغفرة ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾. وقال السدى : كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلا ارتشى فى الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا، فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا. فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى فيقال له: ما شأنك ترتشى فى الحكم؟ فيقول: سيغفر لى فتطعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل فيما صنع ، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشى، يقول: وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه .
[مختصر تفسير ابن كثير : ٢/ ٦١]

ويقول الأستاذ سيد قطب: وصفة هذا الخلف الذى جاء بعد ذلك السلف من قوم =

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ الخَلَف أو الخليفة: الذى يأتى بعد الإنسان، نقول: إن فلانًا خلف فلانًا أو فلان خليفة فلان، يعنى أخذ الأمر من بعده، وموسى عليه السلام قال لهارون: ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ [الأعراف: ١٤٢] أى كن خليفة لى، وارع القوم إلى أن أعود. وحين تسمع «الخلْف» بسكون اللام فاعلم أنه فى الفساد والإفساد، وإذا سمعت «خلَف» بفتح اللام فاعلم أنه فى الخير(١)، فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أى: إن الذين كانوا موجودين كان فيهم صلاح، والذين

= موسى: أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه، ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر بـه قلوبهم ولا سلوكهم. شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس وعلم يحفظ، وكلما رأوا عرضًا من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه، ثم تأولوا وقالوا: ﴿ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾. وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد !

[فى ظلال القرآن : ٣/ ١٣٨٧]

(١) قال القرطبى: قال أبو حاتم: « الخلْف » بسكون اللام: الأولاد، الواحد والجمع فيه سواء. و « الخلَف » بفتح اللام: البدل، ولدا كان أو غريبًا، وقال ابن الأعرابى: «الخلَف » بالفتح الصالح ، وبالجزم : الطالح . قال لبيد :

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ومنه قيل للرديء من الكلام: خلف. ومنه المثل السائر: «سَكَت ألْفًا ونطق خلْفًا»(١) فخلْف فى الذم بإسكان، وخلَف بالفتح فى المدح. هذا هو المستعمل المشهور. قال ﷺ: « يحمل هذا العلم من كل خلَف عدوله»(٢) .وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر . قال حسان بن ثابت :

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا لأولنا فى طاعة الله تابع

[تفسير القرطبى ٧/ ٣١٠، ٣١١]

(١) ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال [٢/ ١٠١] وقال: الخَلْفُ : الرديء من القَوْل وغيره، وقال ابن السكّيت: حدثنى ابن الأعرابى قال: كان أعرابى مع قوم فحبق حبقة، فتشور، فأشار بإبهامه إلى استه وقال: إنها خلْفٌ نطقت خلْفاً. ونصب «ألفا» على المصدر. أى: سكَت ألفَ سكتة ثم تكلم بخطأ.

(٢) ذكره الألبانى فى مشكاة المصابيح [٢٤٨] عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى، وقال: الحديث مرسل لأن إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى هذا تابعى مقل، كما قال الذهبى، وراويه عنه ليس بعمدة. لكن الحديث قد رُوِىَ موصولاً من طريق =

جاءوا بعدهم يملؤهم الفساد، ولذلك فإنك حين تدعو لإنسان تقول: «اللهم اجعله خير خلَف لخير سلف» واللام هنا عليها فتحة والشاعر يقول:

ذَهَبَ الَّذينَ يُعَاشُ فِى أكْنَافِهِمْ   وبَقِيتُ فِى خَلْف كَجِلْدِ الأَجْرَبِ[1]

أى أن الشاعر يريد أن يقول: إن أهل الكرم والسماحة ماتوا، فلم يعد هناك أحد يعاش فى رحاب كرمه وسماحته، فقول الشاعر:

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم

أى فى جوارهم؛ لأن جوارهم كان نعمة يصيب منها الخير، وقول الشاعر: وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

أى: أننى عشت بجوار الذين جاءوا بعدهم ،متلاصقًا بهم، ولكن كانوا كالجلد الأجرب لا يعطى خيراً.

= جماعة من الصحابة، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائى فى«بغية الملتمس»[٣-٤]، وروى الخطيب فى «شرف أصحاب الحديث» [٢/٣٥] عن مهنا بن يحيى قال: سألت أحمد - يعنى ابن حنبل - عن حديث معاذ بن رفاعة عن إبراهيم هذا فقلت لأحمد: كأنه كلام موضوع؟ فقال: لا، هو صحيح، فقلت له: ممن سمعته أنت؟ قال من غير واحد، قلت: من هم؟ قال: حدثنى به مسكين إلا أنه يقول: معاذ عن القاسم بن عبد الرحمن، قال أحمد: معاذ بن رفاعة لابأس به.

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرى. كان مولده فى حدود ٥٤٥م ، أو أكثر أو أقل. وقيل: إنه وفد على النبى ﷺ بعد معركة أُحُد وأسلم قبل قومه بسنوات، والحقيقة أن وفادة لبيد على الرسول ﷺ وإسلامه أمر تضطرب فيه الروايات.
وفى أيام عمر وولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة، كتب عمر يسأل المغيرة أن يستنشد من بالكوفة من الشعراء بعض ماقالوه فى الإسلام، فلما سأل لبيداً قال له: إن شئت من أشعار الجاهلية ، فقال: لا؛ فذهب فكتب سورة البقرة فى صحيفة وقال: «أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر». فكل ماقاله من شعر فى الإسلام إذن فُقد، قاله فى عهد الرسول ﷺ ، وهذه الحادثة جعلت عمر يزيد فى عطائه خمسمائة درهم أخرى. =

ويحكى أن رجلاً فى بغداد يقال له: «أبو دلف» وكان رجلاً كريمًا، وكان يعيش بجواره رجل فقير أصابته مصيبة ، فأراد أن يبيع بيته، فقيل له: حدد أنت ثمن الدار. قال: دارى بمائة دينار، ولكن جوارى لأبى دلف يجعلها بألفى دينار.

ولما بلغ الكلام أبا دلف قال: إن رجلاً قدّر جوارنا بعشرة أمثال ثمن داره لحقيق ألا يُفَرَّط فيه، فليبق فى داره ويأخذ ألفى دينار.

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ الكتاب هو: التوراة، ومعنى أنهم ﴿وَرِثُوا﴾ أى: نزل على قوم آخرين، وجاءوا هم بعدهم، وكأنهم أخذوه ميراثًا، ولم يأخذوه ابتداء؛ أى لم ينزل عليهم ولكنهم ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، ماذا فعل الذين ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ ؟

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ إذن، فالقوم الذين جاءوا وجدوا الكتاب عند آبائهم وأجدادهم، بما فيه من المواثيق، وبما فيه من افعل ولا تفعل، ولكنهم لم يلتفتوا لكل هذا؛ لأن الكتاب يعطى نعيمًا مقيمًا

= وأصبح لبيد فى الكوفة يُعَدُّ فى القراء، ويقضى أكثر وقته فى المسجد أو فى رحبة بنى غنى، أو يضرب فى الشارع متوكئاً على محجن، أو يسمر عند والى الكوفة، وأصبح قليل الكلام، قليل الفخر بأيامه السابقة.

ثم أدركته منيته فى خلافة عثمان، بعد أن أوصى أن يسجَّى بثوبه، وتُستقبَل به القبلة، وتحمل جفنتاه إلى المسجد ليطعم الناس منهما. وقد اختُلِفَ فى عمره يوم مات، فقيل: ١٥٧ سنة، وقيل: لا يقل عن ١١٠ سنوات.

والبيت من قصيدة قالها يصف تغيُّر الناس والأيام، ويذكر أخاه أربد، ويتحدث عن مآثر ذاتية حققها فى الأيام الخوالى. [ديوان لبيد : ٥، ٣٤]

وقوله: فى **أكنافهم**: فى ظل خيرهم. **الخلف**: البقية.

كجلد الأجرب: كجلد الجمل الأجرب، وهو مما لا يُنتفع به.

فى الآخرة، وهم يريدون الدنيا التى يعيشونها، فإذا أخذ أحدٌ منهم رشوة ولفت نظرَه إنسانٌ إلى أن الرشوة حرام، قال: عندما نصل إلى الآخرة سنطلب من الله المغفرة ، وسيغفر لنا.

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ الأدنى: هو الدنيا، والعَرَضَ : هو أقل ما فى الدنيا، فالشيء الذاتى هو الجوهر وهو الأساس. فالإنسان مثلاً جوهر، ولكن العَرَض فيه هو الذى يزول، فأن يكون صحيحا أو مريضا عرض، وأن يكون غنيا أو فقيرًا عرض.

إذن. . فالعرض هو ما يأتى ويزول، والجوهر هو الذى يبقى ثابتًا، فالإنسان مثلاً إذا كان لونه أبيض إذا جلس فى الشمس؛ يتغير لونه إلى السمرة، وإذا كان صحيحًا فقد تزول عنه الصحة بالمرض.

إذن. . فكل هذه متغيرات ولكن ما هو عرض الدنيا؟ عرض الدنيا هو المال الحرام، أن نغش الناس فتأخذ أموالهم بالباطل، وأن ترتشى، وأن تسرق؛ كل هذا عرض الدنيا، ولكن الإنسان تحدث منه المعصية، والله سبحانه وتعالى حين يُشَرِّع لعقوبة جريمة يكون ذلك إيذاناً بأنها ستحدث، فإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ فمعنى ذلك أن أى إنسان يمكن أن تسول له نفسه أن يسرق، حتى المؤمن، ولذلك كان لابد ألا نترك الجريمة دون عقوبة، فإذا رأى إنسانٌ مسلمًا يسرق، وقال: انظر إلى المسلمين وكيف يسرقون، نقول له: هذا فعل محرَّم فى الإسلام، وله عقوبة، والفعل المحرم لا يقع فيه الاعتداء على المنهج، وإنما على الذى قام بالجريمة، والذى اعتدى هو القائم بالجريمة، والمنهج برىء منه؛ لأن المنهج لم يأمره بالسرقة، بل منعه منها، وجعل هناك عقوبة عليها وهى قطع اليد. وقد يسرق الإنسان ويتوب، وينوى ألا يعود وقد يعود، ولكنه ساعة التوبة كان صادقًا، ثم وسوست له نفسه أن

يفعلها مرة أخرى، والمهم أنه لا يصر على الفعل، ثم يقول: سأتوب عندما يأتى وقت التوبة (١) .

(١) قال النووى : قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى ؛ فلها ثلاثة شروط :

أحدها: أن يقلع عن المعصية .

والثانى: أن يندم على فعلها .

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً . فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى، فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ؛ فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه مكّنه منه أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها . ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة .

قال تعالى : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور: ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا** ﴾ (١) [التحريم: ٨] .

[رياض الصالحين: ٣٤، ٣٥]

(١) اختلفت عبارات السلف فى معنى التوبة النصوح حتى بلغت بضعًا وعشرين قولاً، ومآلها إلى شىء واحد يتضمن ثلاثة أشياء .

الأول: تعميم جميع الذنوب،واستغراقها ، بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته، ولا خطيئة إلا أتت عليها .

الثانى: إجماع العــزم والصدق بكليته عليها ، بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها .

الثالث: تخليصها من الشوائب الغريبة والعلل القادحة فى إخلاصها .

فالأول يتعلق بما يتوب منه ، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه ، والأخير يتعلق بمن يتوب إليه . فنصح التوبة : الصدق فيها ، والإخلاص ، وتعميم الذنوب بها .

وقد زعم بعض الجهال أن «نصوحًا» اسم رجل كان على عهد رسول الله ﷺ أمرهم الله أن يتوبوا كتوبته ، وهذا جهل بالتفسير والحديث والفقه ومعانى القرآن ، أفاده شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

وعن أبى هريرة رضى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » رواه البخارى(١) .

[بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين ١/ ٥١]

(١) أخرجه البخارى [٦٣٠٧]

الذين ورثوا الكتاب من بنى إسرائيل كانوا يصرون على المعصية، فإذا ارتكبوا المعصية قالوا: سيغفر لنا، ولم يقولوا: نتوب ليغفر لنا الله، كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨]، فكأن بنى إسرائيل فى معصيتهم مصرون على المعصية، وهم يزعمون كذبًا أن الله سيغفر لهم، فكأنهم استحلوا المعصية بأن جعلوها حلالاً، بدعوى أنه سيغفر لهم فى الآخرة، فخرجوا بذلك من دائرة المعصية إلى دائرة الكفر والعياذ بالله؛ لأن هناك فرقا بين أن تفعل الشىء وتقول هذه معصية لم أقدر على نفسى، أسأل الله تعالى أن يغفرها لى، وبين أن تقول إن هذا الشئ حلال وليس حرام، وكيف يكون حراماً وفيه وفيه، بمعنى أن تبرر تحليلك للحرام.

فإذا أخذنا الربا مثلاً: بعض الناس يحل الربا لهوى فى نفسه ويدافع عن حله. مع أن الله حرمه، نقول له: لا تُدْخِل نفسك فى الكفر؛ لأنك إذا حللت ما حرم الله تصبح كافرًا، وإن قلت هو حرام، ولكنى لم أقدر على نفسى تكون عاصيًا، وبنو إسرائيل استحلوا الإثم وقالوا: سيغفر لنا؛ ولذلك عندما يأتيهم عرض آخر يأخذونه ولا يتركونه ؛ إصرارًا على المعصية؛ واستحلالاً لما حرم الله.

على أننا يجب أن نلتفت إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩] أى أنهم تركوا الأعلى وأخذوا الأدنى، تركوا الجوهر وأخذوا العَرَض، ويقول الحق: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾(١) يعنى: يفعلون المعصية ولا يتوبون، بل إذا جاءت معصية أخرى فعلوها، مع أنهم قد ورثوا الكتاب، وفى الكتاب مأخوذ عليهم عهد، ما هو هذا العهد؟ يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ

عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَق﴾ فكأن الكتاب الذى ورثوه مأخوذ عليهم فيه عهد ألا يكذبوا على الله، وأن لا ينسبوا إليه ما لم يقله، ولكنهم مع ذلك يفعلون، بل إن الحق سبحانه وتعالى يزيدنا أيضًا بقوله : ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]
أى أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه، فلو أنهم ورثوه ولم يقرءُوه ربما كان لهم العذر، ولكنهم درسوا ما فيه، وكلمة «درس» تدل على تكرار الفعل، نقول: فلان درس الفقه على فلان أى تعلمه، أى: جلس إليه مرات ومرات حتى يتعلم، تكرارا للفعل، فالذى لم يدرس الفقه ولكنه قرأه؛ يكون قد قرأ مرة واحدة، ولكن الذى يدرس لابد أن يكرر، ويقرأ عدة مرات ويناقش(١).

إذن.. فهم ورثوا الكتاب وتعلموه، ليس عن ملكة ولكن دراسة، فهناك فرق بين العلم والملكة، فأنت تقول مثلاً : إننى أصنع هذا الشىء بطريقة أدق، أى أنك تدربت عليه، ولم تعد تفكر وأنت تفعله، ولكن العلم ليس كذلك، بل لابد أن نقرأ ونقرأ حتى نجيده. مثلاً: عندما يقابلنى إنسان صائم قد فعل شيئًا سهوًا، أقول له: إن الحكم كذا وكذا؛ لأن المسألة قد أصبحت عندى مَلَكَة ، بمجرد أن يقال لى الشىء أقول الحكم، ولكن الذى ما زال دارسًا إذا سألته هذا السؤال، فلابد أن يرجع إلى الكتب، يقرأ ويدرس؛ لأن العلم عنده لم يصبح ملكة.

النساج مثلاً: عندما يبدأ التعلم يحتاج إلى تركيز شديد؛ لكى يضع الخيوط فى النول الوضع الصحيح، وربما لو كلمته كلمة أخطأ؛ لأن تركيزه

---

(١) درست الكتاب أدرسه درساً أى: ذللته بكثرة القراءة، حتى خفَّ حفظه علىَّ. وأصل الدِّداسة الرياضة والتعهد للشىء. [لسان العرب: ٦/ ٧٩، ٨٠]

اهتز، ولكن عندما تصبح المسألة عنده ملكة، يتحدث معك وهو يضع الخيوط على النول دون أن يخطئ خطأ واحداً.

إذن.. فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أى كرروا قراءة التوراة تكرار الدارس للشيء، تمامًا كالذى يدرس القمح لابد أن يمر عليه عدة مرات بآلة الدرس.

والحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن هؤلاء من بنى إسرائيل؛ لا يأخذون هذا العرض عن غفلة، ولا عن عدم دراسة؛ لأنهم درسوه دراسة مستوعب، ولذلك فهم يأخذونه عن عمد بالنسبة لارتكاب المعصية، وإذا كان الحق قد تحدث عن أخذهم عرض الأدنى، فلابد أن يأتى بالمقابل بالدار الآخرة، التى يكون فيها الثواب الدائم والعقاب الدائم، وبذلك تكون قد حصلت على شيء وقتى زائل، وتركت الجوهر الدائم، والحق سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩] يطالبنا بأن نزن الأشياء ونفاضل بين العرض الزائل الوقتى، والشيء الدائم الذى لا يزول.

* فساد بنى إسرائيل *

قال الله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾[الإسراء: ٤]

كلمة: ﴿ وَقَضَيْنَا ﴾ تأخذ معانٍ متعددة، ولكنها تلتقى كلها بمعنى حكمنا، وما دمنا حكمنا فقد أعلمنا المحكوم عليه، فإن قلنا: إن معنى ﴿ قَضَيْنَا ﴾ أى: أعلمنا، فهذا صحيح، أو ﴿ قَضَيْنَا ﴾ أى: حكمنا حكما لا رجعة فيه يصح. والقضاء فصل فى نزاع[1]، والفصل فى النزاع يقتضى وجود من يفصل فيه، وهو لابد أن يكون مؤهلا للفصل، مثل القاضى الذى لابد أن يكون مؤهلا للحكم بين الناس، ولو فى عرف المتنازِعين، فقد يكونون جميعا بسطاء وأميين لا يعرفون شيئا، ولكنهم يرتضون واحداً مشهود له بقول كلمة الحق، وإعطاء الحقوق، فهذا عندهم أصبح قاضيا فيما بينهم .

إذن.. قوله: ﴿ قَضَيْنَا ﴾ أى: حكمنا فى نزاعهم، وكما قلنا: إذا كان القاضى من الناس فلابد أن يكون مؤهلا، ولو فى عرف المتخاصمين؛ وألا يحكم

---

(١) القضاء: الحكم، وأصله قضاى؛ لأنه من قضيت، إلا أن الياء لما جاءت بعد الألف هُمزت؛ قال ابن برى: صوابه بعد الألف الزائدة طرفًا همزت، والجمع: الأقضية، والقضية مثله، والجمع: القضايا على فعالى وأصله فعائل. وقضى عليه يقضى قضاء وقضية، الأخيرة مصدر كالأولى، والاسم القضية فقط؛ قال أبو بكر: قال أهل الحجاز: القاضى معناه فى اللغة: القاطع للأمور المحكم لها. واستُقْضى فلان أى: جُعل قاضيًا يحكم بين الناس. [لسان العرب: ١٥/ ١٨٦]

وقال السمرقندى فى قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يقول: أعلمنا وبيَّنا، كقوله: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ ﴾، [الحجر: ٦٦]، أى: أعلمناه وبيَّنَّاه. [بحر العلوم: ٢/ ٢٦٠]

بعلمه، ولكن يحكم بالبينة، فيسمع من المتخاصمين؛ والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

إذن.. فنحن فى حاجة إلى قاضٍ، والقاضى يحتاج إلى بينة، والبينة تأتى من المتخاصمين أو من الشهود، وبعد أن يقضى لابد أن يكون هناك سلطة أخرى تقوم بتنفيذ الحكم، فما بالك إذا كان القاضى هو الله تعالى الذى لا يحتاج إلى بينة، وهو الذى ينفذ ما يقضى به ؟ فالسلطات كلها فى يده سبحانه، ومادام قال: ﴿ قَضَيْنَا ﴾ فالحكم واقع لا محالة، والمسألة لا مفر منها؛ لأنه تعالى لا يحتاج إلى بينات، ولا أحد يستطيع أن يعمِّى عليه الحكم؛ لأن الإنسان قد يكون لبقا وفصيحا، فيعرض حجته بطريقة منظمة ومدروسة فيستميل القاضى، وقد يؤخذ بكلامه؛ لأن صاحب الحق لم يستطع أن يعبر عن حقه بحجة قوية.

وقد حذر الرسول ﷺ من ذلك عندما قال: «إنكم تختصمون إلىَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته فأقضى له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار»(١). فهنا رد الحكم إلى المحكوم له فلا يأخذ حق غيره ويقول: إن النبى قد حكم لى، كذلك لا يجوز لإنسان أن يأخذ من حق غيره شيئا، حتى ولو حكم له القاضى ما دام يعلم أن هذا ليس من حقه؛ لأن القاضى بشر، ولن يكون أفضل من رسول الله ﷺ ؛ لأنك إن عميت على قضاء الدنيا، فإنك لن تعمى على قضاء الله تعالى؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ: «استفت قلبك، وإن أفتاك الناس وأفتوك» (٢) أى أن فتوى

(١) أخرجه البخارى [٢٦٨٠]، ومسلم [١٧١٣/٤] واللفظ له. عن أم سلمة رضى الله عنها.

(٢) عن وابصة بن معبدٍ الأسدى ، أن رسول الله ﷺ قال لوابصة : «جئت تسأل عن البر والإثم قال : قلت: نعم، قال: فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال: « استفت =

المفتى لا تحل لك حراما؛ لأنك ربما تحايلت فى السؤال فجاءت الإجابة غير مطابقة لحالتك، فأنت مسئول أمام الله عن ذلك، فعليك أن تراجع نفسك هل أنت مستريح وقلبك مطمئن إلى هذه الفتوى ، أم لا .

إذن . . ﴿ قَضَيْنَا ﴾ ، أى حكمنا حكمًا أعلمناه إلى موسى ليقوله لبنى إسرائيل، والكتاب هنا هو «التوراة»، فأعلمهم الله تعالى بما يكون منهم حين استقبالهم لمنهج الله المنزل على رسله، وكان حين يحدث منهم شىء مما أعلمهم الله به أن يراجعوا أنفسهم ويسارعوا بالتوبة ، وأن يصدقوا ما يخبرهم به رسلهم .

وساعة ترى كلمة: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ المؤكدة باللام، فاعلم أن هناك قسما، والقسم يحتاج إلى جواب، فكأنه قسم دل عليه جوابه، وهو قسم بالذات العلية، أن بنى إسرائيل سيفسدون فى الأرض مرتين؛ لأن القسم لا يكون إلا بالله[1]. أو أننا ما دمنا ﴿ قَضَيْنَا ﴾، أى: حكمنا حكما مؤكدا لا يستطيع أحد أن يفلت منه، فهو جواب لـ ﴿ قَضَيْنَا ﴾؛ لأنه فى معنى القسم؛ لأن القسم إنما يجىء للتأكيد، والتأكيد هنا فى قوله: ﴿ قَضَيْنَا ﴾ .

ومعنى ﴿ فِى الْكِتَابِ ﴾ أى: فى التوراة، أى أن هذا الأمر أخبروا به فى التوراة التى نزلت على نبيهم موسى عليه السلام[2].

= نفسك، استفت قلبك يا وابصة- ثلاثا - البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك» .
أخرجه أحمد فى المسند [٤/ ٢٢٧]، و الدارمى [٢٥٢٩] واللفظ له .

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: «ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله، وإلا فليصمت». أخرجه البخارى [٣٨٣٦، ٦١٠٨، ٦٦٤٦، ٧٤٠١].

(٢) قال أبو حيان : واللام فى ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ جواب قسم ، فإما أن يُقدر محذوفًا ويكون متعلق القضاء محذوفًا، تقديره: «وقضينا إلى بنى إسرائيل بفسادهم فى الأرض وعلوهم»، ثم أقسم على وقوع ذلك وأنه كائن لامحالة، فحذف متعلق ﴿ قَضَيْنَا ﴾ =

وكلمة: ﴿لَتُفْسِدُن﴾ الإفساد: هو أن تعمد إلى الصالح فى ذاته فتخرجه عن صلاحه، فكل شىء فى الكون مصنوع لغاية، فإذا تركت الشىء ليؤدى غايته فقد أبقيته على صلاحه، وإذا عبثت به اختل عن أداء غايته فقد أفسدته، فالإفساد هو إخراج الصالح عن صلاحه، أى: عن الغاية التى خلق لها.

والحق سبحانه وتعالى أعطانا مقومات الحياة، ومقومات الحياة سبقت وجودنا، فقد خلق الله كل شىء فى الكون وسخَّره لنا قبل أن يخلقنا، ليس هذا فقط ، بل أعد لنا سبحانه فى كونه ما يستطيع الصالح بعقله وطاقته أن يزيده صلاحاً، فعلى الأقل إن لم تستطع أن تزيده صلاحا، فاتركه على حاله ولا تفسده؛ فإذا كان عندك بئر فى مكان ليس فيه ماء فلا تردمه، واتركه ليشرب منه الناس، فإن أردت أن تزيد صلاحه فعليك أن تبطن جداره من الداخل حتى يكون ماؤه نظيفًا ، وابنى له سورًا يحميه من نزول الرمال فيه، وزوده بالأوانى التى يشرب بها الناس، وإن أردت أن تزيده صلاحا فعليك أن تُنزل فيه مواسير، وتأتى بآلةٍ ترفع بها الماء فى «صهاريج» يأخذ منها الناس حاجتهم من الماء بسهولة، وإن استطعت أن تمد هذه المواسير حتى تصل إلى البيوت، فتوفر على الناس الوقت والجهد، فأنت بذلك زدت الصالح صلاحًا.

= وأبقى منصوب القسم المحذوف . ويجوز أن يكون ﴿قَضَيْنَا﴾ أجرى مجرى القسم و﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ جوابه، كقولهم: قضاء الله لأقومنّ. وقرأ أبو العالية وابن جبير « فى الكتب» على الجمع، والجمهور على الإفراد فاحتمل أن يريد به الجنس ، والظاهر أن يراد التوراة .

وقرأ ابن عباس ونصر بن على وجابر بن زيد: «لَتُفسدَنّ» بضم التاء وفتح السين مبنيًا للمفعول؛ أى: يُفسدكم غيركم . فقيل: من الإضلال، وقيل: من الغلبة .

[البحر المحيط : ٧/ ١٢]

والله تعـالى يقول: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(١)

أى: أنشاكم من الأرض، وجعل لكم فيها مقومات حياتكم، فإن أردت أن تثرى حياتك فأعمل عقلك المخلوق لله ليفكر، والطاقة المخلوقة فى أجهزتك لتعمل فى المادة التى خلقها الله فى الكون، فأنت لن تأتى بشىء من عندك، ولكنك فقط ستفكر بالعقل المخلوق لله، وتُعمل فكرك بالطاقة المخلوقة لله، وتتفاعل مع الأرض المخلوقة لله، هذا إن أردت أن تثرى حياتك، فأنت حين تزرع القمح تأخذ مقومات حياتك. ولكن إن أردت أن تزرع تفاحًا مثلاً، فاستعمل عقلك وفكر كيف تزرع هذه الأصناف التى فيها ترف الحياة.

إذن. . فالإفساد معناه إخراج الصالح عن صلاحه، بمعنى إخراجه عن المهمة التى وكِّلت إليه، والمطلوب منا أن نُبقى الصالح على صلاحه، أو أن نزيد الصالح صلاحًا ، فالناس الذين فكروا وعملوا لنا «صهاريج» للمياه العذبة أعلى من المنازل، زادوا الصالح صلاحا؛ لأنهم أوصلوا لنا المياه إلى المنازل، وهؤلاء استنبطوا هذه الفكرة من ظواهر الكون؛ لأنهم رأوا السيل حين ينزل على الجبال لا تحتفظ به الجبال، ولكنها تنزله إلى الوديان المنخفضة.

فحين نرفعه إلى أعلى نستطيع أن نوصله إلى الأقل علوا ، فالإفساد بالنسبة للماديات معروف، وكذلك بالنسبة للمعنويات، فمثلا الله سبحانه

---

(١) قال البقاعى: ﴿هُوَ﴾ أى: وحده ﴿أَنشَأَكُم﴾ أى: ابتدأ خلقكم ﴿مِّنَ الأَرْضِ﴾ بخلق آدم عليه السلام منها بغير واسطة، وبخلقكم من المنى - من الدم - وهو من الغذاء، وهو من النبات، وهو من الأرض، كما أنشأ أوثانكم منها ﴿وَ﴾ رفع مقداركم عليها بأن ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ﴾ أى: أهّلكم لما لم يؤهل له الأوثان من أن تكونوا عمارا ﴿فِيهَا﴾ فلا تنسوا حق إلهكم ، وما فضلكم به مـن حـق أنفسكم بخضوعكم لما لا يساويكم فكيف بمن أنشأكم وإياها ؛ والإنشاء : الابتداء بالإيجاد من غير استعانة بشىء من الأسباب . [نظم الدرر : ٩/٣١٨]

وتعالى ينزل لك منهجًا فتحرفه، أو تكتمه، أو تعرض عنه ولا تنفذ منه شيئا، أى أنك لا تعمل بهذا المنهج الإلهى، فهذا إفساد.

هنا الحق سبحانه وتعالى يقول عن بنى إسرائيل: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ مع أنهم أفسدوا أكثر من مرة، فهنا لابد أن نتوقف أمام كلمة: ﴿مَرَّتَيْنِ﴾، العلماء أخذوا يبحثون عن هاتين المرتين متى حدثتا فى التاريخ؟[1] ففسروا المرتين على أنهما قبل الإسلام، ولكنا نفهم قوله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، أى فسادًا وأنتم فى كنف الإسلام؛

(١) روى الطبرى عن عبد الله: أن الله عهد إلى بنى إسرائيل فى التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، فكان أول الفسادين: قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط، وكان يُدعى صحابين، فبعث الجنود، وكانت أساورته من أهل فارس، فهم أولو بأس شديد، فتحصنت بنو إسرائيل، وخرج فيهم بختنصر يتيماً مسكيناً، إنما خرج يستطعم، وتلطف حتى دخل المدينة فأتى مجالسهم، فسمعهم يقولون: لو يعلم عدوّنا ما قُذف فى قلوبنا من الرعب بذنوبنا ما أرادوا قتالنا، فخرج بختنصر حين سمع ذلك منهم، واشتد القيام على الجيش. فرجعوا، وذلك قول الله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾، ثم إن بنى إسرائيل تجهَّزوا، فغزوا النبط، فأصابوا منهم واستنقذوا ما فى أيديهم، فذلك قول الله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦].

وأما إفسادهم فى الأرض المرّة الآخرة، فلا اختلاف بين أهل العلم أنه كان قتلهم يحيى بن زكريا. [تفسير الطبرى: ١٥/ ٢١-٢٧] بتصرف.

وقال القرطبى: قال ابن عباس وابن مسعود: أول الفساد قتل زكريا. وقال ابن إسحاق: فسادهم فى المرة الأولى قتل شَعْيا نبى الله فى الشجرة؛ و ذلك أنه لما مات صديقه ملكهم مَرِج [1] أمرهم وتنافسوا على الملك وقتل بعضهم بعضاً وهم لايسمعون من نبيهم؛ فقال الله تعالى له: قم فى قومك أُوحِ على لسانك، فلما فرغ مما أوحى الله إليه عدوا عليه؛ ليقتلوه فهرب؛ فانفلقت له شجرة فدخل فيها، وأدركه الشيطان فأخذ هُدْبَة من ثوبه فأراهم إياها، فوضعوا المنشار فى وسطها، فنشروها =

لأنه تعالى حينما جاء بسورة الإسراء ، وأتى بقصة بنى إسرائيل؛ دلَّ على أن الإسلام للناس كافة، فكان الأولى أن نفسر الفساد الذى ذكرته الآية بأنه الفساد الذى يحدث بعد مجيء الإسلام، أمّا فساد ماقبل الإسلام لا دخل لنا به.

لأن الحق سبحانه يقول: ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ** ﴾ فلو كان الفساد مطلقًا، فقد أفسدوا كثيرًا، إذ قتلوا الأنبياء ، وبعد أن أنجاهم من فرعون بمعجزة، وجدوا قوما يعبدون الأصنام فقالوا: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، وعبدوا العجل، ورفضوا دخول الأرض المقدسة، فحرمت عليهم أربعين سنة عاشوها فى التيه، ثم حرفوا التوراة التى أنزلها الله عليهم،فنسوا بعضها،وكتموا بعضها، والباقى حرفوه،ولم يقتصروا على هذا،بل جاءوا بأشياء من عندهم وأضافوها إلى التوراة، وقالوا إنها من عند الله؛قال تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا** ﴾ [البقرة: ٧٩] .

فالذين قالوا: إن الفساد المذكور هو ما حدث أيام بختنصر، وأيام طالوت وجالوت(١). نقول لهم أنتم فهمتم هذا الفهم على أن الفساد سابق

= حتى قطعوها، وقطعوه فى وسطها. وذكر ابن إسحاق: أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتاً ولم يقتل وإنما المقتول شَعْيَا. [تفسير القرطبى: ١٠/ ٢١٥، ٢١٦]

(١) مرج الأمر: فسد واختلط والتبس المخرج فيه.

(١) قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ** ﴾ أى سلطنا عليكم جندًا من خلقنا أولى بأس شديد،أى: قوة وعدة وعدد وسلطنة شديدة ﴿ **فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ** ﴾ أى:تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أى: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدًا وكان وعدًا مفعولا .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسلطين عليهم من هم ؟

للإسلام،ولكن مانراه نحن أن الفساد مرتين يكون فى الإسلام، ولذلك يجب ربط القصة بسورة الإسراء، فقبل بعثة النبى ﷺ مباشرة كان أهل الكتاب أنفسهم يستفتحون به على الذين كفروا،ويقولون لهم: لقد أطل زمان نبى يأتى، فنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم.

إذن. . فهم الذين كانوا يستفتحون؛ لأنهم كانوا يعرفون النبى ﷺ بأوصافه التى ذكرتها كتبهم،بدليل أن الصادقين منهم آمنوا به،وقال كل منهم:لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى، ومعرفتى لمحمد أشد ؛لأنه

= فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزرى وجنوده سلط عليهم أولاً،ثم أديلوا عليه بعد ذلك،وقتل داود جالوت ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل «سنحاريب» وجنوده.

وعنه أيضًا وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل.

وقد ذكر ابن أبى حاتم له قصة عجيبة فى كيفية ترقيه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد وأنه كان فقيرًا مقعدًا ضعيفًا يستعطى الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس فقتل بها خلقًا كثيرًا من بنى إسرائيل.

وقد روى ابن جرير فى هذا المكان حديثًا أسنده عن حذيفة مرفوعًا مطولاً ، وهو حديث موضوع لا محالة لا يستريب فى ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته؟ وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزى رحمه الله،بأنه موضوع مكذوب.وكتب ذلك على حاشية الكتاب.وقد وردت فى هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحًا ،ونحن فى غنية عنها ولله الحمد.

وفيما قص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم.وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد. فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء.

وقد روى ابن جرير: بسنده عن يحيى بن سعيد قال:سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دمًا يغلى على كبا،فسألهم ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا ،وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم فسكن. =

موصوف عندهم؛ قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (١) [البقرة:١٤٦] .

فأهل الكتاب كانوا يعلمون أن هناك نبيا سيبعث، وكانوا يستفتحون بذلك على الكفار والمشركين فى زمانهم، ولكن حينما بعث الرسول ﷺ وظهرت الرسالة كان لهم موقف آخر؛ قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى

= وهذا صحيح إلى سعيد ابن المسيب وهذا هو المشهور وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقًا كثيرًا أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها ولو وجدنا ما هو صحيح أو مايقاربه لجازت كتابته وروايته. والله أعلم. [تفسيرابن كثير: ٣/ ٢٥, ٢٦] بتصرف.

(١) قال الشيخ رشيد رضا: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ ذكر فى الآية السابقة أن الذين أوتوا الكتاب يعلمون أن ما جاء به النبى فى أمر القبلة هو الحق من ربهم، ولكنهم ينكرون ويمكرون. وذكر فى هذه ما هو الأصل، والعلة فى ذلك العلم وذلك الإنكار، وهو أنهم يعرفون النبى ﷺ بما فى كتبهم من البشارة به ومن نعوته وصفاته التى لا تنطبق على غيره، وبما ظهر من آياته وآثار هدايته، كما يعرفون أبناءهم الذين يتولون تربيتهم وحياطتهم؛ حتى لا يفوتهم من أمرهم شيء. قال عبد الله بن سلام رضى الله عنه وكان من علماء اليهود وأحبارهم أنا أعلم به منى بابنى، فقال له عمر رضى الله عنه: لم ؟ قال: لأنى لست أشك فى محمد أنه نبى، فأما ولدى فلعل والدته خانت. فقد اعترف من هداه الله من أحبارهم كهذا العالم الجليل، وتميم الدارى من علماء النصارى، أنهم عرفوه ﷺ معرفة لا يتطرق إليها الشك ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه الحق الذى لا مرية فيه، فماذا يرجى منهم بعد هذا؟ وذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير فى: ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ لما ذكر من أمر القبلة، واستبعدوا عوده إلى الرسول مع تقدم ذكره فى الآيات، ومع ما يعهد من الاكتفاء بالقرائن فى مثل هذا التعبير. وقد أسند هذا الكتمان إلى فريق منهم إذ لم يكونوا كلهم كذلك؛ فإن منهم من اعترف بالحق وآمن واهتدى به، ومنهم من كان يجحده عن جهل ولو علم به لجاز أن يقبله، وهذا من دقة حكم القرآن على الأمم بالعدل. [تفسير المنار : ٢/ ١٧]

الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ مع أنهم كفروا بالرسول ﷺ ولم يؤمنوا به رغم معرفتهم بصدقة ونبوته، فإن الرسول ﷺ عاملهم بالحسنى حينما هاجر إلى المدينة، وأبرم معهم معاهدة للتعاون والتعايش والدفاع عـن المدينة ضد أى عدوان، ووفى لهم رسول الله ﷺ بمـا عاهـدهم عليه، فلما غدروا واعتدوا على حرمات المسلمين، وحالفوا المشركين، وتآمروا على قتل الرسول ﷺ، فما كان من النبى إلا أن أجلاهم عن المدينة، وقتل الذين تآمروا عليه وغدروا بعهودهم معه.

إذن.. فالفساد الأول منهم كان بعد مجىء الإسلام، وهو أنهم لم يؤمنوا بالرسـول الذى كانـوا يستفتحون بـه على الذيـن كفروا، مع أن علاماته وأوصافه مذكورة عندهم فكفروا به، ومع ذلك فالرسول ﷺ عايشهم فى المدينة، وعقد معهم معاهدة ووفّى لهم، فلما غدروا وخانوا حاربهم وأجلاهم عن المدينة، فهذه هى الإفادة الأولى.

هنا النص القرآنى يقول: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾[1]

القرآن يقول: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ وأنت لا تقول: «إذا» إلا فـى أمر لم يحدث بعد، فتقول مثلاً: إذا جـاءك فلان فأكرمه[1]. فلو أن الفساد

(١) قال سيد قطب: ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد، فسلط الله على بنى إسرائيل من قهرهم أول مرة، ثم سلط عليهم من شردهم فى الأرض، ودمر مملكتهم فيها تدميراً.
ولا ينـص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بنى إسرائيل؛ لأن النص عليها لايزيد فى العبرة شيئاً. والعبرة هى المطلوبة هنا. وبيان سنة الله فى الخلق هو المقصود.
ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول، بأن هذا الدمار قد يكون طريقـاً للرحمة: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ إن أفدتم منه عبرة.
فأما إذا عاد بنو إسـرائيل إلـى الإفساد فى الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضيه: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾. =

المقصود كان كما يقولون أيام بختنصر وأيام طالوت وجالوت لما قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ ﴾؛ لأنه جاء وانتهى قبل الإسلام، كما أن الوعد لا يكون بشيء مضى، وإنما يكون بشيء مستقبل، والآية كما رأينا تقول: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾ .

إذن . . فالفساد المذكور مقصود به أنه سيحدث في ظل الإسلام، بدليل قوله: ﴿ فَإِذَا ﴾؛ لأن «إذا» لا تقال إلا لشيء لم يأت بعد، وكلمة «وعد» لا تكون بشيء جاء، وإنما تخبر عن شيء سيأتي في المستقبل.

ثم تقول الآيات: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ الحق سبحانه وتعالى يخبرهم أنهم حينما يفسدون الفساد الأول سيبعث عليهم جنداً من عباده المؤمنين، ومعروف أن جالوت وجنوده كانو كافرين ، فهل هؤلاء هم عباد الله الذين بعثهم للانتقام من بني إسرائيل لفسادهم؟

كلمة «عباد» هذه وقف عندها العلماء(1) : فمنهم من قال: هي مثل

= ولقد عادوا إلى الإفساد، فسلط الله عليهم المسلمين، فأخرجوهم من الجزيرة كلها. ثم عادوا إلى الإفساد، فسلط عليهم عباداً آخرين، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم «هتلر». . ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة «إسرائيل» التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات. وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب؛ تصديقاً لوعد الله القاطع، وفاقاً لسنته التي لاتتخلف، وإن غداً لناظره قريب!
[في ظلال القرآن: ٤/ ٢٢١٤]

(١) قال المرادي: «إذا»: لفظ مشترك يكون اسماً وحرفاً، فإذا كانت اسماً فلها أقسام:
الأول: أن تكون ظرفاً لما يستقبل من الزمان متضمنةً معنى الشرط.
الثاني: أن تكون ظرفاً لما يستقبل من الزمان مجردة من معنى الشرط.
الثالث: أن تكون ظرفاً لما مضى من الزمان، واقعة موقع «إذْ».
الرابع: أن تخرج عن الظرفية، فتكون اسماً، مجرورة بـ «حتى».
[الجنى الداني في حروف المعاني: ٣٦٧، ٣٧١] بتصرف.

كلمة عبيد تماما، تطلق على المؤمن والكافر، ويستدل على كلامه بدليل من القرآن فيورد قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فيقولون: إن القرآن هنا أطلق كلمة «عباد» على الكافرين، فيكون على هذا الرأى جالوت من العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل؛ ليقضوا على فسادهم وظلمهم.

وجاءوا بدليل آخر ليبرهنوا على أن كلمة عباد تشمل الكافرين، فذكروا

(١) قال الراغب الأصفهانى : والعبد يقال على أربعة أضرب :

الأول: عبد بحكم الشرع وهو الإنسان الذى يصح بيعه وابتياعه نحو: ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ [البقرة:١٧٨]، ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [النحل:٧٥].

الثانى: عبد بالإيجاد وذلك ليس إلا لله، وإياه قصد بقوله : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم : ٩٣].

والثالث : عبد بالعبادة والخدمة والناس فى هذا ضربان :

عبد لله مخلصًا وهو المقصود بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿أنزل عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] ، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] ، ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي﴾، ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]. وعبد للدنيا وأعراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها، وعلى هذا النحو يصح أن يقال: ليس كل إنسان عبد الله، فإن العبد على هذا بمعنى العابد، لكن العبد أبلغ من العابد، والناس كلهم عباد الله، بل الأشياء كلها كذلك، لكن بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار.

وجمع العبد الذى هو مسترق عبيد وقيل عِبِدًا .

وجمع العبد الذى هو العابد: عباد، فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعم من العباد، ولهذا قال : ﴿وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] فنبه أنه لا يظلم من يختص بعبادته، ومن انتسب إلى غيره من الذين تسموا بعبد الشمس وعبد اللات ونحو ذلك .

ويقال: طريق معبد أى مذلل بالوطء، وبعير معبد مذلل بالقطران، وعبدت فلانا إذا ذللته وإذا اتخذته عبدًا ؛ قال تعالى : ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] .

[المفردات فى غريب القرآن : ٣٣١]

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ وعلى ذلك ذهب هذا الفريق من العلماء إلى أن العباد الذين بعثهم الله على بنى إسرائيل، وجاسوا خلال الديار لا يشترط فيهم أن يكونوا مؤمنين، ويصح أن يكونوا كافرين، وسلطهم الله عليهم؛ لأن الحق سبحانه وتعالى حين يريد أن ينتقم من ظالم، يسلط عليه ظالمًا مثله، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩] .

نقول لهم: أنتم استشهدتم بالقرآن على الكافرين، وأتيتم بدليلين من القرآن، ونحن سنأتى بأدلة مقابلة.

أولا: من هم عباد الرحمن؟ قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥)﴾ [الفرقان]. هذه بعض أوصاف عباد الرحمن.

وهناك أوصاف أخرى كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] فعباد الرحمن هم المؤمنون، وإبليس نفسه يعترف بذلك فى قوله مخاطباً الحق سبحانه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص] فالذين قالوا: إن كلمة ﴿عِبَادٌ﴾ تطلق على المؤمن والكافر جاءوا بدليلين من القرآن الكريم، ونحن جئنا بدليلين على أنها لا تطلق إلا على المؤمنين.

وحتى نحسم هذه القضية نقول: إن كلمة «عباد» جمع، «وعبيد» جمع، والمفرد منهما عبد، فما الفرق بين الاثنين ؟ قالوا: لو نظرت إلى الكون

كله مؤمنه وكافره؛ لوجدت أن هؤلاء العباد جميعا لهم اختيارات فى أشياء، ومقهورون فى أشياء.

إذن. . فالكل عبيد، فإن كان لك اختيار فى شىء فأنت مقهور فى أشياء كثيرة ، تستوى فيها أنت والكافر والعاصى .

إذن. . فكل الخلق عبيد فيما لا اختيار لهم فيه، ثم ينقسمون إلى قسمين: عبيد يظلون كما هم عبيدًا ولا يصيرون عبادا، وعبيدٌ يصبحون عبادًا. فهو سبحانه خلقك صالحا لأن تؤمن وأن تكفر، وإنما طلب منك أن تؤمن به وتتبع منهجه، فالمؤمن يأتى فى الشىء الذى له فيه اختيار، ويقول: يارب ليس لى اختيار فى هذا، فالذى تأمرنى به أنفذه، فلا اختيار لى إلا ما اخترته لى أنت يارب؛ ففى هذه الحالة العبيد يصبحون عبادًا.

إذن. . فالعباد هم الذين يسلّمون أوامرهم كلها لله فى منطقة اختيارهم، ويقولون: يارب، سننفذ ما تريد، فليست لنا إرادة أو اختيار يخالف ما أمرتنا به؛ فالعباد هم الذين تنازلوا عن اختيارهم فى الأشياء المباحة، وقالوا: يارب، أنت خلقتنا مختارين فى أن نطيع ونعصى، ولكننا سننفذ ما تريد، كما لو كنت خلقتنا مقهورين على ذلك .

إذن. . فكلمة عباد تطلق على من تنازل عن منطقة الاختيار، وجعل مراد الله فوق اختياره، فالكفار ليسوا عبادا لله، ولكنهم عبيد فقط؛ لأنهم استعملوا اختيارهم وخالفوا أوامر الله، ولكن المؤمن نفذ ما له فيه اختيار وفق مراد الله ؛ فهو مستسلم لأمر الله طائع له.

إذن لماذا وصف القرآن هؤلاء الكفار يوم القيامة بأنهم عباد لله؟ نقول: لابد أن نفهم أن منطقة الاختيار تنشأ فى دار التكليف، أى: فى الدنيا. فالكافرون ليسوا عباد الله فى الدنيا؛ لأنهم تمردوا واختاروا غير منهج الله.

والعبادُ هم الذين اختاروا منهج الله، ولكنهم فى ذات الوقت عبيد

لله؛ لأنهم لم يخرجوا عن مراداته فى القهريات، عكس الكفار الذين خرجوا عن مراداته فى الاختياريات فقط. فهم عبيد وليسوا عبادًا، ولكن إذا جاءت الآخرة فليس للإنسان اختيار هناك لأن الكل مقهور.

إذن.. فالكل عباد فى الآخرة، وليس الكل عبادا فى الدنيا.

إذن.. فالحق سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿**عِبَادِى**﴾، أى الذين تنازلوا عن اختيارهم، وخضعوا لمنهج الله فيما لهم فيه اختيار، وجعلوا أنفسهم كأنهم مقهورون على طاعة الله فلم يعصوه. ولكن الكافر لم يخرج عن مرتبة العبيد؛ لأنه أخذ اختياره ونفذه فى غير المطلوب.

فحين يقول سبحانه فى الآخرة: ﴿**أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ**﴾ [الفرقان: ١٧] فالمعنى أنهم أصبحوا عبادا؛ لأنهم ليس لهم اختيار فى شىء.

إذن.. فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ**﴾ أى: بعثنا عليكم عبادًا مؤمنين، ويكون الإفساد قد حدث بعد الإسلام وليس قبله، وقوله: ﴿**فَإِذَا جَاءَ**﴾ دليل على أنه لم يحدث بعد، فالإفساد الأول إذن كان حينما خان اليهود العهود، وحاولوا أن يغدروا بالنبى ﷺ، وتحالفوا ضده وتآمروا على قتله، فما كان منه ﷺ إلا أن جاس خلال ديارهم وطردهم من المدينة، وقتل بعضهم وأخذ بعض أموالهم. وكان المسلمون وقتها أولى بأس شديد، أى: أصحاب قوة ومنعة، وكلمة ﴿**جَاسُوا**﴾ معناها طلبوا باستقصاء واهتمام[1]، وقوله: ﴿**خِلالَ الدِّيَارِ**﴾ أى: بين الديار؛ فالخلال: هى منفرجات ما بين

(١) الجوس: مصدر جاس جوسًا وجوسانًا، تردّد. وفى التنزيل العزيز: ﴿**فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ**﴾ أى: تردّدوا بينها للغارة، وهو الجوسان، وقال الفراء: قتلوكم بين بيوتكم، قال: وجاسوا وحاسوا بمعنى واحد يذهبون ويجيئون؛ وقال الزجاج ﴿**فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ**﴾ أى: فطافوا فى خلال الديار ينظرون هل بقى أحد لم يقتلوه؛ وفى =

الأشياء[1]، فجاسوا خلالها، أى طلبوا ما فيها باستقصاء، وهذا المعنى يؤديه المصطلح المعاصر حين يقولون عن رجال الأمن: إنهم مشَّطوا المنطقة بحثا عن المجرمين. فمعنى مشَّط المنطقة أى: عمل كعمل المشط الذى يتخلل بين الشعر، إذن. . فمعنى﴿جَاسُوا﴾ أى أن المسلمين تتبعوهم تتبعا بحيث لا يخفى عليهم أحد أبدًا، وهذا ما حدث لهم فى المدينة مع بنى قينقاع، وبنى قريظة، وبنى النضير، وفى خيبر.

إذن. . فالإفساد الأول هو ما حدث منهم فى المدينة بعد الإسلام.

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ إياك أن تظن أنه كأى وعد، قد يوفى به وقد لا يوفى؛ لأن الإنسان إذا وعد وعدًا بأن يلقاك غدًا فى مكان كذا ليتكلم معك فى كذا ، فهذا الإنسان قد يمرض فلا يأتى، وقد يغير رأيه فلا يوفى بالوعد. إنما إذا كان الوعد ممن يقدر على إنفاذ ما وعد به فهو لا شك سيحدث؛ لأنه وعد من الله سبحانه وتعالى .

قد يقول قائل: وهل هذا وعد؟ إذا كان سيحدث قتال وطرد وبحث خلال الديار عن أحد بقى منهم ليقتلوه أو يُجلوه فهذا وعيد؛ لأن الوعد يكون فى الخير، والوعيد يطلق على الشر، نقول: الوعيد يطلق على

= الصحاح: جاسوا خلال الديار أى تخللوها فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجل الأخبار، أى: يطلبها، وكذلك الاجتياس. والجوسان بالتحريك: الطوفان بالليل، وكل ما وطىء، فقد جيس. والجوس: كالدوس. ورجل جواس: يجوس كل شىء يدوسه. وجاء يجوس الناس أى يتخطاهم. والجوس: طلب الشىء باستقصاء. الأصمعى: تركت فلانا يجوس فى بنى فلان ويجوسهم أى يدوسهم ويطلب فيهم؛ وأنشد أبو عبيد:

يجوس عمارة ويكف أخرى لنا حتى يجاوزها دليل

[لسان العرب : ٦/ ٤٣]

(١) قال اللحيانى : جلسنا خلال الحى وخلال دور القوم أى : جلسنا بين البيوت ووسط الدور ، قال : وكذلك يقال سرنا خِلَلَ العدُوّ وخلالهم أى : بينهم .

[لسان العرب : ١١/ ٢١٣]

الشر، والوعد يطلق على الخير والشر، فقد يكون الشيء في ظاهره شرًا، ولكن في باطنه خير، فحين يؤدب ربنا جماعة أو قومًا لأنهم انحرفوا، فإن فسروا ذلك بأنه شر، فهو بالنسبة لهم خير.

فمثلا الولد الذى يهمل دروسه ولا يذاكر، حين يعاقبه أبوه وينهره على إهماله، هو فى الظاهر يمنعه من اللعب الذى يحبه، ولكنه فى الواقع ينفعه ويأخذه إلى ما يسعده بعد ذلك فى المستقبل، فهو خير له، فإذا استفاد الإنسان من المحنة فهذا خير له.

إذن.. فعقوبة الإنسان لمن يحبه على شيء مخالف هو فى ظاهره إيلام له، فهو وعيد، إنما لو نظرت إلى الهدف من ذلك فى المستقبل وأنه يريد أن يصلحه لوجدته خيرًا، وكلمة ﴿ **عَلَيْكُم** ﴾ تفيد العلو والسيطرة، وأنه لم يفلت من اليهود أحد، وكان هذا الوعد مفعولا؛ لأنه وعد من قادر على الإنفاذ، ولا توجد قوة تحول بين مجيء ما وعد به سبحانه وبين تحقيقه، وقد حدث ذلك، وجاس المسلمون خلال ديارهم، وأجلوهم عن المدينة وخيبر، ولكن هل ظل الأمر كذلك ؟

لم يظل الأمر على هذا الحال؛ لأن الله تعالى قال بعد ذلك: ﴿ **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا** ﴾ أى: يا بنى إسرائيل سنرد لكم الكرة عليهم، لماذا؟ لأنهم تنصلوا من صفة عباد الله، فهم انتصروا وجاسوا خلال الديار؛ لأنهم كانوا يحملون صفة ﴿ **عِبَادًا لَّنَا** ﴾، فإن تخلوا عن هذا الوصف نسلطكم عليهم، حتى يعلموا أنهم إن تخلوا عن منهج ربهم، وعن كونهم عبادًا لله، فالذى غلبوه بالأمس هو الذى يغلبهم. انظر التأديب الإلهى!!

ومعنى: ﴿ **رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ** ﴾ أى: نصرناكم عليهم، والكرة من الكر، وهو عكس الفر، ولكن لماذا نصرناكم عليهم؟ لأنهم تركوا المنهج

الذي جعلهم في الماضي عبادا لنا، فسلطكم الله عليهم، أى سلط الله بني إسرائيل على المسلمين لأنهم تخلوا عن منهج الله، لكن هل يظل الأمر كذلك؟ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ والنفير: هو ما يستنفره الإنسان لينصره، فهم عندهم أموال وبنون[1]، ولكن هذا لا يكفى لأن تكون لهم الكَرة على المسلمين، فلابـد أن ينفر إليهم أحد حتى يكون لهم الكَرة، أي: تتدخل قوى خارجية لتنصرهم علينا.

وإذا استعرضنا المعارك التى حدثت بين المسلمين واليهود منذ مجيء الإسلام؛ نجد أنه منذ معارك المدينة وإخراج اليهود منها ومن خيبر، لم تحدث أى معارك أخرى إلا في هذا القرن، حينما اغتصبوا أرض فلسطين لإقامة وطن قومي عليها، وجاءوا بقدهم وقديدهم تدعمهم الدول الاستعمارية في الشرق اللاديني والغرب الصليبي، وهذا هو النفير الذى ساعدهم، كما أنهم أصحاب دنيا المال والبنوك في العالم، وأبناؤهم يتقلّدون أعلى المناصب العالمية، والدول الباغية على الإسلام تساعدهم وتمدهم بأسباب القوة والنصر؛ ولذلك لم تحدث معركة بينهم وبين المسلمين منذ عهد النبي ﷺ إلا في هذا العصر، أي بعد مدة طويلة؛ لذلك جاء التعبير القرآني بقوله تعالـى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ و﴿ ثُمْ ﴾ تفيد التراخي؛ لأن الفاء حرف عطف يدل على أن هذه بعد تلك مباشرة؛ ولكن ﴿ ثُمْ ﴾ تدل على أن هناك فترة بين الحدثين؛ ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس].

إذن.. ﴿ ثُمْ ﴾ دلت على الهوة الزمنية بين الإفساد الأول وتأديبهم على أيدى المؤمنين في المدينة، وبين إعادة الكرة لهم علينا حينما تخلينا عن

---

(١) قال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ قال أبو عبيدة: النفير: العدد من الرجال. فالمعنى: أكثر رجالاً من عدوكم. والنفير: من ينفر مع الرجل من عشيرته. ويجوز أن يكون النفير جمع نفر. [فتح القدير: ٣/ ٢١٥]

منهج ﴿ عِبَادًا لَّنَا ﴾ .

ولذلك نجد أنه منذ أحداث المدينة ومعركة خيبر، لم يحدث أى احتكاك بيننا وبينهم إلا بعد أن صدر وعد بلفور بإعطائهم وطنا قوميا فى فلسطين، وتدفقت عليهم المساعدات والهجرات من القوى الاستعمارية الكارهة للإسلام، وأقاموا دولة وانتصروا علينا.

إذن. . فالكَرة جاءت لهم؛ وذلك نتيجة أننا تخلينا عن منهج ﴿ عِبَادًا لَّنَا ﴾، فمنهج ربنا كان مسيطراً ومهيمنًا ويحكم حياة المسلمين، لكنهم تخلوا عنه، وكل دولة اختارت نظام حكم على هواها مقتبس من الغرب والشرق، وتفرقنا بعد أن كنا أمة واحدة.

إذن. . فنحن الآن فى زمن الكَرة لهم، فإن أردنا أن تأتى الكرة الثانية: ﴿ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ فلنرجع إلى منهج ﴿ عِبَادًا لَّنَا ﴾، أى نرجع عباداً لله سبحانه وتعالى، وانظر إلى قول الله سبحانه فى هذه الآية تجده مطابقًا لواقعنا الحالى تمامًا، حيث يقول سبحانه: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ فالذين يساعدونهم أكثر من الذين يساعدوننا .

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: ٧] هنا قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ ﴾ يدل على أنهم فى شك أن يحسنوا، أى أن الحق سبحانه يقول لهم: لا تغتروا بالنصر عليهم؛ لأنهم حينما كانوا عباداً لنا هزموكم، وجاسوا خلال الديار، ولكن حين تخلوا عن منهج ﴿ عِبَادًا لَّنَا ﴾ سلطناكم عليهم؛ لأن الله لا يظلم أحداً فإن أحسنتم فلأنفسكم ، وإن أسأتم فعليها، ولكن هل تظل الكرة لهم إلى

الأبد وتنتهى المسألة ؟ لا؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال بعد ذلك: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]؛ لأنهم سيفسدون فى الأرض مرتين، فى المرة الأولى نقضوا العهود فى المدينة، فرسول الله وصحابته جاسوا خلال الديار وطردوهم ، وانتصروا عليهم، وبعد ذلك. عادت لهم الكرة؛ لأننا تنحينا عن منهج ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ ،وبعد ذلك قال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، أى أن هذه سنن كونية، فالذى يحسن يحسن لنفسه، والذى يسيء فعليها ، فلو كان اليهود سيحسنون ما كان ليأتى وعد الآخرة.

إذن. فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ دل على أنهم لن يحسنوا، وقوله تعالى: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ دليل على أننا سننتبه، وتكون عندنا يقظة، ونعود إلى منهج ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾، وساعة أن نعود إلى منهج ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ نسوء وجوههم .. ولماذا وجوههم ؟ قالوا: لأن الوجه هو السمة المعبرة عن نوازع النفس الإنسانية، فساعة تقابل شخصًا إن كان مسرورًا يظهر فى وجهه، وإن كان حزينا ترى ذلك على وجهه، ومعنى ليسوءوا وجوهكم أى ليسوءوا أشرف شيء فيكم، وتظهر انفعالات السوء على وجوهكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لو أننا أمعنا النظر فى هذه الآية القرآنية، نجد أنه فى المرة الأولى لم يحدث دخول مسجد؛ لأن عمر رضى الله عنه حينما دخل هناك لم يكن المسجد الأقصى تبعًا لليهود، ولكنه كان تبعًا للرومان، فدخول عمر للمسجد لم يكن إساءة لليهود؛ لأن المسجد كان تابعًا للرومان، لكن فى الآية يقول الله

جل وعلا: ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ كأن المسجد سيكون تحت أيديهم، فمن ضمن الإساءة أن المسلمين سيدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة عليكم؛ لأن الدخول أول مرة فى عهد عمر، لم يكن المسجد وقتها تابعًا لليهود، فدخوله لم يكن إساءة لهم، إنما كان إساءة للرومان، ولكن كون دخول المسلمين للمسجد فى المرة الثانية فيه إساءة لليهود، فهذا دليل على أن المسجد سيكون تحت سيطرتهم، ولا يقال: ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، إلا إذا كان بين الدخولين خروج، وإلا فلو كان المسجد تحت أيدينا مثل أيام عمر، فلا يقال إننا سندخل المسجد؛ لأننا سنكون فيه.

إذن.. فقوله تعالى: ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ يدل على أننا خرجنا، فخروجنا الآن من المسجد الأقصى تصديق لنبوءة القرآن ولوعد القرآن، وليقول لنا إذا أردتم أن تظلوا على عهدكم الأول، وأن يعود نصر الله لكم فعليكم أن تعودوا عبادًا لنا. وكلمة: ﴿ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ تدل على أنها المرة التى لن تتكرر.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾ القياس فى الأسلوب كان يقتضى أن يقول: وليتبروا ما علوتم، وهذا يدل على أن هناك فترة يبنون فيها ويصنعون كذا وكذا؛ لأن هذا ما سنتبره. إذن.. فقول الله تعالى: ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾ دل على أن هناك فترة يبنون ويشيدون فيها، ولم يقل وليتبروا ما علوتم، وهذا دليل على أن ما علوا ليسوا هم فقط، وإنما هناك كثير من القوى تقف وراءهم وتساعدهم؛ لأنهم وحدهم ليس لهم قوة، ولكن قوتهم بغيرهم، قال تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٢] وقوله ﴿ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى: بعهد يعيشون فى ظله؛ كما عاشوا فى ظل عهد رسول الله ﷺ

لهم في المدينة، أو من الناس الأقوياء الذين يدافعون عنهم الآن.

إذن.. فنحن في انتظار مجيء وعد الآخرة، ووعد الآخرة في هذه السورة ورد مرتين:

الأولى: في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ لأن الوجه أشرف شيء في الإنسان، وهو محل الكرامة والعزة للإنسان، فمعنى أن تُسيءَ وجهه أي: تذله وتهينه.

الثانية: قول الحق في الآية التي تليها: ﴿**عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ**﴾ وهذا لن يأتي إلا بعد مجيء وعد الآخرة، ووعد الآخرة لن يأتي إلا كما جاء في المرة الأولى ساعة نتبع منهج ﴿**عِبَادًا لَّنَا**﴾، وحين يحدث ذلك يعايشهم الإسلام المعايشة الأولى التي كانت في المدينة.

وقوله تعالى: ﴿**عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا**﴾ معنى فلان يرحم فلانًا أي: فلان الأخير في موقف يستحق فيه الرحمة، أي: أنهم لن يكون لهم دولة ولا كيان مستقل، بل يعيشون في كنف رحمة الإسلام، ويحذرهم الحق سبحانه من أنهم إذا عادوا إلى الفساد عاد الله عليهم بالعذاب والانتقام.

وهناك لفتة أخرى إلى وعد الآخرة، ففي المرة الأولى أفسدوا، وكان هذا في عهد النبي ﷺ، ثم دخلنا المسجد في عهد عمر، ثم صارت لهم الكَرة عندما ابتعدنا عن صفة ﴿**عِبَادًا لَّنَا**﴾، ونحن في انتظار تحقيق قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا**﴾، وكلمة ﴿**وَعْدُ الآخِرَةِ**﴾ تدل على أن الوعد آتٍ بالتأكيد، وهذا يتطلب منا أن نعود إلى الله؛ حتى نحقق

صفة ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾،وأن نعتبر بما حدث لنا حينما بعدنا عن منهج ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ .

قال تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣]: فالمحنة يجب أن تجعل المسلم يفيق ويعود إلى ربه ضارعًا طائعًا منيبًا، وكلمة ﴿وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ وردت أيضًا في آخر سورة الإسراء في قول الحق سبحانه: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء:١٠٤] . وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد موسى عليه السلام، وقوله: ﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾: أنت إذا سمعت واحدا يقول لك: اسكن، فلابد أن يحدد لك مكانًا من الأرض لتسكنه، ولكن أن يقول لك اسكن الأرض، فأنت موجود على الأرض، فلابد أن يحدد لك مكان السكن.

إذن.. فمعنى قوله تعالى: ﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ أي أنهم سيظلون مبعثرين ومقطعين في الأرض أممًا، ولا يسكنون في مكان محدد، ولايكون لهم وطن خاص بهم، فكان يعيش في كل بلد جزء منهم، وكانت هذه البلاد كثيرًا ما تشكو منهم وتنقلب عليهم وتنتقم منهم فتقتلهم وتشردهم؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وكلمة ﴿تَأَذَّنَ﴾ أي: أعلم.

وقد صدق الله فقطعهم في الأرض أممًا، وظلوا على هذا الحال حتى تجمع جنود الباطل؛ ليجعلوا لهم وطنًا قوميًا ويبحثوا عن المكان،ويستقر رأيهم على إقامة هذا الوطن في أرض فلسطين المسلمة،ونحن نظن أن

هذه نكاية فينا وهذا خطأ، لماذا ؟لأن الله تعالى يريد منا أن نضربهم الضربة الإيمانية من جنود موصوفين بأنهم: ﴿ **عِبَادًا لَّنَا** ﴾، فنحن لا نستطيع أن نواجههم فى الأرض جميعًا.

قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا** ﴾ أى: جمعناكم من كل مكان وجئنا بكم فى مكان واحد حتى يسهل ضربكم.

إذن . . ففكرة التجمع لليهود التى نادى بها بفلور، وأيدتها بريطانيا وأيدتها أمريكا، وكل الدول المعادية للإسلام، هى فى الحقيقة خدمة لقضية الإسلام، فبعد أن كانوا مبعثرين يسكنون فى شتى بقاع العالم، ولا نستطيع أن تتبعهم فى كل بقاع الأرض، يأتى بهم الله مجتمعين؛ حتى يسهل ضربهم وتخليص العالم من شرهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا** ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨] كلمة: ﴿ **عَسَى** ﴾ تدل على الرجاء، ﴿ **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ** ﴾ تدل على أنهم سيكونون أذلاء مقهورين، وإن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى ضربكم والانتقام منكم، وهذا فى الدنيا بالإضافة إلى عذاب الآخرة، والمعنى: عسى ربكم أن يرحمكم بأن تعيشوا فى كنف الإسلام معايشة؛ كما عشتموها فى بداية الإسلام بالمدينة مع رسول الله ﷺ، وبلغت هذه المعايشة أن رسول الله ﷺ رهن درعه عند يهودى مقابل ثلاثين صاعاً من الشعير، وتوفى وهو مرهون عنده (١).

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت: «توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعاً من شعير».
وقال يعلى: حدثنا الأعمش: «درع من حديد».
وقال معلى: حدثنا عبد الواحد عن الأعمش وقال: «رهنه درعاً من حديد».
أخرجه البخارى [٢٩١٦، ٤٤٦٧]

إذن.. قولــه تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ دليـل علـى عظمة الله ورحمته، فلا يزال سبحانه يخاطب الكـافرين والملحـدين والمشـركين الذين لا يؤمنون بكتابه، ويعاندون رسـول الله، وهـو آخـر رسـول أرسله الله، ومع ذلك لا يقنطهم الله من رحمته، ويفتح لهم باب الأمل فى الرحمة والمغفرة، ويصف نفسه بأنه ربهم، فمهما فعلوا فهو ربهم، والرب هــو مـن يتولى التربية ويعطى بغير حساب، فهو سبحانه لم يضن بمقومات الحياة على الكافر، بل أعطاه من كل شىء من الرزق ومقومات الحياة؛ لأن هذا عطاء ربوبية، وعطــاء الربوبيــة- كمــا قلنا - للجميع: للمؤمن والكافر، والطائع والعاصـى، لكن عـطاء الألوهيـة فــى التكليـف افعل ولا تفعل، للمؤمن الذى يتبع المنهج فقط.

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ [الإسراء: ٨] حتى لا يفهموا أن الحروب والمفاسد التى يعاقبون عليها فى الدنيا تبرئهم من عذاب الآخرة؛ لأن العقوبة علـى الذنب للمؤمـن تبرئ مــن عقـاب الآخرة، كالحدود مثلاً، وإلا استوى من أقيم عليه الحد ومن أفلت من العقوبة، فمثلا: واحد سرق وقطعت يده، وآخر سرق ولـم يعرفه أحد ولم يعاقب، فلو تساوى الاثنان فى عقوبة الآخرة ففى هذا ظلم؛ لأن هذا قطعت يده، وهذا لم يصبه أذى، فالذى قطعت يده تطهره عقوبة الدنيا، لكن إذا كان الجانى غير مؤمن أصلاً، فعذاب الدنيا لا يعفيه من عقاب الآخرة.

ومعنى: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾، ساعة تسمع كلمة: ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ مثلاً: جعلت الطين إناء، أو جعلت الرمل كوباً، أو جعلت القطن ثوبًا، أى: صيرت شيئًا إلى شىء آخر، ﴿ فَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ أى: خلقناها هكذا.

وكلمة: ﴿حَصِيراً﴾ نحن نعرف الحصير بأنه نوع من الفراش، وكلمة حصير مأخوذة من الحصر، والحصر معناه التضييق فى المكان؛ ولذلك يقولون: نحصر هذه المسألة، أى: نجعلها محصورة ومحكومة وغير مشتتة، فالذى يفرش الحصير مثلاً يفعل ذلك ليمنع ما يمكن أن يلتصق من الأرض بالإنسان أو بثيابه، فهو بذلك يحبس القذارة أو الأتربة التى على الأرض؛ حتى لا تصل إليه.

إذن. . فمعنى﴿حَصِيراً﴾ أى: تحبس ما تحته، فتفرشه على أى مكان وتجلس عليه. والحق سبحانه وتعالى ذكر هذه الكلمة فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥] ، ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ أى: ضيقوا عليهم، فمعنى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أى: يظلون محبوسين ومحصورين فيها، ولا يخرجون منها، فجعلناها لهم حبسًا وسجنًا لا يستطيعون الفرار منه؛ لأن النار لها سرادق تمنعهم من الخروج منها، وكلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها. والحق سبحانه أراد أن يحذرهم من عذاب الآخرة؛ لأنهم فى الدنيا دائمًا يكونون فى حضانة الأقوياء الذين ينصرونهم ويقوونهم فى باطلهم؛ فيعيشون فى الأرض فسادًا دون أن يعاقبهم أحد، أما فى الآخرة فلن يجدوا من ينصرهم من دون الله، وسيعاقبهم الله أشد العقاب .

❊ قصة السبت ❊

هذه القضية تتعلق بيوم الراحة عندهم، لقد سألوا الله يوما يرتاحون فيه من عناء الأعمال، فأعطاهم الله يوم ﴿السَّبْتِ﴾. ونحن حين نسمع كلمة ﴿السَّبْتِ﴾ فى القرآن الكريم نجد أنه اسم يوم من أيام الأسبوع، وهناك يوم آخر ذكره الله باسمه فى القرآن الكريم هو يوم ﴿الْجُمُعَةِ﴾، ونحن نعرف أن أيام الأسبوع سبعة فيها الأحد الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس.

ولنا أن نلحظ أن أسماء تلك الأيام الخمسة تبدأ من الأحد وتنتهى بالخميس، وتلك الأيام أخذت أسماءها من الأعداد، ويبقى يومان هما اللذان جاء ذكرهما فى القرآن الكريم، الجمعة والسبت، هذان اليومان سماهما الرحمن سبحانه فى كتابه الكريم؛ وسُمى الجمعة لأنه اليوم الذى جمع فيه للكون نظامه ووجوده وأتم فيه الخلق. ولذلك جعل الرحمن منه عيدا، والعيد هو اجتماع الكون فى ذلك اليوم، فليجتمع أتباع المنهج الحق فى ذلك اليوم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ونعرف أنه فى يوم الجمعة، تم اجتماع النعمة التى وهبها الله للإنسان فى الكون، وهى خلق السموات والأرض؛ ولذلك فالمؤمنون بالله يجتمعون فى ذلك اليوم؛ حفاوة باجتماع خلق النعم فى الكون)(١).

لكن.. ما السبت؟ ولماذا سمى بيوم السبت؟

---

(١) عن أبى هريرة. وعن رِبْعىّ بن حِراش، عن حُذيفةَ. قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضلَّ اللهُ عن الجمعة من كان قبلنا. فكان لليهود يوم السبت. وكان للنصارى يوم الأحد. فجاء اللهُ بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد =

إن الحروف المكونة لذلك اليوم هى الـ«سين» والـ«باء» والـ«تاء»، ومادة تلك الحروف بترتيبها «سبت» تعنى لغويا معنى القطع والفراغ من الشئ، ويقال فى اللغة: «سبت - يسبت - سبتا»، وتفيد: قطع عمله وسكن، ونعرف أن الحق جل وعلا فرغ من خلق الخلق من آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة فيما بين العصر إلى الليل.

ولنا أن نتفهم جيدا أن هناك فارقا بين استواء الحق وسكون الخلق. إن فراغ الحق من خلق الكون لا يعنى أن القوانين التى أرادها الله لتسيير حركة الكون هى التى تسير الكون، لكن الحق خلق القوانين وظلت بيده أسباب القوانين، يلفتنا لها من حين إلى حين؛ حتى لا تسرقنا الغفلة عن ذكره سبحانه؛ أما سكون البشر فيختلف، ولذلك فالنوم يأخذ اسما له من مادة «سبت» ونسميه «السبات» أى: السكون عن الحركة. ولقد أراد بنو إسرائيل يوما للراحة فأعطاهم الله يوم السبت، وكأى عطاء من الحق نعرف أنه ابتلاء، أى امتحان. فالنعمة بزيادتها أو نقصانها امتحان من الحق كما أوضحنا ذلك من قبل، وقد أراد الله أن يختبر بنى إسرائيل فى يوم راحتهم الذى حدده لهم ﴿ **السَّبْتِ** ﴾، وكانوا يسكنون فى ثغر من الثغور المطلة على البحر اسمه «أيلة»، وكان عملهم هو صيد السمك .

وأراد الحق أن يختبر عطاءه لهم بأن يكون ﴿ **السبت** ﴾ هو يوم راحتهم الذى لا يعملون فيه، إنما ينقطعون إلى الفراغ والسكون، ويكون الاختبار بأن تأتى حيتان ذلك البحر ظاهرة على سطح الماء بزعانفها، وكأن الزعانف أشرعة، وفى ذلك يقول الحق: ﴿ **تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ .

= وكذلك هم تبعٌ لنا يوم القيامة. نحن الآخِرون من أهل الدنيا. والأوَّلون يوم القيامة. المقضىُّ لهم قبل الخلائق».

أخرجه مسلم [٨٥٦/ ٢٢] واللفظ له، وابن ماجة [١٠٨٣]، والنسائى فى المجتبى [٨٧/٣]

لقد وهبهم الحق يوما للراحة؟ واختبر إيمانهم بأن يأتى السمك على سطح الماء الساكن رافعا زعانفه وكأنها أشرعة مراكب، وهم قوم مفتونون بالمادة، لذلك زاغت منهم الأبصار على ذلك الرزق الذى يأتى إليهم يوم الراحة، إنهم لا يصبرون، بعضهم امتثل لعطاء الله لهم يوم السبت، باعتباره سكون وراحة، وبعضهم ضلّ ووقع فى المحظور، وخصوصا أن السمك لا يظهر بهذا القدر وبهذه الكيفية فى بقيه الأيام، فماذا فعلوا؟ صنعوا حياضا عميقة، وأقاموا فيها وسائل تجذب السمك إلى هذه الحياض وتمنعه من الخروج منها؛ وذلك حتى يصطاد يوم الأحد، هكذا احتالوا، وهكذا فسقوا وخرجوا عن التكليف الذى جاء إليهم بناء على طلبهم، لقد طلبوا السبت كيوم للسكون فإذا بهم يحتالون.

يقول ربنا جل وعلا: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾ [البقرة: ٦٥]، وهكذا يخبر الله من عاش واتبع عقيدة بنى إسرائيل فى زمان رسول الله بالقصة المتوارثة؛ التى حكاها الآباء للأبناء عن هؤلاء الذين خالفوا أمر الله، واحتالوا على أمر الله؛ لقد حرص الآباء أن يورثوا الأبناء خبرة الاحتيال على منهج الله، وكيف أسقطوا حكم الله، ولم يحرصوا على أن يلقنوا الأبناء البشارة بمقدم رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿**عَلِمْتُمُ**﴾، الفعل علم يقال عنه: «فعل متعدٍ» أى أنه ينصب مفعول به. مثال ذلك أن تقول: علمت الحق فاتبعته. وقد يتعدى الفعل علم لمفعولين، أى أنه ينصب أكثر من مفعول، مثال ذلك أن تقول: علمت زيدا تقيًا، أى أننى أعرف زيدا من قبل، ولكن عرفت أيضا أنه تقىّ.

هكذا يكون الفعل «علم» متعدٍ، فإذا كان له مفعول به واحد، فذلك منصبٌّ على معرفة ذات الإنسان أو البشر الذين نتحدث عنهم، وإذا كان

له أكثر من مفعول به، فإن معنى ذلك معرفة الذات أو البشر؛ مع معرفة جديدة لحال من أحوال هـذه الذات كان مجهولاً لديـك. وهكذا يخبر الله رسوله عن وقائع توارثها الأبناء عن الآباء، وأصحاب العقيدة الإسرائيلية فى عصره من أصحاب نفس العقيدة السابقين عليهـم.

لقـد لقّنوا الأحفاد ما فيه احتيال، ولم يلقنوهم البشارة برسول الله ﷺ، وقد يقول قائل: وماذا فى صيد السمك بهذا الأسلوب من احتيال؟ ماذا فى هذا الأسلوب من الاعتداء ؟ والإجابة عن هذا السؤال توضح لنا أن تكاليف الحق لا تؤخذ بشكلها الظاهرى، ولكن بالشكل والمضمون معا، بالسلوك والنية فى آن واحد.

صحيح أنهم لم يخرجوا السمك من الماء، والصحيح أيضا أنهم ببنائهم الأحواض العميقة قد أدخلوا السمك فى حوزتهم، لقد نصبوا الشراك للسمك، ونقلوه إلى حوزتهم وذلك مضمون الصيد، لقد ظنوا أنهم يخدعون الله، فيتبعون الشكل ويخادعون فى المضمون، لقد أخذوا السمك إلى حيزّهم فأصبح مملوكا لهم، وفى ذلك تحايل على المضمون الذى أراده الله لهم بناء على ما طلبوه من يوم راحة وانقطاع . ولنا أن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى يحدد الأوامر بقوله: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٢٩] إن الحق يحـدد الأوامر؛ حتى لا يـظلم الإنـسان نفـسه أومـن حولـه، والحق سبحانه وتعالى يحدد النواهى بعدم الاقتراب: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٧]، إن الحق يحدد النواهى بعدم الاقتراب؛ رحمة بالعباد حتى لا تشغلهم المعاصى ويتعدوا حدود الله .

ولقد اعتدى القوم على حدود الله بأن احتالوا عليها؛ ظنوا أن تعاليم الحق شكل فقط، وليست شكلا ومضمونا. ولقد صوروا أنفسهم متمثلين

لطاعة الحق وهم غير متمثلين لطاعته فى الواقع، فتلقوا عقاب الله بأن يكونوا ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]. ومن الطبيعى أن الإنسان لا يكون قردا باختياره، ولكن بأمر تسخيرى ممن خلقه .

إن المأمور بذلك الأمر لو كان مختاراً لما اختار أن يكون قردا؛ لأن الله إذا أراد أمراً فلا راد له؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ومعنى ذلك أن باستطاعة الحق أن يجعلهم قردة؛ لأنهم عصوا أمره، فحق عليهم أن ينتقلوا من إنسانية مكرمة بمنهج الحق إلى بهيمية القردة، إن الحق قد أعطاهم المنهج بالأوامر والنواهى فلم يمتثلوا ليصبحوا بشرا مكرمين بالهداية والقيم، ولكنهم عصوا فأصبحوا مفضوحى السوءة كالقرود.

وقد اختلف العلماء حول ذلك القول: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فقال بعض العلماء أنهم مسُخوا قردة، وقال آخرون: إن هؤلاء الممسوخين ظلوا على مسخهم، لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون، ولم يعيشوا فوق ثلاثة أيام. وكان تعداد من فعل ذلك وتعدى حدود الله اثنى عشر ألفا، من سبعين ألفا هم تعداد أتباع العقيدة الإسرائيلية فى ذلك الزمان، ومن بقى بعد المسخ هم ثمان وخمسون ألفا، وعلى ذلك قد يكون قول هذا الفريق من العلماء صحيحا والله أعلم بمراده. وقال بعض العلماء فى شرح هذه الآية: إن المسخ جاء فى الأخلاق والسلوك، وليس فى الخلقة والتكوين البشرى، واستندوا فى ذلك إلى قول الحق: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]. وهكذا فسّر هذا الفريق من العلماء قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] أى

أن يسلكوا فى الحياة سلوكًا بهيمياً لا يليق مع الخلق الإنسانى المكرم[1].

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾. روى ابن أبى حاتم بسنده عن مجاهد قال: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ مُسِخَت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة. وإنما هو مثل ضربة الله ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾.

ورواه ابن جرير عن المثنى عن أبى حذيفة، وعن محمد بن عمر الباهلى وعن أبى عاصم عن عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد به، وهذا سند جيد عن مجاهد. وقول غريب خلاف الظاهر من السياق فى هذا المقام.

وفى غيره قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠] الآية.

وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فجعل الله منهم القردة والخنازير، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة، وأن الشيخة صاروا خنازير: وقال شيبان النحوى عن قتادة: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فصار القوم قردة تعاوى لها أذناب بعد ما كانوا رجالاً ونساء.

وقال عطاء الخراسانى: نودوا يا أهل القرية: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يافلان ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم أى بلى.

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال: إنما كان الذين اعتدوا فى السبت، فجعلوا قردة فواقاً، ثم هلكوا ماكان للمسخ نسل.

وقال الضحاك عن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذ لايحيون فى الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق فى الستة أيام التى ذكرها الله فى كتابه، فمسخ هؤلاء القوم فى صورة القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، ويحوله كما يشاء. وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية فى قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: يعنى أذلة صاغرين.

[تفسير ابن كثير: ١/ ١٠١] بتصرف.

وعن عبد الله بن مسعود. قال: قالت أم حبيبة: اللهم! متعنى بزوجى، رسول الله ﷺ. وبأبى، أبى سفيان. وبأخى، معاوية. فقال لها رسول الله ﷺ: «إنك سألت الله لآجال مضروبة، وآثار موطوءة، وأرزاق مقسومة. لايعجل شيئا منها قبل =

أصابتهم خفة السلوك وعدم الارتداع إلا بالقصر، فكان بعضهم كالخنازير لا يسلكون فى الحياة منهج الحق، فلا تقوم للرابطة الأسرية قائمة، ولا تلتزم امرأة برجلها، ولا يلتزم رجل بامرأته وتضيع حمية الإيمان من قلوبهم، ويعبدون الطاغوت، والطاغوت يطلق على الشيطان، والهوى، أو الظالم المتناهى فى ظلمه، ومن يعبد الظالم المتناهى فى ظلمة بطاعته فى غير ما أمر الله وشرع، فهو عبد للطاغوت. ومن يزيّن للظالم المتناهى فى ظلمه طريق المزيد من الظلم فذلك عبد للطاغوت؛ ومن يحاول أن يجد التبريرات للظالم فهو عبد للطاغوت.

وقديما كانت تُروى حكاية عن عبدة الطاغوتْ، تدل على مدى تأثير القهر على الإنسان:

كان هناك سنجق تركى لـــه جمل، وكـان السـنجق لا يربـط الجمل ولا يحبســـه، بل يتركه طليقا فى مزارع الفلاحين يتلف فيها ما يُتلف، ولما تأذى الناس من الجمل والأضرار التى يسببها لهم ، قالوا: فلنذهب إلى السنجق ونطلب منه أن يقيد الجمل ويجعل له مربطا. قال آخر: كل منا ينطق بكلمة واحدة، ويكمل الآخر الكلمة الأخرى، فلا ينطق واحد

= حِلِّه. لا يؤخر منها شيئا بعد حِلِّه. ولو سـألت الله أن يعافيك مـن عذاب فى النار، وعذاب فى القبر، لكان خيراً لك».

قال فقال رجل: يارسول الله ! القردة والخنازير، هى مما مُسخ؟ فقال النبى: «إن الله عز وجل لم يهلك قوماً، أو يعذب قوماً، فيجعل لهم نسلاً. وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك». أخرجه مسلم [٢٦٦٤/ ٣٣].

وقال الإمام النووى: قوله ﷺ : «وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك» أى: قبل مسخ بنى إسرائيل، فدل على أنها ليست من المسخ، وجاء : «كانوا» بضمير العقلاء مجازاً، لكونه جرى فى الكلام ما يقتضى مشاركتها للعقلاء، كما فى قـوله تعالى: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤]، ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

[شرح النووى على مسلم : ٨/ ٤٦٦]

منا بمفرده جملة مفيدة، ولكن ينطق كل واحد كلمة تكمل الكلمة الأخرى، فإذا صارت الكلمات جملة واضحة إما أن ينفذها السنجق وإما أن ينزل بعقابه على الجميع.

ومضى أهل القرية يتدربون على الأدوار، واحد يقول: ياسيادة السنجق، فيرد الثانى: إن الجمل، ويقول الثالث: الذى تملكه، فيقول الرابع: أتلف مزارعنا، فيقول الآخر: فنرجو منك أن تعقله وتجعل له مربطا.

وذهبوا إلى السنجق الطاغى فقال الرجل الأول: ياسيادة السنجق، فتساءل السنجق بحنق وغيظ: ماذا؟ وقال الرجل الثانى: إن الجمل الذى تملكه، قال السنجق بغضب ينذر بعاصفة: هل أصابه أحد بسوء؟ قال الرجل الثالث والرجل الرابع: لا، لكنه يريد ناقة تسلى وحدته.

هكذا سار الناس ليرفعوا الظلم عن أنفسهم فزادوا الأمر ظلما، وهكذا يمكن أن نفهم عبدة الطاغوت.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ (١)[البقرة: ٦٦]، فقد أنزل الله العقاب بهؤلاء الذين تحايلوا على أوامره؛ إن التنكيل هو عقوبة، ولا يمكن أن يعاقب الرحمن أحدا إلا إذا أجرم، ولا يمكن أن يحتسب فعل ما كجريمة إلا بأمر ونص واضح.

---

(١) قال البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿ **فَجَعَلْنَاهَا** ﴾ أى المسخة، أو العقوبة. ﴿ **نَكَالاً** ﴾ عبرة تنكل المعتبر بها، أى تمنعه. ومنه النكل للقيد. ﴿ **لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا** ﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذكرت حالهم فى زبر الأولين، واشتهرت قصتهم فى الآخرين، أو لمعاصريهم ومن بعدهم، أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها، أو لأهل تلك القرية وما حواليها، أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها ﴿ **وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ من قومهم، أو لكل متق سمعها.

[أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/ ٦٧]

ذلك أن هدف التشريع الإلهى دائما هو إسعاد الناس بدعوتهم وإلزامهم بالمنهج الحق، لذلك فالحق ينزل التشريع أولا، وبعد التشريع يصبح هناك عقاب على من يخالف نص التشريع؛ وذلك حتى يحمى الحق عباده من الزلل، ولا يغرقون فى الخطايا التى تبدد أمن الجماعة المسلمة، وإذا أقدم أحد على سلوك يخالف التشريع يصبح العقاب ضرورة ، وعندما يرى الناس توقيع العقوبة على من ارتكب الفعل فكل الناس تتيقن من أن هذا الفعل نوع من الخطأ، وأن العقاب سوف يطبق على كل من يخطئ نفس الخطأ، وهنا يقال: إن رؤية الناس لتطبيق القانون يحقق نوعا من النكول، والمقصود بالنكول هو الامتناع عن فعل له عقوبة، ومن يرى تطبيق العقوبة على من أجرم فلسوف يمتنع عن ارتكاب مثل ذلك الفعل. وهكذا نفهم أن المسخ الذى أصاب بعضًا من أهل «أيلة» الذين تحايلوا على تعاليم الرحمن هو عقوبة، ومن رأى العقوبة سوف يبتعد عن فعل مثلها، وتكون عظة وعبرة للعاصى ولمن يأتى بعد ذلك.

* بنو إسـرائيل *
والاحتيال على أوامر الله

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ [الأعراف: ١٦١].

وقال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ (١) [الأعراف:١٦٣] فـي هـذه الآيـة قرية، وفى الآية السابقة قرية، القرية الأولى: أمروا أن يدخلوها. والقرية الثانية: كانت حاضرة البحر،

(١) قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾ أى: عن أهل القرية، فعبر عنهم بها لما كانت مستقراً لهم وسبب اجتماعهم، نظيره: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ وقوله عليه السلام: «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ»(١) يعنى أهل العرش من الملائكة، فرحا واستبشارا بقدومه، رضى الله عنه.

أى: واسأل اليهود الذين هم جيرانك عن أخبار أسلافهم، وما مسخ الله منهم قردة وخنازير؛ وهذا سؤال تقرير وتوبيخ، وكان ذلك علامة لصدق النبى ﷺ؛ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلّم، وكانوا يقولون: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨]؛ لأنا من سبط خليله إبراهيم، ومن سبط إسرائيل وهو بكر الله، ومن سبط موسى كليم الله، ومـن سبط ولـده عزير، فنحن مـن أولادهم. فقـال الله عز وجل لنبيه: سلهم يا محمد عن القرية، أما عذبتهم بذنوبهم؛ وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة؟!

واختلف فى تعيين هذه القرية؛ فقال ابن عباس وعكرمة والسدى هى أيلة. وعن ابن عباس أيضا: أنها مدين بين أيلة والطور. الزهرى: طبرية. قتادة وزيد بن أسلم: هى ساحل من سواحل الشام، بين مدين وعينون، يقال لها: مقناة. وكان اليهود يكتمون هذه القصة لما فيها من السُبة عليهم ﴿ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ أى: كانت بقرب البحر؛ تقول: كنت بحضرة الدار أى بقربها.

[تفسير القرطبى: ٧/ ٣٠٤-٣٠٥].

---

(١) أخرجه البخارى [٣٨٠٣]، ومسلم [٢٤٦٦/ ١٢٤] عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما.

وهذا يرينا أن القرية التى أمروا أن يدخلوها وهى بيت المقدس لم تكن على البحر، وإنما القرى التى كانت على البحر هى «أيلة»، أو «مدين»، أو «طبرية» وحاضرة البحر معناها قريبة من البحر ومشرفة عليه،ونحن نقول:عن الإسكندرية مثلا:إنها:حاضرة البحر؛ ولكن من الذى يسأل؟ الخطاب لرسول الله ﷺ والسؤال لابد أن يوجّه لأهل الكتاب؛لأن القصة خاصة بهم،وقوله سبحانه وتعالى:﴿ **وَاسْئَلْهُمْ** ﴾ أى: أن الذى سيقصه رسول الله ﷺ عليكم موجود فى كتبكم، بالطريقة التى سأقصها عليكم،وأنتم تعلمون أن رسول الله ﷺ لم يجلس إلى مُعلم ولم يقرأ كتاباً،وإنما علمه الله،ولو أنه ﷺ يسألهم عن القصة إيجازا؛ ليطلب منهم تفاصيلها، لقلنا إن الرسول ﷺ يريد أن يعلم، وإنما يريد أن يعرفهم أنه يعلم وهم يعلمون أنه لا مصدر له من علم البشر، فكأن هذا إثبات بأن العلم قد جاءه من الله تحدياً لهم؛ حتى لا يستطيعوا أن يجادلوا فى أن محمداً ﷺ مرسل من الله، وموحى إليه من الله .

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى فى كثير من الآيات يقول:﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ** ﴾ [القصص:٤٤]؛﴿ **وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** ﴾ [القصص:٤٥] ؛﴿ **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ** ﴾ [آل عمران: ٤٤] .

وما دام الرسول ﷺ لم يكن حاضراً؛ فالذى أعلمه هو الله جل جلاله كذلك قوله تعالى :﴿ **وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ** ﴾، إن الرسول عليه الصلاة والسلام سيروى لهم قصة هم يعرفونها، وسيرويها لهم كما نزلت فى كتبهم، وربما كان فيها ما بدلوه هم وغيروه ليحاولوا إخفاءه؛ ورسول الله ﷺ لم يقرأ كتابا فى حياته؛يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ**

الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وبذلك يكون كل ما يقوله رسول الله ﷺ موحى إليه من الله ،وهذا تحدى وإعجاز وإثبات للنبوة.

الحق سبحانه وتعالى يقول: **﴿وَاسْئَلْهُمْ﴾**، وكلمة «اسألهم» جاءت فى القرآن الكريم بأشكال كثيرة .صلى رسول الله ﷺ بالأنبياء صلاة إبراهيم عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج، وقبل أن يصعد إلى السماء، والصلاة وقتها لم تكن قد فرضت، تقول الآية: **﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾** [الزخرف: ٤٥] الأمر لمن فى هذه الآية؟ لرسول الله ﷺ والمطلوب منه أن يسأل من؟ أن يسأل من قبله من الرسل، وكيف يسألهم؟ ومتى يسألهم وقد انتقلوا جميعا إلى الرفيق الأعلى؟

إذن. كان لابد أن يلتقى رسول الله ﷺ بهم ويسألهم، وتم هذا اللقاء فى رحلة الإسراء والمعراج،وكلمهم رسول الله ﷺ وسألهم.

فإذا انتقلنا إلى الآية التى نحن بصددها: **﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾** نقول: إنه لابد أن يحدث لقاء بين رسول الله ﷺ وأهل الكتاب، وما دام هذا اللقاء قد تم، فلابد أن يحدث إعجاز من الله يخرس هؤلاء الناس، ويقيم عليهم الحجة بأن الرسول ﷺ حق أرسله ربه؛حتى لا يأتوا يوم القيامة مجادلين فى أنهم لم تبلغهم الرسالة، أو لم يروا معجزاتها،وقول الحق سبحانه وتعالى : **﴿الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾** ، معناها: أن السؤال يكون للبحر فيه دخل، وإلا فليس هناك معنى لورود النص بهذا الشكل، فإذا قرأنا القصة عرفنا أن السؤال يتعلق بالحيتان والأسماك والصيد، وتحريم الصيد.

إذن. فلابد أن تكون القرية حاضرة البحر، أى قرية ساحلية؛ حتى يكون أهلها يشتغلون بصيد الحيتان والأسماك.

يقول تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ (١)، والحيتان جمع حوت. الحق سبحانه وتعالى جعل لليهود يوما حرم عليهم فيه العمل، يوماً ينقطعون فيه للعبادة، هو يوم السبت، لا يزاولون فيه أى شيء. وعندما اغتيل كيندى رئيس أمريكا وكانت جنازته يوم سبت، كل الناس ركبوا السيارات إلا اليهود ساروا على الأقدام؛ لأنهم فى يوم السبت لا يركبون المطايا ولا يفعلون أى شيء، وحرم على اليهود العمل يوم السبت عقوبة لهم لمخالفتهم المستمرة للمنهج، وهذا نوع من التأديب، وهناك أنواع أخرى أيضاً مثل قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم جيداً أن المخالف لمنهج الله عقوبة فى الدنيا والآخرة. ولذلك فإن الإنسان الذى يرتشى مثلاً أو يسرق مالاً يفتح الله له أبواباً من الأمراض والعلل والمصائب، ويسلط عليه ما يفنى هذا المال ويضيّعه فى وقت قصير؛ ولذلك عندما خالف اليهود المنهج حرم الله عليهم ما هو حلال لغيرهم؛ لأنهم ظلموا أنفسهم فعاقبهم الله، ولما كان اليهود مشغولين بالدنيا والمال،

---

(١) يقول القرطبى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أى يصيدون الحيتان، وقد نهوا عنه؛ يقال: سَبَت اليهود؛ تركوا العمل فى سبتهم. وسبت الرجل للمفعول سابتا أخذه ذلك؛ مثل الخرس. وأسبت سكن فلم يتحرك، والقوم صاروا فى السبت، واليهود دخلوا فى السبت، وهو اليوم المعروف، وهو من الراحة والقطع، ويُجمع: أسبت وسبوت وأسبات. وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «ومن أحتجم يوم السبت فأصابه برص فلا يلومن إلا نفسه»(١) قال علماؤنا: وذلك لأن الدم يجمد يوم السبت، فإذا مددته لتستخرجه لم يجر وعاد برصا. وقراءة الجماعة﴿ يَعْدُونَ ﴾. وقرأ أبو نهيك «يُعدّون» بضم الياء وكسر العين وشد الدال، الأولى من الأعتداء، والثانية من الأعداد، أى: يهيئون الآلة لأخذها. وقرأ ابن السميقع «فى الأسبات» على جمع السبت. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ وقرئ: «أسباتهم». [تفسير القرطبى: ٧/ ٣٠٥]

---

(١) ذكره السيوطى فى اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة [٢/ ٢١٨]

والعمل هو الطريق للحصول على المال، حرم عليهم الحق سبحانه وتعالى العمل يوم السبت؛ ليحرمهم من المال الذى كانوا سيحصلون عليه فى هذا اليوم؛ حتى يكون ذلك فى قلوبهم حسرة وأدباً لهم. وما دامت هذه القرية التى هى حاضرة البحر؛ عمل سكانها هو صيد السمك الذى هو رزقهم الأساسى؛ فإن الحق سبحانه وتعالى قد جعل فى هذا اليوم بالنسبة لسكان هذه القرية امتحاناً كبيراً لهم، فعندما يأتى يوم السبت تأتى الحيتان والأسماك ظاهرة على سطح الماء سهلة الصيد، حتى إنهم يرونها من نوافذ بيوتهم. يرون أمامهم الرزق الوفير، ولكنهم لا يستطيعون أن يمدوا أيديهم إليه.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ معنى﴿ شُرَّعًا﴾: أى واضحة مثل الشراع من السفينة، وهى أظهر شىء فيها الذى يرى بوضوح، ويراه كل إنسان [1]. ففى اليوم الممنوعين فيه من الصيد تكون الحيتان والأسماك ظاهرة أمامهم مثل شراع المراكب، أما فى الأيام المباح فيها الصيد - وهى باقى أيام الأسبوع - فلا يأتيهم حوت واحد؛ ولا سمكة واحدة. وأراد اليهود أن يحتالوا على أمر الله؛ فقالوا:

---

(١) يقول القرطبى: ﴿ شُرَّعًا﴾ أى: شوارع ظاهرة على الماء كثيرة. قال الليث: حيتان شُرَّع رافعة رؤوسها. وقيل: معناه أن حيتان البحر كانت ترد يوم السبت عُنُقًا[1] من البحر فتزاحم أيلة. ألهمها الله تعالى أنها لا تُصاد يوم السبت؛ لنهْيه تعالى اليهود عن صيدها. وقيل: إنها كانت تشرع على أبوابهم؛ كالكباش البيض رافعةً رؤسها، حكاه بعض المتأخرين؛ فتعدوا فأخذوها فى السبت؛ قاله الحسن. وقيل: يوم الأحد، وهو الأصح على ما يأتى بيانه. ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أى لا يفعلون السبت؛ يقال: سبت يسبِت إذا عظّم السبت. وقرأ الحسن «يُسْبِتُونَ» بضم الياء، أى يدخلون فى السبت؛ كما يقال: أجمعنا وأظهرنا وأشهرنا، أى دخلنا فى الجمعة والظهر والشهر، ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أى: ﴿حِيتَانُهُمْ﴾. [القرطبى: ٧/ ٣٠٥]

---

(١) أى طوائف. يقال: جاء القوم عنقاً عنقاً، أى قطيعاً قطيعاً.

إن الله حرم علينا أن نصطاد يوم السبت، فلماذا لا نحتال على الصيد فى هذا اليوم الذى يمتلئ البحر فيه بالأسماك والحيتان؟ فشرعوا شيئاً يسمى «الجوبية» وهو شبك صيد مصنوع بشكل خاص، إذا دخل فيه السمك لا يستطيع الخروج. ووضعوا هذه الجوبيات فى البحر، فإذا جاء يوم السبت وظهر السمك دخل فى الجوبيات؛ وفى يوم الأحد وهو يوم العمل يسرعون فيخرجونه من البحر، وفى هذا اعتداء على أوامر الله، واحتيال فى المعصية. فهم يمكرون على الله؛ ولكن الله سبحانه وتعالى، ترك الأسماك تدخل فى هذه الجوبيات، حتى تكون شاهداً على مخالفتهم؛ لأنها لو لم تدخل لجادلوا وأنكروا، ولكن وجود الجوبيات والأسماك يجعلهم لا يستطيعون الإنكار.

إذن.. فقوله تعالى: ﴿ **إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ و﴿ **يَعْدُونَ** ﴾ معناها: يعتدون على حكم الله الذى أمرهم بعدم العمل يوم السبت، فيتحايلون ليحلوا ما حرم الله.

الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم أن تحريم العمل عليهم يوم السبت عقاب لهم فيقول: ﴿ **إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾(١).

---

(١) يقول القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ **بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ أى بفسقهم. وسئل الحسين بن الفضل: هل تجد فى كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتا، والحرام يأتيك جَزْفًا جَزْفًا؟ قال: نعم، فى قصة داود وأيلة ﴿ **إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ** ﴾ ورُوى فى قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود عليه السلام، وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض؛ فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج =

إذن. . فهذا ابتلاء وامتحان نزل بهم لأنهم؛ فسقوا عن منهج الطاعة، وبسبب خروجهم عن منهج الطاعة ،حرم الله عليهم أشياء أحلها لغيرهم.

= منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد. وروى أشهب عن مالك قال: زعم ابن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطا ويضع فيه وهقة(١)، وألقاها في ذنب الحوت، وفي الطرف الآخر من الخيط وتد وتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطرق الناس حين رأوا من صنع هذا لا يُبتلى حتى كثر صيد الحوت، ومُشي به في الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده؛ فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت، وجاهرت بالنهي واعتزلت. وقيل: إن الناهين قالوا: لا نساكنكم، فقسموا القرية بجدار. فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس لشأنا؛ فعلوا على الجدار، فنظروا فإذا هم قردة؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القردة؛ فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي؛ فيقول: ألم ننهكم! فتقول برأسها: نعم. قال قتادة: صار الشبان قردة والشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم.

[تفسير القرطبي: ٧/ ٣٠٦].

(١) الوهق: الحبل في طرفيه عقدة يطرح في عنق الدابة حتى تؤخذ.

* تحذير أهل الكتاب *
من اتباع أصحاب السبت

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ [النساء: ٤٧].

إن طمس الوجوه إما أن يكون بمعنى أن يمحو العلامات المميزة المكرمة للإنسان؛ فيجعلها الحق سبحانه قطعة لحم كأقفائهم. هذا إن أردنا الوجه بمعنى الجارحة المخصوصة(١)؛ لكن إن أردنا الوجه بمعنى الجهة والقصد

(١) يقول ابن الجوزى فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا ﴾ سبب نزولها: أن النبى ﷺ دعا قومًا من أحبار اليهود، منهم عبد الله بن صوريا وكعب إلى الإسلام، وقال لهم: إنكم لتعلمون أن الذى جئت به حق، فقالوا: ما نعرف ذلك. فنزلت هذه الآية، وهذا قول ابن عباس.

وفى ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ قولان:

أحدهما: أنهم اليهود، قاله الجمهور.

والثانى: اليهود والنصارى، ذكره الماوردي. وعلى الأول يكون الكتاب: التوراة، وعلى الثانى: التوراة والإنجيل. والمراد ﴿ بِمَا نَزَّلْنَا ﴾: القرآن.

قوله تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾. فى طمس الوجوه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه إعماء العيون، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك.

والثانى: أنه طمس ما فيها من عين، وأنف، وحاجب، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس، واختيار ابن قتيبة.

والثالث: أنه ردها عن طريق الهدى، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن، ومجاهد، والضحاك، والسدى. وقال مقاتل: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾، أى: نحول الملة عن الهدى والبصيرة. فعلى هذا القول يكون ذكر الوجه مجازاً. =

كقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] أى: وجهته وقصده، فإذا كان المعنى كذلك، فإن الحق سبحانه وتعالى يأتى إلى هؤلاء ليفسد عليهم قصدهم واتجاههم ونواياهم. فيكون قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧] بهدف إيضاح أن الحق قادر على محو قصد هؤلاء ونيتهم. إن قصد هؤلاء أن يُطفئوا نور الله؛ أى إن قصد هؤلاء أن يقفوا أمام الدعوة.

= والمراد: البصيرة والقلوب. وعلى القولين قبله يكون المراد بالوجه: العضو المعروف.

قوله تعالى: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ خمسة أقوال:

أحدها: نُصيِّرها فى الأقفاء، ونجعل عيونها فى الأقفاء، هذا قول ابن عباس، وعطية.

والثانى: نُصيِّرها كالأقفاء، ليس فيها فم، ولا حاجب، ولا عين، وهذا قول قوم، منهم ابن قتيبة.

والثالث: نجعل الوجه منبتاً للشعر، كالقرود، هذا قول الفراء.

والرابع: ننفيها مدبرة عن ديارها ومواضعها. وإلى نحوه ذهب ابن زيد.

قال ابن حرير: فيكون المعنى: من قبل أن نطمس وجوههم التى هم فيها. وناحيتهم التى هم بها نزول، فنردها على أدبارها من حيث جاءوا بدياً من الشام.

والخامس: نردها فى الضلالة، وهذا قول الحسن، ومجاهد، والضحاك، والسدى، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ يعود إلى أصحاب الوجوه. وفى معنى لعن أصحاب السبت قولان:

أحدهما: مسخهم قردة، قاله الحسن، وقتادة، ومقاتل.

والثانى: طردهم فى التيه حتى هلك فيه أكثرهم، ذكره الماوردى.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ قال ابن جرير: الأمر هاهنا بمعنى المأمور؛ سمى باسم الأمر لحدوثه عنه. [زاد المسير: ٢/ ١٣٤-١٣٦]

(١) يقول الراغب الأصفهانى: لعن: اللعن الطرد والإبعاد على سبيل السخط،

وقوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧] قالوا في معنى اللعن: إنه الطرد والإهانة، وقالوا في معناه: إنه الإهلاك[1]. والذين يحاولون أن يشككوا في معاني آيات القرآن يقولون: أنتم لا تقفون عند معنى واحد للكلمة، وتقولون إما أن يراد كذا أو كذا، أو كذا، نقول لهم: أنتم ليست لكم ملكة اللغة، حتى وإن تعلمتم اللغة؛ فتعلُّمكم للغة تعلُّم صنعة لا تعلم مَلَكة. وتعلم الصنعة يعطيكم القاعدة، ولكن لا يعطيكم استساغة وضع اللفظ في معناه الحقيقي وفي المراد منه. واللعن إذا كان معناه الطرد؛ كان يجب أن تفهموا أن الطرد يقتضي طاردا، ويقتضي مطرودا، ويقتضي مطروداً منه، ومن الذي يُطرد، ومن الذي يتم طرده؟ وعن أي شيء يتم الطرد؟ حين تأخذون المعنى على هذا الوضع فإنكم لا تجدون غضاضة في أن تتعدد معاني الطرد.

وإن أردنا معنى الطرد على أنه الخزي والهوان؛ فالخزي والهوان قد حدث لهم؛ لأننا سبينا نساءهم، وقهرناهم، وأهلكناهم، وأخرجناهم من الديار إلى بلاد الشام، وأهلك الله الكثير منهم بالموت، فكل معاني اللعن والطرد تتأتى، فإذا جاء معنى يلتمس هذا الذي حدث لهم نقول: هذا هو اللعن، وهو يختلف باختلاف الطارد، والمطرود، والمطرود منه.

---

(١) يقول الراغب الأصفهاني: اللعن الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله تعالى عقوبة، وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه. ومن الإنسان دعاءٌ على غيره، قال: ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: ٧٨] واللُّعْنة الذي يلتعن كثيراً، واللُّعَنة الذي يلعن كثيراً، والتلاعن والملاعنة أن يلعن واحد منهما نفسه أو صاحبه.

[مفردات ألفاظ القرآن: ٤٧١]

إذن . . عندما يقول الحق: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ فهذا يدل على أن اللعن له معانٍ متعددة وهو كلعن أصحاب السبت .

فاللعن هنا لا يأخذ معنى واحدا؛ لأنه لو كان ذا معنى واحد لما قال الحق: ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ . إن معنى ذلك أن هناك لعنا غير لعن أصحاب السبت.

وكلمة: ﴿أَصْحَابَ﴾ وردت في القرآن كثيرا، وهم كل جماعة اجتمعوا على حدث، مثل أصحاب الفيل، أى الجماعة الذين اجتمعوا في حادثة الفيل، وجاءوا ليهدموا البيت الحرام. فالصحبة: هي الاجتماع والملازمة والمؤاخاة، ولكن على أى شيء؟ لقد اجتمع أصحاب الفيل- على سبيل المثال- لهدم الكعبة، وأصحاب الأخدود اجتمعوا لهدف، وأصحاب الأيكة اجتمعوا لهدف ثالث، وأصحاب الجنة اجتمعوا لهدف رابع .

إذن . . فكل صحبة على حدث يقال لهم «أصحاب» .

وأصحاب السبت من هم؟

السبت هو يوم من أيام الأسبوع، أى وحدة زمنية فى الأسبوع[1] . لكن

---

(١) السبت: من أيام الأسبوع، وإنما سمى السابع من أيام الأسبوع سبتا؛ لأن الله تعالى ابتدأ الخلق فيه، وقطع فيه بعض خلق الأرض؛ ويقال: أمر فيه بنو إسرائيل بقطع الأعمال وتركها؛ وفى المحكم: وإنما سمى سبتاً ؛ لأن ابتداء الخلق كان من يوم الأحد إلى يوم الجمعة، ولم يكن فى السبت شيء من الخلق، قالوا: فأصبحت يوم السبت منسبتة أى قد تمت، وانقطع العمل فيها؛ وقيل: سمى بذلك لأن اليهود كانوا ينقطعون فيه عن العمل والتصرف، والجمع أسبت وسبوت.

وقد سبتوا يسبتون ويسبتون، وأسبتوا دخلوا فى السبت. والإسبات: الدخول فى السبت والسبت: قيام اليهود بأمر سنتها. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ قال: قطعا لأعمالكم.

قال: وأخطأ من قال: سمى السبت لأن الله أمر بنى إسرائيل فيه بالاستراحة؛ وخلق هو عز وجل السموات والأرض فى ستة أيام، آخرها يوم الجمعة، ثم استراح =

نحن نلحظ أن بقية أيام الأسبوع الستة فيها إشارات إلى العدد، قيل: «الأحد» هو يوم واحد، و«الاثنين» هو يومان، و«الثلاثاء» ثالث الأيام، و«الأربعاء» لليوم الرابع، والخميس يشير إلى اليوم الخامس. هناك يومان لم يذكر فيهما العدد: «الجمعة» و«السبت». وهذان اللفظان أخذا المعانى

= وانقطع العمل، فسمى السابع يوم السبت. قال: وهذا خطأ لأنه لا يعلم فى كلام العرب سبت، بمعنى استراح، وإنما معنى سبت: قطع، ولا يوصف الله تعالى وتقدس بالاستراحة؛ لأنه لا يتعب، والراحة لا تكون إلا بعد تعب وشغل، وكلاهما زائل عن الله تعالى، قال: واتفق أهل العلم على أن الله تعالى ابتدأ الخلق يوم السبت، ولم يخلق يوم الجمعة سماء ولا أرضاً. قال الأزهرى: والدليل على صحة ما قال، ما روى عن عبد الله بن عمر، قال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الحجارية يوم الأحد، وخلق السحاب يوم الاثنين، وخلق الكروم يوم الثلاثاء، وخلق الملائكة يوم الأربعاء، وخلق الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة فيما بين العصر وغروب الشمس(١). وفى الحديث: «فما رأينا الشمس سبتا»(٢)؛ قيل: أراد أسبوعاً من السبت إلى السبت، فأطلق عليه اسم اليوم، كما يقال: عشرون خريفاً، ويراد عشرون سنة؛ وقيل: أراد بالسبت مدة من الأزمان، قليلة كانت أو كثيرة.

وحكى ثعلب عن ابن الأعرابى: لا تك سبتيا أى ممن يصوم السبت وحده.

[لسان العرب: ٢/ ٣٧، ٣٨]

(١) أخرجه مسلم [٢٧٨٩] عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ: «خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق. فى آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل».

وقال ابن كثير: وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه على بن المدينى، والبخارى، وغير واحد من الحُفَّاظ وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً، وقد حرر ذلك البيهقى. [تفسير ابن كثير: ١/ ٦٦]

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى [١٠١٣، ١٠١٤]، ومسلم [٨/٨٩٧] عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

غير العددية، ولكنهما يأخذان معنى العددية بالقبلية أو بالبعدية، فعندما نقول: «الخميس» يكون «الجمعة» هو اليوم السادس من الأسبوع، وعندما نقول: «السبت» يكون هو اليوم السابع من الأسبوع، أى أننا نستطيع أن نضع لهما العدد بعد الأعداد المذكورة.

لكن يجب أن يكون لكل منهما اسم مختلف؛ لأن فى كل واحد منهما حدثاً غلب العددية، فحدث الجمعة هو الاجتماع، لذلك تركنا كلمة «ستة» وأخذنا كلمة «الجمعة». وكلمة «السبت» مقصود بها السكون؛ لأن مادتها فى اللغة هى سكن وهدأ ولم يتحرك؛ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أى سكونا وهدوءًا، أو أصحاب السبت هم أصحاب السكون؛ لأن الحق سبحانه وتعالى حين يريد ابتلاء بعض خلقه؛ ليعلم منازلهم من الإيمان واليقين والانصياع إلى أوامر الحق، فإنه يأتى ليحرِّم حدثا فى زمن هو مباح فى غير ذلك الزمن. فالصيد على سبيل المثال مباح كل يوم؛ لأنه يأتى بالرزق من البحر، أنزل الحق تحريما للصيد فى يوم السبت، فسكنوا عن الحركة والصيد. وأصحاب السبت هم الجماعة الذين اجتمعوا على حادثة تتعلق بالسبت، أى تتعلق بالسكون وعدم العمل وعدم الحركة.

فما هى قصتهم؟ قصتهم ذكرها الحق سبحانه وتعالى، وتكلم عنها إجمالاً فى سورة البقرة: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ وسورة النساء: ﴿ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾.

لكن القصة بالتفصيل ذكرها الحق سبحانه وتعالى فى سورة الأعراف، حين قال: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ الخطاب هنا موجه لرسول الله ﷺ، فهو

المأمور أن يسأل، والحق سبحانه وتعالى هو الآمر، وعلى الرسول أن ينفذ أمر الله بالسؤال، والمسئولون هم أصحاب الحكاية وهم اليهود. وحين يورد الحق خبرا مؤكدا من الأخبار، فقد يورده خبرا فيصدقه أهل اليقين، وقد يأتى به فى صيغة الاستفهام؛ لأنه يعلم أن المستفهم منه لا يجد جوابا إلا الحق الذى يريده سبحانه وتعالى. وفى حياتنا العادية مثلاً يأتى واحد ليقول شاكياً من صديق له: إن فلانا أهملنى، ولا يهتم بى، وعندما يأتى الصديق المتهم بعدم الرعاية والإهمال؛ فهو يواجه ذلك الإنسان ويقول له: ألم أصنع معك كذا وكذا . . ؟

إن صانع الجميل لا يقول: «أنا صنعت كذا»، ولكنه يقلب الأمر إلى صيغة سؤال؛ وذلك حتى يجيب الإنسان الآخر، فيقول الإنسانُ الشاكى الحقيقةَ، ويُقر بأنه لا مندوحة على أن المشكو فى حقه قد أحسن معاملة الشاكى، وجاء الخبر الصادق من الشاكى، لا من المشكو فى حقه.

والله تبارك وتعالى سبحانه يأمر رسوله أن يسأل اليهود عن القرية حاضرة البحر، وهو سؤال عن حدث لا يستطيعون إنكاره.

قال تعالى: ﴿ **وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ فكلمة «قرية» مأخوذة من «القِرَى»(١) بكسر القاف، وهو أن تكرم واحدا يقبل عليك كضيف، ولكن كرمك يكون فى حدود بسيطة؛ لأنك لا تملك أن تعطيه «القرى» الكامل، فإذا ما مر عليك وهو جائع تعطيه وجبة واحدة، أى «قرية واحدة». و«أم القرى» هى مكة وفيها ما يكرم الضيوف من جميع حاجاتهم ، هكذا نفهم معنى كلمة «قرية».

---

(١) القرى: مايُقدم إلى الضيف. [المعجم الوسيط : ٧٣٢]

أما كلمة «حاضرة البحر» فهى تعنى المكان القريب من البحر، فالحاضر هو القريب، ويقال: «حضر فلان» أى أصبح على مقربة منك، والحاضرة: هى إن طلبت فيها شيئاً وجدته.

وكذلك الحضر معناها: أن يوجد كل شيء، أما البدو فما يملكون هو قدر كفافهم، ولذلك «حضر» ضد «بادية»، وأخذوا منها «الحواضر» وهى العواصم.

إذن.. فقوله: ﴿ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ أى: القرية القريبة من البحر، أو هى البلد المتحضرة على البحر، والجامعة لألوان الخير على البحر، وقد كانت بين «مدين» و«عين الطور» واسمها «أيلة»، وقصة تلك الحاضرة أن الله أراد أن يبتلى بنى إسرائيل بشيء، وهو تحريم الصيد فى ذلك اليوم.

وهو عالم علما أزليا بما سوف يفعلون، ولكن عندما يحدث منهم الفعل فهو شهادة منهم عليهم؛ لذلك أمرهم الحق: ألا يصطادوا فى هذا اليوم. ولكن لماذا حرم الله هذا الحدث فى ذلك الزمن؟

قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾.

أى تجاوزوا الحد، وأخذوا ما ليس حِلاً، وجعلوه حِلاً، فلابد أن يأخذ الله ما كان حلالا؛ ليكون حراماً عليهم. فما دام العبد قد اجترأ على محرّم فأحلّه، ولم يرتض تحليل الله وتحريمه، فإن الله يأخذ شيئا من الذى كان حلالا للعبد ليجعله حراماً عليه.

إذن.. لا تطلب أيها العبد من كل تحريم أن يكون فيه مضرة، قد يكون فيه مضرة ولكنها غير ظاهرة، فعليك أن تنتهى عن كل ما حرمه الله ولو لم تكن تعرف الحكمة من تحريمه، ولذلك فهو سبحانه لا يريد من الناس أن يعبدوه على حرف؛ قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ

﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(1) [الحج: 11] إنه سبحانه يطلب من العبد إيمانا كاملا لا اضطراب فيه، ولذلك نجد بعض الناس يقول: سوف أزكى ليزيد المال، نقول لهؤلاء: استبعدوا مسألة أن يزيد مالكم بالزكاة، ولكنكم تزكون لأن الله طلب منكم أن تؤدوا الزكاة، فإن حدثت الزيادة فهذا موضوع آخر،

(1) قال أبو الحسن النيسابورى فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أكثر المفسرين قالوا على شك وضلالة وأصله: من حرف الشيء وهو طرفه، نحو حرف الجبل، والدكان، والحائط الذى عليه القائم غير مستقر، فالذى يعبد الله على حرف قلق فى دينه على غير ثبات وطمأنينة، كالذى هو على حرف الجبل ونحوه، يضطرب اضطراباً ويضعف قيامه، فهو يعرض أن يقع فى أحد جانبى الطرف، فقيل للشاك فى دينه: إنه يعبد الله على حرف؛ لأنه ليس على يقين فى وعده ووعيده بخلاف المؤمن؛ لأنه لو عبده على يقين وبصيرة، ولم يكن على حرف يسقط عنه بأدنى شيء يصيبه. وهذا المعنى ظاهر فى قوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أى: أصابه رخاء وعافية، وخصب، وكثر ماله، اطمأن على عبادة الله بذلك الخير ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ اختبار بجدب وقلة ماله ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ رجع عن دينه إلى الكفر وعبادة الأوثان، والمعنى: انصرف إلى وجهه الذى توجه منه وهو الكفر. نزلت فى أعراب كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ المدينة مهاجرين من باديتهم، فكان أحدهم إذا صح جسمه، ونتجت فرسه مهراً حسناً، وكثر ماله رضى واطمأن، وقال: ماأصبت منذ دخلت فى هذا الدين إلا خيراً، وإن أصابه وجع المدينة، وولدت امرأته جارية، وأُجْهِضت رماكه(1)، وذهب ماله أتاه الشيطان فقال: ما أصبت فى هذا الدين إلا شراً، فينقلب عن الدين(2). قوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ يعنى: هذا الشاك خسر دنياه حيث لم يظفر بما طلب من المال، وخسر آخرته بارتداده عن الدين ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى فعل ﴿هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الضرر الظاهر. [الوسيط فى تفسير القرآن: 3/ 261]

(1) الرَّمَكة: الفرس والبرذونة- وهو يُطلق على غير العربى من الخيل والبغال عظيم الخِلْقة، غليظ الأعضاء، قوى الأرجل، عظيم الحوافر - التى تُتخذ للنسل، معرّب. [لسان العرب: 10/ 434]

(2) أخرجه البخارى [4742] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.

أو لعل الله يبتلى إيمانكم فيراكم: هل أنتم مقبلون على الزكاة لأن الله أمر بها أم لأنكم تطمعون فى الربح الزائد؟ إنه سبحانه يحب من العبد أن يقبل على الحكم لأنه حُكم الله فقط.

والله سبحانه وتعالى حرّم عليهم الصيد فى يوم السبت بظلم منهم، ثم أراد أن يشدد الابتلاء، فجعل السمك فى ذلك اليوم يُرى فوق سطح الماء، وتظهر منه الزعانف كالشراع فى المركب.

ومعنى ذلك إغراء بالصيد، فلو لم يظهر السمك فى هذا اليوم، لكان عدم الصيد أمرا عاديا، لكن أن يلتفتوا فيجدوا السمك سابحا فوق سطح الماء، تظهر زعانفه كأنها أشرعة المراكب.. فهذا تمام الابتلاء: ﴿**إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا**﴾ [الأعراف: ١٦٣] فلو كانوا على اليقين والإيمان سيلتزمون الأمر. ويريد الله أن يمحّص إيمانهم تمحيصا دقيقا، إنهم يريدون تنفيذ أمر الله، ولكن طمعهم المادى يرفعهم إلى الحزن على السمك الذى يظهر يوم السبت، ولو أنهم وثقوا بعطاء الله فى المنع، لزادهم الله عطاء؛ فقد يكون للمنع عند الله عطاء، ولو أنهم التفتوا إلى ذلك لقالوا: ما عند الله خير من السمك الذى يظهر يوم السبت، ولكنهم احتالوا حيلا كثيرة لصيد السمك، صنعوا شباك صيد تحجز السمك فى الماء ويأتون فى اليوم التالى ليأخذوه، وهم بذلك يتحايلون على أمر الله سبحانه، وينسون أن الصيد فى معناه الحقيقى أن يجعل الإنسان السمك فى حيازته، وما داموا قد وضعوا قيودا على السمك بحيث يتمكنون من أخذه فى أى وقت، فقد اصطادوه. إنهم يتحايلون على أمر الله: ﴿**كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾ وما دام الإنسان يُحلُّ لنفسه شيئاً حرمه الله عليه؛ فإن الله يعاقبه بتحريم شىء كان حلالا له.

ويقول الحق: ﴿**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ**

﴿عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤] لقد أوجد الله بينهم عناصر خير تقدم الوعظ لهم، إننا أمام ثلاثة ألوان من البشر فى حاضرة البحر:

الأول: جماعة قامت بالمخالفة.

والثانى: جماعة أرادت الوعظ.

الثالث: جماعة قامت بلوم الذين يعظون.

إن الذين قاموا بالوعظ أرادوا أن يدرأوا عن أنفسهم أنهم سكتوا عن المنكر؛ لذلك قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وما الذى حدث لهم ؟

يقول الحق: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥] مقابل النجاة للذين نهوا عن السوء كان الهلاك لمن فسقوا فى أمر الله. ومن هنا نفهم أن اللعن بمعنى «الهلاك»، والحق سبحانه وتعالى حين خلق الإنسان، جعل الوجود المادى كله للناس جميعا، المؤمن والكافر، الطائع والعاصى .. لماذا ؟ لأنه سبحانه هو الذى أوجدهم فى هذا الكون، ولابد أن يضمن لهم قوام حياتهم، ولذلك سخر الأسباب الموجودة فى الكون للجميع، المؤمن منهم والكافر، فالذى يحسن الأخذ بالأسباب فقط يعطيه الله، ولكن ليس له نصيب فى الآخرة.

فالله سبحانه وتعالى حين تكرّم على الكل بإيجاد أسباب مقومات الحياة طلب منهم أن يأخذوا بأسبابه.

الشمس والهواء والماء للجميع، وكل إنسان استقر فى مكان أخذ من خير هذا المكان، والحق سبحانه وتعالى حين يريد أن يخرج واحدا عن

ملكه الذى له فيه اختيار وفيه أسباب، فإنه سبحانه يطرد هذا العبد من هذه الرحمة، فبعد أن كانت تخدمه الأسباب يهلكه الله.

إذن . . فعندما يهلكهم الله فهو قد طردهم من الرحمة فى دنياه، فهو رحمن الدنيا، نعم، إن أمر الله مفعول؛ لأن الحق سبحانه وتعالى بقدرته الشاملة، وصفات جلاله الكاملة قيّومٌ على كونه، فلا يتخلف شىء فى الوجود عن أمره، فإذا أمر بشىء فلابد أن يحدث . . لماذا؟

لأن الذى يتخلف عن وعد أو وعيد، إنما يكون ذلك من البشر، فقد يعد إنسان إنسانا آخر بخير، وقد لايجد الراغب فى فعل الخير، الخير الذى يمكن أن يؤديه. فالمسألة محدودة بقدرة الإنسان، وقد يتوعد إنسان آخر بشر؛ ولكن ساعة تنفيذ التهديد لا يجد الإنسان قدرة لتنفيذ الوعيد.

إن الإنسان لا يستطيع إنفاذ شىء من وعد أو وعيد، إلا فى حدود القدرة البشرية، والقدرة البشرية متغيرة، وقد توجد أو لا توجد. لكن الحق سبحانه وتعالى إذا قال بوعد أو قال بوعيد، فلا يوجد شىء يغير هذا، فساعة يقول الله فلابد أن يحدث.

ولذلك، فهناك حدث وقع قبل أن يتكلم الإنسان عنه، وهو فعل ماضٍ، هذا بالنسبة للإنسان، أما بالنسبة للحق سبحانه وتعالى؛ فهو إن قال عن أمر مستقبل، فمعنى ذلك أنه حادث لا محالة؛ لأنه متى شاء فعل، وقوله تعالى: ﴿ **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ** ﴾ (١) [النحل: ١]. إن﴿ **أَتَىٰ** ﴾ فعل ماض، يدل على أن الأمر قد حدث، ومعنى: ﴿ **فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ** ﴾ يدل على أن

---

(١) يقول الفخر الرازى: اعلم أن رسول الله ﷺ كان يخوفهم بعذاب الدنيا تارة وهو القتل والاستيلاء عليهم كما حصل فى يوم بدر، وتارة بعذاب يوم القيامة، وهو الذى يحصل عند قيام الساعة. ثم إن القوم لما لم يشاهدوا شيئا من ذلك، احتجوا بذلك على تكذيبه، وطلبوا منه الإتيان بذلك العذاب، وقالوا له: ائتنا به. وروى أنه لما نزل =

الأمر لم يحدث، والمنطق العادى لا يقبل بالنسبة للبشر حدوث ذلك، والذين لا يفهمون ملكة اللغة وتعلموها فقط، لا يمكنهم الفهم الصحيح للقرآن، لذلك يلتبس عليهم الفهم وقد يقول قائل: إن ﴿أَتَىٰ﴾ فعل ماض، و﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فعل مضارع يدل على أن الأمر سيحدث فى المستقبل.. فكيف ذلك؟

والإجابة على ذلك: إن المتحدث هو الإله العليم، فإذا قال الله ﴿أَتَىٰ﴾، فالأمر آتٍ لا محالة، ويجب الحكم على الحدث المستقبل من الله على أنه أمر كائن.. كما يكون كائنا ماضيا، ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ معناها: أنه سيأتى

= قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ماهو كائن. فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئا مما تخوفنا به، فنزل قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ فأشفقوا وانتظروا يومها فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزل قوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ ورفع الناس رؤسهم فنزل قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، والحاصل أنه عليه السلام لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ولم يروا شيئا، نسبوه إلى الكذب. فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وفى تقرير هذا الجواب وجهان:

الوجه الأول: أنه وإن لم يأت ذلك العذاب إلا أنه كان واجب الوقوع، والشئ إذا كان بهذه الحالة والصفة، فإنه يقال فى الكلام المعتاد: إنه قد آتى ووقع إجراء لما يجب وقوعه بعد ذلك مجرى الواقع، يقال لمن طلب الإغاثة وقرب حصولها: قد جاءك الغوث فلا تجزع.

الوجه الثانى: وهو أن يقال: إن أمر الله بذلك وحكمه به قد أتى وحصل ووقع، فأما المحكوم به فإنما لم يقع؛ لأنه تعالى حكم بوقوعه فى وقت معين؛ فقبل مجئ ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود، والحاصل كأنه قيل: أمر الله وحكمه بنزول العذاب قد حصل ووجد من الأزل إلى الأبد، فصح قولنا: أتى أمر الله، إلا أن المحكوم به والمأمور به إنما لم يحصل؛ لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين، فلا تستعجلوه ولا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت . [التفسير الكبير: ١٩/٢١٧-٢١٨]

منه، ولا توجد قدرة فى خلقه تُصرِّف مراده سبحانه وتعالى، أو تعجزه عن أن يفعل، فإذا قال سبحانه إنه سيفعل فهو قد فعل، وذلك يشرح لنا قول الحق: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾؛ إنه سبحانه يقول: ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾، إن قوله: ﴿ نَلْعَنَهُمْ ﴾ يتحدث عن المستقبل، وكأنه قد لا يحدث، لكن بالنسبة لأمر الله فهو مفعول لا محالة، فلا اطمئنان لهؤلاء الذين تحل عليهم لعنة الله، إن المستقبل قد يحتمل الحدوث أو عدم الحدوث بالنسبة للإنسان الذى هو عرضة للأغيار، ولا يملك أسباب نفسه.

إن الإنسان قد يقول: سأفعل كذا غدا؛ وقد يأتى الغد ويموت هذا القائل، أو يقول إنسان: سأقابل فلانا يوم كذا. وقد يأتى اليوم المحدد وأحدهما غير موجود، أو يقول إنسان: سأقابل فلانا لأتحدث معه فى الأمر الفلانى. هنا قد يأتى الميعاد ورأىُ الإنسان يتغير بخصوص الحدث، وقد يقول قائل: سأنتقم من فلان. وقبل أن يحدث وقت الانتقام قد يتغير الحال ويسامح الإنسان عن خطأ أخيه فى حقه. إن الإنسان لا يملك شيئاً من المستقبل.

ولذلك يعلّمنا الله الأدب مع الأحداث، ومع الكون، ومع المكون، ويخرجنا عن أن نكون هكذا، فيقول الحق سبحانه: ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]؛ وذلك حتى لا يكون الإنسان كذابا أو مجترئا على الله.

إن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى «فاعل»، وإلى «مفعول» يقع عليه، ويحتاج إلى «زمن»، ويحتاج إلى «سبب»، ويحتاج إلى قدرة تفعله فى المستقبل. فما الذى يملكه الإنسان من عناصر الفعل ؟ إن الإنسان لا يملك نفسه، ولا يملك وجود المفعول، ولا يملك السبب، ولا يملك القدرة

لذلك؛ فمن حسن الأدب أن يقول الإنسان: «إن شاء الله» وإن لم يحدث الحدث فيمكنك القول: «إن الله لم يشأ»، وبذلك يخرج الإنسان من التبعة، ولا يكون كاذباً أو مجترئا. إذن.. قول الحق: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ لأنه سبق أن قال فى نفس الآية: ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ ﴾ و﴿ نَلْعَنَهُمْ ﴾ فعل مضارع؛ ولذلك فسوف يحدث ما قال الله لا محالة.

ولذلك فعندما يقول العبد: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ فعليه أن يتبع ذلك بقول: ولا يزا ل غفوراً رحيماً؛ لأن صفة الرحمة لم توجه لله ساعة أن وجد المرحوم، لا.. إنها صفة أزلية. فالرحيم لا تعنى بالنسبة لله أنها موجودة لحظة وجود الإنسان المطلوب له الرحمة. بل هو سبحانه الرحيم على الإطلاق، والرحمة من صفاته، وهو سبحانه الرحيم قبل أن يوجد المطلوب له الرحمة، غفور قبل أن يوجد المطلوب له المغفرة، وهو سبحانه لا تحدث له أغيار، وما دام سبحانه كان رحيما قبل أن يوجد مرحوم له، فإذا وجد مرحوم له فصفته تصبح لازمة، ولذلك كان الله ولا يزال غفورا رحيما .

* لم تعظون قوماً الله مهلكهم؟! *

يعطينا الحق سبحانه وتعالى صوراً أخرى من معصية بنى إسرائيل وتحديهم لمنهج الله:

الصورة الأولى: حين أمرهم بدخول القرية فرفضوا.

والصورة الثانية: حين قال لهم: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ [الأعراف: ١٦١] فقالوا: حنطة.

والصورة الثالثة: تحايلهم على صيد الأسماك والحيتان فى اليوم المحرم عليهم فيه الصيد.

والصورة الرابعة: فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

الأمة: معناها الجماعة أو الطائفة، والآية الكريمة ترينا أن هناك ثلاث طوائف: قوم واعظون، وقوم موعوظون، وقوم يستنكرون الوعظ. فالقوم الذين وعظوا هم قوم ملتزمون بمنهج الله، والقوم الذين وجهت إليهم الموعظة قوم مخالفون لمنهج الله، والقوم الذين لاموا الواعظين هم جماعة ثالثة أخذت الوعظ واستهزأت به.

إذن.. فهناك قوم اعتدوا وظلموا، وهناك قوم لم يعتدوا، ولكنهم انقسموا إلى قسمين: قسم يئس من الوعظ من طول مدته وقال: مالنا ومالهم، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ [القصص: ٥٥]، وقسم آخر لم ييئسوا من إصلاح هذه المخالفات للمنهج، واستمروا فى لوم الذين خالفوا المنهج، وطلبوا منهم أن يعودوا إليه.

نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة: ﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ** ﴾(1)، القوم الذين لم يخالفوا المنهج وفى نفس الوقت يئسوا من إرجاع المفسدين للإيمان قالوا: ما لنا ولهم، هم الذين يلومون القوم الذين تصدوا للمخالفين للمنهج ووعظوهم، فيقولون لهم: تعظونهم مع أن الوعظ لا ينفع معهم؟ولن يستمعوا إليه؟ ومصير هؤلاء المخالفين العاصين هو الهلاك والعذاب فى النار، والله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء: ٣] أى أن الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ: لماذا تتعب نفسك مع هـــؤلاء وقد ملأت المعصية قلوبهم، وهـــم لا يستمعون إلى ما تقوله؟ إن الله سيعذبهم بذنوبهم.

إذن .. فالذين يئسوا من هداية العصاة لاموا الذين استمروا فى طريق الوعظ، وقالوا لهم: لم تعظونهم وهم لن يستمعوا إليكم، ومصيرهم العذاب والهلاك؟ بماذا ردّ الواعظون؟! قالوا: ﴿ **مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ** ﴾؛ أى أن الوعظ الذى قدمه المؤمنون إلى هؤلاء العاصين هو معذرة إلى الله، والمعذرة هى إبداء سبب لأمر خالف مراد غيرك، فأنت مثلاً حين يعطيك إنسان موعدًا وتنتظره

---

(1) يقول ابن كثير: يخبر عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق:
فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت.
وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم.
وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: ﴿ **لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا** ﴾ أى: لِـمَ تنهـون هؤلاء، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله، فلا فائدة فى نهيكم إياهم؟ قالت لهم المنكرة: ﴿ **مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ** ﴾ قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقدير: هذا معذرة، وقرأ آخرون بالنصب؛ أى نفعل ذلك ﴿ **مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ** ﴾ أى: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ **وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ يقولون: ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.
[تفسير ابن كثير: ٢/٢٤٧]

فترة طويلة ولا يحضر، فإنه خالف مرادك فى أن يحضر فى الموعد المحدد، فإذا جاء فإنك تلومه، فيعتذر لك بأن السيارة قد تعطلت، ويكون هذا عذراً؛ لأنه خالف ما تريده منه فى الحضور إليك فى الموعد المحدد .

ويقال: «أعذر من أنذر» (١) أى أنه عندما تُنذر بشىء لا يكون لك عذر تبديه؛ ولذلك إذا أنذرت ابنك بأنه إذا أهمل المذاكرة رسب، ورسب فعلاً، تقول له: لقد أنذرتك فلا عذر لك عندى. وهناك المعذِّر فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ ﴾ [التوبة: ٩٠] والمعذر- بتشديد الذال-هو الذى يأتى لك بعذر كاذب، أى يفعل شيئاً يضايقك، فإذا لمته كذب عليك، أما المعْذِر بسكون العين فهو الذى يأتى لك بعذر صادق(٢).

---

(١) أى : أقام العذر من خَوَّف قبل الفعل. ويقال: أعذر الرجل، إذا بلغ أقصى العذر، وعذّر إذا قصّر، وإذا اعتذر ولم يأت بعذر. وفى القرآن: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ ﴾ . [جمهرة أمثال العرب: ١/ ١٦٢]

(٢) قال الشوكانى: قرأ الأعرج والضحاك: «المعذرون»بالتخفيف، من أعذر، ورواها أبو كريب عن أبى بكر عن عاصم ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس. قال فى الصحاح: وكان ابن عباس يقرأ : «وجاء المعذرون» مخففة من أعذر، ويقول: والله هكذا أنزلت. قال النحاس: إلا أن مدارها على الكلبى(١) وهى من أعذر: إذا بالغ فى العذر، ومنه: «من أنذر فقد أعذر» أى: بالغ فى العذر. وقرأ الجمهور ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ بالتشديد ففيه وجهان، أحدهما: أن يكون أصله المعتذرون؛ فأُدغمت التاء فى الذال، وهم الذين لهم عذر، ومنه قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

فالمعذرون على هذا: هم المحقون فى اعتذارهم. وقد روى هذا عن الفراء، والزجاج وابن الأنبارى.

وقيل: هو من عذر، وهو الذى يعتذر ولا عذر له، يقال: عذر فى الأمر: إذا قصر =

(١) هو محمد بن السائب بن بشر الكلبى، أبو النضر الكوفى، النسَّابة المفسِّر، متهم بالكذب ورُمى بالرفض. مات سنة ست وأربعين. [تقريب التهذيب: ٥٩٣٨]

إذن.. فالذين لم يسكتوا وقاموا بالموعظة ردوا على الذين لاموهم، وكلا الفريقين من المؤمنين بقولهم: أنتم تلوموننا لأننا نعظهم، مع أنهم لن يرتدّوا عن المعصية ومصيرهم الهلاك والعذاب، أنتم حكمتم أنهم لن يستمعوا لنا، ولكننا لن نيأس كما يئستم، فعلى فرض أنهم لن يؤمنوا، ولن يتغير سلوكهم، ولن يفطنوا إلى منهج الحق سبحانه، نكون قد قدمنا المعذرة إلى الله تعالى فى أننا حين رأينا معصية عملنا قدر طاقتنا على إزالتها، وحين رأينا عاصياً عملنا قدر طاقتنا على وعظه وبيان طريق الحق له.

وهناك فرق بين بلاغ الحكم، والوعظ بالحكم.

الوعظ: هو أن تكرر لإنسان ما يعلمه، ولكنه لا يفعله، كأن تنصح إنسانا بالصلاة أو الزكاة، فهو يعلم أن كليهما فرض، ولكنه لا يؤدى أيًا منهما.

أما بلاغ الحكم: فهو أن يجهل الناس حكماً فتقوم بإبلاغه إليهم.

إذن.. ففى بلاغ الوعظ، الحكم معلوم، ولكن العمل به غير قائم، وفى بلاغ الحكم، البلاغ مجهول؛ وأنت تريد أن تبلغ به السامع، ولكن بعض العلماء قال: إن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا** ﴾، ليس من تلك الفئة المؤمنة التى يئست من هداية العاصين،

= واعتذر بما ليس بعذر، ذكره الجوهرى وصاحب الكشاف. فالمعذرون على هذا: هم المبطلون؛ لأنهم اعتذروا بأعذار باطلة لا أصل لها.

وروى عن الأخفش والفراء وأبى حاتم وأبى عبيد أنه يجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع.

والمعنى: أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤوا به من الأعذار بحق، أو بباطل على كلا التفسيرين؛ لأجل أن يأذن لهم رسول الله ﷺ بالتخلف عن الغزو.

وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر، وهم منافقو الأعراب الذين كذبوا الله تعالى ورسوله ﷺ، ولم يؤمنوا، ولا صدقوا.

[فتح القدير : ٢/٤٠٩]

وإنما من الفئة العاصية التى قاموا هم بوعظها، فإنهم يقولون لهم: إذا كان الله مُعذبنا فلم تعظوننا أنتم ؟ نقول لهم: إن هذا التفسير يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ ﴾ (١) ، واستخدام هذه الكلمة هو إخبار عن الغير، ولو كان هذا التفسير صحيحاً لقالوا: «ولعلكم»، ولم يقولوا: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ ﴾؛ لأن الخطاب حين يكون بين الواعظين والعاصين فإن سياق الكلام يقتضى أن يقولوا: ولعلكم .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أى ما ذكرهم المؤمنون به وعظاً، وقوله تعالى: ﴿ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ يدل على أن النجاة هنا للفرقة الواعظة، ثم جاء العذاب للذين ظلموا وعصوا، ولكن ما هو مصير الفرقة الثالثة التى قالت: ما لنا وما لهم ؟ نقول: إن الفئة التى وعظت يئست من طول الوعظ وعدم الاستجابة، هم أيضًا من الواعظين؛ لأنهم حين يقولون: إن الله تعالى مهلك هؤلاء الظالمين ومعذبهم، يكون هذا وعظاً وتخويفاً لكل الحاضرين بسوء العذاب وسوء المصير الذى ينتظر أى ظالم.

(١) يقول الزجاج فى قوله تعالى: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ معنى الآية: أنهم لاموهم فى عظة قوم يعلمون أنهم غير مقلعين، هذا الأغلب عليهم فى العلم ﴿ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ومعنى ﴿ أَوْ ﴾ - والله أعلم - أنهم أخبروهم - على قدر ما رأوا من أعمالهم - أنهم مُهلكون فى الدنيا أو معذبون فى الآخرة لا محالة.

وقوله: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ المعنى: قالوا موعظتنا إياهم معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون، فالمعنى أنهم قالوا: الأمر بالمعروف واجب علينا، فعلينا موعظة هؤلاء ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ . ؛ أى: وجائز عندنا أن ينتفعوا بالمعذرة.

[معانى القرآن وإعرابه: ٢/ ٣٨٥] بتصرف.

إن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعنى: أنجينا الذين قاموا بالوعظ، وهم الفئة التى يئست من استجابة العاصين للوعظ، والفئة التى قامت بالوعظ، أما الذين ظلموا فأخذهم الله سبحانه﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أى: عذاب شديد؛ لأن كلمة الباء والهمزة والسين «بئس» تدل على الشدة، و يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] أى: شدة، أى: إن العذاب لم يكن ظلما لهم، ولكنه كان بسبب ظلمهم وفسقهم ومخالفتهم للمنهج.

ولكن القصة لم تنته بعد، الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١) [الأعراف: ١٦٦]، فكأن الحق سبحانه وتعالى حين أنزل عليهم العذاب الشديد لم يزهق حياتهم، فالعذاب هو الإيلام والألم، والإيلام والألم لا يكونان إلا لمن يتألم؛ ولذلك فإن الموت لا يسمى عذابًا؛ لأنه يُنهى الإحساس بالألم؛ ولذلك عندما تقرأ القرآن فى قصة نبى الله سليمان والهدهد، ماذا قال سليمان عليه السلام؟ قال: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى

---

(١) قال البيضاوى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ تركوا ترك الناسى ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ماذكرهم به صلحاؤهم ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالاعتداء ومخالفة أمر الله ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ شديد فعيل، من بؤس يبؤس بؤسًا: إذا اشتد وقرأ أبو بكر: بيئس على فيعل كضيغم، وابن عامر بئس بكسر الباء وسكون الهمز على أنه بئس كجذر. ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم. ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ تكبروا عن ترك مانهوا عنه؛ كقوله تعالى: ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ .
﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ الظاهر يقتضى أن الله تعالى عذبهم أولا بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك فمسخهم، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً للأولى.

[تفسير البيضاوى: ١/ ٣٦٥] بتصرف.

﴿الْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠] وكان قد تبين له أن مكان الهدهد خال، وأنه غائب عن الحضور، ماذا قرر سليمان عقوبة للهدهد؟ قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١] .

إذن.. فالعذاب غير الذبح؛ لأن الذبح يؤدى إلى الموت ، والموت ليس بعده تعذيب دنيوى .

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ إن معنى ﴿عَتَوْا﴾ أى: أبوا وعصوا وخالفوا الأشياء التى نهوا عنها، وهذه الأشياء هى التى جاءت لهم بالعذاب أولاً، ولكنهم رغم العذاب أصروا على المعصية؛ فعاقبهم الله سبحانه عقابًا أشد، قال تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ لماذا؟ لأن العتو كبرياء وإباء[1]، فعندما تكبروا نقلهم الله إلى أخس الحيوانات وهى القردة؛ لأن القرد مفضوح السوءة، عورته مكشوفة.

وقوله تعالى: ﴿كُونُوا﴾ أى انقلبوا، وهذا أمر تسخيرى؛ لأنك حين تأمر إنسانا بفعل لابد أن تعرف أولاً أنه قادر على أن يفعل، وإلا إذا كان غير قادر على الفعل، فإنه لا يستطيع، وبالتالى لا يكون للأمر قيمة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ أمر لهؤلاء المتكبرين أن ينقلبوا إلى قردة، ولكن هل يمكنهم أن يقلبوا أنفسهم من آدميين إلى قردة؟ لا. لذلك فهو أمر تسخيرى من الله سبحانه أن ينقلبوا قردة، ولكن لماذا صدر الأمر بهذه الصورة؟

ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أنهم قد أصبحوا قردة بفعلهم وإصرارهم

---

(١) عن أبى سعيد الخدرىّ وأبى هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ « العِزُّ إزارُهُ . والكبرياءُ رداؤه . فمن ينازعنى، عذبته». أخرجه مسلم [١٣٦/٢٦٢٠]

وفى المسند [٢٤٨/٢]: عن أبى هريرة، قال: قال الله عز وجل: «الكبرياء ردائى، والعزة إزارى، فمن نازعنى واحداً منهما أُلقيه فى النار». وصححه الشيخ شاكر [٧٣٧٦]

على المعصية، فكأن الأمر فى أيديهم، وكأنهم هم الذين اختاروا بإصرارهم على المعصية أن يكونوا قردة؛ فوقع عليهم أمر الله سبحانه بذلك، ونظير ذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وهى وصية إبراهيم لبنيه ويعقوب ألا يموتوا، إلا على دين الإسلام، ولكن هل فى أيديهم أن يموتوا أولا يموتوا وأن يطيلوا أجلهم؟ بالطبع لا، ولكن قول الحق سبحانه: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ معناه: أنكم وأنتم لا تعلمون متى يدرككم الموت سارِعوا إلى الإسلام، وتمسكوا به، ولا تفترقوا عنه، حتى إذا جاءكم الموت فى أى وقت جاءكم مسلمين.

ولكن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ لا يمس فقط أولئك الذين فسقوا وأصروا على المعصية والظلم، ولكنه يمس أيضًا الذين رأوا هذا العقاب من المؤمنين؛ لأنهم رأوا ما حل بهؤلاء الذين وعظوهم ولم يستمعوا لوعظهم. هذه القصة قد حدثت وانتهت وأصبحت خبرًا علينا أن نصدقه؛ لأنه ورد فى القرآن الكريم ولأن قائله هو الله سبحانه وتعالى.

* بقرة بنى إسرائيل *

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً
قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ
(٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ
(٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ
لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ
مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)
وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ
بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ﴾ [البقرة]

تلك هى قصة البقرة ، جاء الأمر الإلهى بها إلى موسى، فأشار موسى عليه السلام على قومه بأن يذبحوا البقرة[1]، وظل قوم موسى يجادلون

(١) قال ابن كثير: قال ابن عباس وعبيدة السلمانى وأبو العالية ومجاهد والسدى، وغير واحد من السلف: كان رجل فى بنى إسرائيل كثيرالمال، وكان شيخاً كبيراً، وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته؛ ليرثوه؛ فعمد أحدهم، فقتله فى الليل، وطرحه فى مجمع الطرق، ويقال: على باب رجل منهم.

فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ، ويتظلم، فقالوا: مالكم تختصمون ولا تأتون نبى الله؟ فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى ﷺ . فقال موسى عليه السلام: «أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به» فلم يكن عند أحد منهم علم منه،وسألوه أن يسأل فى هذه =

فى ذلك، إنهم يريدون علة الأمر ، وينسون أن أى أمر إلهى لا ينبغى أن يسأل الإنسان فيه عن علة؛ لأنه أمر غير قادم من مساوٍ للمخلوق[1]. إن الإنسان عليه أن يسأل عن طبيعة الأمر وعلته، عندما يصدر الأمر من مساو له؛ لكن عندما يصدر الأمر من الخالق سبحانه، فلا يليق أن يسأل الإنسان عن علة الأمر؛ لأن العلة فى مثل هذا الأمر لابد أن تكون فى صالح الإنسان.

ولقد ذهب البعض إلى القول بأن ذبح البقرة بالنسبة لقوم موسى إنما كان من أجل هز هيبة الحيوان أمام قدرة الإنسان؛ وكان قوم موسى قد صنعوا تمثالاً للعجل، وعبدوه، وعاشوا مع المصريين فى ذلك الزمن الذى قدسوا فيه البقر، وكان لابد من اقتلاع هذه البقية من التقديس للعجل والأبقار من نفوسهم؛ لذلك كان الجدل، والتلكؤ فى ذبح البقرة، والسؤال عن نوع البقرة. لقد أراد الحق أن يكشف أمامهم قدرتهم على ذبح البقرة، وفوق كل ذلك قدرته سبحانه على الإحياء، والإماتة، وذلك من خلال الجريمة التى وقعت بينهم. فقد قُتل أحدهم، ولم يتعرفوا على القاتل، فجاء الأمر بذبح البقرة، وضرب القتيل ببعضها؛ ليروا كيف يعود القتيل إلى الحياة ؛ ليخبرهم عن قاتله. لقد جاء الأمر أولاً، ثم جاءت العلة بعد ذلك .

إن التكليف من الله تعالى يجب أن يطبق على الفور؛ لأن تطبيق

= القضية ربه عز وجل.

فسأل ربه عز وجل فى ذلك، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا** ﴾ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل، وأنت تقول لنا هذا؟ ﴿ **قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ أى: أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلى، وهذا هو الذى أجابنى حين سألته عما سألتمونى أن أسأله فيه.

[قصص الأنبياء: ٤٣٦].

التكليف هو معيار الإيمان، والإيمان بالله تعالى يقتضى أن نسلم بكل أمر[1]؛ ولذلك يأتى الأمر بالصيام على سبيل المثال مسبوقا بهذا القول: ﴿كُتِبَ﴾ وذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣].

إننا لا نسأل الحق سبحانه عن علة الصيام؛ لأن الإيمان بالله تعالى يعنى **أن المؤمن** قد أسلم حركة حياته كلها لله ويفعل ما يأمر به الحق سبحانه.

إن علة الأحكام التكليفية من الحق جل وعلا لا تظهر إلا بعد مزاولتها، **فالمؤمن لا** يعرف علة الصلاة إلا إذا باشر الصلاة، ورأى فيها قرة عين وراحة نفس ووجوداً فى حضرة الله عز وجل [2].

والصوم لا يعرف المؤمن له حكمة إلا بعد أن يمارسه، فيتعرف إلى فوائده بالنسبة للجسم، وكيفية الأمانة مع النفس ورقابتها والسيطرة عليها. إن المؤمن هو من يقبل على أوامر الله تعالى؛ طاعة لله سبحانه.

وفى قصة البقرة ينبهنا الحق سبحانه إلى هذه اللفتة؛ فلا تأتى العلة التى من أجلها صدر الأمر بذبح البقرة إلا فى آخر القصة، كأن الحق قد أراد أن يختبر قوة إيمانهم دون لجاجة أو تلكؤ، وقصة البقرة تبين أنهم استقبلوا

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

(٢) وذلك إشارة لقوله ﷺ « وجعل قرة عينى فى الصلاة» جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد فى المسند [١٢٨/٣] عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

وكان ﷺ يقول: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها» أخرجه أبو داود [٤٩٨٥] وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٤١٧١].

كما كان ﷺ: « إذا حزبه أمر صلى». أخرجه أحمد فى المسند [٣٨٨/٥]. عن حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه.

أمر ذبح البقرة باللجاجة والتلكؤ.

إن موسى عليه السلام يبلغهم بقول الحق سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً** ﴾ فإذا بهم يستقبلون هذا الأمر بلجاجة من يظن أن فى مثل هذا الأمر استهزاء بهم، إلى هذا الحد بلغت بهم اللجاجة !!

وقد قلنا من قبل: إن الأمر طلب فعل، وطلب الفعل يأخذ ثلاث صور:

الصورة الأولى: إذا كان الأمر صادراً ممن هو أعلى من المأمور، فإننا نسمى ذلك أمرا.

والصورة الثانية: إذا كان الأمر صادراً ممن هو مساوٍ لك، كأن يطلب الإنسان أمراً من زميل له، فذلك نسميه التماسًا.

والصورة الثالثة: إذا كان الأمر صادرا ممن هو أقل لمن هو أعلى، فذلك نسميه الرجاء.

وعلينا أن نعلم أن ما يصدر عن الحق للخلق هو أوامر من الصورة الأولى؛ لأنه سبحانه الخالق والكل مخلوق له، هو سبحانه الملك والكل عبيد له.

والمخلوقون يطلبون من الحق تعالى الأمور التى يحتاجون إليها بالدعاء والرجاء.

إذن.. المؤمن لا يستقبل أوامر الله سبحانه بانتظار تعليل لها؛ إنما المؤمن هو الذى يجب أن يستقبل أوامر الله سبحانه بدون تعليل .

فلو أن الله تعالى قد طلب ذبح بقرة بدون العلة التى ذكرها بعد ذلك؛ لكان من الواجب على قوم موسى أن يطيعوا الله سبحانه، وإن لم يعلموا العلة، ويعطينا هذا الدرس تلك الحقيقة الإيمانية الناصعة، تلك الحقيقة التى

تقول: إن الإيمان بالله تعالى هو أصلٌ لتعليل أى حكم من أحكام الله سبحانه، فإذا قيل للمؤمن: لِمَ تصلى؟فعلى المؤمن ألا يدخل فى متاهات تعليل الصلاة، ولا أن يقول: إن الصلاة رياضة للبدن، وتحريك لسائر الأجهزة. لا؛ ذلك أن غير المؤمن قد يرد على المؤمن قائلاً: تعال أعلمك رياضة تفيد البدن، وتدير كل أجهزة الجسم، أفضل من ذلك.

ورغم أن أحدا من المؤمنين لا ينكر حلاوة الصلاة، وفائدتها، فإن هذا الجمال الخفى المشع من أداء الصلاة لا تحدُّه الكلمات، ولا تحيط به المعانى، إنه لقاء بين الخالق والمخلوق، وعلة الصلاة الوحيدة والأولى هى تنفيذ لأوامر الحق جل وعلا. وإذا قيل للمؤمن: لِمَ تتوضأ قبل الصلاة؟ فعلى المؤمن أن يقول: لقد أمرنى الله تعالى بذلك، والمقصود بالعبادة هو طاعة الأمر؛ ذلك أن الأمر لا يتوقف عند النظافة بالوضوء فقط، فهناك التيمم إن تعذر وجود الماء.

إن المسألة فى الوضوء: أن الله سبحانه قد اختار أن نتقرب إليه على هذا النحو، وكذلك فى الصوم لا يقول المؤمن: أنا أصوم من أجل أن أشعر بمتاعب الفقراء، والجوعى، أو غير ذلك من الأسباب، إنما المؤمن يؤدى عبادة الصوم؛ طاعة لأمر الله تعالى.

هكذا نفهم الدرس الواضح من العبادات، إن كل عبادة لها حلاوة طاعة، طاعة الأمر التى تشع بجمالها فى أداء العبادة لا تحدها الكلمات، ولا تحيطها المعانى؛ولهذا يجب على المؤمنين أن يستخلصوا الحكمة من حال قوم موسى عندما طلبوا علة الذبح قبل الذبح، لكن العلة جاءتهم بعد طاعة أمر الحق .

وقد قصَّ الله تعالى علينا فى القرآن الكريم تلك القصة؛ ليبين لنا

كيف كان تلكؤ قوم موسى، وكيف سردوا الأعذار؛ ليسوفوا، ويماطلوا فى تنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى.

لقد قال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ ومعنى الأمر كما قلنا: هو طلب شىء، والنهى أيضا طلب شىء، والاستفهام أيضا طلب شىء، والتمنى طلب لشىء مستحيل. فإذا كان الطلب قادماً ممن هو أعلى، فذلك نسميه أمراً، وإذا طلب أحد شيئًا من مساو له فذلك نسميه التماسًا.

وإذا طلب أحد شيئًا في القدرة أن يحدث، فلنا أن نسأل: هل ذلك الطلب هو طلب لـ«صورة» الشىء، أم طلب لـ «حقيقة» الشىء؟ إن طلب الصورة يختلف عن طلب الحقيقة، ومعلوم أن طلب الصورة هو طلب للمعلومات، كأن يسأل سائل: هل زارك محمد أمس؟ أو يقول قائل: هل تذهب إلى المكان الفلانى؟ هذا هو طلب الصورة.

أما طلب الحقيقة: فمعناه أنك تريد، أو لا تريد، فإن طلبت من صديق لك أموالاً محددة، فهذا معناه أنك تطلب حقيقة، وإذا طلبت من صديق أن يمتنع عن فعل ما، فذلك طلب للنهى، وهو طلب لحقيقة تستدعى الامتناع عن سلوك لا تحبه. وهكذا كان الأمر من الحق سبحانه، إنه طلب لحقيقة يستطيعها قوم موسى.

وكان التلكؤ فى السؤال عن اللون، استبطاء فى التنفيذ والطاعة؛ لقد سمعوا أمر الله تعالى، ولم يسارعوا إلى التنفيذ، وبعد ذلك وجهوا سؤالاً فيه من العنت الكثير، قالوا لموسى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ (١) هكذا!! وكأنهم لم يعترفوا بالله رباً لهم.

---

(١) قال ابن كثير: أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل، وكثرة سؤالهم لرسولهم، وهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد. ولكنهم شددوا فشدَّد عليهم؛ =

إنهم قصروا ربوبية الحق على موسى وحده، ولو كانوا حقا مؤمنين بالله تعالى راغبين فى تنفيذ أمره سبحانه لقالوا: «ادع لنا ربنا يبين لنا ما هى»، لكن تلك المسألة - أى: مسألة تنفيذ الأمر- كانت بعيدة عن تفكيرهم؛ ولذلك كان الرد جازماً قاطعاً، قال لهم موسى: ﴿**إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ**﴾، كأن الحق سبحانه يريد لهم الامتناع عن سبل التلكؤ، لكنهم يتمادون فى التلكؤ[1].

وتنبههم إجابة الحق سبحانه إلى الخطأ فى السؤال، فكان المفروض أن يسألوا عن عمر البقرة، فحتى هؤلاء القوم لا يحسنون السؤال!

= فقالوا: ﴿**ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ**﴾؛ أى: ما هذه البقرة، وأى شىء صفتها؟ روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال: لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها، ولكنهم شددوا فشدد عليهم. إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس. وكذا قال عبيدة والسدى ومجاهد وعكرمة وأبو العالية وغير واحد، وقال ابن جريج: قال لى عطاء: لو أخذوا أدنى بقرة لكفتهم. قال ابن جريج قال رسول الله ﷺ: «إنما أمروا بأدنى بقرة؛ ولكنهم لما شددوا، شدد الله عليهم وايم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد».

﴿**لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ**﴾ أى: لا كبيرة هرمة، ولا صغيرة لم يلحقها الفحل كما قاله أبو العالية والسدى ومجاهد وعكرمة وعطية. [تفسير ابن كثير: ١/ ١٠٥] بتصرف.

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ**﴾ فى هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل؛ لأنه لما أمر ببقرة اقتضى أى بقرة كانت، فلما زاد فى الصفة نسخ الحكم الأول بغيره؛ كما لو قال: فى ثلاثين من الإبل بنتُ مَخاض، ثم نسخه بابنة لبون أو حقة. وكذلك ها هنا لما عين الصفة، صار ذلك نسخاً للحكم المتقدم.

وقوله تعالى: ﴿**فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ**﴾ تجديد للأمر، وتأكيد، وتنبيه على ترك التعنت فما تركوه. وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء؛ وهو الصحيح على ماهو مذكور فى أصول الفقه، وعلى أن الأمر على الفور؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا. [تفسير القرطبى: ١/٤٤٨ ، ٤٤٩] بتصرف.

لقد صحح لهم الحق سبحانه ما كان يجب أن يسألوا عنه، فقال تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ والفارض فى اللغة معناها: الواسع، والمراد هنا ألا تكون بقرة مسنة، والذى يدل على ذلك أن وصف البقرة لم يتحدد فقط بأنها ﴿لا فَارِضٌ﴾، ولكن يتحدد أيضًا ببقية الوصف: ﴿وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أى: وسط بين هذا الأمر، وذاك الأمر، ويأتى بعد ذلك التحديد فى قوله تعالى: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾؛ وذلك حتى لا يتمادوا فى التلكؤ، وكان تحديد الحق سبحانه للبقرة بذلك يعنى ألا تكون مسنة، والبقرة المسنة كما نعرف هى: التى تعرضت للحمل كثيرا؛ لذلك يكون بطنها متسعًا. ويحدد الحق سبحانه أن تكون البقرة ﴿لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ﴾، أى: إنها تكون قد ولَدَت عدة مرات، لكن لم تصبها الشيخوخة، وذلك هو المقصود بكلمة: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾[1]، ويأتى بعد ذلك الأمر بضرورة تنفيذه ؛لكنهم يتمادون فى التلكؤ، فيتساءلون عن لونها، ويأتى الأمر من الحق سبحانه على لسان موسى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ والمقصود

(١) قال الشوكانى: **الفارض:** المسنة، ومعناه فى اللغة: الواسع.

قال فى الكشاف: وكأنها سميت فارضاً؛ لأنها فرضت سنها، أى: قطعتها، وبلغت آخرها. انتهى.

ويقال للشىء القديم: فارض.

وقيل: الفارض: التى قد ولدت بطونًا كثيرة، فيتسع جوفها. والبكر: الصغيرة التى لم تحمل، وتطلق فى إناث البهائم، وبنى آدم على ما لم يفتحله الفحل، وتطلق أيضًا على الأول من الأولاد.

والعوان: المتوسطة بين سنى الفارض، والبكر، وهى التى قد ولدت بطناً أو بطنين.

ويقال: هى التى قد ولدت مرة بعد مرة، والإشارة بقوله: ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ إلى الفارض والبكر، وهما وإن كانتا مؤنثتين فقد أشير إليهما بما هو للمذكر على تأويل المذكور، كأنه قال: بين ذلك المذكور. وجاز دخول بين المقتضية لشيئين؛ لأن المذكور متعدد.

[فتح القدير: ١/ ١٦٠ ، ١٦١] بتصرف.

بذلك أنها تُدخل السرور على من نظر إليها؛ إعجابًا بها وبجمال لونها، وصفائه.

ويحدد الخالق سبحانه لونها بأنها: ﴿ **صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا** ﴾، أى: إن لونها أصفر شديد الصفرة كأشعة الشمس (١). ولنا أن نعرف أن الألوان لا يمكن تحديدها إلا برؤيتها، فإذا قلنا: الليل أسود، فذلك يعنى: أننا نعرف الفرق بين الأسود والأبيض بالرؤية؛ وذلك لا يتأتى تعريفه إلا بأن نعلمه، ونتعلمه من استقراء الحُسن؛ لذلك نحن نعلم الأبناء الألوان من التدريب لهم على رؤية الألوان المختلفة، أى: إننا لابد أن ندربهم على استخدام الحواس فى معرفة الألوان. ولأن تحديد الألوان يستدعى المشهد والرؤية، وقد كانت الناس قديمًا لا تعرف الأصباغ والكيمياء والألوان المتشابكة، كانوا يعرفون فقط ألوان الطيف.

فالأبيض مثلاً يقال له: يَقَقٌ، والأسود يقال له: حالك، والأحمر يقال له: قان، والأخضر يقال له: ناصع. هكذا نعلم أن لكل لون فى اللغة وصفًا مناسبًا له.

---

(١) قال السمرقندى فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا** ﴾ يعنى: شديد الصفرة، كما يقال: أصفر فاقع إذا كان شديد الصفرة، كما يقال: أسود حالك، وأبيض يَقَقٌ، وأحمر قانى، وأخضر ناصع إذا وصف بالشدة.

وقال بعضهم: أراد به بقرة صفراء الظلف والقرن، أى: شعرها وظلفها وقرنها وكل شيء منها أصفر. ويقال: أراد به البقرة السوداء؛ لأن السواد الشديد يضرب إلى الصفرة، كما قال تعالى: ﴿ **كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ** ﴾ [المرسلات: ٣٣].

ولكن هذا خلاف أقاويل المفسرين، وكلهم اتفقوا أن المراد به صفراء اللون إلا قولا روى عن الحسن البصرى (١). [بحر العلوم: ١/ ١٢٨] بتصرف.

---

(١) روى ابن جرير الطبرى فى تفسيره [١/ ١٩٩] عن الحسن البصرى فى قوله تعالى: ﴿ **صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا** ﴾ قال: سوداء شديدة السواد.

ثم قال الطبرى: ولعله مستعار من صفة الإبل؛ لأن سوادها تعلوه صفرة.

إن اللغة العربية -التى هى لغة القرآن الكريم- تتمتع بدقة بالغة، فعلى سبيل المثال: نحن لا نقول عن الإنسان الواقف عندما يقعد إلا كلمة واحدة: قعد، فالقعود لابد أن قيامًا قد سبقه، ولا نقول: فلان قد جلس، إلا إذا كان مضطجعًا مثلاً، ثم جلس، أى إن الجلوس مسألة تأتى بعد القعود.

وتختلف كلمة «رأى» عن «لمح» عن «رمق» عن «لحظ»، إن الكلمات تتحدث عن وظيفة العين وهى: الإبصار، ولكن لكل كلمة معنى خاصًا يحدد الطريقة التى رأى بها الإنسان.

والشوق لإرواء الحاجات الحسية عند الإنسان تختلف كلماته؛ فالشوق إلى الماء: يقال له «عطش»، والشوق إلى اللبن يقال له: «عيمان»، والشوق إلى اللحم يقال له: «قرم».

إذن.. فكل شوق إلى حاجة له لفظ. ولقد عرفنا من قبل وصف الألوان، فلكل لون - كما قلنا - لفظ يصفه بدقة فائقة، وقد وصف الحق تبارك وتعالى البقرة المراد ذبحها بوصف دقيق، وصف عمرها بقوله: ﴿ **إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ** ﴾، ووصف الحق لونها بقوله: ﴿ **إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ** ﴾.

ورغم ذلك الوصف الدقيق فقد عاد قوم موسى يسألون مرة ثالثة لمزيد من التلكؤ: ﴿ **قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ** ﴾ كأنهم يربطون الهداية إلى أمر الله بحجة أخرى، فيرد الحق تبارك وتعالى بوصف ثالث: ﴿ **إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا** ﴾.

والذلول: هو المُرَوَّضُ الذى يتوافق مع مهمته(١)، فالحصان على سبيل

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى: ﴿ **قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ** ﴾، أى لم تذلل لإثارة الأرض وسقى الحرث. و ﴿ **لا ذَلُول** ﴾ صفة لبقرة. =

المثال لا يركبه أحد إلا بعد أن يتم تدريبه بواسطة مدرب يسمى «سايس»، ومهمة ذلك السايس هو أن يأخذ الحصان باللين والرفق، ثم يركبه بعد ذلك إلى المرعى، فيفهم الحصان أن ركوب الإنسان له إنما هو لفائدته، وهى الذهاب إلى المرعى. وبعد ذلك يطمئن الحصان إلى مهمة الركوب، ويتقبل أن يمتطيه الإنسان، ولولا ذلك التدريب لتمرد الحصان وشرد ولأصبح شرسًا شموسًا[1] لا يقبل ركوب الإنسان له. ويقال إن نبى الله إسماعيل عليه السلام هو أول من استأنس الخيل، وقبل ذلك كانت الخيل وحشية تسير جماعات فى البرارى، لكن نبى الله إسماعيل اهتدى بالوعى الإيمانى إلى كيفية استئناس الخيل، ويقال: إنه أول من ساسها.

ومن كلمة «سياسة الخيل»، جاءت كلمة السياسة، وهى فن ترويض الناس على الاتّساق فى نظام واحد ليرتضوا حُكْمَ واحدٍ منهم لهم.

هكذا علم قوم موسى وصفاً جديداً للبقرة المراد ذبحها، إنها: بقرة غير منهكة بالعمل، فيجب ألا تكون من البقر المذلل للركوب أو لحرث الأرض، أو الدوران فى السواقى، إنها بقـرة ﴿**مُسَلَّمَةٌ لاشِيَةَ فِيهَا**﴾ ، أى: إنها سليمة لا شرخ فى أذنها، ولا إصابة فى جسدها، ذلك هو المقصود بكلمة: ﴿**مُسَلَّمَةٌ**﴾ أى: لا عيب فيها، والمقصود بقوله: ﴿**لا شِيَةَ فِيهَا**﴾

= بمعنى غير ذلول. و «لا» الأولى للنفى ، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى؛ لأن المعنى: لا ذلول تثير وتسقى، على أن الفعلين صفتان لذلول، كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية، والمقصود: إنها مكرمة ليست مذللة بالحراثة، ولا مُعدة للسقى فى الساقية. [تفسير القاسمى: ٢/ ١٥٥]

(١) الشَّمس والشَّموس من الدواب: الذى إذا نُخس لم يستقر. وشَمَسَت الدابة والفرس تَشمس شِماسًا وشُمُوساً وهى شَمُوس: شردت وجمحت ومنعت.
والشَّمُوس: النَّفُور من الدواب الذى لايستقر لشغبه وحدته، وقد توصف به الناقة. [لسان العرب: ٦/ ١١٣] بتصرف.

أى: إن لونها خالٍ من اختلاط لون آخر به. أى إنها خالية من البقع سواء أكانت سوداء، أم بيضاء. وكلمة ﴿لا شِيَةَ﴾ تأتى أيضًا من «الوشى المنمنم» أى: الزينة المليئة بالزخارف، وتعنى أيضًا أن لا تغيير يطرأ على الأصل(١).

لقد شدد قوم موسى على أنفسهم، فشدد الحق سبحانه عليهم، لقد كان الأمر الصادر إليهم من الحق تعالى هو: ﴿تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، لكنهم تلكأوا، وكان التلكؤ يتضمن أسئلة للتسويف، وانقلب تسويفهم عليهم؛ لقد أصبح التسويف تشديداً فى تعيين البقرة. ورغم أن غرضهم من التلكؤ هو التسويف، ورغم أن تلكؤهم كان فارغ المعنى، سألوا سؤالاً فى الأمر الذى صدر إليهم، وظنوا أن النبى المرسل إليهم وهو موسى عليه السلام يسخر منهم بأمر ذبح البقرة؛ وذلك لقلة الإيمان فى قلوبهم، رغم آيات الحق سبحانه التى سبق أن تجلت لهم واضحة فى فلق البحر، وإنقاذهم من ظلم فرعون، ورزقهم بالمن والسلوى، وتفجر الماء لهم بعدد الأسباط، ومغفرة الله سبحانه وتعالى لهم بعد عبادتهم العجل المصنوع من الحلى المأخوذة من آل فرعون؛ كل ذلك شاهدوه وعاشوه، ومع ذلك يظنون أن أمر الذبح للبقرة سخرية بهم من النبى المرسل لهم !!

وذلك الظن بالسخرية فسره بعض العلماء، بأن سببه أنهم رأوا من قبل قوما يعبدون العجل، وأن بعضهم قد عبد العجل بالفعل، ولذلك يوضح

---

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أى: بريئة من العيوب، والمسلمة: هى التى لا عيب فيها. وقيل: مسلمة من العمل وهو ضعيف؛ لأن الله سبحانه قد نفى ذلك عنها، والتأسيس خير من التأكيد، والإفادة أولى من الإعادة. ﴿لا شِيَةَ فِيهَا﴾ أى: لا لون فيها غير لونها، والشية مأخوذة من وشى الثوب إذا نسج على لونين مختلفين، وثور موشى: فى وجهه وقوائمه سواد، ويقال: ثور أشيه، وفرس أبلق، وكبش أخرج، وتيس أبرق، وغراب أبقع، كل ذلك بمعنى: أبلق، والمراد: أن هذه البقرة خالصة الصفرة ليس فى جسمها لمعة من لون آخر. [فتح البيان: ١/١٩٦، ١٩٧]

موسى عليه السلام أن الأمر صادر من الحق سبحانه، وأن السخرية، أو الاستهزاء هو نوع من الجهل؛ لذلك يستعيذ بالله أن يكون من الجاهلين(١).

ثم شددوا على أنفسهم بسؤالهم عن ماهية البقرة، فيأتى الإيضاح من الحق سبحانه عن عمر البقرة، والأمر باتباع ما أمر به الحق سبحانه، ثم شددوا على أنفسهم بسؤال آخر عن لون البقرة، فيأتى أمر الحق بوصف لونها .

ويتمادون فى التلكؤ، والتشديد على أنفسهم فى آن واحد، فيتساءلون عن تحديد أكثر لصفات البقرة، ويربطون بين ذلك التحديد، وبين هدايتهم لأمر الحق سبحانه. وتأتى إجابة الحق جل وعلا بوصف واضح للون

---

(١) قال القرطبى: قالوا: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾؟ والهزء: اللعب والسخرية؛ فأجابهم موسى عليه السلام بقوله: ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾؛ لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل؛ فاستعاذ منه عليه السلام؛ لأنها صفة تنتفى عن الأنبياء. والجهل نقيض العلم. فاستعاذ من الجهل، كما جهلوا فى قولهم: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ لمن يخبرهم عن الله تعالى، وظاهر هذا القول يدل على فساد اعتقاد من قاله. ولا يصح إيمان من قال لنبى قد ظهرت معجزته، وقال: إن الله يأمرك بكذا أتتخذنا هزؤا؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبى ﷺ لوجب تكفيره. وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع، والجفاء والمعصية؛ وفى هذا كله أدل دليل على قبح الجهل، وأنه مفسد للدين.

وقال: فى الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق للوعيد. وليس المُزاح من الاستهزاء بسبيل؛ ألا ترى أن النبى ﷺ كان يمزح والأئمة بعده. قال ابن خُوَيْز مَنْداد: وقد بلغنا أن رجلاً تقدم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضى الكوفة فمازحه عبيد الله فقال: جُبَّتُك هذه من صوف نعجة أو صوف كَبْش؟ فقال له: لا تجهل أيها القاضى! فقال له عبيد الله: وأين وجدت المزاح جهلاً! فتلا عليه هذه الآية؛ فأعرض عنه عبيد الله؛ لأنه رآه جاهلاً لا يعرف المزح من الاستهزاء، وليس أحدهما من الآخر بسبيل.

[تفسير القرطبى: ١/ ٤٤٦، ٤٤٧] بتصرف.

البقرة وعمرها، وكل ما يخصها، ويقر قوم موسى أخيراً بأمر الله ، ويخضعون على مضض وعلى غير كرم، وعلى غير إقبال .

فقالوا: ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ هذا القول منهم، يؤكد أنهم لم يفعلوا أمر الحق إلا على مضض(١).

إن اعترافهم بعد كل هذا التلكؤ الذى انقلب إلى تشديد عليهم!! هذا الاعتراف المتأخر إنما هو دليل على عدم الإذعان الفورى لأمر الله تعالى.

وقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ لقد ذبحوا البقرة فعلا، لكن ذبحوها على كره منهم.

إن كلمة: ﴿وَمَا كَادُوا﴾ توضيح النفى، وتوضيح عدم السرعة فى إنجاز الأمر، فعندما يقول واحد: «لم يكن فلان كريما»، فمعنى ذلك أنه ينفى عن هذا الفلان صفة الكرم.

وقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ معناها أنهم كانوا حريصين على عدم ذبح البقرة؛ إنهم قوم يتلكئون فى تنفيذ أوامر الحق جل وعلا؛

---

(١) قال أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُون ﴾ : كنى عن الذبح بالفعل؛ لأن الفعل يكنى به عن كل فعل. وكاد في الثبوت تدل على المقاربة. فإذا قلت: كاد زيد يقوم، فمعناه مقاربة القيام، ولم يتلبس به. فإذا قلت: ما كاد زيد يقوم، فمعناه نفي المقاربة ، فهى كغيرها من الأفعال وجوباً ونفياً. وقد ذهب بعض الناس إلى أنها إذا أُثبتت، دلت على نفي الخبر، وإذا نُفيت، دلت على إثبات الخبر، مستدلاً بهذه الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ يدل على ذلك، والصحيح القول الأول. وأما الآية، فقد اختلف زمان نفى المقاربة والذبح، إذ المعنى: وما قاربوا ذبحها قبل ذلك، أى وقع الذبح بعد أن نفى مقاربته. فالمعنى أنهم تعسروا فى ذبحها، ثم ذبحوها بعد ذلك. قيل: والسبب الذى لأجله كادوا يذبحون هو: إما غلاء ثمنها، وإما خوف فضيحة القاتل، وإما قلة انقياد وتعنت على الأنبياء على ماعُهد منهم.
[البحر المحيط : ١/٤١٦ ، ٤١٧]

غلبتهم ماديتهم فلم يحرصوا على تنفيذ منهج الحق سبحانه وتعالى؛ وعدم الحرص على تنفيذ المنهج هو الدافع وراء التسويف والمماطلة.

إن الحق سبحانه يأمرهم بأن يسارعوا فى تنفيذ الأمر الصادر منه، لكن هناك عند من تغرهم المادة رغبة فى الهرب من طاعة صاحب الأمر المطلق رب كل شيء ومليكه. إن الحق سبحانه يختبرهم فى الطاعة لأوامره وهم لا يقبلون حق الإقبال على طاعة الله سبحانه؛ وهى متمثلة فى اتباع أمره، واجتناب نهيه. إن السرعة إلى تنفيذ أمر الله تعالى هى دليل على إقبال صادق من العبد على أوامر سيده ومولاه جل وعلا.

ونحن نرى مثل تلك الأمور فى حياتنا العادية؛ نجد المطيع لأى أمر ربانى يسرع إلى تنفيذه؛ فالمحب تطهير ماله من أى شائبة يسرع إلى الصدقة وإلى الزكاة، وإلى استكشاف أحوال المحتاجين دون أن يطلبوا سد حاجتهم. إنه شغوف بطاعة الله فيما استخلفه فيه.

ونجد العبد الطائع لله تعالى يقوم مبكرًا فى الفجر ليسمع أذان الفجر؛ ويؤدى الفريضة مُحِباً لطاعة الله سبحانه وتعالى.

لقد كان يكفى أن يسمع قوم موسى الأمر بذبح البقرة؛ لكى ينفذوا الأمر، لكنهم لم يُقبلوا على الأمر إلا بعد عنت وتلكؤ وتسويف.

وكانت تلك المسألة -العنت والتلكؤ والتسويف فى تنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى- لخدمة قضية إيمانية أخرى، فقد كان هناك رجل صالح من بنى إسرائيل يتحرى الدقة فى كسبه؛ فلا يرضى إلا بالحلال من الكسب؛ ولا يفعل إلا الحلال من السلوك، كان رجلاً يبتغى وجه الله تعالى فى كل ما يفعل، وعندما حضرته الوفاة كانت ثروته هى بقرة صغيرة وله ابن وزوجة. فما كان من الرجل إلا أن دعا الله عالى قائلا : اللهم إنى أستودعك هذه، وكان دعاء الرجل يبغى به أن تكون البقرة

الصغيرة وديعة عند الحق، وأن يكون عائدها لرعاية الزوجة، والابن[1].

إن الرجل المؤمن لم يأتمن أحدًا من قومه؛ لذلك استودع ربه ما يملك؛ فلم يجد أمينًا إلا الله سبحانه. وأطلق الرجل بقرته ترعى فى المراعى، وقبل أن يموت قال لزوجته : أنا لم أجد غير ربى أستودعه بقرتى؛ وعندما سألته زوجته أين البقرة ؟ قال لها: لقد أطلقتها فى المراعى. ومات الرجل وكبر ابنه، فقالت له الأم: لقد ترك لك أبوك بقرة، واستودعها عند خالق الكون سبحانه الذى لا تضيع ودائعه. فقال الابن لأمه: وأين أجد البقرة؛ لأستردها ؟ قالت الأم: ألا تقول مثل أبيك؟ لقد قال والدك: لقد استودعت البقرة عند الله سبحانه، فلتقل أنت: إنى توكلت على الله تعالى، وابحث عنها.

وسمع الابن كلام أمه، وذهب إلى المراعى، وسجد لله تعالى داعيًا وقال: اللهم رب إبراهيم ويعقوب رُدّ علىَّ ما استودعك أبى. وإذ بالبقرة تأتى إليه طائعة، وكانت هذه البقرة تثير العجب من أمرها، كانت قادرة على أن ترد يد كل إنسان يقترب منها.

هكذا أراد الله سبحانه أن يوضح من خلال قصة البقرة يقينًا إيمانياً جديدًا، لقد استودع الرجل المؤمن ثروته الله تعالى قبل أن يموت، وتوكل الابن على الله سبحانه فاسترد البقرة، ورأى نفر من بنى إسرائيل الابن وهو يقود البقرة بعد أن عرفوا الصفات التى أرادها الله فى البقرة المراد ذبحها.

وأراد هؤلاء القوم شراء البقرة من الابن؛ فقدموا له الدراهم، فرفض، فقدموا له الدنانير، فرفض، فسألوه عن الثمن الذى يطلب، فأجاب الابن:

---

(١) ولذلك علمنا رسول الله ﷺ أن نقول عند التوديع فى السفر: «أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك». أخرجه أبو داود [٢٦٠٠] واللفظ له، والترمذى [٣٤٤٢] عن ابن عمر رضى الله عنهما. وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٢٦٥].

لن أبيعها قبل أن أستشير أمي. وكان ذلك الابن باراً بأمه، كان يقضى نهاره فى الاحتطاب ،أى :جمع الحطب، وكان يقسم ثمن ما يجمعه من الحطب إلى ثلاثة أقسام :قسم يأكل منه،وقسم يعطيه لأمه؛لترعى أمورها به،وقسم ثالث يتصدق به.

كما كان هذا الفتى يقسم ليله إلى ثلاثة أقسام: ثلث يكون خاضعًا لأوامر أمه وراعيًا لها ومنفذاً لرغباتها،وثلث ينامه، وثلث يكون فيه عابداً لله، متبتلاً إلى خالقه عز وجل.

وذهب الابن البار إلى أمه يستشيرها فى أمر بيع البقرة، وقال لها: عرضوا ثمنًا لها ثلاثة دنانير، فقالت الأم: هذا المبلغ لا يساويها،إنها تساوى أكثر.

ثم عاد النفر من بنى إسرائيل يعرضون على الابن البار ستة دنانير ثمنًا لها، وعاد الابن البار يستشير أمه قالت الأم: مازال ذلك الثمن أقل من قيمة البقرة. وعاد قوم من بنى إسرائيل يطلبون شراء البقرة باثنى عشر ديناراً، لكن الابن رفض أن يبيع دون استشارة أمه، وقال لهم: والله لا أبيعها حتى لو كان وزنها ذهباً إلا بعد مشورة أمى. وأخيراً رضيت الأم أن يأخذو البقرة بملء جلدها ذهبًا (١).

---

(١) قال القرطبى: وروى فى قصص هذه البقرة روايات تلخيصها: أن رجلاً من بنى إسرائيل ولد له ابن،وكانت له عِجْلَة ،فأرسلها فى غَيضة وقال: اللَّهم إنىاستودعك هذه العِجْلَة لهذا الصبى.ومات الرجل، فلما كبر الصبى قالت له أمه -وكان باراً بها- إنَ أباك استودع الله عِجْلَةً لك فاذهب فخذها؛فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها- وكانت مستوحشة -فجعل يقودها نحو أمه؛فلقيه بنو إسرائيل، ووجدوا بقرة على الصفة التى أُمروا بها؛ فساوموه،فاشتط عليهم.وكان قيمتها على ماروى عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتوا به موسى عليه السلام وقالوا: إن هذا اشتط علينا؛ فقال لهم: أرضوه فى مِلْكِه، فاشتروها منه بوزنها مرة؛قاله عبيدة.السُّدِّى: =

هكذا بارك الله تعالى فيما استودعه العبد المؤمن؛ وبارك فى الابن فكان باراً بأمه، وبارك فى الزوجة؛ فطلبت من الابن أن يتوكل على الله تعالى وهو يبحث عن البقرة.

وبارك الله تعالى فى البقرة ذاتها؛ فجعلها قادرة على أن ترد يد أى إنسان إلا يد صاحبها، وأخيرًا بارك سبحانه للابن فى عمله، الذى يرعى فيه حق الله سبحانه وحق الأمومة، وحق نفسه. وبارك فى ليله الذى قسمه بين رعاية الأم، وعبادة الحق ورعاية جسده. لقد بارك الله فـى كـل ما ترك الرجل الصالح من بنى إسرائيل، فخلـق تعالى الظرف المناسـب من جميع نواحيه، جعل تلكؤ بنى إسرائيل لتحديد تلك البقرة بذاتها، وجعل إيمان العبد الصالح ووديعته، ليلقن قوم موسى درسـًا إيمانياً فى العقيدة، ودفع بنو إسرائيل ثمن البقرة ملء جلدها ذهبًا، وكانوا يملكون من الذهب الكثير، وكان قد ضاع بعضه فى صناعة العجل الذى عبدوه بعد أن صنعه لهم السامرى، وبعضه ضاع فى ثمن البقرة .

وجاء الأمر بأن يأخذوا جزءًا من البقرة؛ ليضربوا به القتيل الذى لم يتعرفوا على قاتله، حتى تعود الحياة إلى القتيل؛ فينطق باسم قاتله، وذلك قول الله تعالى: ﴿ اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ ﴾ (١).

وكان القتيل رجلاً له بعض من مال، ولا وريث له إلا أبناء أخيه، وحرك الطمع أحدهم، فتحركت شهوة الإرث عنده، فاستدرج القتيل بعيدًا عن تجمع بنى إسرائيل إلى محلة بعيدة تضم عددًا قليلاً منهم، وكان القاتل يريد أن يلصق الجريمة بأهل المحلة؛ ليرث القتيل، ويأخذ الدية أيضًا من

= بوزنها عشر مرات. وقيل: بملء مسكها دنانير. وذكر مكى: أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض. فالله أعلم. [تفسير القرطبى: ١/ ٤٥٤ ، ٤٥٥]

(١) قال ابن جماعة فى قوله تعالى: ﴿ بِبَعْضِهَا ﴾ هو : لسانها. وقيل: فخذها اليمنى. وقيل: عجم ذنبها. وقيل: بعض مطلق. [غرر التبيان: ٢٠٦]

أهل المحلة، فقد ازدوج الطمع عند هذا الرجل، وبالفعل قتل القاتل القتيل، وطالب بالإرث والدِّية، لكن أهل المحلة نفوا أنهم قتلوا الرجل وذلك قول الحق سبحانه: ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾.

الدرء هو أن يدفع الإنسان الشيء أو الاتهام بعيدًا عنه، والمعنى أن كل واحد منهم أخذ ينفى عن نفسه الاتهام بأنه القاتل، ولم يكن أحد منهم يعرف القاتل، ولم يكن التشريع الذى نزل على موسى يتضمن الحكم فى حالة مثل تلك الحادثة.

إن التشريع لو كان يضم حالة من هذا اللون، لكان سهلاً على موسى أن يحكم فيها، وكانت العادة فى مثل هذه الحالة أن يجمع كبير القوم خمسين رجلاً من وجهاء المكان الذى وقعت به الحادثة، ويقسمون بالله أنهم لا يعرفون مَنْ القاتل، وأنهم لم يقتلوا الرجل، وكان أهل المحلة التى عثر على جثة القتيل بها يقلون عن الخمسين، وصار القرار أن يحلف أهل المحلة خمسين مرة على أنهم لم يقتلوا الرجل، ولا يعرفون قاتله؛ وذلك حتى يتحمل بيت المال الدية، لكن الله سبحانه يريد بكل تلك التفاصيل شيئًا آخر، هو الردُّ على جحود بنى إسرائيل باليوم الآخر.

أمر الحق سبحانه بنى إسرائيل بأن يذبحوا بقرة، وهم الذين عبدوا من قبل نوعا من الأبقار، ويتلكئون، ثم يهتدى واحد منهم إلى الاستقامة، ويستودع الله ما يملك وهو البقرة؛ فيخرج ابنه البار ليجدها، وتحدث واقعة القتل، وينفذ بعض قوم موسى ما أمر الله تعالى به وهو ذبح البقرة، ويجازى الله سبحانه الابن البار ثمنها ذهباً، ويأمر أن يضربوا القتيل ببعض من البقرة المذبوحة، فتعود إلى القتيل الحياة؛ ليرشد عن قاتله.

إن القصص القرآنى لا يأتى ذكره لمجرد التسلية، ولكن تنبع منه العظات والعبر، تنبع منه القوانين التى تحكم كل قضايا الحياة، إن الحق سبحانه يأمر بأن يذبحوا البقرة، وأن يأخذوا جزءاً منها بعد ذبحها؛ ليضرب به ذلك القتيل الذى لا يعرفون قاتله، وتدب الحياة فى القتيل ويرشد عن قاتله. هكذا يلفت الحق سبحانه بنى إسرائيل إلى القضية الأساسية التى يشكون فيها، وهى اليوم الآخر وقدرة الحق سبحانه على البعث(1). إن جزءاً من بقرة مذبوحة يأمر الحق سبحانه أن يضرب به رجل قتيل، فتدب فيه الحياة .

---

(1) قال ابن القيم: وفى هذه القصة أنواع من العبر:

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله ﷺ .

ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شىء، قادر على كل شيء، عدل لايجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة فى هدى المهتدى، وإعذاراً وإنذاراً للضال.

ومنها: أنه لاينبغى مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أى بقرة اتفقت(1) ، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه، ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: أعتق رقبة، وأطعم مسكيناً، وصم يوماً ونحو ذلك؛ ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

فإن الآية غنية عن البيان المفصل، مبينة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شُدِّد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير(2) عن الربيع عن أبى العالية: لو أن القوم حين أمروا=

(1) أى: اتفقت صفاتها مع صفات البقرة المطلوب ذبحها.

(2) انظر تفسير الطبرى: 1/348]

ثم ماذا.. بعد كل ذلك، وكل تلك المعجزات والبينات والنعم على

= أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها. ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذى لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار. وذلك نوع من الكفر. فإن القوم لما قال لهم نبيهم : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾ قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿**أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً**﴾ فلما لم يعلموا وجه الحكمة فى ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه قالوا : ﴿**أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً**﴾ وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله.

فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به. ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك. فلما قال لهم ﴿**قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا فى التعنت بسؤالهم عن عينها، ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها. فلما تعينت لهم، ولم يبق إشكال، توقفوا فى الامتثال. ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم :﴿**الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ**﴾ فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك فى أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر. وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام فى تعيين البقرة المأمور بذبحها. فذلك جهل ظاهر. فإن البيان قد حصل بقوله سبحانه:﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾ فإنه لا إجمال فى الأمر، ولا فى الفعل، ولا فى المذبوح. فقد جاء رسول الله ﷺ بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير(1): وقد كان بعض السلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسى: ﴿**الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ**﴾ وزعم أن ذلك نفى منهم، قال: وليس الأمر كما قال عندنا؛ لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذى قالوا لموسى جهلاً منهم، وهفوة من هفواتهم.

ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان منها.

قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: « إن القوم بعد أن أحيى الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتله أنكروا قتله». =

(1) انظر [تفسير الطبرى : 1/ 354]

بنى إسرائيل؟ يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٤] لقد كان المفروض فى بنى إسرائيل بعد أن تجلت لهم نعم الله بلا عدد، بداية من إنقاذهم من آل فرعون، ومروراً بكل الطيبات التى وهبها الله لهم، أن تطمئن قلوبهم، وتلين؛ لتخشع للخالق سبحانه، الذى أنعم عليهم بكل هذه النعم المتعددة.

لقد أوضح لهم الله سبحانه أنه الخالق الرازق، وأن بيده البعث والنشور. وكان فى إحياء المقتول الذى لم يتعرفوا إلى قاتله مثال حى أمام أعينهم؛ ليعرفوا أن المرجع إلى الله؛ وليعلموا خطورة ما هم عليه، وما يؤولون إليه فى الآخرة إن شكوا فى قدرة الحق على البعث، فلقد شاهدوا الموقف بأعينهم: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

ولكن ما الذى حدث بعد ذلك؟ لقد قست قلوبهم، يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ

= وقالوا: والله ماقتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤]

ومنها: مقابلة الظالم الباغى بنقيض قصده شرعاً وقدراً.

فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله تعالى وهتكه، وحرمه ميراث المقتول.

ومنها: أن بنى إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب. ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة. والبقر من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل.

والظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل، ففى الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذى لا يمتنع من الذبح والحرث والسقى لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقى والعمل. أهـ. [بدائع التفسير: ١/٣١٧-٣٢٠]

قَستْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ،والقلب هو موطن الرحمة،وموطن العطف. والقلب يكثر ذكره دائمًا فى قضية الإيمان؛ وذلك لأن القلب هو العضو العمدة الذى يحمل للجسم سائل،الحياة الذى هو الدم، فكأن القلب حين يمتلئ باليقين، ويعمر بالإيمان،فكل قوة من ذلك اليقين، وهذا الإيمان تصب فى كل جوارح الإنسان، وإذا كان الإيمان شائعاً فى كل أبعاض الجسم فإنه لا تكون هناك أية حركة فى الجسم،إلا والإيمان فيها. ذلك هو المعنى المراد من أن القلب دائمًا هو وعاء الإيمان(١)

---

(١) عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما مُشْتَبِّهات لا يعلمها كثير من الناس. فمن اتقى المُشْتَبِّهات، استبرأ لدينه، وعرضه،ومن وقع فى الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه.ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله محارمه. ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»

أخرجه البخارى [٥٢] ،واللفظ له، ومسلم [١٠٧/١٥٩٩]

وقال الحافظ ابن حجر: قوله: «مضغة» أى قدر ما يمضغ، وعبر بها هنا عن مقدار القلب فى الرؤية؛وسمى القلب قلباً ؛لتقلبه فى الأمور، أو لأنه خالص مافي البدن، وخالص كل شيء قلبه، أو لأنه وضع في الجسد مقلوبًا. وقوله: «إذا صلحت» و«إذا فسدت» هو بفتح عينهما،وتضم فى المضارع، وحكى الفراء الضم فى ماضى «صلح»، وهو يضم وفاقاً إذا صار له الصلاح هيئة لازمة لشرف ونحوه، والتعبير بإذا لتحقق الوقوع غالباً، وقد تأتى بمعنى «إن» كما هنا. وخص القلب بذلك؛ لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد. وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه، والإشارة إلى أن لطيِّب الكسب أثراً فيه. والمراد المتعلق به من الفهم الذى ركبه الله فيه. ويستدل به على أن العقل فى القلب،ومنه قوله تعالى:﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] وقوله تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧] قال المفسرون: أى: عقل. وعبر عنه بالقلب لأنه محل استقراره. [فتح البارى: ١/ ١٧٠] =

. والقلوب آنية الله فى أرضه، فأحبها إليه: أرقها وأصفاها[1]، وقول الحق سبحانه إنما هو لتأكيد أن القلب مصدر إشعاع الإيمان فى سائر الجوارح؛ ولذلك قال الحق سبحانه فى وصف المؤمنين عندما يسمعون كلام الله سبحانه: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ [الزمر: ٢٣]، إن القلب

المؤمن حين يتلقى أمر الله تعالى، تنفعل له جلود المؤمنين الذين يخشون ربهم، ثم تلين هذه الجلود، ويفيض نور اليقين من قلوبهم بذكر الله تعالى الذى أنزل القرآن هاديًا إلى الإيمان به سبحانه، فمن يوفقه الله عز وجل إلى الإيمان، فذلك فضل من الله تعالى ونعمة، ومن يزغ قلبه عن الهدى، فما له من منقذ من الضلال.

= وقال ابن القيم: القلوب ثلاثة: قلب قاس وهو اليابس الصلب الذى لا يقبل صورة الحق ولا تنطبع فيه.

وضده القلب اللين المتماسك، وهو السليم من المرض الذى يقبل صورة الحق بلينه، ويحفظه بتماسكه بخلاف المريض الذى لا يحفظ ما ينطبع فيه لميعانه ورخاوته، كالمائع الذى إذا طبعت فيه الشيء قبل صورته بما فيه من اللين، ولكن رخاوته تمنعه من حفظها، فخير القلوب القلب الصلب الصافى اللين فهو يرى الحق بصفائه، ويقبله بلينه ويحفظه بصلابته. [بدائع التفسير: ٢/١٠٦]

(١) ذكر الألبانى فى السلسلة الصحيحة [١٦٩١]: «إن لله آنية من أهل الأرض، وآنيةُ ربكم قلوبُ عباده الصالحين، وأحبها إليه ألْيَنها وأرقها».

وقال: أخرجه الطبرانى فى «المعجم الكبير» [ق ٤٠/١ -المنتقى منه].

قلت: -أى الألبانى - وهذا إسناد قوى، رجاله كلهم ثقات أثبات غير بقية، وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء كما قال الحافظ، وهو هنا قد صرح بالتحديث كما ترى، فأمنًا بذلك شر تدليسه. ولذلك قال الحافظ العراقى فى «تخريج الإحياء» [٢/ ١٥٤]: رواه الطبرانى وإسناده جيد. وقال فى مكان آخر [١٣/٣]: فيه بقية بن الوليد وهو مدلس، ولكنه صرح بالتحديث.

إن المؤمنين تفيض أعينهم بالدمع خشية لله ، وتتحرك جوارحهم فى كل حركة على هدى من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ؛ لتكون كل حركة مطابقة لمنهج الله، فإذا كان القلب هو المضخة التى تستقبل الدم النقى المشبع بالأوكسچين اللازم كغذاء للمخ، وفى الدم خلاصة الغذاء اللازم لنمو الجسم. هذا القلب لا يكل ولا يمل، بإرادة لا دخل للإنسان بها؛ لأنها إرادة الحق واهب الحياة، فإذا ما عمر الإيمان هذا القلب، فإنه يصبح منبع اليقين ويشع منه الإيمان على الجوارح. والروح المؤمنة تعرف أن قلب صاحبها ملىء بالإيمان، ولقد أراد العلماء أن يُعَرِّفُوا الروح فلم يستطيعوا؛ لأنها أمر فوق طاقة العقل البشرى، لقد عرفوا الروح بآثارها فى الكائن الحى الذى يحيا بها، ولقد سبق أن قلنا: إن الروح وهى فينا وبها نحيا ونتحرك،ونتدبر كل حركات الحياة؛ولا ندرك كنهها، فكيف يتطاول إنسان ليحاول إدراك ذات الله ؟!! إن العلماء لا يتعرفون إلى الروح إلا بآثارها، وأهم أثر لها هو التنفس، وعندما يتوقف التنفس، فمعنى ذلك أن الروح قد صعدت إلى بارئها.

ولذلك يستدلون على توقف حياة فى الإنسان بأن يُقَرِّبوا مرآة من أنفه وفمه، فإذا أحسوا بالتنفس، حاولوا أن يعالجوا الإنسان، وإن لم يجدوا أثراً للتنفس، فذلك معناه أن الروح قد صعدت إلى خالقها.

وطالما أن الحق سبحانه هو الذى تحدث عن قسوة قلوب بنى إسرائيل،إذن . . فلا طمع فى أن تلين بعد حكم الله تعالى؛ لأن الذى حكم بقسوتها هو الذى يعلم الأشياء على حقيقتها، إن ذلك تقرير إلهى، وعندما يشبه قسوة قلوبهم بأنها﴿ **كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾،فإن ذلك تقرير من الحكيم الخبير، وذلك أمر رآه، وشهده،ويشهده العالم كله من

بنى إسرائيل فى مراحل التاريخ المختلفة، وحتى الآن(١).

(١) جاء في التوراة: فقال لى يا ابن آدم قم على قدميك فأتكلم معك. فدخل فى رُوحٌ لما تكلم معى وأقامنى على قدمى فسمعت المتكلم معى. وقال لى يا ابن آدم أنا مرسلك إلى بنى إسرائيل إلى أمة متمردة قد تمرَّدت علىَّ . هم وآباؤهم عصوا علىَّ إلى ذات هذا اليوم. والبنون القساة الوجوه والصِّلاب القلوب أنا مرسلك إليهم. فتقول لهم هكذا قال السيد الرب. وهم إن سمعوا وإن امتنعوا. لأنهم بيت متمرد. فإنهم يعلمون أن نَبِيًّا كان بينهم. أما أنت يا ابن آدم فلا تخف منهم ومن كلامهم لاتخف؛ لأنهم قَرِيس وَسُلاَّء لديك وأنت ساكن بين العقارب. من كلامهم لا تخف ومن وجوههم لا ترتعب. لأنهم بيت متمرد. وتتكلم معهم بكلامى إن سمعوا وإن امتنعوا ؛ لأنهم متمردون.

وأنت يا ابن آدم فاسمع ما أنا مكلمك به. لا تكن متمردًا كالبيت المتمرد. افتح فمك وكُلْ ما أنا معطيكه. فنظرت وإذا بيد ممدودة إلىَّ وإذا بدَرْجِ سفْرٍ فيها. فنشره أمامى وهو مكتوب من داخل ومن قفاه وكتب فيه مَراثٍ ونَحِيب وَوَيل.

[حزقيال ٢/١ : ١٠]

فلو أرسلتك إلى هؤلاء لسمعوا لك. لكن بيت إسرائيل لا يشاء أن يسمع لك. لأنهم لا يشاؤون أن يسمعوا لى. لأن كل بيت إسرائيل صِلاب الجباه وقُساة القلوب. هاأنذا قد جعلت وجهك صلبًا مثل وجوههم وجبهتك صلبة مثل جباههم. قد جعلت جبهتك كالماس أصلب من الصَّوَّان فلا تخفهم ولا ترتعب من وجوههم؛ لأنهم بيت متمرد. [حزقيال ٣:٦ :٩]

اسمعى أيتها السموات وأصغى أيتها الأرض؛ لأن الرب يتكلم. ربَّيْتَ بنين وَنَشَّأتهم. أما هم فعصوا علىَّ. الثور يعرف قانيه والحمار مَعْلَفَ صاحبه. أما إسرائيل فلا يعرف. شعبى لا يفهم. ويل للأمة الخاطئة الشعب الثقيل الإثم نسل فاعلى الشر أولاد مفسدين. تركوا الرب استهانوا بِقُدُّوسِ إسرائيل ارتدُّوا إلى وراء. على مَ تضربون بعد. تزدادون زَيَغَاناً. كل الرأس مريض وكل القلب سقيم. من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة بل جُرْحٌ وأَحْباطٌ وضربة طَرِيَّة لم تعصر ولم تُعْصَب ولم تُلَيَّنْ بالزيت. بلادكم خَرِبَة. مدنكم مُحْرَقَة بالنار. أرضكم تأكلها غرباء قُدَّامكُم وهى خربة كانقلاب الغرباء. [إشعياء: ١/ ٢: ٧]

قال فى تفسيرالكتاب المقدس:

تجرى هذه المقدمة لسفر إشعياء مجرى محاكمة عظيمة. وكما يدعوها إيوالد (Ewald)، «هى الاستجواب الكبير» للشعب المختار، حيث يبادر الله إلى تولى دور

وليس زعم التفوق العرقى وتأكيد الوهم بأنهم خلاصة جنس من أرقى مخلوقات الله، ليس ذلك الزعم إلا لتبرير قسوة تلك القلوب فى مواجهة غيرهم من البشر،ورغم زيف ذلك الزعم وزيف ذلك الوهم؛ فهم يستخدمون تلك الأوهام فى تثبيت القسوة، ونزع الرحمة من أى قلب يعتقد بعقيدتهم الشوهاء.

والمألوف أن القلوب لينة ،ورقيقة، فكيف تكون أشد قسوة من الحجارة؟! إننا نعرف أن ليونة القلوب طبيعية؛ لكى تؤدى وظيفتها فى الحياة .وأيضًا فإن قوة الحجارة أو الجبال وقسوتهما مطلوبة لمهمتها فى الأرض.

إذن . . القلب ليس مطلوبًا فى مهمته القسوة،ولكن قلوب بنى إسرائيل الشوهاء تقصد مهمة أخرى؛إنها تبغى فساداً فى الأرض بخلق تعالٍ مصطنع

= المدعى والقاضى فى آن. فالسماوات والأرض تستدعى لتأييد الشكوى (٢)، والنبى هو الشاهد الرئيس. أما التهمة الموجهة إلى الشعب المختار فهى تهمة العصيان الكلى المنبعث من شره وقلبه الملتوى. فها هنا المصدر المباشر الذى تنبعث منه جميع البلايا التى حلت بأرضهم. ورغم كون كلمة الرب قد بلغت إليهم على لسان النبيين عاموس وهوشع، فما كانوا قد أصغوا وأطاعوا، وقد أفضى بهم ضلالهم إلى خروقات فاضحة كثيرة للناموس الخُلُقى. والحصيلة النهائية من حالة كهذه هى أن ذاك الذى خلقهم وحفظهم بات مجهولا منكرا لديهم؛ وما الشقاء الذى حل بأرضهم إلا شهادة بليغة على حقيقة ارتدادهم هذا عن الإيمان بالله.

«الرب يتكلم» (٢): إنه لأمر ذو مغزى وشأن أن يؤكد إشعياء، فى مستهل هذا السفر وبشكل مباشر، على حقيقة كون رسالة الرب الإله الأصيلة واردة هنا.

[قارن مز ٥٠: ٤ ؛ تث ٣٢: ١] .

وينبغى التنبه إلى تكرار ضمير المتكلم والغائب للتوكيد، فى إفادة العصيان هذه: «ربيت بنين، ونشأتهم، أما هم فعصوا على».

«الثور . . الحمار (٣): حتى بهائم الحقول فى وسعها أن تبدى دأب اتكال وتكريس يتصف بأنه طبيعى وكامل أكثر مما يبدى الشعب المختار.

«تزدادون زيغانًا» (٥): ترد هذه العبارة فى ترجمة أخرى كجزء من السؤال، مما يؤدى معنى أفضل: «لماذا تضربون بعد، حتى تزدادوا عصيانًا»؟ [جـ٢٧٤: ٢٨]

لجنس متوهم على بقية خلق الله. إن الحق حين يقرر قسوة قلوب هؤلاء القوم لا يظلمهم؛ ذلك أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم فلم يتبينوا طريق الهدى من الضلال؛ لذلك أفسدوا فى الأرض فقد جعل الله القلب ليناً لمهمة فى الحياة ، كما جعل الحجر قاسياً لمهمة محددة، لكن قسوة قلوب بنى إسرائيل خرجت بالقلوب عن مهمتها المطلوبة، فكانت أقسى من الحجارة؛ لقد ضرب موسى عليه السلام الحجر أمامهم فانفجر منه الماء، وأخرجهم من مهلكة العطش، لذلك يقرر الحق أن قلوبهم قاسية﴿ **كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ ،﴿ **وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٧٤] (١)، كما حدث عندما تجلى الحق للجبل بعد أن طلب

(١) قال البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم** ﴾ القساوة عبارة عن الغلظ مع الصلابة، كما فى الحجر. وقساوة القلب مثل فى نُبُوِّه عن الاعتبار، وثم لاستبعاد القسوة﴿ **مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ** ﴾ يعنى إحياء القتيل، أو جميع ما عُدِّدَ من الآيات، فإنها مما توجب لين القلب. ﴿ **فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ** ﴾ فى قسوتها ﴿ **أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ منها، والمعنى: أنها فى القساوة مثل الحجارة أو أزيد عليها، أو أنها مثلها، أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، ويعضده قراءة الحسن بالجر عطفاً على الحجارة، وإنما لم يقل أقسى لما فى أشد من المبالغة، والدلالة على اشتداد القسوتين واشتمال المفضل على زيادة، و﴿ **أَوْ** ﴾ للتخيير، أو للترديد بمعنى: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى منها.

﴿ **وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ تعليل للتفضيل، والمعنى: أن الحجارة تتأثر، وتنفعل فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء، وتنفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردى من أعلى الجبل؛ انقياداً لما أراد الله تعالى به. وقلوب هؤلاء لا تتأثر، ولا تنفعل عن أمره تعالى. والتفجر، التفتح بسعة ،وكثرة، والخشية مجاز عن الانقياد.

[أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/ ٧٠]

موسى أن يرى ربه، فأمره الله أن ينظر إلى الجبل، ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا** ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

لقد أراد الحق - وهو المنعم على عباده - أن يشمل قوم موسى بنعمته ورحـــمته وفضله وستره وتوبته ومغفرته، وكان عليهم أن تلين قلوبهم خشية لله سبحانه، وأن تؤدى مهمتها، لكن رغم ذلك قست قلوبهم؛ إنها أشد قسوة من الحجارة، وإن كانت قسوة الحجارة أساسية لمهمتها، ولكن قسوة قلوبهم مخالفة للمهمة التى أرادها الله سبحانه وتعالى للقلوب .

إن الحجارة تحدث لها ثلاثة أشياء:

الأول: تتفجر: منها الأنهار ؛ قال تعالى: ﴿ **لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ** ﴾ ذلك أن بعض الأنهار تنبع بالفعل من حجارة.

الثانى: تتشقق الحجارة فيخرج منها الماء، والماء يسير بين شقين من الحجر، والأنهار تسير إلى أمكنة أرادها الله لِيُرزق أهلها بذلك الماء.

والثالث: مايهبط من خشية الله.

إن قسوة قلوبهم منشؤها بُعْدُهم عن منهج الله سبحانه، ومجادلتهم فى أوامره تعالى، وتشككهم فى عقيدة البعث والنشور .

فكأن قسوة قلوبهم أمر مصدره عقيدتهم التى أرادوها لأنفسهم ﴿ **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ٧٤].

* اليهود يعلمون صدق نبوة محمد ﷺ *

قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤] . كلمة: ﴿ثُمَّ﴾ من حروف العطف، وحروف العطف كثيرة، وكل حرف منها له معنى يؤديه؛ فمثلا الواو لمطلق الجمع؛ تقول: جاء زيد وعمرو، هل تقصد جاء زيد أولاً، أم جاء عمرو أولا، أم جاء الاثنان معًا، شىء لا تتعرض له هذه الصيغة، ولكنها تعنى أن الاثنين جاءا. و«الفاء» للتعقيب؛ تقول: جاء زيد فعمرو، فيكون زيد قد جاء أولاً وعمرو قد جاء بعده مباشرة. و«ثم» للترتيب، فإذا قلت: جاء زيد ثم عمرو، فإنها تعطى المعنى أن عمرو جاء بعد زيد بمهلة، ولذلك تظهر دقة استخدام الألفاظ للمعنى المراد، كما فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)﴾ [عبس]، أى: إن النشور يأتى بعد فترة طويلة من الموت.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ جاءت بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] .

لقد كان إتيان موسى الكتاب قبل أن ينزل القرآن إلى الأرض ليباشر مهمته، بل إن نزول التوراة على موسى جاء بعد مبعثه بفترة طويلة[1].

---

(١) قال القرطبى: قال مجاهد: تماما على المحسن المؤمن. وقال الحسن فى معنى قوله: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ﴾ كان فيهم محسن وغير محسن؛ فأنزل الله الكتاب تماما على المحسنين. والدليل على صحة هذا القول أن ابن مسعود قرأ « تماما على الذين أحسنوا». =

إذن . . فكيف جاءت الآية هنا: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ مع أن إتيان موسى الكتاب كان قبل نزول الآية الكريمة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ نقول: إنك أخذت ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الأفعال والأحداث، ولكن ﴿ثُمَّ﴾ تأتي أيضًا لترتيب الأخبار، مثلا: حين يأتي إليك إنسان ويقول لك:

= وقيل: المعنى أعطينا موسى التوراة زيادة على ماكان يحسنه موسى مما كان علمه الله قبل نزول التوراة عليه. قال محمد بن يزيد: فالمعنى ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: تماما على الذي أحسنه الله عز وجل إلى موسى عليه السلام من الرسالة وغيرها.

وقال عبد الله بن زيد: معناه على إحسان الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام.

وقال الربيع بن أنس: تماما على إحسان موسى من طاعته لله عز وجل؛ وقاله الفراء.

ثم قيل: ﴿ثُمَّ﴾ يدل على أن الثاني بعد الأول، وقصة موسى ﷺ، وإتيانه الكتاب قبل هذا؛ فقيل: ﴿ثُمَّ﴾ بمعنى الواو؛ أي: وآتينا موسى الكتاب، لأنهما حرفا عطف. وقيل: تقدير الكلام ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ.

وقيل: المعنى قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم، ثم أتل ما آتينا موسى تماما.

[تفسير القرطبي: ٧/ ١٤٣]

وقال السمرقندي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة، ويقال: الألواح التي كتبت عليها حين انطلق إلى الجبل. ويقال: معناه: ثم أتل عليكم كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ ويقال: ثم بمعنى الواو، يعني وآتينا موسى الكتاب. ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال القتبي: أي تماما على المحسنين، كما يقول: ثلث مالي لمن غزا، أي: للغزاة، والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون، وعلى بمعنى اللام كما نقول في الكلام أتم الله عليه النعمة، بمعنى أتم له، قال: ومعنى الآية والله أعلم: وآتينا موسى الكتاب تماما على أحسن من العلم والحكمة، أي: مع ما كان له من العلم وكتب المتقدمين أعطيناه زيادة على ذلك، ويكون ﴿الَّذِي﴾ بمعنى: «ما» قال: ومعنى آخر: آتينا موسى الكتاب تتميماً منا للمحسنين يعني الأنبياء والمؤمنين. ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ منا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: بيانا لكل شيء. قال: ويجوز معنى آخر، وآتينا موسى الكتاب إتماماً منا للإحسان على من أحسن، تفصيلاً لكل شيء، يعني: بيانا لكل شيء. [بحر العلوم: ١/ ٥٢٥]

أنت لا تسأل عن فلان ولا تؤدى حق القرابة له. تقول له: كيف؟لقد فعلت معه كذا، ثم فعلت كذا مع أبيه، ثم أنا فعلت كذا مع جده، فأنت تأتى بترتيب الأخبار وليس بترتيب الأحداث؛ ولذلك يقول الشاعر العربى :

إنَّ من ساد ثم ساد أبوه   ثم قد ساد قبـــل ذلك جـــده(١)

لمن جاءت السيادة؟ جاءت أولا للجد، ثم للأب، ثم للابن، ولكن الشاعر لم يرتب ما يقوله ترتيب أحداث، وإنما رتبه ترتيب إخبار بالأحداث، ولذلك يقول الحق جل وعلا: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ** ﴾ [الأعراف: ١١].

هل التصوير يحدث أولا أم الخلق؟ طبعا الصورة ثم يكون الخلق على هيئة الصورة ، ومتى تم سجود الملائكة لآدم ؟ الحق يقول: ﴿ **خَلَقْنَاكُمْ** ﴾ أى :إنه بعد أن خلق آدم وحواء، خُلقنا خلق تكاثر من ذكر وأنثى فكيف يكون سجود الملائكة بعد خلق التكاثر؟ وكيف يكون خلقنا قبل خلق آدم؟ الحق سبحانه وتعالى يقول أنه خلقنا بعد أن صورنا وأنه صور آدم وخلقه، وقال للملائكة اسجدوا.

وأنت حتى إذا عاتبت ابنك تقول له: لقد أدخلتك كلية الطب، ثم لا تنس الجهد الذى بذلته معك فى الثانوية العامة، ثم لا تنس مثلاً أنك مرضت وأنت طفل، وكم أنفقت على علاجك هل هذا ترتيب أحداث؟

لا . . إنه ترتيب إخبار بالأحداث، فأنت تذكِّره بجميلك عليه، ثم تريد أن تترقى فى أن تضيف شيئاً جديداً فى هذا التذكير، فتذكره بجهدك معه فى سنوات مضت، ثم تريد أن تزيد فى الترقى لتزيد من شعوره بفضلك عليه، فتذكّره بما قدمته له وهو طفل.

(١) ذكر هذا البيت الحسن بن قاسم المرادى، وعزاه لأبى نواس.
[الجنى الدانى فى حروف المعانى : ٤٢٨]

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾؛ والكتاب إذا أطلق ولم ينسب إلى أحد فإنه القرآن؛ لأنه الكتاب الجامع لكل ما فى الكتب السابقة والمهيمن عليها[1]، ولكن إذا قال الحق: الكتاب وقرنه باسم موسى عليه السلام يكون التوراة، وإذا قرنه باسم عيسى عليه السلام يكون الإنجيل .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ﴾؛ والتمام هو استكمال بلا نقصان، وهو تمام استدراك، وهو استيعاب لكل صفات الخير، ولذلك يقول الحق : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]، ولكن لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى موسى عليه السلام ؟ لأن الذين كانوا يجادلون رسول الله ﷺ هم اليهود.

وموسى حينما جاء بالتوراة، اتبعه بعض من قومه الذين كانوا مؤمنين بالتوراة عاملين بها.

وهؤلاء هم الناجون من النار، هؤلاء ماتوا قبل أن يدركوا الإسلام ورسالة رسول الله ﷺ، أما اليهود الذين أدركوا نبوة محمد ﷺ فقد كان لابد أن يُسلموا؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال لهم فى التوراة إن هناك رسولاً سيأتى، ولابد أن تؤمنوا به[2]؛ لتتم نعمة الله عليكم. ولو أن هؤلاء اليهود كانوا مؤمنين بموسى حقاً وبالتوراة وما جاء فيها؛ كان لابد وأن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لأنهم كانوا على علم برسالته؛ بل وكانوا على

(١) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]

(٢) لمعرفة البشارة بنبوة الرسول ﷺ فى الكتب السابقة راجع السيرة النبوية للشيخ الشعراوى [١/ ٨١-١٠٠].

علم بموعد هذه الرسالة، حتى إنهم كانوا يقولون للكفار: أتى زمن رسول سنؤمن به، ونتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم(١).

إذن.. فاليهود كانوا يعلمون من التوراة برسالة رسول الله ﷺ والزمن الذى سيرسل فيه، فلو أنهم كانوا متبعين حقا للتوراة لأسلموا، ولكنهم كفروا بالإسلام، وبرسوله ﷺ وحاربوه، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾.

إذن.. فقد كان من تمام إيمان بنى إسرائيل لكى يتم الله نعمة الإحسان عليهم، أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ورسالته.

---

(١) روى ابن إسحاق بسنده: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ، منا: كان معنا يهود، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب وثن، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون، قالوا: إن نبياً مبعوثاً الآن، قد أظل زمانه، نتبعه، فنقتلكم قتل عاد وإرم. فلما بعث الله عز وجل رسوله ﷺ، اتبعناه وكفروا به. ففينا والله وفيهم أنزل الله عز وجل: ﴿ **وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٨٩]. [دلائل النبوة للبيهقى: ٢/٧٦]

* لماذا نزعت الإمامة من بنى إسرائيل ؟ *

إن الحق يُعلم الخلق قواعد تولِّى مهام الناس، ولذلك كافأ الحق إبراهيم عليه السلام بأن جعله للناس إماما، فماذا تعنى الإمامة؟ إن الإمام هو من يؤتم به[1]، أى يتولى قيادة الأمر. وعلى الإمام أن يكون أسوة حسنة، فلا يصنع إلا طيبا ليقلده الناس؛ ولذلك لم تأت الإمامة إلى إبراهيم عليه السلام إلا بعد أن ابتلاه ربه؛ ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** ﴾ [البقرة: ١٢٤] .

ولننظر إلى استقبال إبراهيم عليه السلام لهذه البشرى، إنه يطمع فى كرم ربه سبحانه فيقول: ﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِي** ﴾ والذرية: هى النسل والولد، إن إبراهيم عليه السلام بالفطره البشرية يحب أن يكون ذلك الوصف الإيمانى ليس له وحده، إنما يريده أيضا لذريته، لماذا؟ لأن الفطرة المودعة فى الإنسان

---

(١) أمَّ القوم وأمَّ بهم: تقدمهم، وهى الإمامة. والإمام: كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين. يقول ابن الأعرابى فى قوله عز وجل: ﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** ﴾ [الإسراء: ٧١] . قالت طائفة: بكتابهم، وقال آخرون: بنبيهم وشرعهم، وقيل: بكتابه الذى أحصى فيه عمله. وسيدنا رسول الله ﷺ إمام أمته، وعليهم جميعاً الائتمام بسنته التى مضى عليها. ورئيس القوم: أمُّهم.

ويقول ابن سيده: والإمام ما ائتم به من رئيس وغيره، والجمع: أئمة. وفى التنزيل العزيز: ﴿ **فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ** ﴾ [التوبة: ١٢] أى: قاتلوا رؤساء الكفر وقادتهم الذين ضعفاؤهم تبع لهم.

قال الجوهرى: الإمام الذى يقتدى به وجمعه أئمة.

[لسان العرب: ١٢/ ٢٤ ، ٢٥] بتصرف.

أنه يحب تواصل الخير لذريته وأحفاده من بعده، لذلك نجد الناس بعد أن يعطيهم الله ثمرة أعمالهم فى الحياة ثراءً، فهم يحبون أن يزيد هذا الثراء لأولادهم، وأن يعمل الأبناء لزيادة الثروة للأحفاد، إن الإنسان يعرف أن حياته ستقطع بقانون الموت،الذى لا ينجو منه أحد، ولذلك فهو يحب أن يتواصل خير حياته لمن بعده من ذريته .

فكأن إبراهيم عليه السلام قد أراد أن تتواصل الإمامة فى ذريته من بعده، فقد ذاق خليل الرحمن حلاوة الإيمان، فأراد أن يجعل الإمامة فى ذريته من بعده،إنها قيم عرف إبراهيم عليه السلام معناها،فأرادها لأبنائه من بعده.

لو فهم الناس ذلك لعرفوا أن توريث القيم يفوق توريث المال؛لأن القيم تجعل المال خادماً للإنسان لا سيداً له،والاستقامة على أمر الله توفر للإنسان من الكرامة فوق ما يتمناه،إن أحداً منا لم ير استقامةً تكلف مالاً، إنما الذى يكلف المال هو الانحراف؛ إن الانحرافات تبتلع المال،أما الاستقامة فلا تكلف شيئاً،بل تكسو صاحبها البهاء والإجلال فى أعين الناس، وتكسبه حبهم واحترامهم ومن قبل رضا الله سبحانه.

إن الفطرة الموجودة فى خليل الرحمن موجودة فى كل إنسان، فكل إنسان يريد أن تجيء ذريته على خير من فعله، ويريد خليل الرحمن ألا يحرم ذريته من عنصر من عناصر القيم الإيمانية وهو الإمامة. لكن الله يرد رداً يقرع فيه اليهود، ويوضح أنه نزع منهم خلافة القيم، لقد قال الحق سبحانه لإبراهيم الخليل: ﴿**لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ١٢٤] .وهكذا يضع الحق سبحانه أسس القيم فى الحياة،ولمن تكون قيادة هذه القيم، لقد استحق إبراهيم الخليل الإمامة بفعله وإتمامه لمنهج الله،وليس معنى ذلك أن

تصير الإمامة إرثاً، إنما المنهج باقٍ، فمن حافظ عليها صار له حق الإمامة، ومن ظلم نفسه بالخروج عن المنهج فهو ظالم لنفسه .

ولقد ظلم بنو إسرائيل أنفسهم بالخروج على منهج الحق سبحانه؛ ولذلك نُزعت منهم-رغم أنهم من ذرية إبراهيم- الإمامة، وخُلع عنهم خلافة النبوة؛ لأنهم غير مأمونين على منهج الله، وهذه هى الحيثية الأولى لنزع الإمامة منهم. إن الحق سبحانه يريد أن يعلم الخلق أن القيم الإيمانية ليست دماً، وليست مادة بناء جسم، إنما هى منهج إيمانى من يتبعه بالحق فله حسن الجزاء، ومن يخرج عليه ينال العقاب.

إذن . . فالذين يقولون: نحن من سلالة إبراهيم، لذلك نحن شعب الله المختار، لهؤلاء نقول: لقد صدر حكم الله عليكم لما خرجتم عن منهجه وظلمتم أنفسكم، فقال سبحانه: ﴿ لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ ﴾ (1).

---

(1) قال القاسمى فى قوله تعالى: ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ أى: قدوة لمن بعدك، والإمام اسم لمن يؤتم به. ولم يُبعث بعده نبى إلا كان مأموراً باتباع ملته، وكان من ذريته. كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧].
﴿ قَالَ ﴾ أى: إبراهيم ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أى: واجعل من ذريتى أئمة ﴿ قَالَ لا يَنَالُ ﴾ أى: قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك. لكن لاينال ﴿ عَهْدِى ﴾ أى: الذى عهدته إليك بالإمامة ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ أى منهم؛ لأنهم نفوا أنفسهم عنك فى أبوة الدين. ففى قوله ﴿ لا يَنَالُ ... ﴾ الآية. إجابة خفية لدعوته عليه السلام، وَعِدَة إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته بنيل عهد الإمامة. كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ وفى ذلك أتم ترغيب فى التخلق بوفائه، لاسيما للذين دُعُوا قبلها إلى الوفاء بالعهد. وإشارة إلى أنهم إن شكروا أبقى رفعتهم كما أدام رفعته، وإن ظلموا لم تنلهم دعوته، فضربت عليهم الذلة وما معها، ولا يجزى أحد عنهم شيئاً ولا هم =

وشاءت حكمة الحق جل وعلا أن نجد العجائب، فعلى سبيل المثال: نجد أن موسى عليه السلام وهو الأصيل فى الرسالة، وهو الذى كلّمه الحق سبحانه يطلب منه سبحانه أن يشد أزره بأخيه هارون، أى إن هارون هو الصاحب والرفيق لموسى عليه السلام، وتشاء حكمة الحق أن تكون سلسلة العقد الرسالى إلى بنى إسرائيل من ذرية هارون.

إذن.. فلا ميراث فى النبوة، إن الحق قد أصدر القول الفصل: ﴿**لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ**﴾.

وكأن الحق يريد أن يعلم الخلق أن شرف اتباع المنهج إنما هو اختيار إنسانى، وليس إرثا يناله الإنسان، فالحق قد خلق كل الخلق ولهم الاختيار، فمن اختار عصيان المنهج، فلن يناله عهد الله تعالى؛ إن عهد الله تعالى للذين يتبعون منهج الله سبحانه وتعالى.

= ينصرون. وقرئ: «الظالمون» على أن ﴿**عَهْدِى**﴾ مفعول مقدم اهتماماً ورعاية للفواصل.

المراد بالعهد: تلك الإمامة المسؤول عنها. وهل كانت إلا الإمامة فى الدين، وهى النبوة التى حرمها الظالمون من ذريته؟ كما قال تعالى: ﴿**وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ**﴾ ولو دلت الآية على ما ادَّعوا لخالفه الواقع؛ فقد نال الإمامة الدنيوية كثير من الظالمين. فظهر أن المراد من العهد إنما هو الإمامة فى الدين خاصة. والاحتجاج بها على عدم صلاحية الظالم للولاية تَمحُّل(١)؛ لأنه اعتبار لعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق؛ أو ذهابٌ إلى أن الخبر فى معنى الأمر بعدم تولية الظالم. كما قاله بعضهم. وهو أشد تمحلا. ومعلوم أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع، كما ورد، ومتى زاغ عن ذلك كان ظالماً. [تفسير القاسمى: ٢/ ٢٤٥، ٢٤٦] بتصرف.

---

(١) تمحَّل: احتال. [المعجم الوسيط: ٨٥٦]

إذن.. المسألة ليست اصطفاء للنسل بالجنس والدم واللون، إنما النبوة اصطفاءً قيَمياً وإيمانياً،لذلك فالنسب للأنبياء ليس لمن خرجوا من أصلابهم، ولكن للذين اتبعوا منهجهم،ونجد ذلك واضحًا غاية الوضوح في قصة نوح، كيف؟ لقد قال نوح لربه: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ فماذا كان رد العزيز الحكيم على نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فما كان من من نبى الله نوح عليه السلام إلا أن اعتذر عن ذلك الطلب وناجى ربه قائلا: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

هكذا يعلمنا الحق أن نسب النبوة لا يكون إلا العمل الصالح، أما الأبناء الذين يكونون من أصلاب الأنبياء، ثم لا يكونون صالحى الأعمال؛ فهؤلاء لا أبوة لهم من الأنبياء، لقد قال الحق فى ابن نوح: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾. ولذلك قال الرسول ﷺ عن سلمان الفارسى: «سلمان منا آل البيت» (١) .

إن النسب ليس فى الأبناء من الأنبياء،لكن النسب للأنبياء يكون لمن

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك [٣/٥٩٨] وسكت عنه، وقال الذهبى: سنده ضعيف، وأخرجه الطبرانى فى الكبير [٦/ ٦٠٤٠]، وابن سعد فى الطبقات الكبرى [٤/ ٨٣ ، ٧/ ٣١٩]،

وذكره الهيثمى فى المجمع [٦/ ١٣٣] وقال: رواه الطبرانى وفيه: كثير بن عبد الله المزنى وقد ضعفه الجمهور، وحسّن الترمذى حديثه، وبقية رجاله ثقات.

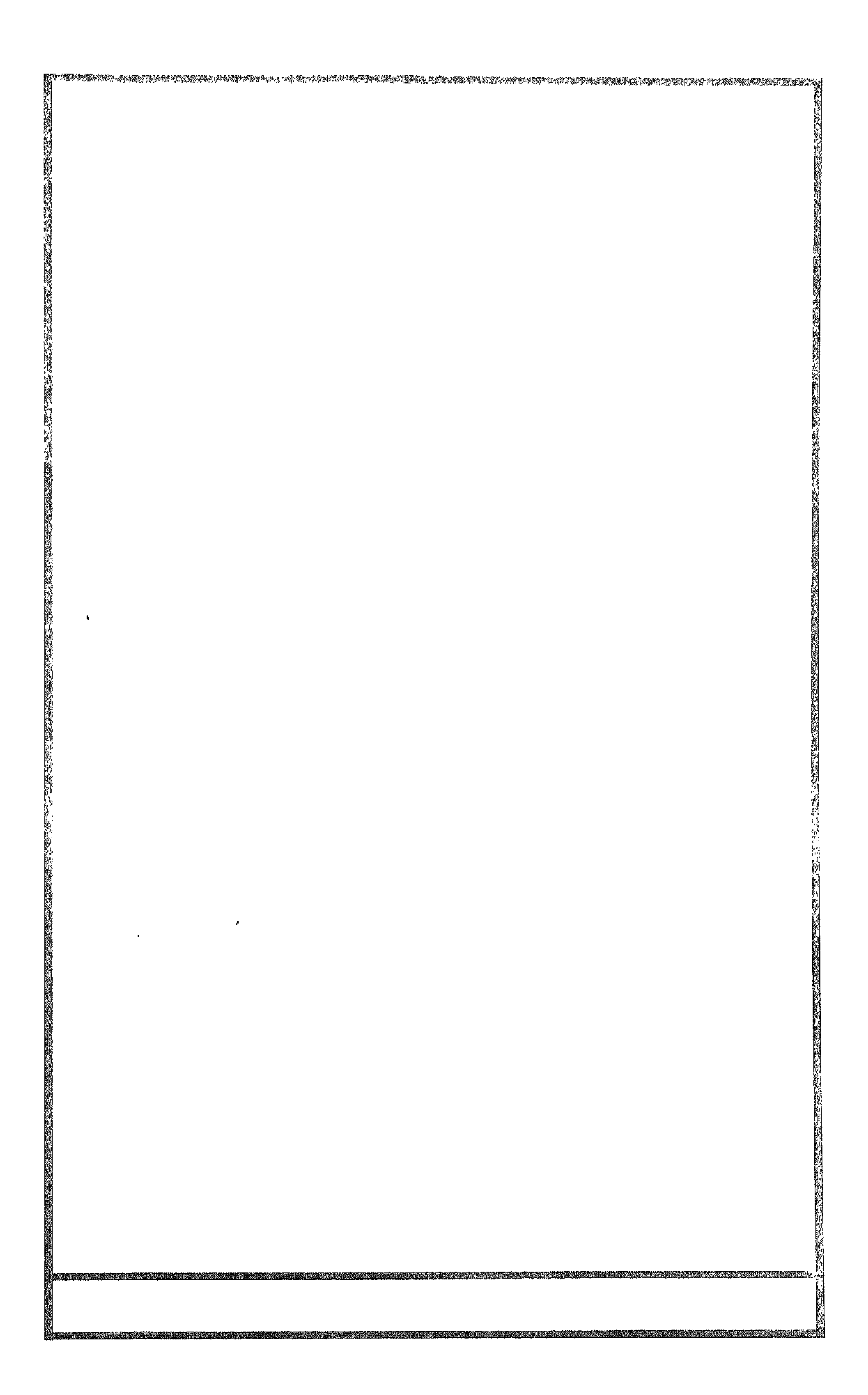
يتبعون المنهج الذى جاء به الأنبياء(١).

إن الحق سبحانه يرتقى بمقام النبوة؛ لتكون عملاً ومنهجًا، وليست ذاتًا، إن كل عمل قيمى هو اتباع لمنهج الحق الذى أرسل به أنبياءه، فمن يتبع هذا المنهج ينل شرف النسب للنبوة، أما الذى يخرج عن المنهج حتى ولو كان ابناً لنبى من صلبه، فهو ليس ابنًا للنبى؛ لأنه عمل غير صالح بل وليس أهلاً لأن يكون من أهل النبى؛ إن النسب فى النبوة هو النسب الإيمانى القيمى، وليس نسب الجنس والدم، فإذا قال بعض من بنى إسرائيل: نحن أبناء يعقوب، ويعقوب بن إسحاق، وإسحاق بن أبى الأنبياء إبراهيم، لهؤلاء نقول: إن المتبع منكم لمنهج الحق، ولم يزيف التوراة، وعرف نبوة رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام وآمن به واتبعه هو من أهل النبوة والأنبياء، أما من اتبع غير ذلك فهو عمل غير صالح، لا ينتسب على الإطلاق إلى بيت النبوة.

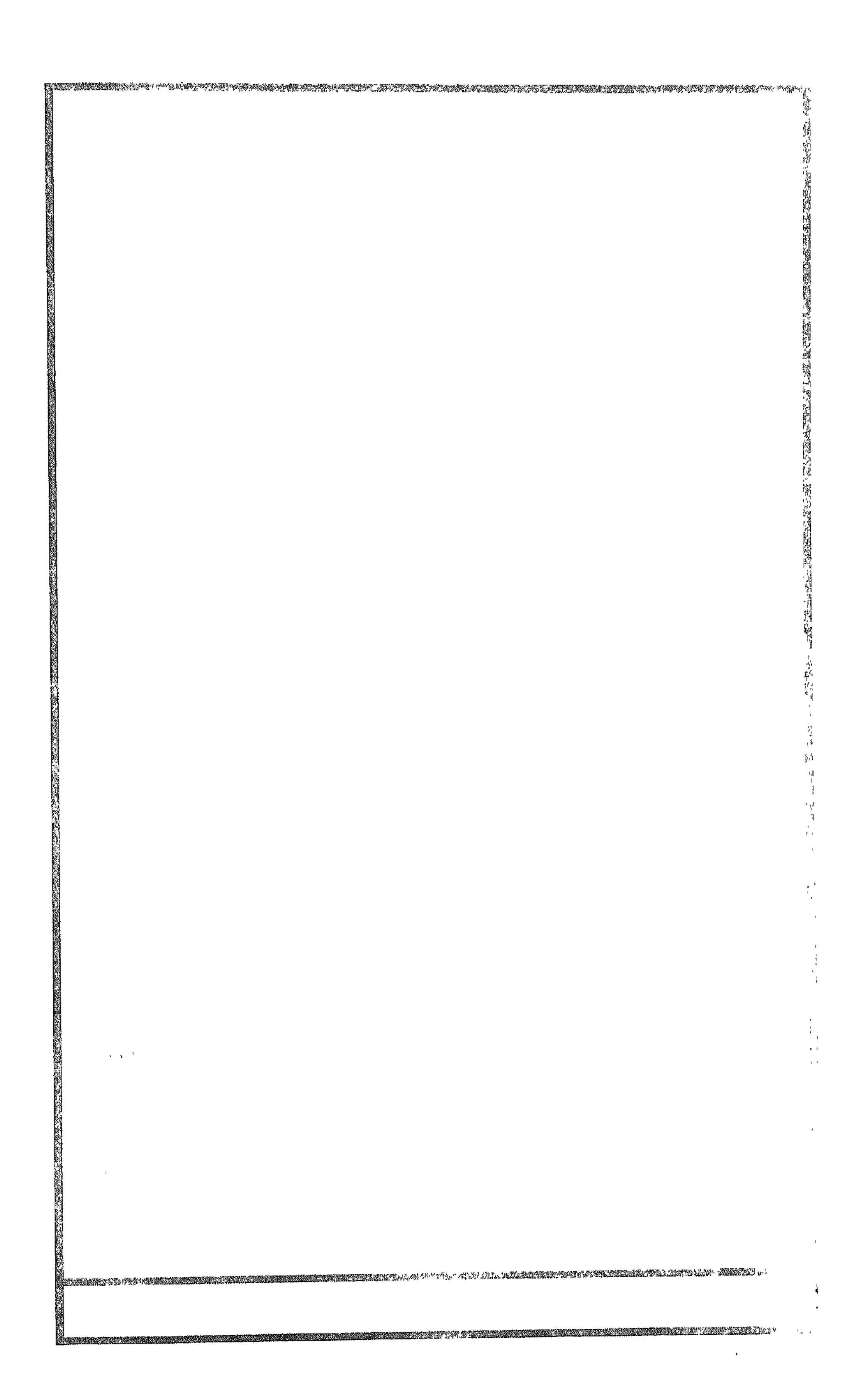
---

(١) عن كثير بن قيس، قال: كنت جالساً مع أبى الدرداء فى مسجد دمشق، فجاءه رجل فقال: يا أبا الدرداء، إنى جئتك من مدينة الرسول ﷺ ، لحديث بلغنى أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ ،ماجئت لحاجة. قال: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له مَن فى السموات ومن فى الأرض، والحيتان فى جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ورَّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

أخرجه أبو داود [٣٦٤١]، واللفظ له، والترمذى [٢٦٨٢]، وابن ماجة [٢٢٣]، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٠٩٦].




نبى الله
عيسى
عليه السلام



*الذين اصطفاهم الله على العالمين *

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

نحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام هو: « أبو الأنبياء » ومن آل ابراهيم، اصطفى الله تعالى من ضمن ما اصطفى آل عمران؛ وكلمة «عمران» ترد فى القرآن اسم لشخصين: الأول: «عمران» والد موسى وهارون عليهما السلام.

والثانى: «عمران» والد السيدة مريم عليها السلام.

«عمران» والد موسى وهارون عليهما السلام كان اسم أبيه «يصهر» واسم جده «قاهت» ومن بعده «لاوى» ومن بعده «يعقوب» ومن بعده «إسحاق» وبعده «إبراهيم».

وقد حصل إشكال عند عدد من الدارسين وهو أىّ العمرانين ذكره الله تعالى هنا؟

ولما اختلفوا لم يفطنوا إلى أن القرآن قد أعطى الهوية والمعنى، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون، بل عمران والد مريم أُمِّ عيسى عليهم جميعاً السلام[1].

(١) قال ابن كثير: يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته، ثم خصص فقال: ﴿ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام.
=

وعمران والد مريم هو بن ماثان وهو من نسل سليمان، وسليمان ابن داود، وداود من إيشا، وإيشا من يهوذا، ويهوذا من يعقوب، ويعقوب

= وقال محمد بن إسحاق: وهو عمران بن هاشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق ابن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يازم بن يهفاشاط بن إيشا ابن إيان بن رحبعان بن داود.

وقال أبو القاسم بن عساكر: مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود بن أخنز بن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن أبيود بن زربابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا ابن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحاز بن موثام عزريا بن يورام بن يوشافاط بن إيشا ابن إيبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام. وفيه مخالفة لما ذكره محمد ابن إسحاق.

ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بنى إسرائيل فى زمانه، وكانت أمها وهى حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات، وكان زكريا نبى ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع فى قول الجمهور. وقيل: زوج خالتها أشياع. فالله أعلم. [قصص الأنبياء: ٦١٠، ٦١١]

ويقول اللواء: أحمد عبد الوهاب: لقد تحدثت الأناجيل - بل ومريم أيضاً -عن المسيح باعتباره: ابن يوسف النجار. وتحدثت عنه الأناجيل باعتباره: ابن الله!فهل يتفق هذا والفهم والعقل الذى دعت إليه الأسفار المقدسة، بعد أن عابت على الأغبياء عديمى البصيرة؟!

ولقد رأينا كيف أدى الإصرار على نسب المسيح ليوسف، من منطلق ما سمى بالأبوة الشرعية، وجعل يوسف ينحدر من نسل داود الملك، ثم مخاطبة المسيح فى الأناجيل بقولهم: ياسيد يا ابن داود، إن احتوت سلسلة النسب هذه على عدد من الزناة!

أما كان الأولى - وهو الحق الذى لا مرية فيه على الإطلاق - أن ينسب المسيح لأمه الطاهرة البتول التى اصطفاها الله سبحانه على نساء العالمين، فيقال: المسيح ابن مريم؟

ولقد عُرف بين الإسرائيليين من انتسب لأمه ،وكان من كبار القوم، مثل يوآب ابن صروية قائد جيش داود [سفر صموئيل الثانى ٨:١٦] وكان داود يخشى بنو صروية فى أول حكمه إذ قال: «أنا اليوم ضعيف وممسوح ملكا، وهؤلاء الرجال بنو صروية أقوى منى صموئيل الثانى ٣:٣٩». وكانت صورية هذه أختا لداود: «يسّى ولد بكره أليآب، وأبينا داب الثانى.. وداود السابع. وأختاهم: صروية وأبيجايل. وبنو صروية: ابشاى ويوآب وعسائيل، ثلاثة. وآبيجايل ولدت عماسا أخبار الأيام =

من إسحاق؛ وهو ابن أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.

لذلك كان على المختلفين أن يفطنوا إلى ذكر اسم مريم عليها السلام

= الأول ٢ :١٣ - ١٧».

ومن المؤكد أن مريم تجيء من نسل هارون. فقد كانت قريبة لامرأة زكريا التى كانت «من بنات هارون واسمها اليصابات - لوقا ١ :٥» وقد قال الملاك لمريم حين جاء يبشرها قبل الحمل: «هو ذا اليصابات نسيبتك (قريبتك) هى أيضا حبلى بابن فى شيخوختها؛ لأنه ليس شىء غير ممكن لدى الله - لوقا ١ :٣٦-٣٧».

ولقد كان هذا هو ما قرره ويلز أستاذ التاريخ بجامعة لندن فى كتابه: يسوع المسيحيين الأوائل.

ويقال فى العربية: أخو تميم، أى واحد منهم. وأخو الصدق، أى: ملازم له، ومثله: يا أخا العرب، أى يا ابن العرب.

فحق لمريم - إذن - أن تنسب إلى هارون الذى كان أول من اختص هو وبنيه من بين بنى إسرائيل بالكهانة والحفاظ على الشريعة [سفر الخروج ٢٨ :١]، وقد اقتصرت على سبط لاوى وهو واحد منهم. ومن الجدير بالذكر أنه كان فى بدء ظهور المسيحية إنجيل ينسب لمتّى ويعرف باسم: إنجيل ميلاد مريم، وقد قبله عدد من الطوائف المسيحية باعتباره أصيلاً وقانونيا. وقد أشار إليه جيروم - أحد آباء الكنيسة الكبار الذى عاش فى القرن الرابع. ومن هذا الإنجيل حاول العالم البريطانى فاوستس - الذى أصبح فيما بعد أسقف ريز - أن يثبت أن المسيح لم يكن من بيت داود ومن سبط يهوذا؛ لأنه حسب ذلك الإنجيل لم تكن العذراء من سبط يهوذا، وإنما كانت من سبط لاوى، وأن أباها كان كاهنا.

وعلى ضوء ماسبق ، نفهم لماذا قال قوم مريم لها، عندما أتتهم تحمل وليدها : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨].

وإن نسبة المسيح إلى أمه، بأن يقال: المسيح ابن مريم، لهو القول الحق الذى لا مراء فيه، وهو الوسيلة الوحيدة لتخليص نسب المسيح الطاهر مما علق به من أذى، وحل مشكلة الخلاف بين إنجيلى متى ولوقا حول نسب المسيح (١) .

[الإسلام والأديان الأخرى: ١٢٣-١٢٥]

---

(١) من أراد المزيد فليراجع كتاب المؤلف: المسيح فى مصادر العقائد المسيحية. الفصل الثالث.

من بعد ذلك ، فيعلمون أنه عمران والد مريم .

وأيضاً يجب أن نفطن إلى أن الحق سبحانه قد قال عن مريم : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وزكريا عليه السلام كان اسم والده : دان- ويقال: لدن - وكان معاصراً لماثان. إذن. . يكون المراد هنا هو عمران والد مريم، والذى زاد من حيرة المختلفين هو وجود أخت لموسى وهارون كان اسمها مريم، وكانوا فى هذا الزمن يتفاءلون باسم مريم؛ لأن معناه العابدة فى لغتهم.

وعندما تقول : اصطفيت كذا على كذا، فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أن يصطفى واحداً على الآخرين، ولذلك نفهم المقصود بقوله تعالى: ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أى: على عالمى زمانهم، إنهم قوم كانوا موجودين وقد اصطفى منهم واحداً، أما الذى سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه؛ إننا نتكلم عن عالمهم الموجود فى زمانهم.

وقوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾[1] [آل عمران: ٣٤] يجب أن نعلم: هل المقصود بذلك الأنساب، أم الدين والقيم ؟ خاصة أن الحق

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى: فى حال كون بعضهم من بعض، أى: ذرية بعضها من ولد بعض. الكوفيون: على القطع. الزجاج: بدل، أى اصطفى ذرية بعضها من بعض، ومعنى بعضها من بعض: يعنى فى التناصر فى الدين؛ كما قال: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٦٧]. يعنى فى الضلالة؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: فى الاجتباء والاصطفاء والنبوة. وقيل: المراد به التناسل، وهذا أضعفها.

[تفسير القرطبى: ٤/ ٦٤]

سبحانه قد علّمنا فى مسألة إبراهيم أن الأنساب بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبار لها، وإنما الأنساب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هى أنساب القيم والدين.

وذلك قول الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فأعلمه الله سبحانه وتعالى أنه: ﴿ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾. لماذا ؟لأن الإمام هو المقتدى والمتبع والأسوة. إذن فالمسألة ليست وراثة بالدم.

إذن.. فنحن نفهم قول الحق سبحانه: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ على أنها ذرية فى توارثها للقيم. مصداق ذلك فى قول الله تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة :٦٧].

أى: إن هذا النفاق ليس أمراً يتعلق بالنسب وإنما يتعلق بالقيم؛ إنها كلها أمور قيمية، ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى: إن الله يعلم الأقوال وكذلك الأفعال والخبايا، ويجازى عليها إن خيراً فخير وإن شرا فشر.

* دافع مناجاة امرأة عمران لله *

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[آل عمران: ٣٥]

عندما نقرأ ﴿ إِذْ ﴾ فلنعلم أنها ظرف، ويقدر لها فى اللغة: «اذكر»، ويقال: إذ جئتك، أى: اذكر أنى جئتك: وعندما يقول الحق تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ فبعض الناس يفهم أن الحق سبحانه سمع قول امرأة عمران، وعلم سبحانه دافعها وقت أن قالت امرأة عمران: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي ﴾؛ إنهم يحاولون أن يربطوا هذه الآية بما جاء قبلها من أن الله تعالى سميع وعليم؛ لأن الحق قال قبلها: ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ونقف عند قول امرأة عمران: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾

إننا عندما نسمع كلمة ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ فمعناها أن النذر غير مملوك فيقال: حررت العبد، أو: حررت الكتاب. إن تحرير أى أمر هو إصلاح ما فيه من فساد أو ارتباط.

وقولها: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾؛ فالدافع إلى هذه المناجاة لله سبحانه: أنها كانت موجودة فى بيئة ترى الناس يعتزون بأولادهم، وأولاد الناس يحكمون حركة الناس، والناس يحكمون حركة أولادهم، ويكدُّ الناس من أجل أن يكون الأبناء عزوة وقرة عين، ولم تعجب امرأة عمران بذلك؛ لقد أرادت ما فى بطنها محرراً من كل ذلك. إنها تريده محرراً

منها وهى محررة منه، وهذا يعنى أنه غير مرتبط بشىء أو بحب أو برعاية؛ فلماذا (١) ؟

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ ويقال: إنها لما حملت قالت: لئن نجَّانى الله ووضعت مافى بطنى لجعلته مُحرراً. ومعنى: ﴿ لَكَ ﴾ أى: لعبادتك. ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ نصب على الحال، وقيل: نعت لمفعول محذوف، أى: إنى نذرت لك مافى بطنى غلاما محررا، والأول أولى من جهة التفسير، وسياق الكلام والإعراب. أما الإعراب فإن إقامة النعت مقام المنعوت لا يجوز فى مواضع، ويجوز على المجاز فى أخرى.

أما التفسير فقيل إن سبب قول امرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة لا تلد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان، وأنها كانت تحت شجرة، فبصرت بطائر يزق فرخا فتحركت نفسها لذلك، ودعت ربها أن يهب لها ولدا، ونذرت إن ولدت أن تجعل ولدها محررا: أى: عتيقا خالصا لله تعالى، خادما للكنيسة حبيسا عليها، مفرغا لعبادة الله تعالى. وكان ذلك جائزا فى شريعتهم، وكان على أولادهم أن يطيعوهم. فلما وضعت مريم قالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ يعنى: أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة(١). قيل: لما يصيبها من الحيض والأذى. وقيل: لا تصلح لمخالطة الرجال. وكانت ترجو أن يكون ذكرا فلذلك حررت.

قال ابن العربى: لاخلاف أن امرأة عمران لا يتطرق إلى حملها نذر لكونها حرة، فلو كانت امرأته أمة، فلا خلاف أن المرء لا يصح له نذر فى ولده، وكيفما تصرفت حاله؛ فإنه إن كان الناذر عبداً فلم يتقرر له قول فى ذلك، وإن كان حراً فلا يصح أن يكون مملوكًا له، وكذلك المرأة مثله؛ فأى وجه للنذر فيه؟

وإنما معناه-والله أعلم-أن المرء إنما يريد ولده للأنس به والاستنصار والتسلى، فطلبت هذه المرأة الولد أنسا به وسكونا إليه؛ فلما منَّ الله تعالى عليها به نذرت أن حظها من الأنس به متروك فيه، وهو على خدمة الله تعالى موقوف، وهذا نذر الأحرار من الأبرار. وأرادت به محررا من جهتى، محرراً من رق الدنيا وأشغالها؛ وقد قال رجل من الصوفية لأمه: يا أمَّه: ذرينى لله أتعبد له وأتعلم العلم، فقالت نعم. فسار حتى تبصر ثم عاد إليها فدق الباب، فقالت من؟ فقال لها: ابنك فلان، قالت: قد تركناك لله ولا نعود فيك.
=

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره [١/ ٣٣٩] أنها نذرتها لخدمة المسجد الأقصى

إنّ الإنسان مهما كان مجاهداً لنفسه فى طاعة الله، فإن المسائل التى تتصل بالناس وبه تمر عليه وتشغله؛ لذلك أرادت امرأة عمران ما فى بطنها محرراً من كل ذلك.

وقد يقال: إن امرأة عمران إنما تتحكم بهذا النذر فى ذات إنسانية كذاتها.

ونرد على ذلك بما يلى: لقد كانوا قديماً عندما ينذرون ابنا للبيت المقدس - ما دامت لهم الولاية عليه- يظل كما أرادوا إلى أن يبلغ سن الرشد، وعند بلوغ سن الرشد فإن الابن له أن يختار بين أن يظل كما أراد والده،أو يحيا حياته كما يريد .وبلوغ سن الرشد هو اعتراف بذاتية الإنسان فى اتخاذ القرار المناسب لحياته.

إن امرأة عمران لا تريد ما فى بطنها أن يكون قرة عين، أو أن يكون معها، إنها تريده محرراً لخدمة البيت المقدس، وطلب امرأة عمران هذا يقتضى -فى التصور البشرى- أن يكون المولود ذكرا؛ لأن الذين كانوا يقومون بخدمة البيت هم الذكران.

إذن.. فمعنى طلب امرأة عمران :﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾؛أى أنها تطلب ولدا ذكراً،ونحن نعرف أن كلمة الولد تطلق على الذكر والأنثى، ولكن الاستعمال الشائع هو أن يطلق الناس كلمة «ولد» على الذكر فقط،ولكن «الولد» كلمة معناها المولود سواء أكان ذكراً أم

وقوله تعالى:﴿**مُحَرَّرًا**﴾ مأخوذ من الحرية التى هى ضد العبودية؛من هذا تحرير الكتاب، وهو تخليصه من الاضطراب والفساد.وروى خُصيف عن عكرمة ومجاهد: أن المحرر الخالص لله عز وجل لا يشوبه شىء من أمر الدنيا.

[تفسير القرطبى: ٤/ ٦٥- ٦٧] بتصرف.

أنثى[1].

وكلمة «نذر» عندما نسمعها نفهم أنها أمر أُريد به طاعة فوق تكليف المكلف من جنس ما كُلِّف.

إن الله تعالى فرض خمس صلوات، فإذا نذر إنسان أن يصلى عدداً من الركعات ،فإن الإنسان يكون قد ألزم نفسه بأمر أكثر مما ألزمه به الله سبحانه، وهو من جنس ما كلفه الله تعالى وهو الصلاة ،والله فرض صيام شهر رمضان، فإذا نذر إنسان أن يصوم يومى الاثنين والخميس أو صيام شهرين فالإنسان حر، شرط أن يختار نذراً من جنس ما فرض الله من تكاليف وهو الصيام.

والله فرض زكاة قدرها اثنين ونصف فى المائة، ولكن الإنسان قد ينذر فوق ذلك مقدار عشرة فى المائة أو حتى خمسين فى المائة؛ إن الإنسان حر، ولكنه يختار نذراً من جنس ما فرض الله من تكاليف وهو الزكاة.

إن النذر هو زيادة عما كُلِّف المكلّف من جنس ما كلف[2].

---

(١) الولد: اسم يجمع الواحد والكثير، والذكر والأنثى. [لسان العرب: ٣/ ٤٦٧]

(٢) النذر هو التزام قربة غير لازمة فى أصل الشرع بلفظ يُشعر بذلك، مثل أن يقول المرء: لله علىَّ أن أتصدق بمبلغ كذا، أو إن شفى الله مريضى فعلىَّ صيام ثلاثة أيام ونحو ذلك. ولا يصح إلا من بالغ عاقل مختار ولو كان كافرا.

النذر عبادة قديمة:

ذكر الله سبحانه عن أم مريم أنها نذرت ما فى بطنها لله، فقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وأمر الله مريم به فقال: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]. =

وكلمة: ﴿ نَذَرْتُ ﴾ إن امرأة عمران كانت تقية وورعة، ولكنها ليست مجبرة على النذر، وفعلت ذلك- وهو أمر زائد -من أجل خدمة بيت الله؛ لأنه إن قام البعض بخدمة البيت فأمر خدمة البيت يسقط عن الباقين، وإن لم يقم أحد بخدمة البيت فإن ذلك معناه وقوع الجميع فى الإثم، وما دامت امرأة عمران قد نذرت ما فى بطنها محرراً ، فهذا يدل على حبها لربها جل وعلا؛ لأن النذر كما نعلم يُظهر حب العبد لربه ولأوامره ؛ فإنك لو لم تحب ربك لما زدت فوق ما كلفك من جنس ما كلفك.

= **النذر فى الجاهلية:**

وذكر الله أهل الجاهلية ماكانوا يتقربون به إلى آلهتهم من نذور طلبا لشفاعتهم عند الله وليقربوهم إليه زلفى، فقال سبحانه: ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

مشروعيته فى الإسلام :

وهو مشروع بالكتاب والسنة، ففى الكتاب يقول الله سبحانه: ﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ** ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

ويقول تعالى: ﴿ **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** ﴾[الحج: ٢٩].

ويقول تعالى: ﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً** (٧) ﴾ [الإنسان: ٧].

وفى السنة يقول الرسول ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه»(١). رواه البخارى ومسلم عن عائشة.

والإسلام وإن كان قد شرعه إلا أنه لا يستحبه، فعن ابن عمر أن النبى ﷺ نهى عن النذر وقال: « إنه لا يأتى بخير وإنما يُستخرج به من البخل»(٢). رواه البخارى ومسلم. [فقه السنة: ٢/ ٦٤ ، ٦٥]

---

(١) أخرجه البخارى [٦٦٩٦ ، ٦٧٠٠] واللفظ له، ومسلم [١٦٤١/ ٨] .

(٢) أخرجه البخارى [٦٦٩٢ ، ٦٦٩٣]، ومسلم [١٦٣٩/ ٤] واللفظ له، ولكنه قال: « يستخرج به من البخيل» بدلا من: «البخل». عن ابن عمر رضى الله عنهما.

والمقصود بقوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ القبول هو أخذ الشيء برضا؛ لأنك قد تأخذ بكره أو تأخذ على مضض أما ﴿ فتقبل ﴾ فذلك يعني أن الأخذ بقبول ورضا. واستجاب الله لهذا الدعاء؛ قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ونلاحظ أن امرأة عمران قالت فى أول ما قالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ولم تقل: «الله» وهذا لنعلم أن الرب هو المتولى للتربية، فساعة ينادى الإنسان بـ «ربٍّ» فالمفهوم منها التربية، وساعة ينادى بـ «الله» فالمفهوم منها التكليف.

إن الله تعالى هو «المعبود»، والمعبود تعنى أن يطاع فيما يُكلّف به.

إذن.. «الرَّب»هو المتولى للتربية؛لذلك قالت امرأة عمران: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ هكذا كان الدعاء، وهكذا كانت الاستجابة: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾.

وبعد ذلك ذكر الحقّ سبحانه الأشياء التى تكون من جهة التربية فقال تعالى: ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ كل ذلك متعلق بالتربية وبالربوبية، فساعة نادت امرأة عمران عرفت كيف تنادى، ونذرت ما فى بطنها، وبعد ذلك جاء الجواب من جنس ما دعت، وقمة القبول هى الأخذ برضا.

وقوله تعالى: ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾: الحسن هنا هو زيادة فى الرضا؛ لأن كلمة: ﴿ قَبُول ﴾ تعطينا معنى الأخذ بالرضا، وكلمة: ﴿ حَسَنٍ ﴾ توضح أن هناك زيادة فى الرضا، وذلك مما يدل أن الله قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا وبشيء حسن، وهذا دليل أن الناس ستلمح فى تربيتها شيئاً من الرضا؛ إنه ليس قبولاً عادياً، لكنه قبول حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما فى بطنها ألا تربى ما فى بطنها إلى العمر الذى يستطيع فيه المولود أن يخدم فى بيت الله، ولكنها نذرت ما فى بطنها منذ اللحظة الأولى لميلاده، إنها لن تنعم به، ولذلك قال الحق: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾، وزكريا هو زوج خالة السيدة مريم عليهما السلام(١).

---

(١) قال أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قال ابن عباس: معناه سلك بها طريق السعداء. وقال قوم: تكفل بتربيتها والقيام بشأنها. وقال الحسن: معناه: لم يعذبها ساعة قط من ليل ولا نهار. وعلى هذه الأقوال يكون: « تقبَّل» بمعنى: استقبل؛ فيكون تفعَّل بمعنى: استفعل، أى: استقبلها ربها، نحو: تعجَّلت الشىء فاستعجلته، وتقصيت الشىء واستقصيته، أى: فأخذها فى أول أمرها حين ولدت. وقيل: المعنى فَقَبِلَهَا أى: رضى بها فى النذر بمكان الذكر فى النذر، كما نذرت أمها وسنى لها الأمل فى ذلك، وقبل دعاءها فى قولها: ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ولم تُقبل أنثى قبل مريم فى ذلك.

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ عبارة عن حسن النشأة والجودة فى خَلْقٍ وخُلُق، فأنشأها على الطاعة والعبادة. قال ابن عباس: لما بلغت تسع سنين صامت النهار وقامت الليل حتى أربت على الأحبار. وقيل: لم تجر عليها خطيئة. قال قتادة: حُدِّثنا أنها كانت لا تصيب الذنوب كما يصيب بنو آدم. وقيل: معنى ﴿أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ أى: جعل ثمرتها مثل عيسى. ويقال: القبول الحسن تربيتها على نعت العصمة حتى قالت: ﴿ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] والنبات الحسن الاستقامة على الطاعة وإيثار رضا الله فى جميع الأوقات.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ قال قتادة: ضمها إليه. وقال أبو عبيدة: ضمن القيام بها، ومن القبول الحسن والنبات الحسن أن جعل تعالى كافلها والقيم بأمرها وحفظها نبياً. أوحى الله إلى داود عليه السلام: إذا رأيت لى طالباً فكن له خادماً .

[البحر المحيط: ٣/ ١٢٠ ، ١٢١] بتصرف.

* أمنية امرأة عمران *

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾ هذا القول من امرأة عمران ؛ لأنها كانت قدقالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ لخدمة البيت. وقولها: ﴿ مُحَرَّرًا ﴾؛ تعنى أنها أرادت ذكراً لخدمة البيت، فلما جاء المولود ﴿ أُنثَى ﴾ ففهمت أن ذلك لا يؤدى إلى الغرض المطلوب الذى أرادته؛ وهو خدمة البيت فقالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ فكأنها قد قالت: إن لم أمكن من الوفاء بالنذر فلأن قدرك سبق فى أنه غير منذور.

ولكن الحق يقول بعد ذلك: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران: ٣٦]؛ إن هذا القول يعنى أنها لا تعترض على قدر الله، ولكنها تريد أن تظهر التحسر؛ لأن الغاية من نذرها لم تتحقق، لقد كانت تتحسر لأنها كانت تحب أن يكون المولود ذكراً لخدمة البيت، فإن لم تقدر على الوفاء فلأن الله قدر أن يكون المولود أنثى(١).

الحق سبحانه يقول بعد ذلك: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾ فهل هذا كلامها

---

(١) قال الشيخ السعدى فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى ﴾ كان فى هذا الكلام، نوع تضرع منها، وانكسار نفس؛ حيث كان نذرها بناء على أنه يكون ذكراً، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك، ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجبر الله قلبها، وتقبل الله نذرها، وصارت هذه الأنثى، أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد، أعظم مما يحصل بالذكر. [تيسير الكريم الرحمن: ١/ ٢٢٧]

أم من كلام الله تعالى ؟ إما أنه كلام الله تعالى؛ فكأنها لما قالت: ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾ قال الله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾كأن الحق يقول - ما معناه-لا تظنى أن الذكر الذى كنت تتمنّينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى؛ إن هذه الأنثى لها شأن عظيم.

أو أنه من تمام كلامها: ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾ ويكون قول الحق سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ هو جملة اعتراضية، ويكون تمام كلامها: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾ أى أنها قالت: يارب إن الذكر ليس كالأنثى[1]؛ إنها لا تصلح لخدمة البيت؛ وليأخذ المؤمن المعنى الذى يحبه، وسنجد أن المعنى الأول فيه إشراق أكثر؛ إنه تصور أن الحق قد قال: أنت تريدين ذكرا بمفهومك فى الوفاء بالنذر؛ ليكون فى خدمة البيت . وقد وهبت لك المولود أنثى، ولكن سأعطى فيها آية أكبر من خدمة البيت؛ أن أخدم بالآية التى سأعطيها لهذه الأنثى عقائد لها رفعة تقام فيها شعائر. إننى سأجعل من هذه الآية عقائد تقام فى الدنيا وتقوم بها أمة، لماذا ؟ لأننى أنا الخالق سأورد فى هذه الأنثى آية لا توجد فى غيرها، وهى آية تثبت طلاقة قدرة الخالق سبحانه.

إن الحق سبحانه هو خالق الأسباب، وما دام هوخالق الأسباب فهو قادر على الخلق بلا أسباب. إن الحق سبحانه أراد لنا أن نرى الخلق بالأسباب

(١) قال الشوكانى فى قوله: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾ هذه الجملة اعتراضية مبينة لما فى الجملة الأولى من تعظيم الموضوع ورفع شأنه وعلو منزلته، واللام فى الذكر والأنثى للعهد، هذا على قراءة الجمهور وعلى قراءة ابن عباس، وأما على قراءة أبى بكر وابن عامر فيكون قوله: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾ من جملة كلامها ومن تمام تحسرها وتحزنها، أو ليس الذكر الذى أردت أن يكون خادماً ويصلح للنذر كالأنثى التى لاتصلح لذلك، وكأنها أعذرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ماقصدت. [فتح القدير: ١/ ٤١٣]

والخلق بلا أسباب. وعندما نسأل عن الأسباب فإننا نجد الإجابة أن الأسباب من عند الله تعالى؛ إذن فما دام الخالق للأسباب أراد خلقاً بلا أسباب فهذه إرادته، ولذلك أعطانا الحق سبحانه القدرة على رؤية طلاقة قدرته؛ لأنها عقائد إيمانية يجب أن تظل فى بؤرة الشعور الإيمانى وعلى بال المؤمن دائماً.

لقد خلق الله تعالى بعضاً من الخلق بالأسباب، كما خلقنا جميعاً كما نعلم.

أما خلق الحق سبحانه لآدم عليه السلام كان بلا أسباب، ونحن نعلم أن الشىء الدانــى بين اثنين له قسمة عقلية ومنطية ؛ فما دام هناك أب و أم، ذكر وأنثى فسيجىء منهما تكاثر، فالحق جل وعلا يقول: ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وعندما يجتمع الزوجان فهذه هى الصورة الكاملة، وهذه الأولى فى القسمة المنطقية والتصور العقلى.

وأما أن ينعدم الزوجان وهذه هى الثانية فى القسمة المنطقية والتصور العقلى.

أو أن ينعدم الزوج الثانى ويبقى الطرف الأول وهذه هى الثالثة فى القسمة المنطقية والتصور العقلى.

أو أن ينعدم الزوج الأول ويبقى الطرف الثانى، وهذه هى الرابعة فى القسمة المنطقية والتصور العقلى.

تلك إذن أربعة تصورات للقسمة المنطقية والتصور العقلى، وجميعنا من اجتماع العنصرين الرجل والمرأة، أما آدم فقد خلقه الله بطلاقة قدرته ليكون السبب، وأخرج الحق من آدم- المخلوق بطلاقة قدرته- أسباباً ، وهذه

الأسباب تجتمع فى كل الناس.

وهناك ذكر ولا أنثى، وكذلك خلق الله حواء من آدم، وقد تكون هناك أنثى كمريم ويأتى منها المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام بلا ذكر، وهذه هى الآية فى العالمين وتثبت قمة عقدية .

فلا يقولن أحد ذكراً أو أنثى لأن نية امرأة عمران فى الطاعة أن يكون المولود ذكراً ، وشاء قدر الله أن تكون أنثى، وتكون هذه الأنثى أسمى من تقدير امرأة عمران فى الطاعة ؛لذلك قال: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾ أى: أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى.

وقالت امرأة عمران: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾(1) [آل عمران: ٣٦] .

---

(1) قال الرازى: قولها: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾وفيه أبحاث:

البحث الأول: أن ظاهر هذا الكلام يدل على ما حكينا من أن عمران كان قد مات فى حال حمل حنة بمريم، فلذلك تولت الأم تسميتها؛ لأن العادة أن ذلك يتولاه الآباء.

البحث الثانى: أن مريم فى لغتهم: العابدة، فأرادت بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالى أن يعصمها من آفات الدين والدنيا،والذى يؤكد هذا قولها بعد ذلك ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

البحث الثالث: أن قوله: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾معناه: وإنى سميتها بهذا اللفظ أى جعلت هذا اللفظ اسماً لها، وهذا يدل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور ثلاثة متغايرة.

ثم قال الله تعالى عنها كلاماً ثالثا، وهو قولها: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ وذلك لأنه لما فاتها ماكانت تريد من أن يكون رجلا خادما للمسجد، تضرعت إلى الله تعالى فى أن يحفظها من الشيطان الرجيم، وأن يجعلها من الصالحات القانتات. [التفسير الكبير: ٨/ ٢٧]

إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها، فحينما فات المولودة أن تكون فى الخدمة لبيت الله تعالى؛ لأنها جاءت أنثى، تمنت امرأة عمران وتفاءلت أن تكون المولودة طائعة عابدة، فسمَّتها مريم لأن مريم فى لغتهم معناها العابدة ، فما فات المولودة فى خدمة البيت، فليكن فى خدمة عقائدها وخدمة منهجها فى ذاتها. وأول ما يقدح العبودية هو الشيطان؛ فإنه هو الذى يجعل الإنسان يتمرد على العبودية.

إن الإنسان يريد أن يصير عابداً فيجىء الشيطان ليزين له المعصية؛ لأجل ذلك أرادت امرأة عمران أن تحمى ابنتها من نزغات الشيطان؛ لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصى كلها تاتى من نزغات الشيطان، وقد تمنت لمريم أن تكون عابدة؛ لقد كانت امرأة عمران تمتلك عقلية إيمانية حاضرة تحمل المنهج التعبدى كله، فقالت: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[(١)].

إن المستعاذ هو الله، والمستعاذ منه هو الشيطان، والشيطان حينما يدخل مع خلق الله فى تزيين المعاصى، فهو يدخل مع المخلوق فى عراك، فلا بد من اللجوء إلى الله سبحانه.

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: « مامن مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخـاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾.

أخرجه البخارى [٣٤٣١ ، ٤٥٤٨] واللفظ له، ومسلم [٢٣٦٦/١٤٦].

وقال القرطبى: قال علماؤنا: فأفاد هذا الحديث أن الله تعالى استجاب دعاء أم مريم، فإن الشيطان ينخس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وابنها.

قال قتادة: كل مولود يطعن الشيطان فى جنبه حين يولد غير عيسى وأمه، جعل بينهما حجاب فأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ لهما منه شىء. قال علماؤنا: وإن لم يكن كذلك بطلت الخصوصية بهما، ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال الممسوس وإغواؤه، فإن ذلك ظن فاسد؛ فكم تعرض الشيطان للأنبياء =

ولذلك فالشيطان لا يستطيع أن يغوى المؤمن الذى يذكر ربه؛ ومن هنا، فإن الشيطان إذا سمع ذكر الله فإنه يخنس، ووصفه القرآن الكريم بأنه خناس أى يتراجع؛ إنه ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيداً عن الله سبحانه(1)، ولذلك فالحق سبحانه يعلم الإنسان أن يستعيذ به من الشيطان؛ يقول تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

= والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء، ومع ذلك فعصمهم الله مما يرومه الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾. هذا مع أنَّ كل واحد من بنى آدم قد وكل به قرينه من الشياطين؛ كما قال رسول الله ﷺ (1). فمريم وابنها وإن عصما من نخسه فلم يعصما من ملازمته لهما ومقارنته. والله أعلم. [تفسير القرطبى: ٤/ ٦٨]

(١) أخرجه مسلم [٢٨١٤/ ٦٩] عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بلفظ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن». قالوا: وإياك يارسول الله؟! قال: وإياى، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم، فلا يأمرنى إلا بخير».

(١) الخنوس: الانقباض والاستخفاء. خنس من بين أصحابه يَخْنِس ويَخْنُس بالضم خُنُوساً وخِناساً، وانخنس: انقبض وتأخر، وقيل: رجع. قال الأزهرى: وكذا قال الفراء فى قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ [الناس: ٤]؛ قال: إبليس يوسوس فى صدور الناس، فإذا ذكر الله خنس، وقيل: إن له رأسا كرأس الحية يجثم على القلب، فإذا ذكر الله العبد تنحَّى وخنس، وإذا ترك ذكر الله رجع إلى القلب يوسوس.

[لسان العرب: ٦/ ٧١]

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضُراطٌ حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى النداء أقبل، حتى إذا ثُوِّب للصلاة أدبر، حتى إذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لايدرى كم صلَّى».

أخرجه البخارى [٦٠٨] واللفظ له، ومسلم [٣٨٩/ ٨٣].

وعن رجل كان رديف النبى ﷺ قال: كنت رديف النبى ﷺ على حمار فعثر الحمار فقلت: تعس الشيطان فقال لى النبى ﷺ: «لاتقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم الشيطان فى نفسه وقال: صرعته بقوتى، فإذا قلت: بسم الله =

[فصلت:٣٦].

وعلمنا الرسول ﷺ حين يأتى الرجل أهله أن يستعيذ بالله تعالى من الشيطان؛ لأن إتيان الأهل مظنة لمولود قد يجيء، فعلى العبد أن يقول «اللهم جَنِّبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا»[1] ، ومن يقول هذا الدعاء قبل إتيانه أهله فلا يكون للشيطان ولاية أو سبيلا على المولود إن قدر أن يكون، ولذلك قالت امرأة عمران: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

والذرية قد يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر، ولكن كلمة ذرية تطلق على الواحد وعلى الاثنين وعلى الثلاثة، والذرية هنا بالنسبة لمريم هى: عيسى عليهما السلام .

= تصاغرت إليه نفسه حتى يكون أصغر من ذباب».
أخرجه أحمد فى المسند [٥/ ٥٩] واللفظ له، وأبو داود [٤٩٨٢]، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٤١٦٨].

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [١٤١]، ومسلم [١١٦/١٤٣٤] عن ابن عباس رضى الله عنهما.

* تسابق قوم مريم على كفالتها *



قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

إن كلمة «نبأ» لا تأتى إلا فى الخبر العظيم. و«الغيب» هو ما غاب عن الحس، وهناك غياب عن الحس من الممكن أن يدركه مثلك، وهناك غياب عن الحس لا يدركه مثلك.

وحجب الغيب ثلاثة :

أولها : أن يكون الحجاب فى الزمن الماضى.

وثانيها : أن يكون الحجاب فى المستقبل.

ثالثها : أن يكون الحجاب فى المكان .. لماذا ؟ لأن ظرف الأحداث زمان ومكان، فمرة يجىء الحجاب من ناحية الزمن؛ فإذا أنبأنى منبئ بخبر مضى زمنه، فهذا اختراق لحجاب الزمن الماضى. فالحديث يكون قد وقع منذ فترة بعيدة وصار ماضياً ، فإذا أخبرنى به الآن فهذا يعنى أنه اخترق حجاب الزمن الماضى .

وإذا قال لى عن أمر سيحدث بعد وقت من الآن، فهذا اختراق حجاب الزمن المستقبل .

وهَبْ أنه أخبرك بنبأ معاصر لزمنك الآن، هنا نقول: قد يوجد حجاب المكان؛ فعندما أكون معكم الآن، لا أعرف ما يحدث فى مدينة أخرى غير التى نحن بها رغم أن الزمن واحد.

لذلك فعلينا أن نعرف أن الحجاب مرة يكون حجاب زمان، أى: قد يكون الزمن ماضياً ،أو يكون الزمن مستقبلاً . وقد يكون حجاب مكان، فإذا كان الله تعالى ينبئ رسوله ﷺ بهذا النبأ فوسائل علم رسول الله ﷺ به ثلاث؛ لأن وسيلة العلم بالنبأ إحدى ثلاثة أمور : إما أن أشهد النبأ، هذه هى الوسيلة الأولى، وهذا يشترط أن أوجد فى زمن هذا النبأ ، والنبأ الذى أخبر الله تعالى به رسوله ﷺ حدث من قبل بعث الرسول ﷺ، بما لا يقل عن ستة قرون. إذن. . فالمشاهدة كوسيلة علم بهذا النبأ لا تصلح؛ لأن النبأ حدث فى الماضى.

قد يقول قائل : لعل الرسول ﷺ قد قرأها أو سمعها، ذلك أن هذا التصور يعنى أن وسائل العلم بالنسبة للإنسان ثلاث: مشاهدة، أو سماع، أو قراءة. وبإقرار خصوم النبى محمد ﷺ أنه ليس بقارئ قد امتنعت هذه الوسيلة ؟ وبإقرار خصوم النبىّ ﷺ أنه لم يجلس إلى معلم فهو لم يستمع، إذن لم يبق إلا أن يشاهد، وحتى يشاهد فلابد أن يكون الحدث قد وقع فى زمنه، وهو ليس فى زمنه ؟ إذن فلم يكن من سبيلٍ لمعرفة رسول الله ﷺ بهذا النبأ إلا بالوحى(1).

---

(1) قال صديق خان فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أى أخبار ما غاب عنك، فالإشارة إلى ما سبق من الأمور التى أخبره الله بها ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أى: الأمر والشأن إنا نوحى إليك الغيب ونعلمك به، ونظهرك على قصص من تقدم مع عدم مدارستك لأهل العلم والأخبار، ولذلك أتى بالمضارع فى: ﴿نُوحِيهِ﴾ وهذا أحسن من عوده على ﴿ذَلِكَ﴾. وقال أبو السعود: صيغة الاستقبال للإيذان بأن الوحى لم ينقطع بعد، انتهى.

والوحى فى اللغة الإعلام فى خفاء، يقال: وحى وأوحى بمعنى، قال ابن فارس: الوحى الإشارة والكتابة والرسالة وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى يعلمه.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أى: بحضرتهم يعنى المتنازعين فى تربية مريم، وإنما نفى حضور عندهم مع كونه معلوماً؛ لأنهم أنكروا الوحى، فلو كان ذلك الإنكار صحيحاً لم =

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

إن قول الحق: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾؛ هو دليل على امتناع المشاهدة، فالحق يخبر رسوله ﷺ أنه لم يكن معهم حين كانوا يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، هذا أمر نبأ حدث من قديم الزمن، وأنت بإقرار خصومك لم تجلس إلى معلم، فلم يبق من أسباب العلم إلا أن تشهد ، و«تشهد» تقتضى أن تكون معهم، وحجاب الزمن الماضى يمنع ذلك؛ لذلك فلا وسيلة لمعرفتك بالنبأ إلا أن يكون قد أخبرك من يملك أن يخرق حجاب الزمن الماضى أو الزمن المستقبل ويخرق حجاب المكان وهو الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ : إن الوحى هو إعلام بخفاء؛ لأن الإعلام العادى هو أن يقول إنسان لإنسان خبراً ما ؟ أو يقرأ الإنسان الخبر ، أما الإعلام بخفاء فاسمه «وحى» والوحى يقتضى موحِياً، وهو الله تعالى، وموحى إليه وهو رسول الله ﷺ، وموحى به وهو القرآن الكريم. وإذا نظرنا إلى الإعلام بخفاء -الوحى- لوجدنا له وسائل

= يبق طريق للعلم به إلا المشاهدة والحضور، وهم لا يدعون ذلك، فثبت كونه وحياً مع تسليمهم أنه ليس ممن يقرأ التوراة ولا من يلابس أهلها.

﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ ﴾ فى الماء يقترعون، والأقلام جمع قلم، من قلمه إذا قطعه، والقلم القطع، أى: أقلامهم التى يكتبون بها، وقيل: قداحهم ليعلموا ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ أى: يربى، وذلك عند اختصامهم فى كفالتها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فى كفالتها، فقال زكريا: هو أحق بها لكون خالتها عنده، فاقترعوا وجعلوا أقلامهم فى الماء الجارى على أن من وقف قلمه ولم يجر مع الماء فهو صاحبها، فجرت أقلامهم، ووقف قلم زكريا.

[فتح البيان: ٢/ ٢٣٤ ، ٢٣٥]

كثيرة؛ فإن الله تعالى يوحي، لكن الموحى إليه يختلف، فالله سبحانه وتعالى يوحي للأرض بقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة].

إنه إعلام بخفاء؛ لأن أحداً منا لم يسمع الله وهو يقول للأرض، إذن فهو يوحي للأرض، هنا الموحِي هو الله تعالى لكن الموحى إليه هو الأرض.

ويوحي الحق سبحانه للنحل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

ويوحي أيضاً للملائكة كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]،

ويوحي سبحانه للأنبياء كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهناك وحي من غير الله سبحانه كوحي الشياطين: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

وهناك وحي من الخلق للخلق: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

لكن الوحي إذا أطلق ينصرف إلى الوحي من الله تعالى إلى من اختاره لرسالته، وهو الوحي الاصطلاحي -أي: الشرعي- وما عدا ذلك من أنواع الوحي يسمى: «وحي لغوي».

إذن.. فوحي الله للأرض ليس وحياً اصطلاحياً، ووحي الله للنحل

ليس وحياً اصطلاحيا، ووحى الله لأم موسى ليس وحياً اصطلاحياً ، ووحى الله للحواريين ليس وحياً اصطلاحياً.

إن الحق سبحانه يقول: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

هذا لون من الوحى غير اصطلاحى، إنما هو وحى لغوى أى: أعلمهم بخفاء، لكن الوحى الشرعى أن يُعلم الله من اختار للرسالة ، وهذا هو الوحى الذى جاء الرسول ﷺ .

إذن . .قول الحق: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾؛ فيه إخبار من الحق أن الرسول ﷺ تلقى هذا النبأ بالوحى؛ لم يقرأه ولم يشاهده، يشهد بذلك الأعداء قبل الأتباع.

وهكذا يخبرنا الحق أن الرسول ﷺ لم يكن موجودا مع قوم مريم حين ألقوا أقلامهم. والقلم يطلق على القلم الذى نكتب به، أو يطلق على القداح التى كانوا يقترعون بها إذا اختلفوا على شىء؛ فكانوا عندما يختلفون يحضرون قداحاً ونسميها نحن القرعة، والقرعة يقومون بإجرائها، لإخراج الهوى من قسمة شائعة بين أفراد؛ وذلك حتى لا يميل الهوى إلى هذا أو ذاك مفضلاً له على الآخرين.

إذن. . فلا هوى لأحد فى إجراء قسمة عن طريق القرعة، وبذلك نكون قد تركنا المسألة إلى قدر الله عزّ وجلّ .

وهذه المسألة موجودة فى القرآن وقد سبق الكلام عليها فى قصة نبى الله

يونس عليه السلام فى قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات].

لقد قالوا إن واحداً لابد أن يُلقى فى البحر؛ حتى لا تغرق السفينة كلها وخرجت القرعة باسم نبى الله يونس عليه السلام، وعندما تجرى القرعة على جماعة فلن يقول أحدهم : إنكم تقصدون بى الضرر؛ لأن القرعة مسألة لا دخل فيها لهوى أحد.

ولما اختلف قوم مريم على كفالتها، واختصموا حول من الذى له حق فى أن يكفلها، وأرادوا أن يعزلوا الهوى عن هذه المسألة، وأرادوا أن تكون قدرية؛ لجئوا إلى هذه القرعة، وهم بهذا متأكدون أن الأمر سيجرى وفق قدر الله تعالى.

أما ﴿ أَقْلامَهُمْ ﴾ فقد تكون هى القداح التى يقسمون بها القرعة، أو الأقلام التى كتبوا بها التوراة تبركاً.

ويتساءل البعض ما المقصود بقول الحق: ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ ﴾؟ وأين تم إلقاء هذه الأقلام؟ قيل: إنها ألقيت فى البحر، وإذا ألقيت الأقلام فى البحر فمن الذى يتميز فى ذلك؟ قيل: إنه إذا ظل قلم بسنه إلى أعلى فهو الفائز، أو إذا غرقت كل الأقلام وطفا قلم واحد فصاحبه هو الفائز، أو أذا جرف التيار الأقلام، وبقى واحد فهو الفائز، أو الذى لا يجرفه التيار، لابد أنهم اتفقوا على علامة ما تميز القلم الذى كان لصاحبه فضل كفالة مريم، وهذا التميز قد يكون طفو القلم فيكون هو صاحب الكفالة، أو يكون التميز من نصيب صاحب القلم الذى يظل سنه مرتفعاً .

إذن . لابد أنهم حددوا سمة من السمات التى تحدد الفائز بعيداً عن الهوى .

وقوله : ﴿ **إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾[1] تدل على حرارة كل واحد من القوم شوقاً إلى كفالة مريم ، لدرجة أن أمر كفالتها أصبح مجال خصومة بين القوم، وحتى تنهى الخصومة لجئوا إلى الاقتراع بالأقلام .

(1) قال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ** ﴾ .

فيه قولان : **أحدهما:** أنهم تشاجروا عليها وتنازعوا فيها طلبا لكفالتها ، فقال زكريا : أنا أحق بها لأن خالتها عندى ، وقال القوم : نحن أحق بها لأنها بنت إمامنا وعالمنا ، فاقترعوا عليها بإلقاء أقلامهم وهى القداح مستقبلة لجرية الماء ، فاستقبلت عصا زكريا لجرية الماء مصعدة ، وانحدرت أقلامهم فقرعهم زكريا ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ **وَكَفَّلَهَا** ﴾ وهذا قول ابن عباس ، وعكرمة ، والحسن ، والربيع .

والقول الثانى: أنهم تدافعوا كفالتها لأن زكريا قد كان كفل بها من غير اقتراع ، ثم لحقهم أزمة ضعف بها عن حمل مؤونتها ، فقال للقوم : ليأخذها أحدكم فتدافعوا كفالتها وتمانعوا منها ، فأقرع بينهم وبين نفسه فخرجت القرعة له ، وهذا قول سعيد .

[تفسير الماوردى : ١/ ٣٩٣]

* كفالة زكريا لمريم *

يقول تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

قد عرفنا القبول الحسن والإنبات الحسن، أما قوله تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾(١) فهذا يعنى أن المسألة جاءت من أعلى، إنه الرب الذى تقبلها بقبول حسن وهو سبحانه الذى أنبتها نباتاً حسناً .

(١) قال ابن كثير: يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه أنبتها نباتا حسناً، أى جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا، ويسَّر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين؛ فلهذا قال: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية، أى: جعله كافلا لها. قال ابن إسحاق: وما ذلك إلا أنها كانت يتيمة. وذكر غيره: إن بنى إسرائيل أصابتهم سنة جدب فكفل زكريا مريم لذلك، ولا منافاة بين القولين والله أعلم.

وإنما قدر الله كون زكريا كفلها لسعادتها لتقتبس منه علما جما نافعا وعملا صالحا، ولأنه كان زوج خالتها على ماذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما، وقيل: زوج أختها كما ورد فى الصحيح «فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة»(١)وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضا توسعا ،فعلى هذا كانت فى حضانة خالتها. وقد ثبت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قضى فى عمارة بنت حمزة أن تكون فى حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبى طالب وقال: «الخالة بمنزلة الأم » (٢).

[تفسير ابن كثير: ١/ ٣٤٠]

(١) جزء من حديث الإسراء الطويل أخرجه مسلم [١٦٢/ ٢٥١] عن أنس بن مالك رضى الله عنه بلفظ: «فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا. . .»

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى [٢٦٩٩] عن البراء بن عازب رضى الله عنه.

إذن . . فرعاية زكريا لها بأمر من الله، والدليل على ذلك أنك ساعة تجد قرعة أو سهاماً فالناس تكون قد خرجت من مراداتها المختلفة إلى مراد الله، فعندما نختلف على شيء، فإننا نُجرى قرعة ويُخصص سهم لكل مشترك فيها، ونرى بعد ذلك من الذى يخرج، ذلك لنمنع هوى البشر؛ وهذا ما حدث عند كفالة زكريا لمريم.

ولذلك فالحق سبحانه يقول لرسوله محمد ﷺ : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

إذن . . فالكفالة جرى فيها تنازع، دليل ذلك أنهم اتفقوا على إجراء قرعة بالنسبة لكفالة مريم، ولا يمكن أن يلجئوا الى هذه القرعة إلا إذا كان قد حدث تنازع بينهم عن : ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ ، ومن فضل الله أن زكريا عليه السلام كان متزوجاً من أشياع أخت حنة التى هى أم مريم، فهو زوج خالتها.

وقوله: ﴿ أَقْلامَهُمْ ﴾ ذكرنا من قبل أنه قيل: إنها القداح التى كانوا يصنعونها قديماً ، أو : الأقلام التى كتبوا بها التوراة؛ فرموها فى البحر، فمن طفا قلمه فاز بكفالة مريم ،ومن غرق قلمه فى البحر لم يفز بكفالة مريم.

إذن . . فهم قد خرجوا عن مراداتهم إلى مراد الله سبحانه، والخروج عن المرادات والخروج عن الأهواء كالقرعة مثلا لا يُوجِد فى النفس غضاضة، لكن لو كان سيأخذ رعاية مريم بالقوة والغصب، لكانت نفوس الآخرين ممتلئة بالمرارة أو الغضب، ولذلك فقد كان سائداً فى ذلك العصر عملية إجراء السهام إذا ما خافوا أن يقع الظلم على أحد أو أن يُساء الظن بأحد.

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ :يرشدنا إلى أن زكريا عليه السلام هو الذى كان يقوم برعاية شئون مريم.

وقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾؛ إنه

لم يدخل عليها مرة واحدة، بل كان زكريا عليه السلام كلما دخل على مريم وجد عندها الرزق. وقول الحق : ﴿ كُلَّمَا ﴾ تفيد أن مرّات دخول زكريا عليه السلام متعددة، وتكرار دخول زكريا تعنى وجود الرزق فى كل مرة يدخل فيها على مريم، وعندما يجد زكريا عندها الرزق وهو أول المطلوبات من الكفيل، ولقد كان المفروض أن يجىء هو بالرزق، ولذلك فلابد أنه قد وجد عندها من الرزق غير ما كان يأتى به ولذلك قال لمريم : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ ؟

وساعة تسمع ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾، فهذا يدل على أنه قام بعمل محابس على المكان الذى توجد فيه مريم، وإلا لظن أن هناك أحداً قد دخل على مريم، وكما يقولون فإن زكريا كان يُغلق على مريم الأبواب، وإلا لو كانت الأبواب غير مغلقة، لظن أن هناك من دخل وأحضر لها هذا الرزق.

وقول زكريا عليه السلام لمريم: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾، يوجب على كل إنسان وكّله الله تعالى على جماعة، ورأى عندهم ما هو فوق حدود الدخل؛ فلابد أن يسأل: من أين هذا ؟ ذلك أن فساد البيوت إنما يأتى من عدم الاهتمام بالسؤال وضرورة الحصول على إجابة على السؤال المحدد : من أين لك هذا ؟ إن الذى يدخل بيته ويجد ابنته ترتدى فستاناً مرتفع الثمن ويفوق طاقة الأسرة، أو يجد ابنه قد اشترى شيئاً ما ليس فى طاقة الأسرة أن تشتريه، أو وجد فى بيته شيئاً لم يحضره، هنا يجب أن يتوقف الأب أو الولى ليسأل: من أين لكم هذا ؟ إن فى ذلك حماية لأخلاق الأسرة من

الانهيار والتحلل، فلو فطن كل واحد أن يسأل أهله ومن يدخلون فى كفالته من أين لك هذا ؟ لعرف كل تفاصيل حركتهم، لكن لو ترك الحبل على الغارب لفسد الأمر.

وقول زكريا عليه السلام :من أين لك هذا، هو سؤال عن مصدر هـذا الرزق فلننظر إلى إجابتها: ﴿ **قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾(١).

هذه المسألة أثارت فى نفس زكريا نوازع شتى، إنها مسألة غير عادية لقد أخبرته مريم أن الرزق الذى عندها هو من عند الله سبحانه الذى يرزق من يشاء بغير حساب؛ إنه الإله القادر على أن يقول: كن فيكون.

لقد ذكَّر زكريا نفسه، وكأنه قال لنفسه إذا كان إذا كان الله تعالى يفعل بلا أسباب ويعطى من غير حساب، فأنا أريد ولداً يخلفنى رغم كبر سنى وامرأتى العاقر.

---

(١) قال البقاعى: ولما كان من شأن الكفيل القيام بما يعجز عنه المكفول؛ بيَّن سبحانه وتعالى أن تلك الكفالة إنما كانت جريا على العوائد، وأنه تبين أن تقبل الله لها أغناها عن سواه؛ فقال فى جواب من لعله يقول: مافعل فى كفالتها: ﴿ **كُلَّمَا** ﴾ أى: كان كلما ﴿ **دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ** ﴾ أى: موضع العبادة. وقال الحرالى: هو صدر البيت ومقدمه الذى لايكاد يوصل إليه إلا بفضل منه وقوة وجهد حرب. ﴿ **وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا** ﴾ وذلك كما وجد عند خبيب بن عدى الأنصارى رضى الله تعالى عنه العنب(١). ومثل ذلك كثير فى هـذه الأمـة، وفى هذه العبارة أى من أولها إلاحة لمعنى حسن كفالته، وأنه كان يتفقدها عند تقدير حاجتها إلى الطعام بما تفيده كلمة ﴿ **كُلَّمَا** ﴾ من التكرار، فيجد الكفيل الحق قد عاجلها برزق من غيب بما هو سبحانه وتعالى المتولى لإنباتها؛ ليكون نباتها من غيب رزقه، فتصلح لنفخ روحه ومستودع كلمته، ولا يلحقها بعد الإعادة ما فيه مس من الشيطان الرجيم الذى أعاذها الله سبحانه وتعالى منه بكثرة الاختلاط فى موجودات الأرزاق، فكان من حفظها أن تولى =

---

(١) القصة ضمن حديث طويل فى البخارى[٤٠٨٦]عن أبى هريرة رضى الله تعالى

إن مسألة الرزق الذى وجده زكريا كلما دخل على مريم، هى التى نبهت زكريا إلى ما يتمنى ويرغب. فالمعلومات التى تمر على خاطر النفس البشرية كثيرة، ولكن لا يستقر فى بؤرة الشعور إلا الذى يصر عليه الإنسان. إن هناك فرقاً بين معلومات توجد فى بؤرة الشعور، ومعلومات فى حاشية الشعور يتم استدعاؤها عند اللزوم.

= الله سبحانه وتعالى أرزاقها من غيب إلا ما يطيبه من باد، وليكون حسن نباتها من أحسن رزق الله سبحانه وتعالى، كما يقال: «من غذى بطعام قوم غذى بقلوبهم ومن غذى بقلوبهم آل إلى منقلبهم». وكانت هى مثل ماكفلها كافلها ظاهراً كفلته باطناً حين أبدى الله سبحانه وتعالى له من أمره ما لم يكن قبل بدا له، فكان لمريم عليها الصلاة والسلام توطئة فى رزقها لما يكون كماله فى حملها، فيكون رزقها بالكلمة ابتداء؛ ليكون حملها بالكلمة، فعند ذلك طلب زكريا عليه السلام نحو ما عاين لها من أن يرزقه الولد فى غير إبّانه كما رزق مريم الرزق فى غير أوانه. وفى تعيين محلها بالمحراب ما يليح معنى ما ذكر من رجوليتها باطنا من حيث أن محل النساء أن يتأخرن، فأبدى الله سبحانه وتعالى فى محلها ذكر المحراب إشارة بكمالها.

والمحراب : صدر البيت المتخذ للعبادة، وفى لزومها لمحرابها فى وقت تناول الرزق إعلام بأن الحبيس والمعتكف بيته محرابه ومحرابه بيته، بخلاف من له متسع فى الأرض ومحل من غير بيت الله سبحانه، إنما المساجد بيوت أهل الله المنقطعين إليه، فهو فى صلاتهم ومحلهم فى تناول أرزاقهم، ففيه إشعار بحضورها، وحضور أهل العكوف حضور سواء فى صلاتهم وطعامهم، ولذلك أنمى حال العبد عند ربه بما هو عليه فى حال تناول طعامه وشرابه، فأهل الله تعالى سواء محياهم ومماتهم وأكلهم وصلاتهم، من غفل عند طعامه قلبه لم يستطع أن يحضر فى صلاته قلبه، ومن حضرعند طعامه قلبه لم يغب فى صلاته قلبه، وفى ذكر الرزق شائعا إشعار بأنها أنواع من أرزاق من حيث أنه لو اختص يخص به ما هو أخص من هذا الاسم. انتهى.

ولما كان كأنه قيل: فما كان يقول لها إذا رأى ذلك؟ قيل: كان كلما وجد ذلك، أو: لما تكرر وجدانه لذلك ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى﴾ أى من أين ﴿لَكِ هَذَا﴾ قال الحرالى: كلمة﴿أَنَّى﴾ تشعر باستغرابه وجود ذلك الرزق من وجوه مختلفة: من جهة الزمان أنه ليس زمانه، ومن جهة المكان أنه ليس مكانه، ومن جهة الكيف ووصوله إليها أنه ليس حاله، وفى ذكر الضمير فى قوله:﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ إيذان بنظرها إلى =

. . . .

= مجموع حقيقة ذلك الرزق لا إلى أعيانه، فهو إنباء عن رؤية قلب، لا عن نظر عين لأن ﴿هُوَ﴾ كلمة إضمار جامعة لكل ما تفصلت صوره مما اتحد مضمره، ولما لم يكن من معهود ما أظهرته حكمته سبحانه مما يجريه على معالجات أيدي الخلق قالت ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ذى الجلال والإكرام؛ لأن ماخرج من معهود معالجة الحكمة فهو من عنده، وما كان مستغربا فيما هو من عنده فهو من لدنه، فهى ثلاث رتب: رتبةلدنية، ورتبة عندية، ورتبة حكمية عادية؛ فكان هذا من وسط الثلاث.

[نظم الدر: ٤/٣٥٨-٣٦١]

* دعاء زكريا *

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

كلمة: ﴿هُنَالِكَ﴾ تعنى فى ذلك الوقت وذلك الزمان والمكان، فالزمان والمكان هما ظرفا الحدث، فإن كان الزمان هو الغالب يأتى ظرف الزمان، وإن كان المكان هو الغالب يأتى ظرف المكان.

﴿هُنَالِكَ﴾(١) ،أى فى ذلك الوقت الذى قالت فيه مريم قولها لفتت زكريا لفتة إيمانية،ذلك أن زكريا هو الذى كان يكفل مريم،أى: يُحضر لها ما تحتاج إليه، أما هى فلا تملك شيئًا،ليس لها حركة سعى فى الحياة لتأتيها بأى شىء تريده، بل هى عابدة متعبدة وكل ما تحتاج إليه من طعام وشراب يأتيها به زكريا.

ولكن زكريا عليه السلام دخل على مريم المحراب حيث هى متفرغة للعبادة فوجد عندها رزقا لم يأت به هو بدليل أنه سألها قائلا : ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ ؟! [آل عمران: ٣٧].

(١) قال الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب، أو فى ذلك الوقت، فقد يستعار هنا وثم حيث للزمان لما رأى حال مريم فى كرامتها على الله تعالى ومنزلتها، رغب فى أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أختها حنة فى النجابة والكرامة على الله تعالى، وإن كانت عاقراً عجوزاً، فقد كانت أختها كذلك، وقيل: لما رأى الفاكهة فى غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر﴿ ذُرِّيَّةً﴾ ولدا،والذرية يقع على الواحد والجميع ﴿سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيبه.
[الكشاف: ١/ ١٨٨]

ولو أنه لم يجد عندها إلا الرزق الذى اعتاد أن يأتيها به لما سأل هذا السؤال. فإذا كان قد جاء بأشياء لمريم ثم وجدها عندها، أيسألها من أين لك هذا وهو الذى أحضرها ؟! لابد أنه وجد عندها رزقاً لم يأت به؛ فقال: أنا لم أحضر هذا فمن أين أتيت به ؟ !

هذه هى يقظة الكفيل التى تتطلب منه أن يسأل من أين هذا ؟!

وفى الحياة العامة حين نرى إنساناً فى المجتمع تظهر عليه مظاهر الثراء بما لا يتناسب مع حركة حياته، لابد أن نسأله من أين لك هذا ؟ هذا هو ميزان الحقيقة حتى لا يختلس أحد ولا ينحرف، ولو أن كلا منا طبَّقه فى بيته وفى عمله، والدولة طبقته على رعاياها، ما وُجد انحراف قط.

وعندما دخل زكريا المحراب على مريم قال لها: ﴿ **يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾.

هكذا عللت مريم أسباب وجود هذه الأشياء عندها بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب، وهذا التعليل رد على تساؤلين هامين:

الأول: وجود أشياء لم يأت بها زكريا.

والثانى: وجود أشياء مخالفة لفترة الزمن التى هم فيها.

فعندها مثلا العنب فى غير زمن العنب، والتفاح فى غير زمن التفاح، والبرتقال فى غير زمن البرتقال. أشياء هى من عند الله، وما دامت من عند الله فلا تقل: كيف أو لماذا ؟ لأن الله سبحانه لا تحكمه الأسباب، بل هو خالق الأسباب، وإذا كانت من عند مساوٍ لك فاسأل، ولكنها من عند الذى يرزق من يشاء بغير حساب[1].

---

(١) قال ابن جماعة فى قوله تعالى: ﴿ رِزْقًا ﴾ هو فاكهة الصيف فى الشتاء، وفاكهة الشتاء فى الصيف. [غرر التبيان: ٢٢٥]

هنا تنبه زكريا عليه السلام إلى قضية كانت غائبة عن بؤرة شعوره فى هذا الوقت: ما دام الله يرزق من يشاء بغير حساب، فلماذا لا أسأله الولد؟ لقد بلغ زكريا الكبر وامرأته عاقر، إذن امتنعت أسباب مجيء الولد، ولكن الله يعطى بدون حساب، فليس ضرورياً أن يكون زكريا شاباً أو تكون امرأته غير عاقر حتى يعطيه الله الولد.

﴿**هُنَالِكَ**﴾ أى: فى ذلك الوقت دعا ربَّه: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ أى: قال يا رب ما دمت ترزق بغير حساب، وتعطى بلا أسباب فأعطنى الولد.

فلما استجاب الله سبحانه وتعالى له وبُشِّر بالغلام، تذكر زكريا قانون الأسباب، فقال: ﴿**رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**﴾ [مريم:٨] وكأنما يريد زكريا الاستئناس على طريقة: ﴿**بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ [البقرة:٢٦٠] وكان الجواب: ﴿**قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا**﴾ [مريم: ٩]. أى أن الله تعالى لا يُسأل عمَّا يفعل، وما دام قد قال: كن، فلا بد أن يكون.

ثم أراد الله جل جلاله- رفقاً بعقل زكريا -أن يلفته إلى قضية كونية محسوسة تقرب له المعنى، فأعطاه القضية فى نفسه: إنك لم تكن شيئاً يا زكريا ومع ذلك أوجدك الله ووهبك الحياة.

على أن القضية بالنسبة لمريم كانت حصانة ستتمتع بها عندما يهبها الله تعالى ابناً دون أن يمسسها بشر، فمادام الله يرزق بلا حساب، وهى ترى هذا كل يوم فى محرابها، يأتيها الرزق دون الأسباب المعروفه للبشر، والمعروف أنه لا يوجد تناسل إلا من ذكر وأنثى، ولكن الله تعالى قدر لها أن تلد بدون ذكر، فيأتى لها بهذه المقدمة ويؤكدها لها كل يوم، حتى ترى يقيناً أنه سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب.

ثم بعد ذلك يطبقها زكريا على نفسه فيرزَق بغلام والأسباب معطلة، حينئذ تكون مريم قد عرفت طلاقة القدرة، ولكن مع ذلك هزَّها ما حدث فعندما قالت لها الملائكة: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. ارتجَّت مريم عليها السلام،.. لماذا؟ لو أن الله قال لها إن الله يبشرك بغلام ما ارتجَّت؛ لأنها في هذه الحالة كانت ستعتقد أنها ستتزوج وتنجب غلاماً كباقي النساء، ولكن قوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، ومن نسبة عيسى إلى أمه عرفت أنه سيأتي من غير أب(١).

واقرأ قول الحق جل جلاله: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

قالت هذا الكلام؛ لأن عيسى نُسب إليها وليس إلى أبيه، فلفتها الله إلى القضية الأولى؛ لقد قلت يا مريم وعرفت أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ولم يخبرها الحق سبحانه وتعالى عن الكيفية، ولكنه قال تبارك وتعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٢).

أي أن الله سبحانه وتعالى كما أنه قادر على أن يرزق من يشاء بغير حساب، فهو جل جلاله قادر على أن يخلق ما يشاء بغير أسباب.

---

(١) قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ تجوز بالكلمة عن المسيح؛ لكونه تكوَّن بها من غير أب بدليل قوله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ولا تتصف الكلمة بذلك.

وأما قوله: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ فإن الضمير فيه عائد إلى مدلول الكلمة، والمراد بالاسم المسمى، فالمعنى المسمى المبشر به المسيح بن مريم. [بدائع التفسير: ١/٤٩٩]

(٢) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله =

. . . .

= وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ماكان من العمل». أخرجه البخارى [٣٤٣٥] واللفظ له، ومسلم [٢٨].

وقال النووى: هذا حديث عظيم الموقع، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها؛ فاختصر ﷺ فى هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم، وسمى عيسى عليه السلام كلمة ؛لأنه كان بكلمة: «كن» فحسب من غير أب، بخلاف غيره من بنى آدم. قال الهروى: سمى كلمة لأنه كان عن الكلمة فسمى بها، كما يقال للمطر: رحمة. قال الهروى: وقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، أى رحمة. قال: وقال ابن عرفة: أى ليس من أب إنما نفخ فى أمه الروح، وقال غيره: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أى مخلوقة من عنده، وعلى هذا يكون إضافتها إليه إضافة تشريف كناقة الله وبيت الله، وإلا فالعالم له سبحانه وتعالى ومن عنده. والله أعلم.

[شرح النووى على مسلم: ١/٢٦٣]

* اصطفاء مريم على نساء العالمين *

يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾(1)[آل عمران: ٤٢].

﴿ الْمَلائِكَةُ ﴾ ، قيل : إن المراد بالملائكة جبريل عليه السلام. وعلّة أن الحق سبحانه يورد ذلك بقوله: ﴿ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ ﴾ ؛ لأن كلام المتكلم له زاوية انطلاق يأتي من جهتها الصوت، وتستطيع أن نتأكد من ذلك إذا سمعت صوتاً ، فإنك تجد ميلَ أذنك لجهة مصدر الصوت، فإن جاء الصوت من ناحية أذنك اليمنى فأنت تلتفت وتميل إلى يمينك، وإذا جاءك الصوت من شمالك تلتفت إلى الشمال، لكن المتكلم هنا هو الملائكة يتكلمون بنفس واحد؛ لذلك فالصوت قد جاء مريم من كل جهة حتى يصير الأمر عجيباً.

---

(1) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» .

أخرجه البخارى [٣٨١٥]، ومسلم [٢٤٣٠] واللفظ له.

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

أخرجه البخارى [٣٧٦٩] واللفظ له، ومسلم [٢٤٣١].

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمد، وآسية امرأة فرعون». أخرجه أحمد فى المسند [٣/ ١٣٥]، والترمذى [٣٨٧٨] وقال: حديث صحيح، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٣٠٥٣]، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه [٧٠٠٣] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

ماذا قالت الملائكة ؟ قالت: ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾.

إذن.. نحن هنا أمام اصطفائين:

في الاصطفاء الأول لم يقل: ﴿عَلَى﴾، في الاصطفاء الثاني قال: ﴿عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾(1)، فإذا قال فلان: أنا اصطفيت فلاناً، فلا مانع

(1) قال أبو حيان وظاهر قوله تعالى: ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ أنه جمع من الملائكة. وقيل: المراد جبريل ومن معه من الملائكة؛ لأنه نُقل أنه لا ينزل لأمر إلا ومعه جماعة من الملائكة. وقيل: جبريل وحده.

وقوله تعالى: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: كُرر على سبيل التوكيد والمبالغة. وقيل: لا توكيد إذ المراد بالاصطفاء الأول اصطفاء الولاية، وبالثاني اصطفاء ولادة عيسى؛ لأنها بولادته حصل لها زيادة اصطفاء وعلو منزلة على الأكفاء. وقيل: الاصطفاء الأول: اختيار وعموم يدخل فيه صوالح من النساء. والثاني: اصطفاء على نساء العالمين.

وقيل: لما أطلق الاصطفاء الأول بيَّن بالثاني أنها مصطفاة على النساء دون الرجال. وقال الزمخشري: اصطفاك أولا حين تقبلك من أمك ورباك، واختصك بالكرامة السنية، وطهرك مما يستقذر من الأفعال، ومما قذفك به اليهود، واصطفاك آخراً على نساء العالمين بأن وهب لك عيسى من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء(1). انتهى.

وهو كلام حسن، ويكون: ﴿ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ على قوله عاما، ويكون الأمر الذي اصطفيت به من أجله هو اختصاصها بولادة عيسى. وقيل: هو خدمة البيت. وقيل: التحرير ولم تحرر أنثى غير مريم. وقيل: سلامتها من نخس الشيطان. وقيل: نبوتها، فإنه قيل إنها نبئت، وكانت الملائكة تظهر لها وتخاطبها برسالة الله لها، وكان زكريا يسمع ذلك، فيقول: إن لمريم لشأناً. والجمهور على أنه لم ينبأ امرأة، فالمعنى الذي اصطفيت لأجله مريم على نساء العالمين هو شيء يخصها، فهو اصطفاء خاص إذ سببه خاص. وقيل: نساء العالمين، خاص بنساء عالم زمانها، فيكون الاصطفاء إذ ذاك عاما، قاله ابن جريج. [البحر المحيط: ٣/ ١٤٦، ١٤٧] بتصرف.

(1) انظر [الكشاف: ١/ ١٨٩]

من أن يصطفى معه آخر. ولكن أن يقول اصطفيت فلاناً على الناس، فذلك معناه اصطفاؤه فوق كل الناس وبمفرده. فكأن الاصطفاء إذا كان مجردا من ﴿عَلَى﴾ لا يمنع أن يكون هناك غيره مصطفى أيضاً، بدليل أن الحق سبحانه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

إذن . . فحين يقول الحق سبحانه أنه «اصطفى» فقط ولا يقول اصطفى على كذا؛ فهذا معناه أنه اصطفى هـذا وذاك. ووجود اصطفاء لواحد لا يمنع اصطفاء غيره، لكن حين يقول الحق سبحانه أنه «اصطفى على» فهذا معناه أنه لن يشرك أحداً فى هذا الاصطفاء، فإذا قال واحد: اصطفيتك على الجالسين هنا ،فهذا معناه أن أحداً لن يشارك هذا المصطفى.

وهنا فى هذه الآية نجد أن الحق سبحانه لم يورد ﴿عَلَى﴾ فى الاصطفاء الأول، وأورد بعده أنه طهّرها، ثم أورد فى الاصطفاء الثانى: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ .

إذن . . لابد لنا أن نعلم ما هو الاصطفاء ؟ الاصطفاء: اختيار واجتباء مأخوذ من الصفو، والصفو أو الصافى: هو الشيء الخالص من الكدر[1]، لذلك يكون قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أى : اختارك واجتباك . . بماذا ؟ بالإيمان والصلاح والخلق الطيب، كل ذلك بالمعانى، ولم يورد فى الاصطفاء الأول على من يكون الاصطفاء.

ولكن فى الاصطفاء الثانى قال الحق: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ .

إذن . . فهذا خروج للرجال عن دائرة الاصطفاء ، إنه ليس موضوع

---

(١) صفوة كل شيء: خالصه من صفوة المال، وصفوة الإخاء. واستصفيت الشيء : إذا استخلصته. واستصفى الشيء واصطفاه: اختاره. والاصطفاء: الاختيار، افتعال من الصَّفْوة. [لسان العرب: ١٤/ ٤٦٢ ، ٤٦٣]

رجال ،وإنما هي مصطفاة على نساء العالمين؛ إذ لا توجد أنثى فى العالمين تشاركها فى هذا. لماذا ؟ لأنها هي الوحيدة التى ستلد من دون ذكر، وهذه مسألة لن يشاركها فيها أحد.

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾؛ هذا القول يجب أن يثير فى نفسها سؤالاً هو :ما الذى تمتاز به على نساء العالمين ؟ ولنستحضر هنا قول الحق عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]. نجد أن هذه كلها إيناسات للحدث الذى سيأتى بعد ذلك، وهو حدث يتعلق بعرضها وعفافها، فلابد أن يمهد الله له تمهيداً؛ حتى تتأكد من أن هذه المسألة ليس فيها شيء يخدش العرض أو يخدش الكرامة: ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾.

ولنا أن نسأل ما نتيجة الاصطفاء ؟ لقد عرفنا أن الاصطفاء هو الاجتباء والاختيار. «المصطفَى» بفتح الفاء يقتضى«المصطفِى» بكسر الفاء. والمصطفِى هو الله تعالى، ومن الذى اصطُفى ؟ إنها من وقع عليها الاصطفاء، ولكن ما علة الاصطفاء؟ لنر هذا الأمر. إن الذى يصطفيه الله يصطفيه لمهمة، وتكون مهمة صعبة.

إذن . .هو يصطفيه حتى يشيع اصطفاؤه فى الناس، كأن الله قد خصه بالاصطفاء من أجل الناس ومصلحتهم، ولذلك إذا اصطفى الله مكاناً أو اصطفى زماناً أو اصطفى إنساناً ،فلنعلم أن اصطفاء الله للمكان يشيع صفاؤه فى كل مكان. لقد اصطفى الله الكعبة، من أجل ماذا ؟ حتى يتجه كل إنسان إلى الكعبة. إذن فقد اصطفاها من أجل البشر؛ ولذلك قال الحق عن الكعبة: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾.

وإذا اصطفى الحق سبحانه زماناً كاصطفائه لشهر رمضان، فلماذا

اصطفاه؟ ليشيع صفاؤه وصفاء ما أُنزل فيه فى كل زمان.

إذن.. لمصلحة المصطفَى عليهم يكون اختيار الحق سبحانه للمصطفَى، لماذا ؟ لأن أحداً من الخلق ليس ابناً لله تعالى، وليس هناك مكان أولى بمكان من الله تعالى، ولكن الله تعالى يصطفى زماناً على زمان ومكاناً على مكان، وإنساناً على إنسان ليشيع اصطفاء المصطفى فى كل ما اصطفى عليه.

إذن ..فهل يجب على الناس أن يفرحوا بالمصطفى أم لا يفرحوا به ؟ إن عليهم أن يفرحوا به؛ لأنه جاء لمصلحتهم.

وبعد ذلك يقول الحق جل وعلا: ﴿ **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾ [آل عمران: ٤٣].

فكأن ما تقدم من حيثيات الاصطفاء الأول والاصطفاء الثانى، يستحق منها القنوت، أى: العبادة الخالصة الخاضعة الخاشعة. وقد يقول قائل: ولماذا يصطفى الله تعالى واحداً ليشيع اصطفاؤه فى الناس ؟ لأن الحقَّ سبحانه يريده نموذجاً لا يقع منه إلا الخير. والمدة التى علمنا فيها الرسول محمد ﷺ ثلاث وعشرون سنة لماذا ؟ حتى يربى الإنسان المؤمن ويعلمه. أكان عسيراً على الله تعالى أن يختصر لرسوله محمد ﷺ هذه المدة ؟ لا، إن الله سبحانه هو القادر على أن يحكم مايريد ويفعل مايشاء فى التو واللحظة فأمره سبحانه بين الكاف والنون، إذا قال لشىء كن فيكون. ولكن الله عز وجل اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن يجعل الأمر على ما كان عليه، لسابق علمه تعالى أن هذا فى صالح المؤمنين.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ** ﴾ إنه أمر بالعبادة الخاشعة المستديمة لربها، وكلمة: ﴿ **لِرَبِّكِ** ﴾ أى: لخالقك الذى رباك؛ فكأن الاصطفاءات نِعَمٌ على مريم، تستحق منها القنوت.

وقوله تعالى: ﴿ وَاسْجُدِى﴾ أى: بالغى فى الخشوع والخضوع بوضع الجبهة التى هى أشرف شىء فى الإنسان على الأرض؛ لأن السجود هو أعلى مرتبة فى الخضوع ،لكن هل هذا اللون من الخضوع يعفيها مما يكون مع الناس؟ لا . . إنه الأمر الحق يصدر لمريم: ﴿وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ .

فليس فى فعلك السجود وهو القمة فى الخضوع إعفاءٌ من فعل الركوع، بل عليك أنْ تركعى مع الراكعين، أى: كونى معهم راكعة، فلا يحق لك يا مريم أن تقولى لقد أمرنى الله بالسجود الذى هو قمة الخضوع والخشوع. إن الحق يأمرها أن تكون أيضاً ضمن ركب الراكعين،وأن تكون فى ركاب أهل الإيمان، مثلما تقرأ قول الحق سبحانه فى الكفار :﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)﴾ [المدثر].

إنهم كفار فكيف يصلون ؟ إنه اعتراف منهم بأنهم كفار لم يكونوا مع من يصلى لله رب العالمين.

أما لماذا قال الحق سبحانه وتعالى فى خطابه لمريم : ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (١) [آل عمران:٤٣] . ولم يقل الحق

(١) قال ابن القيم فى قوله تعالى:﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ فقد أبعد النجعة فيما تعسفه من فائدة التقديم وأتى بما ينبو اللفظ عنه. وقال غيره: السجود كان فى دينهم قبل الركوع، وهذا قائل ما لا علم له به.
والذى يظهر فى الآية، والله أعلم بمراده من كلامه: أنها اشتملت على مطلق العبادة وتفصيلها، فذكر الأعم، ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولاً وهو الطاعة الدائمة، فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة، ثم ذكر ما هو أخص منه وهو السجود الذى يشرع وحده كسجود الشكر، والتلاوة ويشرع فى الصلاة فهو أخص من مطلق القنوت، ثم ذكر الركوع الذى لا يشرع إلا فى الصلاة، فلا يسن الإتيان به منفردًا؛فهو أخص مما قبله، ففائدة الترتيب النزول من الأعم إلى الأخص إلى أخص منه،وهما طريقتان معروفتان فى الكلام النزول من =

مع الراكعات)؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال نحب أن نمهّد تمهيداً بسيطا على فلسفة الأسماء فى وضعها على مسمَّياتها، والأسماء ألفاظ من اللغة تعيّن مسمّاها، والمسمَّيات مختلفة؛ فمنها الجماد، ومنها النبات، ومنها الحيوان ، ومنها الأسماء التى تدل على عالم الغيب كالجن والملائكة. . . إلخ. هذه الأسماء تدل على معانيها، وهدى اللهُ سبحانه البشرَ إليها بما علم آدم من الأسماء(١)؛ لأن الحق لو لم يعلّم آدم الأسماء فكيف كان باستطاعة آدم معرفة الأسماء، وكيف كان باستطاعته التعبير عن معطيات الأسماء بمسمياتها؟

إذن. . لابد أن يوجد لكل شىء اسم حتى نستطيع حين نتفاهم على الاسم أن نذكر لفظاً واحداً موجزاً، ولو لم يذكر هذا فكيف كان باستطاعة إنسان أن يتكلم مع إنسان آخر عن الجبل مثلاً، أكان على المتكلم أن يأخذ السامع إلى الجبل ويشير إلى الجبل؟ أم يكفى أن يقول له لفظ «جبل» حين يستحضر السامع فى ذهنه صورة لهذا المسمى.

إذن . . ففلسفة تعليم الحق سبحانه للأسماء لنا أزاحت عنا عبئاً كبيراً من صعوبة التفاهم ، ولولا ذلك لما استطعنا أن نتفاهم على شىء إلا إذا واجهنا الشىء وأشرنا إليه.

إذن. . فكلمة «جبل»، وكلمة «صخر» وغيرها من الكلمات هى أسماء لمسميات ، وعندما أتكلم على سبيل المثال عن أمريكا، فإننى لن آخذ السامع إليها وأشير إليه أن هذه هى أمريكا، لكن كلمة واحدة هى «أمريكا»

= الأعم إلى الأخص وعكسها ، وهو الترقي من الأخص إلى ما هو أعم منه إلى ما هو أعم، ونظيرها : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ**﴾[الحج:٧٧] ، فذكر أربعة أشياء أخصها الركوع، ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله.

[بدائع التفسير: ١/٤٩٨ ، ٤٩٩]

تعطى السامع معنى للمسمَّى، فنلحق الأحكام على مسمياتها، وما دامت المسألة هكذا ، فلابد من وجود أسماء لمسميات، هذه الأسماء علّمها الله للإنسان لكى يتفاهم بها.

والإنسان أصله من آدم، وكلمة آدم مذكرة، والمذكر يقابله المؤنث، لقد خلق الحق سبحانه الذكورة والأنوثة؛ لأن من تزاوجهما سيخرج النسل. إذن.. كان لابد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد، فالذكر والأنثى هما بنو آدم ومنهما ينشأ التكاثر.

والعجيب أن الله تعالى حين سمّى «آدم» نطقناه اسماً مذكراً، وسمّى «حواء» نطقناه اسماً مؤنثاً، جعل سبحانه وتعالى الأصل الذى وُجدَ منه الخلق هو ﴿ نَّفْس ﴾؛ فقال عز من قائل: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾** [النساء: ١].

لقد سمى الحق سبحانه الأصل الذى وجد منه آدم بكلمة ﴿ نَّفْسٍ ﴾ وهى مؤنثة. إذن فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير، ولكن التذكير هو فقط علامة لتضع الأشياء فى مسمياتها الحقيقية.

وفى آية أخرى قال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾** [الحجرات: ١٣].

وكلمة: ﴿ النَّاسُ ﴾ تعنى مجموع الإنسان، وهكذا نعرف أن كلمة ﴿ نَّفْسٍ ﴾ تطلق على المذكر وعلى المؤنث.

إذن . . فالحق سبحانه قد أورد مرة لفظاً مذكراً ومرة أخرى أطلق لفظاً مؤنثاً، وذلك حتى لا نقول: إن المذكر أحسن من المؤنث، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط، ولذلك يؤكد لنا الحق سبحانه أنه وضع الأسماء لنتعارف بها؛ ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ .

ومعنى: ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ أى: أن يكون لكل منا اسم يعرف به الآخر. وفى حياتنا العادية مثلاً نجد رجلاً عنده أولاد كثيرون، لذلك يطلق على كل ابن اسماً ليُعرف به.

عندما نتأمل هذه الآية الكريمة: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾؛ فإننا نجد كلمة ﴿ شُعُوبًا ﴾ مذكرة، وكلمة ﴿ وَقَبَائِلَ ﴾ مؤنثة.

إذن. . فلا تمايز بالأحسن ولكن الكلمات هنا مسميات للتعارف(١).

---

(١) قال الشوكانى: قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ هما آدم وحواء، والمقصود أنهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد، وكونه يجمعهم أب واحد وأم واحدة، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب. وقيل: المعنى: إن كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين، وهى الحى العظيم، مثل مضر وربيعة، والقبائل دونها كبنى بكر من ربيعة، وبنى تميم من مضر. قال الواحدى: هذا قول جماعة من المفسرين، سموا شعباً؛ لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة، والشعب من أسماء الأضداد. يقال: شعبته: إذا جمعته، وشعبته: إذا فرقته، ومنه سميت المنية شعوباً؛ لأنها مفرقة. فأما الشِّعب بالكسر: فهو الطريق فى الجبل، قال الجوهرى: الشعب: ما تشعب من قبائل العرب والعجم، والجمع الشعوب، وقال مجاهد: الشعوب: البعيد من النسب، والقبائل دون ذلك. وقال قتادة: الشعوب: النسب الأقرب. وقيل: إن الشعوب: عرب اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان. وقيل: الشعوب: بطون العجم، والقبائل: بطون العرب. وحكى أبو عبيد أن الشعب: أكثر من القبيلة، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، ثم العشيرة.

﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ اللام متعلقة بخلقناكم، أى: خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً، =

والحق جل وعلا يقول: ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾ [العصر].

إذن.. فما وضع اللائى آمنَّ ؟ إنهن يدخلن ضمن ﴿ الذين آمنوا ﴾، ولماذا أدخل الله المؤنث فى المذكر ؟ لأن المذكر هو الأصل، والمؤنث جاء فرعا منه. اذن فالمؤنث يدخل مع المذكر فى الأمور المشتركة بين جنسيهما: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

وهذا يعنى أن المؤنث عليه أن يدخل فى تكليف العبودية لله تعالى، والمعنى العام يحدد أن المطلوب منه العبادة هو الإنسان كجنس، وبنوعيه الذكر والأنثى.

وفى الأمر الخاص بالمرأة يحدّد الله المرأة بذاتيتها، فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]

لماذا ؟ إن المسألة هنا تشمل النوعين من الجنس الواحد؛ الرجل والمرأة،

= وقرأ ابن عباس: «لتعرفوا» مضارع عرف. والفائدة فى التعارف: أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه ولا يعترى إلى غيره. والمقصود من هذا: أن الله سبحانه خلقهم كذلك لهذه الفائدة، لا للتفاخر بأنسابهم، ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب، وهذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة، وهذا البطن أشرف من هذا البطن، ثم علل سبحانه ما يدل عليه الكلام من النهى عن التفاخر فقال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ أى: إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى، فمن تلبس بها فهو المستحق لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها وأشرف وأفضل، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب، فإن ذلك لا يوجب كرماً، ولا يثبت شرفا، ولا يقتضى فضلا.

[فتح القدير: ٥/ ٦٨] بتصرف.

إلا أن يكون الأمر خاصا بالمرأة، عند ذلك يوضحه الله تعالى كما فى قوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣)﴾ [الأحزاب].

إن كل ما جاء فى الآية السابقة يحدد المهام بالنسبة لنساء النبى ﷺ، إن الخطاب الموجه يحدد الأمر بدقة ﴿لَسْتُنَّ﴾ و﴿اتَّقَيْتُنَّ﴾ و﴿فَلا تَخْضَعْنَ﴾، ﴿وَقَرْنَ﴾، ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ﴾؛ الحديث فى هذه الآية الكريمة يتعلق بالمرأة، لذلك يأتى لها بضميرها مؤنثاً؛ لكن إذا جاء أمر يتعلق بالإنسان بوجه عام، فإن الحق سبحانه يأتى بالأمر شاملاً للرجل والمرأة ويكون مذكرا، ولذلك فعندما قالت النساء لماذا فُضل الرجل على المرأة ؟ نزل قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(1) [الأحزاب: ٣٥].

---

(١) عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبى ﷺ فقالت: ما أرى كل شىء إلا للرجال، وما أرى النساء يُذكرن بشىء؟ فنزلت الآية: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية. أخرجه الترمذى [٣٢١١] وقال: حديث حسن غريب، وإنما يُعرف هذا الحديث من هذا الوجه. وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٥٦٥]: صحيح الإسناد.

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ [النساء: ١٢٤]. إن الذكر والأنثى هنا يدخلان فى وصف واحد ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

إذن.. فعندما يأتى الأمر فى المعنى العام الذى يُطلب من الرجل والمرأة، فإنه يبلغ المرأة من خلال الرجل؛ لأنها مبنية على الستر والاحتجاب، وهى مطمورة فى الرجل داخلة معه.

إذن.. قول الحق سبحانه لمريم: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾؛ فالركوع ليس خاصاً بالمرأة حتى يقول: «مع الراكعات»، ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة، ولو افترضنا أن الحق قد قال: «اركعى مع الراكعات»، فهل كان ذلك منعاً للرجال من الصلاة أو منعها هى من الصلاة؟ لا.. لذلك جاء الأمر لمريم بأن تركع مع الراكعين، ومجىء الأمر عاماً يدخل الراكعات مع الراكعين، ولو قال الحق «اركعى مع الراكعات» لم يدخل الراكعين فى الراكعات؛ إن المعنى هنا عام يشمل الجميع.

* مريم من ذرية إبراهيم *

يريد الحق سبحانه أن يلفتنا إلى أن عطاءاته للمؤمنين قد تتم بغير أسباب الدنيا، وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٤].

حينما نسمع قول الحق ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾ نعرف أن العطاء لم يأت بالأسباب، وإنما جاء بلا أسباب، فإذا عملت عملاً وأخذت أجراً عليه، فهذا ليس هبة، والله سبحانه وتعالى قد جعل التكاثر البشرى هبة من عنده، فقال جل جلاله: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى].

إذن.. فالذرية هى هبة من الله لخلقه، ومجرد الزواج الذى هو التقاء الرجل بالمرأة لا يأتى بالذرية، ولكنها هبة من الله؛ لأنها ليس فيها مشقة العمل، وهكذا تخرج من منطق الأجر إلى منطق الهبة، كذلك فإن العقم الذى يُبتلى به أىّ من الزوجين هو أيضاً هبة؛ ذلك لأنك اذا استقبلت العقم بالحمد ولم تنظر إلى أبناء الغير بالحقد والحسد، يجعل الله كل من تراه ابناً لك؛ هذا يخدمك، وهذا يخدمك، هذه هى هبة العقم. أما هبة الإناث فإنك لو رضيت بها، تجد أن الله يبعث إليك رجالاً يتزوجون بناتك، ويصبح هؤلاء الرجال أفضل لك وأكثر طاعة من أبنائك.

إبراهيم عليه السلام وزوجته لم يكونا ينجبان، وتزوج إبراهيم هاجر وأنجب منها إسماعيل عليهما السلام، ربما كان ذلك أخذاً بالأسباب؛ لأن إبراهيم لم يكن فى هذا الوقت قد أصبح شيخاً ،ولكن عندما كبر إبراهيم وكانت زوجته سارة عقيماً لا تلد وهبه الله إسحاق عليهما السلام؛ لتكون هذه الهبة مع عجز الأسباب دليلاً على طلاقة القدرة ،وإسحاق تزوج وأنجب يعقوب.

الإنسان منا يعلم بواقع قوانين الكون أنه ميت،وعندما يكبر الإنسان يريد أن يكون له ابن ليرث اسمه فى الحياة ،فإذا جاءه ولد فكأنه ضمن استمرار حياته جيلاً، فإذا جاء له حفيد ضمن استمرار حياته جيلين، فإذا كان الولد تقياً صالحاً كان ذلك قرة عين الأب؛ ولذلك فعلينا أن نطلب دائماً النسل الصالح اقتداءً بالأنبياء؛فهذا زكريا حينما دعا ربه قال: ﴿ **فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)** ﴾ [مريم].

أى أنه يجب ألا نطلب الولد فقط ،ولكننا نطلب الولد الصالح الذى يحمل الخير للناس.

وهنا نلحظ أن قول الحق سبحانه :﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأنعام: ٨٤]؛ هما هبة من الله تعالى، ومكافأة لخليل الرحمن عليه السلام.

إذن . .فمكافأة إبراهيم عليه السلام على طاعته لله سبحانه لما ابتلاه بكلمات فأتمهن، جاءت هدية صالحة؛ فلم يُعْطَ الولد والحفيد فقط، ولكنه أعطيهما مهديين نبيين، ونِعْمَ الهبة الولد الصالح، ولم تكن هبة الله لإبراهيم مقصورة على ذلك؛ بل جعل فى ذرية إبراهيم الأنبياء: داود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى،

وإلياس، وكذلك إسماعيل ونبينا محمَّد صلوات الله عليهم وسلامه.

عندما نلتفت إلى أسماء الأنبياء التى ذكرت فى هذه الآيات، نجد أن القرآن الكريم قد بين لنا أن هبة الله لإبراهيم لم تقتصر على هؤلاء، بل قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧)﴾ [الأنعام].

المذكورون فى هذه الآيات من الرسل ثمانية عشر، وهناك سبعة من الأنبياء لم يذكروا فى هذه الآيات ،وذكروا فى آيات أخرى من القرآن الكريم ،وهم: إدريس، وهود، وشعيب، وصالح، وذو الكفل، وآدم، ثم خاتم الأنبياء محمد رسول الله ﷺ . وأطول آية قسم فيها الرسل هى هذه الآية من سورة الأنعام .

ولننظر إلى حكمة التقسيم. فمن هؤلاء الأنبياء المذكورين: اثنان كانا ملكين هما سليمان، وداود عليهما السلام، وذلك ليعطينا الله الدليل على أنه إذا أراد أن يقهر خلقه على شيء فعل، فإذا أراد أن يكون هناك من الأنبياء ملوك فعل؛ ورسول الله ﷺ قال: «خيُرت بين أن أكون ملكاً نبياً أو نبياً عبداً فقيل لى : تواضع ، فاخترتُ أن أكون نبياً عبدًا» (١).

إن الله أعطى سليمان وداود عليهما السلام سعة الملك والسلطان، فماذا أُعطى أيوب عليه السلام ؟ابتلاه وأعطاه الصبر على البلاء. وموسى وهارون وعيسى عليهم السلام أعطاهما شهرة الاتباع ولذلك لا نكاد نعرف شيئاً

(١) أخرجه البزار [١٩٨٥ - كشف ٢٦٤٣]، وذكره الهيثمى فى المجمع [٩/ ١٩٥] وقال: رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ورجال البزار ثقات.

من الأديان إلا اليهودية والمسيحية. وزكريا ويحيى وإلياس عليهم السلام أعطاهم الزهد، فهؤلاء أخذوا ملكة الزهد. وإسماعيل واليسع ويونس ولوط عليهم السلام أعطاهم زهرة الحياة؛ ولذلك لا نعرف لهم أتباعاً. ونأتى بعد ذلك إلى نبينا محمد ﷺ فقد أعطاه الله تعالى الهدى الذى يقتدى به خلق الله كلهم فهم بهداه مهتدون.

وحين ذكر الله تعالى عيسى عليه السلام وقف العلماء عند قول الله سبحانه: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾(١)، أى: من ذرية إبراهيم، وهل عيسى من ذرية

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ووَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أى: جزاءً له على الاحتجاج فى الدين وبذل النفس فيه ﴿كُلاًّ هَدَيْنَا﴾ أى: كل واحد منهم مهتد. ﴿وكُلاًّ﴾ نصب بهدينا ﴿وَنُوحًا﴾ نصب بهدينا الثانى. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ أى من ذرية إبراهيم. وقيل: من ذرية نوح؛ قاله الفراء واختاره الطبرى وغير واحد من المفسرين كالقشيرى وابن عطية وغيرهما. والأول قاله الزجاج، واعترض بأنه عد من الذرية يونس ولوطا وما كان من ذرية إبراهيم. وكان لوط ابن أخيه. وقيل: ابن أخته. وقال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء جميعاً مضافون إلى ذرية إبراهيم، وإن كان فيهم من لم يلحقه ولادة من جهته من جهة أب ولا أم؛ لأن لوطاً ابن أخى إبراهيم. والعرب تجعل العم أباً كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾. وإسماعيل عم يعقوب. وعد عيسى من ذرية إبراهيم وإنما هو ابن البنت. فأولاد فاطمة رضى الله عنها ذرية النبى ﷺ. وبهذا تمسك من رأى أن ولد البنات يدخلون فى اسم الولد. [تفسير القرطبى: ٧/ ٣١]

وقال ابن كثير: وفى ذكر عيسى عليه السلام فى ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجل؛ لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام؛ فإنه لا أب له. قال ابن أبى حاتم حدثنا سهل بن يحيى العسكرى حدثنا عبد الرحمن بن صالح حدثنا على بن عابس عن عبد الله بن عطاء المكى عن أبى حرب بن أبى الأسود قال أرسل الحجاج إلى يحيى ابن يعمر، فقال: بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبى صلى الله عليه وآله وسلم تجده فى كتاب الله - وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده؟ قال أليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ ؟ قال: =

أحد ؟ نعم العنصر البشرى فى عيسى وهو الأم مريم عليها السلام من ذرية إبراهيم ،وهذا ما احتج به أبو جعفر محمد الباقر، حين قال له الناس فى موسم الحج :أنتم تدعون أنكم من نسل رسول الله ﷺ مع أن رسول الله ﷺ لم ينجب ذكوراً ؟ قال لهم كأنكم لم تقرءوا القرآن فى قول الحق: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ إلى أن تصل إلى نبى الله عيسى، وعيسى عليه السلام ولد من غير أب، من أنثى فقط ، إذن فنحن من ذرية محمد ﷺ.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

عندما تسمع ﴿ذَٰلِكَ﴾ فهى مكونة من: «الذال»و«الكاف»، ومرة تقال: «ذاك» ومرة تقال «ذلك»، و«ذا» اسم إشارة والكاف خطاب، فإذا أردت أن تشير لشىء قلت: «ذا» ، فإذا كان الشىء بعيداً نسبياً قلت: «ذاك»، فإذا كان الشىء بعيــدا لفترة طويلــة قلت: «ذلك» وهنا استعمال ذلك إشارة إلى ما تقدم وهم: إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسليمان. لماذا قال الحق ﴿ذَٰلِكَ﴾

= بلى. قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب؟ قال: صدقت[(١)]. فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته أو وقف على ذريته أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه، وبنو بنيه واحتجوا بقول الشاعر العربى:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا   بنوهن أبناء الرجال الأجانب

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم أيضا ،لما ثبت فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن على: «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» [(٢)] فسماه ابناً فدل على دخوله فى الأبناء. وقال آخرون: هذا تَجَوُّز.   [تفسير ابن كثير: ٢/ ١٤٧]

(١) ذكره ابن أبى حاتم فى تفسيره [٧٥٥٤].

(٢) أخرجه البخارى [٢٧٠٤].

ولم يقل «أولئك» مع تعددهم ؟ لأن الإشارة هنا إلى شىء جامع، وهم المهديون من الله، لذلك فهو شىء واحد، أما «الكاف» فإن الله يخاطب بها مفردا ،وهو رسول الله ﷺ وخطاب الرسول ﷺ هو خطاب لكل أمته.

*المعجزة تشمل مريم وعيسى *

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، حين يوجد لفظ مفرد ولكنه خبر عن اثنين فلابد أن يَعُمَّ الخبر الطرفين، فقول الله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ يفيد أن الآية ليست من واحد منهما، ولكنها **من مجموع الاثنين معاً** ؛ لأن الآية هنا أن عيسى عليه السلام ولد من غير أب، **ومريم أنجبت ولم** يمسسها بشر لا بزواج ولا زنا ، فالمسألة متعلقة بكل منهما ، فالآية لا تكون فى واحد منهما دون الآخر .

ونظراً لأن الآية متعلقة بهما على حد سواء، تجد الحق سبحانه مرة يذكر ابن مريم أولاً ، فيقول تعالى كما فى هذه الآية: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وفى آية أخرى يذكر مريم أولاً حيث يقول سبحانه: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١].

فالاثنان سواء فى خبرية الآية ، وليس لأحد منهما تميز على الآخر ، وهذا يدل على أنهما شريكان فى الآية، أى: المعجزة ، فلا يمكن أن تتحقق الآية بواحد منهما.

وكما نعلم : فإن الآية هى الأمر العجيب الذى يثبت لنا طلاقة قدرة الخالق فى الخلق ؛ لأننا لو كنا جميعاً سنأتى من أب وأم سنقول : إن هذه عملية ميكانيكية . فالله أراد أن يبين لنا أن العملية ليست ميكانيكية ، ولكنها إرادة الخالق، فهو سبحانه يَخلق من ذكر وأنثى ، ويخلق من أب بدون أم ، كما حدث مع أمنا حواء ، ويخلق من أم بدون أب كما فى عيسى عليه السلام ،

فهذه طلاقة قدرة الحق جل وعلا وليست عملية ميكانيكية ، وحتى فى اكتمال العنصرين قد يوجد الأب والأم ولا توجد الذرية؛ لأن هذا كله بأمر الله ، قال تعالى : ﴿ **لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)** ﴾ [الشورى] .

ولذلك فبعض الناس يستخدمون وسائل منع الحمل ومع ذلك ينجبون، والبعض الآخر يجهد نفسه فى التردد على الأطباء من أجل الإنجاب ، ومع ذلك لا ينجب، فهذه مسألة طلاقة قدرة وإن قامت أمامها حواجز البشر أو حواجز الكبر؛ بدليل أن نبى الله زكريا رزقه الله بابنه يحيى رغم كبر سنه وعقم زوجته .

فالآية فى مريم أنها ولدت بدون رجل ، وما دام حدث منها هذا لابد أن تتعرض للمطاردة والاضطهاد، كما تخجل هى من نفسها ؛ لأن هذه طبيعة فى الأنثى ، فإذا كانت بنت شعيب ذهبت إلى موسى وهى تمشى على استحياء ، فما بالك بمريم حين تأتى قومها وهى تحمل وليدها على كتفها دون أن يكون لها رجل !! .

وقد حفظ الله مريم وابنها من كل سوء حتى أن خطيبها يوسف النجار الذى كان يجب أن يغار ويغضب لما حدث، أنزل الله على قلبه السكينة والقبول ، وظل فى خدمتها ورعايتها؛ لأن الله يحول بين المرء وقلبه[1] ، فقلبه كان يجب أن يتغير من ناحيتها؛ لأن هذه طبائع البشر، ولكن الله أنزل هذا الأمر عليه برداً وسلاماً، فلم يفعل شيئاً إلا أنه سألها سؤالاً واحداً فقال لها: يا مريم أريد منك أن تقولى لى: هل رأيت فى حياتك شجرة تنبت بدون بذرة ؟ فضحكت وقالت له : الشجرة التى أنبتت أول بذرة.

---

(١) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠]

آويناهما: من الإيواء، ومعناها أن إنساناً اضطرته الظروف واحتاج إلى مكان يعيش فيه فدبرّ مكاناً أوى إليه .. ومريم فى هذه الحالة مضطرة ومضطهدة، وكل الناس ينظرون إليها نظرات الاستغراب والشك، فلابد أن يهيئ الله لها مكاناً تأوى إليه . وهذا المكان لابد أن تكون فيه مقومات الحياة، وأولها الهواء ثم الماء ثم الطعام . ونحن نعرف أن سطح الأرض يكون حارًّا، ولكن إذا ارتفعت على جبل مثلاً تجد الحرارة أقل، فكلما ارتفعت عن سطح الأرض انخفضت درجة الحرارة .. فالجو المعتدل لا يكون إلا فى ربوة ؛ لأنها تعلو عن سطح الأرض، وهى فى ارتفاعها أقل من الجبل فتكون مقبولة فى الحر وفى البرد ؛ لأنها مكان متوسط الحرارة، هذا من ناحية الهواء. ومعنى ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ من أسباب القرار والاستقرار: الطعام، فلابد أن فى هذه الربوة زرعاً.

والمعين هو الماء - فالربوة فيها ماء أيضاً - ولكن من أين يأتى الماء للربوة إذا كانت مرتفعة لا تصلها المياه الجوفية ؟ فلابد أن بجوارها جبالاً مرتفعة عنها فتأخذ المطر وتحبسه ، ثم توصله عن طريق قانون الاستطراق إلى الربوة ، بحيث يرون الماء بعيونهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (1) [المؤمنون: ٥٠].

ونحن فى الزراعة الحديثة نقول : إن النبات يمتص غذاءه بواسطة شعيرات جذرية دقيقة، هذه الشعيرات إذا زادت عليها كمية الماء عطبت، وإذا عطبت

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى: ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا ﴾ أى: جعلنا مأواهما أى: منزلهما ﴿ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ أى: أرض مرتفعة، ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ أى: مستقر من أرض منبسطة مستوية . وعن قتادة : ذات ثمار وماء. يعنى أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ أى: وماء معين ظاهر جارٍ . من معن الماء: إذا جرى أو مدرك بالعين من عانه: إذا أدركه بعينه. [تفسير القاسمى ١٢/ ٤٤٠١، ٤٤٠٢]

لا توصل الغذاء ويصفرّ النبات ويذبل، فالزرع يحتاج أن يمر الماء على الشعيرات ؛لتأخذ حظها منه وينصرف عنها بعد ذلك ،فلا يستقر الماء عند الجذور؛ بل ينصرف عنها بعد أن يرويها. ونحن نشاهد فى عصرنا الحاضر مَنْ يقيمون المصارف لتصريف الماء الزائد عن حاجة النبات.

والربوة مصارفها فى الأرض المنخفضة من حولها . .كما أن هناك طريقة حديثة للرى عن طريق التنقيط، وهذه لها فائدتان :فهى تعطى الماء للجذور بالقدر المطلوب،وتغسل الورق من الأتربة العالقة بها، فيستطيع النبات آن يتنفس من خلالها بسهولة ويؤدى عملية البناء الضوئى على خير وجه.

حينما أراد ربنا سبحانه وتعالى أن يضرب المثل بالأرض التى تؤتى أكلها مرتين قال: ﴿ **كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والطل هو الندى . . إذن الربوة فيها كل مقومات الحياة والاستقرار والسكون والهدوء.

قوله تعالى : ﴿ **ذَاتِ قَرَارٍ** ﴾ أى : استقرار؛ لأن مقومات الحياة فيها موجودة لا تنقطع.

وقوله تعالى : ﴿ **وَمَعِينٍ** ﴾ أى ماء معين يُرى بالعين.

* بشارة الملائكة لمريم *

يقول تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران:٤٥].

لقد كانت المرحلة الأولى بالنسبة لإعداد مريم : هى قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧]. وفيها عرفت طلاقة قدرة الله تعالى.

والمرحلة الثانية : هى معرفتها بحكاية زكريا ويحيى عليهما السلام، وتأكيد الحق سبحانه أنه اصطفاها على نساء العالمين، وكان ذلك إيناساً لها.

ثم تدخل مريم إلى مرحلة جديدة، وهى قول الحق تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾، والبشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح ، وقد يتساءل واحد : ماذا يقصد الحق بقوله : ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ ؟

والإجابة هى أن الحق سبحانه علمنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٧].

وهذا القول هو مجرد إيضاح وتقريب؛ لأنه لا يوجد عندنا أقصر من الأمر بكلمة «كن» ؛ لأن طلاقة قدرته سبحانه تسبق نطقنا بالكاف وهى الحرف الأول ﴿ كُن ﴾ ، ولكنّ الحق سبحانه يوضح بشىء قريب لعقولنا نستطيع أن نستوعبه.

إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمرًا فإنه يقول له كن فيكون، وهنا قد يسأل

سائل: لمن يقول الحق «كن» ؟ إنه يقول للأمر، أى أن الأمر يكون موجوداً قبل نطق الحق به،لقد وجد الأمر بمجرد إرادة الله تعالى. إن الحق يقول للأمر : كن فيكون، وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما ،فإن هذا الأمر ينشأ، و﴿ كُن ﴾ هى مجرد إظهار الأمر للخلق.

إذن . . فكلمة: ﴿ كُن ﴾ جاءت لتدل على أن الحق يأمر بإظهار الأمر الذى أراده سبحانه، هكذا نفهم معنى بشارة الحق سبحانه لمريم بكلمة منه.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾.

ثلاثة أسماء: المسيح، عيسى، ابن مريم، ما معنى المسيح؟ قد يكون الممسوح من الذنوب، أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ، أو المسيح: المبارك. وعيسى هو الاسم والمسيح هو اللقب، وابن مريم هو الكنية.

ونحن نعرف أن العَلَم فى اللغة العربية يأتى على ثلاثة أنواع: اسم ولقب وكنية (1). إن العلَم على الشخص له ثلاث حالات: إما اسم وهو ما يطلق على المسمى أولا، وأول ما نطلق شيئاً على المسمى يكون اسمًا له مهما كان، سواء أكان مشعراً برفعة أو ضعة ، سواء كان بأب أو بأم ، والاسم الثانى إذا سميناه وكان يشعر صاحبه برفعة أو ضعة نسميه «لقبًا» ، فإن كان فيه أب أو أم يقال لـه «كنية»، وجاءت الثلاثة أنواع فى عيسى عليه السلام: ﴿ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾.

قوله: ﴿ الْمَسِيحُ ﴾ هو اللقب، و﴿ عِيسَى ﴾ هو الاسم، و﴿ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ هو الكنية.

وقوله تعالى: ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا ﴾. نحن فى حياتنا اليومية كثيرًا ما نسمع

(1) قال ابن مالك فى ألفيته :

واسْمًا أَتَى وكُنيةً ولَقَبَا وأَخِّرَنْ إنْ سِوَاهُ صَحِبَا

كلمه وجيه، والوجيه هو: ذو الجاه والشرف وقيل الكريم على من يسأله، فلا يُرد لكرم وجهه، فالإنسان يخجل أن يرد صاحب مثل هذه الكرامة ، كما يخجل أن يرفض له طلب، ولذلك نجد السائل دائمًا يسأل بوجه الله تعالى، فيقول: أعطنى لوجه الله تعالى.

وكانت وجاهة عيسى عليــه السلام فى الدنيا بنبوته وما أنزله الله عليه، وما أعطاه من آيات ومعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

وإذا كانت تلك وجاهة عيسى فى الدنيا، فلماذا نص الحق على وجاهته فى الآخرة ووصفه بأنه من المقربين؟!

الحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن فتنة بعض الناس فى عيسى عليه السلام، واعتقادهم فيه وفى أمه الطاهرة البتول أنهما إلهان من دون الله تعالى، فإن هذا الاعتقاد الباطل والقول الزور لا يؤثر فى مكانة عيسى عليه السلام عند ربه وخالقه؛ فإن للمغالى جزاءه، والمغالى فيه تنجيه رحمة العزيز الغفار[1] .

---

(١) قال الفخر الرازى: أما قوله تعالى: ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ ففيه مسألتان:
المسألة الأولى: معنى الوجيه: ذو الجاه والشرف والقدر، يقال: وجه الرجل، يوجه وجاهة فهو وجيه، إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس والسلطان، وقال بعض أهل اللغة: الوجيه: هو الكريم؛ لأن أشرف أعضاء الإنسان، وجهه فجعل الوجه استعارة عن الكرم والكمال.
واعلم أن الله تعالى وصف موسى ﷺ بأنه كان وجيهًا قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:٦٩] ثم للمفسرين أقوال:
الأول: قال الحسن: كان وجيها فى الدنيا بسبب النبوة، وفى الآخرة بسبب علو المنزلة عند الله تعالى.
والثانى: أنه وجيه عند الله تعالى، وأما عيسى عليه السلام، فهو وجيه فى الدنيا بسبب أنه يستجاب دعاؤه، ويحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص بسبب دعائه، ووجيه الآخرة بسبب أنه يجعله شفيع أمته المحقين، ويقبل شفاعته فيهم كما يقبل شفاعة أكابر الأنبياء عليهم السلام.
=

واقـرأ قـول الله تعالـى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦]

وقول الحق تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾، و ﴿ الْمَهْدِ ﴾ (١) هو ما أُعِدَّ كفراش للوليد أى أنه يتحدث وهو طفل.

= **والثالث:** أنه وجهه فى الدنيا بسبب أنه كان مبرأ من العيوب التى وصفه اليهود بها، ووجيه فى الآخرة بسبب كثرة ثوابه وعلو درجته عند الله تعالى.

فإن قيل: كيف كان وجيهاً فى الدنيا واليهود عاملوه بما عاملوه، قلنا: قد ذكرنا أنه تعالى سمى موسى عليه السلام بالوجيه مع أن اليهود طعنوا فيه، وآذوه إلى أن برأه الله تعالى مما قالوا، وذلك لم يقدح فى وجاهة موسى عليه السلام، فكذا ههنا.

المسألة الثانية: قال الزجاج ﴿ وَجِيهًا ﴾ منصوب على الحال، المعنى: أن الله يبشرك بهذا الولد وجيهاً فى الدنيا والآخرة، والفراء يسمى هذا قَطْعًا كأنه قال: عيسى ابن مريم الوجيه فقطع منه التعريف.

أما قوله: ﴿ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ففيه وجوه:

أحدها: أنه تعالى جعل ذلك كالمدح العظيم للملائكة فألحقه بمثل منزلتهم ودرجتهم بواسطة هذه الصفة.

وثانيها: أن هذا الوصف كالتنبيه على أنه عليه السلام سيرفع إلى السماء وتصاحبه الملائكة.

وثالثها: أنه ليس كل وجيه فى الآخرة يكون مقربا؛ لأن أهل الجنة على منازل ودرجـات، ولذلك قـال تعالـى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ إلـى قـوله: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) ﴾ [الواقعة]. [التفسير الكبير: ٨/ ٥٠، ٥١]

(١) المهاد: الفراش. وقد مَهَدْتُ الفراش مهداً: بسطته ووطَّأتُه، يقال للفراش: مهاد لوثَارَتِه. الأزهرى: المهاد أجمع من المهد، كالأرض جعلها الله مهاداً للعباد، وأصل المهد: التوثير؛ يقال: مَهَدْت لنفس ومَهَّدْتُ: أى جعلت لها مكانًا وطيئاً سهلاً.

[لسان العرب: ٣/ ٤١٠].

و ﴿ وَكَهْلاً ﴾ (١) أي: في حالة تقدم العمر به.

(١) الكَهْلُ: الرجل إذا وَخَطه الشيب ورأيت له بجالة، وفي الصحاح: الكَهْلُ من الرجال الذي جاوزَ الثلاثين ووخطه الشيبُ. وفي فضل أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما: هذان سيِّدا كُهول الجنة، وفي رواية: كُهولِ الأولين والآخرين؛ قال ابن الأثير: الكَهْلُ من الرجال من زاد على ثلاثين سنة إلى الأربعين، وقيل: هو من ثلاث وثلاثين إلى تمام الخمسين؛ وقد اكتهل الرجل وكاهل إذا بلغ الكهولة، فصار كهلاً.

وقيل: أراد بالكَهْلِ ههنا الحليمَ العاقلَ أي أن الله يدخِل أهل الجنةِ الجنةَ حُلماءَ عقلاء، وفي المحكم: وقيل هو من أربع وثلاثين إلى إحدى وخمسين.

قال الله تعالى في قصة عيسى، على نبينا وعليه الصلاة السلام: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾، قال الفراء: أراد ومُكَلِّمًا الناس في المهد وكهلا؛ والعرب تضع يفعل في موضع الفاعل إذا كانا في معطوفين مجتمعين في الكلام، وقد قيل: إنه عطف الكهل على الصفة، أراد بقوله في المهد صبياً وكهلا فرد الكهل على الصفة كما قال تعالى: ﴿ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً ﴾ [يونس: ١٢].

قال أبو منصور: وإذا بلغ الخمسين، فإنه يقال له كهل؛ ومنه قوله:

هل كَهْل خَمْسين إنْ شاقَتْه مَنْزِلةٌ   مُسَفَّهٌ رأيُه فيها ومَسْبوبُ

فجعله كهلا وقد بلغ الخمسين. ابن الأعرابي: يقال للغلام مراهق ثم محتلم، ثم يقال تخرج وجهه، ثم اتصلت لحيته، ثم مجتمع ثم كهل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة؛ قال الأزهري: وقيل له كهل حينئذ؛ لانتهاء شبابه، وكمال قوته، والجمع كَهْلُون وكُهُول وكِهال وكهلان. [لسان العرب: ١١/ ٦٠٠]

وقال الفخر الرازي: أما قوله تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الواو للعطف على قوله ﴿ وَجِيهًا ﴾ والتقدير كأنه قال: وجيهًا ومكلمًا للناس وهذا عندي ضعيف، لأن عطف الجملة الفعلية على الإسمية غيرجائز إلا للضرورة، أو الفائدة والأولى أن يقال تقدير الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾. الوجيه في الدنيا والآخرة المعدود من المقربين، وهذا المجموع جملة واحدة، ثم قال: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ ﴾ فقوله: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ ﴾ عطف على قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾.

المسألة الثانية: في المهد قولان: **أحدهما** أنه حجر أمه. **والثاني:** هو هذا الشيء المعروف الذي هو مضجع الصبي وقت الرضاع. =

= وكيف كان فالمراد منه: فإنه يكلم الناس فى الحالة التى يحتاج الصبى فيها إلى المهد، ولا يختلف هذا المقصود سواء كان فى حجر أمه أو كان فى المهد.
المسألة الثالثة: قوله ﴿وَكَهْلاً﴾ عطف على الظرف من قوله ﴿فِى الْمَهْدِ﴾كأنه قيل: يكلم الناس صغيراً وكهلا وههنا سؤالات:
السؤال الأول: ما الكهل؟
الجواب: الكهل فى اللغة ما اجتمع قوته وكمل شبابه، وهو مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا قوى وتم قال الأعشى:
يضاحك الشمس منها كوكب شرق   مؤزر بجميم النبت مكتهل
أراد بالمكتهل المتناهى فى الحسن والكمال.
السؤال الثانى: أن تكلمه حال كونه فى المهد من المعجزات، فأما تكلمه حال الكهولة فليس من المعجزات، فما الفائدة فى ذكره؟
والجواب: من وجوه :
الأول: أن المراد منه بيان كونه متقلباً فى الأحوال من الصبا إلى الكهولة والتغير على الإله تعالى محال، والمراد منه الرد على وفد نجران فى قولهم: إن عيسى كان إلها.
والثانى: المراد منه أن يكلم الناس مرة واحدة فى المهد؛ لإظهار طهارة أمه ثم عند الكهولة يتكلم بالوحى والنبوة.
والثالث: قال أبو مسلم: معناه أنه يكلم حال كونه فى المهد، وحال كونه كهلا على حد واحد وصفة واحدة وذلك لا شك أنه غاية فى المعجز.
والرابع: قال الأصم: المراد منه أنه يبلغ حال الكهولة.
السؤال الثالث: نقل أن عمر عيسى عليه السلام إلى أن رفع كان ثلاثًا وثلاثين سنة وستة أشهر، وعلى هذا التقدير: فهو مابلغ الكهولة.
والجواب: من وجهين :
الأول: بَيَّنَّا أن الكهل فى أصل اللغة عبارة عن الكامل التام، وأكمل أحوال الإنسان إذا كان بين الثلاثين والأربعين، فصح وصفه بكونه كهلا فى هذا الوقت .
والثانى: هو قول الحسين بن الفضل البجلى: أن المراد بقوله ﴿وَكَهْلاً﴾ أن يكون كهلا بعد أن ينزل من السماء فى آخر الزمان، ويكلم الناس، ويقتل الدجال، قال الحسين بن الفضل: وفى هذه الآية نص فى أنه عليه الصلاة والسلام سينزل إلى الأرض.
المسألة الرابعة: أنكرت النصارى كلام المسيح عليه السلام فى المهد، واحتجوا على صحة قولهم بأن كلامه فى المهد من أعجب الأمور وأغربها، ولا شك أن هذه الواقعة =

ولقد أورد الحق سبحانه ﴿ الْمَهْدِ ﴾و ﴿ وَكَهْلاً ﴾ رمزين لشيء : هو أن عيسى ابن مريم من الأغيار ؛ يطرأ عليه مرة أن يكون فى مهد ، ويطرأ عليه مرة أخرى أن يكون كهلاً . وما دام فى عالم الأغيار فلا يجب أن تفتنوا فيه، وعلى ذلك لا يصح أن تقولوا : إنه إله أو ابن إله.

= لو وقعت لوجب أن يكون وقوعها فى حضور الجمع العظيم الذى يحصل القطع واليقين بقولهم؛ لأن تخصيص مثل هذا المعجز بالواحد والاثنين لا يجوز، ومتى حدثت الواقعة العجيبة جدا عند حضور الجمع العظيم فلا بد وأن تتوفر الدواعى على النقل فيصير ذلك بالغاً حد التواتر، وإخفاء ما يكون بالغًا إلى حد التواتر ممتنع، وأيضاً فلو كان ذلك لكان ذلك الإخفاء ههنا ممتنعا؛ لأن النصارى بالغوا فى إفراط محبته إلى حيث قالوا إنه كان إلهًا، ومن كان كذلك يمتنع أن يسعى فى إخفاء مناقبه وفضائله بل ربما يجعل الواحد ألفا فثبت أن لو كانت هذه الواقعة موجودة لكان أولى الناس بمعرفتها النصارى، ولما أطبقوا على إنكارها علمنا أنه ما كان موجودًا البتة.
أجاب المتكلمون عن هذه الشبهة، وقالوا: إن كلام عيسى عليه السلام فى المهد إنما كان للدلالة على براءة حال مريم عليها السلام من الفاحشة، وكان الحاضرون جمعًا قليلين، فالسامعون لذلك الكلام، كان جمعًا قليلاً، ولا يبعد فى مثله التواطؤ على الإخفاء، وبتقدير: أن يذكروا ذلك إلا أن اليهود كانوا يكذبونهم فى ذلك وينسبونهم إلى البهت، فهم أيضا قد سكتوا لهذه العلة؛ فلأجل هذه الأسباب بقى الأمر مكتوما مخفيًا إلى أن أخبر الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ بذلك، وأيضًا فليس كل النصارى ينكرون ذلك، فإنه نقل عن جعفر بن أبى طالب: لما قرأ على النجاشى سورة مريم، قال النجاشى : لا تفاوت بين واقعة عيسى، وبين المذكور فى هذا الكلام بذرة.
ثم قال تعالى ﴿ وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.
فإن قيل: كون عيسى كلمة من الله تعالى، وكونه ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ وكونه من المقربين عند الله تعالى، وكونه مكلما للناس فى المهد، وفى الكهولة كل واحد من هذه الصفات أعظم وأشرف من كونه صالحا فلم ختم الله تعالى أوصاف عيسى بقوله: ﴿ وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾؟.
قلنا: إنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحًا؛ لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون فى جميع الأفعال والتروك مواظباً على النهج الأصلح، والطريق الأكمل، ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات فى الدنيا والدين فى أفعال القلوب، وفى أفعال الجوارح، فلما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل أردفه بهذا الكلام الذى يدل على أرفع الدرجات.
[التفسير الكبير: ٨/ ٥١ : ٥٣]

* فنفخنا فيها من روحنا *

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

الله تعالى اصطفى مريم من بين نساء العالمين ؛ لتلد بدون أن يقربها بشر ، فهذا نوع من الاصطفاء ؛ فالله سبحانه كما اصطفى الأنبياء من بين خلقه ، اصطفى مريم من بين نساء العالمين.

ومعنى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ (١) : أن هذه المسألة لم تتم بقانون التكاثر العادى ، ولكن الحق سبحانه أراد أن يخبرنا أنها النفخة التى نفخها فى آدم عليه السلام فجاءت بروح واحدة .

---

(١) قال أبو حيان الأندلسى: والظاهر أن قوله: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ كناية عن إيجاد عيسى حيًا فى بطنها، ولا نفخ هناك حقيقة، وأضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف . وقيل: هناك نفخ حقيقة وهو أن جبريل عليه السلام نفخ فى جيب درعها، وأسند النفخ إليه تعالى لما كان ذلك من جبريل بأمره تعالى تشريفًا .
وقيل: الروح هنا جبريل كما قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ [مريم:١٧] والمعنى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ من جهة جبريل ، وكان جبريل قد نفخ من جيب درعها، فوصل النفخ إلى جوفها .
قال الزمخشرى: فإن قلت: نفخ الروح فى الجسد عبارة عن إحيائه قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] أى: أحييته، وإذا ثبت ذلك كان قوله: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ ظاهر الإشكال؛ لأنه يدل على إحياء مريم .
قلت: معناه نفخنا الروح فى عيسى فيها أى: أحييناه فى جوفها، ونحو ذلك أن يقول الزمار: نفخت فى بيت فلان أى: نفخت فى المزمار فى بيته انتهى.
ولا إشكال فى ذلك؛ لأنه على حذف مضاف أى: «فنفخنا فى» ابنها «من روحنا» وقوله: قلت: معناه نفخنا الروح فى عيسى فيها استعمل نفخ متعديًا ، والمحفوظ أنه لا يتعدى، فيحتاج فى تعديه إلى سماع وغير متعد استعمله هو فى قوله أى نفخت =

معنى : ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ (1) ؛ أى : عفت نفسها ولم تمكّن منها بشراً .

ومعنى ﴿آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ، أى : شيئاً عجيباً جاء على غير مألوف الناس وعاداتهم ، وهى أن مريم تلد بدون أن يمسها بشر فيولد عيسى عليه السلام بلا أب .

= فى المزمار فى بيته انتهى. ولا إشكال فى ذلك. وأفرد ﴿آيَةً﴾ لأن حالهما لمجموعهما آية واحدة وهى: ولادتها إياه من غير فحل، وإن كان فى مريم آيات وفى عيسى آيات لكنه هنا لحظ أمر الولادة من غير ذكر، وذلك هو آية واحدة وقوله ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى: لمن اعتبر بها من عالمى زمانها، فمن بعدهم، ودل ذكر مريم مع الأنبياء فى هذه السورة على أنها كانت نبية إذ قرنت معهم فى الذكر، ومن منع تنبؤ النساء قال: ذكرت؛ لأجل عيسى وناسب ذكرهما هنا قصة زكريا وزوجه ويحيى؛ للقرابة التى بينهم . [البحر المحيط: ٧/ ٤٦٣ ، ٤٦٤]

(1) قال القاسمى ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أى: اذكر نبأ التى أحصنته إحصانًا كليًا، عن الحلال والحرام جميعًا. كما قالت ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ والتعبير عنها بالموصول ، لتفخيم شأنها، وتنزيهها عما زعموه فى حقها، بادئ بدء ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أى نفخنا الروح فى عيسى فيها . أى أحييناه فى جوفها . فنزّل نفخ الروح فى عيسى، لكونه فى جوف مريم ، منزلة نفخ الروح فيها . ونفخ الروح فى الجسد عبارة عن إحيائه. وقيل: المعنى فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام، أى أمرناه فنفخ . أو فنفخنا فيها بعض روحنا ، أى بعض الأرواح المخلوقة لنا . وذلك البعض هو روح عيسى؛ لأنها وصلت فى الهواء الذى نفخه فى رحمها ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ أى :نبأهما ﴿آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى: فى كمال قدرته واختصاصه من شاء بما شاء. وقد كان من آيتهما إتيان الرزق لمريم فى غير أوانه. وتثمير النخل اليابس . وإجراء العين ، ونطق ابنها فى المهد . وإحياء الموتى. وإبراء الأكمه والأبرص .

قال الزمخشرى: فإن قلت: هلا قيل «آيتين» كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قلت: لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة. وهى ولادتها إياه من غير فحل. انتهى. =

. . . .

= وقيل : المعنى وجعلناها آية وابنها آية . فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها .

[تفسير القاسمى : ١١/ ٤٣٠٥ ، ٤٣٠٦]

روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال: كتب قيصر إلى معاوية: سلام عليك أما بعد. . فأنبئنى بأكرم عباد الله عليه وأكرم إمائه عليه؟

فكتب إليه: أما بعد. . كتبت إلىَّ تسألنى، فقلت: أمَّا أكرم عباده عليه فآدم، خلقه بيده، وعلَّمه الأسماء كلها، وأمَّا أكرم إمائه عليه فمريم بنت عمران ﴿**الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا**﴾ .

[تفسير ابن أبى حاتم: ١٣٧٢٠]

❋ ميلاد عيسى عليه السلام ❋

اعتقد كثير من الناس أن مريم هي ابنة عمران، وأخت هارون كما وصفها القرآن؛ قال تعالى: ﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾ [مريم: ٢٨] ،ولذلك لما ذهب صحابة رسول الله ﷺ إلى اليمن قال لهم أهل اليمن : إنكم تقولون إن مريم بنت عمران ، وتقولون إنها أخت هارون، مع أن بين موسى وعيسى مدة تبلغ أحد عشر جيلاً، فكيف يَتَأَتَّى هذا؟ ! وعجز الصحابة عن الإجابة، ولما عادوا قصُّوا القصة على رسول الله ﷺ ، فقال لهم النبى ﷺ: « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يُسَمَّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم » .(١)

أى: إنهم كانوا يتفاءلون بأسماء الأنبياء، فالمسألة تشابه فى الأسماء فقط، إنها بنت عمران ولكنه ليس عمران أبا موسى، وأخت هارون وليس هارون أخا موسى عليهما السلام.

فلما نذرتها أمها للخدمة ببيت المقدس، شاء الحق سبحانه وتعالى بعد أن كانت تفرغ للبيت المقدس مكانا، أفرغت نفسها لخدمة البيت المقدس قيما، فتفرغت للقيم الدينية التى أنشئ من أجلها البيت المقدس،حتى إنها هجرت أهلها وذهبت إلى مكان بعيد تخلو فيه بعيداً عن الناس؛قال تعالى:

﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**﴾ [مريم: ١٦]

---

(١) أخرجه مسلم [٢١٣٥]، و أحمد فى المسند [٤/٢٥٢]، والترمذى [٣١٥٥] واللفظ له، عن المغيرة بن شعبة قال بعثنى رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا لى: ألستم تقرءون:﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ**﴾ وقد كان بين موسى وعيسى ما كان، فلم أدر ما أجيبهم، فرجعت إلى النبى ﷺ فأخبرته، فقال.. وذكر الحديث.

وقوله تعالى: ﴿ انتَبَذَتْ ﴾ أى: ابتعدت، نبذت نفسها عن الناس وعن أهلها، والإنسان يأنس بأهله، ولكنها ابتعدت عن أهلها، واتخذت من دونهم حجابًا أيضا؛ لكن بُعْدَها هذا لا يمنع أن يمر عليها أحد، فاتخذت حجاباً تستتر به عمن يمر عليها فى هذا المكان؛ أى: أرادت أن تعزل نفسها عن دنيا الناس وعن أنسها بهم ؛ لأنها اكتفت بأنسها بالحق سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أى شرقى بيتها، أو شرقى البيت المقدس، واختارت جهة المشرق؛ لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس(١)؛ لأن سمة النور المادى أن يجعل الإنسان لا يتعثر فى الأشياء ويستطيع أن يسير فيه على هدى؛ لأن النور نوران: نور المادة، وهو ما يأتى من الشمس والقمر والنجوم والمصابيح ، أى يضىء لك المادة أمامك حتى إذا مشيت لا تصطدم بشىء أقوى منك فيحطمك، ولا بأضعف منك فتحطمه، ولذلك تجد العامة من

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ هذا شروع فى ابتداء خلق عيسى. والمراد بالكتاب: هذه السورة، أى: اذكر يا محمد للناس فى هذه السورة قصة مريم، ويجوز أن يراد بالكتاب : جنس القرآن وهذه السورة منه، ولما كان الذكر لا يتعلق بالأعيان احتيج إلى تقدير مضاف يتعلق به الذكر، وهو قصة مريم، أو خبر مريم ﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾ العامل فى الظرف هو ذلك المضاف المقدر، ويجوز أن يجعل بدل اشتمال من مريم؛ لأن الأزمان مشتملة على مافيها، ويكون المراد بمريم: خبرها، وفى هذا الإبدال دلالة على تفخيم شأن الوقت لوقوع قصتها العجيبة، فيه. والنبذ: الطرح والرمى. قال الله سبحانه: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ، والمعنى: أنها تنحت وتباعدت. وقال ابن قتيبة: اعتزلت. وقيل: انفردت، والمعانى متقاربة. واختلفوا فى سبب انتباذها، فقيل: لأجل أن تعبد الله سبحانه. وقيل: لتطهر من حيضها، و﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ متعلق بـ ﴿انتَبَذَتْ﴾ ، وانتصاب ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ على المفعولية للفعل المذكور، أى: مكانًا من جانب الشرق، والشرق بسكون الراء: المكان الذى تشرق فيه الشمس؛ وإنما خص المكان بالشرق؛ لأنهم كانوا يعظمون جهة الشرق؛ لأنها مطلع الأنوار، حكى معناه ابن جرير.

[فتح القدير: ٣/ ٣٣٠ ، ٣٣١]

الناس يقولون : يمشى على نور ،هذا فى المسائل المادية. والنور الآخر هو نور المنهج الذى علينا أن نتبعه حتى لا نضل الطريق؛ وهذا المنهج هو الوحى الذى أُنزل على قلب نبينا محمد ﷺ، يقول تعالى: ﴿ **وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهو الموافق للنور الأول الذى أودعه الله سبحانه قلوب العباد، فبه أحبوه وعرفوه وآمنوا به (١) قال تعالى: ﴿ **نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾(٢) [النور: ٣٥]. وهو النور الذى نزل عن طريق

(١) أخرج أحمد فى المسند [٢/١٧٦] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق خلقه فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول جف القلم على علم الله» وصححه الشيخ شاكر برقم [٦٦٤٤] وأخرجه الترمذى [٢٦٤٢] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢١٣٠] وانظر الصحيحة [١٠٧٦].

(٢) النور اسم من اسماء الله الحسنى. وفى رده على أحد المعترضين فى الأسماء الحسنى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: قال المعترض فى «الأسماء الحسنى» النور: الهادى، يجب تأويله قطعاً إذ النور كيفية قائمة بالجسمية، وهو ضد الظلمة، وجَلَّ الحقُّ سبحانه أن يكون له ضد، ولو كان نوراً لم تجز إضافته إلى نفسه فى قوله: ﴿ **مَثَلُ نُورِهِ** ﴾ فتكون من إضافة الشيء إلى نفسه وهو غير جائز، وقوله: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ قال المفسرون: يعنى هادى أهل السماوات والأرض وهو ضعيف؛ لأن ذكر الهادى بعده يكون تكراراً؛ وقيل منوّر السماوات بالكواكب، وقيل بالأدلة والحجج الباهرة. والنور جسم لطيف شفاف فلا يجوز على الله.

والتأويل مروى(١) عن ابن عباس وأنس وسالم، وهذا يبطل دعواه أن التأويل يبطل الظاهر ،ولم ينقل عن السلف. ولو كان نوراً حقيقة كما يقوله المشبهة لوجب أن يكون الضياء ليلاً ونهاراً على الدوام. وقوله: ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦)** ﴾ [الأحزاب].

ومعلوم أنه ﷺ لم يكن السراج المعروف، وإنما سُمّى سراجًا بالهدى الذى جاء به؛ ووضوح أدلته بمنزلة السراج المنير.

وروى عن ابن عباس فى رواية أخرى وأبى العالية والحسن: يعنى منور السماوات والأرض شمسها وقمرها ونجومها.
=

(١) انظر تفسير الطبرى [١٨/ ١٣٥]

= ومن كلام العارفين: النور هو الذى نَوَّرَ قلوب الصادقين بتوحيده، ونَوَّر أسرار المحبين بتأييده.

وقيل: هو الذى أحيا قلوب العارفين بنور معرفته، ونفوس العابدين بنور عبادته.

والجواب: أن هذا الكلام وأمثاله ليس باعتراض علينا، وإنما هو ابتداء نقص حرمته منهم لما يظن أنه يلزمنا، أو يظن أنا نقوله على الوجه الذى حكاه وقد قال تعالى: ﴿ **اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾ [**الحجرات**: ١٢] وقال النبى ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»(١).

وإذا كان فى الكلام إخبار عن الغير بأنه يقول أقوالاً باطلة فى العقل والشرع، وفيه رد تلك الأقوال كان هذا كذباً وظلمًا، فنعوذ بالله من ذلك.

ثم مع كونه ظلما لنا، ياليته كان كلاما صحيحًا مستقيمًا، فكنا نُحلّله من حقنا، ويُستفاد ما فيه من العلم، ولكن فيه من تحريف كتاب الله، والإلحاد فى آياته وأسمائه، والكذب والظلم والعدوان الذى يتعلق بحقوق الله مما فيه، لكن عفونا عن حقنا؛ فحق الله إليه لا إلى غيره.

ونحن نذكر من القيام بحق الله ونصر كتابه ودينه ما يليق بهذا الموضع، فإن هذا الكلام الذى ذكره فيه من التناقض والفساد ما لا أظن تمكنه من ضبطه من وجوه:

أحدها: أنه قال فى أوله النور كيفية قائمة بالجسمية، ثم قال فى آخره جسم لطيف شفاف، فذكر فى أول الكلام أنه عرض وصفة وفى آخره جسم، وهو جوهر قائم بنفسه.

الثانى: أنه ذكر عن المفسرين أنهم تأوَّلوا ذلك بالهادى، وضعَّف ذلك، ثم ذكر فى آخره أن من كلام العارفين أن النور هو الذى نَوَّر قلوب الصادقين بتوحيده وأسرار المحبين بتأييده، وأحيا قلوب العارفين بنور معرفته، وهذا هو معنى الهادى الذى ضعفه أولاً، فيُضعّفه أولاً ويجعله من كلام العارفين، وهى كلمة لها صولة فى القلوب وإنما هو من كلام بعض المشايخ الذين يتكلمون بنوع من الوعظ الذى ليس فيه تحقيق. فإن الشيخ أبا عبد الرحمن(٢) ذكر فى حقائق التفسير من الإشارات =

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٠٦٦]، ومسلم [٢٨/٢٥٦٣] عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) محمد بن الحسين بن موسى أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ. سبط الشيخ أبى عمرو إسماعيل بن نُجيد السلمى، وهو أزدىّ الأب. كان شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان، صنف لهم «سنناً» و «تفسيراً» و «تاريخاً» وغير ذلك.

سمع من جده لأمه، وأبى العباس الأصم، والحافظ أبى على النيسابورى، وأبى بكر الصبغى، وأبى بكر القطيعى وجماعة. وحدث أكثر من أربعين سنة املاء وقراءة. =

= الإشارات التى بعضها كلام حسن مستفاد، وبعضها مكذوب على قائله مفترى كالمنقول عن جعفر وغيره، وبعضها من المنقول الباطل المردود. فإن إشارات المشايخ الصوفية التى يشيرون بها تنقسم إلى إشارة حالية وهى إشارتهم بالقلوب، وذلك هو الذى امتازوا به، وليس هذا موضعه؛ وتنقسم إلى الإشارات المتعلقة بالأقوال مثل ما يأخذونها من القرآن ونحوه، فتلك الإشارات هى من باب الاعتبار، والقياس وإلحاق ماليس بمنصوص بالمنصوص، مثل الاعتبار والقياس الذى يستعمله الفقهاء فى الأحكام، لكن هذا يستعمل فى الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال، ودرجات الرجال، ونحو ذلك، فإن كانت الإشارة اعتبارية من جنس القياس الصحيح كانت حسنة مقبولة، وإن كانت كالقياس الضعيف كان لها حكمة، وإن كان تحريفًا للكلام عن مواضعه وتأويلاً للكلام على غير تأويله كانت من جنس كلام القرامطة والباطنية والجهمية، فتدبر هذا فإنى قد أوضحت هذا فى «قاعدة الإشارات».

الوجه الثالث: فى تناقضه، فإنه قال: التأويل منقول عن ابن عباس وأنس وسالم، ولم يذكر إلا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه هادى أهل السماوات والأرض، وقد ضعف ذلك فإن كان المنقول هو هذا الضعيف فيا خيبة المسعى إذ لم ينقل عن السلف فى جميع كلامه إلى هنا شيئاً عن السلف إلا هذا الذى ضعفه وأوهاه!.

وإن كان المنقول عن هؤلاء الثلاثة أنه مُنوّر السماوات بالكواكب كان متناقضًا من وجه آخر، وهو أنه قد ذكر فيما بعد أن هذا روى عن ابن عباس فى رواية أخرى، وأبى العالية والحسن أنه مُنوّرها بالشمس والقمر والنجوم، وهذا يوجب أن يكون المنقول عن ابن عباس والاثنين أولاً غير المنقول عنه فى رواية أخرى، وعمن ليس معه فى الأولى.

وإن كان نوره بالحجج الباهرة والأدلة كان متناقضًا، فإن هذا هو معنى الهادى إذ نصبه للأدلة والحجج هى من هدايته، وهو قد ضعف هذا القول، فما أدرى من أيهما =

= روى عنه الحاكم، والبيهقى وأبو القاسم القشيرى، وأبو صالح المؤذن وخلائق.
وزادت تصانيفه على المائة، وكان وافر الجلالة.
مولده فى رمضان سنة ثلاثين وثلاثمائة، وقيل غير ذلك، ومات فى شعبان سنة اثنتى عشرة وأربعمائة.
وإنما أوردته فى هذا القسم؛ لأن تفسيره غير محمود.
قال الذهبى فى «تاريخه»: كتابه «حقائق التفسير» ليته لم يصنفه فإنه تحريف وقرمطة.
[طبقات المفسرين: ٨٤، ٨٥ - ت: ٩٤]

= العجب؟! أمن حكايته القولين اللذين أحدهما داخل فى معنى الآخر؟ أم من تضعيفه لقول السائل الذى يوجب تضعيف الاثنين وهو لا يدرى أنه قد ضعفهما جميعًا؟ فيجب على الإنسان أن يعرف معنى الأقوال المنقولة، ويعرف أن الذى يضعفه ليس هو الذى عظمه.

الوجه الرابع: أنـه قد تبين أنه لم ينقل عن ابن عباس وأنس وسالم إلا القول الذى ضعفه، أو ما يدخل فيه؛ فإنه إن كان قولهم «الهادى» فقد صرح بضعفه، وإن كان «مقيم الأدلة» فهو من معنى «الهادى»، وإن كان «المنور بالكواكب» فقد جعله قولاً آخر، وإن كان ما ذكره عن بعض العارفين فهو أيضًا داخل فى «الهادى»، وإذا كان قد اعترف بضعف ما حكاه عن ابن عباس وأنس وسالم لم يكن فيه حجة علينا. فتبين أن ماذكره عـن السلف إما أن يكون مبطلا فى نقله، أو مفتريًا بتضعيفه، وعلى التقديرين لا حجة علينا بذلك.

الوجه الخامس: أنه أساء الأدب على السلف؛ إذ يذكر عنهم مايضعفه وأظهر للناس أن السلف كانوا يتأولون؛ ليحتج بذلك على التأويل فى الجملة، وهو قد اعترف بضعف هذا التأويل، ومن احتج بحجة وقد ضعفها وهو لا يعلم أنه ضعفها فقد رمى نفسه بسهمه، ومن رمى بسهم البغى صرع به، والله لا يهدى القوم الظالمين.

الوجه السادس: قوله هذا يبطل دعواه: أن التأويل دفع الظاهر ولم ينقل عن السلف. فإن هذا القول لم أقله، وإن كنت قلته فهو لم ينقل إلا ما عرف أنه ضعيف، والضعيف لا يبطل شيئًا، فهذه الوجوه فى بيان تناقضه وحكايته عنّا ما لم نَقُلْهُ.

وأما بيان فساد الكلام، فنقول أما قوله: «يجب تأويله قطعًا» فلا نسلّم أنه يجب تأويله، ولا نسلّم أن ذلك لو وجب قطعى، بل جماهير المسلمين لا يتأولون هذا الاسم وهذا مذهب السلفية وجمهور الصفاتية من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم وهو قول أبى سعيد بن كُلاّب ذكره فى الصفات، ورد على الجهمية تأويل اسم «النور» وهو شيخ المتكلمين الصفاتية الأشعرية الشيخ الأول، وحكاه عنه أبو بكر ابن فورك فى كتاب «مقالات ابن كُلاّب» والأشعرى، ولم يذكرا تأويله إلا عن الجهمية المذمومين باتفاق، وهو أيضاً قول أبى الحسن الأشعرى ذكره فى «الموجز».

وأما قوله إن هذا ورد فى أسماء الحسنى، فالحديث الذى ذكر فيه ذلك هو حديث الترمذى(١) روى الأسماء الحسنى فى جامعه من حديث الوليد بن مسلم، عن شعيب

(١) أخرجه الترمذى [٣٥٠٧] وقال: حديث غريب، والبيهقى فى شعب الإيمان [١٠٢]. وقال الألبانى فى ضعيف الترمذى [٦٩٦]: ضعيف بسرد الأسماء. وانظر المشكاة [٢٢٨٨].

= عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة. ورواها ابن ماجة (١) فى سننه من طريق مخلد بن زياد القطوانى، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة، وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبى ﷺ؛ وإنما كل منهما من كلام بعض السلف. فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين كما جاء مفسَّرًا فى بعض طرق حديثه، ولهذا اختلف أعيانهما عنه فروى عنه فى إحدى الروايات من الأسماء بدل مايذكر فى الرواية الأخرى؛ لأن الذين جمعوها قد كانوا يذكرون هذا تارة وهذا تارة، واعتقدوهم وغيرهم أن الأسماء الحسنى التى من أحصاها دخل الجنة ليست شيئًا معينًا، بل من أحصى تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله دخل الجنة، أو أنها وإن كانت معينة فالاسمان اللذان يتفقان معناهما يقوم أحدهما مقام صاحبه «كالأحد والواحد» فإن فى رواية هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عنه رواها عثمان بن سعيد «الأحد» بدل «الواحد» و«المعطى» بدل «المغنى» وهما متقاربان، وعند الوليد هذه الأسماء بعد أن روى الحديث عن خليل ابن دعلج، عن قتادة، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة. ثم قال هشام وحدثنا الوليد، حدثنا سعيد بن عبد العزيز مثل ذلك، وقال كلها فى القرآن ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ مثل ما ساقها الترمذى،لكن الترمذى رواها عن طريق صفوان بن صالح عن الوليد عن شعيب وقد رواها ابن أبى عاصم، وبين ماذكره هو والترمذى خلاف فى بعض المواضع.

وهذا كله مما يبين لك أنها من الموصول المدرج فى الحديث عن النبى ﷺ فى بعض الطرق، وليست من كلامه.

ولهذا جمعها قوم آخرون على غير هذا الجمع، واستخرجوها من القرآن، منهم سفيان بن عيينة والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم، كما قد ذكرت ذلك فيما تكلمت به قديمًا على هذا، وهذا كله يقتضى أنها عندهم مما يقبل البدل، فإن الذى عليه جماهير المسلمين أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين، قالوا ومنهم الخطابى قوله: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها» التقييد بالعدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بأنها هى هذه الأسماء، فهذه الجملة وهى قوله: «من أحصاها دخل الجنة» صفة للتسعة والتسعين ليست جملة مبتدأة، ولكن موضعها النصب ويجوز أن تكون مبتدأة، والمعنى لا يختلف ، والتقدير أن لله أسماء بقدر هذا العدد من أحصاها دخل الجنة،=

((١) أخرجه ابن ماجة [٣٨٦١]. وقال الألبانى فى صحيح ابن ماجة [٣١١٤]: صحيح دون عن الأسماء.

= كما يقول القائل أن مائة غلام أعددتهم للعتق. وألف درهم أعددتها للحج، فالتقييد بالعدد هو بالموصوف بهذه الصفة لا فى أصل استحقاقه لذلك العدد، فإنه لم يقل إن أسماء الله تسعة وتسعون.

قال ويدل على ذلك قوله فى الحديث الذى رواه أحمد فى المسند (١): «اللهم إنى أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك». فهذا يدل على أن لله أسماء فوق تسعة وتسعين يحصيها بعض المؤمنين.

وأيضا فقوله: «إن لله تسعة وتسعين» تقييد بهذا العدد بمنزلة قوله تعالى: ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾ [المدثر: ٣٠] فلما استقلوهم قال: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [المدثر: ٣١]. فأن لا يعلم أسماءه إلا هو أولى.

وذلك أن هذا لو كان قد قيل منفرداً لم يفد النفى إلا بمفهوم العدد الذى هو دون مفهوم الصفة والنزاع فيه مشهور، وإن كان المختار عندنا أن التخصيص بالذكر بعد قيام المقتضى للعموم يفيد الاختصاص بالحكم، فإن العدول عن وجوب التعميم إلى التخصيص إن لم يكن للاختصاص بالحكم، وإلا كان تركًا للمقتضى بلا معارض، وذلك ممتنع.

فقوله: «إن لله تسعة وتسعين» قد يكون للتحصيل بهذا العدد فوائد غير الحصر:

ومنها ذكر أن إحصاءها يورث الجنة، فإنه لو ذكر هذه الجملة متفردة وأتبعها بهذه منفردة لكان حسناً، فكيف والأصل فى الكلام الاتصال وعدم الانفصال، فتكون الجملة الشرطية صفة لا ابتدائية، فهذا هو الراجح فى العربية مع ما ذكر من الدليل، ولهذا قال: «إنه وتر يحب الوتر» (٢)، ومحبته لذلك تدل على أنه متعلق بالإحصاء؛ أى: يحب أن يحصى من أسمائه هذا العدد، وإذا كانت أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين أمكن أن يكون إحصاء تسعة وتسعين اسمًا يورث الجنة مطلقًا على سبيل البدل، فهذا يوجه قول هؤلاء وإن كان كثير من الناس يجعلها أسماء معينة. =

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المسند [١/٣٩١] وصححه الشيخ شاكر برقم [٣٧١٢] والحاكم فى المستدرك [١/٥٠٩-٥١٠] وصححه، ورده الذهبى فقال: أبو سلمة لا يدرى من هو ولا رواية له فى الكتب الستة. وذكره الهيثمى فى المجمع [١٠/١٣٩] وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح غير أبى سلمة الجهنى وقد وثقه ابن حبان.

(٢) جزء من حديث ابن ماجة [٣٨٦١].

= ثم من هؤلاء من يقول ليس إلا تسعة وتسعون اسمًا فقط وهو قول ابن حزم وطائفة، والأكثرون منهم يقولون وإن كانت أسماء الله أكثر؛ لكن الموعود بالجنة لمن أحصاها هى معينة، وبكل حال فتعيينها ليس من كلام النبى ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه.
ولكن روى فى ذلك عن السلف أنواع من ذلك ماذكره الترمذى ومنها غير ذلك.
فإذا عرف هذا فقوله فى أسمائه الحسنى «النور الهادى» لو نازعه منازع فى ثبوت ذلك عن النبى ﷺ لم تكن له حجة، ولكن جاء ذلك فى أحاديث صحاح، مثل قوله فى الحديث الذى فى الصحيحين(1)، عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه كان يقول: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن» الحديث.
وفى صحيح مسلم (2)، عن أبى ذر قال سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك فقال: «نورٌ أَنَّى أراه» أو قال «رأيت نوراً».
فالذى في القرآن والحديث الصحيح إضافة النور بقوله: ﴿ **نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أو ﴿ **نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ** ﴾.
وأما قوله: «إذ النور كيفية قائمة» فنقول: النور المخلوق محسوس لا يحتاج إلى بيان كيفية؛ لكنه نوعان: أعيان وأعراض، فالأعيان هو نفس جرم النار حيث كانت - نور السراج، والمصباح الذى فى الزجاجة وغيره - وهى النور الذى ضرب الله به المثل، ومثل القمر؛ فإن الله سماه نوراً فقال: ﴿ **جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا** ﴾[يونس: ٥] ولا ريب أن النار جسم لطيف شفاف، وأعراض مثل مايقع من شعاع الشمس، والقمر والنار على الأجسام الصقيلة وغيرها، فإن المصباح إذا كان فى البيت أضاء جوانب البيت، فذلك النور والشعاع الواقع على الجدر والسقف والأرض هو عرض، وهو كيفية قائمة بالجسم.
وقد يقال ليس الصفة القائمة بالنار والقمر ونحوهما نوراً فيكون الاسم على الجوهر تارة، وعلى صفة أخرى؛ ولهذا يقال لضوء النهار نور كما قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ﴾ [الأنعام: ١] ومن هذا تسمية الليل ظلمة والنهار نورًا، فإنهما عرضان، وقد قيل هما جوهران، وليس هذا موضع بسط ذلك. فتبين أن اسم النور يتناول هذين، والمعترض ذكر أولاً حد العرض، وذكر ثانيًا حد الجسم فتناقض، وكأنه أخذ ذلك من كلامى ولم يهتدوا لوجه الجمع.
وكذلك اسم الحق يقع على ذات الله تعالى وعلى صفاته القدسية القديمة كقول =

(1) جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٣١٧] واللفظ له، ومسلم [٧٦٩/ ١٩٩].
(2) أخرجه مسلم [١٧٨/ ٢٩١ ، ٢٩٢] وأحمد فى المسند [٥/ ١٥٧، ١٧١]والترمذى [٣٢٨٢]

= النبى ﷺ: «أنت الحق، وقولك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق» (١).

وأما قول المعترض: «النور ضد الظلمة، وجل الحق أن يكون له ضد» فيقال له: لم تفهم معنى الضد المنفى عن الله، فإن الضد يراد به ما يمنع ثبوت الآخر، كما يقال فى الأعراض المتضادة مثل السواد والبياض: ويقول الناس: الضدان لا يجتمعان، ويمتنع اجتماع الضدين، وهذا التضاد عند كثير من الناس لا يكون إلا فى الأعراض، وأما الأعيان، فلا تضاد فيها، فيمتنع عند هذا أن يقال لله ضد أو ليس له ضد، ومنهم من يقول يتصور التضاد فيها، والله تعالى ليس له ضد يمنع ثبوته ووجوده بلا ريب، بل هو القاهر الغالب الذى لا يغلب.

وقد يراد بالضد المعارض لأمره وحكمه، وإن لم يكن مانعاً من وجود ذاته كما قال النبى ﷺ : «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى أمره» رواه أبو داود(٢).

وتسمية المخالف لأمره وحكمه ضدًا كتسميته عدوًا، وبهذا الاعتبار، فالمعادون المضادون لله كثيرون، فأما على التفسير الأول، فلا ريب أنه ليس فى نفس الأمر مضاد لله لكن التضاد يقع فى نفس الكفار، فإن الباطل ضد الحق، والكذب ضد الصدق، فمن اعتقد فى الله ما هو منزه عنه كان هذا ضداً للإيمان الصحيح به.

وأما قوله: «النور ضد الظلمة وجل الحق أن يكون له ضد فيقال له: والحى ضد الميت، والعليم ضد الجاهل، والسميع والبصير، والذى يتكلم ضد الأصم الأعمى الأبكم، وهكذا سائر ماسمى الله به من الأسماء لها أضداد، وهو منزه عن أن يسمى بأضدادها فجعل الله أن يكون ميتاً أو عاجزًا أو فقيرًا ونحو ذلك.

وأما وجود مخلوق له موصوف بضد صفته مثل وجود الميت والجاهل والفقير والظالم فهذا كثير بل غالب أسمائه لها أضداد موجودة فى الموجودين، ولا يقال لأولئك إنهم أضداد الله، ولكن يقال إنهم موصوفون بضد صفات الله، فإن التضاد بين الصفات إنما يكون فى المحل الواحد لا فى محلين، فمن كان موصوفًا بالموت ضادته الحياة، ومن كان موصوفاً بالحياة ضاده الموت، والله سبحانه يمتنع أن يكون ظلمة أو موصوفًا بالظلمة، كما يمتنع أن يكون ميتاً أو موصوفًا بالموت.

فهذا المعترض أخذ لفظ الضد بالاشتراك، ولم يميز بين الضد الذى يضاد ثبوته ثبوت =

(١) جزء من حديث ابن عباس المتقدم .

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المسند [٢/ ٧٠]، وأبو داود [٣٥٩٧] عن ابن عمر رضى الله عنهما. وصححه الشيخ شاكر برقم [٥٣٨٥]. وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٠٦٦]

= الحق وصفاته وأفعاله، وبين أن يكون فى مخلوقاته ما هو موصوف بضد صفاته، وبين ما يضاده فى أمره ونهيه، فالضد الأول هو الممتنع، وأما الآخران فوجودهما كثير، لكن لا يقال إنه ضد الله، فإن المتصف بضد صفاته لم يضاده.

والذين قالوا النور ضد الظلمة قالوا يمتنع اجتماعهما فى عين واحدة لم يقولوا إنه يمتنع أن يكون شيء موصوفاً بأنه نور، وشيء آخر موصوفًا بأنه ظلمة، فليتدبر العاقل هذا التعطيل والتخليط.

وأما قوله: « لو كان نوراً لم يجز إضافته إلى نفسه فى قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ » فالكلام عليه من طريقين:

أحدهما: أن نقول النص فى كتاب الله وسنة رسوله قد سمى الله نور السماوات والأرض، وقد أخبر النص أن الله نور، وأخبر أيضًا أنه يحتجب بالنور فهذه ثلاثة أنوار فى النص وقد تقدم ذكر الأول.

وأما الثانى: قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]وفى قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾.

وفيما رواه مسلم فى صحيحه(١) عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق خلقه فى ظلمة، وألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل».

ومنه قوله ﷺ فى دعاء الطائف: «أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى سخطك، أو يحل علىَّ غضبك» رواه الطبرانى(٢) وغيره.

ومنه قول ابن مسعود(٣): إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار؛ نور السماوات من نور وجهه. =

---

(١) لم نقف عليه فى صحيح مسلم.
وأخرجه أحمد فى المسند [٢/ ١٧٦، ١٩٧] وصححه الشيخ شاكر برقم [٦٦٤٤، ٦٨٥٤]، والترمذى [٢٦٤٢] وقال: حديث حسن. وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢١٣٠] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما.
وذكره الهيثمى فى المجمع [٧/ ١٩٣-١٩٤] وقال: رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبرانى، ورجال أحد إسنادى أحمد ثقات.

(٢) ذكره ابن هشام فى السيرة [٢/ ٣٣]. وقال الهيثمى فى «المجمع» [٦/ ٣٨] رواه الطبرانى وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات.

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره [٣/ ٢٨٠].

= ومنه قوله ما رواه مسلم فى صحيحه(١) عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط، ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل؛ حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه».

فهذا الحديث فيه ذكر حجابه. فإن تردد الراوى فى لفظ النار والنور لا يمنع ذلك، فإن مثل هذه النار الصافية التى كلم بها موسى يقال لها نار ونور كما سمى الله نار المصباح نورًا بخلاف النار المظلمة كنار جهنم، فتلك لا تسمى نوراً.

فالأقسام ثلاثة: إشراق بلا إحراق، وهو النور المحض كالقمر؛ وإحراق بلا إشراق وهى النار المظلمة؛ وما هو نار ونور كالشمس؛ ونار المصابيح التى فى الدنيا توصف بالأمرين، وإذا كان كذلك صح أن يكون نور السماوات والأرض، وأن يضاف إليه النور، وليس المضاف هو عين المضاف إليه.

الطريق الثانى: أن يقال هذا يرد عليكم، لا يختص بمن يسميه بما سمى به نفسه، وبينه فأنت إذا قلت «هاد» أو «منور» أو غير ذلك فالمسمى «نوراً» هو الرب نفسه، ليس هو النور المضاف إليه، فإذا قلت هو «الهادى»، فنوره الهدى جعلت أحد النورين عينًا قائمة، والآخر صفة. فهكذا يقول من يسميه نوراً، وإذا كان السؤال يرد على القولين والقائلين كان تخصيص أحدهما بأنه مخالف لقوله ظلمًا ولدداً فى المحاجة، أوجهلا ًوضلالاً عن الحق.

وأما ما ذكره من الأقوال فلا ريب أن للناس فيها من الأقوال أكثر مما ذكره، والموجود بأيدى الأمة من الروايات الصادقة والكاذبة والآراء المصيبة والمخطئة لا يحصيه إلا الله، والكلام فى تفسير أسماء الله وصفاته وكلامه فيه من الغث والسمين ما لا يحصيه إلا رب العالمين، وإنما الشأن فى الحق والعلم والدين.

وقد كتبت قديماً فى بعض كتبى لبعض الأكابر أن العلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول ﷺ ، فالشأن فى أن نقول علمًا وهو النقل المصدق والبحث المحقق، فإن ما سوى ذلك - وإن زخرف مثله بعض الناس - خزف مُزَوَّق، وإلا فباطل مطلق مثلما ذكره فى هذه الآية، وغيرها.

وهذه الكتب التى يسميها كثير من الناس كتب التفسير فيها كثير من التفسير منقولات عن السلف مكذوبة عليهم، وقول على الله ورسوله بالرأى المجرد، بل بمجرد شبهة قياسية أو شبهة أدبية. فالمفسرون الذين ينقل عنهم لم يُسَمّهم، ومع هذا فقد ضعّف قولهم بالباطل، فإن القوم فسروا النور فى الآية بأنه الهادى لم يفسروا النور فى الأسماء الحسنى، =

(١) أخرجه مسلم [١٧٩/٢٩٣] بلفظ: «لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره..».

= والحديث عن النبى ﷺ، فلا يصح تضعيف قولهم بما ضعفه.
ونحن إنما ذكرنا ذلك لبيان تناقضه، وأنه لا يحتج علينا بشىء يروج على ذى لبّ، فإن التناقض أول مقامات الفساد وهذا التفسير قد قاله طائفة من المفسرين.
وأما كونه ثابتًا عن ابن عباس أو غيره، فهذا مما لم يثبته، ومعلوم أن فى كتب التفسير من النقل عن ابن عباس من الكذب شىء كثير من رواية الكلبى عن أبى صالح وغيره، فلا بد من تصحيح النقل لتقوم الحجة، فليراجع كتب التفسير التى يحرر فيها النقل مثل تفسير محمد بن جرير الطبرى، الذى ينقل فيه كلام السلف بالإسناد، وليعرض عن تفسير مقاتل والكلبى - وقبله تفسير بقى بن مخلد الأندلسى وعبد الرحمن ابن إبراهيم دحيم الشامى، وعبد بن حميد الكشى، وغيرهم، إن لم يصعد إلى تفسير الإمام إسحاق بن راهويه وتفسير الإمام أحمد بن حنبل، وغيرهما من الأئمة الذين هم أعلم أهل الأرض بالتفاسير الصحيحة عن النبى ﷺ وآثار الصحابة والتابعين كما هم أعلم الناس بحديث النبى ﷺ وآثار الصحابة والتابعين، فى الأصول والفروع، وغير ذلك من العلوم.
فأما أن يثبت أصلا يُجعله قاعدة بمجرد رأى، فهذا إنما ينفق على الجهال بالدلائل الأغشام فى المسائل. وبمثل هذه المنقولات - التى لا يميز صدقها من كذبها والمعقولات، التى لا يميز صدقها من خطئها -ضل من ضل من أهل المشرق فى الأصول والفروع والفقه والتصوف.
وما أحسن ما جاء هذا فى آية النور التى قال الله تعالى فيها: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ [النور: ٤٠] نسأل الله أن يجعل لنا نوراً.
ثم نقول هذا القول الذى قاله بعض المفسرين فى قوله: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾
أى: هادى أهل السماوات والأرض لا يضرنا، ولا يخالف ما قلناه، فإنهم قالوه فى تفسير الآية التى ذكر النور فيها مضافاً، لم يذكروه فى تفسير نور مطلق كما ادّعيت أنت من ورود الحديث به، فأين هذا من هذا؟
ثم قول من قال من السلف: «هادى أهل السماوات والأرض» لايمنع أن يكون فى نفسه نوراً، فإن من عادة السلف فى تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر من الأسماء أو بعض أنواعه، ولا ينافى ذلك ثبوت بقية الصفات للمسمى، بل قد يكونان متلازمين، ولا دخول لبقية الأنواع فيه. وهذا قد قررناه غير مرة فى القواعد المتقدمة، ومن تدبره عَلِمَ أن أكثر أقوال السلف فى التفسير متفقة غير مختلفة.
مثال ذلك قول بعضهم فى الصراط المستقيم إنه الإسلام، وقول آخر إنه القرآن، =

. . . .

= وقول آخر إنه السنة والجماعة، وقول آخر إنه طريق العبودية، فهذه كلها صفات له متلازمة لا مباينة، وتسميته بهذه الأسماء بمنزلة تسمية القرآن، والرسول بأسمائه بل بمنزلة أسماء الله الحسنى.

ومثال الثانى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢] فذكر منهم صنفًا من الأصناف والعبد يعم الجميع، فالظالم لنفسه المخل ببعض الواجب، والمقتصد القائم به، والسابق المتقرب بالنوافل بعد الفرائض.

وكل من الناس يدخل فى هذا بحسب طريقه فى التفسير والترجمة ببيان النوع والجنس؛ ليقرب الفهم على المخاطب، كما لو قال الأعجمى ما الخبز؟ فقيل له: هذا، وأشير إلى الرغيف، فالغرض الجنس لا هذا الشخص، فهكذا تفسير كثير من السلف وهو من جنس التعليم، فقول من قال: ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هادى أهل السماوات والأرض، كلام صحيح، فإن من معانى كونه نور السماوت والأرض أن يكون هاديًا لهم، أما أنهم نفوا ما سوى ذلك، فهذا غير معلوم، وأما أنهم أرادوا ذلك، فقد ثبت عن ابن مسعود أنه قال: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السماوات من نور وجهه»(١) وقد تقدم عن النبى ﷺ من ذكر نور وجهه، وفى رواية النور ما فيه كفاية، فهذا بيان معنى غير الهداية.

قد أخبر الله فى كتابه أن الأرض تشرق بنور ربها (٢) فإذا كانت تشرق من نوره كيف لا يكون هو نورًا؟ ولا يجوز أن يكون هذا النور المضاف إليه إضافة خلق وملك واصطفاء كقوله: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣] ونحو ذلك لوجوه:

أحدها: أن النور لم يضف قط إلى الله إذا كان صفة لأعيان قائمة، فلا يقال فى المصابيح التى فى الدنيا إنها نور الله، ولا فى الشمس والقمر، وإنما يقال كما قال عبد الله بن مسعود: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السماوات من نور وجهه».

وفى الدعاء المأثور عن النبى ﷺ : «أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة»(٣). =

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره.

(٢) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة [٢/ ٣٣]. وقال الهيثمى فى المجمع [٦/ ٣٨]: رواه الطبرانى، وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات.

= **الثانى:** أن الأنوار المخلوقة كالشمس والقمر تشرق لها الأرض فى الدنيا، وليس من نور إلا هو خلق من خلق الله، وكذلك من قال: «منور السماوات والأرض» لا ينافى أنه نور، وكل منور نور، فهما متلازمان.

ثم إن الله تعالى ضرب مثل نوره الذى فى قلوب المؤمنين بالنور الذى فى المصباح، وهو فى نفسه نور، وهو منور لغيره، فإذا كان نوره فى القلوب هو نور وهو منور، فهو فى نفسه أحق بذلك، وقد علم أن كل ما هو نور فهو منوّر.

وأما قول من قال معناه: منور السماوات بالكواكب، فهذا إن أراد به قائله أن ذلك من معنى كونه «نور السماوات» وأنه أراد به ليس لكونه نور السماوات والأرض معنى إلا هذا، فهو مبطل؛ لأن الله أخبر أنه نور السماوات والأرض، والكواكب لا يحصل نورها فى جميع السماوات والأرض.

وأيضا فإنه قال: ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: ٣٥] فضرب المثل لنوره الموجود فى قلوب المؤمنين. فعلم أن النور الموجود فى قلوب المؤمنين نور الإيمان والعلم مراد من الآية، لم يضربها على النور الحسى الذى يكون للكواكب. وهذا هو الجواب عما رواه عن ابن عباس فى رواية أخرى وأبى العالية والحسن بعد المطالبة بصحة النقل، والظن ضعفه عن ابن عباس؛ لأنهم جعلوا ذلك من معانى النور، أما أن يقولوا قوله : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ليس معناه إلا التنوير بالشمس والقمر والنجوم فهذا باطل قطعاً.

وقد قال ﷺ : «أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن» (١).

ومعلوم أن العميان لا حظَّ لهم فى ذلك، ومن يكون بينه وبين ذلك حجاب لاحظَّ له فى ذلك، والموتى لا نصيب لهم من ذلك، وأهل الجنة لا نصيب لهم من ذلك، فإن الجنة ليس فيها شمس، ولا قمر كيف وقد روى أن أهل الجنة يعلمون الليل والنهار بأنوار تظهر من العرش مثل ظهور الشمس لأهل الدنيا، فتلك الأنوار خارجة عن الشمس والقمر.

وأما قوله: قد قيل بالأدلة والحجج فهذا بعض معنى الهادى، وقد تقدم الكلام على قوله: هذا يبطل قوله أن التأويل دفع للظاهر، ولم ينقل عن السلف، فإن هذا الكلام مكذوب علىّ، وقد ثبت تناقض صاحبه، وأنه لم يذكر عن السلف إلا ما اعترف بضعفه.

وأما الذى أقوله الآن وأكتبه - وإن كنت لم أكتبه فيما تقدم من أجوبتى، وإنما أقوله فى كثير من المجالس - إن جميع ما فى القرآن من آيات الصفات فليس عن الصحابة=

(١) سبق تخريجه.

= اختلاف فى تأويلها، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما رووه من الحديث، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير، فلم أجد إلى ساعتى هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات الصفات، أو أحاديث الصفات، بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف، بل عنهم من تقرير ذلك وتثبيته وبيان أن ذلك من صفات الله ما يخالف كلام المتأولين ما لا يحصيه إلا الله، وكذلك فيما يذكرونه آثرين وذاكرين عنهم شئ كثير.

وتمام هذا أنى لم أجدهم تنازعوا إلا فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فروى عن ابن عباس(١) وطائفة أن المراد به الشدة، إن الله يكشف عن الشدة فى الآخرة.

وعن أبى سعيد وطائفة أنهم عدُّوها فى الصفات للحديث الذى رواه أبو سعيد فى الصحيحين(٢).

ولا ريب أن ظاهر القرآن لا يدل على أن هذه من الصفات، فإنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ نكرة فى الإثبات لم يضفها إلى الله، ولم يقل عن ساقه، فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها، ومعناها المعروف، ولكن كثيراً من هؤلاء يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولاً له، ثم يريدون صرفه عنه ويجعلون هذا تأويلاً، وهذا خطأ من وجهين كما قدمناه غير مرة.

وأما قوله: «لو كان نوراً حقيقة كما تقوله المشبهة لوجب أن يكون الضياء ليلاً ونهاراً على الدوام» فنحن نقول بموجب ما ذكره من هذا القول، فإن المشبهة يقولون إنه نور كالشمس، والله تعالى ليس كمثله شىء، فإنه ليس كشىء من الأنوار كما أن ذاته ليست كشىء من الذوات لكن ما ذكره له حجة عليه، فإنه يمكن أن يكون نوراً يحجبه عن خلقه كما قال فى الحديث: «حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» (٣). =

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره [٢٩/٣٨] والحاكم فى المستدرك [٢/٤٩٩، ٥٠٠] وصححه، ووافقه الذهبى. والبيهقى فى الأسماء والصفات [٤٣٧]، وذكره السيوطى فى الدر المنثور [٨/ ٢٥٤].

(٢) أخرجه البخارى [٤٩١٩] بلفظ: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحدا». وأخرجه مسلم [١٨٣/ ٣٠٢] مطولاً .

(٣) أخرجه مسلم [١٧٩/ ٢٩٣].

الوحى؛ لينير طريق الحياة للناس.

إذن.. كانوا يتفاءلون بالنور حين يأتى من المشرق؛ لذا اتخذت مريم أتخذت مكانها ناحية المشرق.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٧]، الحجاب هو ما يجعله الإنسان حاجباً له عن غيره، وحاجباً لغيره عنه. والحجاب مرة يكون مفرداً فهو ساتر فقط، ومرة يكون مركباً، مثل الستائر التى نراها على النوافذ؛ مرة تكون الستارة مفردة، ومرة تكون مكونة من طبقتين حتى تحجب الضوء.

= لكن هنا غلط فى النقل، وهو إضافة هذا القول إلى المشبهة، فإن هذا من أقوال الجهمية المعطلة أيضا كالمريسى، فإنه كان يقول: إنه نور وهو كبير الجهمية، وإن كان قصده بالمشبهة من أثبت أن الله نور حقيقة، فالمثبتة للصفات كلهم عنده مشبهة، وهذه لغة الجهمية المحضة يسمون كل من أثبت الصفات مُشَبِّهًا، فقد قدمنا أن ابن كُلاّب والأشعرى وغيرهما ذكروا أن نفى كونه نوراً فى نفسه هو قول الجهمية والمعتزلة، وأنهما أثبتا أنه نور، وقررا ذلك هما وأكابر أصحابهما، فكيف بأهل الحديث، وأئمة السنّة، وأول هؤلاء المؤمنين بالله وبأسمائه وصفاته ورسول الله ﷺ، وقد أجاب النبى ﷺ عن هذا السؤال الذى عارض به المعترض فقال ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماأدركه بصره من خلقه»(١).

فأخبر أنه حجب عن المخلوقات بحجابه النور أن تدركها سبحات وجهه، وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، فهذا الحجاب عن إحراق السبحات يبين ما يرد فى هذا المقام.

وأما ما ذكره عن ابن عباس فى روايته الأخرى فمعناه بعض الأنوار الحسية، وما ذكره من كلام العارفين فهو بعض معانى هدايته لعباده، وإنما ذلك تنويع بعض الأنواع بحسب حاجة المخاطبين كما ذكرناه من عادة السلف أن يفسرها بذكر بعض الأنواع يقع على سبيل التمثيل لحاجة المخاطبين لا على سبيل الحصر، والتحديد.

فقد تبين أن جميع ما ذكر من الأقوال يرجع إلى معنيين من معانى كونه نور السماوات والأرض، وليس فى ذلك دلالة على أنه فى نفسه ليس بنور.

[تفسير سورة النور: ٢٠٤-٢٢٧]

(١) أخرجه مسلم [١٧٩/ ٥٩٣].

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورا ﴾ [الإسراء: ٤٥].

قال تعالى: ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورا ﴾ ، مع أن الحجاب يكون ساتراً ، ولكنه هنا مستور بحجاب آخر، وقلنا مثلها الظل الظليل لأن الظل يحجب عنك الشمس، ولكن لكى يحجب الظل عنك الشمس بأشعتها وحرارتها، فلا بد أن يكون مركباً، أى أن الظل الذى يحجب عنك الشمس مُظَلَّلٌ أيضًا، فهو ظل ظليل؛ أى: ظل مظلل.

وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾(١). كلمة الروح لها إطلاقات متعددة فى القرآن، أول هذه الإطلاقات التى نفهمها: أنها قوام حياتنا المادية، فإذا نفخ فى الإنسان الروح يصير فى هذه المادة حس وحركة ونشاط وكل أجهزتة تعمل، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: ٧٢].

فهذه هى الروح التى تجعل المادة تحس وتتحرك، ولكن هل هذه الحياة

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ الآية: فيه قولان:

أحدهما: يعنى الروح التى خلق منها المسيح حتى تمثل لها بشراً سويًا.

الثانى: أنه جبريل، قاله الحسن، وقتادة، والسدى، وابن جريج، وابن منبه.

وفى تسميته له روحاً وجهان:

أحدهما: لأنه روحانى لا يشوبه شيء غير الروح، وأضافه إليه بهذه الصفة تشريفاً له.

الثانى: لأنه تحيا به الأرواح.

واختلفوا فى سبب حملها على قولين:

أحدهما: أن جبريل نفخ فى جيب درعها وكمها فحملت، قاله ابن جريج، ومنه قول أميةبن أبى الصلت:

فَأهْوَى لها بِالنَّفْخِ فى جيب دِرْعِها ... فَألْقَتْ سَوِيّ الْخَلْقِ لَيْس بِتوْأَمِ

الثانى: أنه ما كان إلا أن حملت فولدته، قاله ابن عباس. [تفسير الماوردى: ٣/ ٣٦٢]

التى نحياها من حس وحركة ونشاط هى الحياة المقصودة؟ إن كانت هذه هى الحياة المقصودة فما أهونها! لأن الإنسان قد يمكث بها ساعة، ثم يموت، أو يوماً ثم يموت، أو سنة، أو بضع سنين وبعدها يموت، ولكن الحقيقة أن هناك حياة أخرى خير وأبقى؛ ولذلك يقول الحق سبحانه:
﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

أى أن هذه هى الحياة الحقيقية؛ لأن الحياة الدنيا لا تدوم لإنسان، يحيا فيها حياة قصيرة، ثم تنتهى، وحتى لو عاش إلى أن يبلغ الشيخوخة والهرم، فلابد أنه سيتركها ويموت. فإن كنت تريد الحياة الحقيقية فهى الحياة التى لا يهددك فيها موت، وهذا لا يَتَأَتَّى إلا فى الآخرة، وإذا كان الله تعالى جعل فى الدار الدنيا روحاً يتحرك الجسم بها ويأخذ نشاطه، فإنه جعل فى الدار الحقيقية الباقية روحًا تناسبها وتناسب بقاءها وسرمديتها.

واقرأ قول الله تعالى: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ إنه يخاطبهم وهم أحياء! ولكنهم أحياء فى الحياة الدنيا.

إذن.. هناك حياة أخرى يدعوهم للاستجابة لها، فإن لم يستجيبوا فإنهم يكونون بذلك قد فقدوا الحياة الحقيقية الباقية، فكما سمّى الله تعالى السر الذى ينفخه فى المادة فتتحرك وتحس وتأخذ حياتها المادية: «الروح»، سمّى القيم التى تُبقى لك الحياة السعيدة فى الآخرة روحًا أيضًا؛ ولذلك يسمى القرآن روحاً، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

وسمى الذى نزل بالقرآن وهو جبريل عليه السلام الروح الأمين، قال تعالى:
﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) ﴾ [الشعراء].

إذن.. هناك حياتان: حياة مادية لها النور المادى وهى الروح التى تجعل الأشياء تتحرك وتحس، وبعد ذلك حياة قيمية، وإذا اتبعنا الحياة

القيمية نفوز بالحياة السرمدية، فالحق سبحانه وتعالى يسمى الوحى الذى ينزل بالروح القيمية روحاً، ويسمى ما ينزل به روحاً أيضاً.

الله تعالى يقول: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ [مريم: ١٧] وهو جبريل، وكلمة: ﴿ فَتَمَثَّلَ ﴾ تعنى أن هذه ليست صورته وليست حقيقته، ولكن حقيقته شيء مختلف من نورانية وشفافية، وغير ذلك من الأجنحة مثنى وثلاث ورباع، وحقائق أخرى، ولكنه لم يظهر لها على حقيقته وتمثل لها فى صورة بشر؛ لأنه لا يمكن أن يلتقى الملك بملكيته مع البشر ببشريته(١)، ولأن هذا له قانون وهذا له قانون، فإما أن يتمثل الملك فى صورة بشر، وإما أن الإنسان نفسه يرقيه الله؛ ليأخذ صفة الملائكة، كما رقَّى النبى محمداً ﷺ فى المعراج، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾ [الإسراء].

ويقول أيضاً: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩].

فليس من الممكن أن يتفاهم معهم الملك، إلا إذا تمثل فى صورة بشر وذلك

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أى: على صورة إنسان تام كامل. قال مجاهد والضحاك، وقتادة، وابن جريج، ووهب بن مبنه، والسدى فى قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ يعنى: جبرائيل عليه السلام. وهذا الذى قالوه هو ظاهر القرآن؛ فإنه تعالى قد قال فى الآية الأخرى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) ﴾ [الشعراء]. [تفسير ابن كثير: ٣/ ١١٢]

وقال القرطبى: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا ﴾ أى: تمثل الملك لها. ﴿ بَشَرًا ﴾ تفسير أو حال ﴿ سَوِيًّا ﴾ أى: مستوى الخلقة؛ لأنها لم تكن لتطيق أو تنظر جبريل فى صورته. [تفسير القرطبى: ١١/ ٩١]

من أجل الإيناس؛ لأن الناس لم يروا الملائكة، فربما لو رأوا الملك على صورته الحقيقية يحدث لهم رعب وفزع، فلابد أن يتمثل فى صورة بشر .

إذن . . تمثل جبريل لمريم فى صورة بشر من جنسها؛ لأنها لم تكن لتطيق النظر إليه وهو فى صورته الحقيقية.

ومعنى: ﴿ **سَوِيًّا** ﴾ **يقال: فلان سَوِىٌّ** التكوين إذا كانت أبعاض جسمه **منسجمة مع بعضها؛ فليست** جبهته عريضة أو أنفه مفلطحًا أو ظهره **مقوساً أو فيه** عيب ظاهر؛ ولكنه بشر سوى أى: مستوى الأعضاء والأبعاض، وذلك للإيناس، وأيضاً ليثبت أن مريم عفيفة شريفة، بدليل أنها لما رأت هذا الإنسان السوى الوسيم الجميل قالت: ﴿ **إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا** ﴾ [مريم:١٨] .

ومعنى: ﴿ **أَعُوذُ** ﴾ أى: ألتجئ إلى الله سبحانه؛ لأنى أخاف أن تعتدى علىّ وأنا امرأة ضعيفة. وإذا استعذت بالله تعالى، فافهم أن الذى يحترم استعاذة إنسان بربه هو الإنسان المؤمن؛ فإن استعاذ أحد بالله تعالى أمامه يعفو عنه؛ لأنه لا يستطيع أن يجترئ على من استعاذ بربه(١).

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿ **قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا** ﴾ أى: لما تَبَدَّى لها الملك فى صورة بشر وهى فى مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها فقالت: ﴿ **إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا** ﴾ أى: إن كنت تخاف الله، تذكيرًا له بالله، وهذا هو المشروع فى الدفع أن يكون بالأسهل، فالأسهل، فخوفته أولاً بالله عز وجل. [تفسير ابن كثير: ٣/ ١١٢ ، ١١٣] وقال البغوى: ﴿ **قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا** ﴾ مؤمنًا مطيعاً. فإن قيل: إنما يُستعاذ من الفاجر، فكيف قالت: ﴿ **إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا** ﴾.

قيل: هذا كقول القائل: إن كنت مؤمناً فلا تظلمنى. أى: ينبغى أن يكون إيمانك مانعاً من الظلم، كذلك ها هنا. =

وفى السيرة النبوية إن رسول الله ﷺ لما تزوج امرأة وكان فيها شئ من الحسن، غارت منها النساء وكِدْنَ لها، وقُلْنَ: إن أردت أن تحظى عنده، فتعوذى بالله منه إذا دخل عليك. فلما دخل عليها النبى ﷺ قال: «هبى نفسك لى»، قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة، فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: «لقد عذتِ بمعاذ»، وفى رواية أخـرى: «لقد عذت بعظيم، الحقى بأهلك». ثم خرج وقال: «يا أبا أُسيد اكْسُها رازقِيَّين، وألحقها بأهلها»[1].

فالذى يحترم الاستعاذة بالله تعالى هو من يخشاه ويتقيه. فالسيدة مريم قالت للمَلَك الذى تمثل لها فى صورة بشر: إن كنت تقيًّا، فابتعد عنى، أى: إن كنت تقيًّا فاحترم هذه الاستعاذة.

وكلمة: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ﴾ تعنى أن عندها أملاً؛ فحتى إن لم يكن هذا الرجل تقيا فرحمة ربها تقيها منه.

= معناه: ينبغى أن تكون تقواك مانعاً لك من الفجور. [تفسير البغوى: ٥/٢٢٣]

وقال أبو حيان: تعليقها الاستعاذة على شرط تقواه؛ لأنه لا تنفع الاستعاذة ولا تجدى إلا عند من يتقى الله، أى: إن كان يرجى منك أن تتقى الله وتخشاه، وتحفل الاستعاذة به، فإنى عائذة به منك. وجواب الشرط محذوف، أى: ﴿إِنِّى أَعُوذُ﴾

وقال الزجاج: فستتعظ بتعويذى بالله منك. وقيل: فاخرج عنى. وقيل: فلا تتعرض لى. وقول من قال: تقى اسم رجل صالح أو رجل فاسد ليس بسديد. وقيل: ﴿إن﴾ نافية، أى: ما ﴿كُنتَ تَقِيًّا﴾ أى: بدخولك علىَّ ونظرك إلىّ، ولياذها بالله وعياذها به وقت التمثيل، دليل على أنه أول ما تمثل لها استعاذت من غير جرى كلام بينهما. [البحر المحيط: ٧/٢٤٨، ٢٤٩]

(١) أخرجه البخارى [٥٢٥٤، ٥٢٥٥]

وقال ابن حجر فى الفتح [١٠/٤٥٢]: قوله: «فقال: قد عذت بمعاذ» هو بفتح الميم ما يستعاذ به، أو اسم مكان العوذ، والتنوين فيه للتعظيم.

وقوله: «ثم خرج علينا فقال: يا أبا أسيد اكسها رازقيين» براء ثم زاى ثم قاف بالتثنية، صفة موصوف محذوف للعلم به. والرازقية: ثياب من كتان بيض طوال، قاله أبو عبيدة. وقال غيره: يكون فى داخل بياضها زرقة.

فماذا قال لها الملك؟ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ ؛ أى أنا لست قادماً من تلقاء نفسى، ولكنى رسول من عند ربك إليك. لم يقل رسول الله تعالى؛ لأن الرب هو المتولى التربية، والذى تولى تربية شىء يصونه عن أى إفساد؛ ولأن الربوبية عطاء مادى ، أما الألوهية فعطاء معنوى للقيم والعبادة.

وكلمة: ﴿ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ كان المفروض أن يفهم منها أنها هبة ، فليست مسألة أسباب، ولكن الأمر هبة من عند الله. كما كان يحيى عليه السلام هبة من الله للنبى زكريا؛ لأن زكريا كان قد بلغ من الكبر عتيًا وامرأته كانت عاقرا لا تلد،لكن فى مسألة مريم هناك أنوثة فقط بدون ذكورة (١).

(١) قال الشنقيطى فى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة:أن ذلك الروح الذى هو جبريل قال لها: إنه رسول ربها ليهب لها،أى:ليعطيها غلاما،أى: ولدا زكيا؛أى: طاهراً من الذنوب والمعاصى، كثير البركات. وبين فى غير هذا الموضع كثيراً من صفات هذا الغلام الموهوب لها، وهو عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ؛ كقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ الآية،إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على صفات هذا الغلام.وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وورش عن نافع، وقالوا عنه أيضاً بخلف عنه «ليهب» بالياء المفتوحة بعد اللام أى:ليهب لك هو؛ أى ربك غلامًا زكيًا.وقرأ الباقون «لأهب» بهمزة المتكلم؛أى:لأهب لك أنا أيها الرسول من ربك غلامًا زكياً.

وفى معنى إسناده الهبة إلى نفسه على قراءة الجمهور خلاف معروف بين العلماء. وأظهر الأقوال فى ذلك عندى:أن المراد بقول جبريل لها: ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ أى:لأكون سببًا فى هبة الغلام بالنفخ فى الدرع الذى وصل =

وقوله تعالى: ﴿ غُلامًا زَكِيًّا ﴾: هناك ذكى من الذكاء ، وزكى أى مطهر وصافٍ ونقى، وحين قال لها الملك: ﴿ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾، كانت الفطنة تقتضى معرفة أنه هبة، وما دام هبة ، فلا تسألى عن الأسباب.

فماذا كان رد فعل السيدة مريم عليها السلام؟ ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ نحن نعرف أن التقاء الرجل بالمرأة له وسائل:

الأولى: شرعها الخالق سبحانه وهى الزواج الشرعى بأركانه المعروفة، وهنا يكون مَسُّ الذكر للأنثى حلالاً ؛ لأنها زوجته.

الثانية: الاتصال المحرم بين الرجل والمرأة، وهو الزنا، فإذا تم هذا الأمر بموافقة الأنثى فهو زنا، وفيه حكم شرعى، وإذا تم رغماً عنها فهو اغتصاب. كل ذلك أوضحه الشرع ، فالحلال هو الزواج المعروف شرعاً من إيجاب وقبول وشهود وما إلى ذلك؛ بغرض التكاثر وحفظ النوع وإقامة مجتمع صالح، والحالة الأخرى وهى الحرام لها عدة حالات كما قلنا ، فإما أن يتم قهراً عن الأنثى فهو اغتصاب، وإما أن يستدرجها حتى

= إلى الفرج، فصار بسببه حملها عيسى. وبين تعالى فى سورة التحريم أن هذا النفخ فى فرجها فى قوله تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم: ١٢] الآية. والضمير فى قوله: ﴿ فِيهِ ﴾ راجع إلى فرجها. ولا ينافى ذلك قوله تعالى فى الأنبياء: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ ؛ لأن النفخ وصل إلى الفرج فكان منه حمل عيسى. وبهذا فسر الزمخشرى فى الكشاف الآية.
وقال بعض العلماء: قول جبريل: ﴿ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾ حكاية منه لقول الله جل وعلا. وعليه فالمعنى: إنما أنا رسول ربك، وقد قال لى أرسلتك؛ لأهب غلاماً. والأول أظهر . وفى الثانى بعد عن ظاهر اللفظ.
وقال بعض العلماء: جعل الهبة من قِبَله، لما كان الإعلام بها من قِبَله. وبهذا صدر القرطبى فى تفسيره. وأظهرها الأول. والعلم عند الله تعالى.
[أضواء البيان: ٤/ ٢٥٥-٢٥٧]

توافق على الفاحشة ، وإما أن تكون هى التى غوته لارتكاب هذه الفعلة الشنيعة.

فمريم عليها السلام استغربت؛ لأن هذه الحالات ليست عندها ، فلم يمسسها بشر لا بطريق الحلال ولا بطريق الحرام معاذ الله تعالى. فهى بذلك منعت الأحوال كلها التى تؤدى إلى حدوث هذا الأمر.

إذن. . وسيلة وجود غلام لها وسيلة لا سبب لها؛ لأنها لم يمسسها بشر.

كلمة: «مسنّى بشر» إذا جاءت فى القرآن فمعناها النكاح ،واقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

فالمس بمعنى النكاح. والإمام أبو حنيفة رضى الله عنه لما وقف عند قول الله تعالى: ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾. قال: ليس المراد اللمس أو الملامسة، ولكن المقصود هنا الجماع. فكلمة: ﴿ لامَسْتُمْ ﴾؛ أى: جامعتم.

وكلمة: ﴿ أَنَّى ﴾ يستفهم بها عن الكيفية ، ومريم حين تحدثت منعت الكيفيات التى تعرفها من الزواج الحلال أو الالتقاء الحرام. والبغىّ: هى التى تبغى الرجال ، وتتخذ مكاناً معروفاً لممارسة هذا الإثم ،وهناك معنىً آخر للكلمة ﴿ بَغِيًّا ﴾ أى: مبالغة فى البغى؛ وهو الظلم.

وبعد ذلك رد عليها الملك بقول الله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾(١) [مريم: ٢١].

((١) قال القاسمى: ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أى: تعجبت من هذا وقالت: كيف يكون لى غلام؟ أى على أى صفة يوجد منى، ولست بذات زوج ولا يتصور منى الفجور؟
=

كما قال الحق فى قصة زكريا ويحيى عليهما السلام بعد أن تعجب زكريا وقال: ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٨] قال له الحق تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٩].

وأنت حين تستعجب من أمر جاءك ممن هو أعلى منك تقول: كيف يحدث هذا ؟ فيقول لك هو كذلك، أى أنه كلام أصدره من يملك التنفيذ.

= قال الزمخشرى: جعل المس عبارة عن النكاح الحلال؛ لأنه كناية عنه. كقوله تعالى: ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [النساء: ٤٣] والزنا ليس كذلك. إنما يقال فيه: «فجر بها، وخبث بها» وما أشبه ذلك. وليس بقمن (١) أن تراعى فيه الكنايات والآداب. وإنما اقتصر فى سورة آل عمران على قوله: ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [آل عمران: ٤٧] لكون هذه السورة متقدمة النزول عليها. فهي محل التفصيل. بخلاف تلك؛ فلذا حسن الاكتفاء فيها. وقيل: جعل المس ثَمّ، كناية عنهما، على سبيل التغليب. و «البغىّ» الفاجرة التى تبغى الرجال. ووزنه «فعول» ولذا لم تلحقه التاء؛ لأنه يستوى فيه المذكر والمؤنث، وإن كان بمعنى فاعل كصبور. أو فعيل بمعنى فاعل، ولم تلحقه التاء؛ لأنه للمبالغة.

وقوله: ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾. ﴿ قَالَ ﴾ أى: الملك ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أى: برهاناً يستدلون به على كمال قدرة بارئهم وخالقهم الذى نوَّع خلقهم. فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى. وخلق حواء من ذكر بلا أنثى. وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى لا ذكر. فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أى: عليك بهذه الكرامة، وعلى قومك بالهداية والدعاء إلى عبادة الله وتوحيده، فيهتدون بهديه ويسترشدون بإرشاده. وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ من تتمة كلام جبريل لمريم. يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم الله تعالى وقدره ومشيئته. أو من خبره تعالى لنبيه صلوات الله عليه. وأنه كنّى بـه عن النفخ فى فرجها. كما قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم: ١٢] وقال: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء: ٩١]. [تفسير القاسمى: ١١/ ٤١٣٢، ٤١٣٣]

(١) قمن: أى حرىّ. ابن سيده، هو قمنٌ بكذا وقمنَ منه، وقَمِنَ وقمين أى: حر وخليق وجدير. [لسان العرب: ١٣/ ٣٤٧]

لكن بعض الجاهلين بلغة القران يقولون: فى السورة الواحدة وفى السياق الواحد، يقول القرآن فى الرد على زكريا: ﴿كَذَلِكَ﴾ بفتح الكاف الأخيرة، وفى الرد على مريم قال: ﴿كَذَلِكِ﴾ بكسر الكاف الأخيرة، فأيهما الأصح والأبلغ؟ نقول لهم: أنتم لم تفهموا اللغة العربية؛ لأن «ذا» اسم إشارة والكاف للخطاب، فإن خاطب ذكراً يقول: ﴿كَذَلِكَ﴾ بفتح الكاف وإن خاطب أنثى يقول: ﴿كَذَلِكِ﴾ بكسر الكاف.

والرب هو المتولى التربية والذى يتولى ربه تربيته ، يربيه التربية التى تعينه على مهمته المرادة منه.

وقال تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كما قال فى الرد على زكريا أيضًا؛ وكلمة هين وأهون بالنسبة لله تعالى لا تأتى على حقيقتها؛ لأن كلمة: هين معناها أن هناك أهون، وهذا بالنسبة للفعل حين يعالجه الإنسان؛ فهناك فعل صعب بالنسبة له وغيره أصعب، وأقل منه هين أو أهون؛ لأن الإنسان يفعل على قدر طاقته، ولكن ربنا لا يعالج، وإنما يقول للشيء: كن فيكون ، ولكنه يكلمنا بالأسلوب الذى نفهمه، فيعرفنا أنه إن كان قد خلقنا من غير شيء، فإعادة خلقنا من أشياء أهون، وهذا بمنطقنا نحن، فهو سبحانه يخاطبنا على قدر عقولنا.

فخلْق عيسى عليه السلام من أم بدون أب، شيء هين على الخالق سبحانه. والحق سبحانه يريد أن يجعل خلق عيسى عليه السلام آية للناس، والآية تعنى الأمر العجيب الذى يخرج عن مألوف العادة والأسباب.

ولذلك يقولون : فلان آية فى الحسن ، وفلان آية فى الذكاء، وهذا آية فى الأخلاق .

فالآية أن يكون الإنسان عالماً بأن ربه الذى خلقه قادر على أن يخلقه

على أى وجه شاء، وإياكم أن تتصوروا أن إيجاد التكاثر لابد فيه من ذكر وأنثى؛ لأن الله تعالى خلق أولاً بدون ذكر وأنثى، وخلق من ذكر دون أنثى، وخلق من أنثى دون ذكر، وقد يكون الذكر والأنثى ولا يحدث تكاثر ؛ لأن الأمر كله لله تعالى؛ فهو سبحانه يهب لمن يشاء ويجعل من يشاء عقيمًا، فالمسألة ليست ميكانيكية،ولكنها تبع لإرادة الخالق سبحانه وتعالى.

وهذه القضية آية ورحمة؛ لأن الله تعالى رحم بها الناس من أن الشك فى أن قدرته سبحانه منوطة بأسباب ولا نستطيع بغيرها أن نفعل؛ لأن مجرد هذا الخاطر بالنسبة لله تعالى لا يصحّ ، فرحِمَنا الله سبحانه من الخواطر، بواقع يؤكد أن طلاقة القدرة تأتى بأى شىء من لا شىء ، أو من بعض الشىء.

ويقول الحق تعالى فى سورة آل عمران: ﴿ **قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [آل عمران: ٤٧] .

ونريد أن نقف وقفة تأمل وتدبر عند قول مريم عليها السلام: ﴿ **رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ** ﴾

فلو أنها سكتت عند قولها: ﴿ **أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ** ﴾ لكان تساؤلها أمراً معقولاً، ولكن إضافتها ﴿ **وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ** ﴾ تثير سؤالاً : من أين أتت بهذا القول؟ هل قال لها أحد إنك ستلدين ولداً من غير أب؟ إن الملائكة لم تخبرها بذلك، لكن ذهنها انصرف إلى مسألة المس مباشرة. . لماذا؟ إنها فطرة وفطنة المعرفة فى التلقى عن الله تعالى،عندما قيل لها: ﴿ **اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾ [آل عمران: ٤٥] . قالت لنفسها: ما دامت نسبته إلىّ

فلا أب له؛ لذلك جاء قولها: ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾؛ إذ لا يمكن أن ينسب الطفل للأم مع وجود الأب.

هكذا نرى فطنة التلقى عن الله فى مريم البتول؛ لقد مر بها خوف عندما عرفت أن عيسى منسوب إليها ؛ قالت لنفسها: إن الحمل بعيسى لن يكون بواسطة أب، وكيف يكون الحمل دون أن يمسسنى بشر، فقال الخالق القادر جل وعلا: ﴿ كَذَلِكِ ﴾ أى لن يمسك بشر، وكان من الممكن أن يقول لها: لقد نسبناه لك؛ لأنك منذورة لخدمة البيت، لكن الحق قال: ﴿ كَذَلِكِ ﴾ تأكيداً لما فهمته من أنها ستنجب عيسى دون أن يمسها بشر، وتتجلى طلاقة القدرة فى قوله سبحانه: ﴿ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

إنها طلاقة القدرة، وطلاقة القدرة فى كثرة النسل لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة، ولو كانت متوقفة على إيجاد ذكورة وأنوثة، فكيف خُلِقَ آدم أول وهو أول الناس؟!

إن الخالق جل وعلا قادر على أن يخلق بغير وجود الذكورة والأنوثة، كخلقه لآدم عليه السلام، ويخلق بالذكورة والأنوثة ،وهذه تتضح فى خلق جمهرة الناس، ولا تظن أنه باجتماع الذكورة والأنوثة يمكن أن يتحقق الخلق؛ فقد توجد الذكورة والأنوثة، ولا يوجد إنجاب؛ يقول تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى] .

هذه هى إرادة الحق سبحانه.

إذن . . فلا تقولنَّ: إن اكتمال عنصرى الذكورة والأنوثة يُحْدِثُ الحقُّ

سبحانه بهما الخلقَ، فالخلق يَحْدُثُ بإرادة الخالق سبحانه: ﴿ **كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾(١).

إذن.. أنتم أيها المُحْدَثونَ تفعلون بالأسباب، لكن الذى خلقكم، وخلق الأسباب لكم هو الذى بيده أن يخلق بلا أسباب؛ لأنه أنشأ أول ما أنشأ بدون أسباب.

قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا** ﴾ أى: منتهيًا لا مناقشة فيه؛ لأن الكلام عما يأتى مستقبلاً إن كان من متكلم لا يملك إنفاذ الكلام ربما تغير رأيه، فيقول: أفعل هذا الشىء غداً، وقد يأتى الغد فيموت، أو أن الشىء نفسه لا يكون موجوداً، أو هو موجود ولكن النية تغيرت، أو أن النية موجودة ولكن الإمكانات لم تتوفر؛ فالإنسان لا يملك من أمره شيئاً، والذى يملك كل شىء هو الخالق سبحانه وتعالى.

---

(١) قال القرطبى: فرُوى أن جبريل عليه السلام حين قال لها: ﴿ **كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ** ﴾، ﴿ **قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** ﴾. نفخ فى جيب درعها وكمها؛ قاله ابن جريج. قال ابن عباس: أخذ جبريل رُدْنَ (١) قميصها بأصبعه، فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى. وقيل غير ذلك على ما يأتى بيانه فى سورتها إن شاء الله تعالى(٢). وقال بعضهم: وقع نفخ جبريل فى رحمها فعلقت بذلك. وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل؛ لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذريته، فجعل بعض الماء فى أصلاب الآباء وبعضه فى أرحام الأمهات، فإذا اجتمع الماءان صارا ولداً، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعًا فى مريم، بعضه فى رحمها وبعضه فى صلبها، فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتها؛ لأن المرأة ما لم تهج شهوتها لا تحبل، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل، وقع الماء الذى كان فى صلبها فى رحمها، فاختلط الماءان فعلقت بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿ **إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا** ﴾ يعنى إذا أراد أن يخلق خلقًا ﴿ **فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾. [تفسير القرطبى: ٤/ ٩٢، ٩٣].

---

(١) الرُّدْن: الكمُّ. [المعجم الوسيط: ٣٣٩]

(٢) انظر [تفسير القرطبى: ١١/ ٩١].

نحن نعرف أن الأفعال منها ما هو ماض ومنها ما هو مضارع؛ فالماضى معناه: حصول شىء انتهى قبل زمن التكلُّم؛ والمضارع إما أن يوجد ساعة الكلام أو بعد الكلام لأن معناه: هو الفعلُ الدالُّ على الحال أو الاستقبال؛ مثل: أنا آكل، أو سآكل «للزمن المستقبل» .لكن الأفعال إذا جاءت مع الله تعالى الذى هو محدثها تنحل عنها صفة الماضى أو الحال والاستقبال، فإذا قال الله تعالى: ﴿ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[الأحزاب: ٧٣] ؛فليس معنى ذلك أنه كان فى الماضى فقط، ولكنه كان ولا يزال.والمقصود بالفعل ﴿ كَانَ ﴾ هنا أن هذه المغفرة والرحمة أزلية حتى قبل أن يوجد بشر يُذنب.

فالله تعالى كان خالقاً قبل أن يخلق الخلق، وكان غفوراً قبل أن يوجد من يُذنب؛ لأن المغفرة صفة من صفاته،وصفاته أزلية. ونحن حين نقول فلان شاعر، هل معنى هذا أنه شاعر لمجرد أنه قال قصيدة ؟ لا؛لأنه شاعر امتلك ناصية الشعر من وزن، وقافية ولغة تعبيرية، وحالة أو موقف نفسى أدَّى به إلى صنع القصيدة،فالشاعر كان ولا يزال شاعرًا لامتلاكه أدوات الشاعر،كذلك قول الله تعالى: ﴿ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾؛ فهو تعالى غفور قبل أن يوجد من يُذنب،ورحيم قبل أن يوجد من يرحمه.

إذن . . فالصفات أزلية فى الله تعالى؛ فإذا قال سبحانه: ﴿ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ، فالصفة ثابتة له أزلاً، وبعد ذلك بقيت له؛لأنه لا يتغير، وهذا معنى: كان ولا يزال؛ لأنه لا يحدث له تغيير .

فى استهلال سورة النحل فى قول الله تعالى:﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ بعض المشككين فى القرآن يقولون كيف يقول: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ وبعد ذلك يقول:﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ؟! لأن معنى قوله:﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ أنه لم يأت بعد؛وذلك لأنهم لا يفهمون أن الله تعالى إذا قال﴿ أَتَىٰ ﴾ فأمره سبحانه آتٍ لا ريب فيه، فليس هناك قوة تستطيع أن تعطله.

وقوله تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) ﴾ [مريم] .

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أى حملت به، ﴿ فَانتَبَذَتْ ﴾: بَعُدَت، ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ : أى بعيداً؛ لأنها شعرت بالحمل وخافت أن يَطّلع على سرها أحدٌ. وكلمة: ﴿ فَأَجَاءَهَا ﴾ أى جعلها تجىء؛ لأن جاء معناها جاء من نفسه بمحض إرادته، ولكن السيدة مريم دفعها المخاض إلى المجىء إلى جذع النخلة، أى أتى بها المخاض إلى جذع النخلة، والمخاض: هو الوجع الذى يصيب المرأة عند الولادة المباشرة ويسمونه «الطلق»، فحين جاءها المخاض أتت إلى جذع النخلة؛ لأن ألم الوضع يجعل صاحبته تمسك أى شىء حولها تستند إليه من شدة الألم، فربما جاءت إلى جذع النخلة تستند إليه، وفى الآية قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ ولم يقل: جذع نخلة مما يدل على أنها كانت نخلة معروفة، وجذع النخلة يطلق على الساق الذى يمتد من جذرها حتى الجريد[1].

لما حدث هذا الأمر لمريم، وأصبحت المسألة حقيقة واقعة من حمل ومخاض وولادة ، حدث لها نوع من النزوع الانفعالى؛ لأنها فى البداية استغربت الأمر، وقالت كيف يكون لى غلام وأنا لم يمسسنى بشر ولم أك بغياً ؟! وبعد ذلك حملت ،والحمل فى بطنها مستور، ولكن عند الوضع سينكشف الأمر، ويرى الناس الغلام وتواجهها المشاكل ، فهذا شىء صعب على النفس فى مثل هذا الموقف.

---

(١) والجِذْعُ : واحد جُذُوع النخلة، وقيل: هو ساق النخلة، والجمع أجذاع وجذوع، وقيل: لا يبين لها جِذْعٌ حتى يبين ساقُها. [لسان العرب : ٨/ ٤٥].

ولذلك تجد النزوع الانفعالى فى هذه الحالة فى قولها : ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾(1) [مريم: ٢٣].

﴿يَا لَيْتَنِي﴾ هذا تمنٍّ ، إنها تتمنى أن تكون قد ماتت قبل أن يحدث هذا الأمر، مع أن المُشَرِّع الحكيم نهانا أن نتمنى الموت، لماذا ؟ قالوا: لأن تمنى الموت ورد حينما ادَّعى اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة وأن الدار الآخرة لهم خالصة عند الله ، حينئذ نزل قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [البقرة].

---

(1) قال القاسمى فى قوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أى: لما صارت حاملاً به، اعتزلت بسببه مكاناً بعيداً من قومها، فراراً من القالة. وقد روى عن السلف أن جبريل لما قال لها، عن الله تعالى، ما قال، مما تقدم، استسلمت لقضاء الله تعالى فاطمأنت إلى قوله. فدنا منها، فنفخ فى جيب درعها. فسرت النفخة حتى ولجت فى الفرج، فحملت بإذن الله تعالى. ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أى: فألجأها ألم الولادة إلى الاستناد بالجذع؛ لتعتمد عليه وتستتر به. و «أجاء» -قال الزمخشرى منقول من «جاء» إلا استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء. وقرئ: «المخاض» بكسر الميم وكلاهما مصدر «مخضت المرأة» إذا تحرك الولد فى بطنها للخروج ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ ﴾ أى: الحمل ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أى: شيئًا تافهًا، شأنه أن يُنْسَى ولا يُعْتَدُّ به. ﴿ مَّنسِيًّا ﴾ لا يخطر على بال أحد. وهو نعت للمبالغة. وإنما قالت ذلك، لما عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود، الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد. فلحقها فرط الحياء، وخوف اللائمة إذا بهتوها وهى عارفة ببراءة الساحة، وبضد ما قرفت به، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام - قال الزمخشرى- لأنه مقام دحض، قلما تثبت عليه الأقدام، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر، تستحق به المدح وتستوجب التعظيم، ثم تراه عند الناس لجهلهم؛ به عيبًا يعاب به ويعنف بسببه. [تفسير القاسمى :١١/ ٤١٣٣ ، ٤١٣٤]

أى إن كان ما تقولونه حقاً فى الآخرة لكم وحدكم، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين فى ادّعائكم ، وفى نفس الآية أكد الحق سبحانه أنهم لن يتمنوه أبداً ؛ لأنهم أحرص الناس على حياة ؛ ولذلك فلن يتمنوا الموت أبداً.

وقلنا: إن السيدة مريم هنا تمنت الموت،مع أن الرسول ﷺ قال: «لا يَتمنَّينَّ أحدكم الموت من ضُرٍّ أصابه،فإن كان لابُدَّ فاعلاً فليقل:اللَّهُمَّ أحينى ما كانت الحياة خيراً لى،وتوفَّنِى إذا كانت الوفاة خيراً لى»(١)،إن تمنى الموت المنهى عنه يسبب حدوث ما تكره، فكأنك كرهت الحياة وتمردت على القدر فتمنيت الموت، لكن أن تتمنى الموت؛ لأنك تريد لقاء الله وتخشى الفتنة فى دينك وأنك ستصير إلى خير مما تركت،فهذا موضوع آخر(٢).

---

(١) أخرجه البخاري [٥٦٧١] واللفظ له، ومسلم [٢٦٨٠/ ١٠] عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) قال الإمام النووى: قوله ﷺ : «لايتمنين أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به، فإن كان لا بد متمنيًا فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفَّنى إذا كانت الوفاة خيراً لى» فيه: التصريح بكراهة تمنّى الموت لضرّ نزل به من مرض، أو فاقة أو محنة من عدو، أو نحو ذلك من مشاقّ الدنيا، فأما إذا خاف ضرراً فى دينه، أو فتنة فيه، فلا كراهة فيه؛ لمفهوم هذا الحديث وغيره، وقد فعل هذا الثانى خلائق من السلف عند خوف الفتنة فى أديانهم.

وفيه: أنه إن خاف ولم يصبر على حاله فى بلواه بالمرض ونحوه فليقل:«اللهم أحينى إن كانت الحياة خيراً..» إلخ، والأفضل الصبر والسكون للقضاء.

[شرح النووى على مسلم:٩/ ١١ ، ١٢].

ومعنى: ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ النسى هو الشىء التافه الذى لا يُؤْبه له وهو عادة يُنسى؛ لأنه ليس مهماً فى الحياة مثل الرجل الذى كان ضيفاً عند صديق له، وعند انصرافه نسى علبة الكبريت وفيها عودان فقط ، فرجع وقال لهم : نسيت عندكم علبة الكبريت ، فهذا شىء تافه لا يستحق الرجوع من أجله والبحث عنه ، فهذا معنى النسى؛ فكأن مريم قالت ياليتنى كنت شيئاً تافهاً لا يعرفنى أحد ولا يذكرنى أحد. والنسىء: الكثير النسيان. أما منسيًا تعنى: أنه غير مذكور (١).

ثم يقول تعالى : ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾ [مريم].

﴿مِن تَحْتِهَا﴾ بكسر الميم، وهناك قراءة: «فناداها مَن تحتها» بفتح الميم، وكلمة من تحتها: دلت على أن الذى ناداها هو الوليد الذى وضعته وهو عيسى عليه السلام، فقال لها: لا تحزنى. والحزن هنا ينشأ من أمرين: انقطاعها عن الناس، وأنها فى حالة ولادة ولم تجد أحداً يساعدها أو يرعاها أو يقدم لها شيئاً ، فقال لها إن ربك جعل تحتك سريًا. والسرىّ هو النهر الذى يجرى ماؤه زلالا.

وبالنسبة للطعام قال : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ فأعطاها سبحانه

(١) النِّسْيُ: المَنْسى. وقوله عز وجل: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فسره ثعلب فقال: النِّسْيُ خِرقُ الحيض التى يُرْمَى بها فتُنْسى، وقُرِئَ: نسْيًا، بالكسر والفتح، فمن قرأ بالكسر فمعناه حَيْضَةٌ مُلْقَاةٌ. ومن قرأ نَسْيًا فمعناه شيئاً منسيًا لا أُعْرَفُ.
والنِّسْيُ أيضًا: ما نُسِيَ وما سَقَطَ فى منازل المرتحلين من رُذَال أمتعتهم.
[لسان العرب: ١٥/ ٣٢٣ ، ٣٢٤]

الطعام والشراب، وهذه منطقية مع احتياج الإنسان للمقيت-الشيء الذى يقوته-؛ ومن أسماء الله الحسنى: «المقيت» الذى يعطى كل شيء قوته، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ (١) [النساء: ٨٥].

ومن المعلوم: إن عناصر استبقاء الحياة ثلاثة؛ مرتبة حسب أهميتها: منها الطعام ونحن فى العادة نأكل ثلاث مرات فى اليوم، ونستطيع أن

(١) قال القرطبى: المقيت جل جلاله وتقدست أسماؤه: ورد به القرآن فقال: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾، وجاء فى حديث أبى هريرة، وهو متفق عليه.
وهو اسم فاعل من أقات يقيت إقاتة فهو مقيت، والياء فيه بدل من الواو؛ لأنه مشتق من القوت. تقول منه: قته أقوته قوتا وأقته أقيته إقاتة، فأنا قائت مقيت، وقات أهله: يقوتهم قوتاً، وقياتة. والاسم: القوت بالضم. وهو مايقوم به بدن الإنسان من الطعام والشراب، يقال: ماعنده قوت ليلة، وقيت ليلة، وقيتة، فلما كُسرت القاف صار الواو ياء. وقُتُّه فاقتات كما تقول رزقته فارتزق وهو فى قائت من العيش، أى فى كفاية. واستقاته: سأله القوت. وفلان يتقوت كذا. فالمعنى أن الله تعالى يعطى كل إنسان وحيوان قوته على ممر الأوقات شيئاً بعد شيء، فهو يمدها فى كل وقت بما جعله قواما لها إلى أن يريد إبطال شيء منها؛ فيحبس عنه ما جعله مادة لبقائه فيهلك.
قال الفراء: المقيت الذى يقوم بأقوات الخلق، يقال: قاته وأقاته إذا أعطاه قوته. ويروى عن ابن عباس وأبى عبيدة: المقيت: الحافظ للشيء والشاهد له، والموقوف عليه.
وقال الفراء: المقيت: المقتدر، أى: الذى يقدر على أن يعطى كل رجل قوته. قال ابن العربى: وقد قال علماء اللسان: إنه بمعنى القادر - وليس فيه على هذا أكثر من السماع. فلو رجعنا إلى الاستقراء وتتبع مسالك النظر، لجعلناه فى موارده كلها بمعنى القوت، ولكن السماع يقضى على النظر. وعلى القول بأنه القادر يكون من صفات الذات، وإن قلنا: إنه اسم للذى يعطى القوت، فهو اسم للوهاب والرزاق ويكون من صفات الأفعال، وقد يقوت الأرواح إدامة المشاهدة، ولذيذ المؤانسة، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ﴾ [يونس: ٩] وإلى هذا أحد أوجه قوله عليه الصلاة والسلام: «إنى لست كهيئتكم إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى»(١). [الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى: ٢٧٣-٢٧٥] بتصرف.

(١) أخرجه البخارى [١٩٦٤] بلفظ: «إنى لست كهيئتكم، إنى يُطعمنى ربى ويسقينى». وأخرجه مسلم [١١٠٥] عن عائشة رضى الله عنها.

نصبر على الطعام شهراً ؛لأن الجسم فيه مخزون من هذا الغذاء المتحول إلى شحوم ودهون تحت الجلد. والماء أعلى من الطعام فى المرتبة، ولا نستطيع أن نصبر على شرب الماء إلا من ثلاثة أيام إلى عشرة على قدر ما فى الجسم من ماء، وأهم هذه المقومات الثلاثة هو الهواء حيث لا يستطيع الإنسان أن يستغنى عنه لحظة،ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى لم يُمَلّك الهواء أحداً من خلقه؛ لأنك لو غضبت على شخص وحبست عنه الهواء،فلا شك إنه سيموت. وقد يُملك الماء فى أحيان قليلة،ويملك الطعام كثيرا.

إذن . .فالمسألة مرتبة حسب الأهمية،فمريم عندها عناصر استبقاء الحياة الثلاثة: الهواء موجود، والماء موجود؛ فقد جعل الله تحتها سريًا أى ماء زلالا ًمتدفقاً ،والطعام من رطب النخلة التى أمرها بهز جذعها ؛ ليتساقط عليها الرطب.

وهنا نقف وقفة: إن هز جذع النخلة شيء صعب؛ لأنك لو أتيت بأقوى رجل فى العالم ليمسك نخلة من جذعها ويهزها فلن تسقط عليه رطبة واحدة من رطبها؛ لأنه جذع ثابت، ولكن الحق سبحانه أراد أن يجمع بين شيئين هما: طلب الأسباب مع الاعتماد على المسبب، طلب الأسباب هو: هَزُّ النخلة مع أنها فى حالة مخاض ومتعبة ومتألمة، وجاءت إلى النخلة ؛ لتستتر إليها، فكيف تهزها وهى فى هذه الحالة من الضعف والألم، مع أن أقوى الرجال لا يقدر على ذلك ؟!

قالوا :لأن الله تعالى يريد أن يبقى اتخاذ الأسباب مهما كان الإنسان ضعيفاً ، فعليه أن يبذل جهده فى الأخذ بالأسباب، ثم يعتمد على رب الأسباب .

والرطب هو التمر الناضج ،وكلمة:﴿جَنِيًّا﴾ تعنى أنه استحق أن يُجنى،أى إنه نضج واستوى .

إذن . . لا بد من التوكل على رب الأسباب، والشاعر المسلم الحصيف صاغ هذا المعنى فقال:

توكل على الرحمن فى الأمر كله ولا ترغبنَّ بالعجز يوماً عن الطلب
ألم ترَ أن الله قــال لمريـم وهُزّى إليك الجذع يسّاقط الرطب
ولو شـاء أعطاهـا بغير هَزِّهِ جنته ولكن كل رزقٍ له سـبب

وقول الحق سبحانه: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾، ذكر الأكل قبل الشرب، بينما فـى الرزق ذكر الشراب أولاً ، ثم جاء بالطعام بعد ذلك فـى قولـه تعـالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ...﴾؛ فذكر الشراب أولاً، ثم الطعام الذى سينزل مـن النخلة بعد ذلك؛ لأن هذا رزق ، لكنْ فى الأمر بالانتفاع قال: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ ؛ فذكـر الطعـام قبـل الشراب؛ وذلك لأن الإنسان فى العادة لا يشرب إلا بعد تناول الطعام.

وقوله تعالى: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، تعنى استجابة الجماد؛ لأن الرطب لا يخرج عن طوع النخلة إلا إذا استوى ونضج فيبدأ فى التساقط، وكذلك الثمرة حين تنضح تسقط عن شجرتها. هنا الحق سبحانه أعطى لمريم قوام الحياة المادية من طعام وشراب ، ولكن بقيت الناحية المعنوية؛ لأنها حزنت وتمنت الموت من صعوبة هذا الموقف فكيف ستواجه قومها بهذه الفضيحة فى نظرهم ؟!

وهنا قال الحق سبحانه لها: ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾؛وهذا معناه السرور، وكلمة قَرِّى أى :اسكنى، وسكون العين على مرأى واحد عند العرب، دليل على أن العين صادفت مرأى جميلاً جدًا لا يغنى عنه أى مرأى آخر؛

ولذلك تظل ناظرة إليه، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لمريم: لا تحزنى ولتقر عينك بما أنت فيه، فليس هناك أجمل ولا أفضل من أن يصطفيك الله ويجعلك سيدة نساء العالمين، فأى سعادة وأى مكانة وأى شرف أنت فيه[1]؟!

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ قرئ بفتح الميم وكسرها. قال ابن عباس: المراد بـ«من» جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها؛ وقاله علقمة والضحاك وقتادة؛ ففى هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التى لله تعالى فيها مراد عظيم. وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ تفسير النداء، و«أن» مفسرة بمعنى أى؛ المعنى: فلا تحزنى بولادتك. ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ يعنى عيسى. والسرىّ من الرجال العظيم الخصال السيد. قال الحسن: كان والله سريا من الرجال. ويقال: سرِى فلان على فلان أى تكرم. وفلان سرىٌّ من قوم سَرَاة. وقال الجمهور: أشار لها إلى الجدول الذى كان قريب جذع النخلة. قال ابن عباس: كان ذلك نهراً قد انقطع ماؤه، فأجراه الله تعالى لمريم. والنهر يسمى سريا لأن الماء يسرى فيه.
وقيل: ناداها عيسى، وكان ذلك معجزة وآية وتسكينًا لقلبها، والأول أظهر.
وقرأ ابن عباس: «فناداها ملك من تحتها» قالوا: وكان جبريل عليه السلام فى بقعة من الأرض أخفض من البقعة التى كانت هى عليها.
قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ فيه أربع مسائل:
الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي﴾ أمرها بهزّ الجذع اليابس؛ لترى آية أخرى فى إحياء موات الجذع. والباء فى قوله: ﴿بِجِذْعِ﴾ زائدة مؤكدة كما يقال: خذ بالزمام، وأعطِ بيدك؛ قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥] أى فليمدد سببا.
وقيل: المعنى: وهزى إليك رطبا على جذع النخلة. و «تَسَّاقط» أى: تتساقط فأدغم التاء فى السين وقرأ حمزة: «تَسَاقَط» مخففًا فحذف التى أدغمها غيره. وقرأ عاصم فى رواية حفص: ﴿تُسَاقِطْ﴾ بضم التاء مخففًا وكسر القاف. وقرئ: «تَتَسَاقَطْ» بإظهار التاءين، و«يَسَّاقَطْ» بالياء وإدغام التاء و «تُسْقِطْ»، و«يُسْقِط»، و «تَسْقط»، و «تسْقط» بالتاء للنخلة، وبالياء للجذع؛ فهذه تسع قراءات ذكرها الزمخشرى رحمة الله تعالى عليه. «رطبا» نصب بالهز؛ أى إذا هززت الجذع هززت بهزه ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾. وعلى الجملة فـ﴿رُطَبًا﴾ يختلف نصبه بحسب معانى القراءات؛ فمرة يستند الفعل إلى الجذع، ومرة إلى الهز، ومرة إلى النخلة. ﴿جَنِيًّا﴾ معناه قد طابت وصلحت للاجتناء، وهى من جنيت الثمرة. ويروى عن ابن مسعود -ولا يصح- أنه =

وفى بعض الأحيان يأتى الأسلوب العربى للمقابل، فمثلاً نحن نذكر المرأة التى دخلت على أحد الخلفاء وطلبت منه طلباً فنهرها، ولم يجبها

= قرأ: «تساقط عليك رطبا جنيا بَرْنيًا (١)» . وقال مجاهد: ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ قال: كانت عجوة. وقال عباس بن الفضل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله: ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ فقال: لم يذو (٢). قال وتفسيره: لم يجف ولم ييبس ولم يبعد عن يدى مجتنيه؛ وهذا هو الصحيح. قال الفراء: الجنىّ والمجنىّ واحد؛ يذهب إلى أنهما بمنزلة القتيل والمقتول والجريح والمجروح. وقال غير الفراء: الجنىّ المقطوع من نخلة واحدة، والمأخوذ من مكان نشأته.

قال ابن عباس: كان جذعا نخزا فلما هزت نظرت إلى أعلى الجذع فإذا السعف قد طلع، ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف، ثم اخضرَّ فصار بلحا ثم احمرَّ فصار زهوا، ثم رطبا؛ كل ذلك فى طرفة عين، فجعل الرطب يقع بين يديها لا ينشدخ منه شئ.

الثانية: استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق و إن كان محتوما؛ فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعى مّا فيه؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية، وكانت الآية تكون بألا تهز.

الثالثة: الأمر بتكليف الكسب فى الرزق سنة الله تعالى فى عباده، وأن ذلك لا يقدح فى التوكل، خلافا لما تقوله جهال المتزهدة؛ وقد تقدم هذا المعنى والخلاف فيه.

وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] الآية. فلما ولدت أمرت بهزِّ الجذع. قال علماؤنا: لما كان قلبها فارغا فرَّغ الله جارحتها عن النَّصب، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه، اشتغل سرها بحديثه وأمره، وَكَلَهَا إلى كسبها، وردها إلى العادة بالتعلق بالأسباب فى عباده. وحكى الطبرى عن ابن زيد أن عيسى عليه السلام قال لها: لاتحزنى؛ فقالت له: كيف لا أحزن وأنت معى؟! لا ذات زوج ولا مملوكة! أى شىء عذرى عند الناس؟! ﴿يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] فقال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام.

الرابعة: قال الربيع بن خيثم: ما للنفساء عندى خير من الرطب لهذه الآية، ولو علم الله شيئا هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم؛ ولذلك قالوا: التمر عادة =

(١) البرنى: ضرب من التمر أصفر مدور، وهو أجود التمر؛ واحد برنية.

(٢) لم يذو: لم يذبل.

إليه، فقالت له: أتمّ الله عليك نعمته وأقرّ عينك. فقالوا له: إنها تدعو لك بخير. فقال لهم: أنتم لا تفهمون، إنها تدعو عليّ، فهى تقول: أتم الله تعالى عليك نعمته، أي: تزول منك النعمة؛ لأن كل شيء يتم يزول؛ لأن الإنسان

= للنفساء من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك (١). وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل؛ ذكره الزمخشري. قال ابن وهب قال مالك قال الله تعالى: ﴿ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ الجنى من التمر ما طاب من غير نقش ولا إفساد. والنقش أن يُنقش من أسفل البسرة حتى ترطب؛ فهذا مكروه؛ يعنى مالك أن هذا تعجيل للشيء قبل وقته، فلا ينبغى لأحد أن يفعله، وإن فعله فاعل ماكان ذلك مجوزا لبيعه؛ ولا حكما بطيبه.

وعن طلحة بن سليمان «جِنيا» بكسر الجيم للإتباع؛ أي: جعلنا لك فى السرى والرطب فائدتين: إحداهما الأكل والشرب. والثانية سلوة الصدر؛ لكونهما معجزتين؛ وهو معنى قوله تعالى: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ أى فكلى من الجنى، واشربى من السرى، ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ برؤية الولد النبى. وقرئ بفتح القاف وهى قراءة الجمهور. وحكى الطبرى قراءة «وَقِرِّى» بكسر القاف وهى لغة نجد. يقال: قر عينا يقُر ويقر بضم القاف وكسرها؛ وأقر الله عينه فقرت. وهو مأخوذ من القرّ والقرَّة وهما البَرد. ودمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة. وضعَّف فرقة هذا وقالت: الدمع كله حار، فمعنى أقرَّ الله عينه أى سكن الله عينه بالنظر إلى من يحبهم حتى تقر وتسكن؛ وفلان قرة عينى؛ أى نفسى تسكن بقربه. وقال الشيبانى: ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ معناه نامى؛ حضَّها على الأكل والشرب والنوم. قال أبو عمرو: أقر الله عينه أى أنام عينه، وأذهب سهره. و ﴿ عَيْنًا ﴾ نصب على التمييز؛ كقولك: طِبْ نفسا. والفعل فى الحقيقة إنما هو للعين فنقل ذلك إلى ذى العين؛ وينصب الذى كان فاعلاً فى الحقيقة على التفسير. ومثله طِبْت نفسا، وتفقأت شحماً، وتصببت عرقًا، ومثله كثير. [تفسير القرطبى: ١١/ ٩٣-٩٧] بتصرف.

---

(١) فى حديث النبى ﷺ: «أنه كان يُحنِّكُ أولاد الأنصار». قال: والتحنيك أن تمضغ التمر ثم تدلكه بحنك الصبى داخل فمه؛ يقال منه: حَنَكْتُهُ وَحَنَّكْتُهُ فهو محنوك ومُحَنَّك. وفى حديث ابن أم سليم لما ولدته وبعثت به إلى النبى ﷺ: فمضغ له تمراً وحنَّكه. أي: دلَّك به حَنَكَه. وحَنَك الصبى بالتمر وحَنَّكَهُ: دلَّك به حنكه.

[لسان العرب: ١٠/ ٤١٦]

والحديث: أخرجه البخارى [٥٤٧٠]. ومسلم [٢١٤٤/ ٢٣].

ابن الأغيار فلا أحد لا يتغير، وما دام وصل للقمة وهو ابن الأغيار، فلابد أن ينزل لأنه لا يثبت على حالة؛ ولذلك يقولون :

إذا تمَّ شيءٌ بدا نقصُه　　ترقّبْ زوالاً إذا قيل تمّ

الحق سبحانه وتعالى يقول لمريم: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦] ، أى :إنـك إذا رأيت أحداً ستدخلين معه فى جدل؛ لأن المسألة التى أنت عليها لن تستطيعى أن تأتى بمبررات لها؛ لأن امرأة تحمل وتلد دون أن يمسها رجل؛ كلام غير مقبول عند الناس ولن يصدقوه ، وسيتكلمون معك بسفاهة وجهل، فعليك بالصمت، ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [مريم: ٢٦] وإن رأيت أحداً من البشر وسألك عمـا أنت فيـه فقـولى : إنى نذرت لله صـوماً عن الكلام فلن أكلم أحداً.

فالصوم عند زكريا عليه السلام كان عن الكلام، وهنا أيضاً الصوم عن الكلام؛ لأن المعجزات كانت قريبة من بعضها.

وقول الحق سبحانه: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ بعض المشككين فى القرآن يقولون :كيف يستقيم الأمر بالصوم عن الكلام مع أن القرآن يقول لها ﴿ قُولِي ﴾، أى يأمرها بالكلام وأن تقول لهم كذا وكذا ؟ ونحن نقول لهم: يجوز أن هذه الكلمة هى التى تقطع بها مريم الكلام مع القوم، أو يجوز أن تكون الدلالة بالإشارة، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمها؛ ولذلك فالأخرس حين يكون فى بيئة تفهمه يستطيع أن يتفاهم مـع الناس، ويفهـم الناس منه مايريد قوله عن طريق الإشارات، ويكون مثار حديثهم ونوادرهم.

إذن. . إما أن نقول إنها لن تقول إلا بالإعلام، فحينما يسألها أحد تقول: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾(١)، ويبدأ تنفيذ عدم الكلام بعد هذا القول، أو أنها تشير عليهم بما يفيد هذا المعنى، فتأتى بنوع من أنواع الدلالة وهى كثيرة، واللغات تواضع عليها الناس؛ فناس يتكلمون لغة معينة، وناس يتكلمون لغة أخرى، وتختلف اللغات، لكن لغة الإشارة متفق عليها عند جميع الخلق.

وجاءت هذه المسألة فى القرآن فى سورة الكهف فى قول الله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [الكهف: ٩٣]. أى إنهم لم يكونوا يفهمون أى قول؛ ومع ذلك حدث بين ذى القرنين وبينهم كلام، ويجوز أنه عليه السلام تفاهم معهم بلغة الإشارات.

ومريم يمكنها أن تشير إلى من يسألها بما يُفهم منه أنها صائمة عن الكلام.

وكلمة: ﴿ إِنسِيًّا ﴾ أى من الإنس ؛ أمرها الحق سبحانه ألا تتكلم مع أحد من البشر؛ لأنها قد تتكلم مع جبريل ؛ حتى تجد مخرجاً من هذا الموقف المحرج الذى هى فيه.

---

(١) قال البقاعى فى قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ ﴾ أى: يا مريم ﴿ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ لا تشكين أنه من البشر ينكر عليك ﴿ فَقُولِي ﴾ لذلك المنكر جوابا له مع التأكيد تنبيها على البراءة؛ لأن البرىء يكون ساكنا لاطمئنانه، والمرتاب يكثر كلامه وحلفه: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ أى: الذى عمَّت رحمته فادخلنى فيها على ضعفى، وخصنى بما رأيت من الخوارق ﴿ صَوْمًا ﴾ أى: صمتا ينجى من كل وصمة. وإمساكا عن الكلام ﴿ فَلَنْ ﴾ أى: فتسبب عن النذر أنى لن ﴿ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ فإن كلامى يقبل الرد والمجادلة. ولكن يتكلم عنى المولود الذى كلامه لا يقبل الدفع، و أما أنا فأنزه نفسى عن مجادلة السفهاء؛ فلا أكلم إلا الملائكة أو الخالق بالتسبيح والتقديس وسائر أنواع الذكر. [نظم الدرر: ١٢/ ١٩١]

هنا نعود إلى الحديث عن المخاض، ونتساءل من الذى كلمها هذا الكلام من تحتها ؟ قيل: إنه جبريل، وقيل: إنه عيسى عليه السلام. ولذلك حين «رآها قومها وقد أَتَتْهُمَ بوليدها تحمله، وأنكروا عليها ذلك الأمر» أشارت إلى الوليد!! فكيف تشير إليه؟ لابد أنها علمت أنه سيتكلم، وعرفت هذا الأمر من كلامه لها حين ناداها من تحتها، وقال لها ألا تحزن وتأكل وتشرب وتقر عينًا، فحين تكلم الوليد تأكد لها أنها فى معجزة عظيمة، ولذلك وثقت تمام الثقة بأنها حين تشير إليه سيتكلم هو ويدافع عنها؛ لأن كلامها لن يقنع الناس ببراءتها مما حدث لها؛ لكنْ حين يتكلم عيسى عليه السلام وهو لم يزل فى المهد، فمعنى ذلك أن هذه معجزة، ومادام الذى تكلم وليد معجزة ، فالمعجزة كائنة فى أمه من باب أولى.

إذن . قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ ليس المقصود به جبريل، ولكن المقصود وليدها عيسى عليه السلام، بدليل أن قومها حين استنكروا عليها وجود طفل لها وهى لم تتزوج ولم تكن بغيًا، وسألوها عن ذلك، فأشارت إليه؛ ليتحدثوا معه أى إن هذا سيجيبكم، فكيف عرفت أن هذا الرضيع يتكلم ؟ لأنه سبق وأن كلمها وطمأنها وقال لها: لا تحزنى وَقَرِّى عيناً .

ثم يقول تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾ فهى التى ذهبت به إليهم ، فلم تتوارَ عن عيون القوم أو تهرب بوليدها إلى مكان بعيد ، ولكنها ذهبت إليهم بنفسها ؛ وذلك لأن معها الحجة والبرهان ، ولأن موقفها سليم، وهى واثقة من تأييد الله تعالى لها، فجاءت إلى قومها تحمل وليدها على صدرها ، فلما رآها القوم على هذه الحالة قالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ . لأنهم يعلموا أنها غير متزوجة!!

يحكى : إن بعض المستشرقين سألوا الشيخ محمد عبده في باريس عن حديث الإفك الذى تقوّله المنافقون على السيدة عائشة فقالوا له : بأى وجه قابلتْ عائشةُ قومَها بعد حديث الإفك ؟ فقال لهم : بالوجه الذى قابلت به مريمُ قومَها حين جاءتهم تحمله!! أى بوجه الواثق من البراءة، وأن الله لا يمكن أن يسلمها، أو يخذلها؛ ولذلك فالسيدة عائشة رضى الله عنها لما ظهرت براءتها وأنزل الله فيها قرآناً ، قالوا لها: قومى إلى النبى ﷺ فقالت: لا، وإنما أَحْمَدُ الله الذى بَرَّأنى(١).

فكون مريم تأتى بوليدها إلى قومها فهذه دلالة على أنها واثقة أن الحجة ستوافيها بالوليد، وإلا فكان المفروض أن تخجل وأن تتوارى من القوم حتى لا يروها ومعها الوليد؛ لأنها واثقة من نصر الله ومعونته.

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ حين قال لها أهل الإفك ماقالوا وكلهم حدثنى طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصًا، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذى حدثنى عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضًا وإن كان بعضهم أوعى له من بعض قالوا: قالت عائشة كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه فأيَّتُهُنَّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا فى غزوة غزاها، فخرج فيها سهمى، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب، فكنت أُحمَل فى هودجى وأُنزَل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل وَدَنَوْنَا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقد (١) لى من جزع(٢) ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه، قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونى فاحتملوا=

---

(١) عِقد بكسر العين: قلادة تعلق فى العنق للتزين بها.

(٢) من جزع: بفتح الجيم وسكون الزاى بعدها مهملة : خرز معروف فى سواده بياض كالعروق.

[فتح البارى: ٩/ ٣٩٣]

= هودجى، فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون أنى فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلن(١) ولم يغشهن اللحم(٢) إنما يأكلن العلقة(٣) من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا ووجدت عقدى، بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب ،فتيممت منزلى الذى كنت به وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلىّ، فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمى، ثم الذكوانى من وراء الجيش، فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم، فعرفنى حين رآنى وكان رآنى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه(٤) حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى، ووالله ماتكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها(٥) فقمت إليها فركبتها ،فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة (٦) ، وهم نزول قالت : فهلك من هلك، وكان الذى تولى كبر الإفك عبد الله بن أبىّ بن سلول . قال عروة : أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه ، وقال عروة أيضًا : لم يسم من =

(١) قال النووى : فقوله «يهبلن» ضبطوه على أوجه: أشهرها ضم الياء وفتح الهاء والباء المشددة، أى: يثقلن باللحم والشحم.
والثانى: يهبلن بفتح الياء والباء وإسكان الهاء بينهما.
والثالث: بفتح الياء وضم الباء الموحدة، ويجوز بضم أوله وإسكان الهاء وكسر الموحدة.
قال أهل اللغة: يقال: هبله اللحم وأهبله إذا أثقله وكثر لحمه وشحمه .
[شرح النووى على مسلم: ٩/ ١٢٤]

(٢) «ولم يغشهن اللحم»: قال ابن أبى جمرة: ليس هذا تكراراً؛ لأن كل سمين ثقيل من غير عكس؛ لأن الهزيل قد يمتلئ بطنه طعاماً فيثقل بدنه، فأشارت إلى المعنيين لم يكونا فى نساء ذلك الزمان.
وقال الخطابى: معنى قولها: «لم يغشهن» أى: لم يكثر عليهن فيركب بعضه بعضًا.
[فتح البارى: ٩/ ٣٩٤]

(٣) «يأكلن العلقة» بضم العين أى: القليل. ويقال لها أيضًا البلغة. [شرح النووى على مسلم:٩/ ١٢٤]

(٤) أى بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون. [فتح البارى: ٩/ ٣٩٩]

(٥) قوله: «فوطئ على يدها» أى ليكون أسهل لركوبها، ولا يحتاج إلى مسها عند ركوبها.
[فتح البارى: ٩/ ٣٩٩]

(٦) الموغر : بالعين المعجمة: النازل فى وقت الوغرة - بفتح الواو وإسكان الغين - وهى : شدة الحر.
و «نحر الظهيرة» : وقت القائلة وشدة الحر. [شرح النووى على مسلم: ٩/ ١٢٤]

= أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، فى ناس آخرين لا علم لى بهم غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى، وإن كبر ذلك يقال عبد الله بن أبى بن سلول قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول إنه الذى قال:

فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشىء من ذلك، وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل علىَّ رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف فذلك يريبنى، ولا أشعر بالشر حتى خرجت حين نقهت(١)، فخرجت مع أم مسطح قِبَل المناصع(٢)، وكان مُتَبَرَّزَنَا (٣) وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف(٤) قريباً من بيوتنا قالت: وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح وهى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق، وابنها مسطح بن أُثاثة بن عبَّاد ابن المطلب، فأقبلتُ أنا وأم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح فى مرطها (٥)، فقالت تعس مسطح فقلت لها: بئس ماقلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً، فقالت أى هنتاه (٦)ولم تسمعى ما قال؟ قالت: وقلت ما قال؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك، قالت: فازددت مرضاً على مرضى، فلما رجعت إلى بيتى دخل علىَّ =

---

(١) النَّاقه: بكسر القاف: الذى أفاق من مرضه، ولم تتكامل صحته. [فتح البارى :٩/ ٤٠٢]

(٢) المناصع: مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها. [شرح النووى على مسلم: ٩/ ١٢٥].

(٣) متبرزنا: موضع التبرز، وهو الخروج إلى البراز وهو الفضاء، وكله كناية عن الخروج إلى قضاء الحاجة.

(٤) الكنف: جمع كنيف وهو الساتر، والمراد به ههنا: المكان المتخذ لقضاء الحاجة. [فتح البارى: ٩/ ٤٠٢]

(٥) المرط: كساء من صوف، وقد يكون من غيره. [شرح النووى على مسلم: ٩/ ١٢٥].

(٦) قوله: «قالت: أى هنتاه» أى: حرف نداء للبعيد، وقد يستعمل للقريب حيث ينزل منزلة البعيد، والنكتة فيه هنا أن أم مسطح نسبت عائشة إلى الغفلة عما قيل فيها؛ لإنكارها سبّ مسطح فخاطبتها خطاب البعيد، وهنتاه بفتح الهاء وسكون النون وقد تفتح بعدها مثناة وآخره هاء ساكنة وقد تضم؛ أى: هذه، وقيل: امرأة وقيل بلهى، كأنها نسبتها إلى قلة المعرفة بمكائد الناس. وهذه اللفظة تختص بالنداء وهى عبارة عن كل نكرة، وإذا خوطب المذكر قيل ياهنة، وقد تشبع النون فيقال يا هناه، وحكى بعضهم تشديد النون فيه وأنكره الأزهرى. [فتح البارى: ٩/ ٤٠٣، ٤٠٤]

= رسول الله ﷺ فسلم، ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت له: أتأذن لى أن آتى أبوَىَّ؟ قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهما، قالت: فأذن لى رسول الله ﷺ، فقلت لأمى يا أُمَّتاه ماذا يتحدث الناس؟ قالت يا بُنية: هوِّنى عليك فوالله لقلما كان امرأة قط وضيئةعند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها(١)، قالت: فقلت سبحان الله أَو لَقد تحدث الناس بهذا، قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأُ (٢) لى دمع ولا أكتحل(٣) بنوم ثم أصبحت أبكى، قالت: ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه وأسامة بن زيد حين استلبث(٤) الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله، وبالذى يعلم لهم فى نفسه، فقال أسامة: أهلُكَ ولا نعلم إلا خيرًا، وأما على فقال: يا رسول الله لم يُضيِّق الله عليك والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرةَ فقال: «أى بريرةُ هل رأيت من شىء يريبك ؟ قالت له بريرة: والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه(٥) غير أنها جاريةٌ حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتى الداجن فتأكله(٦)، قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبى وهو على المنبر، فقال: «يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى والله ماعلمت على أهلى إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلى إلا معى» قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بنى عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول الله أعذرك فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه، وهو سعد بن عبادة وهو سيد =

(١) «الوضيئة» : مهموزة ممدودة هى الجميلة الحسنة، والوضاءة: الحُسْن، ووقع فى رواية ابن ماهان «حظية» من الحظوة، وهى : الوجاهة، وارتفاع المنزلة. والضرائر. جمع ضرة، وزوجات الرجل ضرائر؛ لأن كل واحدة تتضرر بالأخرى بالغيرة والقسم وغيره، والاسم منه الضر بكسر الضاد، وحكى ضمها .

وقولها: «إلا كثرن عليها»، هو بالثاء المثلثة المشددة، أى: أكثرن القول فى عيبها ونقصها.

(٢) قولها: «لا يرقأ لى دمع» : أى لا ينقطع.

(٣) قولها: « ولا أكتحل بنوم» : أى لا أنام..

(٤) قولها: «استلبث الوحى» أى : أبطأ، ولبث ولم ينزل. [شرح النووى على مسلم: ٩/ ١٢٦]

(٥) أغمصه: أى أعيبه. [فتح البارى: ٩/ ٤٠٨]

(٦) الداجن: الشاة التى تألف البيت، ولا تخرج للمرعى، ومعنى هذا الكلام: أنه ليس فيها شىء مما تسألون عنه أصلاً، ولا فيها شىء من غيره إلا نومها عن العجين.

[شرح النووى على مسلم: ٩/ ١٢٦]

. . . .

= الخزرج ، قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ،ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنّه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيَّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فبكيت يومى ذلك كله لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، قالت: وأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم، حتى إنى لأظن أن البكاء فالق كبدى فبينا أبواى جالسان عندى وأنا أبكى، فاستأذنت علىَّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها ،فجلست تبكى معى قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم،ثم جلس قالت: ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها، ولقد لبث شهرا لايوحى إليه فى شأنى بشىء قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أمَّا بعدُ ياعائشة إنه بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى(١) حتى ما أُحسُّ منه قطرة، فقلت لأبى: أجب رسول الله ﷺ عنى فيما قال، فقال أبى: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمى: أجيبى رسول الله ﷺ فيما قال ، قالت أمى: والله ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت وأنا جاريةٌ حديثة السِّن لا أقرأ من القرآن كثيراً: إنى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقوننى، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ والله يعلم أنى منه بريئة لَتُصَدِّقُنِّى، فوالله لا أجد لى ولكم مَثَلاً إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] ، ثم تحولت فاضطجعت على فراشى والله يعلم أنى حينئذ بريئة ، وأن الله مُبَرِّئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن =

(١) قلص دمعى: أى استمسك نزوله فانقطع، ومنه قلص الظل وتقلّص: إذا شمر.
قال القرطبى: سببه أن الحزن والغضب إذا أخذ أحدهما فُقد الدمع؛ لفرط حرارة المصيبة.
[فتح البارى: ٩/ ٤١٦]

= الله تعالى مُنْزِلٌ فى شأنى وحيًا يُتلى لَشَأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتى أُنزِلَ عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرحاء(١) ؛ حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجُمان(٢) وهو فى يومٍ شاتٍ من ثقل القول الذى أنزل عليه، قالت: فَسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: «يا عائشةُ أمَّا الله فقد برَّأكِ» قالت: فقالت لى أمى: قومى إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه؛ فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل، قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ [النور: ١١] ،العشر الآيات، ثم أنزل الله تعالى هذا فى براءتى قال أبو بكر الصديق ـ وكان يُنفق على مسطح بن أُثاثة؛ لقرابته منه وفقره ـ : والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذى قال لعائشة ماقال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢] ، قال أبو بكر الصديق: بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمرى فقال لزينب: «ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى: والله ماعلمت إلا خيرًا قالت عائشة: وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله بالورع قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك. قال ابن شهاب: فهذا الذى بلغنى من حديث هؤلاء الرهط. ثم قال عُروة: قالت عائشة: والله إن الرجل الذى قيل له ما قيل، ليقول سبحان الله فوالذى نفسى بيده ما كشفتُ من كَنَفِ أنثى قطُّ، قالت: ثم قُتل بعد ذلك فى سبيل الله.

أخرجه البخارى [٤١٤١ ، ٤٧٥٠] واللفظ له، ومسلم [٢٧٧٠/٥٦].

(١) قولها: « فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء » هى بضم الموحدة وفتح الراء وبالحاء المهملة والمد، وهى: الشدَّة.

(٢) قولها: «حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق»، معنى «ليتحدر»: لينصب، و «الجمان» بضم الجيم وتخفيف الميم، وهو : الدر، شبهت قطرات عرقه ﷺ بحبات اللؤلؤ فى الصفاء والحسن.

[شرح النووى على مسلم: ٩/١٢٧ ، ١٢٨]

وكلمة: ﴿ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾؛ الفرى للجلد: تقطيعه، والأمر الفرى هو الذى يقطع عادةً ألفها الناس، أى لم يحدث مثله، أو أنه من الفرية وهى تعمُّد كذب، وقولهم ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ : مبالغة فى التعيير؛ لأنهم عرفوها عابدة قانتة فكيف يحدث منها ذلك؟! فهذا تقريع لها؛ لأن أباها لم يكن رجلاً سيئًا ولا أمها أيضاً، والسَّوْء هو الرجل الذى إذا صَحِبْتَهُ نالك سوء من صحبته، فالأب كان مستقيمًا والأم كذلك فمن أين جاء لك هذا ؟ وهذا يدل على أن خُلق الأسر يؤثر فى الأبناء؛ فحين ينشأ الابن فى بيت ملتزم ويجد نفسه محوطاً بالعناية والتوجيه السليم ينشأ مستقيماً، فكأن القوم استغربوا أن يحدث هذا من مريم وهى العابدة القانتة التى جاءت من أبوين كريمين مستقيمين، فكيف يحدث منها ذلك[1] ؟!

---

(١) قال الشوكانى: لما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات وفرغت من نفاسها ﴿ فَأَتَتْ بِهِ ﴾ أى بعيسى، وجملة: ﴿ تَحْمِلُهُ ﴾ فى محل نصب على الحال، وكان إتيانها إليهم من المكان القصى التى انتبذت فيه، فلما رأوا الولد معها حزنوا، وكانوا أهل بيت صالحين ﴿ قَالُوا ﴾ منكرين لذلك ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ ﴾ أى فعلت ﴿ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ قال أبو عبيدة: الفرى: العجيب النادر، وكذا قال الأخفش: والفرى: القطع، كأنه مما يخرق العادة، أو يقطع بكونه عجيبًا نادرًا. وقال قطرب: الفرى: الجديد من الأسبقية، أى: جئت بأمر بديع جديد لم تسبقى إليه. وقال سعيد بن مسعدة: الفرى: المختلق المفتعل، يقال: فريت وأفريت بمعنى واحد، والولد من الزنا كالشىء المفترى، قال تعالى: ﴿ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٢] وقال مجاهد: الفرى: العظيم.

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ قد وقع الخلاف فى معنى هذه الأخوة، وفى هارون المذكور من هو؟ فقيل: هو هارون أخو موسى، والمعنى: أن من كانت نظنها مثل هارون فى العبادة كيف تأتى بمثل هذا . وقيل : كانت مريم من ولد هارون أخى موسى ، فقيل لها : يا أخت هارون ، كما يقال لمن كان من العرب : يا أخا العرب . وقيل : كان لها أخ من أبيها اسمه هارون. وقيل: هارون هذا رجل صالح فى ذلك الوقت. وقيل: =

لما كثرت الأسئلة على السيدة مريم، وكثر الاستنكار من القوم، ماذا فعلت ؟ قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]. أي أشارت إلى وليدها، فكأنها تقول لهم: اسألوه! وهذا دليل على أنها عرفت أنه سيتكلم؛ لأنه سبق أن كلَّمها قبل ذلك، فاطمأنت على أن تحمله إلى القوم، ليس على أنه جسم الجريمة ودليل إدانتها، ولكنها تحمله على أنه دليل براءتها.

فلما أشارت إليه استغرب القوم وقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

فهم لم يستبعدوا أن يتكلم الرضيع فقط، ولكنهم أنكروا الحديث معه، وقالوا هل نحن مجانين حتى نكلم طفلاً رضيعاً !!

والمهد هو المكان الممهد، والطفل عادة نمهد له فراشه؛ لأنه لا يستطيع أن يدفع الأضرار عن نفسه، فالطفل قبل أن تنيمه تمهد له المكان؛ لأن البالغ الذى عنده وعى إذا آلمه شىء فى نومه يستطيع أن يبعد أسباب هذا الألم ويمهد لنفسه الفراش الذى سينام عليه، لكن الطفل الصغير لا يستطيع أن يفعل ذلك.

لقد انبهروا انبهاراً فَتَّتَ فيهم القوى، وحتى قوى اللَّدد والخصومة حين ترى هذا لا تجد إلا الانبهار؛ فالحق أبلج والباطل لجلج(١).

= بل كان فى ذلك الوقت رجل فاجر اسمه هارون، فنسبوها إليه على وجهة التعيير والتوبيخ، حكاه ابن جرير ولم يسم قائله وهو ضعيف. ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ هذا فيه تقرير لما تقدم من التعيير والتوبيخ، وتنبيه على أن الفاحشة من ذرية الصالحين مما لا ينبغى أن تكون. [فتح القدير: ٣/ ٣٣٤، ٣٣٥]

(١) بَلَجَ بَلَجًا، فهو أبلجُ، والأنثى بلجاء، وقيل: الأبلجُ الأبيض الحَسَنُ الواسعُ الوجه، يكون فى الطول والقصر، ويقال للرجل الطَّلْقِ الوجه: أبلج وبلج. ورجلٌ أبلجُ وبَلْجٌ=

لقد كان الأمر بيدهم ففى توراتهم أن من يزنى يجب أن يُرجم، فلماذا لم يرجموا أم عيسى إذن؟ لابد أنهم صدموا بقوة جعلت موازين حقدهم تختل، هذه القوة هى كلام عيسى ابن مريم فى المهد: ﴿ **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** . . . ﴾ الآية.

هذه المفاجأة جعلت الجبار فيهم ينهار وتخور قواه، هذا من ناحية اليهود، فماذا عن النصارى ؟

إن رضيعًا يتكلم فى المهد، هو معجزة بكل المقاييس، فكيف تخلو كل الأناجيل التى بين أيدينا الآن من هذه الواقعة ؟!

إنه طفل تكلم فى المهد، وكان لابد أن تكون الكلمة التى قالها مدروسة بعناية، ولا يمكن أن تنسى. لابد أن تكون كلمة رائعة، من طفل يتكلم، فكيف لا تأتى هذه الكلمة فى الأناجيل ؟! إن جنود الله سبحانه وتعالى هم الذين حفظوا الكلمة مُذْ قالها عيسى عليه السلام وحتى تقوم الساعة. إن الأناجيل لم تذكر ذلك ؛ لأنها لو ذكرت ذلك لسألناهم ماذا قال؟ سيكون الرَّد دون مواربة: لقد قال: ﴿ **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ** ﴾؛ وهذا ينفى أنه إله.

= وبليجٌ: طلق بالمعروف . قالت الخنساء:

كَأَنْ لَمْ يَقُلْ: أَهْلاً، لِطَالِبِ حاجَةٍ ... وكان بليجَ الوجهِ، مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ

وشىءٌ بليج: مُشْرِقٌ مضىءٌ؛ قال الداخل بن حرام الهذلىّ:

بأحسنَ مَضْحكًا منها وجيدًا ... غَداةَ الحَجْرِ، مَضْحكُها بليجُ

وبلج الصُّبْحُ يَبْلَجُ بالضم، بُلُوجًا، وانبلج، وتَبَلَّج: أسفر وأضاء. وأبلجَ الحق : ظهر؛ ويقال: هذا أمرٌ أَبْلَجُ أى: واضح، وقد أبلجه: أوضحه، ومنه قوله:

الحَقُّ أَبْلَجُ ، لا تَخْفَى مَعَالِمُهُ ... كالشَّمْسِ تَظْهَرُ فى نورٍ وإِبْلاجِ

وكذلك الصُّبْحُ إذا اتَّضَحَ؛ يقال: الحقُّ أَبْلَجُ، والباطل لَجْلَجٌ. وكلُّ شىءٍ وَضَحَ: فقد ابْلاجَّ ابْلِيجاجًا . [لسان العرب: ٢/ ٢١٥ ، ٢١٦] بتصرف.

إننا إذن أمام أمرين: أمر خاص باليهود، وأمر خاص بالنصارى ـ كتبة الأناجيل ـ .

فاليهود نقول لهم: لقد كانت لكم السيطرة الدينية وقد جاء فى توراتكم أنه لابد من رجم الزانية، فإذا كنتم قد اتهمتم مريم بالزنا؛ لأنها ولدت من غير رجل، فكان لابد من رجمها ، وأنتم لم ترجموها؛ لأن سبباً واجهكم ولم يقدر على هذا السبب كل طغيانكم وكل حقدكم، فالطفل الذى تكلّم فى المهد كان معجزة ألجمت أقوى الأقوياء فيكم.

وأنتم أيها النصارى ـ كتبة الأناجيل ـ لماذا لم تذكروا كلام عيسى عليه السلام فى المهد ؟!

وبينما القوم على هذه الحال، من مفاجأتهم بما تحمل مريم، ثم من استنكارهم الكلام مع طفل رضيع، نطق عيسى عليه السلام قائلاً لهم: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [مريم].

فكأنه يقول لهم: لا تتكلموا أنتم ولكن أنا الذى سأتكلم. وأول شىء قاله: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾؛ واستهلاله كلامه بعبوديته لله تعالى، دليل على أنه قد يقال إنه ليس عبداً وإنه إله أو شريك لله سبحانه، فأول كلمة نطق بها أنه عبد لله تعالى؛ ولذلك تجد أن أهل الكتاب يقولون عنه إنه تكلم فى المهد، فإذا سألتهم ماذا قال حين تكلم ؟ تجدهم يصمتون ولا ينطقون بما قاله أبدًا؛ لأن كلامه ينفى معتقدهم.

لم يقل ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾؛فقط ،ولكنه أضاف شيئًا آخر فقال : ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾؛ ولكن كيف يؤتيه الكتاب وهو مازال

طفلاً فى مهده؟ قالوا: كأن هذا أمراً ثابتاً ومفروغاً منه، ومعنى ذلك أن هذا الوليد أهل لأن يتحمل أمانة السماء والأرض، وجعله نبيّا ذا سلوك قويم ولا يمكن أن يكون كذلك وفيه أى مطعن، وفوق ذلك: جعله مباركاً أينما كان، فهذه الصفات هى أنه عبد الله، آتاه الكتاب والكتاب لم يأت بعد ولكنه سينزل فى المستقبل؛ وذلك لأن هذا الوليد يتكلم عن الحق سبحانه فلابد أنه ملقّن، والذى يلقنه هو الذى سيؤتيه هذه الأشياء وهو الحق سبحانه وتعالى، وبعد ذلك قال أيضاً: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾(١) [مريم: ٣١]

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ أول شيء تكلم به أن نَزَّه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه. وقوله: ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ تبرئة لأمه مما نسب إليها من الفاحشة.

قوله: ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] وقال عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس فى قوله: ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت. ما أبينها لأهل القدر. وقوله: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ أى وأمرنى ببر والدتى، ذكره بعد طاعة ربه؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وقال: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾.

وقوله: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أى: ولم يجعلنى جباراً مستكبرًا عن عبادته وطاعته وبرّ والدتى، فأشقى بذلك. قال سفيان الثورى: الجبار الشقى الذى يقتل على الغضب. وقال بعض السلف: لا تجد أحدًا عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ قال: ولا تجد سيّئ الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً ثم قرأ: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾

[تفسير ابن كثير: ٣/ ١١٧] بتصرف. =

ومعنى أوصانى بالصلاة والزكاة، أى أن الحق سبحانه وتعالى شرع له هذه العبادات والشرائع.

ثم يقـول تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ [مريم].

البر بالوالدين معروف فهو بارٌّ بوالدته، بمعنى أنه حين يكبر ويعرف القصة أنه وُلِدَ ولد من غير أب دون أن يمس أمَّه بشرٌ، فهذه الأحداث لا تسبب له أى ضيق، أو غرابة؛ لأنه هو نفسه الدليل على صدق هذه المعجزة، والدليل لا يشكك فى المدلول، أى إياكم أن تظنوا أنى سأكون عاقاً لوالدتى؛ بل سأكون باراً بها عطوفاً عليها، ومعنى ﴿لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾: إن الحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً لا بد أن يجعله ليّن الجانب؛ لأنه سيأتى؛ ليخرج الناس مما ألفوه من الفساد، والذى يألف الفساد، ويعايشه يكره من يريد أن يصلحه؛ فيتعرض لعمليات استفزازية، ومواقف عناد وسخرية واستهزاء، فإن لم يكن لين الجانب، واسع الصدر؛

= وقال ابن القيم: قول الله تعالى ذكره: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ (٣١)﴾ [مريم].

قال سفيان بن عيينة: جعلنى مباركاً أينما كنت قال: معلمًا للخير. وهذا يدل على تعليم الرجل الخير هو البركة التى جعلها الله فيه؛ فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا فى الحقيقة ليس إلا فى العلم الموروث عن الأنبياء؛ وتعليمه؛ ولهذا سمَّى سبحانه كتابه مباركاً كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٥٠].

وقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩] ووصف رسوله بأنه مبارك كما فى قول المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ فبركة كتابه ورسوله هى سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله. [بدائع التفسير: ٣/ ١٣٧]

ليستميل الأذن لتسمع رسالته، ستفشل مهمته؛ ولذلك يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومعنى: ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾(١).

أى: يوم ميلادى كان سلاماً ؛ لأن هذا الحدث لو وقع لبنت فى أسرة أخرى كان من الممكن أن يقتلوها، ويقتلوا وليدها، ولكنها مرت بسلام، والسلام عليه أيضاً يوم يموت، وهنا خصّ يوم مولده ويوم موته بالسلام؛ لأن الميلاد مقابله الموت، والسلام عليه يوم موته؛ لأنهم سيأتون؛ ليأخذوه بغية صلبه وقتله، وبعد ذلك يُشَبَّه لهم أنهم صلبوه وقتلوه، ولكن اللّه تعالى نجاه منهم ومن كيدهم ورفعه اللّه سالماً من كل سوء .

وذكر السلام على نفسه يوم يبعث حيًّا؛ لأنه ليس هناك رسول سيسأله الله هـذه الأسئلة إلا عيسى عليه السلام، وهـى قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) ﴾ [المائدة].

---

(١) قال ابن كثير: قوله: ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله؛ يُحيى ويُمات ويُبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة فى هذه الأحوال التى هى أشق مايكون على العباد. صلوات الله وسلامه عليه. [تفسير ابن كثير: ٣/ ١١٧ ، ١١٨] .

والحق سبحانه يعلم أن عيسى عليه السلام لم يقل لهم إلا ما أمره الله عز وجل به، ولكن هذا تقريع لمن يزعمون أنهم أتباعه، وقد حرَّفوا رسالته وجعلوه إلهاً من دون الله.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) ﴾ [مريم].

كلمة: ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: الذي تقدم، وهو قصة عيسى ابن مريم، قول الحق: أي يقولها الله قول حق، أي هذه قصة عيسى ابن مريم يخبرنا بها الحق سبحانه وتعالى، أو أن معنى قول الحق أي أنه ضد الباطل، فالمعنيان متفقان: ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ أي إنه قول الله الحق سبحانه، أو أنه الحق الذي ضد الباطل ﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾: أي يشكون، فكأنه يخبرنا أنهم سيشكون في هذا الكلام ويَتَقَوَّلون فيه الأقاويل، والمعنى: اتركوا هذه الأقاويل الباطلة، وخذوا الكلام من الحق سبحانه؛ لأن قول الحق هو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكما قلنا كلمة: ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: الذي تقدم أمره من أول قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ إلى هنا. ثم ذكر قضية هامة جداً فقال سبحانه:

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(1). ولكن لماذا بدأ بموضوع الولد؟ قالوا: لأن قضية الشريك تُنفى بأولية العقل؛ لأن الشريك لله ماذا يفعل معه؟!

---

(1) قال الشيخ السعدي في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) ﴾ [مريم] أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات، عيسى ابن مريم، من غير =

إن كان كل إله صالحاً للفعل والترك، فهذه صورة مكررة ليس لها لزوم، وان كان هذا إلهًا لشيءٍ والآخر إلهًا لشيءٍ آخر، فالذى فى هذا نقص فى الآخر ،وهذا محال. ولو أن هناك إلهًا آخر مع الله تعالى لاتّخذ كل واحد إلهاً ، ولذهب كل إله بما خلق ، وعلا كل منهما على الآخر[1]، وتنازع كل منهما فى السيطرة على الكون والاستواء على العرش، وهذا لا يمكن أن يحدث .

ولذلك فإن الإنسان حين لاينجب، أو يتأخر إنجابه تشتاق نفسه إلى الولد ويسعى له!! والسبب فى ذلك أن الإنسان ابن دنياه ، وهو يعلم أنه ميت، فحين يولد له ولد يكون قد وصل ذِكْرَه بجيل آخر، وإذا لم يكن له ذرية

= شك ولا مرية ، بل قول الحق ، وكلام الله ، الذى لا أصدق منه قيلاً ، ولا أحسن منه حديثاً، فهذا الخبر اليقينى، عن عيسى عليه السلام، وما قيل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع ببطلانه، وغايته أن يكون شكاً من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿**الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ**﴾ أى: يشكون فيمارون بشكهم، ويجادلون بخرصهم، فمن قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم وتَقَوُّلِهِم عُلُوّا كبيراً.

فـ﴿**مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ**﴾ أى: ما ينبغى ولا يليق؛ لأن ذلك من الأمور المستحيلة؛ لأنه الغنى الحميد، المالك لجميع الممالك، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه، ولداً؟!! ﴿**سُبْحَانَهُ**﴾ أى: تنزه وتقدس عن الولد والنقص.﴿**إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا**﴾ أى: من الأمور الصغار والكبار، لم يمتنع، عليه ولم يستصعب ﴿**فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ فإذا كان قدره ومشيئته نافذاً فى العالم العلوى والسفلى، فكيف يكون له ولد؟!!وإذا كان إذا أراد شيئاً قال له : ﴿ **كُن فَيَكُونُ** ﴾ فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟!! [تيسير الكريم الرحمن: ١/ ١٠٤٦، ١٠٤٧]

(١) قال الله عز وجل: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [المؤمنون: ٩١] .

ينتهى ذِكْرُه بوفاته ، فكأن الإنسان يتمسك بالدنيا،فهو يريد أن يستمر ذِكْره بعده فى أولاده أو أحفاده.

إذن . . اتخاذ الولد: إما أن يكون لاستدامة استبقاء الحياة؛ لأن كل واحد ميت، والله سبحانه وحده لا يموت ، أو أن اتخاذ الولد يهدف الإنسان منه أيضاً أن يكون له عزوة لمساعدته، والذى يحتاج إلى ذلك يكون ضعيفاً، ولكن الله سبحانه هو القوى ؛ فاتخاذ الولد قضية منفية بالنسبة لله سبحانه وتعالى؛ لأنه إن كان لاستدامة الحياة والذكر فى الدنيا، فالله تعالى لن تذهب حياته حتى يكون موصولاً في ولده؛ لأنه هو الحى الذى لا يموت، وإن كان من أجل العزوة والاستعانة ،فالله تعالى لا يحتاج إلى معونة أحد لأنه المعين سبحانه، وهو الصمد الذى يحتاج إليه كل أحد ولا يحتاج هو إلى أحد . . لذلك قال تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾.

وكلمة: ﴿ **سُبْحَانَهُ** ﴾ أى: تنزيهًا له فى ذاته وتنزيهاً له فى صفاته، وتنزيهاً له فى أفعاله ، فإن قيل فى الله شىء يوجد مثله فى البشر كأن يكون لله وجه أو يد أو سمع أو بصر، إياك أن تظن أن سمعه مثل سمعك، أو أن بصره مثل بصرك، أو أن يده مثل يدك أو وجهه مثل وجهك ، لماذا ؟ لأن لك وجودًا ولله وجود فهل وجودك كوجود الله ؟!

بالطبع لا ؛ لأن وجودك مُسْبَق بعدم، ووجود الله لم يُسْبَق بعدم، ووجودك يلحقه عدم، ووجود الله لا يلحقه عدم !! فهو سبحانه الأول لا شىء قبله، والآخر لا شىء بعده.

إذن . . هناك أشياء توجد فى الله تعالى ، وقد يوجد مُسَمَّاها فى البشر ولكن هذا لابد أن يؤخذ فى إطار قول الله تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١].

وكلمة: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تعنى التنزيه المطلق لله، وهذا التنزيه موجود حتى قبل أن يوجد خلق؛ ولذلك استُهِلَّت بها سورة الإسراء حيث قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء: ١].

لأن المسألة عجيبة؛ يُسرى بالرسول محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة ،ثم يعرج به إلى السماء من بيت المقدس ثم يعود إلى مكة بعد ذلك فى نفس الليلة فقال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ أى لا تحكم على ربك الذى خلقك بقانون الزمان والمكان والبعد والمسافة؛ لأن كل فعل يناسب قوة وقدرة فاعله ، فلا تعزل الفعل عن فاعله، ولكن انظر من الذى فعل ؟ هل فعلها محمد ؟ ، أهو الذى سرى أم أن الله تعالى أسرى به ؟ تجد أن الله أسرى به ، إذن . . هذا فعل الله سبحانه ، وليس فعل النبى محمد ﷺ.

وكلمة : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ تنزيه لله قبل أن يخلق الَّذين يسبحونه، وبعد أن خلق الخلق سَبَّحوا لله ، قال تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الصف: ١].

ولكن هل سبَّحوا وسكتوا ؟ لا . . بل سبّحوا واستمر تسبيحهم ، قال تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الجمعة: ١].

فكل الكون يسبح الله تعالى؛ لكنَّا لا نفقه تسبيحهم، حيث يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأنت أيها الإنسان مخلوق ضمن مخلوقات الله، وقد أتاك أمر ربِّك بالتسبيح، فسبِّح كما أمرك الله عز وجل ، الذى قال فى محكم كتابه : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ؛ لأن هذه الأشياء كلها مخالفة للنواميس، فإياك أن تتعجب أن يفعل الله سبحانه ذلك مع زكريا ويحيى عليهما السلام لعطب الآلة ، وإياك أن تتعجب من أن الطفل الذى كان فى المهد صبيًا قد تكلّم.

كل هذه نواميس خارقة للعادة نأخذها كلها فى إطار: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أى: تنزيهاً له؛ لأنه إذا أراد شيئاً لا يعالجه بعلاج وعمل وإنما يعالجه بقوله: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ والفعل كن مُكَوَّنٌ من حرفين فقط، فحين يقول الحق لشيء : كن ؛ يكون فى الحال.

* كلام عيسى عليه السلام فى المهد *

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٦] والكلام معناه: اللفظ الذى ينقل قول الناطق إلى السامع، وقول الحق : ﴿ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾ معناه: أن المواجه بكلام عيسى عليه السلام فى المهد هم الناس ونفهم من قوله تعالى: ﴿ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾ سر وجود آية معجزة وهبها الله تعالى لعيسى عليه السلام، وهو أن يكلم الناس وهو طفل فى المهد(١) ؛ لأن المسألة تعلقت بعرض أمة وبكرامتها وعفتها، فكان لابد من آية لتمحو عجب الناس حين يرونها وقد ولدت بدون زوج، وهذه المسألة لم

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى . وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلى ، فجاءته أمه فدعته ، فقال : أجيبها أو أصلى؟ فقالت : اللهم لا تُمِته حتى تريه وجوه المومِسات ، وكان جريج فى صومعته ، فتعرَّضت له امرأة وكلَّمته فأبى ، فأتت راعيا فأمكنته من نفسها ، فولدت غلاما ، فقالت : من جريج ، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه ، فتوضأ وصلى ، ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال : الراعى ، قالوا : نبنى صومعتك من ذهب ؟ قال : لا ، إلا من طين . وكانت امرأة تُرضع ابنا لها من بنى إسرائيل ، فمر بها رجل راكب ذو شارة ، فقالت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديها يمصه ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يمص إصبعه ، ثم مرَّ بأمة فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه ، فترك ثديها فقال : اجعلنى مثلها ، فقالت : لم ذاك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون : سرقتِ زنيتِ ولم تفعل » . أخرجه البخارى [٣٤٣٦] ، واللفظ له ، ومسلم [٨/٢٥٥٠] .

نجد لها وجوداً فى الأناجيل الموجودة بأيدى النصارى ، مع أنها مسألة كانت يجب أن تُذكر من كتبة الإنجيل ؛ لأنهم يمجدون نبيهم ، وكان من الواجب ألا يغفلوا عن هذا الشيء العجيب ؛ ذلك أن كلام طفل فى المهد أمراً عجيباً وكان لابد أن يكون محل حفظ وتداول بين الناس. إن الطفل عندما يتكلم فى المهد فلن يقوم الناس برواية واقعة كلامه فى المهد فقط، بل سيحفظون ما قاله ويرددون قوله ؛ لأن العجيب أن يتكلم وهو فى المهد ، ويحرص الناس على أن يعرفوا ماذا قال ؟ والكلمة التى قالها عيسى عليه السلام فى المهد لا تسعف زاعمى التبعية لعيسى عليه السلام فيما يدّعون ؛ لأن الكلمة الوحيدة التى نطق بها أول ما نطق قال: ﴿ **إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ** ﴾ ، فأخفوا هذه المسألة كلها لماذا؟ رغم أن كلام طفل فى المهد يكون أمراً عجيباً، وما دام أمرًا عجيباً ولافتاً للأذهان ؛ فلابد أن يكونوا قد سمعوا ما قاله ووعوه. ومادام قد سمعه القوم ووعوه فلابد أنهم تناقلوا ما قاله . وهو قد قال فى أول ما نطق: ﴿ **إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ** ﴾ ، وبهذه الكلمة ينتفى ادّعاء ألوهية عيسى عليه السلام.

إن الحق سبحانه يقول: ﴿ **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلاً** ﴾ ،ونحن نعرف أن الكلام فى المهد، أى: وهو طفل. وكهل: أى بعد الثلاثين من العمر؛أى فى العقد الرابع،والبعض قد قال إن الكهولة بعد الأربعين من العمر [1] ، وقد

(١) قال القاسمى: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ ﴾ فى محل النصب على الحال ﴿ وَكَهْلاً ﴾ عطف عليه بمعنى ويكلم الناس ، حال كونه طفلاً وكهلا ، كلام الأنبياء من غير تفاوت بين الحالتين ، وذلك لا شك أنه غاية فى المعجز . وفى ذلك بشارة ببقائه إلى أن يصير كهلا . والمهد الموضع الذى يهيأ للصبى ويوطأ لينام فيه . والكهل مَن وخطه الشيب ، أو من جاوز الثلاثين إلى الأربعين أو الخمسين . قال ابن الأعرابى : يقال للغلام مراهق ، ثم محتلم ، ثم يقال : تخرج وجهه، ثم اتصلت لحيته، ثم مجتمع، ثم كهل ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . قال الأزهرى : وقيل له كهل حينئذ لانتهاء=

حدثت له فى رواياتهم ما أسموه حكاية الصلب قبل أن يكون كهلاً ، فإذا كان قد تكلم فى المهد فينبغى أن يتكلم وهو كهل ، ولما كانت حادثة الصلب أو عدم الصلب أو الاختفاء عن حسّ البشر ليسمونها كيف شاءوا المهم أنها تمت قبل أن يكون كهلاً.

إذن: فلابد أن يأتى وقت يتكلم فيه عيسى بن مريم عندما يصير كهلاً. وأيضاً قول الحق سبحانه : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ إلا أنه كان فى المهد طفلاً، وكهلاً أى ناضج التكوين، وبذلك نعرف أن عيسى ابن مريم فيه أغيار وفيه أحوال، فإذا كنتم تقولون: إنه إله فهل الألوهية وهو فى المهد، هى نفسها الألوهية وهو فى الكهولة ؟!

لو كانت الألوهية فى المهد فهى ناقصة؛ لأنه لم يستمر فى المهد وحدثت له أغيار. وما دام قد حدثت له أغيار فهو محدَث ، وما دام محدثًا فلا يكون إلها.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه فى عيسى ابن مريم : ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ فما معنى ذلك القول ؟ إن الأشياء التى قال عنها الله أنه يكلم الناس فى المهد لم تكن باختياره، وكلامه وهو كهل سيكون بالوحى أى ليس له اختيار، ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ مقصود بها عمله أى الحركة السلوكية لماذا ؟ لأنه لا يكفى أن يكون مبلغاً ولا يكفى أن يكون حامل آية ؛ بل لابد أن يكون على السلوك الإيمانى.

= شبابه وكمال قوته . وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن جرير : يعنى من عدادهم وأوليائهم ؛ لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض فى الدين والفضل .

[تفسير القاسمى ٤/ ٨٤٤ ، ٨٤٥]

* كذب اليهود فى دعواهم على مريم *

قال الحق سبحانه: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

أى أن الله قد أخذهم بذنوبهم ؛ بداية من نقضهم الميثاق، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وادعائهم أن قلوبهم ﴿غُلْفٌ﴾ [النساء:١٥٥] لا يدخلها الإيمان ولا يخرج منها الضلال، ثم كفرهم وقولهم على مريم البهتانَ العظيمَ ؛ فكأن قول البهتان على مريم لم ينشأ إلا من منطلق الكفر.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (١) ؛ علمنا مما سبق ما قالوه عن أم عيسى الصديقة مريم، وهم بقولهم البهتان يناقضون أفهامهم، ويناقضون عقولهم، ويناقضون واقعاً شاهدوه.

لقد كانت مسألة ميلاد عيسى عليه السلام من « أم » دون « أب » شيئاً معجزاً يناقض ناموس الكون فى أن كل تكاثر إنسانى ينشأ من لقاء رجل بامرأة ، أو ذكر بأنثى.

---

(١) قال الإمام ابن تيمية فذم الله اليهود بأشياء منها: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ حيث زعموا أنها بغىٌّ ، ومنها قولهم :﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧] .

[التفسير الكبير: ٤/ ١٨١]

ولكن الحق سبحانه شاء أن يرد على مادية اليهود، الذين أرادوا أن يروا الله جهرة ولم يؤمنوا به غيباً مطلقاً. وظن اليهود بسخافة عقولهم أن الله إن رُئِىَ بأعينهم جهرة كان إلهاً يستحق أن يُعبد ، وما علموا أنه لو كان مرئياً جهرة لخلقه لما استحق أن يُعبد ؛ لأن المرئى تقدر عليه عين الرائى لتميزه ، فيصبح المرئى مقدوراً عليه، والله تعالى ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الأنعام : ١٠٣].

إذن . . فمن غباء فكر اليهود أنهم جعلوا المقتضى للإيمان مانعاً من الإيمان، إن المقتضى للإيمان أن الحق سبحانه لا يقدر أن يحيط به أحدٌ من خلقه أبداً ، وهم طلبوا إدراك حاسة من حواس الإنسان له. ومعنى ذلك أنهم طلبوا أن يكون الله مقدوراً لعيونهم ، حينما قال اليهود ذلك البهتان ناقضوا عقولهم فى الفهم ، وناقضوا الواقع الذى شهدوه ، فلقد كانت حادثة ميلاد المسيح عليه السلام وقت أن كان لليهود النفوذ الدينى، وهم الذين يحكمون على الناس الذين يخالفون منهج الدين. فإذا كانت مريم الصديقة قد فعلت البهتان الذى ادعوه ، هنا يجب أن نقول لهم : كان الأمر بأيديكم فلماذا لم ترجموها، والرجم وارد عندكم فى التوراة ؟

لا شك أنكم لم ترجموها ؛ لأنكم وجدتم آية بينة تشهد بأنها لم تأت بهتاناً ، وإلا فما الذى منعكم أن تقيموا عليها حد الرجم ، وأنتم أصحاب النفوذ فى أمر الدين ؟ لا شك أن آية من الآيات بهرتهم فلم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً من ذلك ؛ لأن الذين شهدوا آية ميلاد المسيح معهم يخطئونهم فيما ذهبوا إليه من حكم ، فما هى هذه الآية ؟

الآية هى أن عيسى عليه السلام تكلم وهو فى المهد . . وكلام عيسى وهو فى المهد براءة لأمه .

إذن . . فالدليل قام أمامهم ومع ذلك لم يستطيعوا أن يرجموا مريم . . وبقى شىء آخر، وهو : لماذا لم يثبت فى كتب أهل الكتاب أو شروحها أن عيسى تكلم فى المهد، مع أنها معجزة واضحة بينة ؟! وهم يتصيدون أشياء تثبت فوقية عيسى عليه السلام ؟ لم يقولوها لأن عيسى لم يبدأ كلامه فى المهد ثم استمر متكلماً من لحظة ميلاده إلى لحظة رفعه، لا؛ لقد تكلم عيسى فى المهد كلمة وعاد بعدها إلى قانون الطفولة التى لا تتكلم، فكأن حادثة كلامه هى مقولة واحدة قالها، ثم رجع إلى ناموس الكون فى تكلُّم الأطفال، فإذا كان قد تكلم فى المهد بكلمة ، فلابد أن يتعرف الناس إلى هذه الكلمة وأن يعلمها الجميع، فإذا تكلم طفل فى المهد، فلابد أن فى الأمر آية عجيبة تستحق أن تنتشر، فما الذى قاله عيسى وهو فى المهد؟ إنه قال : ﴿ **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** ﴾ [مريم: ٣٠].

إنها المقولة التى تناقض ما ادّعوه فى عيسى من الألوهية ، فلم يتكلم عيسى إلا بالكلمة التى تشهد ببشريته وعبوديته للحق سبحانه وتعالى : ﴿ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)** ﴾ [مريم].

ولم يذكروا هذا القول فى كتبهم ؛ لأنه ينقض قضيتهم فى ألوهية عيسى، وتلك هى كل الكلمات التى نطق بها عيسى فى المهد .

* تعليم الله تعالى لعيسى عليه السلام *

يقول الحق سبحانه عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران : ٤٨].

حين نسمع قوله ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾ نفهم أن المقصود بها: الكتاب المنزل. والحق سبحانه قد أَتْبَعَ ذلك بقوله: ﴿ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ . فلابد لنا أن نسأل إذن : ما المقصود بالكتاب ؟ فهل كان المقصود بذلك الكتاب : الكتب المتقدمة ؛ كالزبور والصحف الأولى كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام ؟ قد يكون ذلك صحيحاً.

ومعنى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾ أن الحق قد علّمه ما نزل قبله (١) من زبور داود، ومن صحف إبراهيم، وبعد ذلك توراة موسى الذى جاء عيسى ناسخاً لها. وبعض العلماء قد قال : أُثر عن عيسى عليه السلام أن تسعة أعشار جمال الخط كان فى يده. وبذلك يمكن أن نفهم ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾

---

(١) قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزى : قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾ قرأ الأكثرون «ونعلمه» بالنون . وقرأ نافع ، وعاصم بالياء ، فعطفاه على قوله: ﴿ يُبَشِّرُكِ ﴾ وفى الكتاب قولان :

أحدهما : أنه كُتُبُ النبيين وعلمهم ، قاله ابن عباس .

والثانى : الكتابة : قاله ابن جريج ، ومقاتل ، قال ابن عباس : والحكمة : الفقه ، وقضاء النبيين . [زاد المسير: ١/ ٣٣٣]

وقال القرطبى : قال ابن جريج : الكتاب : الكتابة والخط . وقيل : هو كتابٌ غير التوراة والإنجيل علَّمه الله عيسى عليه السلام . [تفسير القرطبى : ٤/ ٩٣]

أى : القدرة على الكتابة . وما المقصود بقوله تعالى : ﴿ والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ بعد قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾ .

كلمة الحكمة (١) عادة تأتى بعد كتاب منزل ، مثال ذلك قول الحق: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيراً ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

آيات الله المقصودة هنا : هى القرآن الكريم ، والحكمة هى كلام الرسول ﷺ؛ فالرسول له كلام يتلقاه ويبلغه ، ويعطيه الحق أيضاً الحكمة وهى سنته ﷺ . أما التوراة التى علمها الله لعيسى عليه السلام ، فكما نعلم أن مهمة عيسى عليه السلام أنه جاء ليكمل التوراة ويكمل ما أنقصه اليهود من التوراة ، فالتوراة أصل من أصول التشريع لعصره والمجتمع

---

(١) قال ابن عساكر عن عكرمة قال : قال عيسى بن مريم للحواريين : يا معشر الحواريين تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير ، فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤة شيئًا ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها ، فإن الحكمة خيرٌ من اللؤلؤ ، ومَنْ لا يريدها شرٌّ من الخنزير. [الدر المنثور : ٢/ ٢١٤]

عن هشام الدستوائى قال : إن فى حكمة عيسى ابن مريم عليه السلام تعملون للدنيا، وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل، ويحكم علماء السوء الأجر تأخذون والعمل تضيعون ، توشكون أن تخرجوا من الدنيا إلى ظلمة القبور وضيقها، والله عز وجل نهاكم عن المعاصى ، كما أمركم بالصوم والصلاة فكيف يكون من أهل العلم من دنياه آثر عنده من آخرته وهو فى الدنيا أفضل رغبة ؟ كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه وما يضره أشهى إليه مما ينفعه ؟ كيف يكون من أهل العلم من سخط رزقه واحتقر منزلته وهو يعلم أن ذلك من علم الله عز وجل وقدرته ؟ كيف يكون من أهل العلم من اتهم الله سبحانه فى إصابته ؟ كيف يكون من أهل العلم من طلب الكلام ليحدث به ولم يطلبه ليعمل به . أخرجه أحمد فى الزهد ص [٩٦].

المبعوث إليه ، فهو كما قال الله تعالى فى القرآن الكريم:

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

إن كلمة «رسول» تحتاج إلى دليل ، فليس لأى أحد أنْ يقول : أنا رسول من عند الله ، إلا إذا قدّم بين يدى دعواه معجزة تثبت أنه رسول من الله .

فالآية كما نعلم هى الأمر العجيب الذى خرج عن القوانين والنواميس، وما دامت المعجزة جاءت آية لتثبت صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، فلابد أن تكون خارجة عن نواميس البشر ، وما دامت المعجزة خارجة عن نواميس البشر فالمخالف نقول له: أنت حين تكذب أن حامل المعجزة رسول، فكيف تعلل أنه جاء بمعجزة خرجت عن الناموس ؟

إذن . . فالمعجزة تلزم المنكر الذى يتحدى وتفحمه ؛ لأنه لا يستطيع أن يأتى بمثلها؛ ولذلك قلنا : إن من لزوم التحدى أن يجعل الله تعالى معجزة الرسول من جنس ما نبغ فيه القوم ؛ لأن الحق لو جاء لهم بشىء لم يدرسوه ولم يعرفوه ، فالرد منهم يكون للرسول بقولهم : إن هذا أمر لم نروض أنفسنا عليه ، ولو روّضْنَا أنفسنا لاستطعنا أن نفعل مثله ؛ لذلك يرسل الحقُّ الرسولَ - أىَّ رسول - بمعجزة من جنس ما ينبغ فيه القوم المرسَل إليهم (١) .

---

(١) قال ابن كثير : قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبى من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام : السحر وتعظيم السحرة ، =

وقوم عيسى كانوا مشهورين بالحكمة والطب. لذلك كانت الآيات من جنس ما نبغوا فيه ، الحكمة والطب ، ثم تتسامى لأن الذى يطبّب جسماً ليس له علاقة بموت إنسان ، فإذا ما مات إنسان فقد خرج الميت عن دائرة علاج الطبيب، ولذلك رقّى الله آية عيسى أنه يشفى المرضى ويحيى الموتى أيضاً ، وهذا تَرَقٍّ فى الإعجاز ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه قال لقومه : ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

إن كلمة: ﴿أَخْلُقُ﴾ تحتاج إلى وقفة ، وكذلك ﴿الطِّينِ﴾ و« الهيئة »

= فبعثه الله بمعجزات بهرت الأبصار ، وحيَّرت كل سحَّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبَّار، انقادوا للإسلام، وصاروا من عباد الله الأبرار. وأما عيسى عليه السلام، فبُعِثَ فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيّدًا من الذى شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبَعْثِ من هو فى قبره رهين إلى يوم التناد. وكذلك محمد ﷺ ، بُعِثَ فى زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل ، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله. لم يستطيعوا أبدًا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

[تفسير ابن كثير : ١/ ٣٤٥]

وأخرج ابن عساكر عن وهب بن مُنَبّه قال : كان دعاء عيسى عليه السلام الذى يدعو به للمرضى ، والزَّمْنَى ، والعميان ، والمجانين ، وغيرهم : « اللهم أنت إله مَنْ فى السماء ، وإله مَنْ فى الأرض لا إله فيهما غيرك ، وأنت جبار مَنْ فى السماء وجبار من فى الأرض ، لا جبَّار فيهما غيرك قدرتك فى السماء كقدرتك فى الأرض، وسلطانك فى الأرض كسلطانك فى السماء، أسألك باسمك الكريم ، ووجهك المنير، وملكك القديم ، إنك على كلٍّ شىء قدير.

قال وهب : هذا للفَزِع والمجنون يقرأ عليه ، ويُكْتَب له ، ويُسْقَى ماؤه إن شاء الله تعالى. [الدر المنثور: ٢/ ٢١٥]

و ﴿الطَّيْرِ﴾. أخلق مأخوذة من الخلق. والخلق هو إيجاد شيء على تقدير أنه شيء قبل أن يوجد، فأنت في ذهنك أن تأتي به على هذه الحالة، فإن كان يأتي على غير تقديرك، فليس خلقًا إنما هو شيء جزافي. فإن كان سيأخذ قطعة من الطين ويصنع منها أي شيء، فهذا ليس خلقاً؛ الخلق هو المطلوب على تقدير، والخلق على تقدير فيه إيجاد من عدم ، إنه شيء كان معدوماً فَوُجِدَ ؛ مثال ذلك الكوب والكأس الذي نشرب فيه الشاي، حينما صنعه الصانع هل كانت هناك شجرة تخرج أكواباً ؟ بالطبع لا، لكن الصانع أخذ الرمال، وجهزها، ووضع عليها مواداً كيماوية تنقيها من الشوائب ، إذن .. فالكوب لم تكن موجودة ووُجِدَتْ على تقدير أن تكون على شكل الكوب ؛ هذا خلق وُجِدَ على تقدير.

فماذا عن خلق الله تعالى ؟ إنه يخلق على تقدير ، وفرق بين صنعة البشر حين يخلق وبين صنعة الله حين خلق. إن صنعة البشر حين تُخلَق إنما تُخلَق من موجود ، وحين يَخلُق الله سبحانه وتعالى فهو يَخلُق من معدوم وهذا هو أول فرق. إنه يخلق من عدم ، أما الإنسان فيضع الأشياء بنظام يحدث فيها تفاعلات أرادها الله سبحانه وتعالى فتوجد، لكن لا يوجد من يستطيع- على سبيل المثال - من يصنع كوباً من غير المادة التي خلقها الله عز وجل .

إن أول فرق بين خلق الله وخلق الإنسان أن خلق الله سبحانه وتعالى يكون من عدم، وخلق الإنسان من موجود ، وإن كان الاثنان على تقدير. وأيضاً خلق الله سبحانه وتعالى يعطيه سرا، لا يستطيع البشر إعطاءه لصنعته؛ فالله عز وجل يعطيه سر الحياة ، والحياة فيها نمو وفيها تكاثر، لكن البشر يصنعون الكوب مثلاً فيظل كوباً ، ولا يوجد تكاثر بين كوب ذكر وكوب أنثى. إن الإنسان يوجِد صنعته فتظل على حالتها، ولا يستطيع

أن يصنعها صغيرة ، ثم تكبر . لكن صنعة الله سبحانه وتعالى - فهو القادر - يعطيها الحياة فتكبر وتتطور وتمر بمراحل وتعطى مثلها.

إذن . . فالخلق إيجاد على تقدير ، هذا الإيجاد يوجد من معدوم، والمعدوم موجودة مادته ، هذا فى خلق الإنسان . أما فى خلق الله، فالله يخلق من معدوم لا توجد له مادة ، البشر حين يوجدون شيئاً يوجدونه جامداً على ما هو عليه لا حياة فيه ، ولا يمكن أن يتأتى منه التكاثر لإيجاد مثله. لكن الله يخلق من الشىء ذكراً وأنثى، ويعطيهما القدرة على التناسل.

إذن . . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٤] فيه تفضُّل من الحق على خلقه بأن يخلقوا أشياء ولكن خلق الله أحسن. لماذا ؟ لأنه يخلق من عدم ، والبشر يخلقون من موجود ، إنما الخالق الحق يخلق ويوجد فى مخلوقاته حياةً وتكاثراً ، والبشر يخلقون بلا نمو ولا حياة ، فتبارك اللّه تعالى أحسن الخالقين.

* من معجزات عيسى عليه السلام *

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران : ٤٩].

إن كل إنسان يستطيع أن يصنع من الطين تماثيلَ كهيئة الطير لكن الله خصَّ عيسى بمعجزة أنه يخلق من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه ، وقد نسأل فيمَ ينفخ ؟ أينفخ فى الطير أم فى الطين ؟ أم فى الهيئة ؟ إن قلنا : إن النفخ فى الطين بعدها صار طيراً ، فيكون النفخ فى الطين كالنفخ فى الطير وجاء فى آية أخرى أنها نفخ فى الهيئة وذلك فى قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة : ١١٠].

إن النفخ ﴿فِيهِ﴾ تكون للطين أو للطير ، والنفخ ﴿فِيهَا﴾ تكون للهيئة (١)، وهناك آية أخرى بالنسبة للسيدة مريم البتول: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ

---

(١) قال ابن جرير : فإن قال قائلٌ : وكيف قيل : ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ ، وقد قيل : ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ قيل: لأن معنى الكلام : فأنفخ فى الطير . ولو كان ذلك : « فأنفخ فيها » . كان صحيحًا جائزًا، كما قال فى المائدة: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ يريد: فتنفخ فى الهيئة.
وقد ذكر أن ذلك فى إحدى القراءتين « فأنفخها » بغير « فى » . وقد تفعل العرب مثل ذلك ، فتقول : « ربَّ ليلةٍ قد بتُّها ، وبتُّ فيها».

[تفسير الطبرى : ٦/ ٤٢٧]

عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم:١٢]. إن النفخ هنا فى الفرج.

فى الآية الأخرى قال: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء:٩١]،أى فى مريم عليها السلام.

فمرةً يقول : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ ﴾ أى فى الفرج، ومرةً يقول : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ أى فيها هى ، والقولان متساويان.

وهنا فى هذه الآية نجد أن الإعجاز ليس فى أن عيسى صنع من الطين كهيئة الطير ؛ لأن أى إنسان يستطيع أن يفعل ذلك ، فكأنه حينما قال : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

كأنه صار طيراً من الطين فأى إنسان يمكن أن يفعلها ؛ ولكن : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ تجمع بين الشكل وصناعة الطين كهيئة الطير،فيكون طيرًا بإذن الله. نعم إن عيسى لم يكن ليجترئ ويصنع ذلك كله إلا بإذن الله (١).

---

(١) قال ابن جرير : عن ابن جريج قال ، قوله : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ قال : أىُّ الطير أشد خلقًا ؟ قالوا : الخفَّاش ، إنما هو لحم . قال : ففعل. وكان خلق عيسى ما كان يخلق من الطير،كما روى ابن حُميد بسنده عن ابن إسحاق: أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه جلس يومًا مع غلمان من الكُتَّاب فأخذ طينًا، ثم قال: أجعل لكم من هذا الطين طائرًا ؟ قالوا : وتستطيع ذلك ! قال : نعم ! بإذن ربى . ثم هيَّأهُ ، حتى إذا جعله فى هيئة الطائر نفخ فيه ، ثم قال : « كن طائرًا بإذن الله » فخرج يطير بين كفيه . فخرج الغلمان بذلك من أمره، فذكروه لمعلمهم، فأفشوه فى الناس. وترعرع ، فهمَّت به بنو إسرائيل، فلما خافت أمه عليه حملته على حُمَيِّرٍ لها، ثم خرجت به هاربة. [تفسير الطبرى : ٦/ ٤٢٥ ، ٤٢٦]

لقد جاءت كلمة ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ من قول عيسى وعلى لسانه (١). فهذا اعتراف منه بأن ذلك ليس من صناعته.

وكأنه عليه السلام يقول لقومه : إن كنتم فُتِنْتُمْ بهذا فكان يجب أن تفْتنوا بإبراهيم من باب أولى، حينما قطع الطير وجعل على كل جبل جزءاً منهن ثم دعاه كما فى قول اللّه تعالى؛ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

إذن .. كان من الأولى الفتنة بما أعطاه اللهُ عز وجل إبراهيمَ من معجزة ، أى: إن كانت الفتنة من ناحية الإحياء لكانت الفتنة بإبراهيم .

وإن كانت الفتنة من ناحية أنه جاء إلى الدنيا بدون أب لكانت الفتنة أكثر فى خلق آدم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى خلقه بلا أب أو أم . أنتم لم تُفتَنوا فيه من ناحية الإحياء ولا من ناحية الإيجاد بدون أب .

إذن.. فالفتنة لا أصل لها ولا منطق يبررها.

---

(١) قال القرطبى : وقيل : لم يخلق غير الخفاش لأنه أكمل الطير خلقًا ؛ ليكون أبلغ فى القدرة ؛ لأن لها ثديًا وأسنانًا وأذنًا ، وهى تحيض وتطهر وتلد . ويقال : إنما طلبوا خَلْق خُفّاش ؛ لأنه أعجب من سائر الخلق ؛ ومن عجائبه : أنه لحم ودم يطير بغير ريش، ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور ، فيكون له الضّرع يخرج منه اللبن ، ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل ، وإنما يرى فى ساعتين : بعد غروب الشمس ساعة ، وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يُسفر جداً ، ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويحيض كما تحيض المرأة . ويقال : إن سؤالهم كان له على وجه التعنّت فقالوا : اخلق لنا خُفّاشا واجعل فيه روحا إن كنت صادقا فى مقالتك ؛ فأخذ طينًا ، وجعل منه خفاشا ، ثم نفخ فيه ، فإذا هو يطير بين السماء والأرض ؛ وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله عز وجل ، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله سبحانه وتعالى . [تفسير القرطبى : ٤/ ٩٤]

ومن معجزاته أيضاً ماورد فى قول الله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] . لماذا هذين المرضين بالذات ؟ لأنهما كانا من الأمراض المستعصية فى ذلك العصر. والأكمه هو الذى وُلِدَ أعمى(١)، أى لم يحدث له العمى بعد ميلاده. والبرص هو أن تَبْيَضَّ بقعة من الجلد وإن كان صاحبه أسود . ثم تظهر بعد ذلك بقع متناثرة فى جميع الجسم بيضاء اللون ، مما يدل على أن الجلد صار أبرص . ولون الجلد له كيماويات فى الجسم ، وكشف العلم المعاصر أن الملونات للجلد هى غدد خاصة توجد فى الجسم واسمها الغدد الملونة، فإن امتنعت الغدد الملونة عن إعطاء الألوان جاء البرص والعياذ بالله ، وهو مرض صعب لم

---

(١) قال ابن جرير عن عكرمة فى قوله : ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ ، قال : الأعمش والمعروف عند العرب من معنى « الكمه » ، العَمى . يقال منه : « كمِهَت عينه فهى تكْمَهُ كمهًا، وأكمهتها أنا » إذا أعميتها ، كما قال سويد بن أبى كاهل :

كَمَّهَتْ عَيْنَيْهِ حَتَّى ابْيَضَّتَا ... فَهْوَ يَلْحَى نَفْسَهُ لَمَّا نَزَعْ (١)

ومنه قول رؤبة :

هَرَّجْتُ فَارْتَدَّ ارْتِدَادَ الأَكْمَهِ ... فِي غَائِلاتِ الحائِرِ المتَهْتِهِ (٢) =

---

(١) البيت فى المُفَضَّلِيَّات : [٤٠٥] يقول : عَمِى من شدة ما يلقى ، أو أعمته هى بشدتها . فلما كف عنها ونزع ، ظل يلوم نفسه تعرضه لها .

كمه : الكمه فى التفسير : العَمَى الذى يُولَدُ به الإنسان . كَمِه بصره ، بالكسر ، كَمَهًا ، وهو أَكْمَهُ: إذا اعترته ظلمةٌ تطمسُ عليه. وذكر أهل اللغة: أن الكَمَه يكون خِلْقة ويكون حادثًا بعد بصر. [لسان العرب : ١٣/٥٣٦]

(٢) البيت لرؤبة بن العجَّاج :[١٦٦] من ديوانه من قصيدة يذكر فيها نفسه ، وأيامه ، يذكر قبله خصمًا بَالَغ فى ضلاله ، فردَّه وزجره . هرج : صاح به وزجره . والغائلات : التى تغوله وتهلكه . والمُتَهْتِهُ : الذى تهته فى الأباطيل . أى تردد فيها . فوصفه بالهرج ، وذكر أنه كالأكمه فى حال هَرْجه. [لسان العرب : ١٣/٥٣٦] بتصرف

يكن باستطاعتهم أن يداووه . فلما أرسل اللّه تعالى عيسى ابن مريم إلى قومه أعطاه الله سبحانه وتعالى الآية من جنس ما نبغوا فيه وهو الطب، وجاء لهم بآية فيه هى إبراء ما كانوا عاجزين عنه.

وبعض من الذين يحاولون أن يقربوا بين المعجزة وعقول الناس يقولون: إن هذه المعجزات إنما هى سبق زمن ، بمعنى أنه من الممكن أن يتوصل الإنسان إلى أن يكتشف علاجاً لهذه الأمراض ، لكن نقول لهؤلاء: لا، إن المعجزة معجزة إلى أن تقوم الساعة. كيف؟ لنأخذ مثالاً من طب العيون ؛ عندما أرادوا أن يعالجوا العمى قالوا : سنقوم بتركيب

= وإنما أخبر الله عز وجل عن عيسى صلوات الله وسلامه عليه أنه يقول ذلك لبنى إسرائيل ، احتجاجًا منه بهذه العبر والآيات عليهم فى نبوته . وذلك أن : الكَمَه والبرص لا علاج لهما فيقدرَ على إبرائه ذو طِبٍّ بعلاج . فكان ذلك من أدلته على صدق قيله : إنه لله سبحانه وتعالى رسول؛ لأنه من المعجزات ، مع سائر الآيات التى أعطاه الله سبحانه وتعالى إياها دلالةً على نبوته.

فأما ما قال عكرمة من أن « الكمه » ، العمش ، وما قاله مجاهد : من أنه سوء البصر بالليل ، فلا معنى لهما . لأن الله سبحانه وتعالى لا يحتج على خلقه بحجة تكون لهم السبيلُ إلى معارضته فيها . ولو كان مما احتجَّ به عيسى على بنى إسرائيل فى نبوته ، أنه يبرئ الأعمش ، أو الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل ، لقدروا على معارضته بأن يقولوا : « وما فى هذا لك من الحجة ، وفينا خَلْقٌ ممن يعالج ذلك ، وليسوا لله عز وجل أنبياء ولا رسلا ».

ففى ذلك دلالة بينة على صحة ما قلنا، من أنّ « الأكمه »، هو الأعمى الذى لا يبصر شيئًا لا ليلاً، ولا نهارًا . وهو بما قال قتادة ـ من أنه المولود كذلك ـ أشبهُ ؛ لأن علاجَ مثل ذلك لا يدّعيه أحدٌ من البشر ، إلا من أعطاه الله عز وجل مثل الذى أعطى عيسى ، وكذلك علاجُ الأبرص . [تفسير الطبرى : ٦/ ٤٣٠، ٤٣١] بتصرف

قرنية. ولنأخذ مثالاً آخر من طب الجلد: لو قالوا : سنداوى البرص واكتشفوا ألوانا مختلفة من العلاج تحاول أن تجعل الجلد على لون واحد ، لكنه لا يستعيد لونه الأصلى؛ فعندئذ سيقول بعض الناس: إن معجزة عيسى عليه السلام كانت مجرد سبق زمنى ، ولهؤلاء نقول :لا. لنأخذ كل أمر بأدواته ؛ إن عيسى ابن مريم عليهما السلام كان يبرئ بالكلمة والدعوة ، فمهما تقدم العلم فلن يستطيع أن يبرئ المرض بالكلمة والدعوة ، إنما سيأخذون أشياء ويقومون بتحليل هذه الأشياء ، وخلط الكيماويات وإجراء الجراحات ، لذلك تظل المعجزة التى جاء بها عيسى ابن مريم عليهما السلام معجزة ؛ لأنه كان يبرئ بالكلمة والدعوة !!

* شريعة عيسى عليه السلام *

وقوله: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقد قلنا إن ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ تعنى أن ما جاء به عيسى ابن مريم مطابقًا لما جاء فى التوراة (١) .

وقلنا : إن ما بين يدى الإنسان هو الذى سبقه ، أى: الذى جاء من قبله وصار أمامه ، ومادام عيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة فى زمانه ، وكانت التوراة موجودة فلماذا جاء إذن؟ جاء بأحكام جديدة ، ويتضح ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران قول عيسى عليه السلام لقومه: ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

إذن . . فليس الأمر هو التصديق فقط ؛ ذلك أن عيسى عليه السلام جاء ليحلّ (٢) بعضاً من الذى حرمته التوراة .

---

(١) روى ابن أبى حاتم بسنده [٣٥٥٥] : قال محمد بن إسحاق : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ [آل عمران: ٥٠] أى لما سبقنى منها .

وقال القاسمى فى تفسيره : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ أى : مُقَرِّرًا لها ومثبِّتًا . [تفسير القاسمى : ٤/٨٤٧]

(٢) قال ابن كثير : ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئًا ، وإنما أحلَّ لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ ، وكشف لهم=

وقد يقول قائل : إذا كانت الكتب السماوية تأتى مصدقة بعضها بعضًا، فما فائدة توالى نزول الكتب السماوية ؟ إن الإجابة هى : إن فائدة الكتب السماوية اللاحقة أنها تذكِّر من غَفَلَ عن الكتب السابقة ، هذا فى المرتبة الأولى . وثانياً تأتى الكتب السماوية بأحكام تناسب التوقيتات الزمنية التى تنزل فيها هذه الكتب ، هذه هى فوائد الكتب السماوية التى توالى نزولها من الحق سبحانه على رسله ؛ إنها تذكّر من

= عن الغطاء فى ذلك، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ والله أعلم . [تفسير ابن كثير : ١/٣٤٥]

وقال القرطبى : ﴿بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى من الأطعمة . قيل : إنما أحل لهم عيسى عليه السلام ما حُرِّم عليهم بذنوبهم ولم يكن فى التوراة ، نحو أكل الشحوم وكل ذى ظفر . وقيل : إنما أحل لهم أشياء حرمتها عليهم الأحبار ولم تكن فى التوراة محرمة عليهم . قال أبو عبيدة : يجوز أن يكون ﴿بَعْضَ﴾ بمعنى كل ؛ وأنشد لبيد:

تَرَّاكُ أمْكِنةٍ إذا لم أرضها أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة ؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل فى هذا الموضع ؛ لأن عيسى ﷺ إنما أحل لهم أشياء مما حرّمها عليهم موسى من أكل الشحوم وغيرها، ولم يحل لهم القتل ولا السرقة ولا فاحشة[(١)] . والدليل على هذا: أنه روى عن قتادة أنه قال : جاءهم عيسى بألْيَنَ مما جاء به موسى صلى الله عليهما وعلى نبينا ؛ لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياءَ من الشحوم فجاءهم عيسى بتحليل بعضها . وقرأ النَّخَعِىّ : « بعض الذى حَرُمَ عليكم » مثل كرم ، أى صار حرامًا . وقد يوضع البعض بمعنى الكل إذا انضمت إليه قرينة تدل عليه ؛ كما قال الشاعر [(٢)]:

أبا مُنْذرٍ أفْنَيتَ فاستبقِ بعضَنا حَنَانَيْك بعضُ الشر أهْوَنُ من بعض

يريد بعض الشر أهون من كله . ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إنما وحدَّ وهى آيات؛ لأنها جنس واحد فى الدلالة على رسالته . [تفسير القرطبى : ٤/٩٦]

(١) هكذا بالأصل ، والصواب : الفاحشة .

(٢) الشاعر : هو طرفة بن العبد خاطب به عمرو بن هند الملك ، وكُنيتُهُ أبو منذر حين أمر بقتله .

غفل، وتعدّل فى بعض الأحكام. ومن المسلمات أننا جميعاً نفهم أن العقائد لا تبديل فيها وكذلك الأخبار والقصص، لكن التبديل يشمل بعضاً من الأحكام التى تناسب عصر الرسالة وما بعدها لحين إرسال رسول آخر وهكذا .. إلى أن ختمت الرسالات برسالة المصطفى ﷺ ؛ ولهذا كان مما أرسل به عيسى ابن مريم عليهما السلام ما جاء فى قوله :

﴿ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ونحن نعرف أن القوم الذين أرسل الله عيسى ابن مريم إليهم هم بنو إسرائيل ، والتحريم والتحليل يكون لحكمة من الله.

إن لله حكمة فيما يحلل وحكمة فيما يحرم ، وليس بالضرورة أن كل شىء يحرمه الله يكون ضارًّا. قد يحرم الله لسببٍ آخر ، وهو تأديب الخلق ؛ فيأمر بالتحريم ؛ ولذلك لا يجب أن نسأل عن الضرر فيما حرم الله ، فقد يعيش المؤمن دنياه ولم يثبت له ضرر بعض ما حرم الله ، فإن تساءل أحدٌ لماذا حرم الله ذلك ؟ نقول له : من الذى قال لك إن الله حين يحرم يحرم الشىء الضار فقط. إن الحق سبحانه يحرم الضار ويحرم بعض ما هو غير ضار ؛ دليل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ [النساء : ١٦٠].

وتفصيل ذلك فى آية أخرى ، يقول الله تعالى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

إذن . . التحريم ليس من الضرورى أن يكون للشىء الضار ؛ ولهذا جاء قول الحق سبحانه أن من مهام رسالة عبده ورسوله عيسى ابن مريم إلى بنى إسرائيل : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران : ٥٠] .

لقد جاءهم عيسى ابن مريم ليُحِلَّ لهم بأمر من الله ما كان قد حرمه الله عليهم من قبل (١) وبعد ذلك يقول لهم : ﴿ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ

(١) قال القاسمى : أقول : من البعض الذى أحله عيسى عليه السلام لهم فعل الخير فى السبوت ، وقد كانوا يعتقدون تحريم مطلق عمل يوم السبت ، ولذا لما اجتاز عليه السلام بالإسرائيليين مرة أبصر مريضًا فسألوه : هل يحل أن يشفى فى السبت ؟ فقال لهم عليه السلام : أى إنسان منكم يكون له خروف ، فيسقط فى حفرة يوم السبت ولا يمسكه ويرفعه ؟ والإنسان كم يفضل الخروف ؟ فإذن يحل فعل الخير فى السبوت، ثم أبرأ ذلك المريض ـ كذا فى الإصحاح الثانى عشر . من الفقرة التاسعة إلى الثالثة عشرة من إنجيل متى ـ وفيه فى الإصحاح الخامس الفقرة السابعة عشر قول المسيح عليه السلام : لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض ؛ بل لأكمل ـ انتهى ـ وقد اتفقوا على أن المسيح عليه السلام أقام شرائع التوراة كلها ، ثم جاء بولس ، ومَن بعده من الرهبان ، فادَّعوا أن المسيح عليه السلام فعل ذلك كله ورفعه عنهم ، إذ أكمله وأتمه بفعله إياه . وكفاهم مؤونة العمل بشىء منه ، وأغناهم بشريعته الروحانية ، فنقضوا الناموس الذى جاء لإكماله المسيح . فممَّا نقضوه : إباحة كثير من الحيوانات المحرمة فى الناموس الموسوىّ ، فنسخت حرمتها فى الشريعة العيسوية ، وثبتت الإباحة العامة بفتوى بولس ، إذ قال لهم : لا شىء نجس العين . كما فى رسالته إلى أهل رومية . ومما نقضوه تعظيم السبت ، فقد كان حكمًا أبديا فى الشريعة الموسوية ، وما كان لأحد أن يعمل فيه أدنى عمل ، وكان من عمل فيه عملا واجب القتل . ومنه أحكام الأعياد المشروعة فى التوراة ، ومنه حكم الختان الذى كان أبديا فى شريعة إبراهيم عليه السلام وأولاده إلى شريعة موسى ، وقد ختن عيسى عليه السلام ، فنسخ حكمه الرهبان بعده ، كما نسخوا جميع الأحكام العملية للتوراة ، إلا الزنا . [تفسير القاسمى : ٨٤٧/٤ ، ٨٤٨]

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران : ٥٠] .

ومجموع هذه الأوامر التى تقدمت عبارة عن آية ، وشىء عجيب يُلفت الله إليه بنى إسرائيل عن طريق رسولهم ؛ إنه كبشر لا يستطيع أن يجىء بها ، فيجب أن يلتفتوا إلى أن الله الذى أرسله له طلاقة القدرة فى كل شىء ؛ لأنه الخالق ، فهو الذى جاء بهذه الأمور على يد رسوله وكلمته : عيسى ابن مريم يأمرهم بتقوى الله نتيجة لذلك ، ويدعو القوم لطاعته فى تطبيق منهج الله .

❊ دعوة عيسى إلى وحدانية الله ❊

وجماع دعوة عيسى والأنبياء كلهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران:٥١] .

إذا اجتمع الرسول والمرسل إليهم فى أنهم جميعاً مربوبون لإله واحد؛ فهذا يعنى الوحدانية المطلقة لهذا الإله ؛ ذلك أن هذا الإله هو الذى تولى تربيتهم ، والتربية تقتضى رعاية قيومية ، وعيسى ابن مريم يقرّ بعبوديته لله ، وكأنه يقول وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيّدًا عليكم، ولكننا جميعًا مشتركون فى العبودية لله :﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

ومعنى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى أنه صراط غير ملتوٍ؛لأن الطريق إذا التوى انحرف عن الهدف ، والطريق المستقيم الذى يجمع الناس هو عبادة الله وحده . ولنضرب لذلك مثالاً : إذا نظرت إلى الدائرة ، فستجد أن لها محيطاً ولها مركزاً ، ومركز الدائرة هو الذى نضع فيه سن الفرجار حتى نرسم الدائرة ، وبعد ذلك نصل من المركز إلى المحيط بأنصاف أقطار، وكلما بعدنا عن المركز زاد الفرق ، وكلما اقتربنا من المركز تتلاشى الفروق.

فإذا ما كان الخلق جميعاً يتوجهون فى عبادتهم إلى إلهٍ واحد ، فهذا يعنى الاتفاق ، لكن الاختلاف يحدث بين البشر كلما بعدوا عن المركز؛ ولذلك لا تجد للناس أهواء ولا تجدهم شيعاً إلا إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم ، والمركز الجامع لهم هو العبودية للإله الواحد، وما دامت

عبودية لإله واحد ففى هذا جمع للناس بلا هوى أو تفرق ، فحتّى فى الأمر الحِسِّىّ وهو الدائرة المرسومة ، نجد أن الأقطار المأخوذة من المحيط وتمر بمركز الدائرة تتداخل فى المسافة التى قبل المركز قليلاً ، إلى أن تصير عند نقطة المركز شيئاً واحداً لا انفصال بينه أبدًا، وهكذا . . فالناس إذا التقوا جميعاً عند مركز عبوديتهم للإله الواحد اتفقوا وتوحدوا ، فإذا ما اختلفوا وبعدوا عن العبودية للإله الواحد تفرقوا بمقدار ذلك الاختلاف.

ولذلك دعا المسيح عيسى ابن مريم الناس لعبادة الله وحده : ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ .

وهذا هو أول ما نطق به عيسى حينما كان فى المهد : ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

إن قضية عبوديته عليه السلام لله تعالى قد حُسِمَتْ من البداية ، وهى قضية القمة: إنه عبدُ الله، والقضية الثانية هى قضية الرسالة ونقْل مراد الله وتكليفه إلى خلق الله؛حتى يؤسسوا حركة حياتهم على مقتضى ما أنزل الله عليهم،ومن الطبيعى أنه عندما يأتى الرسول بمنهج من عند الله؛ ليدعو الناس جميعاً إلى اتباع هذا المنهج، ويحدد حركة حياتهم بـ « افعل كذا»، و"لا تفعل كذا" ؛ فقد يجد فى التكليف مشقة. لماذا؟ لأن الأمر بـ «افعل كذا» يُلزمه بعملٍ قد يشق عليه، والنهى بـ «لا تفعل كذا » يبعده عن عمل كان يحبه . والمرءُ فى الأحداث بين أمرين: عمل يشق عليه، فيجب عليه أن يجتنبه، وعمل يستهويه ، فيجب عليه أن يقترب منه، والمنهج قد جاء من الله ليقول للإنسان «افعل ولا تفعل».

إذن . . فهناك مشقة فى أن يحمل الإنسان نفسه على أن يقوم بعمل ما من أعمال التكليف ، ومشقة أخرى فى أن يبتعد عن عمل نهى عنه

التكليف. وأكثر الناس لن يصلوا إلى الغاية الأصلية من الأمر والنهى ؛ فمثلا : أنصار الشر لا يعجبهم حمل نفوسهم على أوامر خالقهم ؛ ولذلك ينقسم الناس، لماذا يحدث هذا الانقسام ؟ لأن الناس لم يحددوا هدفهم فى الوجود، فكل حركة فى الوجود يمكننا أن نعرف أنها حركة إيمانية إذا كانت فى صالح انسجام الإنسان مع الكون ، ويمكننا أن نعرف أنها حركة غير إيمانية إذا كانت تُنَاقِضُ انسجام الإنسان مع فطرته ومع الكون. فإذا كانت الحركة تصل بالإنسان إلى هدفه الإيمانى فستكون حركة رائعة بالنسبة للمؤمن، وإذا كانت تبعده عن هدفه تكون حركة باطلة ؛ فالهدف هو الذى يحدد الحركة. إن التلميذ الذى يذهب إلى المدرسة له هدف هو أن يتخرج للالتحاق بمهنة يريدها ، ومادام ذلك هو هدفه فنحن نرى حركة سلوكه ، إن كان يقترب له الهدف أم يبتعد عنه الهدف ؛ فإن كان يلعب ، ويكسل ؛ فإنه يبتعد بنفسه عن الهدف . إذن . . يجب أن نحدد الهدف حتى نعرف هل يكون هذا العمل صالحاً أم غير صالح؟

وآفة الناس أنهم لا يحددون هدفهم؛ لذلك يعتبرون غير الهدف هدفاً، وما دام هناك من يعتبر غير الهدف هدفاً، فلابد من حدوث فوضى وضلال، فالذى يعتبر أن الحياة هى الهدف، فهو يريد أن يحقق لنفسه أكبر قدر من اللذة فيها ، أما الذى يعرف أن الهدف ليس هو الحياة، إنما الحياة مرحلة ، فنسأله ما الهدف إذن ؟ فيقول : إنه لقاء الله فى الآخرة . هذا الإنسان المؤمن سيكون عمله من أجل هذا الهدف. لكن الضال الذى يرى الدنيا وحدها هدفه، ولا يؤمن بالجنة أو النار ، فهو مغرور بضلاله، إنه يقبل على ما تشتهيه نفسه ويبتعد عما يتعبه ، ولكن إذا كان يعرف أن الهدف ليس هو الدنيا ، وإنما الهدف فى السعادة التى سوف يحصل عليها فى الآخرة ، فإنه سيسعى من أجل بلوغ هذا الهدف.

إذن . . ما يفسد سلوك الناس هو جهلهم بالهدف ، وحين يوجد الهدف؛ فالإنسان يحاول أن يعرف العمل الذى يقربه من الهدف فيفعله، فهذا هو الخير . أما الذى يبعد عن الهدف ويفعل عكس الموصل إليه، فهذا هو الشر. وإذا كان الأمر كذلك ، والمسألة هى فى تحديد الهدف ؛ فيجب أن نعلم أن الناس يستقبلون الكثير من الأحداث بما يُنَاقِضُ معرفة الهدف؛ فمثلا: قد يحزن إنسان لأن حبيباً له قد مات، هذا الإنسان يمكننا أن نسأله : لماذا تحزن؟ وقد قصر الله عليه خطوة الوصول إلى الهدف؟لابد أنك حزين على نفسك؛ لأنك مستوحش له؛ ولأنك كنت تأنس به. أما حزنك من أجله هو فلا حزن؛ لأنه اقترب من الهدف الذى عمل له .

وفى حياتنا اليومية ، عندما يكون هدف جماعة أن تصل من مكان إلى مكان آخر تجد واحداً يذهب ماشياً، وآخر يذهب راكبًا حمارًا، وثالثًا يذهب راكبًا سيّارةً، ورابعًا يصل بالطائرة، وخامسًا يصل بصاروخ. الذى حدث أن كل واحد فى هذه الجماعة قد اقترب من الهدف وهناك من يذهب إلى الله ماشياً فى سبعين عاماً، وآخر يستدعيه الله فوراً ، فلماذا نحزن عليه ؟ نحن نحزن على الإنسان الذى لم يكن موفقاً فى خدمة الهدف. أما الموفق فى خدمة الهدف فيجب أن نفرح له، وأقول: إن الله قد قصّر عليه المسافة. وأغلبنا إن كان عنده ولد صغير حبيب إلى قلبه ، فإن فقده تجده يبكى ويقول: إنه لم يَرَ الدنيا. ولهذا الإنسان نقول : يا رجل إن الله جعل ابنك يترك الخطايا بترك الدنيا، وأخذه إلى الغاية المرجوة فى الآخرة، فما الذى يحزنك ؟ [1] لذلك فنحن إن أحسنا استقبال ما يقضى به الله فى خلقه،

---

(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ولد لى الليلة غلام . فسمّيته باسم أبى ، إبراهيم » ثم دفعه إلى أم سيف ، امرأة قين يُقال له أبو سيف . فانطلق يأتيه =

عرفنا أنه حكيم وأنه رحيم ، وأن كل شيء منه يجب ألا نفهمه خارجاً عن الحكمة الإلهية .

= واتبعته . فانتهينا إلى أبى سيف وهو ينفخ بكيره . قد امتلأ البيت دخانا . فأسرعت المشى بين يدى رسول الله ﷺ . فقلت: يا أبا سيف! أمسك. جاء رسول الله ﷺ فأمسك . فدعا النبى ﷺ بالصبى . فضمه إليه . وقال ما شاء الله أن يقول .

فقال أنس : لقد رأيته وهو يكيد بنفسه (١) بين يدى رسول الله ﷺ . فدمعت عينا رسول الله ﷺ . فقال : « تدمع العين ويحزن القلب . ولا نقول إلا ما يرضى ربنا . والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون !! » . أخرجه مسلم [٢٣١٥]

---

(١) يكيد بنفسه : أى : يجود بها ، يُريد النَّزْع ، والكَيْدُ : السَّوْقُ .

[النهاية فى غريب الحديث : ٤/٢١٦] .

* قصة الحواريين *

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح للمؤمنين قدر الخلاف بينهم وبين أهل الكتاب ؛ ليعرف كل مؤمن أن إيمانه برسالة النبى الخاتم تعطيه منزلة الإيمان الرفيعة ، وذلك على قدر صدق نيته ، وأداء واجباته الدينية بما فيها من عبادات ، ومعاملات ، وينزّه الحقُّ عز وجل المؤمنين برسالة النبى محمد عليه الصلاة والسلام عن أن يكونوا فى مستوى قوم موسى عليه السلام ؛ هؤلاء القوم الذين تعنتوا مع موسى عليه السلام،وسألوه أسئلة تدل على مدى إغراقهم فى المادية ، وضعف إيمانهم بالغيب ، لقد خاطب الله عز وجل المؤمنين بقوله : ﴿ **أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ [البقرة : ١٠٨].

إن الحق، جلّ وعلا، لم يضع المسلمين موضع التشبيه المباشر بقوم موسى ، فالحق جل وعلا ينزّه المسلم أن يكون متشبهاً بواحد من القوم الذين ظنوّا أن التمايز بالسلالة .

ذلك أن بعضًا من قوم موسى قد ظنوا خطأ ، ووهمًا ، وتحريفًا للتوراة أنهم متميزون عن بقية خلق الله [1] ؛ لمجرد أنهم أبناء ليعقوب عليه السلام.

إن دين الإسلام الذى جاء به محمد رسول الله ﷺ لا يضع تمايزاً لأحد

(١) مصداق ذلك فى كتاب الله عز وجل : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [المائدة : ١٨] .

فوق أحد إلا بالإيمان ، والعمل الصالح [1] ، ولقد سبق لقومٍ من مشركى مكة أن سألوا رسول الله ﷺ أسئلة تتشابه مع أسئلة بنى إسرائيل، لقد سأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام أن يُريهم اللهَ جهرةً [2] ، وسألوه الكثير من المعجزات ، وقد استجاب الحق سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام بالمعجزات المادية ، أما رسالة محمد ﷺ فهى المنهج الذى هو عين المعجزة ؛ ولذلك لـمَّا سأل بعضٌ من مشركى مكة رسول الله ﷺ معجزاتٍ ماديةً ، نزل قول الحق : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣)﴾ [الإسراء].

(١) عن أبى نضرة حدثنى من سمع خطبة رسول الله ﷺ فى وسط أيام التشريق ، فقال: « يا أيها الناس ؛ ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ، أبلغت ؟ » قالوا : بلغ رسول الله ﷺ ، ثم قال : « أى يوم هذا ؟ » قالوا: يوم حرام ، ثم قال : « أى شهر هذا ؟ » قالوا : شهر حرام ، قال : ثم قال: « أى بلد هذا ؟ » قالوا : بلد حرام ، قال : « فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم ـ قال : ولا أدرى قال أو أعراضكم أم لا ـ كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، أبلغت ؟ » قالوا : بلغ رسول الله ﷺ ، قال : « ليبلغ الشاهد الغائب » . أخرجه أحمد فى المسند [٥/ ٤١١] . وقال الهيثمى فى المجمع[٣/ ٢٦٩]: رجاله رجال الصحيح .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥] .

إن الحق سبحانه وتعالى يأمر رسوله ﷺ أن يبلّغ هؤلاء المتعنتين من المشركين : أنه رسول مبلغ عن الله ، وأنه بشر ، وهم يسألونه أشياء فوق طاقة البشر ، وما كان لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن يقترح على الله عز وجل أن يجيب المشركين إلى ما اقترحوا؛ وذلك لأن أُمَمًا من قبلهم قد سألوا الرسل الآيات ، فأعطاهم الله الآيات ومع ذلك كذبوا بالرسل.

إذن . . فطلب الآية لم يكن طريقاً للإيمان ، وإنما هو تنكر للإيمان ؛ إن الذين يطلبون الآيات من الرسول الخاتم محمد ﷺ، عليهم أن يعرفوا الحقيقة الجلية الواضحة فى قول الحق: ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفًا** ﴾ [الإسراء: ٥٩].

إن الذين طالبوا رسول الله أن يأتيهم بالآيات والمعجزات ، هم الذين لم يقنعوا بما آتاهم الله من قرآن مجيد يقنع ذوى الألباب ، وقد أجرى الله عز وجل سنّةً فى الخلق مع الرسل ؛ فإذا طالب قوم الرسول المبعوث إليهم بآية معجزة ، فإن الحق يرسل هذه الآية ، فإن لم يؤمنوا استأصلهم بالعذاب [(١)]؛ مثلما حدث مع قوم ثمود ؛ فإنّه أرسل إليهم فطلبوا آية ، فأعطاهم الله معجزة واضحة وهى الناقة فكفروا بها ، فكان ما كان من

---

(١) روى ابن أبى حاتم بسنده [٧٠١٧] عن سليمان الخير أنه قال : لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة من السماء، فإنها [إن] نزلت عليكم كانت آية من ربكم، وإنما نكلت ثمود حين سألوا نبيهم آية فابتلوا بها حتى كان بوارهم فيها، فأبوا إلا أن يأتيهم بها فلذلك قالوا :﴿ **نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [المائدة: ١١٣] . [تفسير ابن أبى حاتم: ٤/ ١٢٤٤]

العذاب الذى أنزله الله عليهم (١) .

وقد طلب الحواريون من عيسى ابن مريم عليه السلام أن ينزل عليهم مائدة من السماء فأنزلها الحق ، وحذرهم من الكفر بعد ذلك حتى لا يعذبهم عذاباً لا يعذبه لأحد من العالمين واقرأ قول اللّه تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) ﴾ [المائدة]

إن محمداً ﷺ يتلقى الأمر من ربه بأنْ يذكر للناس قصة الحواريين أتباع عيسى ابن مريم عليه السلام عندما صاروا أصفياء ، فسألوا عيسى ابن مريم عليه السلام أن ينزل عليهم طعاماً من السماء (٢) فقال عيسى عليه

---

(١) حيث قال الله سبحانه : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) ﴾ [الشمس] .

وقوله عز وجل : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٥] .

(٢) روى ابن أبى حاتم بسنده [٧٠١٦] : عن ابن شهاب وكان ابن عباس يحدث أن عيسى ابن مريم قال لبنى إسرائيل: يابنى إسرائيل، هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يومًا، ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم، فإن أجر العامل على من عمل له . ففعلوا ثم قالوا : يا معلم الخير، قلت لنا: إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم لله ثلاثين يوما ففعلنا ، ولم نكن لنعمل لأحد ثلاثين يوما إلا أطعمنا يوم نفرغ طعاما ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ قال: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

[تفسير ابن أبى حاتم : ٤/ ١٢٤٤]

السلام لهم : إن كنتم مؤمنين بالله فخافوه وأطيعوا أوامره ونواهيه، ولا تطلبوا حججاً أو آيات غير التى بعثنى الله بها.

لكنهم قالوا : إننا نريد أن نأكل من هذه المائدة [1] ؛ لتطمئن قلوبنا

---

(١) قال القرطبى : وفى قولهم ﴿ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ وجهان :

أحدهما : أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها ؛ وذلك أن عيسى عليه السلام كان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف أو أكثر ، بعضهم كانوا أصحابه ، وبعضهم كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرضٍ كان بهم أو عِلَّة ، إذ كانوا زمنى أو عميانًا ، وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون ، فخرج يومًا إلى موضع فوقعوا فى مفازةٍ ، ولم يكن معهم نفقة ، فجاعوا ، وقالوا للحواريين : قولوا لعيسى حتى يدعو بأن تنزل علينا مائدة من السماء ؛ فجاءه شمعون رأس الحواريين وأخبره أن الناس يطلبون بأن تدعو بأن تنزل علينا مائدة من السماء ؛ فقال عيسى عليه السلام لشمعون : قل لهم : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . فأخبر بذلك شمعون القوم ، فقالوا له: قل له : ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ ... ﴾ الآية

الثانى : ﴿ نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ لننال بركتها لا لحاجة دعتهم إليها . قال الماوردى : وهذا أشبه؛ لأنهم لو احتاجوا لم يُنْهَوا عن السؤال . [تفسير القرطبى : ٦/٣٦٦]

وروى ابن أبى حاتم بسنده [١٧١٩] عن سلمان الخير قال : فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها ، قام فألقى عنه الصوف ولبس الشعر الأسود وجبة من شعر وعباءة وهو يدعو الله فى مكانه ويقول : إلهى اجعلها رحمة ، إلهى لا تجعلها عذابا، إلهى كم من عجيبة سألتك فأعطيتنى ، إلهى اجعلنا لك شاكرين ، إلهى أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضبا وجزاء ، إلهى اجعلها سلامة وعافية ولا تجعلها فتنة ومثلة .

فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدى عيسى والحواريين، وأصحابه حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى مثلها قط ، وخر عيسى والحواريون لله سجداً شكرًا بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا ، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة .

وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمرًا عجيبًا أورثهم حقداً وغمًّا ، ثم انصرفوا بغيظ شديد، وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة ، فإذا عليه منديل مغطى. قال عيسى: من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه الآية حتى نراها، ونحمد ربنا =

بما نؤمن به من قدرة الله ، ونعلم عن رؤية مادية صدق ما أخبرتنا به عن الحق سبحانه ، ونشهد لك بهذه المعجزة . ولبى عيسى ابن مريم طلبهم ودعا اللّه قائلاً: يا مالك كل أمر، أنزل علينا مائدة من السماء يكون يوم نزولها عيداً للمـؤمنين برسلك المتقدمين والمتأخرين، معجزة تؤيد بها الدعوة لمنهجك.

واستجاب الحق وأنزل مائدة من السماء وتوعد الحق بالعذاب أيَّ جاحد بهذه النعمة،بعد أن أنزلها . إن من يطلب آية للإيمان بعد أن نزل القرآن الكريم فهذا دليل على عدم تمكن الإيمان من قلبه .

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب أمة محمد رسول الله ﷺ ما دام

= ونذكر باسمه ونأكل من رزقه الذى رزقنا . فقال الحواريون : يا روح الله وكلمته ، أنت أولانا بذلك ، وأحقنا بالكشف عنها . فقام عيسى عليه الصلاة والسلام فاستأنف وضوءاً جديداً ثم دخل مصلاه فصلى بذلك ركعات ثم بكى طويلاً . ودعا الله تعالى أن يأذن له فى الكشف عنها ، ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقا ثم انصرف فجلس إلى السفرة وتناول المنديل ، وقال: «بسم الله خير الرازقين» ، وكشف السفرة، فإذا هو عليها سمكة ضخمة مشوية ، ليس عليه بواسير وليس فى جوفها شوك ، يسيل السمن منها سيلا ، قد [تحدق بها] بقول من كل صنف غير الكراث ، وعند رأسها خل، وعند ذنبها ملح ، وحول البقول الخمسة أرغفة ، على واحد منها زيتون، وعلى الآخر ثمرات ، وعلى الآخر خمس رمانات ، فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى : يا روح الله وكلمته ، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة ؟ فقال : أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات ، وتنتهوا عن تنقير المسائل ؟ ما أخوفنى عليكم أن تعاقبوا فى سبب هذه الآية ، فقال شمعون : لا وإله إسرائيل ، ما أردت بها سؤالا يا ابن الصديقة ، فقال عيسى عليه السلام : ليس شىء مما ترون من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا ، إنما هو شىء ابتدعه الله فى الهواء بالقدرة العالية القاهرة فقال له : كن فكان أسرع من طرفة عين ، فكلوا مما سألتم باسم الله ، واحمدوا عليه ربكم يمدكم منه ويزدكم ، فإنه بديع قادر شاكر . [تفسير ابن أبى حاتم : ٤/١٢٤٦ ، ١٢٤٧]

رسول الله فيهم وما داموا يستغفرون الله كلما ألـمُّوا بذنب ، وفى ذلك جاء قول الحق: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

إن الحق تبارك وتعالى قد فضل أمة محمد عليه الصلاة والسلام على الأمم ، ووعد ألا يعذبها ورسول الله ﷺ فيها ، ذلك أن منهم من سوف يؤمن ، ويستغفر الحق تبارك وتعالى ، ولذلك لم يشأ أن ينزل الآيات التى طلبها بعض المتعنتين ؛ لأن الحق عندما ينزل آية ثم يكذبها أحد بعد ذلك، فإن الحق يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

لذلك يقول الحق لأمثال هؤلاء المتعنتين :﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨].

إذن .. فأى سؤال عن آية غير الذى أنزله الحق على رسوله الكريم محمد ﷺ فذلك كُفْر ؛ لأن الذى يسأل عن آيات غير القرآن الكريم يستبدل بذلك الكفر بالإيمان ، وكأنه يريد أن يترك الإيمان إلى الكفر ، ومن يفعل ذلك فقد ضل سواء السبيل ، وإذا سألنا : ما الضلال ؟ فإن الإجابة أن يسلك الإنسان سبيلاً لا يؤدى إلى الغاية المرجوة ، وإذا سألنا: وما سواء السبيل ؟ فإن الإجابة هى أن السواء هو الوسط ، وسواء السبيل هو وسط الطريق ، وفى القرآن الكريم آيات كريمة عندما نتأمل معناها فإنها توضّح لنا معنى "السواء" ؛ يقول الحق فى كتابه الكريم :

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ

لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥)﴾ [الصافات] .

إن الحق يبين لعباده أنهم سوف يُجْزَون فى الآخرة بما عملوا فى الدنيا، ولن يعذب الله عباده المخلصين ؛ لأنهم أهل طاعة وإيمان ، فهؤلاء المخلصون لهم فى الآخرة رزق معلوم عند الله ؛ من فواكه متنوعة ورفاهية تليق بعطاء الخالق تَجَلَّتْ قُدْرَتُهُ وتعالت عظمته ، يجلسون على سُرُرٍ متقابلين . يطوف عليهم ولدان بإناء فيه شراب من منابعَ جارية فيها لذة للشاربين ، ولا يفقدون وعيهم من الشرب منها . والمخلصون من عباد الله سبحانه وتعالى الذين لم تتطلع أعينهم إلى شهوة ضالة ؛ ولذلك يتمتعون بعطاء الله سبحانه وتعالى من حوريات يفوق حسنهن أىَّ حسن آخر، ثم يقول واحد منهم : لقد كان لى صاحب أعرفه ، وهذا الصاحب كان من المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة ويجادلنى فى القرآن الكريم، ولا يصدّق البعث بعد الموت، ويتساءل عن البعث والجزاء. والتفت إلى أهل النار فوجد صاحبه فى النار تتخلله النار وتحيط به من كل جهاته على السواء، ولا نجاة.

إذن . . فسواء السبيل أى: فى وسط طريق الإيمان يتخللهم الإيمان بالابتعاد عن المعاصى ؛ لأن السير فى وسط الإيمان يتيح لهم الحماية والوقاية والأمان من كل الجهات ، فكأن مراد الله عز وجل من منهج الإيمان أن يتمكن الإيمان من نفس الإنسان فيكون قوياً بالإيمان.

وبعد تلك الآيات الكريمة التى تحدث فيها الحق سبحانه وتعالى عن مريم وعيسى عليهما السلام ، قال الحق سبحانه : ﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ٥٢].

لقد ذكر نبى الله عيسى ابن مريم عليهما السلام القضية الإيمانية الجامعة المانعة أولاً ، حين قال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ٥٢].

إن نبى الله عيسى أوضح لهم بما لا يقبل الجدل ،أنا وأنتم سواء فى عبوديتنا لله الواحد وأنا لم آتِ لأتميز عنكم بشىءٍ فيما يتعلق بالعبادة ؛ فالله رب لى ورب لكم، والصراط المستقيم هو منهج عبادة الله الحق [(١)]، إننا حين نسمع لفظ : الصراط المستقيم ، فإننا نتخيل على الفور الطريق الموصلة إلى الغاية وهى أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية ، إننا نعرف أن الطرق تُصنع لتُوصل إلى الغاية. وحين نسمع كلمة : ﴿ **صِرَاطٌ** ﴾ فلنا أن نفهم على الفور الغاية التى نريد أن نصل إليها ، فالحق سبحانه يقول :

---

(١) عن النواس بن سمعان الأنصارى عن رسول الله ﷺ قال: « ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ، ادخلوا الصراط جميعًا ولا تنفرجوا. وداعٍ يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، والصراط : الإسلام ، والسوران: حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة : محارم الله تعالى ، وذلك الداعى على رأس الصراط: كتاب الله عز وجل ، والداعى فوق الصراط: واعظ الله فى قلب كل مسلم» . أخرجه أحمد فى المسند [٤/ ١٨٣] واللفظ له، وصححه الحاكم [١/ ٧٣] ووافقه الذهبى.

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أى أقصر شىء يوصل إلى غاية مطلوبة (١) ، ومادام هناك طريق لغاية ما ، فلابد لنا أن نحدد الغاية أولا، وتحديد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان؛ ليسلك الطريق الموصلة إلى الغاية، وهكذا يقول لهم نبى الله عيسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ .

والعبادة هى إطاعة العابد لأمر المعبود (٢) . ولا تظن أن العبادة كما

(١) عن عبد الله بن مسعود قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً، قال: ثم خطَّ عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السُّبُل ، وليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ . أخرجه أحمد فى المسند [١/ ٤٦٥] وصححه الشيخ شاكر برقم [٤٤٣٧].

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: العبادة : هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة : فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدقُ الحديث ، وأداءُ الأمانة ، وبرُّ الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار ، واليتيم، والمسكين ، وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين ، والبهائم ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة ، وأمثال ذلك : من العبادة. وكذلك حُبُّ الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعَمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك : هى من العبادة لله.

وذلك : أن العبادة لله هى الغاية المحبوبة له والمرضية له ، والتى خلق الخلق لها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوحٌ لقومه : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وكذلك قال هودٌ ، وصالحٌ ، وشعيبٌ ، وغيرهم لقومهم .

[العبودية: ٢٣ ، ٢٤] =

يريد خصوم الإسلام أن يضللوا الناس ، بأنّ الإسلام قد جاء فقط للصلاة والصوم والزكاة، وأن يقتصر الإسلام على أركانه، وداخل جدران المسجد فقط ، فينفصل الإنسان عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية. إن الأركان التعبدية لازمة ؛ لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس ، حتى تقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا ؛ فالإسلام منهج حياة متكامل وكل حركة تؤدى إلى إسعاد الناس وعمارة الكون وفق منهج اللّه تعالى فهى عبادة ، والأركان التعبدية هى تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء فى الفقه، فجعلوا بابًا للعبادات وبابًا للمعاملات ، لكن علينا أن نعرف أنّ كل شىء يأمر الله به فهو «عبادة»، إلا أن العبادة أنواع فمنها ما يصل العابد بالمعبود جل جلاله؛ ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه، ومنها ما يتصل بعمارة الكون.

ولذلك قلنا : إن الله حينما يأمرنا بأمر ، فإننا نجد الأمر واضحاً ، مثال ذلك قول الحق : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ إن هذا الأمر بالصلاة الجامعة يوم الجمعة يخرج بالإنسان من أمر البيع، والأمر بالصلاة لم يأخذ الإنسان من فراغ، إنما يأخذ الإنسان من عمل هو البيع. ولو نظرنا إلى دقة الأداء فى الأمر بترك البيع دون غيره لوجدنا أن فى البيع قمة الأخذ المباشر للرزق ؛ فلم يقل الله - مثلاً -: «اتركوا الصنعة واتركوا الحرث»، ولكن الحق سبحانه جاء بالبيع هنا؛ لأنه قمة النفعية العاجلة؛ لأن الذى يحرث ويزرع ينتظر وقتاً قد يطول حتى تظهر الثمار، لكن الذى يبيع

= واعلم أن العبادة أربع قواعد هى :

التحقق بما يحب الله ورسوله ويرضاه ، وقيام ذلك بالقلب ، واللسان ، والجوارح ، فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع ، فأصحاب العبادة حقا هم أصحابها .

[تجريد التوحيد للمقريزى: ٨٢]

شيئاً فإنه ينال المنفعة فوراً ؛ لذلك جاء الأمر بترك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة، ولذلك يتضمن هذا الأمر ترك كل الأمور التى هى أقل نفعية من البيع لأداء الصلاة.

إن أمر الحق سبحانه قد جاء هنا بترك البيع ؛ لأن للبيع نفعية مباشرة. والبيع هو مبادلة السلع بأثمانها ، والسلع هى نهاية كل عمل، فالذى يزرع أيضا يرجو الثمار ؛ ليبيعها لمن لم يزرع . والذى يصنع إنما يرجو إتمام صنعته؛ ليبيعها لمن لم يصنع. وهكذا تكون السلع هى القمة من الأعمال، ولذلك جاء الأمر الحق : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ .

إن البيع هو التعبير الدقيق ؛ لأن المتكلم هو الله ، والحق سبحانه لم يتكلم هنا مثلاً عن الشراء؛ لأن الشارى قد يشترى وهو كاره، لكنّ البائع يمتلئ بالسرور وهو يبيع، فقد يذهب رجل لشراء أشياء لبيته ويسمع الأذان فيسرع إلى الصلاة . إنّ الإنسان لا يحب أن يدفع ، لكن البائع يستفيد بقمة الفائدة ؛ لذلك يخرجنا الحق من قمة كل الأعمال ، ونهاية كل الأعمال وهى مبادلة السلع بأثمانها .

لكن ماذا بعد انقضاء الصلاة ؟ ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠].

لقد خرجنا من الصلاة إلى الحياة نبتغى من فضل الله ؛ ولذلك يكون الانتشار فى الأرض ، والبحث عن الرزق عبادة .

ولننظر إلى الدقة فى قول الحق : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ :

إن الانتشار يعنى أن ينساح البشر؛ لينتظموا فى كل حركات الحياة ، فلا يقيمون المدارس بمفردها، أو يقيمون ويعملون فى المصانع وحدها . إنما كل

إنسان يذهب إلى عمله، وبعد ذلك تعمر كل حركة فى الحياة. إذن . . فكل حركة فى الحياة هى عبادة .

هكذا نعرف العبادة ، وهكذا نستوعب قول الحق سبحانه وتعالى الذى أرسل به نبيه عيسى عليه السلام : ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ .

لقد حسم نبى اللّه عيسى عليه السلام أمر العقيدة حينما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾؛ إن فى ذلك تحذيرًا من أن يقول أتباع عيسى أى شىء آخر عن عيسى، غير أنه عبد لله ، مأمور بالطاعة والعبادة له سبحانه ؛ لأنه وضع أمامهم المنهج فقال : ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ .

وقول الحق : ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ يدل على أنّ كل صاحب دعوة، وكل صاحب مهمة ، وكل صاحب هدف ؛ لابد أن يكون يقظَ الإحساس؛ لأن صاحب الدعوة الدينية يُخرج الناس من الظلمات إلى النور . وقد يقول قائل: ولماذا يعيش الناس فى الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة:إن هناك من يستفيدون من وجود جموع الناس فى الظلمات (1) فالظالم الذى يأخذ حق الآخرين اغتصابًا ،

(1) مصداق ذلك فى كتاب الله عز وجل : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنه قوله سبحانه وتعالى : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

ومنه قوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥].

يخاف من رجل الدعوة الذى ينهاه عن الظلم ويدعوه إلى الهداية وإلى منطق العقل ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحبّ من ينطق هذه الكلمة؛ لأنه يكره الكلمة وقائلها .

لذلك فالداعية مأمور من الله بأن يكون يقظاً . . لماذا ؟ لأنه إن اهتدى بكلماته أناسٌ وسعدوا بها، فإنه يُغضِب أناساً آخرين؛ ذلك أن المجتمع الفاسد يوجد به المستفيدون من الفساد، ولذلك فالداعية عليه أن يعرف يقظة الحسّ، والحسّ معناه الأحاسيس الخفية الموجودة عند كل إنسان ونحن نسمى الأحاسيس الظاهرة منها الحواسّ الخمس : اللمس ، والرؤية ، والسمع ، والتذوق ، والشّم . ورجل الدعوة مأمور بأن تعمل كل حواسّه؛ حتى يعرف مَن الذى يجبن ويرتجف لحظة أن تأتى دعوة الخير ، ومن الذى يطمئن ويحسّ الراحة لدعوة الخير؟ من الذى تتغير ملامحه لحظة دعوة الخير ومن الذى يستبشر ويفرح ؟! إن رجل الدعوة عليه أن يكون يقظ الأحاسيس.

إن نبى الله عيسى عليه السلام عندما أعلن منهج الحق وجد أنصار الظلم ، وأنصار البغى ، غير مستعدين للإيمان بالله ؛ لذلك أحس منهم الكفر . لقد كان مليئاً باليقظة والانتباه ؛ فحينما بعثه الله تعالى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أحسّ منهم الكفر ؛ ولذلك أراد أن ينتدب جماعة؛ ليعينوه على أمر الدعوة فقال :﴿ **مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ** ﴾ إن الدعوة تحتاج إلى معركة والمعركة تحتاج إلى تضحية ، والتضحية تكون بالنفس والنفيس ؛ لذلك لابدّ أن يستشير من يجد فى نفسه العون على هذه المسألة. إنه لم ينادِ أفرادًا محددين ، إنما طرح الدعوة؛ ليأتى الأنصار الذين يستشرفون فى أنفسهم القدرة على حمل لواء الدعوة، ولتكون التضحية بإقبال النفس استجابة لدعوته عليه السلام قوله :

﴿ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ ﴾ .

كلمة: «أنصار» هى جمع «نصير» . والنصير : هو المعين لك على بغيتك ، وعندما قال عيسى عليه السلام : ﴿مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ﴾ ؟ كانت ﴿إِلَى﴾ فى السؤال تفيد الغاية وهو الله تعالى ، أى من ينصرنى نصراً تصير غايته إلى الله وحده، لا إلى أهواء البشر؟ إنه لا يسأل عن واحد يدخل تحت لواء الدعوة من أجل الغنيمة، أو يدخل آخر من أجل الجاه أو غير ذلك. إنه يسأل عن أهل العزم؛ ليكون كلٌّ منهم متجهاً بطاقته إلى نصرة الله وحده.

ولذلك فإن الرسول ﷺ حينما بايعه أهل المدينة فى العقبة قالوا ما معناه: «خذوا ، ونأخذ» إنهم يريدون أن يأخذوا ما يريدون ، وأن يأخذ الرسول ﷺ ما يريد ، فقال الرسول ﷺ ما معناه «النصر» فقالوا : فإذا نحن وفّينا لك بهذا، فماذا يكون لنا ؟ فهل قال لهم رسول الله ﷺ : إنكم ستملكون الأرض، أو ستسودون الدنيا، أو ستنصرون على أعدائكم؟ لا ، بل قال ﷺ : «لكم الجنة»(١) لماذا ؟ لأنه لو قال لهم ستنتصرون على

(١) عن عبادة بن الصامت ، أنه قال : إنى لمن النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ . وقال: بايعناه على أن لانشرك بالله شيئًا ، ولا نزنى ، ولا نسرق ولا نقتل النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ، ولا ننهب (١) ، ولا نعصى . فالجنة إن فعلنا ذلك . فإن غشينا من ذلك شيئًا ، كان قضاءُ ذلك إلى الله . وقال ابن رُمْحٍ : كان قَضَاؤُهُ إلى الله . أخرجه مسلم [١٧٠٩/٤٤] واللفظ له ، والحاكم فى المستدرك [٢/ ٦٢٤] وصححه ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الدلائل [٢/ ٤٣٦ ، ٤٣٧].

(١) نهب : النَّهبُ : الغَنيمة ، والجمع نِهاب ونُهُوبُ ، وفى شعر العباس بن مِرْداس :
كانت نهابًا تلافَيْتُها بِكَرِّى على المُهر بالأجرَع .
والانتهابُ : أن يأخُذَهُ من شاء . والانهاب : إباحته لمن شاء ، ونَهَبَ النَّهْبَ يَنْهَبُهُ نَهْبًا وانتَهَبَهُ : أخَذَهُ .
[لسان العرب : ١/ ٧٣ ٧] بتصرف.

أعدائكم فقد يدخلون المعركة ويموت واحد منهم ولا يرى النصر ، لكنّ الأمر الذى سيراه كلّ المؤمنين بالله هو الجنة وهو الغاية الأصيلة.

إذن .. فعندما قال عيسى عليه السلام: ﴿ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ ﴾؟ فكأنه كان يسأل من يعيننى معونة غايتها الله ؟ وعندما نأخذ هذا المعنى تكون الإجابة : لقد أخذت المعنى على قدر ذهنى ؛ لأن مرادات الله فى كلماته لا تتناهى ، فقد يأتى واحد آخر يفهم أن معنى النصير هو مَن ينصر ، وسوف نرى النصر فى الإيمان وكيف يأتى.

إن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن النصر فى الإيمان قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

إذن .. فالنصر منّا لله بأن نعبده حق عبادته بالتزام أمره واجتناب نهيه، وهذا مراد الله، ولذلك يأتى النصر مرة من المؤمن لربه ، ومرة من الرّب لمربوبه لذلك فمعنى سؤال عيسى عليه السلام من ينصرنى مظلوماً فنصره إلى الله ، إذن فهناك معسكران: معسكر الإيمان ومعسكر الكفر. لقد سأل عيسى من يكون نصيرى إلى الله؟ وحينما سأل وقال: من أنصارى إلى الله؟ أى أنه يسأل عن الذين بإمكانهم أن ينضموا إلى غاية الله، وهكذا نعرف هذا المعنى على ضوء ما قاله الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

إذن .. هناك نصر من المؤمن لربه، وهناك نصر من الله للمؤمن، وهكذا يكون سؤال عيسى ابن مريم عليهما السلام ﴿ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ ﴾ قد أفاد المعنيين.

وكانت الإجابة : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢].

و ﴿الْحَوَارِيُّونَ﴾ (١) مأخوذة من الحوَر وهو شدة البياض فى العين، وهم جماعة أشرقت فى وجوههم سيم الإيمان ، فكأنّ وجوههم مشرقة بالنور. ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء، ولكن نور الوجه المؤمن يكون بإشراقة الإيمان فى النفس ؛ ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول الله محمد ﷺ فيقول: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح : ٢٩].

فحتى لو كان المؤمن أسود اللّون فإن له سمةً على وجهه . . كيف؟ ولماذا ؟ لأن الإنسان مكوّن من أجهزة ومكوّن من ذرّات ، والأجهزة لكلٍّ منها مطلوبات ؛ وكل جهاز فى الإنسان له مطلوب محدد، وحين تتجه

(١) قال القرطبى : والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام ، وكانوا اثنى عشر رجلا ؛ قاله الكلبى وأبو رَوْق ؛واختلف فى تسميتهم بذلك ؛ فقال ابن عباس : سموا بذلك لبياض ثيابهم ، وكانوا صيادين. ابن أبى نَجيح وابن أرْطَاة: كانوا قصّارين فسموا بذلك لتبييضهم الثياب . قال عطاء : أسلمت مريم عيسى إلى أعمال شتى ، وآخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قصارين وصبّاغين ، فأراد معلِّم عيسى السفر ، فقال لعيسى : عندى ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصبغة فاصبغها . فطبخ عيسى حبا (١) واحدًا وأدخله جميع الثياب وقال : كونى بإذن الله على ما أريد منك . فقدِم الحوارى والثياب كلها فى الحُبِّ فلما رآها قال : قد أفسدتها ؛ فأخرج عيسى ثوبا أحمر وأصفر وأخضر إلى غير ذلك مما كان على كل ثوب مكتوب عليه صبغة ؛ فعجب الحوارىّ، وعلم أن ذلك من الله ودعا الناس إليه فآمنوا به ؛ فهم الحواريون. =

(١) الحُبُّ : الخابية ، والخُبُّ : بخاء معجمة الخِرْقَةُ تُخْرِجُها من الثوب ، فتعصب بها يدك . واختَبَّ من ثوبه خُبَّةً أى : أخرج . وقال اللحيانى : الخُبُّ الخِرْقَةُ الطويلة مثل العصابة ؛ وأنشد :

لَهَا رِجْلٌ مُجَبَّرَةٌ بِخُبٍّ وأُخْرى ما يُسَتِّرها أُجَاحُ

[لسان العرب : ١/ ٢٩٥ ، ٣٤٣]

كل الأجهزة إلى الله تعالى، ملتزمة أمره ونهيه، فإن الذى يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته، وما دامت الأجهزة منسجمة، فإن النفس تكون مرتاحة، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة تكون الملامح مكفهرّة.

إذن .. فعندما قال عيسى عليه السلام: ﴿ **مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ .

إذن .. فالحواريون قوم لهم إشراقات انسجام النفس مع الإيمان ، أو هم قوم بيض القلوب ، معانيهم بيضاء ومشرقة. ومنه كلمة «الحور» وهو شدة البياض فى العين . والنبى ﷺ سمّى بعضًا من صحابته حوارىّ رسول الله . إنهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت.

وحين قال الحواريون : ﴿ **نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ** ﴾؛ إن الواحد منهم يريد نصرة الله فينضم إلى كل ناصر للمنهج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل

= قتادة والضحاك : سموا بذلك لأنهم كانوا خاصة الأنبياء . يريدان لنقاء قلوبهم . وقيل : كانوا ملوكًا ، وذلك أن الملك صنع طعامًا فدعا الناس إليه فكان عيسى على قصعة فكانت لا تنقص، فقال الملك له : من أنت ؟ قال : عيسى ابن مريم . قال : إنى أترك ملكى هذا وأتبعك. فانطلق بمن اتبعه معه ، فهم الحواريون ؛ قاله ابن عون. وأصل الحَوَر فى اللغة : البياض وحوّرت الثياب بيضتها ، والحواريات من الطعام ما حُوّر ، أى بيض ، واحْوَرّ ابيض ، والجَفْنَة المحوّرة : المبيضة بالسنام ، والحوارىّ أيضا: الناصر ؛ قال رسول الله ﷺ : « لكل نبىّ حوارىٌّ وحوارِيى الزبير » (1) . والحَوريّاتُ : النساء لبياضهن ؛ وقال :

فقُلْ للحَواريات يَبْكين غيرنَا ... ولا تَبْكنا إلا الكلابُ النَّوابحُ

[تفسير القرطبى : ٤/ ٩٧، ٩٨]

---

(١) أخرجه البخارى [٣٧١٩] عن جابر بلفظ : «إنَّ لكل نبىٍّ حواريا ، وإن حوارىَّ الزُّبير بن العوَّام».

منهم المنهج، ونحن نعرف مقومات النصرة لله وهى الإيمان، فما معنى الإيمان ؟ إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا هو الإيمان فى عمومه ، ولو لم أكن مؤمناً بأن الطريق الذى أسير فيه موصلاً إلى غاية مطلوبة لى لما سرت فيه، ومثال ذلك المسافر من القاهرة إلى دمياط ـ مثلا ـ لو لم يعتقد صحة الطريق لما سلك هذا الطريق ، ولو لم أعتقد أننى إن لم أذاكر دروسى فسوف أرسب لما ذاكرت.

إذن . . فكل أمر فى الدنيا يتم بناؤه على الإيمان. لكنْ إذا قصد بالإيمان المعنى الخاص : فهو اطمئنان القلب إلى قمة القضايا وهى الإيمان بالله ، ولذلك فأسلحة الوصول إلى الله هى إسلام كل جوارح الإنسان إلى الله.

ولذلك قال الحواريون : ﴿ **نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾. ولماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأنّ المفروض فى الرسول أن يبلّغ القوم بلاغاً عن الله فيشهد عليهم ، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ [الحج: ٧٨].

ولنا أن نلحظ أن الحواريين آمنوا أولاً ؛ لأنه أمر غيبى عقدى فى القلب، ثم من بعد ذلك أسلموا ؛ لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه ؛ ولذلك فقولهم : ﴿ **اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ هو طلب منهم للرسول عيسى عليه السلام : أن بلّغنا كل مطلوبات الإسلام، وقل لنا

قواعد المنهج « افعل ولا تفعل » . إنهم قالوا : ﴿آمَنَّا﴾ ، وما داموا قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنوا بمن بلغهم من الله ، والمطلوب من نبى اللّه عيسى عليه السلام أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلّغهم كل الأحكام.

وقالوا من بعد ذلك : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وقد يكون إعلانهم الإيمان إيماناً برسالة سابقة ، ولكن لنا أن نعرف أن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ؛ لأن كل رسول جاء برسالة من الله . ومعنى أنّ رسولاً يجيء أنّ هناك أمرًا أراد الله إبلاغه للناس . ونحن نعلم أنّ العقائد لا تغيير فيها وكذلك الأخبار القصص ولكنّ الأحكام هى التى تتغير. فكأن إعلان الحواريّين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقاً على رسالة عيسى وبما جاء به عيسى عليه السلام ، فهو إيمان كامل .

* من نعم الله على عيسى وأمه عليهما السلام *

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠].

وفى هذه الآية الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على عبده ورسوله عيسى عليه السلام ، وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة ، فالرسول يعلم النعم جيدًا؛ لأنها جرت عليه، ولكنه تقريع لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها . إن النعمة أجراها الله على عيسى وأيده الله بما يزكى رسالته إلى قومه، فكأنها كانت نعمة أولاً عليه ؛ لأنه مصطفى مختار مُؤَيَّدٌ ، وهذا الذكر للنعمة تقريع لمن رآها وعرف أنها كفيلة بأن تثبت صدق عيسى فى بلاغه عن ربه ولم يؤمن.

ونلاحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين :

❑ قسم يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية .

❑ وقسم يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله فى غيب الله.

والقسم الأول : الذى يقنع أصحاب العقول والألباب :

هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .

والقسم الثانى الذى يقنع الماديين : هو الأمور المادية الحسية التى يعلم من يراها أنها لا يمكن أن تجرى على يد بشر ؛ كأن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيها فتكون طيرًا ، إحياؤه عليه السلام الموتى بعد موتهم، وإبراء الأكمه والأبرص ؛ إن هذه الآيات خرق للناموس المادى ، ولذلك يتبع الحقُّ كل واحدة منها بذكر كلمة ﴿ بِإِذْنِى ﴾(1) أى : أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله ، ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى ؛ لأنها أمر ظاهر ومعروف ، وقد فعل الحق ذلك حتى يكون الأمر واضحًا أمام كل إنسان ممن يحبون عيسى ويؤمنون به وبمن أرسله. فعل الحق ذلك حتى لا يُخْدع قوم عيسى فى هذه الآيات ويظنّوها مزية مطلقة له، ولكنها مجرّد آيات معجزات لإثبات صدق عيسى عليه السلام. فعيسى لم يأخذ كل قطعة من الطين ليصوّر منها طيراً وينفخ فيها فتكون طيراً ، إنما حدث ذلك بإذن من الله ولم يحترف عيسى تلك المسألة ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإخراج الموتى بإذن الله (2) . إن ذلك خرق

---

(1) قال أبو حيان الأندلسى: وجاء فى آل عمران ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ مرتين وجاء هنا ﴿ بِإِذْنِى ﴾ أربع مرات عقيب أربع جمل ؛ لأن هذا موضع ذكر النعمة والامتنان بها ؛ فناسب الإسهاب وهناك موضع إخبار لبنى إسرائيل فناسب الإيجاز، والتقدير فى ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى ﴾ تحيى الموتى فعبر بالإخراج عن الإحياء كقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أو يكون التقدير: وإذ تخرج الموتى من قبورهم أحياء. [البحر المحيط : ٤/٤٠٧]

(2) قال الشيخ المراغى فى تفسيره [٧/٥٦ ، ٥٧]: ﴿إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى﴾ أى: واذكر نعمتى عليك إذ تجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير فى شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك؛ فتكون طيرا بإذن الله وتكوينه ، فأنت تفعل التقدير والنفخ ، والله هو الذى يكوّن الطير . =

. . . .

= وفى قوله : ﴿بِإِذْنِي﴾ ، إشارة إلى أن المسيح لم يُعْطَ هذه القوة دائما بحيث جعل السبب الروحى مطردا كالأسباب الجسمانية ، بل كانت هذه الآية كغيرها لا تقع إلا بإذن من الله وتأييده .

﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ جاء فى كتب العهد الجديد أنه أبرأ كثيرا من العُمْى والبُرْص وأحيا ثلاثة أموات :

١ - ابن أرملة وحيد كانوا يحملونه على النعش ، فلمس النعش وأمر الميت أن يقوم منه فقام ، فقال الشعب : قد قام فينا نبى عظيم وافتقد الله شعبه . [إنجيل لوقا].

٢ - ابنة رئيس ماتت ودعاه لإحيائها فجاء بيته، وقال للجميع: تنحَّوْا فإن الصبية لم تمت لكنها نائمة، فضحكوا عليه ، فلما أُخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية . [إنجيل متى] .

٣ - عازر الذى كان يحبه جدا ويحب أختيه مريم ومرثا كما يحبونه ؛ ففى [إنجيل يوحنا] أنه كان مات فى بيت عنيا ووضُع فى مغارة فجاء المسيح وكان له أربعة أيام فرفع عينيه إلى فوق وقال : « أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لى ، وأنا علمت أنك فى كل حين تسمع لى ، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلتُ؛ ليؤمنوا أنك أرسلتنى » ولما قال هذا : صرخ بصوت عظيم لعازر هلمَّ خارجا ، فخرج الميت: إلخ .

وتعيين كل فعل بالإذن للدلالة على أنه ما وقع شىء منها إلا بمشيئة الله وقدرته وتيسيره .

﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى: واذكر نعمتى عليك حين كففت عنك بنى إسرائيل فلم يتمكنوا من قتلك وصلبك ، وقد كانوا أرادوا ذلك ، وقال الكافرون منهم: ما هذا إلا ساحر، وما جاء به من البينات لم يكن إلا سحراً ظاهراً، وليس من جنس ما جاء به موسى ، على أنه مثله أو أظهر منه .

والخلاصة : أنهم لا يعتدّون بما جاء على يديه من الآيات وخوارق العادات ، ولا يؤمنون به وإن جاء بآيات أخرى ، إذ لم يكن طعنهم لشبهات تتصل بها بل كان عنادا ومكابرة ، ومن ثم ادّعَوْا أن السحر صنعته ، والتمويه وقلب الحقائق دأبه وعادته.

[تفسير المراغى : ٧ / ٥٦ ، ٥٧]

لناموس المادة ؛ لذلك أكد الحق القول فى أكثر من موضع بأن هذا الخرق كان بإذن منه سبحانه حتى نعرف أن عيسى عليه السلام لم يأخذ من قدرة الله طلاقةً له، بل انحصر الأمر فى هذه المسائل فقط ؛ ولذلك نجد أن كل خرق لناموس الغيب عند الأنبياء ، هذا الخرق إنما هو لتأييد النبىّ . وعلينا أن نعرف أن الله لم يعطِ إنساناً القدرة على العلم بالغيب مطلقاً، إنما يُطْلِع الحق بعضاً من خلقه بهبةٍ منه سبحانه على شىءٍ جزئى ، فالحق سبحانه وتعالى هو مالك علم الغيب وحده : ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ** ﴾ [الأنعام : ٥٩].

ولم يعط الله مفتاح الغيب لإنسان أبداً ، ولم نرَ إنساناً عالماً للغيب ؛ ولذلك كرر الله هنا كلمة ﴿ **بِإِذْنِي** ﴾ حتى نعلم أنها أحداث وقتية تجلّى الله بفضله فيها ؛ ليثبت حالة من الحالات ، ثم يظل الإنسان مع الناموس العام فى كون الله .

والناموس الكونى: هو الأمـــور والقوانين التى أودعها الله فى الكون؛ لتعمل خدمة للمؤمن والكافر والطائع والعاصى ، ومثال ذلك : شروق الشمس وغروبها، وحركة السحاب حاملاً المطر، ووجود الأرض بعناصرها القابلة للزراعة . وخرق الناموس يكون بإذن من الله تعالى تأييداً لرسله أو للتأكيد على أمر أراده سبحانه.

إن الحق يفعل ذلك لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عنه ، وهذا الإثبات مشروط بشروط : أولها : أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى فى المجال الذى تحدث فيه تلك المعجزة ، ومثال ذلك خرق الحق لناموس العصا ـ وهى فرع من الشجرة ـ وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هى حية تسعى ؛ إن ما أجراه الله على عصا موسى عليه السلام لم يكن سحرا

ولكنه نقلها من جنس إلى جنس ، وكذلك نبغ قوم عيسى عليه السلام فى الطب، ولم يجرؤ أحدهم على أن يشفى بكلمة واحدة الأكمه والأبرص أو أن يخرج الميت من موته إلى الحياة ، وعلى الرغم من تقدمهم فى الطب لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك ، وإن قال قائل : لقد تقدم الطب وصرنا نرقّع قرنية عين الأعمى فيبصر ، أو أننا بسبيل اكتشاف الدواء الذى يعيد لون البشرة إلى الأبرص . فإننا نقول : إن ما نراه فى زماننا هو سَبْق ابتكار، لا خرق اقتدار كما فعل عيسى بإذن من الله ، لقد فعل عيسى عليه السلام ذلك بكلمةٍ لا بإجراء عمليات جراحية ولا بتحضير أدوية وكيماويات.

إن الحق يُجرِى المعجزات على أيدى رسله، ومثال ذلك: الإسراء برسولنا ونبينا محمد ﷺ الذى حدث فى لمح البصر ، ونحن فى زماننا نرى التقدم الآلى والفنى قد اخترع الصواريخ التى من الممكن أن تختصر الوقت لمثل الرحلة من مكة إلى القدس ، ولكن الحق عندما أراد لم يكن الأمر سوى كلمة منه تصير معجزة فى التوّ واللحظة ، ولنحفظ ذلك جيداً: إن المعجزة خرق اقتدار لا سبق ابتكار.

والحق يُسرِّى عن عبده ورسوله عيسى عليه السلام بذكر هذه الآيات ، لكنَّ الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا : إنها سحر. إن المبلّغ عن الله لا يخشى إلا الله ، وهو يحبُّ أن يؤمن معه كل الناس ، إلا أنهم جحدوا بها وكفروا ، وقالوا كما قص الحق سبحانه فى القرآن الكريم : ﴿ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

إن الحق سبحانه خلق الخلق ، وجعل الإيمان أمراً فطريا فيهم ، ثم تأتى الغفلة فتبهت جزئية ، وتأتى غفلة ثانية فتبهت جزئية أخرى ، وتأتى غفلة ثالثة فتصير إلى بهتان.

وفى الحديث الذى رواه حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ؛ حدثنا أن الأمانة نزلت فى جِذْر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل الـمَجْل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شىء - ثم أخذ حصًى فدحرجه على رجله - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل :ما أجلده!ما أظرفه! ما أعقله! وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى علىَّ زمان وما أبالى أيّكم بايعت ، لئن كان مسلماً ليردنه علىَّ دينُه ، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنّه علىَّ ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلانًا » (١) .

وفى حديث آخر عن رفع الأمانة والفتنة، قال حذيفة : « كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه. فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل فى أهله وجاره؟ قالوا: أجل قال: تلك تكفّرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبى ﷺ يذكر الفتن التى تموج موج البحر ؟ قال حذيفة: فأسكت القوم. فقلت : أنا . قال : أنت ، لله أبوك ! قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأىّ قلب أُشربها نُكِتَ فيه نكتة سوداء ، وأىّ قلب أنكرها نُكِتَ فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفاء فلا تضرّه فتنة ما دامت السموات والأرض .

---

(١) أخرجه البخارى [٦٤٩٧] ، ومسلم [١٤٣/ ٢٣٠] واللفظ له .

والآخر أسود مربادًا كالكوز مُجَخِّيا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه». قال حذيفة: وحدّثته : أن بينك وبينها بابًا مغلقاً يوشك أن يكسر. قال عمر : أَكَسْرًا ، لا أبا لك ! فلو أنه فُتِحَ لعله كان يعاد. قلت: لا. بل يكسر وحدثته: أن ذلك الباب رجل يُقتل أو يموت حديثا ليس بالأغاليط » (١) .

هكذا كان حديث الرسول ﷺ عن رفع الأمانة وضياع المناعة الإيمانية من النفس البشرية. والحق أراد للمناعة الإيمانية أن تبقى فى عباده؛ لذلك أرسل الرسل حتى تتكون المناعة ويكبح المجتمع جماح كل فرد تحدث له الفتنة . لذلك عندما كان يظهر فساد فى الأرض يرسل الرسول حتى يعيد البريق إلى النفس اللوامة ، ويحيى فى المجتمع القدرة على أن يتناسق السلوك فيه على ضوء منهج الله ، ولذلك نجد أن المقاومة التى تحدث للرسل إنما تحدث من الذين يستمتعون بالفساد وبآثار الفساد .

إن منهج الهداية حينما يأتى فهو يأخذ بأيدى المظلومين ، ويغضب منه الظالمون والأقوياء الجبابرة، ولذلك يهاجمون الرسل ويحاربون منهج الله. ذلك أن منهج الله سيقطع عليهم سبل الفساد الذى يُدِرُّ عليهم عائداً هو فى نظرهم كبير ، ولذلك رأينا صناديد قريش وقد تصدَّوا للدعوة ، فمحمد ﷺ جاء بالمساواة بين كل البشر ؛ لقد كانوا يعرفون أن مجرد النطق بالشهادتين : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ؛ يعنى فقدانهم لسلطان إرهاب الناس والقبائل ، فلو كانت المسألة مجرد كلمة تقال ويبقى الأمر على ما هو عليه لقالوها ، ولكنها كانت كلمة تغير من الأمر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، ولا يبقى من جبروت لأحد؛ فكل الناس سواسية.

---

(١) أخرجه مسلم [١٤٤/ ٢٣١] .

لذلك تصدّى صناديد قريش لدعوة الإسلام ، ولذلك نجد أن كل رسول يأتى فإن له من يعاديه من الجبابرة ومن أصحاب الفساد فى الأرض مصداقاً لقول الحق : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ولذلك أراد الحق أن يجعل صيحة الإيمان فى الجاهلية تأتى أولاً إلى آذان سادة العرب جميعاً ، وهم قريش الذين لا يجرؤ أحد من العرب على التعرض لهم ، ولم يجعل الحق النصر يأتى لمحمد وهو فى مكة حيث كانت مقام السيادة ؛ لأن النصر لو كان قد حدث ومحمد ﷺ يحيا بين قومه فى مكة ؛ لقال قائل : لقد حدث النصر من قوم ألفوا السيادة وأرادوا أن يسودوا العالم كله، لا الجزيرة العربية وحدها؛ لذلك جعل الحق مقام النصر ينبع من المدينة المنورة . لقد جاءت الصرخة أولاً فى آذان السادة ، ثم التف حولها المستضعفون فى الأرض الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ثم هاجروا ونصرهم الله من بعد ذلك على الأقوياء.

لذلك فنحن نجد أن كل داعٍ إلى الله يأتى إنما يريد إقامة منهج الله فى الأرض ؛ حتى لا يأتى الران على القلوب ، بسبب الغفلة التى حدثت بالبعد عن منهج الله . وذلك ما يغضب منه الجبابرة والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم . ونجد أن الداعى إلى الله الذى ليس له عدو يصيبه بالسوء هو داعٍ حظه من منهج النبوة ضعيف ، وميراثه من النبوة ليس بكثير !! والكافرون بعيسى عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التى جاء بها عيسى عليه السلام .. ماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

ومعنى ذلك أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحنقتهم ، وملأت

مشاعرهم بالخيبة . لقد جاء مثل هذا القول من قوم يكرهون منهج الحق، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمة، يدعم بها الحقُّ الداعىَ إليه ؛ لأن مقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التى يؤمن بها .

إذن . . فكلما رأينا داعياً إلى الله يقاومه الناس ويقذفونه بالسباب ؛ فهذا دليل على صدق الداعى ، ما دام متمسكاً بما يؤمن به .

والحق جل وعلا يقول: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة : ١١١].

والوحى بمعناه العام هو : الإعلام بخفاء ، أى : أن الحق ألهمهم أن يؤمنوا برسالة عيسى المبلّغ عن الله. والحق أوحى إليهم أى : أعلمهم بخواطر القلب التى أعلم بها أم موسى أن تلقى ابنها فى اليم وهو غير الوحى للرسول ؛ فالوحى إلى الرسول هو الوحى الشرعى بواسطة رسول مبلغ عن الله. إن وحى الله إلى أم موسى أو إلى الحواريين هو استمرار خاطر إيمانى، يلتفت بعده الموحى إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك، وعندما لا يصادم إلهام القلب الواقع، ولا يجد الإلهام ما يصادمه من نفس الإنسان، فهذا لون من الوحى ، أى هو إعلام بخفاء ، كأن يتوقع الرجل مقدم صديق من سفر ، أو لوناً من الطعام يشتهيه فيجده على المائدة؛ إذن . . فالإلهام وارد من الله لخلق الله ما دام لا يتصادم بشىء مع النفس أو الواقع؛ لأن الإلهام الذى يقابل صداماً ليس من الله. كذلك أوحى الله للحواريين أن يؤمنوا به وبرسالة عيسى عليه السلام، وبمجرد مجىء عيسى وسماعهم أنه رسول من الله ، أعلنوا الإيمان به وصاروا من خُلَصَائه . ولنذكر بما قلناه مراراً : حين ترى «إذ» فلتفهم أن معناها : «اذكر إذ»، أى تذكر وقت الحدث الذى قال فيه الحواريون : نحن آمنا بعيسى نبيًّا من عند الله. وأشهدوه على إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ ، فلنا أن نلاحظ جيدًا أن الحق سبحانه وتعالى يؤكد دائماً فى الكلام عن نبيه عيسى عليه السلام أنه عيسى ابن مريم ، ذلك ما يقرره الله ، أما عن تأييد الحق سبحانه لعيسى ابن مريم بروح القدس ؛ فذلك لأن المسائل التى تعرض لها المسيح عيسى ابن مريم هى مسائل تستدعى أن تظل روح القدس تسانده ؛ ففى ميلاده تعرض لإشكالات، وفى دعوته تعرض لإشكالات ، وكل هذه الأمور تحتاج إلى مساندة من روح القدس؛ لذلك يقول : ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٣].

إذن .. كل المشاكل التى تعرض لها عيسى ابن مريم كانت مشاكل كبرى ففى الميلاد تعرض لمشكلة ؛ لأنه وُلِدَ على غير طريقة ميلاد الناس ، وتلك مشكلة اتهمت فيها أمه ، وجاء القرآن ونزهها وبرأها ووضع الأمر فى نصابه الحق . وفى رفعه ، كان الأمر مشكلاً ؛ فلقد أرادوا أن يقتلوه ولكن رفعه الله إليه. إذن .. هو عليه سلام يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا.

* مائدة السماء *

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢].

كأن عيسى عليه السلام قد قال للحواريين: عليكم بتقوى الله عز وجل، فلا تسألوه هذه الآية؛ لأنكم ما دمتم أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صدق رسوله ، وحسبكم ما أعطاه الله لى من آيات لصدق رسالتى؛ إذ عليكم أن تلزموا أنفسكم بالمنهج الذى أعلنتم إيمانكم به ولكنّ الحواريين أجابوا: ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ١١٣].

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بإبراهيم- خليل الرحمن- ﷺ عندما سأل الله عزّ وجل عن كيفية إحياء الموتى؛ ليطمئن قلبه. لقد آمنوا بعلم اليقين ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين، لذلك سألوا عن المائدة التى صارت من بعد ذلك حقيقة واضحة (١). وهكذا نعرف أن هناك فارقًا بين أن يؤمن

---

(١) روى ابن جرير بسنده عن رجل من بنى عجل قال: صليت إلى جنب عمار بن ياسر، فلما فرغ قال: هل تدرى كيف كان شأن مائدة بنى إسرائيل؟ قال فقلت: لا! قال: إنهم سألوا عيسى ابن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لاينفد. قال: فقيل لهم: فإنها مقيمة لكم ما لم تخبؤوا، أو تخونوا، أو ترفعوا ، فإن فعلتم فإنى أعذبكم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ! قال : فما تمّ يومهم حتى خبؤوا ورفعوا وخانوا ، فعذبوا عذاباً لم يعذّبه أحد من العالمين. وإنكم معشر العرب، كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاء فبعث الله فيكم رسولاً من أنفسكم حسبه ونسبه ، وأخبركم على لسان نبيكم أنكم =

الإنسان لذاته، وبين أن يشهد بالإيمان عند غيره. ويقول الحق عن استجابة عيسى لطلب الحواريين: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [المائدة: ١١٤].

وقول الحق: ﴿ مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ لا يعنى أن هناك موائد منصوبة فى الأرض؛ ذلك أن الكون كله مائدة فيها من الخير الكثير، والإنسان منا عندما يكد ويكدح ويستخرج من الأرض الزرع ويرعى أنعامه، فإنه يأتى إلى زوجه وأولاده بمخزون قد يكفيهم لمدة عام من دقيق وأرز وعسل وسكر وزيت. وقد تأتى الزوجة بشىء من الطير فتذبحه وتطهو معه الخضروات.

إذن.. فالكون كله مائدة الله المنصوبة التى يأخذ منها كل إنسان على قدر عمله (١). وكلمة ﴿ مَائِدَةً ﴾ لا تطلق إلا على الخوان وعليه طعام، أما إن كانت بغير طعام فنطلق عليها: خوان؛ لأن المائدة مأخوذة من مادة «الميم والألف والدال» (٢) والمائدة تميد أى تضطرب من كثرة ما عليها من أشياء،

= ستظهرون على العَرب، ونهاكم أن تكنزوا الذهب والفضة. وايم الله. لايذهبُ الليلُ والنهارُ حتى تكنزوهما، ويعذِّبكم عذاباً أليماً.

[تفسير الطبرى: ١١/٢٢٨]

(١) قال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) ﴾ [الرحمن].

(٢) قال القاسمى: فى المائدة قولان:

الأول: أنها الطعام نفسه، من «ماد» إذا أفضل. كما فى «اللسان» وهذا القول جزم به الأخفش وأبو حاتم. أى: وإن لم يكن معه خوان. كما فى «التقريب» و «اللسان» وصرح به ابن سيده فى «المحكم».

قال الفاسى: والآية صريحة فيه، قاله أرباب التفسير والغريب.

والثانى: أنها الخوان، عليه الطعام قال الفارسى: لا تسمى مائدة حتى يكون عليها طعام وإلا فهى خوان وصرّح به فقهاء اللغة، وجزم به الثعالبىّ وابن فارس. واقتصر عليه =

أو هى تعطى مما عليها من أشياء ،وصارت هذه المائدة عيداً أى يوما يحب الناس أن يعود عليهم مثله؛ لأنهم يسرون به ، فالعيد هو ما يعود علينا بالخير وبما يسر وقد توقف العلماء عند قول الحق سبحانه : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾

وتساءلوا: كيف كان هذا القول، وخصوصاً أن معناه الظاهرى: أيقدر ربك؟ وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون؟! .

وقال العلماء أيضاً: إن من يتكلم فى اللغة عليه أن يكون متبصراً باشتقاقات الألفاظ، واستعمالات الألفاظ، وسمات الألفاظ، وكلمة: ﴿ يَسْتَطِيعُ ﴾ تطلق ويراد منها الاستجابة وكأن معنى سؤالهم: أيستجيب الله لإرسال مائدة لنا من السماء ؟ «واستطاع» تقابل «استجاب» .

= الحريرىّ فى «درة الغواص» وزعم أن غيره من أوهام الخواص . وذكر الفاسى فى «شرحها »: أنه يجوز إطلاق المائدة على الخوان مجرّداً عن الطعام ، باعتبار أنه وضع أو سيوضع . وقال ابن ظفر: ثبت لها اسم المائدة بعد إزالة الطعام عنها .كما قيل: لقحة بعد الولادة .وقال أبو عبيد: المائدة فى المعنى مفعولة ، ولفظها فاعلة، وهى مثل عِيشة رَاضِية. وقيل: من «ماد» إذا أعطى. يقال: ماد زيد عمراً، إذا أعطاه. وقال أبو إسحاق: الأصل عندى فى مائدة أنها فاعلة .من «ماد يميد» إذا تحرك. فكأنها تميد بما عليها. أى: تتحرك . وقال أبو عبيدة: سميت مائدة لأنها مِيدَ بها صاحبها . أى : أُعطِيَّها وتُفُضِّل عليه بها .وفى «العناية» : فكأنها تعطى من حولها مما حضر عليها. وفى «المصباح»: لأن المالك مادها للناس. أى: أعطاهم إياها. ومثله فى كتاب «الأبنية لابن القطاع»: ويقال فى المائدة مَيْدة. قاله الجرمىّ وأنشد:

ومَيْدةٍ كثيرةِ الألوان   تصنع للإخوان والجيران

كذا فى «القاموس وشرحه». والخُوان بضم الخاء وكسرها ما يؤكل عليه الطعام كما في«القاموس» . معرّب كما فى «الصحاح» و«العين» .وقيل :إنه عربىّ مأخوذ من «تخونه» أى نقص حقه . لأنه يؤكل عليه فينقص . كذا فى «العناية» .

[تفسير القاسمى :٦/ ٢٢١٤، ٢٢١٥]

إن الحق سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء وهو الذى يخضع لحكمه كل شيء، والحق لا يطلب إنما يأمر: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فكأن الحق عندما يقول: ﴿كُن﴾ فهو قد طلب من الشيء طوعًا أن يكون. وعلى هذا فإن سؤالهم يكون كالآتى: هل يطلب ربك طوع الكون له؟! فيستجيب لنا بإرسال مائدة تكون عيدًا. ولنا أن نعلم أن قول الله: ﴿كُن﴾ لا يمكن أن يصدر إلا والحق يعلم أن المطلوب منه يجب أن يطيع الله سبحانه وتعالى، وأن يكون استعداده الانفعالى أن يطيع على الفور أمر الخالق؛ وحتى نعلم ذلك فلنقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ②﴾ [الانشقاق]. إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط، وحين تسمع الأمر فهى تنفعل، ومعنى تنفعل أى: تطيع، وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى.

وقول الحق: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

لقد طلبوا مائدة من السماء وقدموا الرغبة فى الأكل والطعام على ضرورة التصديق الإيمانى الجازم، ولنا أن نرى اختلاف قولهم فى هذه المائدة عن قول عيسى ابن مريم عليه السلام لما سأل ربه هذه الآية، فيقول تعالى فى ذلك: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

إن قول عيسى عليه السلام هو قول ممتلئ بكل المعانى القَيِّمَة. إنه يطلب أن تكون المائدة عيداً يفرح به الأولون والآخرون، وآية من الحق سبحانه وتعالى. ويعترف بفضل ربوبية الرازق، ويعترف بامتنان أن الحق سبحانه خير

الرازقين (١) ، والمقارنة بين قول الحواريين وقول عيسى عليه السلام تدلنا على الفارق بين إيمان المُبَلّغ عن الله وهو عيسى عليه السلام، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عنه وهم الحواريون، إن إيمان عيسى عليه السلام هو الإيمان القوى الناضج، وإيمان الحواريين إيمان لا يرقى لإيمان عيسى عليه السلام، ولقد كانت قوة إيمان عيسى عليه السلام نابعة من أنّه يتلقى عن الله سبحانه وتعالى مباشرة. صحيح أن الحواريين آمنوا بالبلاغ عن الله عز وجل، وتم ذلك بواسطة عبده ورسوله عيسى عليه السلام ؛ ولذلك يعلو الرسول عن المؤمنين ببلاغه؛ ولذلك صحح عيسى عليه السلام طلبهم من الله سبحانه وتعالى وهو يدعو ربه. إنه رسول مصطفى مجتبَى؛ لذلك يضع الأمور فى نصابها فيقول: ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا ﴾ وكلمة: ﴿ اللَّهُمَّ ﴾. فى الأصل هى«يا الله»، وعندما كثر النداء بها حذفنا منها حرف النداء وعوضنا عنه بميم فى آخرها فصارت «اللهم»، وكأن هذا اللفظ تتهيأ به نفس الإنسان لمناجاة الله عز وجل فى تقديسٍ وثقة فى أن الحق يستجيب لعبده، وهو نداء يقوم على حب العبد لمولاه، فلا يوسط بينه وبين اسم ربه أى واسطة حتى وإن كانت هذه الواسطة حرفاً من حروف النداء ولنا أن نلحظ أن عيسى عليه السلام قدم كلامَ الله بصفة الألوهية؛إنه كنبىّ مرسل يعلم تجليات صفة الله عز وجل، وهى تجليات عبادة من عابد إلى معبود، أما تجليات كلمة «ربّ» فهى تجليات

---

(١) قال القاسمى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا ﴾ أى : يا الله المطلوب لكل مهمّ، الجامع للكمالات ، الذى ربّانا بها . ناداه سبحانه وتعالى مرتين بوصف الألوهية والربوبية، وإظهاراً لغاية التضرع ومبالغة فى الاستدعاء ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى: التى فيها ما تعدنا من نعيم الجنة ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ أى يكون يوم نزولها عيداً نعظِّمه ونُسَرُّ به، نحن الذين يدركونها. ومن بعدنا الذين يسمعونها فيتَقَوُّون فى دينهم.

و«العيد» العائد. مشتقُ من «العود» لعوده فى كل عام بالفرح والسرور. وكل ما عاد عليك فى وقتٍ فهو عيد. [تفسير القاسمى: ٦/٢٢١٦]

مربوب وربّ، إنه يعلم الفارق بين عطاء الألوهية للخلق وعطاء الربوبية.

إن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه. أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولى للتربية؛ التربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب والأقوات. والرب هو ربٌّ كل شيء، ربٌّ للمؤمن والكافر، والربّ يتولى تربية الكافر رغم إنكاره للألوهية، إنه يربّى الماديات التى تقيم حياته؛ ولذلك نجد الحق يقول عن هؤلاء الكافرين:
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان: ٢٥].

إن الحق سبحانه يبلّغ نبيه محمداً ﷺ أن يسأل الكافر عن خلق السماوات والأرض، ولن يجدوا إجابة على ذلك إلا قولهم: إن الله عز وجل هو الخالق. إن هذه هى إجابة الفطرة الأولى، ونحن نرى فى حياتنا أكثر من مثل على ذلك - ولله المثل الأعلى - عندما يسأل الأطفال عن شيء ومن الذى أحضره ؟ فإننا نجد الإجابات تتسلسل إلى أن تصل إلى أن معطى كل شيء هو الله. فإن سأل طفلٌ أمه ماذا سنأكل ؟ فستجيب الأم على- سبيل المثال - سنأكل بامية. . ، ويسأل الطفل: ومن أين؟ تجيب الأم: اشتراها والدك من بائع الخضر، ويسأل الطفل: من أين جاء بها بائع الخضر؟ تقول الأم: من تاجر الجملة فى السوق. يسأل الطفل من أين جاء بها تاجر الجملة؟ تجيب الأم: من الفلاح الذى حرث الأرض وبَذَرَ فيها بذور البامية؟ يقول الطفل: من الذى خلق الأرض، وأنبت النبات ؟ تقول الأم: إنه الله سبحانه وتعالى ربنا خالق كل شيء؛ لقد وصلت الأم بحوارها مع الطفل إلى عطاء الربوبية الذى يستوى فيه المؤمن والكافر. والمؤمن هو الذى يأخذ بجانب عطاء الربوبية عطاءَ الألوهية أيضاً ، وهو التكليف . فعطاء الألوهية يعطى المؤمن عطاء الربوبية مضافاً إليه العطاء الذى لا ينفد. إنه يعطى المؤمن زمانًا لا يموت فيه

ونعمة لا يتركها ولا تتركه. يأخذ به المؤمن يقين الإشراق، والإقبال على العمل فى ضوء منهج الله؛ ولذلك قال عيسى ابن مريم داعيا الله جلّت صفاته وأسماؤه: ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ .

لقد ألزم عيسى عليه السلام نفسه بنداء الألوهية أولاً؛ معترفاً بالعبودية لله جلّ وعلا ملتزمًا بالتكليف القادم منه، ثم جاء نداء الربوبية؛ فيا مَنْ أنزلت علينا التكليف، ويا مَنْ تتولى تربيتنا نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء. لقد ألزم عيسى عليه السلام نفسه بالعبودية، وأخذ نداءه من زاوية القيم ثم الزاوية المادية وهى الرزق. لقد قدم الحواريون بشريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام، وقدَّم عيسى ابن مريم عليه السلام بصفائية اختياره رسولاً، القيم على الطعام. صحيح أن الرزق يمس الأكل ولكن الرزق ليس كلُّه أكلاً، هو كل شىء يُحتاج إليه وينتفع به: فالأكل رزق، والشرب رزق، والملبس رزق، والعلم رزق، والحلم رزق، والهداية رزق، وكل شىء يُنتفع به هو رزق من عند الله. ولذلك جاء عيسى بالكلمة العامة التى يدخل فيها الأكل وتتسع لغيره.

ويجيب الحق دعاء عيسى ابن مريم : ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٥] .

وحين يقول الحق: ﴿ إِنِّى ﴾ فهو يستخدم نون الإفراد. ونعلم أن هناك أسلوبين لحديث الحق سبحانه عن نفسه، فحين يتحدث سبحانه عن وحدانيته يأتى بنون الإفراد فيقول : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ ﴾ [طه: ١٤] .

وحين يتحدث سبحانه وتعالى عن سياق القدرة الشاملة العامة لكل صفات القدرة الشاملة يأتى بنون التعظيم ، فيقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وهو سبحانه وتعالى أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد فقال : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾؛ ذلك أن المائدة ستنزل من السماء، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق بعد ذلك: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٥].

إن الحق سبحانه يرسل رسله بعد أن يجتبيهم، وإياك أيها العبد أن تقول: إن فلاناً من الرسل أفضل من فلان(١)؛ لأن الحق هو الأعلم برسله، ولنا في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الأمر باتباع الرسل.

وعندما حاول بعض من أهل الجاهلية التعجب من شأن القرآن الذى نزل على محمد ﷺ ، فردَّ الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما يهودى يعرض سلعته أعطى بها شيئاً كرهه، فقال: لا والذى اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه وقال: تقول: والذى اصطفى موسى على البشر، والنبى ﷺ بين أظهرنا؟ فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إن لى ذمة وعهداً، فما بال فلان لطم وجهى؟ فقال: «لِمَ لطمت وجهه؟!» فذكره ، فغضب النبى ﷺ حتى رؤى فى وجهه. ثم قال: «لا تفضلوا بين أولياء الله ، فإنه ينفخ فى الصور فيصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدرى أحوسب بصعقته يوم الطور، أم بُعث قبلى» .
أخرجه البخارى [٣٤١٤] واللفظ له ومسلم [٢٣٧٣]

لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾

إن أهل الجاهلية قالوا : لماذا لم يُنزَّل القرآن على رجل عظيم من مكة أو الطائف ؟!! لقد قالوا ذلك استهزاء بشأن محمد ﷺ ، وقال الحق سبحانه وتعالى فى ذلك القولَ الفصلَ؛ فليس لأحد أن يختار الرسول؛ لأن الرسول مصطفىً من الله، ولا يملك أحد من البشر أن يختار رسولاً من أصحاب السلطان أو الجاه، إنه سبحانه وتعالى يعدّ كل رسول الإعداد اللائق بمهمته، ومقام الرسالة والنبوة هو المقام الأعلى فى الدنيا والآخرة، والحق سبحانه هو المنظم لأمور خلقه، وقسم المواهب رحمة منه فيما بين العباد؛ ليتساندوا ويتآزروا ويحتاج كل منهم لعمل الآخر. والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً فهو يختار الآية المناسبة له ، وللعصر الذى جاء فيه ، فإذا ما اقترح قوم آية فإن الحق يضع هذا الاقتراح شرطاً للتسليم برسالة الرسول. فإن لم يؤمن الذين اقترحوا الآية فإن الحق ينزل بهم العذاب الأليم. إن طلب الآيات من أتباع الرسول يحمل فى طياته بعض التفلُّت؛ كأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول رغم طلبهم للآية؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

لقد اقترح الكفار والمشركون على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالآيات والمعجزات الدالة على صدقه ؛ حتى يصدقوا أنه نبى مرسل من الله إليهم . وسنة الله سبحانه وتعالى مع الذين يطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها واضحة وهى العذاب الشديد؛ ومثال ذلك قوم ثمود الذين طلبوا ناقة تكون معجزة، وبرغم ذلك كفروا بها ، فعاقبهم الله شر عقاب. إن بعضًا من الكافرين غالوا فى طلب آيات غريبة : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ

تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ [الإسراء].

إن محمداً ﷺ كان رحيما بقومه، لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التى أنزلها الله عليه.

وعيسى عليه السلام دعا الله بأدب الرسل أن ينزل المائدة. واختلف العلماء أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة أم لم ينزلها ؟ فهناك من تمسكوا بقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا ﴾.

وهناك من قالوا : إن الحق سبحانه وضع شرطا لنزول المائدة وهو إنزال العذاب إن لم يؤمنوا، فتراجعوا عن طلب إنزال المائدة، ولذلك لم ينزل الحق تلك المائدة. ومن قالوا بنزول المائدة اختلفوا فى مواصفاتها ؛ فقيل: إن المائدة نزلت وعليها سمكة مشوية من غير فلوس[1] ولا شوك فيها؛ ذلك أنها مائدة من السماء، ومعها خمسة أرغفة وعلى كل رغيف شيء مما يعرفون، رغيف عليه عسل، وآخر عليه زيتون، وثالث عليه سمن، ورابع عليه جبن، وخامس عليه قديد .

---

(١) شيء مفلَّس اللون إذا كان على جلده لُمَعٌ كالفلوس والمقصود : أنها سمكة من غير قشر.

قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء: ١٥٧] . نلاحظ أن الآية: تبدأ بواو العطف على ما قبلها، وهو قول الحق: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) ﴾ [النساء]:.

إن الحق سبحانه وتعالى يعطف على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة: ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ وأكثر ما يدهش فى هذا القول هو كلمة ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ ، فهل كلمة ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ هنا من قولهم؟.

إن كانوا قد قالوها، فهذا دليل اللجاجة المطلقة، فلو أنهم قالوا: إنهم قتلوه فقط، لكان الجرم أقل وطأةً، ولكن إذا كانوا قد عرفوا أنه ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ ومع ذلك قتلوه فهذا جرم عظيم للغاية، أو أن كلمة ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾[1] فى هذه الآية ليست من قولهم الحقيقى، إنما من قولهم

(١) قال ابن عطية الأندلسىّ: وقوله عز وجل: ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ إنما هو إخبار من الله تعالى بصفة لعيسى وهى الرسالة على جهة إظهار ذنب هؤلاء المُقرِّين بالقتل، ولزمهم =

التهكمى؟! وأضرب المثل ؛لأوضح هذا الأمر: قد يأتى شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته، ثم يأتى شخص آخر يضربه ويهزمه، فيقول لأتباع ذلك القوى المهزوم: لقد ضربت الفتى القوى فيكم!

إذن .. قد يكون قولهم ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ هو من قبيل التهكم، أو أن تكون كلمة ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ هنا هى من قول الحق سبحانه وتعالى مضموماً إلى قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ فكأن الحق لم يشأ أن يذكر ﴿ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ إلا مرتبطاً أو موصوفاً بقوله : ﴿ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ذلك؛ لنعلم بشاعة ما قالوه فيه وفى أمه عليهما السلام، فأراد الحق أن يبين أن عيسى ابن مريم رسول الله رغم أنوفهم، وكأن الحق يسخر منهم؛ لأنه ما كان الله ليرسل رسولاً ليبين منهجه للناس، ثم يسلط الناس على قتله قبل أن يؤدى مهمته، إنه سبحانه وتعالى قد جاء بكلمة ﴿رَسُولَ اللَّهِ ﴾ هنا كمقدمة يلفت بها الذهن إلى أن ما قالوه هو الكذب.

بعد ذلك يقول لنا سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ ومجىء كلمة ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ؛ لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعون ذلك ويعلنونه للناس. فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب، إنهم قتلوا شخصاً شبَّهه الله لهم، لم يكن هو المسيح. ثم صلبوه من بعد ذلك ، ولكنهم بمجرد قتل هذا الشخص طاروا بخبر القتل قبل أن

= الذنب وهم لم يقتلوا عيسى؛ لأنهم صلبوا ذلك الشخص على أنه عيسى، وعلى أن عيسى كذَّاب ليس برسول، ولكن لزمهم الذنب من حيث اعتقدوا أن قتلهم وقع فى عيسى ، فكأنهم قتلوه ، وإذا كانوا قتلوه فليس يرفع الذنب عنهم اعتقادهم أنه رسول، كما أن قريشاً فى تكذيبها رسول الله ﷺ لا ينفعهم فيه اعتقادهم أنه كذاب؛ بل جازاهم الله عز وجل على حقيقة الأمر فى نفسه .

[المُحَرَّر الوجيز: ٢/ ١٣٣]

يقوموا بالصلب ويقطع الله عليهم هذا الأمر فقال: ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾ إن الحق القادر سبحانه وتعالى لفتنا من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح قوبلت من بنى إسرائيل بضجة رغم علمهم بالخبر. خبر مجيء المسيح بالميلاد من غير أب، ورغم أنهم علموا بناتهم الاستشراف إلى أن يكون لواحدة منهن شرف حمل المسيح رغم ذلك قالوا فى مريم البهتان العظيم .

إن ميلاد المسيح كان له ضجة، وكذلك كان لمسألة الوفاة ضجة. واقتران الضّجّتين معاً فى رسالة المسيح يدلنا على أن العقل يجب أن يكون له وحدة تفسيرية، فحين يسمع العقل عن قضية الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لابد أن يستشعر أنها جاءت على غير سنّة موجودة. وحين يبلّغنا الحق أن بنى إسرائيل بيتوا النية لقتل عيسى ابن مريم عليه السلام وأن الله عز وجل رفعه إليه، هنا تكون المسألة قد جاءت أيضاً بقضية مخالفة ، ولابد أن نصدق ما بلغنا الله عز وجل به كما صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من غير أب، لابد أن نصدق أن الحق رفعه فى النهاية إليه.

إن الميلاد لم يكن فى حدود تصور العقل لولا بلاغ الحق سبحانه وتعالى لنا. وكذلك الوفاة لابد أن تكون مقبولة فى حدود بلاغ الحق لنا. إن الميلاد والنهاية بالنسبة لعيسى ابن مريم عليهما السلام كل منهما عجيبة، ولابد أن نفهم أن العجيبة الأولى فى الميلاد يجب أن تكون تمهيداً إلى أن عيسى ابن مريم عليهما السلام دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب، فلماذا لا يخرج منها بأمر عجيب ؟ .

إن الحق سبحانه وتعالى حكم وقال : ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾ وكلمة ﴿ **شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾ هى دليل على الفوضى التى أوقعهم الله - تَجَلَّتْ حكمته - فيها، فقد ألقى شَبَهَهُ على واحد آخر، وذلك دليل

على أن المسألة كانت غير طبيعية ؛ ليس فيها حزم التبين من المتربصين القتلة ، ونحن نعلم أن الحواريين وأتباع عيسى عليه السلام كانوا يلفون رؤوسهم ؛ ويدارون سماتهم ؛ ولذلك قال الحق لنا: ﴿ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أى أنه قد شبه لهم أنهم قتلوه . . . كيف حدث هذا ؟ وما الحكاية ؟ إن كلمة ﴿ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ اختلفت فيها الروايات، فقيل: إنهم حينما طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل خوخة، والخوخة[1] هى فتحة فى باب؛ ففى البيوت القديمة كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة ، وفى هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد ، وفى سقف البيت توجد فتحة اسمها : روزنة[2] فلما طلبوا عيسى دخل الخوخة، ولما دخل الخوخة دخل خلفه رجل اسمه تطيانوس، وعندما رأى عيسى عليه السلام هذا الأمر ألهمه الله سبحانه وتعالى أن ينظر إلى أعلى، فنظر، فوجد شيئًا يرفعه، فلما استبطأ القوم تطيانوس خرج عليهم فتساءلوا إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى؟ وإذا كان هذا عيسى فأين تطيانوس؟ إذن . . فقد اختلط عليهم الشبه بين تطيانوس وعيسى ، لما ألقى الله شبه عيسى على تطيانوس. إذن . . عيسى باقٍ ، ولم يأت الحق بخبر موت عيسى عليه السلام ، وعلى ذلك بقى الأمر على أصل ما وردت به الأحاديث من أن الله رفع عيسى ابن مريم؛ وما دمنا مسلمين لا نستبعد أن يكون الحق

---

(١) الخَوْخَةُ : كُوَّةٌ فى البيت تؤدى إلى الضوء . والخوخة: بابٌ صغير وسط بابٍ كبير نُصِبَ حاجزاً بين دارين . والخوخة : مُخْتَرَقٌ ما بين كلّ دارين.

[المعجم الوسيط: ٢٦١]

(٢) الرَّوْزَنَة : الكوَّةُ، وفى المحكم: الخرق فى أعلى السقف . التهذيب: يقال للكُوة النافذة الرَّوْزَنُ ، قال: وأحسبه مُعرَّباً ، وهى الرَّوَازِنُ تكلمت بها العرب.

[لسان العرب: ١٣/ ١٧٩]

سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء، لماذا ؟ (١) .

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى يدعى لنفسه هذا المنصب قتلناه ، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء كقول المشركين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه أنه لما بعث اللّه عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه اللّه تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التى كان يبرئ بها الأكمه والأبرص، ويحيى الموتى بإذن الله ويصور من الطين طائراً، ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التى أكرمه الله بها، وأجراها على يَدَيْه، ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا فى أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبى الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم فى بلدة بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق فى ذلك الزمان. وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب وكان يقال لأهل ملته: اليونان، وأنهوا إليه أن فى بيت المقدس رجلا يفتن الناس، ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ، ويكف أذاه عن الناس ، فلما وصل الكتاب امتثل والى بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى عليه السلام وهو فى جماعة من أصحابه اثنى عشر أو ثلاثة عشر، وقيل: سبعة عشر نفراً، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصروه هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيكم يلقى عليه شبهى وهو رفيقى فى الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك ، فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو ، وفتحت روزنة من سقف البيت وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ الآية، فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب، ظنوا أنه عيسى فأخذوه فى الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه ، وأظهر اليهود أنهم سعوا فى صلبه وتبجحوا بذلك وسلم لهم طوائف من النصارى ؛ ذلك لجهلهم وقلة عقلهم ماعدا =

لأن المبدأ مبدأ وجود بشر فى السماء قد ثبت لرسولنا ﷺ ولقد علمنا أن رسولنا محمداً ﷺ قد عُرِجَ به إلى السماء وأنه صعد وقابل الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى(١). إذن .. فمبدأ صعود واحد من البشر من الأرض، لا يزال على قيد الحياة البشرية المادية إلى السماء هو أمر وارد، والخلاف يكون من المدة الزمنية. والمدة الزمنية لا تنقض مبدأ. سواء

= من كان فى البيت مع المسيح؛ فإنهم شاهدوا رفعه. وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال: إنه خاطبها والله أعلم، وهذا كله من امتحان الله عباده لما له فى ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره فى القرآن العظيم، الذى أنزله على رسوله الكريم،المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات، فقال تعالى وهو أصدق القائلين ورب العالمين المطلع على السرائر والضمائر الذى يعلم السر فى السموات والأرض العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أى رأوا شبهه فظنوه إياه ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ يعنى بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلمه إليهم من جهل النصارى كلهم فى شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر ولهذا قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾ أى وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً﴾ أى منيع الجناب لايرام جنابه ولا يضام من لاذ ببابه ﴿حَكِيماً﴾ أى فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التى يخلقها وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم.

[تفسير ابن كثير: ١ / ٥٤٣، ٥٤٤]

(١) أخرج مسلم [٢٦٧] عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلة أُسْرِى بى على موسى بن عمران عليه السلام رجل آدَم طُوَالٌ جَعْدٌ كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس». وأُرِىَ مالكاً خازن النار، والدَّجَّال. فى آياتٍ أَرَاهُنَّ اللَّه إيَّاهُ ﴿فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣].

قال: كان قتادة يُفَسِّرُهَا أن نبى الله ﷺ قد لقى موسى عليه السلام.

صعد وبقى فى السماء دقائق أو ساعات أو شهوراً. إذن. . فقد ظن اليهود وقالوا : إنهم قتلوه وصلبوه.

وقد قال المسيح عليه السلام: أيكم يلقى شبهى عليه وله الجنة ؟ فماذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة، لقد قدم عيسى عليه السلام الجائزة الكبرى لمن يدفع الثمن من أتباعه، وقبل واحد من الحواريين هذه المهمة ويقال له : «سرجس»، فألقى شبه المسيح عيسى عليه فقتله اليهود[1] . وقيل: إنه حينما عُرِف بعض من الذين ذهبوا لقتل عيسى أنه رفع ، خافوا أن تنتشر هذه الحكاية بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى، وقد ينتقم الناس من الذين أرادوا قتله؛ لذلك جاء القتلة بواحد وقتلوه، وألقى على هذا القتيل شبه عيسى ابن مريم ، أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا عيسى لليهود ، ولكن لما رأى المشهد ووجد المتربصين بعيسى يدخلون على الحواريين وفيهم عيسى؛ سأل المتربصون الحواريين: أيكم عيسى؟ فاستيقظت ملكة التوبة فى نفس الذى وشى بعيسى وقاده تأنيب الضمير على خيانة الرسول إلى أن قال: أنا عيسى. ولم يتصور المتربصون أن يجيب إنسان على قولهم: أيكم عيسى، إلا وهو عيسى بالفعل؛ لأن مشهد المتربصين يوحى بأنهم سيقتلون عيسى. فقتلوا الذى اعترف على نفسه دون تثبُّت. إن هذا الذى باع عيسى باعه مقابل ثلاثين ديناراً، واختلط الأمر على القوم، فقتلوا الواشى ولم يظفروا بعيسى ابن مريم عليه السلام.

ونحن كمسلمين لا نهتم اهتماماً كبيراً بهذه الروايات، ولكن المهم أنهم قالوا: قتلنا عيسى وصلبناه فقال الله تعالى: ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾ ، كيف حدث ذلك ؟ بأن رفعه الله إليه وانتهت المسألة بالنسبة لنا؛ لأننا كمؤمنين لا نأخذ الجزئيات الدينية أولاً. نحن نؤمن أولاً بمُنزِّل

---

(١) قال السيوطى : ﴿ **وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾ أخرج ابن جرير عن ابن إسحاق أن الذى ألقى عليه شبهه رجل من الحواريين اسمه سرجس . [مفحمات الأقران : ٣٦]

هذه الجزئيات ونصدق من بعد ذلك كل ما جاء من الحق سبحانه وتعالى . والبحث فى هذه المسألة لا يعنينا فى شىء، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ .

إن قول الحق عز وجل : ﴿ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ يدلنا على عدم تثبت القتلة من شخصية القتيل، وهذا أمر متوقع فى مسألة مثل هذه؛ حيث يمكن أن تختلط الأمور . إننا فى حياتنا اليومية نرى أن حادثة يمكن أن تحدث فى وجود أعداد كبيرة من البشر وهم ينظرون إليها، ومع ذلك تقع الحادثة، وتختلف فيها الروايات، وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة، ورغم ذلك تختلف الروايات، فما بالنا بوجود حادثة مثل هذه، فى زمن قديم لا توجد كل الاحتياطات التى نراها فى زماننا ؟! كان لابد أن تضطرب الآراء، والروايات فى تلك الحادثة، ولكن يكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ . إن الحق سبحانه وتعالى يخاطب العقل كثيراً لأنه ميزنا به، إن الله سبحانه وتعالى خالق رحيم لا يورد نصاً إلا وهو يتوافق مع العقل السليم ، وإن لم يتفق، فالأمر يرجع إلى قصور فى فهم العقل ؛ذلك لأن الأمر من الله، ومادام الأمر من الله فلا بد من التسليم المطلق. إن الأمر الذى قد تقف فيه العقول يتناوله الحق سبحانه وتعالى تناولا موسعا رحمة بالمكلفين.

وقول الحق : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران: ٥٥].

إن علينا أن ننتبه إلى واو العطف بين متوفيك ورافعك ،فمن قال: إن واو العطف تقتضى الترتيب ، ومن قال: إن واو العطف تقتضى الجمع فقط، كقولنا :جاء زيد وعمرو ، وهذا يعنى أن زيدًا جاء مع عمرو أو أن زيدًا جاء أولا أو أن عَمرًا جاء أولاً، وتبعه زيد. إن واو العطف لا تقتضى

الترتيب وإنما مقتضاها هو الجمع فقط . لكن لو قلنا: جاء زيد فعمرو، فزيد هو الذى جاء أولا وتبعه عمرو؛ لأن الفاء تقتضى الترتيب والتعقيب. إن الواو تأتى لمطلق الجمع، ولا تتعلق بكيفية الجمع، وقد قال الحق سبحانه: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ هذا الضرب من الجمع لا يدل على أن الوفاة قد تمت قبل الرفع ، ودليلنا على ذلك أن الحق سبحانه أنزل فى القرآن آيات تدل على هذا، كقوله سبحانه : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأحزاب:٧].

إن الحق قد أخذ الميثاق من محمد ﷺ، وجمع معه نوحاً وإبراهيم فهل هذا الجمع يقوم على الترتيب؟ لا عليهم السلام؛ لأن نوحًا كان متقدمًا جدا فى موكب الرسالات وسبق رسول الله ﷺ بقرون طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون.

إذن .. فالواو لا تقتضى الترتيب فى الجمع. إذن .. لماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر الرفع ؟ إن ذلك يُعلم منه أن الوفاة أمر مقطوع به؛ لكن الرفع مجرد عملية مرحلية فجاء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ .

والإنسان منا خلقه الله سبحانه وتعالى مادةً وفى داخلها الروح، وعندما يريد الحق أن يُنهى حياة إنسان ما،فهو يقبضه بدون سبب فى البنية ويموت حتف أنفه (١) ، إما إذا ما ضرب إنسان إنسانا ضربة عنيفة على رأسه، فالمضروب أيضا يموت؛لأن الروح لا تحل فى جسم به عطب شديد.

إذن .. فالحق سبحانه وتعالى قال لعيسى: أنا آخُذك إلىَّ ورافعك مستوفياً ليس بجسدك أى نقض لبنيتك أو هدم لها أو بعضها؛ إنى آخذك

---

(١) ماتَ حَتْفَ أَنْفه : ويُرْوَى : « حَتْفَ أنفيْه » و « حَتْفَ فِيهِ » أى مات ولم يُقْتَل ، وأصلُهُ أن يموتَ الرَّجل على فراشه فتخرج نفسه من أنفه وفمه .

[مجمع الأمثال للميدانى: ٣/ ٢٤٧]

كاملا فقوله : ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ يعنى الأخذ كاملاً دون نقض فى البنيان؛ ولذلك فنحن نفرق بين القتل والموت . فالموت هو أن تقبض الروح حتف الأنف، أما القتل فهو هدم البنية فتزهق الروح ،والدليل على ذلك أن الحق قال فى كتابه الكريم: ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ... ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

إذن.. فحين قال بنو إسرائيل : إنهم قتلوا عيسى ابن مريم عليه السلام كذبهم الحق تبارك وتعالى وقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ ورفعه الله عز وجل إليه كاملاً. إنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾. إن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا: إن القوم تيقنوا أنهم لم يقتلوه، لكنهم شكوا فى مسألة القتل(١). لم يعرف المتربصون لقتل

---

(١) قال القرطبى : قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ قال ابن عباس والسدى : المعنى ما قتلوا ظنهم يقيناً ؛ كقولك : قتلته علماً إذا علمته علماً تامًا ؛ فالهاء عائدة على الظن. قال أبو عبيد : ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقيناً لقال : وما قتلوه فقط. وقيل : المعنى وما قتلوا الذى شبه لهم أنه عيسى يقيناً، فالوقف على هذا على ﴿يَقِينًا﴾ وقيل: المعنى وما قتلوا عيسى، والوقف على ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ و ﴿يَقِينًا﴾ نعت لمصدر محذوف، وفيه تقديران : أحدهما : أى قالوا هذا قولاً يقيناً ، أو قال الله هذا قولاً يقيناً . والقول الآخر: أن يكون المعنى وما علموه علماً يقيناً . النحاس: إن قدرت المعنى بل رفعه الله إليه يقيناً فهو خطأ؛ لأنه لا يعمل ما بعد ﴿بَل﴾ فيما قبلها لضعفها. وأجاز ابن الأنبارى الوقف على ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ على أن ينصب ﴿يَقِينًا﴾ بفعل مضمر هو جواب القسم ، تقديره : ولقد صدّقتم يقينا أى صدقاً يقيناً ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء:١٥٨]. ابتداء كلام مستأنف؛ أى إلى السماء، والله تعالى متعال عن المكان؛ وقد تقدم كيفية رفعه فى «آل عمران». ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ أى قويًا بالنقمة من اليهود فسلط عليهم بطرس بن أستيسانوس الرومى فقتل منهم مقتلة عظيمة. ﴿حَكِيمًا﴾ حكم عليهم باللعنة والغضب .

[تفسير القرطبى: ٦/ ١٠]

عيسى هل قتلوا عيسى أم تطيانوس أم سرجس ؟ .

نحن قد عرفنا من قبل معنى النسب فحينما ينسب الإنسان شيء إلى شيء فهو يتبع إحدى النسب المعينة، فإن قال قائل: ذاكر محمد، فإن «ذاكر» حدث نسبه القائل إلى محمد. والنسبة تأتي على خمسة أوجه:

نسبة علم : وهى النسبة المتيقنة المقطوع بها، وتقدر على إقامة الدليل عليها.

ونسبة جهل: وهى أن يقول قائل بقضية: كأنها وقعت وهى لم تقع قط، والقائل يعلم أن قوله مخالف للواقع.

ونسبة شك: وهى التى يتساوى فيها الأمران ؛حدوث الحدث، أو عدم حدوثه، والشك نسبة متأرجحة.

ونسبة ظن: وهى التى يترجّح فيها أمر على أمر فالظن نسبة راجحة.

ونسبة وهم:وهى التى يقلّد فيها قائل ما سمعه ويردده،دون أن يستطيع إقامة الدليل عليه،كقول الطفل مُقَلّداً أباه: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ إن الطفل لا يستطيع أن يدلل على أن الله أحد، ولكنه يقلد أباه أو أمه أو أستاذه، فإن تعلم الطفل من بعد ذلك أن يقيم عليها الدليل صارت نسبة علم.

إذن. . فالعلم يطلب واقعة يقوم عليها الدليل. أما الجهل فهو أن يعلم القائل أن ما يقوله مخالف للواقع. والفرق بين الجهل والأمية: أن الجاهل يقول ما يخالف الواقع وهو يعلم ذلك، أما الأمى فهو لا يعلم. إذن، فالجاهل يحتاج إلى نزع الباطل منه وإعطائه الحق المتيقن؛ ولذلك نجد أن الجهلاء هم الذين يرهقون أهل العلم؛ لأن الجاهل يعرف قضية مخالفة للواقع، فيحاول العلماء أن يصححوا له معلوماته.

والحق سبحانه وتعالى جاء بنسبتين متقابلتين، فبعد أن نفى سبحانه تعالى نبأ مقتل عيسى ابن مريم عليه السلام قال : ﴿ **وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا**

فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ . والنسبة الأولى المذكورة هنا هى الشك، والشك كما قلنا: نسبة يتساوى فيها الأمران، والنسبة الثانية هى إتباعهم للظن، والظن نسبة راجحة لقد بدا الأمر بالنسبة إليهم شكّا، ثم انقلب ظناً. وقد تنتهى من بعد ذلك إلى علم يقين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ إن الله سبحانه وتعالى ينفى أنهم قتلوه يقيناً. واليقين هو الأمر الثابت الذى لا يتغير، فهو أمر معقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد. واليقين كما علمنا له مراحل:

مرحلة العلم: واسمها علم اليقين.

ومرحلة العين: واسمها عين اليقين.

ومرحلة الحقيقة: واسمها حق اليقين.

فعندما يخبرنا أحدٌ أن جزءًا من «نيويورك» اسمه مانهاتن وأن « مانهاتن» هذه هى جزيرة عدد سكانها عشرة ملايين نسمة، وفيها ناطحات سحاب، فهذا الخبر جاء من إنسان لانعرف عنه الكذب فيسمعه من لم ير «نيويورك» فيصبح هذا الخبر عنده علماً متيقناً. هذا علم يقين لأن الذى أخبر به موثوق به، وإذا جاء آخر ووجه للسامع من «نيويورك» دعوة لزيارتها، ولبى السامع الدعوة وذهب إلى «نيويورك» هنا نقول : انتقل الخبر من علم اليقين إلى عين اليقين، وإذا جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به. فى كل شوارعها ومبانيها، فهذا هو حق اليقين. وأسمى أنواع اليقين هو حق اليقين، وقبلها عين اليقين، وقبل عين اليقين هناك علم اليقين . والحق سبحانه وتعالى حينما عرض لهذه المسألة قال : ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)﴾ [التكاثر] إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا علم اليقين ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن

يروه؛ وسيرى المؤمنون النار وهم على الصراط ؛ وذلك عين اليقين . أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق؛ فهناك من يدخل الجنة ولا يدخل النار، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة وهناك من يدخل النار ثم يدخل الجنة، إن الكافرين بالله هم الذين سيرون الجحيم، حق اليقين. ويأتى حق اليقين فى موضع آخر من القرآن الكريم : ﴿ **وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥)** ﴾ [الواقعة]. إن كل مكذب ضال سينزل إلى الجحيم ويَصْلَى الجحيم ويعانى من عذابها حق اليقين .

إذن . . فقول الحق سبحانه وتعالى عن مسألة قتل عيسى ابن مريم عليه السلام قال: ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا** ﴾ هذا القول يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث تصديق علم يقين؛ لأن الله هو القائل، والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه، ولكنهم شكّوا فى ذلك. أما الذى باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذى عرف حقيقة اليقين .

وخلاصة القول أن الذى حدث هو أنْ :

﴿ **رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: ١٥٨] ، لقد رفعه الله وهو الذى لا يغلبه أحد على الإطلاق، فهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد، فإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، فالله غالب على أمره، وهو العزيز الحكيم ؛ عزيزٌ فى حكمه ، حكيمٌ فى تدبير مُلْكه.

* نجاه الله ورفعه إليه *

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾(1) [النساء: ١٥٧].

الذين ادعوا ألوهية عيسى أو أنه ابن الإله الخالق ، كان الواجب عليهم أن يعترضوا على مسألة الصلب هذه، فكيف يقولون بألوهية أو ببنوّة ألوهية ثم يجيء أعداؤه فيقدرون عليه ويقتلونه ويصلبونه؟ إنه بذلك يكون قد انقلب من قادر إلى مقدور عليه، إنه بذلك يكون بشراً يَقدِر عليه غيره من البشر .

إذن . . فعندما يأتى الإسلام ويبرئ عيسى عليه السلام من هذه المسألة،

(1) عن ابن عباس قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء، خرج على أصحابه وهم فى بيت ، اثنا عشر رجلا ، ورأسه يقطر ماءً ، فقال : أيكم يلقى شبهى عليه ، فيقتل مكانى فيكون معى فى درجتى ؟ فقام شاب من أحدثهم سنًّا، فقال : أنا . فقال : اجلس . ثم أعاد عليهم . فقام الشاب فقال : أنا . فقال: اجلس ، ثم أعاد عليهم الثالثة ، فقال الشاب : أنا . فقال عيسى عليه السلام : نعم أنت ، فألقى عليه شبه عيسى عليه السلام ، ثم رُفع عيسى من روزنة كانت فى البيت إلى السماء ، وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشاب للشبه . فقتلوه ثم صلبوه . فتفرقوا ثلاث فرق . فقالت فرقة : كان فينا الله عز وجل ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية . وقالت طائفة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه فهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان فى المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ فأنزل الله عز وجل : ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ [الصف: ١٤] يعنى: الطائفة التى كفرت فى زمان عيسى ، عليه السلام.=

= والطائفة التى آمنت فى زمان عيسى ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾.

أخرجه النسائى فى الكبرى [١١٥٩١] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ وأضاف هذا القول إليهم وذمهم عليه ، ولم يذكر النصارى؛ لأن الذين تولوا صلب المصلوب المشبه به هم اليهود ، ولم يكن أحد من النصارى شاهدًا معهم ؛ بل كان الحواريون خائفين غائبين، فلم يشهد أحد منهم الصلب ، وإنما شهده اليهود وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح والذين نقلوا أن المسيح صلب من النصارى وغيرهم إنما نقلوا عن أولئك اليهود وهم شُرَطٌ من أعوان الظلمة ، لم يكونوا خلقاً كثيرا يمتنع تواطؤهم على الكذب .

وقال فى موضع آخر وقوله تعالى : ﴿ ... وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) ﴾ [النساء] . بيان أن الله رفعه حيا وسلمه من القتل ، وبين أنهم يؤمنون به قبل أن يموت . وكذلك قوله : ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولو مات لم يكن فرق بينه وبين غيره .

معنى التوفى:

ولفظ التوفى فى لغة العرب معناه : الاستيفاء والقبض . وذلك ثلاثة أنواع :

أحدها : توفى النوم .

والثانى : توفى الموت .

والثالث : توفى الروح والبدن جميعًا .

فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلى الأكل والشرب واللباس . ويخرج منهم الغائط والبول . والمسيح عليه السلام توفاه الله وهو فى السماء الثانية إلى أن ينزل إلى الأرض ، ليست حاله كحالة أهل الأرض فى الأكل والشرب واللباس والنوم والغائط والبول ونحو ذلك .

الوجه الثالث: قولهم أنه عنى بموته عن موت الناسوت كان ينبغى لهم أن يقولوا على أصلهم: عنى بتوفيته عن توفى الناسوت. وسواء قيل: « موته أو توفيته » ، فليس =

= هو شيئا غير الناسوت ، فليس هناك شيء غيره لم يتوقف الله تعالى قال : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] . فالمتوفى هو المرفوع إلى الله .

وقولهم : « إن المرفوع هو اللاهوت » مخالف لنص القرآن ، ولو كان هناك موت فكيف إذاً لم يكن ، فإنهم جعلوا المرفوع غير المتوفى . والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفى . وكذلك قوله فى الآية الأخرى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ هو تكذيب لليهود فى قولهم : ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ واليهود لم يدَّعوا قتل لاهوت ، ولا أثبتوا لله لاهوتا فى المسيح ، والله تعالى لم يذكر دعوى قتله عن النصارى حتى يقال : إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت ؛ بل عن اليهود الذين لا يثبتون إلا الناسوت .

وقد زعموا أنهم قتلوه ، فقال تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ فاثبت رفع الذى قالوا إنهم قتلوه . وإنما هو الناسوت ، فعلم أنه هو الذى نفى عنه القتل وهو الذى رفع . والنصارى معترفون برفع الناسوت ، لكن يزعمون أنه صلب وأقام فى القبر إما يوماً وإما ثلاثة أيام ، ثم صعد إلى السماء ، وقعد عن يمين الأب الناسوت مع اللاهوت .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ معناه أن نفى قتله هو يقين لا ريب فيه بخلاف الذين اختلفوا بأنهم فى شك منه من قتله وغير قتله ، فليسوا مستيقنين أنه قتل ، إذ لا حجة معهم بذلك .

ولذلك كانت طائفة من النصارى يقولون : إنه لم يصلب ، فإن الذين صلبوا المصلوب هم اليهود . وكان قد اشتبه عليهم المسيح بغيره كما دل عليه القرآن . وكذلك عند أهل الكتاب أنه اشتبه بغيره ، فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك حتى قال لهم بعض الناس : أنا أعرفه . فعرفوه . وقول من قالوا : معنى الكلام ما قتلوه علماً ؛ بل ظنًّا قول ضعيف .

الوجه الرابع : أنه قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فلو كان المرفوع هو اللاهوت لكان رب العالمين قال لنفسه أو لكلمته ﴿ إِنِّي رَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ . وكذلك قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ فالمسيح عندهم = هو الله .

فهو يعين أتباع عيسى على تبرئته من القتل والصلب، وكان يجب أن يتلقف أتباع عيسى عليه السلام قول الله عز وجل فى هذه القضية: ﴿ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ ليؤمنوا به ويعملوا به .

ويقول ربنا وهو أصدق القائلين: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾

فالنصارى زاعمو التبيعة لعيسى عليه السلام يقولون بالرفع، ولكن بعد الصلب، ونحن- المسلمين - نقول بالرفع ولا صلب ؛ ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾.

والذين يقفون عند هذه المسألة يجب عليهم ألا يقفوا؛ لأن قصة عيسى عليه السلام بدأها الله بمعجزة، وهى أنه ولد من أم دون أب ، فإن كنتم قد صدقتم بالمعجزة فى الميلاد ، فلماذا لا تصدقون بها فى مسألة الرفع ؟!

وإذا كان فينا نحن المسلمين من يقول : إن عيسى عليه السلام مات ولن ينزل . نقول لهؤلاء : ماذا تقولون فى نبيكم محمد ﷺ ؟ أعُرِج به إلى

= ومن المعلوم أنه يمتنع رفع نفسه إلى نفسه . وإذا قالوا : «هو الكلمة» فهم مع ذلك أنه الإله الخالق لا يجعلونه بمنزلة التوراة والقرآن ونحوهما مما هو كلام الله الذى قال فيه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠] . بل عندهم هو الله الخالق الرازق رب العالمين. ورفع رب العالمين إلى رب العالمين ممتنع .

الوجه الخامس : قوله : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧] ، دليل على أنه بعد توفيته لم يكن الرقيب عليهم إلا الله دون المسيح ، فإن قوله : ﴿ كُنتَ أَنتَ ﴾ يدل على الحصر ، كقوله : ﴿ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونحو ذلك . فعلم أن المسيح بعد توفيته ليس رقيبا على أتباعه ، بل الله هو الرقيب المطلع عليهم ، المحصى أعمالهم ، المجازى عليها ، والمسيح ليس برقيب، فلا يطلع على أعمالهم ولا يحصيها، ولا يجازيهم بها.
[التفسير الكبير: ٤ / ١٨٢ : ١٨٧] بتصرف

السماء ؟ سيقول المسلمون : نعم . ونقول لهم : ألم يكن رسول الله ﷺ حيًا بقانون الأحياء ؟ سيقولون : نعم كان حيا بقانون الأحياء . ونقول : وظل رسول الله ﷺ مدة وجيزة فى السماء ثم نزل إلينا . إذن . . فالمسألة فى أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حى وما يزال حيًا ثم ينزل إلى الأرض . . هذه المسألة ليست عجيبة ، والخلاف بين رفْع عيسى عليه السلام وصعود محمد ﷺ بالمعراج ، هو خلاف فى المدة ، ولنا أن نعرف أن الخلاف فى المدة لا يقتضى خلافًا ؛ المهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته وظل فترة من الزمن بحياته. إذن . . مسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدةٍ أمر وارد فى شريعتنا الإسلامية (١) .

ويقول الحق فى هذه المسألة تأكيداً لهذه القضية: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء: ١٥٩].

قد يقول السامع لهذه الآية : إنهم أهل كتاب ولابد أن يكونوا قد آمنوا به . ونقول: لا . . لقد آمنوا به إيماناً مرادًا لأنفسهم وليس الإيمان المراد لله،

(١) قال أبو حيان الأندلسى : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ هذا إبطال لما ادَّعوه من قتله وصلبه ، وهو حى فى السماء الثانية على ما صحَّ عن الرسول ﷺ فى حديث المعراج (١) . وهو هنالك مقيم حتى ينزله الله إلى الأرض ؛ليقتل الدجَّال وليملأها عدلاً كما مُلِئَتْ جورًا ، ويحيا فيها أربعين سنة ، ثم يموت كما تموت البشر.

[البحر المحيط : ١٢٨/٤]

(١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن مالك بن صعصعة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى حديث الإسراء والمعراج : « . . . فأتينا السماء الثانية ، قيل : من هذا ؟ قال: جبريل، قيل : من معك ، قال : محمد ﷺ ، قيل : أُرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به، ولنعم المجيء جاء ، فأتيت على عيسى ويحيى ، فقالا : مرحبًا بك من أخٍ ونبى . . . »

أخرجه البخارى [٣٢٠٧ ، ٣٣٩٣ ، ٣٤٣٠ ، ٣٨٨٧] واللفظ له،ومسلم [١٦٤]، وأحمد فى المسند [٢٠٧/٤، ٢٠٨] .

لقد آمنوا به إلهاً أو جزءاً من إله أو ابن إله ، ولكن الله يريد أن يؤمنوا به على أنه بشر وأنه رسول وأنه عبد ، فإذا قال الحق : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ .

إن هذا القول معناه : ما من أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أن يموت .

وقلنا فى اختلاف الضمائر : إن « الهاء » الموجودة فى قوله: ﴿ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ يرجع هذا الضمير إلى عيسى . . فسوف يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب بمراد الله كعبدٍ بشرٍ ورسولٍ ، والضمير الآخر الموجود ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾؛ يرجع إما إلى عيسى أى قبل موت عيسى ، أى إن عيسى لم يمتْ الميتة الحقيقية التى تنهى أجله فى الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبداً ورسولاً وبشراً، ولا يؤمنون به إلا إذا جاء بلحمه ودمه ، ويقول لهم : أنتم مخطئون فيما اعتقدتم ، وأنتم مخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمدٍ النبى الخاتم ﷺ . وأنتم مخطئون فى اتهامكم لأمى، والدليل على خطئكم هو أننى جئت لأدعوكم للإيمان بالرسول الخاتم محمد ﷺ ، وهأنذا أصلّى خلف واحد من أمة ذلك الرسول.

وذلك يدل على أن عيسى عليه السلام لن يأتى بتشريع جديد ؛ بل إنه ساعة نزوله، سيجد الصلاة قائمة فيصلى خلف واحد من المؤمنين بمحمد ابن عبد الله ﷺ. حين يصنع عيسى ابن مريم ذلك ماذا سيقول إذن الذين فتنوا فيه ؟ لا شك أنهم سيعلنون الإيمان برسالة محمد ﷺ ، أو أن كل كتابيٍّ من الذين عاشوا فى المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشرٍ ورسولٍ وعبدٍ ، قبل أن يموت ولو فى غيبوبة النهاية. إن الآية يصح أن تكون عامة؛ فالحق قال فيها : ﴿ وَإِن مِّنْ

أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ .

إن الضمير فى الآية قد يعود إلى كل كتابيٍّ قبل أن يموت (1) ؛ لأن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويحجب اليقين ، وغرور الحياة يدفع إلى ذلك ؛ فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق انتهى كل شيء يبعد الإنسان عن منهج الحق واليقين .. ولا تبقى إلا القضايا بحقها وصدقها ويقينها ، وتستيقظ النفس البشرية على لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ، ويسقط غرور الحياة ويراجع الإنسان نفسه فى هذه اللحظة . ويقول الكتابىّ فى تلك اللحظة لنفسه : أنا اتبعت هوى نفسى فى أننى جعلت عيسى إلهاً ، ولكن هل ينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبه ؟! لا ، لا ينفع إيمان الإنسان حال موته، فإنه فى تلك الساعة عاين كل شيء وكشف عنه الحجاب وعرف مقعده فى الجنة أو فى النار ، وحينئذ لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل ولا كسبت فى إيمانها خيراً .

إن إيمان فرعون لحظة الغرق لم ينفعه وكذلك إيمان أىٍّ من أهل الكتاب قبل الموت . لقد قال عز وجل : ﴿ **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٨] .

---

(1) روى ابن أبى حاتم بسنده : [٦٢٤٨] عن ثابت البنانى قال: سمعت الحسن فى قوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال : النجاشى وأصحابه .

وروى بسنده أيضاً : [٦٢٤٧] عن الضحاك عن ابن عباس قوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ قال : اليهود خاصة .

وروى بسنده [٦٢٥٠] عن هارون الغنوى ، سمع عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال: لو أن يهوديًا وقع من حائط إلى الأرض لم يمت حتى يؤمن به يعنى : بعيسى عليه السلام .

إن قول الله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ لا أحد من أهل الكتاب إلا وهو سيؤمن بعيسى قبل أن يموت عيسى أو قبل أن يموت الكتابيّ. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ .

إن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصر نزوله فى الدنيا (١) ، وسيرونه يصلى خلف واحد من أمة محمد ﷺ (٢) ، وبعد ذلك يكسر الصليب ويقتل الخنزير كما يشهد يوم القيامة على السابقين من أهل الكتاب الذين قالوا إنه إله أو ابن إله ، يحدث ذلك فى موقف مهيب يوم يجمع الله الناس للحساب ويستدعى عيسى عليه السلام للشهادة على قومه فيسأله: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ .

---

(١) روى ابن أبى حاتم بسنده: [٦٢٥٧] ، عن سعيد عن قتادة قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يقول: يوم القيامة على أنه قد بلَّغ رسالات ربه وأقرَّ بالعبودية على نفسه .

ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩] .

وقوله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] .

وقال القرطبى: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أى: بتكذيب من كذَّبه ، وتصديق من صدَّقه . [تفسير القرطبى: ٦/ ١٢]

(٢) عن أبى الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت النبى ﷺ يقول: « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال: فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا . فيقول: لا. إن بعضكم على بعضٍ أمراءُ. تكرمة الله هذه الأمة » . أخرجه مسلم [١٥٦]

سؤال واضح صريح محدد وعلى رؤوس كل الخلائق وفى حضور أنبياء الله وملائكته . . فماذا يكون جواب نبى الله عيسى عليه السلام : ﴿ **قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾ .

هكذا ستكون شهادة عيسى ابن مريم على من اتخذوه وأمه إلهين مع الله .

* وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدًا *

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) ﴾(١) [مريم].

---

(١) قال ابن كثير : لما قرر تعالى فى هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع فى مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً تعالى وتقدّس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً فقال : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ ﴾ أى فى قولكم هذا ﴿ شَيْئًا إِدًّا ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك أى عظيماً ويقال إداً بكسر الهمزة وفتحها ومع مدها أيضاً ثلاث لغات أشهرها الأولى وقوله : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) ﴾ أى يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بنى آدم إعظاماً للرب وإجلالاً لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ولا نظير له ولا ولد له ولا صاحبة له ولا كفء له بل هو الأحد الصمد :

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

وقوله : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ أى لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له .

[تفسير ابن كثير: ٣/ ١٣٥ ، ١٣٦] بتصرف

وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «قال الله تعالى: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى: وليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته، وأما شتمه إياى فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد، ولم يكن لى كفواً أحد».

أخرجه البخارى [٤٩٧٤]

الذين قالوا هذا الكلام قالوه بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح عليه السلام؛ لأنه قبل ذلك لم يقل أحد هذا الكلام، فما الذى زاد فى ملك الله بعد أن جاء الولد ؟! الشمس هى الشمس، والنجوم هى النجوم، والأرض هى الأرض، والهواء هو الهواء . فالذى نظم هذا الكون منذ بدء الخليقة لا يحتاج إلى ولد يساعده فى هذا الأمر. إذن . . فموضوعية اتخاذ الولد عبث ؛ لأنه لم يزد شىء فى الملك على يد هذا الولد، فلم تكن هناك صفة معطلة عند الحق سبحانه وتعالى. . ولما جاء الولد كمل الكون بهذه الصفة؟!! تعالى الله عن ذلك؛ لأن الصفات الكمالية لله قبل أن يخلق أى شىء؛ فهو خالق قبل أن يخلق ورازق قبل أن يرزق، ومُحْيٍ قبل أن يحيى، ومميت قبل أن يُوجَد مَن يموت فكل صفات الكمال موجودة قبل متعلقاتها؛ فصفات الله أزلية .

قال تعالى فى سورة الكهف ردًا على افترائهم : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥].

وهنا قال : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) ﴾ [مريم] .

الإدّ :هو المتناهى فى النُّكر والفظاعة، من أَدَّه الأمر إذا أثقله ولم يقوَ عليه[1]، ولذلك يقول سبحانه فى آية الكرسى : ﴿ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥].

---

(١) الإد والإدة : العجب والأمر الفظيع العظيم والداهية، وكذلك الآد مثل فاعل، وجمع الإد : إداد، وجمع الإدة: إدد؛ وأمر إد وضف به؛ هذه عن اللحيانى. وفى التنزيل : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ ؛ قراءة القراء إدًا، بكسر الألف، إلا ما روى عن أبى عمرو أنه قرأ: أدًا. قال : ومن العرب من يقول لقد جئت بشىء آد مثل ماد، قال : وهو فى الوجوه كلها بشىء عظيم؛ وأنشد ابن دريد : =

أى لا يثقله حفظهما . فكأنهم جاءوا بكذبة لا تتحملها الجبال. واتخاذ الولد لـه مقاصد : منها أن يكـون لك عـزوة وتزداد به قوة، وربـنا سبحانـه لا يحتاج لشيءٍ من ذلك فهو العزيز القوى عن كل شيءٍ . كذلك أنت تتخذ الولد؛ ليكون لك ذكر بعد موتك،وربنا لا يحتاج هذا لأنه حى لا يموت وبقاؤه لا يتناهى ، كذلك أنت تتخذ الولـد ليرث تركتك بعـد مماتك ، والله لا يحتاج هذا، فهو سبحانه يرث الأرض ومن عليها. إذن . . اتخاذ الولد ليس له علّة عند الحق سبحانه، كما أن اتخاذ الولد ينفى سواسية العبودية لله؛ لأن الله يريد أن يكون خلقه سواسية، فإذا صار له ولد تنتفى السواسية .

ومعنى قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا** ﴾ أى: فظيعاً ومنكراً ومستبشعاً، ومادام شيئاً منكراً فلا ينكره المكلفون من الإنس والجن[1] فقط، ولكن تنكره الأشياء التى لم تكلف من الجبال والسماوات وغيرها، ولذلك يقولون هذا أمر تهتز له السموات السبع .

ومعنى قوله : ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ** ﴾ .

= يـا أمنـــا ركـبت أمـــرا إدا
رأيت مشبوح الـذراع نهـــدا
فنـلت مـــنه رشـفـاً وبـــردا

والإد : الداهية تئد وتؤد أدا. قال ابن سيده : وأرى اللحيانى حكى تأد، فإما أن يكون بُنى ماضيه على فعل، وإما أن يكون من باب أبى يأبى.

وأده الأمر يؤده ويئده إذا دهاه. الليث : يقال أدت فلاناً داهية تؤده أدا، بالفتح؛ قال رؤبة: والإدد الإداد والعضائلا.

والإد، بكسر الهمزة : الشدة. [لسان العرب ٣/ ٧١].

(١) قال تعالى حكاية عن الجن الذين آمنوا : ﴿ **وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥)** ﴾ [الجن] .

أى تتشقق وتنفطر ولكنها لم تنفطر؛ لأن الله تعالى يمسك السماوات والأرض أن تزولا، فالحيثية فى انفطار السماء وانشقاق الأرض وخر الجبال: أنهم دعوا للرحمن ولدا ، وردّ الحق سبحانه وتعالى على هذا الزعم بقوله : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ .

هناك شىء اسمه نفى الحدث وشىء اسمه نفى ابتغاء الحدث ، فمعنى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ أى: أنه سبحانه لو أراد اتخاذ الولد فلن يمنعه أحد، ولكنه لم يفعل ولم يُرِد، وأنكر ذلك على من زعموه كذباً وزوراً فنفى الابتغاء يدل على أن الحدث إن أراده الله كان، ولكن لا ينبغى له أن يتخذ ولداً، لماذا ؟لأن الولد حتى ولو كان ولداً باراً وطائعاً، فالله تعالى غير محتاج له ؛ لأن الكل عبيده ولا يستطيع أحد أن يتمرد عليه؛ لأنه قادر عليهم جميعاً ،فهم فى قبضته ورهن مشيئته.

ثم قال تعالى تأكيدًا لذلك : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣].

فكل المخلوقات عابدة لله، وحتى الذين كفروا لم يخرجوا عن أنهم عبيد لله؛ لأن الإنسان فيه منطقة اختيار، هذه المنطقة هى أن يفعل أو لا يفعل، ولكن أيضاً هناك منطقة قسر، فالكافر بما أعطاه الله من صفة الاختيار أن يكون طائعاً أو عاصياً ، مؤمناً أو كافراً، هذا الكافر اعتاد أن يخالف أوامر الله فى الأمور التى وضع له فيها اختياراً، فهذا الكافر الذى اعتاد على المخالفة والتمرد على الإيمان، لماذا لا يتمرد على المرض فلا يمرض ؟ ولماذا لا يتمرد على الموت فلا يموت ؟! وإذا افتقر لماذا لا يتمردّ على الفقر ويرفضه ؟!

إذن . . أنت لك حرية الاختيار فى أشياء؛ ومجبر على أشياء أخرى، وهذا فى الدنيا فقط، أما فى الآخرة فإن هذا الاختيار يسلب منك، فالمؤمنون حقًّا

هم الذين آثروا طاعة الله ، واختاروا رضاه واتباع نبيه ﷺ ؛ ولذلك فكل تصرفاتهم موافقة لما يريده الله ؛ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ [مريم] . قلنا : إن الإحصاء هو العدّ ، وكلمة الإحصاء مأخوذة من العدّ بالحصى الذى كان متبعاً قديماً؛ فربنا أحصى الناس وعدّهم عدًّا وكل إنسان يأتيه يوم القيامة بمفرده ؛ لا حاشية ولا حراس ولا عزوة ولا أولاد ولا جاه ولا سلطان ولا أى شيء!!

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء]. هذا تنزيه لله عن أن يكون له ولد ، فالحق سبحانه يقول: ليس لله ولدٌ بل عباد مكرمون، ومع أنهم مكرمون إلا أنهم لا يسبقونه بالقول ويطيعون أمر ربهم؛ فلا يعملون شيئاً لم يأمرهم به، فهم طوع أمره.

إذن. . آفة المجتمعات أن عظماءها يسبقون بالقول، ويعملون بأوامرهم لا بأمر الله!! وهم على خطر عظيم.

لقد خلق الله الليل مكملاً للنهار، والذكر مكملاً للأنثى، فإذا كان الله قد خلق التكامل فى المخلوقات فكيف يحاول بعض الناس أن ينفوا الكمال عن الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾[1] [يونس: ٦٨].

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيه له عن أن يجانس أحدًا، أو يحتاج إليه، وتعجب من كلمتهم الحمقاء. ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أى الذى وجوده =

الادعاء بأن لله سبحانه وتعالى ولداً نقصان فى كمال الله جل جلاله؛ ذلك أن الإنسان يتخذ الولد لعدة أشياء: إما ليكمل نقص الوجود؛ لأن عمره فى الدنيا محدود، ولذلك يريد أن تبقى ذكراه فى الدنيا، والله سبحانه وتعالى له كمال الوجود؛ فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، فَلِمَ يتخذ ولداً، وهو أصل الوجود، وله كمال الوجود سبحانه وتعالى؟! وإما أن يتخذ الإنسان ولداً؛ ليرثه فهو لا يريد أن يذهب ماله للآخرين ، إنما يريد امتداد ما يملك إلى ابنه.

والله سبحانه وتعالى هو مالك الملك دائماً وأبداً، وهو جل جلاله الذى يرث الأرض ومن عليها ومن فيها، له الملك وحده، وعندما يصعق من فى السموات ومن فى الأرض يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦].

= بذاته، وبه وجود كل شىء، فكيف يماثله شىء؟ ومَنْ له الوجود كله، فكيف يجانسه شىء؟ والجملة علة لتنزيهه، وإيذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة، إما للتقوى به، أو لبقاء نوعه ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ تقرير لغناه. أى فهو مستغنٍ بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ أى: ما عندكم من حجة بهذا القول الباطن، توضيح لبطلانه، بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض. أى ليس بعد هذا حجة تسمع. والمراد تجهيلهم، وأنه لا مستند لهم سوى تقليد الأوائل، واتباع جاهل لجاهل .

وقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ توبيخ وتقريع على جهلهم. قال الزمخشرى: لما نفى عنهم البرهان، جعلهم غير عالمين. فدلّ على أن كل قول لا برهان عليه لقائله، فذاك جهل وليس بعلم .

وقال أبو السعود: فيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها، فهى جهالة، وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعى ، وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به .

[تفسير القاسمى: ٣٣٧٨ ، ٣٣٧٩] بتصرف

لذلك فهو تبارك وتعالى ليس محتاجاً لأنْ يمتد ملكه؛ لأنه هو المالك الحقيقى لمن فى الأرض ومن عليها، ولكنا نملك مجازاً ولفترة محدودة، ولكن الحق سبحانه هو وحده الذى يملك حقيقة، واقرأ قوله تعالى: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران: ٢٦].

إذن.. فالملك لله وحده لا يزول عنه أبداً ،وهو ليس محتاجاً إلى ولد ليرث ملكه، أو لأى غرض آخر.

والإنسان يحتاج إلى ولد ليعطيه العزة والقوة، وهو فى شبابه قوى بذاته، وفى شيخوخته ضعيف بذاته قوى بأولاده، ولذلك فهو يريد الولد؛ ليكون له قوة عندما يضعف. والله سبحانه وتعالى هو القوى دائما الذى لا يضعف أبداً، وهو جل جلاله دائمُ القوة ، ولذلك فهو لا يحتاج إلى ولد.

إذن.. فكل الأسباب التى تجعل الإنسان يريد ولداً هى لاستكمال نقص: نقص فى العمر؛ لأن الإنسان عمره محدود ، ونقص فى الملك؛ لأن الإنسان يترك ما يملك عندما يموت، ونقص فى القوة؛ لأن الإنسان عندما يبلغ الكبر يضعف ويصبح محتاجاً إلى من يعينه ويدافع عنه. والله سبحانه وتعالى له الكمال كله منزه عن هذا النقص.

ثم كيف يتخذ الله ولدًا ؟ إذا كان قد خلقه فهو من خلق الله، وإذا كان لم يخلقه ولكن الابن خلق نفسه فإنه لا يصبح ابناً ولكنه يصبح إلهاً؛ لأنه خلق نفسه وأوجد نفسه، ومن هنا يصبح هناك إلهان وليس إله واحد، وأما أن يأتى الولد عن طريق أنثى، فالله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك؛ لأنه خلق آدم بدون ذكر أو أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى. إذن فهو ليس محتاجاً إلى أنثى ليخلق ولدًا؛ لأن طلاقة قدرته جل جلاله أوجدت آدم بدون ذكر أو

أنثى، وأوجدت حواء بدون أنثى. والأسباب مخلوقة لله سبحانه وتعالى، ولذلك فإن طلاقة قدرة الخالق هى التى تحكمها، فكيف نأتى ونجعل الأسباب تحكم خالقها ؟! وكيف نأتى إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى فى أنه يفعل ما يشاء، وأنه يقول للشيء كن فيكون، ثم نقيد طلاقة القُدرة بأنه يجب أن تكون هناك أنثى ليأتى الولد ، فكأننا ننقص من طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى فى كونه .

ثم من أين جاءت هذه الأنثى ؟ إذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلقها فهى من خلق الله وعباده، وإذا كانت قد خلقت نفسها فكأنها إله، وبذلك يكون عندنا ثلاثة آلهة بدلاً من إله واحد؛ وهنا يفسد الكون؛ لأن كل إله له أمر، وكل إله له خلق، وكل إله يريد أن يعلو على الآخر فتكون النتيجة كارثة[1] .

وإذا نظرنا إلى الآية الكريمة : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ [يونس: ٦٨].

فإن القرآن نفسه يكذبهم؛ لأننا عندما نقول اتخذ فلانٌ بيتاً فلابد أن فلاناً كانت له ذاتية قبل أن يوجد البيت، فقولهم: ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ .

فقبل أن يتخذ الله الولد أكانت له ذاتية مكتملة أم لا ؟ كانت له سبحانه وتعالى ذاتية مكتملة، وحتى هذا الولد اختلفوا فيه، فقال الكفار: الملائكة بنات الله . فردَّ الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) ﴾ [الصافات] .

أى عندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يتخذ ولداً أيتخذ الجنس الأقوى أم الجنس الأضعف ؟!

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .
وقال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ومرةً قالوا: إن الله قد اتخذ ولداً من الأنبياء، واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ .

والآية الكريمة: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾(١) ترد عليهم؛ لأنهم عندما قالوا ذلك فمعناه أن الولد قد جاء بعد أن وجدت ألوهية مستقلة لله سبحانه وتعالى، وبهذه الألوهية أخذ الولد، وأول أسباب الاتخاذ: الحاجة، فعندما تقول: فلانٌ اتخذ بيتاً؛ فإنه محتاج إلى بيت، ومعنى اتخاذ الإنسان لشيء: أنه محتاج له ليكمل نقصاً فيه فما هي حاجة الله سبحانه وتعالى إلى الولد ؟! وله الكمال المطلق في الكون كله.

ولذلك يأتي قول الحق جل جلاله: ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ [يونس: ٦٨].

أي أن الله سبحانه وتعالى مستغنٍ عن الكون كله، فكيف يحتاج إلى ولد؟! ولقد تحدثنا عن أسباب الاحتياج إلى الولد، والله تعالى منزه عنها كلها، وهم يقولون من لا ولد له؛ لا ذِكْر له؛ لأن الإنسان سيموت لا محالة ويريد أن تستمر حياته في ولده، والله سبحانه وتعالى حيٌّ لا يموت، قوي قادر لا يضعف، غني له ملك السموات والأرض. إذن.. فكل أسباب احتياج الولد الله منزه عنها، ولذلك يقول تعالى: ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾؛ سبحانه: تقطع كل شك أي أنه منزه عن هذا كله، وهي تنزيه للحق سبحانه وتعالى عن مشاركة أي شيءٍ له، لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال. ولذلك إذا ورد شيء هو لله وصف، ولخلقه وصف، إياك أن تأخذ

---

(١) قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾: هذا إخبار عن النصارى في قولهم: المسيح ابن الله. وقيل عن اليهود في قولهم: عزير ابن الله. وقيل عن كفرة العرب في قولهم: الملائكة بنات الله. وقد جاء مثل هذه الأخبار عن الجهلة الكفار في «مريم» و«الأنبياء». [تفسير القرطبي: ٢/ ٨٥]

هذه الصفة كتلك. فالله غنى، وفلان غنى، فهل غنى الله كغنى خلقه؟! الله سبحانه وتعالى غنى بذاته والخلق أغنياء غنًى زائلاً، إما أن يزول عنهم فى حياتهم، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت. فغنى الله سبحانه وتعالى باقٍ، وهو جل جلاله غنى بذاته، غنى دائماً عن كل خلقه ؛ إذن . . لا تشبيه.

الله سبحانه وتعالى حىّ وأنت الآن حىّ، ولكن حياتك سبقها عدم، وحياة الله تبارك وتعالى لم يسبقها عدم ؛ لأنه دائم الوجود، وحياتك يلحقها عدم، وحياته جل جلاله لا يلحقها عدم(١) .

إذن . . فعندما يأتى وصف لله ووصف لخلق الله ، فلابد أن تقول : سبحان الله؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شىء، ولا تدخل فى التفاصيل؛ لأنك وأنت المخلوق لا يمكن أن تحيط بخالقك، ولكن كل ما خطر بعقلك فالله بخلاف ذلك .ونضرب لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى، عندما تأتى لطفل فى الحضانة وتعطيه تمريناً هندسيًا مقرراً على السنة النهائية بكلية الهندسة أيقدر عليه ؟ طبعاً مستحيل، فإذا كان هذا فى عرف البشر فى عالمهم، فكيف بالنسبة لله جل جلاله؟!.

إذن . . كل شىء يخطر ببالك فنزّه الله عنه.

والتنزيه صفة ذاتية فى الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك فهو جل جلاله منزه قبل أن يخلق من ينزهه ومنزه بعد أن خلق من ينزهه ؛ منزه منذ الأزل وإلى

---

(١) عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم ! لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت. اللهم إنى أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت، أن تضلنى. أنت الحى الذى لا يموت، والجن والإنس يموتون».
أخرجه مسلم [٢٧١٧/٦٧]
وأخرجه البخارى [٧٣٨٣] بلفظ: «أعوذ بعزتك الذى لا إله إلا أنت، الذى لا يموت، والجن والإنس يموتون » .

الأبد ؛ ولذلك نجد هذا التنزيه فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢] .

وقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧] .

وقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٩] .

والله سبحانه وتعالى قبل أن يُشهد أحداً على ألوهيته أشهد نفسه، وهذه شهادة الذات للذات ولذلك قال جل جلاله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يطلب منا أن نشهد أنه إله واحد أحد شهد هو سبحانه وتعالى، ثم شهدت الملائكة وشهد النبيّون. وكما قلنا: الله مُسبَّح قبل أن يوجد مسبِّح، ثم خلق الله المسبِّح فسبح بمجرد الوجود، وجاء بعده خلق فسبحوا ، فالوجود كله مسبِّح لله ، ولذلك يقول الحق جل جلاله فى سورة الحديد: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحديد: ١].

ولكن هل سبَّح وانتهى؟ هل قالها مرة وسكت ؟ نقول: لا، ولذلك يأتى فى سورة الجمعة قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الجمعة: ١].

وقال تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١] .

وقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .

وهكذا حتى لا يظن أحد أن الكون سبّح لله مرة واحدة وسكت. نقول: إن الكون سبح لله ومازال مسبحاً وسيظل مسبحا .

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [يونس: ٦٨].

وهكذا يعطينا الحق جل جلاله الرد الحاسم : لماذا يكون سبحانه له ولد ؟ وله ما في السموات وما في الأرض، فما حاجته إلى الولد وكل ما في الكون ملكه ؟! ثم يقول تبارك وتعالى: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ [يونس: ٦٨].

يعنى هل عندكم دليل على ما تقولون ؟ ﴿إِنْ﴾ تأتى للنفى، وسلطان يعنى: حجة. فما هى حجتكم على أن لله سبحانه وتعالى ولداً ؟ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وهل يعلم أحد عن الله جل جلاله إلا ما أخبرنا به الله؟! علمنا عن الله لابد أن يأتى من الله، ومادام الله لم يخبركم بذلك، فمن أين جاءكم هذا الكلام؟!

ثم يقول الحق لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس: ٦٩]. وما داموا يقولون على الله مالا يعلمون فهم يكذبون؛ لأن العلم هو إدراك قضيّة مجزوم بها وواقعة وعليها دليل، فإذا اختل واحد من هذه الأركان فهذا ليس علماً، ولكنه إما أن يكون جهلاً أو افتراءً أو كذباً، والحق تبارك وتعالى حينما يتكلم عن المؤمنين يصفهم دائماً بالفلاح ؛ واقرأ

قوله تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ ﴾ [المؤمنون].

ومادة الفَلاح مع أنها تستخدم فى الأمور المعنوية، لكنها مأخوذة من الأمور المادية المتصلة بحياة الإنسان؛ لأن الإنسان محتاج لكى تستمر حياته إلى الهواء والماء والطعام ؛ والهواء متوافر للجميع ، والماء ينزل من السماء ، والطعام أصله من الأرض، والفلاحة هى أحد الأسباب الثلاثة لاستبقاء الحياة؛ لأنك حين تفلح الأرض تشقها وتضع فيها البذور وترويها بالماء فتخرج لك الثمرة . ويقال: أفلح[1] يعنى : أنتجت زراعته. إن الحق تبارك وتعالى أتى بالحصيلة الإيمانية وسمّاها : فَلاحاً ، ولذلك قالوا: الدنيا مزرعة الآخرة ، فإذا كنت تريد الثمرة فلابد أن تعمل العمل الذى يعطيك فى الآخرة[2] والله حين يطلب منك ذلك لا ينقص مما عندك؛ بل يزيده تماماً، مثل الفلاح حين يحصد القمح، ثم يأخذ عدة أرادب إلى المخزن؛ لتكون تقاوى للعام التالى، فإذا فرضنا أن امرأته حمقاء وأخذت هذه الأرادب وأطعمتها لأولادها، تكون بذلك قد منعت محصولاً وفيراً سيأتى فى العام التالى، ولذلك حينما يأخذ

(١) الفلح والفلاح : الفوز والنجاة والبقاء فى النعيم والخير؛ قال الله عز من قائل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى أصيروا إلى الفلاح؛ قال الأزهرى: وإنما قيل لأهل الجنة: مفلحون؛ لفوزهم ببقاء الأبد. وفلاح الدهر: بقاؤه، يقال: لا أفعل ذلك فلاح الدهر؛ وقول الشاعر:

ولكن ليس فى الدنيا فلاح

أى بقاء التهذيب : عن ابن السكيت : الفلح والفلاح البقاء؛ قال الأعشى :

ولئن كنا كقوم هلكوا ... ما لحى يالقوم من فلح

[لسان العرب : ٢/ ٥٤٧]

(١) قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] .

الفلاّح عدة أرادب من المحصول كتقاوى للعام التالى، فإنه لا ينقص المحصول بل يزيده ؛ لأن هذه الأرادب ستأتيه بأضعاف أضعافها عندما تزرع فى العام التالى وهكذا الدين لا يأخذ منك إلا ليعطيك أضعاف أضعافه، وكما أن الأرض تعطيك على قدر حظك من العمل والتعب، كذلك أمر الآخرة جزاؤك فيها على قدر تعبك وعملك فى الدنيا؛ فإذا حرثت الأرض جيدًا، ووضعت فيها البذرة والسماد، وحرصت على أن ترويها فى مواعيدها، على قدر عملك وتعبك يأتى المحصول الوفير. وإذا جلست على المقهى مرتاحاً لا تفعل شيئاً؛ فلا تأخذ شيئاً.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ**﴾ [يونس: ٦٩].

والافتراء: هو الكذب المتعمد؛ بأن تعرف الحقيقة وتقول كذباً، وهؤلاء يعلمون أن كل ما يتعلق بالله لا نعلمه إلا بإخبار الله لنا به، ومع علمهم بهذه الحقيقة فإنهم يكذبون. فالذى يريد أن يحقق لنفسه نفعاً بأن يصبح له مستقبل مرموق فى المجتمع وأخذ بالأسباب فى ذلك، والذى لا يصحو من النوم ولا يذهب إلى المدرسة يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أيضاً؛ بألاّ يتعب نفسه فى شىء. إذن .. فكلاهما يريد نفعاً والذى تعب واستيقظ مبكراً لم ينظر إلى النفع السريع، ولكنه نظر إلى النفع المستقبلى بعد خمس أو ست سنوات يصبح إنساناً له كيان فى المجتمع، والذى نام كما يشتهى فلم يستيقظ مبكراً، وأمضى يومه يتسكع؛ نظر إلى النفع العاجل فلم يتعب، ولكنه أصبح صعلوكاً فى المجتمع.

إذن .. فقيمة العمل ليست على قدر النفع العاجل؛ ولكن على قدر امتداد النفع وضخامته؛ فالجبان الذى يهرب من المعركة حقق نفعاً بأنْ هرب من الموت، والشجاع الذى ألقى بنفسه فى المعركة حقق نفعاً باستشهاده،

ولكن الأول نظر إلى نفعٍ وقتيٍّ فى الدنيا ،والثانى نظر إلى نفع أبديّ فى الآخرة.

نعود إلى السؤال: ما الذى يجعلهم يفترون على الله الكذب ؟ إنها عملية تسمى : انهيار الذات. ما معنى انهيار الذات ؟ لنضرب لذلك مثلاً يقرب ذلك إلى الأذهان: هب أن حلاقاً فى القرية يقوم بعلاج الناس، ثم جاء أحد أبناء القرية وقد درس فى كلية الطب وفتح عيادة، حينئذٍ ماذا يصيب حلاق القرية ؟ يصيبه شىء اسمه انهيار الذات، أى أنه تضاءل وانهار أمام ما لا يقدر على دفعه، فماذا يفعل ؟ إن كان عاقلاً يحاول أن يبحث عن مهنة أخرى، وإن كان غير متزن العقل فسيحاول أن يحارب هذا الطبيب بالأكاذيب؛ كى يستعيد نفوذه الذى انهار، وهكذا عصابة الكفر والضلال فهى مستفيدة من المجتمع الذى تعيش فيه، يأخذون الأموال والقرابين ويعطون للناس الجهل، تماماً كحلاق القرية، وهم بذلك مستفيدون ولهم ذاتية وسيادة.

ولكن عندما يأتى رسول فإنه سيأخذ السيادة منهم، ليس لنفسه، ولكن لدين الله الحق هذه السيادة كانت مكانتهم ووجاهتهم وثروتهم واستغلالهم للناس؛ حينئذ يصابون بانهيار النفس، ويطلقون الأكاذيب على منهج الله، ويقولون على الله سبحانه وتعالى ما لا يعلمون؛ ليحتفظوا بنفوذهم ويحاربوا ذلك الذى جاء بالدين الجديد؛ ليسلبهم سلطتهم. فمثلاً عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وفى اليوم الذى وصل فيه رسول الله ﷺ كانوا سيضعون التاج فوق رأس عبدالله بن أبّى ؛ ليصبح ملكاً على المدينة، وعندما وصل رسول الله ﷺ بطل هذا كله فانهار عبد الله بن أبى وبدأ بالعداء. ثم آمن نفاقاً وظل كافراً ، وكان يحارب الإسلام ويطلق الإشاعات ضد رسول الله ﷺ والمؤمنين.

والحق سبحانه وتعالى يبين لنا لماذا اختاروا الكذب فيقول: ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ [يونس: ٧٠].

إذن.. فالذى حملهم على هذا الافتراء، أنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطتهم وبسيادتهم فى الحياة الدنيا، ولذلك لم يقل الحق تبارك وتعالى متاع فقط، بل: ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ وحدها، وما دام المتاع فى الدنيا محدود القدرات، فهم قد اختاروا عدم الفلاح؛ لأنهم اشتروا الدنيا بمتاعها المحدود القليل، وباعوا الآخرة بمتاعها الأبدى، الذى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[1] .

والحق تبارك وتعالى قال: ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ فما معنى كلمة فى الدنيا ؟ إن الأسماء هى سمات المسميات تنسب إليها، فإذا قلت: فلان طويل، نسبت إليه الطول، وإذا قلت: قصير، نسبت إليه القصر، وإذا قلت: أبيض أو أسمر أو أشقر نسبت إليه صفات معينة. فإذا قلت الدنيا فما معناها؟ معناها : الدنو أو الدناءة، وهنا يختلف المعنى فلا يمكن أن توصف الدنيا بالدنو المطلق؛ لأنك إذا أخذتها على أنها الطريق الموصل لنعيم الآخرة فهى أول درجة فى هذا الطريق، إذن.. فهى الدرجة الأدنى التى تصعد منها إلى ما هو أعلى.

إذن.. فالذى يريد أن يجعل الدنيا بمعنى الدنو والدناءة على إطلاقها نقول له : لا، فهى درجة دنيا للدرجات العالية فى الآخرة، وهى دنيا لأن هناك حياة عليا فيها الخلود، إذن.. فما دامت هناك دنيا فهناك عليا، فلابد لكى تصعد إلى العليا أن تصعد السلّم من أوله، فلا يمكن أن تصل إلى أعلى

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «قال الله : أعددت لعبادى الصالحين: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» .

أخرجه البخارى [٧٤٩٨]، ومسلم [٢٨٢٤]

الدرجات دون أن تبدأ بالدرجة الدنيا.

عمرك لا يقين فيه، والحياة الدنيا هى موضوع الدين، فمنهج الله جاء ليحكم حركتك فى الحياة الدنيا بـ « افعل » و «لا تفعل»، وأنت مطالب بأن تتبع منهج «افعل» و«لا تفعل» فى الدنيا، أما الآخرة فهى جزاء والجزاء على الشىء ليس هو نفس الشىء، وأنت فى الدنيا إما أن تجعلها مزرعة للآخرة فتكون قد أخذت منها المعنى بأنها الدرجة الأولى المؤدية إلى الحياة الأعلى، وإما أن تتمسك بها فتكون قد جعلت كل حظك هو الدرجة الدنيا من الحياة، التى خلقها الله سبحانه وتعالى للإنسان، فهى دنيا فى عدد السنين؛ لأن عمرك فيها قليل قصير، ولا تقل: إن الدنيا عمرها ملايين السنين؛ فدنياك أنت على قدر عمرك فى الدنيا. وعمرك فيها مظنون ليس فيه يقين، فأنت لا تعرف ولا تستطيع أن تعرف الزمن الذى ستقضيه فى الدنيا لأنك قد تعيش فيها شهراً أو شهرين أو سنة أو بضع سنين، يقيناً لا تعرف. فمفارقتك للدنيا ليست فى يدك، ولكنها فى يد الله تبارك وتعالى وهو لم يجعل لعمرك فيها زمناً معروفاً لك، ولم يجعل لمفارقتك لها سبباً معروفاً لك وذلك على عكس الآخرة فحياتك فيها يقين لأن الله سبحانه وتعالى أخبرك أنك ستخلد فيها لا تموت أبداً، وهكذا تعلم يقيناً أن حياتك فى الآخرة أبدية، ونعيمك فيها أبدى، ولذلك فإننا نعرف أن الآخرة دار يقين. والذين يفترون على الله الكذب لا يظنون أنهم ملاقوه ولا أن هناك يوماً للبعث يحاسبون فيه؛ ولذلك فكل تصرفاتهم هى أن يأخذوا كل ما يستطيعون من متاع فى هذه الحياة الدنيا، وبكل الوسائل؛ ذلك لأنهم يعتقدون أنه ليس هناك شىء بعد ذلك، فيأتى الحق سبحانه وتعالى ويخبرهم بالحقيقة: ﴿مَتَاعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٧٠].

أى لن يتمتع أحد فى الدنيا ويظلم ويفعل كل ما يغضب الله، ثم بعد ذلك يُترك، بل سيرجع إلى الله ولن يفلت منه.

ولكن لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقيقة ؟ لأن الإنسان قد يمتنع عن فعل أعمال كثيرة إذا تذكر عاقبة هذه الأعمال، فإذا رأيت مثلاً ولداً صغيراً يلعب بالكرة وأنت تريد أن تضربه وتأخذها منه، فإذا قيل لك: إن هذا الولد له أخ كبير قوى سيأتى إليك ويضربك ويستعيد الكرة. فإنك ستتراجع عن أخذ الكرة من الولد الصغير. والله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يذكر هؤلاء الذين يريدون متاع الدنيا بأى ثمن ويفترون على الله الكذب يريد أن يذكرهم بأنهم سيعودون إلى الله سبحانه وتعالى لعلّهم، يتراجعون عما هم فيه؛ خوفاً مما سيحدث فى المستقبل، ثم يكمل الله تبارك وتعالى لهم الصورة فيقول: ﴿ **ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** ﴾ [يونس:٧٠].

عيسى عليه السلام ابن الله أم عبد الله

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة:١١٦].

إن من ضعف البصيرة أن نتخيل أن الخالق له ابن، وقد بيَّن الحق هذه القضية فى سورة الكهف حين قال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف] .

إن الحق سبحانه تعالى أن يكون له ولد، إنه منزّه عن ذلك، وكانت البداية هى أن المشركين من كفار مكة قد توهموا أن الملائكة بنات الله، ومضوا يتصورون ذلك، وكان ذلك قمة الشرك بالله؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتخذ من الخلق أبناء أو بنات.

ثم جاء بعد ذلك مثل هذا الضلال فى التصور من بعض اليهود فقالوا ما بيَّنه لنا الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (١) [التوبة: ٣٠].

---

(١) قال أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ بيَّن تعالى لحاق اليهود والنصارى بأهل الشرك، وإن اختلفت طرق الشرك فلا فرق بين من=

= يعبد الصنم وبين من يعبد المسيح وغيره؛ لأن الشرك هو أنْ يتّخذ مع الله معبوداً، بل عابد الوثن أخف كفراً من النصرانى؛ لأنه لا يعتقد أنّ الوثن خالق العالم، والنصرانى يقول بالحلول والاتحاد، وقائل ذلك قوم من اليهود كانوا بالمدينة.

قال ابن عباس: قالها أربعة من أحبارهم : سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وشاس ابن قيس، ومالك بن الصيف. وقيل: قاله فنحاص. وقال النقاش: لم يبق يهودى يقولها بل انقرضوا، وتذم الطائفة أو تمدح بصدور ما يناسب ذلك من بعضهم.

قيل: والدليل على أن هذا القول كان فيهم أنّ الآية تُليت عليهم؛ فما أنكروا ولا كذبوا مع تهالكهم على التكذيب، وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عزير وهو غلام يسيح فى الأرض، فأتاه جبريل فقال له: أين تذهب؟ قال: أطلب العلم، فحفظه التوراة، فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً فقالوا: ماجمع الله تعالى التوراة فى صدره وهو غلام إلا أنه ابنه، ونقلوا حكايات فى ذلك.

وظاهر قول النصارى المسيح ابن الله نبوة النسل كما قالت العرب فى الملائكة، وكذا يقتضى قول الضحاك والطبرى وغيرهما عنهم: أن المسيح إله، وأنه ابن الإله. ويقال: إن بعضهم يعتقدها بنّوة حنّو ورحمة، وهذا القول لم يظهر إلا بعد النبّوة المحمدية وظهور دلائل صدقها، وبعد أن خالطوا المسلمين وناظروهم، فرجعوا عما كانوا يعتقدونه فى عيسى.

ومعنى: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أنه قول لايعضده برهان، فما هو إلا لفظ فارغ يفوهون به كالألفاظ المهملة التى هى أجراس ونغم لاتدل على معان، وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم، ومعناه مؤثر فى القلب، وما لا معنى له يقال بالفم لا غير.

وقيل: معنى بأفواههم إلزامهم المقالة والتأكيد، كما قال: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ، ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ ولابد من حذف مضاف فى قوله: يضاهون، أى يضاهى قولهم والذين كفروا قدماؤهم فهو كفر قديم فيهم، أو المشركون القائلون الملائكة بنات الله، وهو قول الضحاك. أو الضمير عائد على النصارى والذين كفروا اليهود أى: يضاهى قول النصارى فى دعواهم بنوة عيسى قول اليهود في دعواهم بنوة عزير، واليهود أقدم من النصارى، وهو قول قتادة. ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ دعاء عليهم عام لأنواع الشر، و من قاتله الله فهو المقتول. وقال ابن عباس: معناه لعنهم الله. وقال أبان بن تغلب: =

وعزير هو كاهن من نسل هارون ، وكان يكتب التوراة ، وعندما تصور اليهود أنه ابن لله خرجوا عن الوحدانية لله جل وعلا ، وابتدع البعض من أتباع المسيح أيضاً تصوروا بأن المسيح ابن لله ، وهذا قول لم يأت به كتاب أو رسول ولا حجة عليه ولا برهان ، فكيف يقع فى ذلك أهل الكتاب الذين أنزلت إليهم كتب من السماء وجاءت إليهم رسل من الحق جل وعلا؟! إن قول الحق عن ذاته: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تعنى التنزيه المطلق عن ذلك ، فقال جل وعلا فى كتابه الكريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠)﴾ [مريم] .

إن المشركين واليهود والنصارى قد وقعوا فى ضلال التصور أن لله أبناء من الملائكة أو البشر ، وذلك قول شديدٌ منكرٌ تكاد الجبال تسقط قطعاً مفتتة منه ، وتكاد الأرض تنخسف ، وتكاد السموات يتشققن منه ، كأن المخلوقات التى لا تملك قدرة التفكير كالإنسان تكاد تنهار من فرط الإنكار لمثل ذلك القول. إن ضلال ذلك التصور تسلل من عجز الفهم عن طلاقة قدرة الحق عندما يقول للشىء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ، إن المسيح كلمة من الله هى ﴿كُن﴾ فكان مثلما خلق آدم عليه السلام ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(١) [آل عمران: ٥٩] .

= قاتلها الله تلحانى وقد علمت | إنى لنفسى إفسادى وإصلاحى

وقال قتادة: قتلهم ، وذكر ابن الأنبارى عاداهم. وقال النقاش: أصل قاتل الدعاء ، ثم كثر استعمالهم حتى قالوه على جهة التعجب فى الخير والشر ، وهم لايريدون الدعاء. وأنشد الأصمعى:

يا قاتل الله ليلى كيف تعجبنى | وأخبر الناس أنى لا أباليها

وليس من باب المفاعلة ، بل من باب طارقت النعل وعاقبت اللص. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق وضوح الدليل على سبيل التعجب. [البحر المحيط : ٥ / ٤٠٢ ، ٤٠٣]

(١) سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن حقيقة القول فى عيسى عليه السلام ، فقال رحمه=

....

= الله: الجواب من وجوه:

أحدها: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ كلام حق؛ فأن سبحانه خلق هذا النوع البشرى على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته. فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى، كما قال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر. وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى.

وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح ، فإن حواء خلقت من ضلع آدم ، وهذا أعجب من خلق المسيح فى بطن مريم . وخلق آدم أعجب من هذا وهذا ، وهو أصل خلق حواء فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذى هو أعجب من خلق المسيح ، فإذا كان سبحانه قادراً على أن يخلقه من تراب ، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان ، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هى من جنس بدن الإنسان ؟! وهو سبحانه خلق آدم من تراب ، ثم قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ لما نفخ فيه من روحه ، فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ولم يكن آدم بما نفخ فيه من روحه لاهوتاً وناسوتاً ، بل كله ناسوت ، فكذلك المسيح كله ناسوت، والله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية فى ضمن الآيات التى أنزلها فى شأن النصارى ، لما قدم على النبى ﷺ نصارى نجران وناظروه فى المسيح ، وأنزل الله فيه ما أنزل ، فبين فيه قول الحق الذى اختلفت فيه اليهود والنصارى ، فكذب الله الطائفتين : هؤلاء فى غلوهم فيه ، وهؤلاء فى ذمّهم له .

وقال عقب هذه الآية : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ [آل عمران] .

وقد امتثل النبى ﷺ قول الله فدعاهم إلىّ المباهلة ، فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم لعنته فأقروا بالجزية وهم صاغرون ، ثم كتب النبى ﷺ إلى هرقل ملك الروم=

= بقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا ﴾ إلى آخرها ، وكان أحياناً يقرأ بها فى الركعة الثانية من ركعتى الفجر ويقرأ فى الأولى بقوله : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] .

وهذا كله يبين أن المسيح عبد ليس بإله ، وأنه مخلوق كما خلق آدم وقد أمر أن يباهل من قال إنه إله فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونساءه وقريبه المختص به ، ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء ويدعون الله أن يجعل لعنته على الكاذبين ، فإن كان النصارى كاذبين فى قولهم هو الله حقت اللعنة عليهم ، وإن كان من قال ليس هو الله بل عبد الله كاذبًا حقت اللعنة عليه ، وهذا إنصاف ، من صاحب يقين يعلم أنه على الحق ، والنصارى لما لم يعلموا أنهم على حق نكلوا عن المباهلة ، وقد قال عقب ذلك : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ تكذيباً للنصارى الذين يقولون: هو إله حق من إله حق ، فكيف يقال: إنه أراد أن المسيح فيه لاهوت وناسوت، وأن هذا هو الناسوت فقط دون اللاهوت، وبهذا ظهر الجواب عن قولهم قال فى موضع آخر : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ فاعنى بقوله: ﴿ عِيسَىٰ ﴾ أشار إلى البشرية المأخوذة من مرية الطاهرة ؛ لأنه لم يذكر الناسوت ها هنا اسم المسيح إنما ذكر عيسى فقط فإنه يقال : عيسى هو المسيح ، بدليل أنه قال : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [المائدة: ٧٥] .

فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولاً ليس هو بإله، وأنه ابن مريم والذى هو ابن من مريم هو الناسوت، وقال: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) ﴾ [النساء] .

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ =

= ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:٣٠] . وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧] .

الوجه الثانى : أن ما ذكره من موته قد بينا أن الله لم يذكر ذلك ، وأن المسيح لم يمت بعد، وما ذكروه من أنه صُلب ناسوته دون لاهوته باطل من وجهين، إن ناسوته لم يصلب وليس فيه لاهوت، وهم ذكروا ذلك دعوى مجردة فيكفى فى مقابلتها المنع .

الوجه الثالث : ولكن نقول فى الوجه الثالث : إنهم فى اتحاد اللاهوت بالناسوت يشبهونه تارة باتحاد الماء باللبن ، وهذا تشبيه اليعقوبية[1] ، وتارة باتحاد النار بالحديد أو النفس بالجسم ، وهذا تشبيه الملكانية[2] ، وغيرهم ومعلوم أنه لا يصل إلى الماء إلا وصل إلى اللبن ؛ فإنه لا يتميز أحدهما عن الآخر ، وكذلك النار التى فى الحديد متى طرق الحديد أو بصق عليه لحق ذلك بالنار التى فيه ، والبدن إذا ضرب وعذب لحق ألم الضرب والعذاب للنفس ، فكأن حقيقة تمثيلهم يقتضى أن اللاهوت أصابه ما أصاب الناسوت من إهانة اليهود وتعذيبهم وإتلافهم له والصلب الذى ادعوه . وهذا لازم=

(١) اليعقوبية : أصحاب يعقوب قالوا بالأقانيم الثلاثة ، إلا أنهم قالوا انقلبت الكلمة لحماً ودماً ، فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده، بل هو هو، وعنهم أخبرنا القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]. فمنهم من قال: المسيح هو الله، ومنهم من قال: ظهر اللاهوت بالناسوت فصار ناسوت المسيح مظهر الحق لا على طريق حلول جزء فيه ، ولا على سبيل اتحاد الكلمة التى هى فى حكم الصفة ، بل صار هو هو.

[الملل والنحل للشهر ستانى : ٢/ ٦٦]

(٢) الملكانية : أصحاب ملكا الذى ظهر بالروم ، واستولى عليها ومعظم الروم ملكانية، قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح ، وتدرعت بناسوته ، ويعنون بالكلمة أقنوم العلم ، ويعنون بروح القدس أقنوم الحياة ولا يسمون العلم قبل تدرعه به ابناً ، بل المسيح مع ما تدرع به ابن ، فقال بعضهم : إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر اللبن أو الماء اللبن وصرحت الملكانية بأن الجوهر غير الأقانيم وذلك كالموصوف والصفة. وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث وأخبر عنهم القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة : ٧٣] وقالت : الملكانية : المسيح ناسوت كلى لا جزئى، وهو قديم أزلى من قديم أزلى ، ولقد ولدت مريم عليها السلام إلهاً أزلياً ، والقتل والصلب وقع على الناسوت . إلخ. [الملل والنحل للشهر ستانى على هامش الفصل : ٢/ ٦٢]=

= على القول بالاتحاد ، فإن الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الآخر فيه لم يكن هنا اتحاد بل تعدد .

الوجه الرابع : أن هؤلاء الضُّلال لم يكفهم أن جعلوا إله السموات والأرض متحداً ببشر فى جوف امرأة ، وجعلوه له مسكناً ، ثم جعلوا أخابث خلق الله أمسكوه وبصقوا فى وجهه ، ووضعوا الشوك على رأسه وصلبوه بين لصين وهو فى ذلك يستغيث بالله ويقول: «إلهى إلهى لم تركتنى» وهم يقولون: الذى كان يسمع الناس كلامه هو اللاهوت، كما سمع موسى كلام الله من الشجرة، ويقولون هما شخص واحد ويقول بعضهم: لهما مشيئة واحدة وطبيعة واحدة .

والكلام إنما يكون بمشيئة المتكلم ، فيلزم أن يكون المتكلم الداعى المستغيث المصلوب هو اللاهوت هو المستغيث المتضرع وهو المستغاث به، وأيضاً فهم يقولون: إن اللاهوت والناسوت شخص واحد فمع القول بأنهما شخص واحد، إما أن يكون مستغيثاً، وإما أن يكون مستغاثاً به، وإما أن يكون داعياً، وإما أن يكون مدعواً، فإذا قالوا: إن الداعى هو غير المدعو لزم أن يكون اثنين لا واحداً، وإذ قالوا: هما واحد فالداعى هو المدعو.

الوجه الخامس : أن يقال لا يخلو الأمر أن يقولوا: إن اللاهوت كان قادراً على دفعهم عن ناسوته ، وإما أن يقولوا : لم يكن قادراً ، فإن قالوا لم يكن قادراً لزم أن يكون أولئك اليهود أقدر من رب العالمين ، وأن يكون رب العالمين مقهوراً مأسوراً مع قوم من شرار اليهود ، وهذا من أعظم الكفر والتنقص برب العالمين ، وهذا أعظم من قولهم: « إن لله ولداً وإنه بخيل وإنه فقير » ونحو ذلك مما سب به الكفار رب العالمين. وإن قالوا كان قادراً فإن كان ذلك من عدوان الكفار على ناسوته وهو كاره ؛ لذلك فسنة الله فى مثل ذلك نصر رسله المستغيثين به ، فكيف لم يغث ناسوته المستصرخ به ؟ وهذا بخلاف من قتل من النبيين وهو صابر ، فإن أولئك صبروا حتى قتلوا شهداء ، والناسوت عندهم استغاث وقال : « إلهى إلهى لماذا تركتنى » وإن كان هو قد فعل ذلك مكراً ، كما يزعمون أنه مكر بالشيطان وأخفى نفسه حتى يأخذه بوجه حق فناسوته أعلم بذلك من جميع الخلق ، فكان الواجب ألا يجزع ولا يهرب لما فى ذلك من الحكمة ، وهم يذكرون من جزع الناسوت وهربه ودعائه ما يقتضى أن كل ما جرى عليه كان بغير اختياره ، ويقول بعضهم : مشيئتهما واحدة ، فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت ، بل لو يشاء اللاهوت ما يكرهه كانا متباينين ، ولو اتفقا على المكر بالعدو لم يجزع الناسوت كما جرى ليوسف مع أخيه لما وافقه على أنه يجعل الصواع[1] فى رحله، ويظهر أنه سارق لم يجزع أخوه لما ظهر الصواع فى رحله؟ كما=

(١) الصاع: الذى يكال به وهو أربعة أمداد. والجمع أصواع، والصوّاع : لغة فى الصاع ، ويقال : هو إناء يشرب فيه .

. . . .

= جزع إخوته حيث لم يعلموا ، وكثير من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون وهم ثابتون صابرون، فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذى يصفون به المسيح، وهو يقتضى غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية .

الوجه السادس : قولهم بأنه كلمته وروحه تناقض منهم؛ لأن عندهم أقنوم الكلمة فقط لا أقنوم الحياة .

الوجه السابع: قولهم وقد برهن بقوله رأينا أيضاً فى موضع آخر قائلاً: إن الله ألقى كلمته إلى مريم، وذلك حسب قولنا معشر النصارى: إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلّت فى مريم واتحدت بإنسان كامل .

فيقال لهم : أما قول الله فى القرآن فهو حق ، ولكن ضللتم فى تأويله كما ضللتم فى تأويل غيره من كلام الأنبياء ، وما بلغوه عن الله ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧)﴾ [آل عمران] . ففى هذا الكلام وجوه تبين أنه مخلوق ليس هو ما يقوله النصارى منها أنه قال: ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ وقوله: بكلمة منه نكرة فى الإثبات يقتضى أنه كلمة من كلمات الله، ليس هو كلامه كله كما يقول النصارى. ومنها أنه بين مراده بقوله بكلمة منه ، وأنه مخلوق حيث قال: ﴿ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩] وقال تعالى فى سورة كهيعص : ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥)﴾ فهذه ثلاث آيات فى القرآن تبين أنه قال له: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ وهذا تفسير كونه كلمة منه، وقال اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وأخبر أنه ابن مريم ، وأخبر أنه وجيه فى الدنيا والآخرة ومن المقربين، وهذه كلها صفات مخلوق، والله تعالى وكلامه الذى هو صفته لا يقال فيه شىء من ذلك، وقالت مريم : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ فبين أن المسيح الذى هو الكلمة هو ولد مريم لا ولد الله سبحانه وتعالى .

وقال فى سورة النساء : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ =

- الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧٣) ﴾ [النساء] . فقد نهى النصارى عن الغلو فى دينهم ، وأن يقولوا على الله غير الحق وبين أن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسوله ، فبين أنه رسوله ونهاهم أن يقولوا ثلاثة ، وقال : انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، وهذا تكذيب لقولهم فى المسيح أنه إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه . ثم قال: ﴿ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ فنزه نفسه وعظمها أن يكون له ولد ، كما تقوله النصارى ، ثم قال : ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ فاخبر أن ذلك ملك ليس له فيه شيء من ذاته ، ثم قال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله تبارك وتعالى ، فمع ذلك البيان الواضح الجلى ، هل يظن ظان أن مراده بقوله وكلمته أنه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به، وأن قوله: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ المراد أنه حياته أو روح متفصلة من ذاته .

ثم نقول أيضاً : أما قوله وكلمته ، فقد بين مراده أنه خلقه بـ « كُنْ » وفى لغة العرب التى نزل بها القرآن أن يسمى المفعول باسم المصدر ، فيسمى المخلوق خلقاً لقوله : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ١١] ويقال : درهم ضرب الأمير أى مضروب الأمير ، ولهذا يسمى المأمور به أمراً ، والمقدور قدرة وقدراً والمعلوم علماً ، والمرحوم به رحمة. كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨] وقوله : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١] .

وقال النبى ﷺ : « يقول الله للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى، ويقول للنار : أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى » (١) . =

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٧٤٤٩] عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « فقال الله تعالى للجنة : أنت رحمتى ، وقال للنار : أنت عذابى أصيب بك من أشاء ولكل واحدة منكما =

= وقال: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة فبها تتراحم الخلق ويتعاطفون، وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة، فإذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك فرحم بها الخلق »[1] ويقال للمطر والآيات هذه قدرة عظيمة ، ويقال : غفر الله لك علمه فيك ، أى معلومة فتسميه المخلوق بالكلمة كلمة من هذا الباب .

وقد ذكر الإمام أحمد فى كتاب « الرد على الجهمية » وذكره غيره ـ أن النصارى الحلولية والجهمية المعطلة اعترضوا على أهل السنة فقالت النصارى : القرآن كلام الله غير مخلوق ، والمسيح كلمة الله فهو غير مخلوق ، وقالت الجهمية : المسيح كلمة الله وهو مخلوق ، والقرآن كلام الله فيكون مخلوقاً ، وأجاب أحمد وغيره : بأن المسيح نفسه ليس هو كلاماً ، فإن المسيح إنسان وبشر مولود من امرأة ، وكلام الله ليس بإنسان ولا بشر ولا مولود من امرأة. ولكن المسيح خُلق بالكلام، وأما القرآن فهو نفسه كلام الله ، فأين هذا من هذا ؟!

وقد قيل: أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وما من عاقل إذا سمع قوله تعالى فى المسيح عليه السلام إنه كلمته ألقاها إلى مريم ألا يعلم أنه المراد أن المسيح نفسه كلام الله ، ولا أنه صفة لله ولا خالق ؟ ثم يقال للنصارى : فلو قُدر أن المسيح نفس الكلام ، فالكلام ليس بخالق ، فإن القرآن كلام الله ، وليس بخالق ، والتوراة كلام وليست بخالقة، وكلمات الله كثيرة وليس منها شيء خالق، فلو كان المسيح نفس الكلام، لم يجز أن يكون خالقاً، فكيف وليس هو الكلام، وإنما خلق بالكلمة، وخص باسم الكلمة، فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذى خلق عليه غيره، بل خرج عن العادة فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة بالبشر .

وقوله : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ لا يوجب أن يكون منفصلاً من ذات الله كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]. وقوله تعالى:=

= ملؤها...» الحديث .

(١) أخرجه البخارى [٦٤٦٩] عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمةً ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكلِّ الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المسلم بكلِّ الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار » .

. . . .

= ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] . وقوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩] . وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) ﴾ [البينة] .

فهذه الأشياء كلها من الله وهى مخلوقة ، وأبلغ من ذلك روح الله التى أرسلها إلى مريم وهى مخلوقة . فالمسيح الذى هو روح من تلك الروح أولى أن يكون مخلوقاً ، وقال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) ﴾ [مريم] .

وقد قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ وقال: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ فأخبر أنه نفخ فى مريم من روحه ، كما أخبر أنه نفخ فى آدم من روحه وقد بين أنه أرسل إليها روحه ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) ﴾ [مريم] فهذا الروح الذى أرسله الله إليها؛ ليهب لها غلاماً زكياً مخلوق وهو روح القدس الذى خلق المسيح منه ومن مريم ، فإذا كان الأصل مخلوقاً فكيف الفرع الذى حصل به وهو روح القدس ؟ وقوله عن المسيح: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ خص المسيح بذلك ؛ لأنه نفخ فى أمه من الروح فحبلت به من ذلك النفخ ، وذلك غير روحه التى يشاركه فيها سائر البشر ، فامتاز بأنها حبلت به من نفخ الروح فلهذا سمى روحاً منه.

ولهذا قال طائفة من المفسرين: روح منه: أى رسول منه فسماه باسم الروح الذى هو الرسول الذى نفخ فيها ، فكما يسمى « كلمة » يسمى روحاً ؛ لأنه كون بالكلمة ، لا كما يخلق الآدميون غيره ، ويسمى روحاً لأنه حبلت به أمه بنفخ الروح الذى نفخ فيها، لم تحبل من ذكر كغيره من الآدميين ، وعلى هذا فيقال لما خلق من نفخ الروح ومن مريم سمى روحاً بخلاف سائر الآدميين ، وعلى هذا فيقال لما خلق من نفخ=

. . . .

= الروح ومن مريم سمى روحاً بخلاف سائر الآدميين ، فإنه يخلق من ذكر وأنثى ثم ينفخ فيه من الروح بعد مضى أربعة أشهر . والنصارى يقولون فى أمانتهم : « تجسد من مريم ، ومن روح القدس » ولو اقتصروا على هذا وفسروا روح القدس بالملك الذى نفخ فيها ، وهو روح الله لكان هذا موافقاً لما أخبر الله به ، لكنهم جعلوا روح القدس حياة الله . وجعلوه ربًا وتناقضوا فى ذلك ، فإنه على هذا كان ينبغى فيه أقنومان : أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح . وهم يقولون : ليس فيه إلا أقنوم الكلمة ، وكما يسمى المسيح كلمة لأنه خلق بالكلمة يسمى روحاً ؛ لأنه حل به الروح ، فإن قيل : فقد قال فى القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ . وقال: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١]. وقد قال أئمة المسلمين وجمهورهم: القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ ، وقال فى المسيح: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ قيل: هذا بمنزلة سائر المضاف إلى الله إن كان عيناً قائمة بنفسها أو صفة فيها كان مخلوقاً ، وإن كان صفة مضافة إلى الله كعلمه وكلامه ونحو ذلك كان إضافة صفة، وكذلك ما منه إن كان عيناً قائمة أو صفة قائمة تعيد بغيرها كما فى السموات والأرض والنعم والروح الذى أرسلها إلى مريم، وقال: ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ كان مخلوقاً وإن كان لا تقوم بنفسها ولا يتصف بها المخلوق كالقرآن لم يكن مخلوقاً ، فإن ذلك قائم بالله وما يقوم بالله لا يكون مخلوقاً ، والمقصود هنا بيان بطلان احتجاج النصارى، وأنه ليس لهم فى ظاهر القرآن ولا باطنه حجة كما ليس لهم حجة فى سائر كتب الله ، وإنما تمسكوا بآيات متشابهات وتركوا المحكم ، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ ، والآية نزلت فى النصارى فهم مرادون من الآية قطعاً ، ثم قال: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ وفيها قولان وقراءتان منهم من يقف عند قوله: إلا الله، ويقول: الراسخون فى العلم لا يعلمون تأويل المتشابه، لا يعلمه إلا الله.

ومنهم من لا يقف ، بل يصل بذلك قوله تعالى: ﴿ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا=

. . . .

= ﴿بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ ويقول : الراسخون فى العلم يعلمون تأويل المتشابه ، وكلا القولين مأثور عن طائفة من السلف ، وهؤلاء يقولون : قد يكون الحال من المعطوف دون المعطوف عليه كما فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ [الحشر: ١٠] أى قائلين ، وكلا القولين حق باعتبار ، فإن لفظ التأويل يراد به التفسير ومعرفة معانيه .

والراسخون فى العلم يعلمون تفسير القرآن ، قال الحسن البصرى : لم ينزل الله آية إلا وهو يحب أن تعلم فى ماذا نزلت ، وما عنى بها.

وقد يعنى بالتأويل ما استأثر الله بعلمه من كيفية ما أخبر به عن نفسه ، وعن اليوم الآخر وقت الساعة ، ونزول عيسى ونحو ذلك .

فهذا التأويل لا يعمله إلا الله وأما لفظ التأويل إذا أريد به صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما يخالف ذلك لدليل يقترن به،فلم يكن السلف يريدون بلفظ التأويل هذا ، ولا هو معنى التأويل فى كتاب الله عز وجل ، ولكن طائفة من المتأخرين خصوا لفظ التأويل بهذا ، بل لفظ التأويل فى كتاب الله يراد به ما يؤول إليه الكلام ، وإن وافق ظاهره كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ .

ومنه تأويل الرؤيا كقول يوسف الصديق : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠] . وكقوله : ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧] . وقوله : ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ وهذا مبسوط فى موضع آخر.

والمقصود هنا أنه ليس للنصارى حجة لا فى ظاهر النصوص ولا باطنها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ والكلمة عندهم فى جوهر ، وهى رب لا يخلق بها الخالق بل هى الخالقة لكل شىء=

إن شأن عيسى عليه السلام واضح مثلما أوضح الحق كيف خلق آدم، وكان الأجدر أن يفتن الناس بخلق آدم عليه السلام؛ لأن عنصر الأبوة والأمومة فى إيجاده ممتنع، أما عيسى عليه السلام فعنصر الأبوة وحده الممتنع، وبعد ذلك يعلم الحق جلّ وعَلاَ رسوله ﷺ محمداً لو كان لله ولد لكان الرسول أول العابدين له فيقول تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١].

= كما قالوا فى كتابهم : « إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت فى مريم » والله تعالى قد أخبر أنه سبحانه ألقاها إلى مريم ، والرب سبحانه هو الخالق ، والكلمة التى ألقاها ليست خالقة ؛ إذ الخالق لا يلقيه شىء، بل هو يلقى غيره ، وكلمات الله نوعان : كونية ، ودينية .

فالكونية : كقوله للشىء كن فيكون .

والدينية : أمره وشرعه الذى جاءت به الرسل ، وكذلك أمره وإرادته وإذنه وإرساله وبعثه ينقسم إلى هذين القسمين ، وقد ذكر الله تعالى إلقاء القول فى غير هذا ، وقد قال تعالى: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء: ٩٤] . وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ [النحل]. وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١] .

وأما لقيته القول فتلقاه ، فذلك إذا أردت أن تحفظه بخلاف ما إذا ألقيته إليه فإن هذا يقوله فيما يخاطبه به ، وإن لم يحفظه كمن ألقيت إليه القول بخلاف القول إنكم لكاذبون ، وألقوا إليهم السلام ، وليس هنا إلا خطاب سمعوه لم يحصل نفس صفة المتكلم فى المخاطب ، فكذلك مريم إذا ألقى الله كلمته إليها هى قول: ﴿ كُن ﴾ لم يلزم أن تكون نفس صفته القائمة به حلت فى مريم ، كما لم يلزم أن تكون صفته القائمة به حلَّت فى سائر من ألقى كلامه، كما لا تحصل صفة كل منكم فيمن يلقى إلى كلامه. [التفسير الكبير : ٣/ ٢٠١-٢١٨].

إن الحق يعلم رسوله أن يبلغ المشركين أنه لو صحّ بالبرهان أن للرحمن ولداً لكان الرسول أول العابدين لهذا الولد،لكن البرهان لا يستقيم؛فكيف يكون لله - الذى ليس كمثله شيء القديم الذى لا نهاية لوجوده - ولد من البشر ؟!

إن كل كائن بشرىّ إنّما هو حدث عارض بالميلاد والموت،ثم البعث بين يدى الحق؛ لينال الثواب أو العقاب ولكن الله حىّ لايموت.

إن الخالق هو مالك الملك، له ما فى السماوات وما فى الأرض،والكون كله خاشع خاضع له، وملكية الكون تنفى الوالدية عن الحق سبحانه.

إن الكون مفعول من قبل الله، والكون بكل مَنْ فيه وما فيه أقل مِن فاعله. وإذا كان الإنسان يحتاج للأولاد خلفاً له بعد مماته ،فخالق الحياة منزّه عن ذلك . إن الأبناء فى الحياة مظهر قوى للآباء، لكن خالق الحياة قوته منزهة عن أن تتم طلاقتها من وجود أبناء.

إن الأبناء يوجدون فى الحياة معونة للآباء. والحق لا يستمد معونة من أحد [(١)]؛ إنه حى بلا نهاية، إنه القاهر فوق كل عباده ومخلوقاته، تنفعل الأشياء كلها بإرادته إنه يريد الشيء فيبرزه إلى الوجود: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [يس: ٨٢] .

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [فاطر:١٥]
قال ابن كثير : يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها بين يديه، فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ** ﴾ أى محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو تعالى الغنى عنهم بالذات ولهذا قال عز وجل : ﴿ **وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ أى هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه. [تفسير ابن كثير:٣/٥٢٩]

إن الحق جل وعلا سبحانه وتعالى له كل صفات القدرة. إن كل الخلق متعلق بقدرة الله ، وقدرة الله موجودة قبل خلق الكون.

* الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً *

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١] .

فكأن عدم اتخاذ الله سبحانه وتعالى ولداً ، نعمة كبيرة يجب أن يحمد عليها (١) ؛ لانه سبحانه لو كان له ولد - وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- لخصَّه بالرعاية وترك بقية الخلق، فكأن الحق يقول أنا ليس لى ولد حتى تكونوا كلكم سواء، فالخلق كلهم سواسية عند الله، وهذه نعمة للخلق جميعاً؛ لأن رحمة الله وحنانه سيكونان لنا جميعاً؛ كما أن اتخاذ الولد يجعل الوالد مذكوراً بعد موته ، والله تعالى منزَّه عن الموت ، فلا حاجة له فى ذلك تعالى عما يقولون عُلواً كبيراً، بينما الإنسان عكس ذلك فهو يحب الذرية، حتى يمتد ذكره بعد موته ويفرح بولده؛ لأنه سيخلفه ويحمل اسمه كما يفرح بحفيده لهذا السبب أيضًا ، ولأن الأبناء عزوة وقوة وزينة الحياة الدنيا لكن الله هو القهار، وهو الجبار، وهو القوىّ، فهو سبحانه منزه عن الصاحبة والولد.

وأنت إذا نظرت فى الكون وجدت أن الفساد يأتى إما من الصاحبة، وإما

---

(١) عن يعلى العامرى أنه جاء حسن وحسين رضى الله عنهما يستبقان إلى رسول الله ﷺ فضمهما إليه، وقال: « إن الولد مبخلة مجبنة. . » الحديث.

أخرجه أحمد فى المسند [٤/ ١٧٢]، ابن ماجة [٣٦٦٦]، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [٢٩٥٧]. وأخرجه الحاكم فى المستدرك [٣/ ١٦٤] وزاد: « محزنة ». وصححه ، ووافقه الذهبى .

من الولد، كذلك لو كان لله شريك فى الملك فمن فيهما الذى ترضيه ؟ ومن الذى تعبده وكيف يسير الكون ؟ إنها عملية غير مقبولة.

ولذلك قال سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ [الزمر : ٢٩].

فهذا عبد مملوك لعدد من الأسياد المختلفين، لهذا يأمره أحدهم بشىء والآخر يأمره بعكسه فلابد أنه سيتعب جداً، ولكن العبد الآخر له سيّد واحد، فهذا لا شك أنه سيكون مرتاحاً عن الآخر ، فكذلك الإنسان الذى يعبد الله وحده والذى يعبد آلهة متعددة ، فما دام الله ليس له شريك فى الملك فأوامره نافذة بدون معقّب، وتطمئن إن أمرت بشىء منه أنه ليس هناك قوة أخرى تمنعك من تنفيذه . والولىّ هو الذى يليك ، وأنت لا تجعله يليك إلا إذا كان نافعاً لك فهو قوى وأنت ضعيف؛ فينصرك لأن لك أعداء، فلأنك ذليل وليس عندك ذاتية تذهب إلى من عنده ذاتية وتحتمى به وتأخذ ولاءه ، فالحق سبحانه وتعالى ليس له ولىّ من الذل لأنه هو العزيز المعز.

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ يشير إلى أن تكبير الله تعالى جعل شعار الأذان والصلاة ، فكل ما دون الله من الأغيار فالله أكبر منه، فإن ناداك وأنت فى أى عمل فقل: الله أكبر من عملى ، إن ناداك وأنت مع عظيم فقل : الله أكبر من أى عظيم .

فمعنى ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ : أن تقدم أوامره ونواهيه على كل أمر أو كل نهى؛ لأنك إن كبَّرت الحق سبحانه وتعالى أعززت نفسك، ولذلك فعزّة الله لخلقه تأتى لمن يخلص العبودية(١). وكلمة العبودية مكروهة إلا إذا كانت لله؛

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ هذه الآية رادَّة على اليهود والنصارى والعرب فى قولهم أفذاذا: عزير وعيسى والملائكة ذرية الله =

لأن العبودية لله عزة، ولكن عبودية الإنسان للإنسان هى المكروهة والمذمومة، وتقوم بسببها معارك وحروب فى العالم كله؛ وذلك لأن فى هذه العبودية السيد يأخذ خير العبد، ولكن عبوديتنا لله نأخذ نحن العبيد خير السيد وهو الله، فهذه عزة وليست ذلة؛ فأن يكون الإنسان عبداً ذليلا لله ففى ذلك كمال عزته ، كما يقول أحد الصالحين :

حسب نفسى عِزّاً بأنِّى عبدٌ يحتفى بى بلا مواعيدَ رَبٌّ

هو فى قدسه الأعزُّ لكـــن أنا ألقَى متى وأين أحـــبُّ

ونحن قلنا سابقاً : إذا أردنا مقابلة عظيم من العظماء، نكتب له طلباً للمقابلة، ونوضح له فيه أننا نريد مقابلته من أجل كذا وكذا ، فإن كان عنده وقت رد عليك وحدد لك زمان ومكان ومدة المقابلة، وهو الذى ينهى اللقاء، لكن ربنا سبحانه أخبرنا أن الزمام فى يدك بمجرد أن آمنت به خالقاً، فى أى وقت شئت كَلِّمْهُ فى أى شىء تريد، وأنت الذى تنهى اللقاء؛ لأن الله لا يمل حتى تملوا ، كما قد أخبرنا رسول الله ﷺ : « عليكم من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا»(1). فهل هناك عز أكبر من هذا !!

= سبحانه؛ تعالى الله عن أقوالهم ! ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ لأنه واحد لا شريك له فى ملكه ولا فى عبادته. ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ﴾ قال مجاهد : المعنى لم يحالف أحداً ولا ابتغى نصر أحد ؛ أى لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعاً. وقال الكلبى: لم يكن له ولىّ من اليهود والنصارى؛ لأنهم أذل الناس، ردّاً لقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقال الحسن بن الفضل: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ﴾ يعنى لم يُذلّ فيحتاج إلى وَلِىّ ولا ناصر لعزته وكبريائه . ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ أى عظّمه عظمة تامة. ويقال: أبلغ لفظة للعرب فى معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر؛ أى صفه بأنه أكبر من كل شىء. [تفسير القرطبى: ١٠/ ٣٤٥]

(١) أخرجه مسلم [٧٨٥/ ٢٢١] عن عائشة رضى الله عنها .

ولذلك كانت حيثية الرفعة لرسول الله ﷺ فى الاسراء والمعراج أنه عبد الله؛ قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

إذن: العبودية له سبحانه عزة فكبره تكبيراً، واعلم أنك إن التجأت إليه وكنت فى معيته كنت أكبر من غيرك، ولا يستطيع أحد أن ينالك بسوء لأنك فى معية الله ومن كان الله معه فلا يحزن، ولكن الذى يشرد من معيّة الله هو الذى يتعب، إن الذي يظل فى معية ربه لا يستطيع أحد أن يناله بسوء أبداً.

ولذلك فالإنسان الصحيح القوى يعيش فى معية نعمة الله، فإذا مَرِضَ أصبح فى معية الله ذاته، ويوضح ذلك الحديث القدسى الذى يقول فيه الحق سبحانه: «يا ابن آدم، مرضت فلم تعدنى. قال: يارب، كيف أعودك وأنت رب العالمين قال: أما علمت أن عبدى فلانًا مَرِضَ فلم تعده، أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتنى عنده ...» (١)، فأى مريض يشعر بأن الله معه ماذا يكون موقفه؟ لا يشعر بألم المرض أبداً، ويستحى أن يتأوّه، وكيف يتأوه وهو فى معيّة الله؟!

ولذلك يقولون: الصحيح مع نعمة الله، والمريض مع الله ذاته، والشرع حضّنا على عيادة المريض (٢) لنخفف عنه ونؤنسه وننسيه آلامه، ثم إذا عرف

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٥٦٩/٤٣] عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) أخرج مسلم [٢٥٦٨/٤٢] عن ثوبان، مولى رسول الله ﷺ، عن رسول الله ﷺ، قال: «من عاد مريضاً، لم يزل فى خُرْفَةِ الجنة». قيل: يا رسول الله! وما خرفة الجنة؟ قال «جنَاها».

قال الإمام النووى: أى يؤول به ذلك إلى الجنة، واجتناه ثمارها.

[شرح النووى على مسلم: ٨/ ٣٦٩]

أنه فى معية الله واستحضر هذه المعية لا يشعر بألم أبداً.

بهذه الآية ختمت سورة الإسراء: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ وأعظم نعم الله علينا هذه النعم الثلاث وهى ليست كل النعم التى أنعم الله بها علينا، بل لله نعم كثيرة (١) ، لكنها قمة النعم التى نحمد الله عليها.

فالحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ؛ لأنه لم يلد ولم يولد ، وهو الواحد الأحد، والحمد لله الذى لم يتخذ شريكاً لأنه واحد، والحمد لله الذى لم يكن له ولى من الذل ؛ لأنه قاهر عزيز قوى، ولهذا يجب أن نكبر هذا الإله تكبيراً فى كل نعمة نستقبلها منه.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

* إيمان أهل الكتاب بعيسى *

يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾(1) [النساء: ١٥٩].

«وإن» هنا هى «إِنْ» النافية وهى غير «إن» الشرطية وإليكم هذا المثال عن إن النافية من موضع آخر من القرآن حين قال الحق: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلا اللائِي وَلَدْنَهُم﴾ [المجادلة: ٢].

---

(١) قال البغوى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾: أى: وما من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام، هذا قول أكثر المفسرين وأهل العلم، وقوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ اختلفوا فى هذه الكناية: فقال عكرمة ومجاهد والضحاك والسدى: إنها كناية عن الكتابى، ومعناه: وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام قبل موته، إذا وقع فى البأس حين لا ينفعه إيمانُه سواء احترق أو غرق أو تردَّى فى بئر أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة، وهذه رواية عن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهم. قال: فقيل لابن عباس رضى الله عنهما: أرأيت إن خرَّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به فى الهواء قال: فقيل أرأيت إن ضرب عُنقُ أحدهم؟ قال: يتلجلج به لسانه.

وذهب قوم إلى أن الهاء ﴿مَوْتِهِ﴾ كناية عن عيسى عليه السلام، معناه: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى عليه السلام، وذلك عند نزوله من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد إلا آمن به حتى تكون الملة واحدة، ملة الإسلام. وروينا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، ويهلك فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويقتل الدجال فيمكث فى =

إن الحق هنا يقول لهؤلاء الذين يظاهرون من نسائهم بقول الواحد منهم لزوجته: «أنت محرمة علىَّ كظهر أمى». هؤلاء يقول الحق لهم مصححًا هذا الخطأ الذى وقعوا فيه: ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلا اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أى أن الحق يوضح ما يلى: ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم، و«إنْ» فى هذه الآية التى نحن بصددها هى «إنْ» النافية؛ كأن الحق يقول: ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمن به قبل موته. هذا معنى «إن» النافية.

وقد يقول قائل: ما حكاية الضمائر فى آية سورة النساء؟ لأن الآية بها أكثر من ضمير، مثال ذلك قول الحق فى نفس الآية: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ على من تعود ﴿ بِهِ ﴾؟ وعلى من تعود الهاء فى آخر قوله: ﴿ مَوْتِهِ ﴾؟ هل موت عيسى أم موت واحد من أهل

= الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويُصلى عليه المسلمون »(1) وقال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾، قبل موت عيسى ابن مريم ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات.

وروى عن عكرمة: أن الهاء فى قوله: ﴿ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ كناية عن محمد ﷺ يقول: لا يموت كتابى حتى يؤمن بمحمد ﷺ.

وقيل: هى راجعة إلى الله عز وجل يقول: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمن بالله عز وجل، قبل موته عند المعاينة حين لا ينفعه إيمانه.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ ﴾، يعنى: عيسى عليه السلام، ﴿ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أنه قد بلّغهم رسالة ربه، وأقر بالعبودية على نفسه، كما قال تعالى خبرا عنه: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧] وكل نبى شاهد على أمته، قال الله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾ [تفسير البغوى: ٢/٣٠٧، ٣٠٨]

(١) أخرجه البخارى [٣٤٤٨] ومسلم [١١٥] والمثبت هنا فيه بعض الخلاف فى الألفاظ.

الكتاب؟ فالمذكور عيسى ومذكور أيضاً أهل الكتاب فى ﴿بِهِ﴾ الأولى فيها «هاء» قد يصح أن يكون القول كالآتى: « لن يموت واحد من أهل الكتاب إلا بعد أن يؤمن بعيسى»، يصح أيضاً: « لن يموت عيسى إلا بعد أن يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب» لماذا؟ لأن الضمير لا يُعرف إلا بمرجعه، والمرجع هو الذى يبين الضمير، فالواحد منا يقول: جاءنى رجل فأكرمته. الضمير هنا يرجع إلى إكرام الرجل. وحين نُرجع الضمير على مرجعه، فالمرجع هو الذى يحدد معناه؛ فإن كانت هناك ألفاظ كل منها يصح أن يكون مرجعاً؛ إنها تحتاج إلى عملية عقلية، فعندما يقول قائل: «تصدقت بدرهم ونصفه» فمعنى ذلك أن الرجل تصدق بالدرهم وبنصف مثيل له.

إذن. . فالضمير إما أن يعود على كل المرجع، كأن يقول واحد: «جاءنى رجل فأكرمته»، وإما أن يعود الضمير على مثل المرجع كأن يقول واحد: « أكلت رغيفاً ونصفه » أى أن هذا القائل قد أكل رغيفاً ونصف رغيف آخر، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه؛ كقول الحق سبحانه: ﴿ **وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلا فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [فاطر: ١١].

إن المعمر هو الإنسان الذى طعن فى السن ولا ينقص من عمر هذا المعمر، إلا كما أراد الله(١). إن الهاء فى ﴿عُمُرِهِ﴾ تعود إلى بعض من

(١) عمَّره الله وَعَمر: أبقاه. وعمرَّ نفسه قدَّر لها قدراً محدوداً . وقوله عز وجل : ﴿ **وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلا فِى كِتَابٍ** ﴾ ؛ فسر على وجهين : قال الفراء : ما يُطَوَّل من عمر معمر ولا يُنقَصَ من عمره ، يريد الآخر غير الأول، ثم كنى بالهاء كأنه الأول ؛ ومثله فى الكلام : عندى درهم ونصفه ؛ المعنى ونصف آخر ، فجار أن تقول نصفه ؛ لأن لفظ الثانى قد يظهر كلفظ الأول ؛ فكنى عنه ككناية الأول ؛ قال : وفيها قول آخر: ما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره، يقول: إذا أتى عليه الليل =

المعمر، فالمعمر ذاتٌ ثبت أن لها التعمير، ذلك أن كلمة ﴿مُعَمَّرٍ﴾ مكونة من عنصرين هما: «ذات الرجل» و«عمر الرجل» فلما عاد الضمير عاد على الذات دون التعمير، فيكون المعنى هو: وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير؛ لكن ماذا يكون الحال حين يوجد مرجعان؟

مثال ذلك، كما فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] إننا هنا أمام مرجعين: «السماء والعمد» فعلى أى منهما تعود الهاء الموجودة بكلمة ﴿تَرَوْنَهَا﴾، هل تعود الهاء إلى المرجع الأول وهو السموات، أم للمرجع الثانى وهو العمد؟ يصح أن تعود الهاء إلى السموات ويصح أيضا أن تعود إلى العمد، وهى عمد بنظام آخر غير العمد المعروفة لنا. إنها عمد وضعها الحق سبحانه بقوانين الجاذبية. نحن نرى السماء بدون عمد وقد رفعها الله، أو هو رفع السموات بغير عمد، أى أن العمد مختفية عن رؤية البشر؛ لأن الرفع قد تم بقوانين الجاذبية، هكذا يصح أن ينسب الضمير إلى أحد المرجعين.

وهكذا عرفنا أن الضمير من المعارف، إلا أنه فيهم لا يبين معناه إلا بمرجعه، فإن رجع فإما أن يكون معناه للمرجع كله أو مثل مرجعه أو من بعض مرجعه، فإن رجع إلى أمرين قد سبقا، فالعملية العقلية تسمح لنا أن نعرف أن الضمير يرجع إلى كل منهما أو أى منهما.

= والنهار نقصا من عمره، والهاء فى هذا المعنى للأول لا لغيره؛ لأن المعنى ما يُطوَّل ولا يُذهب منه شىء إلا وهو محصى فى كتاب، وكلٌّ حسن، وكأن الأول أشبه بالصواب، وهو قول ابن عباس والثانى قول سعيد بن جبير.

[لسان العرب: ٤/ ٦٠٢، ٦٠٣]

الآية التى نحن بصددها نجد أنه قد تقدم فيها شيئان هما :المسيح، وأهل الكتاب، وفيها ضميران اثنان؛ فهل يعود الضميران على عيسى، أم يعود الضميران على أهل الكتاب، أم هل يعود ضمـير منهمـا على عيسى والآخر على أهل الكتاب ، وأى منهما الذى يرجع على عـيسى ، وأى منهما الذى يرجع على أهل الكتاب ، أم أن هناك مرجعاً ثالثاً لم يذكر ويُعلم من السياق وهو محمد ﷺ؟

نقول: إن الضميرين يرجعان إلى المرجع الثالث الذى لم يذكر ونعلمه من السياق،إن الضميرين يرجعان إلى محمد ﷺ الذى بشَّر بمجيئه عيسى ابن مريم، وتواترت الأحاديث عن أن عيسى يوشك أن ينزل فيكسر الصليب،ويقتل الخنزير، ولسوف يصلى عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول الله ﷺ(١) .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » .
أخرجه البخارى [٢٢٢٢] ، ومسلم [١٥٥/٢٤٢]

* إقرار عيسى بعبوديته لله تعالى *

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١١٦].

وعلينا أن نعرف أن هذا هو الحوار الذى سوف يدور بين الحق سبحانه وتعالى وعيسى ابن مريم يوم يجمع الحق سبحانه الرسل : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ .

قد يقول قائل: لماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار فى صيغة الفعل الماضى؟! للإجابة عن ذلك علينا أن نتأمل قول الحقِّ سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ .

فيجب أن نعرف أن لكل حدث زمانًا ومكانًا؛ وزمان هذا الحدث يوم القيامة، ومكان هذا الحدث فى ساحة المشهد والحشر[1]. والحق سبحانه

---

(١) قال ابن كثير : هذا أيضا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ =

= وتقريع على رؤوس الأشهاد ، هكذا قاله قتادة وغيره ، واستدل قتادة على ذلك بقوله : ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُم﴾ وقال السدى: هذا الخطاب والجواب فى الدنيا. قال ابن جرير: هذا هو الصواب وكان ذلك حين رفعه إلى السماء الدنيا. واحتج ابن حرير على ذلك بمعنيين:

أحدهما: أن الكلام بلفظ المضى .

والثانى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ ﴿إِن تَغْفِرْ لَهُم﴾. وهذان الدليلان فيهما نظر؛ لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضى؛ ليدل على الوقوع والثبوت، ومعنى قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية. التبرى منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعه، كما فى نظائر ذلك من الآيات والذى قاله قتادة وغيره هو الأظهر والله أعلم. إن ذلك كائن يوم القيامة؛ ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة وقد روى بذلك حديث مرفوع رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز وكان ثقة قال : سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه-أبى موسى الأشعرى-قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دعى بالأنبياء وأممهم ثم يدعى بعيسى، فيذكره الله نعمته عليه فيقر بها فيقول: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ الآية. ثم يقول: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون فيقولون نعم هو أمرنا بذلك، قال: فطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من رأسه وجسده، فيجاثيهم بين يدى الله عز وجل مقدار ألف عام، حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار» وهذا حديث غريب عزيز.

وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هذا توفيق للتأديب فى الجواب الكامل كما روى ابن أبى حاتم بسنده روى عن أبى هريرة قال: يلقى عيسى حجته ولقاء الله تعالى فى قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال أبو هريرة عن النبى ﷺ فلقاه الله ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ..﴾ إلى آخر الآية.

[تفسير ابن كثير: ٢/١١٣، ١١٤] بتصرف

وتعالى خالق كل زمان وكل مكان، وله أن يتحدث فى أى أمر بأى صيغة شاء، سواء أكانت صيغة الماضي أم الحاضر أم المستقبل؛ فالحق قد أوجد كل شيء من ماضٍ وحاضر ومستقبل، وبيده أمر كل ما خلق ومن خلق. وذلك أمر مختلف عن حالة الحادث العارض وهو الإنسان، فالحق تَقَدَّستْ أسماؤُهُ وصفاته أزلى قيوم، أما بالنسبة للإنسان فالأمر مختلف. إن الزمن بالنسبة لأفعالنا واحد من ثلاثة: ماضٍ ، أى أن يكون الحدث قد وقع قبل أن أتكلم مثل قولى: قابلنى زيد. ومعنى ذلك: أن الفعل قد تم وصار مُحَقَّقًا.

وحاضر: أى أن يكون الحدث فى حالة وقوعه الآن، مثل قولى : يقابلنى زيد . ومعنى ذلك أن العين ترى زيدًا الآن، ومستقبل : أى أن الحادث سوف يقع، كقولى: سيقابلنى زيد. وهذا الزمن المستقبل لا يملك الإنسان فيه أن يحدث منه الحدث، ولا يملك ألا يقع أمر على الإنسان الذى سوف يقابله قد يمنعه من إتمام الحدث، ولا يملك الإنسان أن يظل السبب قائماً.

إذن . . فمع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشيء؛ لأنه لا يملك أى عنصر من عناصر الحدث. إن الذى يملك ذلك كله هو الله سبحانه وتعالى وحده ؛ ولذلك يأمرنا الله عندما نعزم على فعل أمر أن نقول : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ . إن على الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة، وأن يتذكر دائماً قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه، وليس معنى ذلك أن الحق سبحانه يمنعنا من التخطيط للمستقبل أو الأخذ بالأسباب . لا ، إنه يطلب منا أن نخطط ، وأن ندرس كل الاحتمالات ، وعلينا أن نقول : إن شاء الله قبل وبعد هذا التخطيط؛ لأننا بذلك نقدم مشيئة من يملك كل أمر والذى لا مُعَقِّبَ لحكمه ولا رادَّ لقضائه.

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن ينفثوا سمومهم فى عقول المسلمين، بالتساؤل عن عدم ترتيب الأفعال على نسق حدوثها فى بعض من آيات القرآن، فقال قائل منهم : كيف يقول الحق تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١].

إن هذا خبر عن يوم القيامة، فكيف يأتى به الله سبحانه وتعالى على صيغة الماضى ،وكيف يقول: و﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وكيف يكون الاستعجال على شىء لم يحدث بعد ؟!

نقول لمن قال ذلك: إن الذى يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى ، وليس إنساناً مثلك محكوماً بأزمانه. إن المتكلم هو صاحب كل الأزمان وخالقها، فعندما يقول سبحانه : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ ؛ فمعنى ذلك أن الأمر آت لا محالة؛ لأنه لا قدرة تخرج عن مراده؛ لأنّ أى فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملابسات الزمان وعن ملابسات المكان(١) . فإن كنا نقرأ على سبيل المثال : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ فليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته هى فعل ماضٍ، ولكن لنقل : كان الله غفوراً رحيما ولا يزال غفوراً رحيما؛ إنه سبحانه وتعالى غفور رحيم قبل أن يوجد من

---

(١) قال القاسمى : وقال الذهبى رحمه الله أيضاً: مقال متأخرى المتكلمين، أن الله تعالى ليس فى السماء ولا على العرش ولا على السموات ولا فى الأرض ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا هو بائن عن خلقه ولا متصل بهم. وقالوا : جميع هذه الأشياء صفات الأجسام والله تعالى منزه عن الجسم . قال لهم أهل السنة والأثر : نحن لا نخوض فى ذلك ونقول ما ذكرناه اتباعاً للنصوص ولا نقول بقولكم. فإن هذه السلوب نعوت للمعدوم. تعالى الله جل جلاله عن العدم. بل هو موجود متميز عن خلقه، موصوف بما وصف نفسه، مِنْ أنه فوق العرش بلا كيف. انتهى.
[تفسير القاسمى : ١٤/٥٢٢٨]

يغفر له ويرحمه، ومن باب أولى أن يكون غفورًا رحيماً بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة. إن الحق سبحانه مُنَزَّهٌ عن أن تعتريه الأحداث فيتغير. إن الزمن مخلوق من مخلوقات الله، فلا تقل: متى أو أين ؟ لأنهما به وجدا، والحق يأتى بالماضى؛ لأنه متحقق الوقوع، وإذا قال الله عن شيء : إنه سيحدث؛ فلابد أن يحدث.

والحق سبحانه عندما يذكر عيسى عليه السلام فى أى موضع فإنه ينسبه لأمه ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ونعرف أن السؤال إنما يأتى دائما على وجهين: إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله، فيريد أن يعلمه من المسئول، كقول القائل: أقابلك فلان أمس؟ وإما ليقر المسئول بما يعلمه السائل. ومثال ذلك أن يسأل الأستاذ التلميذ، إن الأستاذ يسأل التلميذ ليقر بما تعلمه. وحاول بعض المستشرقين أن يقولوا: إن هناك تناقضًا فى القرآن - والعياذ بالله - واستندوا فى ذلك إلى قول الحق: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤]. أى أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يفعل، ويعتقد. ولكنه سبحانه يقول فى موضع آخر : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ ﴾ فهل معنى ذلك أنهم لن يُسألوا؟ لا، سوف يُسألون؛ ليقرروا ما فعلوه، لا ليعلم الله منهم ما فعلوه؛ فهو سبحانه عليم بكل شيء. وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين: وجه ليعلم السائل، ووجه ليقرر المسئول. وسؤال الحق للناس يوم القيامة؛ ليقرروا ما فعلوه وما كان منهم؛ لأن الإقرار سيد الأدلة، وليس سؤال الحق سبحانه وتعالى سؤال من يرغب فى أن يعلم؛ لأنه سبحانه وتعالى عليم بكل شيء والإنسان عليه أن يحتفظ بالمقام الذى وضعه فيه ربه، وكذلك

كان عيسى ابن مريم عليه السلام. وكذلك يكون سؤال الله لعيسى عليه السلام. إنه لتقريع من قالوا عن عيسى عليه السلام ما لم يبلغهم إياه. إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله؛ لأن عيسى ابن مريم عليه السلام إنما بلغ ما أوحى له به ربه فقط، ولهذا تأتى إجابة عيسى عليه السلام ردًّا على هذه الافتراءات من الأتباع: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[المائدة:١١٦]. وحين نسمع ﴿سُبْحَانَكَ﴾ لنعرف أنها إجمال التنزيه لله عز وجل، وهو تنزيه أن يشابهه خلق من خلق الله، فللَّه تقَدَّس اسمه وجود وللإنسان وجود، ولكن إياك أن تقول أيها الإنسان: إن وجودك كوجود الله سبحانه وتعالى؛ لأن وجود الله عز وجل ذاتى، ووجودك غير ذاتى. وكل ما فيك موهوب لك من الله سبحانه وتعالى، وكذلك فليس غناك كغنى الله سبحانه وتعالى، ولا قدرتك كقدرة الله سبحانه وتعالى، ولا أى صفة من صفاتك كصفات الله؛ لأنه سبحانه له مطلق القدرة والقوة، إنَّ كل شىء يتعلق بالله فى نطاق «سبحانه»، وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ إنه عليه السلام يعلم أن الرسول المصطفى من الله سبحانه، ليس له أن يقول: إنه إله، وفى هذا القول تقريع لمن ادعى على عيسى عليه السلام مثل هذا القول، ورد عيسى عليه السلام على ذلك بقضية متفق عليها فقال لربه: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ المائدة:١١٦] إن الكل متفق على أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل ما بَدَر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال، والكل يعلم تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن أن يخفى عليه شىء،والكل يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعلم خفايا الصدور؛يخبرنا عيسى عليه السلام بذلك:

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ إن عيسى عليه السلام يقرر أن الحق سبحانه وتعالى العليم بكل شيء يعرف أن ذلك لم يخطر له على بال. وهذه هي العلة في إيراد ثلاث صور في هذه الآية :

الصورة الأولى : تنزيه عيسى عليه السلام لربه عز وجل بقوله : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: ١١٦].

والصورة الثانية : هي قول عيسى لربه: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ .

و**الصورة الثالثة** : هي قوله لربه: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ .

إذن . . فلا شيء من جانب عيسى عليه السلام ولم يقل ذلك، وإنما هو تقريع من الله عز وجل لمن قالوا في عيسى عليه السلام وأمه غير الحق، ويختم عيسى ابن مريم عليه السلام بقوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ وكلمة ﴿ عَلاَّمُ ﴾ هي مبالغة في ذات الحدث، ومبالغة في تكرار الحدث؛ فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما في كونه يعلم كل ما كان وما يكون سبحانه لأن الكون كله ملك له[1].

(١) قال القاسمي في قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ استئناف مقرر لدعم صدور القول المذكور عنه عليه السلام ، بالطريق البرهاني ؛ فإن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعاً . فحيث انتفى علمه تعالى به ، انتفى صدوره عنه حتما . ضرورة ، أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم . قاله أبو السعود .

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله . كأنه قيل : لأنك تعلم ما أخفيه في نفسي . فكيف بما أعلنه ؟

وقوله تعالى: ﴿ وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ بيان للواقع، وإظهار لقصوره. أي ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك . أفاده أبو السعود ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ .

[تفسير القاسمي : ٦/ ٢٢٢٢] =

= وقال القرطبى : ﴿إن كنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فردّ ذلك إلى علمه ، وقد كان اللّه عالماً به أنه لم يقله ، ولكنه سأله عنه تقريعاً لمن اتخذ عيسى إلهاً . ثم قال : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أى تعلم ما فى غيبى ولا أعلم ما فى غيبك . وقيل : المعنى تعلم ما أعلم، ولا أعلم ما تعلم . وقيل : تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تُخفيه. وقيل: تعلم ما أريد، ولا أعلم ما تريد . وقيل : تعلم سرى ولا أعلم سرك؛ لأن السر موضعه النفس . وقيل : تعلم ما كان منى فى دار الدنيا ، ولا أعلم ما يكون منك فى دار الآخرة .

قلت : والمعنى فى هذه الأقوال متقارب ؛ أى تعلم سرى وما انطوى عليه ضميرى الذى خلقته ، ولا أعلم شيئاً مما استأثرت به من غيبك وعلمك . ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ ما كان وما يكون ، وما لم يكن وما هو كائن .

[تفسير القرطبى : ٦/ ٣٧٦]

* رسول إلى بنى إسرائيل يشهد عليهم *

يقول الحق تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]

إن عيسى عليه السلام يقرر أنه لم يبلغ قومه إلا ما أمره الله ببلاغه، وأنه دعاهم إلى عبادة الله كربٍّ له ورب لهم جميعا، وعيسى شاهد عليهم فى كل تصرفاتهم وهو موجود بينهم، والشهيد كما نعلم هو الذى يشهد السلوك ولا يقدر أن يمنع الناس المشهود عليهم عن فعل ما يفعلونه. وبعد أن يتوفاه الله يكون الحق سبحانه وتعالى هو الرقيب عليهم، والرقيب هو الشاهد الذى يقدر أن يمنع الحدث، والحق رقيب ويقدر أن يمنع الناس عما ارتكبوا من المخالفات؛ كأن يبعث لهم من يذكرهم، ليهديهم أو يكف أيديهم، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين مشهدية الخلق ورقابة الحق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

إنه لا يترك المسألة لشهادة الخلق فقط، ولكن لرقابته أيضا، ويؤكد ذلك بتذييل الآية ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

إن الحق الذى يشهد ويقدر أن يفعل ما يريد، ومسألة الرفع كما نعلم

هى الأخذ كاملا دون نقض فى البنية بالقتل أو الموت. ونحن المسلمين نعرف أن الحق رفع محمداً ﷺ بالإسراء والمعراج إلى السماوات وعاد إلينا مرة أخرى؛ ليكمل رسالته، فنحن نصدق أمر رفع عيسى وأنه سوف يعود مرة أخرى ليصلى خلف مؤمن بالله وبمحمد رسول الله ﷺ.

إن أمر الرفع فى الإسلام مقبول؛ فقد رفع الله رسول الله ﷺ ودار بينه وبين إبراهيم عليه السلام حوار، وكذلك دار الحوار بينه وبين يحيى عليه السلام، وآدم عليه السلام وفرض الحق الصلاة على أمة المسلمين فى تلك الرحلة. وهكذا تعرف أن مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء أمر وارد، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقض المبدأ. إن الحق سبحانه أراد بالقرآن رحمة بالخلق؛ لذلك فكل شيء يقف فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام. فإن الله يأتى به فى أسلوب لا يسبب الفتنة، فإن صدقنا أن عيسى رفع فلن يزيد ذلك علينا حكماً ولن ينقض حكماً. ولذلك جاء الحق بمسألة الإسراء بنص قطعى، أما مسألة المعراج فلم تأت نصًّا إنما التزاماً؛ لأن الحق سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥)﴾ [النجم] وهكذا فالإسراء آية أرضية والمعراج آية سماوية. وقد وصف رسول الله ﷺ بيت المقدس لمشركى قريش (١)؛ قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

إذن.. جاء الإسراء نصًّا؛ لأنه آية أرضية. أما الآية السماوية وهى المعراج فجاءت التزاماً، وكذلك أمر رفع عيسى عليه السلام فمن يرى أن

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «لما كذبنى قريش قمت فى الحِجْر فجلَّى الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». أخرجه البخارى [٤٧١٠] واللفظ له، ومسلم [١٧٠].

القدرة المطلقة لله فهو يصدق ذلك، ومن يقف عقله نقول له: إن وقوف عقلك لا يخرجك عن الإيمان واليقين وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة: ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾ فنجد أن الوفاة تعنى «إماتة» والحق يقول: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾.

أى: أماتته. والحقُّ تعالى يقول: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

والله سبحانه وتعالى يقول أيضا: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

إنه يسمى النوم: وفاة، وسماه موتاً، وهو أمر فيه إرسال وفيه قبض، ومعنى الموت فى بعض مظاهره: غياب حس الحياة، والذى ينام إنما يغيب عن حس الحياة.

إذن.. فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم، ويقال أيضا عن الدَّين: توفيت دَينى عند فلان: أى أخذت دَينى كاملا غير منقوص، وكذلك أمر قتل المسيح قال فيه الحق تعالى القول الفصل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضا، فقد قال الحق: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. إن الموت هو خروج الروح مع بقاء الأبعاض سليمة، أما القتل فهو إحداث إتلاف فى البنية فتذهب الروح. وقد قال المسيح ابن مريم كما بين لنا ربنا: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أى أخذتنى كاملاً غير

منقوص[1]. وهذه مسألة لا تنقض الرفع، ونعلم أن كل ذلك سيكون مجالا للحوار بين عيسى ابن مريم وبين الحق سبحانه يوم المشهد الأعظم. وعيسى عليه السلام يقول عن نفسه: إنه مجرد شهيد على قومه فى زمن وجوده بينهم، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فإن الرقابة على القوم تكون لله. لقد قسم المسألة بينه وبين ربه، فالحق سبحانه شهيد دائما ورقيب

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾: يعنى فى الدنيا بالتوحيد. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ «أن» لا موضع لها من الإعراب وهى مفسرة مثل ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص:٦] ويجوز أن تكون فى موضع نصب؛ أى ما ذكرت لهم إلا عبادة الله. ويجوز أن تكون فى موضع خفض؛ أى بأن اعبدوا الله؛ وضم النون أولى؛ لأنهم يستثقلون كسرة بعدها ضمة، والكسر جائز على أصل التقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ أى حفيظا بما أمرتهم. ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ «ما» فى موضع نصب أى وقت دوامى فيهم. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: هذا يدل على أن اللّه عز وجل توفاه قبل أن يرفعه؛ وليس بشىء؛ لأن الأخبار تظاهرت برفعه، وأنه فى السماء حىٌّ، وأنه ينزل ويقتل الدَّجَّال وإنما المعنى فلما رفعتنى إلى السماء. قال الحسن: الوفاة فى كتاب اللّه عز وجل على ثلاثة أوجه: وفاة الموت، وذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] يعنى وقت انقضاء أجلها.

ووفاة النوم؛ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] يعنى الذى ينيمكم.

ووفاة الرفع، قال اللّه تعالى: ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران:٥٥] وقوله: ﴿كُنتَ أَنتَ﴾ أنت هنا توكيد ﴿الرَّقِيبَ﴾ خبر ﴿كُنتَ﴾ ومعناه الحافظ عليهم، والعالم بهم والشاهد على أفعالهم؛ وأصله المراقبة أى المراعاة؛ ومنه المرقبة لأنها فى موضع الرقيب من علو المكان. ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أى من مقالتى ومقالتهم. وقيل: على من عصى وأطاع. [تفسير القرطبى: ٦ / ٣٧٦، ٣٧٧]

دائما، ولكن عيسى ببشريته يقدر أن يشهد فقط، والله القـادر وحـده على أن يشهد ويغير فسبحان الذى يُغَيِّر ولا يتغيَّر.

عيسى عليه السلام يفوض أمر قومه لمشيئة الله تعالى

جاء على لسان عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

ولقائل أن يقول: أليس فى ذلك الأمر إشكال واضح (١) لقد فتن بعض أتباع عيسى، فاتخذوه هو وأمه إلهين من

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ شرط، وجوابه: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مثله. رَوى النَّسائى عن أبى ذر قال: قام النبى ﷺ بآية ليلة حتى أصبح(١)، والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ واختلف فى تأويله فقيل: قاله على وجه الاستعطاف لهم، والرأفة بهم، كما يستَعطف السيد لعبده، ولهذا لم يقل: فإنهم عَصَوك.

وقيل: قاله على وجه التسليم لأمره، والاستجارة من عذابه وهو يعلم أنه لا يغفر لكافر.

وقيل: الهاء والميم فى ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾. لمن مات منهم على الكفر، والهاء والميم فى ﴿إِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لمن تاب منهم قبل الموت، وهذا حسن. وأما قول من قال: إن عيسى عليه السلام لم يعلم أن الكافر لا يغفر له فقول مجترئ على كتاب الله عز وجل؛ لأن الأخبار من الله عز وجل لا تُنسخ. وقيل: كان عند عيسى أنهم أحدثوا معاصى، وعملوا بعده بما لم يأمرهم به، إلا أنهم على عَمُود دينه، فقال: وإن تغفر لهم ما أحدثوا بعدى من المعاصى. وقال: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: «فإنك أنت الغفور الرحيم» على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره، والتفويض لحكمه. ولو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه، وذلك مستحيل؛ فالتقدير: إن تبقهم على كفرهم حتى يموتوا وتعذّبهم فإنهم عبادك، وإن تَهدهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذى لا يمتنع عليك ما=

(١) أخرجه النسائى فى المجتبى [١٠١٠]. وقال الألبانى فى صحيح النسائى[٩٦٦]: حسن.

= تريده؛ الحكيم فيما تفعله؛ تضل من تشاء وتهدى من تشاء. وقد قرأ جماعة: «فإنك أنت الغفور الرحيم» وليست من المصحف . ذكره القاضى عياض فى كتاب «الشفا». .

وقال أبو بكر الأنبارى: وقد طعن على القرآن من قال إن قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ليس بمشاكل لقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ﴾؛ لأن الذى يشاكل المغفرة فإنك أنت الغفور الرحيم والجواب أنه لا يحتمل إلا ما أنزله الله،ومتى نقل إلى الذى نقله إليه ضَعُف معناه ؛ فإنه ينفرد الغفور الرحيم بالشرط الثانى، فلا يكون له بالشرط الأول تعلّق، وهو على ما أنزله الله عز وجل ، واجتمع على قراءته المسلمون مَقْرُون بالشرطين كليهما أولهما وآخرهما؛ إذ تلخيصه إن تعذبهم فإنك أنت عزيز حكيم ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم فى الأمرين كليهما من التعذيب والغفران ، فكان العزيز الحكيم أليق بهذا المكان لعمومه؛ فإنه يجمع الشرطين ، ولم يصلح الغفور الرحيم؛ إذ لم يحتمل من العموم ما احتمله العزيز الحكيم، وما شهد بتعظيم الله تعالى وعدله والثناء عليه فى الآية كلها والشرطان المذكوران أولى وأثبت معنى فى الآية مما يصلح لبعض الكلام دون بعض. خرج مسلم (١) من غير طريق عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أن النبىّ ﷺ تلا قوله عز وجل فى إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨] فرفع يديه وقال: «اللهم أمتى» وبكى فقال الله عز وجل: «يا جبريل، اذهب إلى محمد وربُّك أعلم فَسلْه ما يبكيك» فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم فقال الله: «يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك فى أمتك ولا نَسوءك ». وقال بعضهم : فى الآية تقديم وتأخير، ومعناه: إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وإن تغفر لهم فإنهم عبادك، ووجه الكلام على نَسَقه أولى لما بيّناه. وبالله التوفيق.

[تفسير القرطبى ٦/ ٣٧٧- ٣٧٩]

(١) أخرجه مسلم [٢٠٢/ ٣٤٦] بلفظ : « اللهم أمتى أمتى» بدلاً من : «اللهم أمتى».

دون الله، فكيف يطلب لهم عيسى المغفرة فى هذة الآية؟! ونقول: إن عيسى عليه السلام لم يقل: يارب اغفر لهم، ولكن؛ قال مجيبا ربَّه: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ لقد فوَّض عيسى الأمر لربه عز وجـل، وهو كرسـول من عند الله تعالى يعلم أن رحمة الله سبـحانه وتعـالى سبقت غضبه [1]، وأنّ له طلاقة القدرة.

ونحن نعرف أن كل خلق الله هم عبيد لله، لكنَّ المطيعين لله عز وجل والمؤمنين به خاصة.، هم عباد الله سبحانه وتعالى. فالخلق نوعان: عباد لله ذهبوا إليه إيماناً ومحبة وطاعة، والنوع الثانى هم العبيد الذين يُقهَرون لقاهرية سيدهم ،وحتى الكافر لم يكفر رغما عن الله؛ بل كفر بما آتاه الله من قدرة اختيار فى أن يفعل أو لا يفـعل، وكـان الحق قادرا على أن يخلق خلقا لا يعصون الله سبحانه وتعالى ما أمـرهم ويفعـلون ما يأمرهـم به صاحب الأمر والنهى، وقد فعل الحق ذلك مع الملائكة،لكن قدرة الله تثبت صفة من صفات الله وهى القهر، ولا تثبت صفة المحبة؛ فالمحبة تأتى من أن يكون المخلوق مختاراً أن يؤمن أو أن يكفر ، ثم يختار الإيمان، إنّه بذلك آمن محبة واختياراً، وهكذا يريد الله عز وجل بخلقه المؤمنين به، فكل الوجود ما عدا الإنس والجن مقهور ولا يقدر على المعصية فالشمس والقمر والمطر والهواء والسحاب وكل ما فى الكون مقهور لله القهار.

إذن.. فلـو أراد الله -جلَّـت قدرته - خلقـاً مقهـورين على الإيمان به ما استطاع أحد من خلقه أن يكفر به، ولكن الحق أراد أن يثبت صفة

(١) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول ﷺ يقول: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتى سبقت غضبى، فهو مكتوب عنده فوق العرش». أخرجه البخارى [٧٥٥٤]واللفظ له، ومسلم [٢٧٥١].

القهر فيما دون الإنس والجن، أما الإنس والجن فقد خلقهم الله مختارين بين الكفر والإيمان، حتى يأتى بعض من العباد؛ ليصنعوا ما يحبه الله ويرضاه ويتّبعوا منهج الله، فيجازيهم الله الجزاء الحسن، ويأتى فريق آخر فيكفرون بالله ويرفضون منهجه ـ بمحض اختيارهم - فأولئك لهم الجزاء السيئ حسب عملهم. وهناك فريق آخر ليس عليه تكليف؛ إذ إن التكليف للعباد لا يتم إلا بوجود ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يوجد العقل.

والشرط الثانى: أن يكون العقل فى تمام النضج وهو الرشد.

والشرط الثالث :ألا تكون هناك قوة أعلى من الإنسان تهدد حياته وتقهره على فعلٍ ما.

وهكذا نعلم أن هناك ثلاثة يخرجون من دائرة التكليف؛ وهم: المجنون،ومن لم يبلغ الحلم، والمكره. والحق قد أعطى مع التكليف الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، وبذلك ليس لك عند الله سبحانه وتعالى حجة أيها الإنسان، ومن دخل التكليف طائعاً فهو من عباد الله سبحانه وتعالى، ومن عصى الله وخرج عن التكليف فهو من العبيد المقهورين فى كل شىء فيما عدا الاختيار. إذن.. فالعباد هم الذين دخلوا العبودية بأن وازنوا بين الإيمان ونقيضه الكفر .أى بين المراد لله عز وجل وغير المراد لله سبحانه وتعالى.

فكيف إذن يقول عيسى ابن مريم عليه السلام، رغم علمه بكفرهم: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾؟ نقول: إن معنى العباد والعبيد - الذى شرحناه سابقا - هو وضع الإنسان فى الدنيا، لكن لنا أن نعرف أن هذا الحوار الذى نقرؤه بين عيسى عليه السلام وبين الحق سبحانه وتعالى يكون

فى الآخرة، وكلنا فى الآخرة عباد مقهورون،وعندما نستقرئ كلمة «عباد» فى القرآن، نجد أن العباد هم الصفوة المختارة التى اختارت مراد الله فوق اختيارهم فاستوت مع المقهور تمامًا. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

إنه يأتى هنا بالخصال الجميلة لهذه الصفوة من العباد، والشيطان نفسه يعلن عدم استطاعته إغواء العباد المخلصين: ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾

أما فى الآخرة فكلنا عباد فها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يخاطب الذين أضلوا غيرهم: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧]. إن الكل عباد لله عز وجل يوم القيامة، والكل ينفذ مراد الله سبحانه وتعالى ولا ولاية لأحد على أى شيء حتى أبعاضه، فالعين التى كانت مسخرة للعبد فى الدنيا تأتمر بأمر العبد فيختار أن يرى بها الحلال أو يرى بها الحرام؛ هذه العين تسترد حريتها من صاحبها فلا ولاية له عليها فى اليوم الآخر، وكذلك اليد واللسان والجلد والقدم وكل الأبعاض (١). إن النفس الإنسانية تكون كالقائد لكل الأبعاض والجوارح فى الدنيا تنفذ أوامره سواء بالخير أو بالشر، سواء للطاعة أو للمعصية لكن هذه الأبعاض والجوارح تنطلق يوم القيامة لتشهد على الإنسان فى كل ما فعل(٢)، فليس لأحد مراد

---

(١) إشارة إلى قول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ٢١].

(٢) قال السيوطى: وأخرج الحكيم الترمذى في نوادر الأصول وابن مردويه عن أبى أمامة سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنى لأعلم آخر رجل من أمتى يجوز الصراط، رجل يتلوى على الصراط كالغلام حين يضربه أبوه. تزل يده مرة فتصيبها النار، وتزل=

غير مراد الله: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦]. لقد انتهت مرادات البشر وبقى مراد الله فصار الكل عبادًا لله عز وجل ، وعلى هذا فليس هناك إشكال فى قول الله سبحانه: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ .

ونعلم أيضا أن كلمة «عبيد» تشملنا كلنا فيما نحن غير مخيّرين فيه مثل إدارة التنفس، أو ميعاد الميلاد ، أو ميعاد الموت، ولكنَّ المؤمنين يرتقون، بعبوديتهم (١) لله بتنفيذ منهجه وطاعته. أما الكافرون فهم يعصون الله بما لهم من اختيار ويسيرون فى درب العصيان على معاندة منهج الله سبحانه وتعالى، وحتى يثبت الحق سبحانه وتعالى لنا جميعاً أنهم فى قبضته وإن كفروا، فإنه يصيبهم بالمرض والفاقة والآلام النفسية العميقة؛ ولا يجرؤ واحدٌ منهم أن يعارض مراد الله فى هذه الأحداث التى يجريها عليهم ، وقد يستدرجهم بالغنى والجاه والسلطان ويكون ذلك عذاباً لهم؛ ولذلك

= رجله مرة فتصيبها النار، فتقول له الملائكة: أرأيت إن بعثك الله من مقامك هذا فمشيت سوياً أتخبرنا بكل عمل عملته ؟ فيقول: أي وعزته لا أكتمكم من عملى شيئاً فيقولون له :قم فامش سويًا. فيقوم فيمشى حتى يجاوز الصراط فيقولون له : أخبرنا بأعمالك التى عملت فيقول فى نفسه :إن أخبرتهم بما عملت ردونى إلى مكانى ، فيقول : لا وعزته ما عملت ذنباً قط فيقولون: إنَّ لنا عليك بينة ، فيلتفت يميناً وشمالاً هل يرى من الآدميين ممن كان يشهد فى الدنيا أحداً . فلا يراه فيقول (هاتوا بينتكم فيختم الله على فيه فتنطق يداه ورجلاه وجلده بعمله فيقول: أى وعزتك لقد عملتها وإن عندى العظائم المضرات فيقول :اذهب فقد غفرتها لك» .

[الدر المنثور: ٦/١٦٦].

(١) العبودية: العبودية هى التسليم والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة فى الأوامر والنواهى والشرائع ، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبىّ صدَّقتْ بنبيها ، وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه، وبلغها عن ربها ، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها .

[شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز ٣٤١].

يقول الله: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾ [القلم] ولذلك فالمؤمن يشكر الحق عز وجل باختياره؛ لأن الله عز وجل حماه بأدوات الاختيار وجودًا ونضجًا وعدم إكراه.

وكما قلنا عندما يسأل الله عيسى فى الموقف العظيم، يوم القيامة، عن الذين فتنوا فيه وفى أمه، سيجيب قائلا: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]. وهذا التّذييل لكلمات عيسى ابن مريم عليه السلام لم يأت باعتذار أو طلب الحنان من الله على الذين كفروا بالله، وأشركوا به. فالعزيز الحكيم هو الذى لا يغلب على أمره ولا تسيطر عليه قوة ولا تحمى هؤلاء الناس قوة من دون الله. إنه القادر العزيز إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم بمقتضى عزته وحكمته سبحانه وتعالى. وبعض السطحيّين قالوا تلمّزًا فى القرآن: ألم يكن الأجدر أن يقول عيسى: إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، ونرد على هؤلاء السطحيين فنقول : إن كل كلمة فى القرآن تأتى فى مكانها بالضبط ولا تحل مكانها كلمة أخرى؛ لأنه كلام الله وإلا اختلف المعنى المراد .ولذلك جاء التذييل فى هذه الآية دالاً على إعجاز القرآن الكريم.

والموقف عصيب يوم القيامة فلا ينفع المال ولا الجاه إنما الذى ينفع هو الصدق، والعمل الصالح؛ ولذلك يقول الحق: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩] ، فالصدق ينفع أصحابه يوم القيامة ولما كان عيسى عليه السلام صادقاً مع ربه فيما أمر. ، فإنه سيجيب على سؤال ربه قائلا: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ ، ولذلك يقول الله: ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ وكيف ينفعهم ذلك الصدق ؟إنهم ينعمون ويفوزون برضا الله عنهم ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي

﴿ مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

وإن تساءل إنسان كيف يرضى العبد عن ربه ؟نقول: إن العباد المؤمنين عندما يعاينون الجزاء المعد لهم فى الآخرة يمتلئون بالحبور والسرور (١) والفرحة ويقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ [الزمر: ٧٤].

ويذيّل الحق الآية التى تتحدث عن يوم ينفع الصادقين صدقهم بقوله: ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾؛ والفوز فوزان: فوز عظيم وفوز سطحى، والفوز السطحى هو ما يعطيه الإنسان لنفسه فى دار التكليف من متعة قصيرة العمر والأجلّ، فيبدو ظاهريا كأنه قد فاز لكنه فى الحقيقة لم يَفز؛ لأن الندم سيعقبه وأى لذة يعقبها الندم ليست فوزاً. إنّ الدنيا بكل ما فيها من نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوره وهو نعيم مهدّد بشيئين :

الشىء الأول: أن يزول النعيم عن الإنسان، وكثيراً ما رأينا منعَّمين زال عنهم النعيم.

والشىء الثانى: أن يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ونحن نرى ذلك كثيراً.

أما النعيم الذى هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحدٌ ، ولا يقطعه شىء .كما قال تعالى: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢]

---

(١) أخرج البخارى [٦٥٤٨] عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللهﷺ: «إن الله يقولُ لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لَبَّيكَ ربَّنا وسَعْدَيْكَ، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نَرْضَى، وقد أعطيتنا ما لم تُعْط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب وأىُّ شىءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضوانى، فلا أسْخَطُ عليكم بعده أبداً» . أخرجه مسلم [٢٨٢٩].

ويختم الحق سبحانه سورة المائدة بقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]. والسماء والأرض هما ظرف للوجود فلله ملك السموات وما فيهن وملك الأرض وما فيها.

إذن.. فقول الحق: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وإجابة عيسى يوم القيامة عن سؤال ربه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ نفهم منهما: أنه ليس شئ من خلق الله يستطيع أن يخرج عن مرادات الله. أما فى الدنيا فقد جعل الله سبحانه وتعالى أسبابها فى أيدى الناس فإن لكل إنسان من هو أعلى منه، فهناك المسئول عن الطعام والمسئول عن البيت والمسئول عن الثوب، ولكن ليس كل مسئول مَلِكًا؛ لأن الملك هو الذى يملك كل شىء وهذه سنة الله عز وجل فى كونه، لكن فى الآخرة هناك مالك واحد هو مالك يوم الدين.

* لماذا طبع الله على قلوبهم ؟ *

يقول الحق سبحانه: ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ [النساء:١٥٥].

لقد نقضوا كل المواثيق، ونقض الميثاق هو حله[1]؛ لقد كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير حق، وادَّعوا أن قلوبهم غلف لا تسمع للدعوى الإيمانية.

إذن.. قدم الحق سبحانه وتعالى حيثيات، وهذه الحيثيات هى:

أولاً: نقضوا الميثاق، وذلك يستوجب ما يتوعدهم الله به.

وثانياً: كفروا بآيات الله التى أنزلها؛ لتؤيد موسى.

وثالثاً: قتلوا الأنبياء بغير حق.

وقالوا تعليلاً لذلك: ﴿ قلوبنا غلف ﴾؛ أى قلوبهم مغلفة، ومعنى ذلك أنها قلوب مختوم عليها ختم كالغلاف بحيث لا يخرج منها ما فيها، ولا يدخل فيها ما هو خارج منها، إنهم بذلك يريدون الاستدراك على الله، فقالوا: قلوبنا لا يخرج منها ضلال، ولا يدخل فيها إيمان، وقد تقدم مثل لهذا حين قال الحق: ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (٦) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (٧) ﴾ [البقرة].

نقول لهم: هل القلوب خلقت غلفًا، أم خلقت مختومًا عليها بحيث لا يدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال ؟ إن الحق سبحانه الذى ختم على

---

(١) النقض: إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء، وفى الصحاح: النَّقْض نَقْض البناء والحبل والعهد. غيره: النقض ضدُّ الإبرام. نَقَّض نَقْض. والنقض اسم البناء المنقوض إذا هُدِمَ. [لسان العرب: ٧/٢٤٣]

قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ؛ فالختم على القلب حتى لايتعرف على الدليل؛ لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد والختم على السمع والبصر هو الختم على آلات إدراك الدلائل البينات على وجود الحق سبحانه، فمقر العقائد مختوم عليه، وهو القلب،ضربت غشاوة على الآذان وعلى البصر، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء ؟ لا؛ لأنه إذا كان هذا بطبيعة التكوين، فلماذا خَصَّهم الله بذلك التكوين دون غيرهم ؟ والذين اهتدوا لم يكن مختوماً لا على قلوبهم ،ولا على أسماعهم ؛ولا على أبصارهم. لماذا؟

وللرد على هؤلاء نقول :إن الواحد منهم يريد أن يبررّ انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول بأن الله خلقه هكذا؛ ولكنّ هذا قول مزيف وكاذب؛ لأن الواحد منهم إنما يكفر أولاً ،فلما كفر، وانصرف عن الحق تركه الله على حاله، لماذا ؟ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع الله شريكاً تركه الله وشركه(١) .

إذن. . . الختم جاء كنتيجة للكفر والآيتان قدمتا الحيثية، وهى أن الكفر يحدث أولاً، ثم يأتى الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك. وكذلك قول الله تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلاً ﴾ .

إذن. . فالكفر هو الذى يأتى أولاً، ولذلك فالرد على أى إنسان يقول: إن الله لا يهدينى، هو أن الله لا يهدى من كفر به، فإن كفر الإنسان مانع لهدايته.

وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم ﴾. يدفع إلى سؤال هو: لماذا جاءت «ما» هنا؟ بعضهم قال: إن «ما» هنا زائدة. ونقول: ليس فى كلام الله حرفٌ زائدٌ؛ لأن معنى ذلك أن المعنى كان يتم بغير وجوده.

---

(١) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:«قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشركه » .

أخرجه مسلم [٢٩٨٥/٤٦] واللفظ له، وابن ماجة [٤٢٠٢]

إن القرآن هو الكلام المعجز ، وجاء محمد ﷺ ليبلغهم أنه جاء بالقرآن معجزة يعجزون عن محاكاته ، مع أنهم عرب وفصحاء؛ وبما أن المتحدَى دائماً يحاول أن يتصيدَ خطأ ما . وبما أن العرب لم يقل واحد منهم: إن فى القرآن لحناً، فهذا دليل على أن الأسلوب يتفق مع الملكة العربية.

إن قول الحق: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ معناه: بنقضهم الميثاق فعلنا بهم ما صاروا إليه قيل: إن «ما» هنا زائدة، وهى زائدة للتأكيد، ونكرر هنا: إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفًا زائدًا. لقد جاءت «ما» هنا بمعنى واضح؛ فقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾، أى بسبب نقض الميثاق فعلنا بهم ذلك.

لماذا إذن أثار العلماء هذه الضجة ؟ إن ما بعد «الباء» هو السبب فى هذه الضجة، ونحن نعلم أنه يوجد فعل ومصدر للفعل كقولنا: «أعجبنى ضرب السيف» وضَرْب مصدر للفعل «ضَرَبَ» فالذى يعجب هو الضرب، والضرب لا ينبئنا إلا من حدث، فكأنه يقول: «أعجبنى أن يضرب زيد»، أى أن المصدر قد انحل إلى فعل، وقد يقول قائل: «أعجبنى علم زيد بالمسألة» ومعناها: «أعجبنى أن يعلم زيد بالمسألة» ومعناها أيضاً «أعجبنى ما علم زيد من المسألة» و«ما» هنا مصدرية أيضاً .

إذن . . فقول الحق: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ هذا النقض هو مصدر، والمصدر حدث، والحدث لا يأتى إلا من فعل، والنقض معناه أنهم نقضوا الميثاق، وتحللوا منه ،فكأن الحق يقول: فبما نقضوا من حدث فعلنا بهم كذا وكذا، لذلك دخلت «ما» بعد الباء وقبل المصدر ؛لأن المصدر فيه أصل الاشتقاق الفعلى، ويكون المعنى بسبب نقضهم الميثاق وبكذا وكذا طبع الله تعالى على قلوبهم.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، نجد أن الحق لم يقل: «فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم

بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير الحق وقولهم قلوبنا غلف طبع الله على قلوبهم» إن وجود ﴿ بَلْ ﴾ يدلنا على أن هناك أمرًا أضربنا عنه، فنحن نقول: جاءنا زيد بل عمرو أى إن المتكلمين قد أخطؤوا فقالوا : «جاءنا زيد» واستدركوا أنفسهم: فقالوا: «بل عمرو» إنهم قد نفوا مجيء زيد، وأكدوا مجيء عمرو. والحق سبحانه قال : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلاً ﴾ .

كان المقتضى أن يقول الحق بكفرهم وبقتلهم الأنبياء طبع الله على قلوبهم، لكن الله لم يقل ذلك لحكمة بالغة، وحتى نعرف هذه الحكمة فلنبحث عن المقابل لطبع الله على قلوبهم. إن المقابل هو فتح الله على قلوبهم بالهدى.

وجاء قول الحق معبراً تمام التعبير عن موقفهم: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا ﴾.

إن عظمة القرآن أنه يأتى بالمعنى الذى يجب أن تفكر فيه، وأن تتدبَّر كل كلمة فيه، فكأن الله قد قال: فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف لم يفتح الله بالهدى عليهم؛ بل طبع على قلوبهم بالكفر، فلا يؤمنون إلا قليلا.

إذن. . فالله يقدم الأسباب لما صَنَعَه بهم فقدمها هنا بالحيثيات من نقضهم للميثاق وكفرهم بآيات الله وبقتلهم للأنبياء بغير حق، لذلك لم يفتح الله عليهم بالهدى؛ بل طبع الله على قلوبهم بالكفر(١). إن وجود

(١) قال القاسمى فى تفسيره: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾ «ما» مزيدة للتأكيد، أو نكرة تامة، ونقضهم بدل منها. والباء متعلقة بفعل محذوف. أى بسبب نقضهم ميثاقهم الذى أُخذ عليهم ، فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والمسخ وغيرهما من العقوبات النازلة عليهم أو على أعقابهم، ﴿ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى: حججه وبراهينه والمعجزات التى شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام، ﴿ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ ﴾ كزكريا ويحيى=

﴿بَلْ﴾ دليل على أن هناك أمراً قد نفى وأمراً قد تأكد ونجد أن الأمر الذى نفاه الله عنهم أنه لم يفتح عليهم بالهدى والإيمان، والأمر الذى تأكد هو أنه سبحانه قد طبع على قلوبهم بالكفر.

وفى آية أخرى قال عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿وقالوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. إن قلوبهم ليست غلفاً، ولكنْ لعنة الله عليهم وإبعاده لهم وطرده إيّاهم واستغناؤه عنهم، لذلك تركهم لأنفسهم فغلبت عليهم الشهوات.

وقد يقول قائل: لماذا ذَيَّلَ الحق الآية بقوله: ﴿فَلا يُؤْمِنُونَ إلا قَلِيلاً﴾ ؛ ونقول: إن هناك سامعاً للقرآن أو قارئاً له تغلبه الآيات ومن بعد ذلك تستيقظ نفسه وتصحو ، ولا تستيقظ النفس وتصحو إلا إذا نُبِّهت بشيء، إن الحق بقوله: ﴿فَلا يُؤْمِنُونَ إلا قَلِيلاً﴾ هو قول مقصود به عدم إغلاق باب الإيمان على إطلاقه أمام هؤلاء الناس،إنه صيانة الاحتمال وصيانة

= عليهما السلام. ثم ذكر أعظم من ذلك كله وهو إسنادهم عظائمهم إلى الله تعالى فقال: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أى جمع أغلف مُغشاة بأغشية جبلّية لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد ﷺ. كما قال تعالى : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي﴾ أى: فلا ذنب لنا؛ لأن قلوبنا خلقت بعيدة عن فهم ما يقول الأنبياء. وذلك سبب قتلهم ورد قولهم. وهذا بعد أن كانوا يقرّون بهذا النبى الكريم ويشهدون له بالرسالة؛ وبأنه خاتم الأنبياء. فلم تكن قلوبهم؛ فى الأصل غلفاً ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أى ليس كفرهم ، وعدم وصول الحق إلى قلوبهم؛ لكونها غلفاً بحسب الجبلّة. بل الأمر بالعكس حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم؛ لأنه خلقها أولاً على الفطرة متمكنة من اختيار الخير والشر . فلما أعرضوا بما هيأ قلوبهم له من قبول النقص عن الخير، واختاروا الشر باتباع شهواتهم الناشئة من نفوسهم، وتركوا ما تدعو إليه عقولهم، طبع سبحانه عليها فجعلها قاسية محجوبة. ولذا سبب عنه قوله: ﴿فَلا يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً﴾ منهم. كعبد الله بن سلام وأضرابه. أو: إلا إيماناً قليلاً لا يعبأ به لتمرن قلوبهم على الكفر والطغيان.

[تفسير القاسمى : ٥/ ١٦٣٥، ١٦٣٦] بتصرف.

الاحتمال أن يعلن واحد من هؤلاء إيمانه رغم أن الله قال عنهم: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قلوبهم﴾ ؛ إن إيمانه إذن لن يكون أمراً مفاجئا؛ لأحد؛ لأن الحق قال: ﴿فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيماً﴾ [النساء:١٥٦].

قد يقول قائل: ألم يقل الحق من قبل أن «كفرهم» هو سبب من أسباب طبع الله على قلوبهم ؟ وأقول: إياك أن تقول: إن هناك كلمة فى القرآن مكررة؛ لأن الذى يتكلم هو الله سبحانه وتعالى، فهو لا ينسى شيئًا، ولا يكرر من غير داع. فالكفر أيضاً على درجات مرة: يكون الكفر بالله، ومرة يكون الكفر بآيات الله، ومرة ثالثة يكون الكفر بالرسل، ومرة يكون الكفر ببعض النبيين ،ومرة يكون الكفر ببعض الكتب السماوية. إن الكفر أشياء شتى، فالكفر فى الآية السابقة كفر بآيات الله، وكفرهم فى هذه الآية يشرحه قول الحق: ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيماً ﴾. لقد كفر هؤلاء بعيسى عليه السلام وقالوا البهتان على مريم، لقد كفروا إذن بآيات الله، وبرسول من رسل الله ، وهكذا تتعدد أشكال الكفر.

وقول الحق: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ هو عطف على ﴿نَقْضِهِم﴾، وعلى ﴿كُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وعلى ﴿قَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ﴾، وعلى ﴿قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾؛ ونلاحظ أن الحق لم يكرر الباء التى جاءت فى أول الآية السابقة حين قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾، ولم تتكرر الباء فى بقية المعطوفات فى الآية؛ وهذا يدل على أننا أمام مناط الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى، فقد كان يكفى ارتكابهم لأى عمل من هذه الأعمال أن يطبع على قلوبهم، ولكنهم ارتكبوا كل الأعمال المذكورة مجتمعة، ولم يرتكبوا فعلاً واحدًا منها وهذا يدل على أن الله لا يترصّد لعبيده؛ ولكن يستميل العباد إلى الإيمان؛ لقد ارتكبوا أربعة أفعال جسيمة: نقضهم للميثاق، وكفرهم بآيات

الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم طبع الله على قلوبنا. ومن رحمة الله أن جعل هذه الأفعال الأربعة جريمة واحدة.

وبعْد ذلك يذكر الحق جريمة أخرى من جرائمهم يقول تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٦].

إن الحق قد ساوى بين قولهم البهتان(١) على مريم وبين كل الأفعال السابقة. لماذا؟ لأنهم اعترضوا على رسالة ونبوة نَبِىٍّ من أولى العزم من الرسل إنه نبى خصّه الله بأشياء، وهذه الأشياء قد تكون ضمن الأسباب التى فتنت بعض الناس فيه، إنه عيسى ابن مريم عليه السلام الذى خلقه الله خلقاً خاصًا، فالله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام من الطين، ونفخ فيه من روحه، فجاء من غير أصول، لا أب، ولا أم، وخلق حواء من أصل واحد هو آدم عليه السلام، بدون أم، وخلق البشر وجعل نسلهم من سلالة من ماء مهين، أما عيسى عليه السلام، فقد خلقه الله، فجاء من أم بدون أب، فكيف تكفرون به ؟!!

وأيضاً أمه مريم البتول عليها السلام، التى عاشت فى كفالة نبى الله زكريا عليه السلام، وكانت خادمة بيت المقدس، وتربت تربية دينية عظيمة،

---

(١) قال ابن كثير: قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أنهم رموها بالزنا، وكذلك قال السدى وجويبر ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو ظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم فجعلوها زانية، وقد حملت بولدها من ذلك.

[تفسير ابن كثير: ١/ ٥٤٣]

وقال أبو إسحاق: البهتان: الباطل الذى يُتحير من بطلانه، وهو من البهت وبهت فلان فلاناً إذا كذب عليه. [لسان العرب: ٤/ ١٢].

وفى الحديث: عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « أتدرون ما الغيبة ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: « ذكرك أخاك بما يكره » قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال: « إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه، فقد بهته ». أخرجه مسلم [٢٥٨٩/ ٧٠]، والنسائى فى الكبرى [١١٥١٨].

كيف تتهمونها بالفاحشة ؟!! إن هذا الاتهام الباطل من أعظم البهتان .إن الحق سبحانه هنا يحدد سبيلين لكفرهم :

الأول : قولهم البهتان على مريم ، وهو كفر بالله.

الثانى : كفرهم بعيسى عليه السلام ، الذى ولد بغير طريقة الميلاد العادية؛ رغم أن هذا تكريم له ، وتقريع لليهود الذين غرقوا فى المادية ، حتى إنهم قالوا : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣] .

وعندما رزقهم الله برزق غيبى لا يعرفون أسبابه، كما رزقهم بالمن والسلوى، قالوا لهذا الرزق : لا، نحن نريد أن نزرع نباتًا لينمو من الأرض ولا ننتظر الغيب؛ لأن الغيب قد يضنّ علينا وذلك قوله تعالى: ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١] .إنهم لا يثقون بما فى يد الله ويريدون الأمر المادى.

لذلك يلفتهم الحق سبحانه وتعالى بلفتة قسرية، ويأتى بأمر يناقض قانون المادة من أساسه، وهو ميلاد عيسى عليه السلام؛ إن البشر فى مجيئهم المادى إلى الدنيا يأتى الواحد منهم من أب وأم، ولكن الحق سبحانه وتعالى فى خلق عيسى عليه السلام جاء به من أم دون أب، وبذلك انتقضت المادية، ذلك أنهم ماديّون ،وغفلوا عن الخلق الأول.

إذن. . فلماذا الفتنة فى عيسى عليه السلام ؟ لقد صنع ميلاد عيسى ابن مريم هزّةً لليهود الماديّين، ونقض أمامهم الأساس التقليدى لمجىء الإنسان إلى الدنيا بأصل واحد وهو الأم، فالله سبحانه يثبت بذلك طلاقة القدرة، الحق سبحانه وتعالى إنما جعل الأسباب للبشر، فإن أراد البشر شيئاً فعليهم أن يأخذوا بالأسباب، ولكنه سبحانه وتعالى حين يريد شيئاً فإنه يكون بلا أسباب فهو سبحانه الذى خلق كل الأسباب.

ولذلك قلنا قديماً : إن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء.

إما أن ينشأ الشيء من وجود الشيئين، هذه هى الصورة الأولى.

وإما أن ينشأ الشيء من غير وجود الشيئين، وهذه الصورة الثانية.

وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الأول، وعدم وجود الشيء الثانى وهذه هى الصورة الثالثة.

وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الثانى وعدم وجود الشيء الأول وهذه هى الصورة الرابعة.

تلك هى الصور الأربع لوجود شيء ما، ولم يشأ الله أن يجعل الخلق وهو الإنسان المكرم الذى سخّر له الحقُّ كلَّ الكون على نحو واحد، لماذا ؟ حتى لا يقولنَّ أحد إن السببية مشروطة الوجود، ولكن لنعرف أن إرادة الله هى الشرط فى الوجود، بدليل أنه سبحانه قد خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، وخلقنا نحن من أب وأم، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب، وخلق حواء من أب دون أم، هذه هى القسمة العقلية الواضحة، فليست المسألة توفُّر الأسباب للوجود، ولكن المسألة إرادة الخالق جل وعلا.

ونحن نرى أيضاً قدرة الحق حينما تكون الأسباب موجودة كالأب والأم، ولكن يشاء الحق أن يكون الاثنان عقيمين. وذلك قول الحق سبحانه: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ [الشورى: ٥٠].

إذن.. فليست المسألة مدار أسباب توجد؛ بل مسبِّب يريد أن يوجِد، ولقد أراد الحق أن يكون مجيء عيسى عليه السلام بهذه الصورة؛ ليلفت بنى إسرائيل لعلهم يخرجون من ماديتهم، ويثبت لهم طلاقة قدرته. ولكن اليهود استقبلوا هذه المسألة استقبالاً على غير ما كان يجب عليهم.

تم

فهرس موضوعات المجلد الخامس

نبيّ اللهّ عيسى عليه السلام